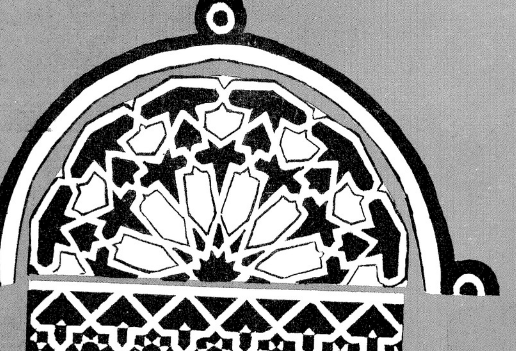
دكتور حمدنا الله مصطفى حسن

التطور الاقتصادي والاجتماعي في السودان ١٨٤١ - ١٨٨١







دار المعارف

التطور الاقتصادى والاجتماعى فى السودان
١٨٤١ ـ ١٨٨١

دكتور حمدنا الله مصطفى حسن
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

الطبعة الأولى
١٩٨٥

دار المعارف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.م.ع

إهـــــداء

إلى الأبوين الكريمين ...

عرفانا ووفاءً وبرا ...

المحتـــويات

المقـدمة

فى السنوات الأخيرة بدأ سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحـديث بكلية الآداب جامعة عين شمس ينهج نهجـا جديدا فى دراسـة التاريخ الحديث والمعاصر من خلال قيام أبنائه ، وبتوجيه من رواده ، الى إعطاء مزيد من الاهتمـام للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى وغيره من جوانب التاريخ الأخرى والمتنوعة دونما الإغراق فى التاريخ السياسى الذى ظل لسنوات طويلة خلت صاحب القدح المعلى ٠

لذلك فقد آثرت ، جريا على هذا المنوال ، أن تـكون دراستى عن التطور الاقتصادى والاجتماعى للسـودان بين عامى ١٨٤١ ، ١٨٨١ ٠ ولقد شكل العامان ـ اللذان بدأت بهما الدراسـة واختتمتها ـ أحداثا اقتصادية واجتماعية هامة وان بدت ـ للمولعين بالتاريخ السياسى ـ غير ذلك ٠ فقد شهد العـام الأول بداية سـيل منهمر من التجار والمغامرين الأجانب نحو السودان ، مستظلين بمعاهدة لندن عام ١٨٤١ التى كانت تنص على تنفيذ معاهدة بلطة ليمان عام ١٨٣٨ المبرمة بين الدولة العثمانية وانجلترا ، وكانت المعاهدة الأخيرة تحوى بندا هاما ، وبالتحـديد البنـد الثانى الذى ينص على ضرورة السماح للدول الأجنبية بالإتجار فى أملاك الدولة العثمانية ومنها مصر والسودان أيضا ، ذلك لأن السودان أصبح بمقتضى فرمانى ٢٣ مايو وأول يونيـة عـام ١٨٤١ يحـكم بواسـطة محمد على ٠ وهذا يعنى سريان المعاهدات التى أبرمتها الدول مع الدولة العثمانية ٠ كـذلك فإن عـام ١٨٤١ كان ذا مغزى إقتصـادى فى مصر والسودان ، فمصر كانت خارجة لتوها من أحـداث الشام وما أعقبها من تدهور مالى للبـلاد ، لذلك فلا عجب أن نشهد وثائق القلعة ـ بالذات ـ فى هذا العـام تفيض بالمراسلات بين محمـد على والقائمين على شئون السودان فى كيفية زيادة موارد البلاد ٠ بالاضافة إلى ما شهده السودان

فى هذا العــام من استمرار حمــلات سليم قبطان فى النيل الأبيض لفتح آفاق جديدة للتجارة السودانية • أما عام ١٨٨١ الذى شهد بداية الثورة المهدية فى السودان ، فقد كان نتيجة طبيعية ومنطقية لأحداث اقتصادية واجتماعية فى البلاد وأعنى بها تجارة الرقيق ذات الأبعاد الإقتصــادية والاجتماعية ، كما شهد هذا العام أيضا تدهورا خطيرا لمالية الســودان كانت مواكبة ، الى حد بعيد ، لتلك التى جرت فى مصر • ولعل تقــرير رءوف باشا ــ حكمدار السودان ــ الذى قدمه فى ٢٨ مايو ١٨٨٠ ثم ميزانية السودان عام ١٨٨١ يؤيدا تماما ما ذهبنا إليــه ويقيما البرهان ســاطعا •

وينبغى أن أشــير الى أننى حاولت ــ قدر المستطاع ــ أن أتوخى المنهج العلمى مقرونا بأمانته فى عرض هذه الدراســة ، طارحا الأهــواء الشخصية التى لا تتفق والبحث العلمى •• كان سبيلى فى هذا المنهــاج أن أترك الوثائق لتروى الوقائع • ولذلك فقد حفلت الدراســة بكثير من نصوصها الأصلية • ليس معنى ذلك أننى وقفت منهــا موقف المتفــرج بل تدخلت بالتعليق عليها حينا ثم بالتحليل حينا آخر فى محــاولة للخروج بنتائج جــديدة •

وقد حوت هذه الدراسة تمهيدا وثمانية فصول • تناولت فى التمهيد أوضاع السودان الاقتصادية والاجتماعية بين عامى ١٨٢١ ، ١٨٤١ مركزا على مســألتى الأرض ونشأة المــدن وما صحبهما من تطور اقتصــادى واجتماعى •

وفى الفصل الأول عرضت للتطورات الزراعية التى مر بهــا السودان من حيث الأرض ووسائل الإنتاج الزراعى • وفى الفصل الثانى ناقشــت موضوع الثروة المعدنية والصناعة من خلال البحث عن المعادن ، والحديث عن أهم الصناعات والحرف التى كانت منتشرة ثم البحث عن العوامل التى أدت الى تأخر قيام صناعة سودانية • أما الفصــل الثالث فقد تنــاول

التجارة والمواصـــلات • وأمام الصلة العضوية والمنهجية بين موضوعاته عمدت الى تقسيمه إلى ثلاثة أقسام : الأول وتتنـــاول التجارة الداخلية فى أقاليم الســـودان المختلفة من جنوبه الى وسطه وشـــماله ومن شرقه الى غربه ، عارضـــا لأهم مراكز الســـودان التجارية وما كان يتميز به كل واحد منها ، كذلك فقد عرضت للتجارة الأجنبية فى الســـودان مبينا مراميها القريبة والبعيدة وما انتهت اليه •

وقد اقتضت الدراسة أن أعرض لموضوع التجـــارة مع مصر ضمن التجارة الداخلية ، اذ لم يكن المسئولون حينذاك يفرقون بينهما ، فقـــد كانتا تسيران وفقا للأوامر ولوائح متشابهة •

والقسم الثانى خصص للتجارة الخارجية مع الحبشة وبلاد شـــبه الجزيرة العربيـــة وما جاورها ومع شمال وغرب أفريقيا ، أما القســـم الثالث فكان خاصا بالمواصلات على اختلاف أنواعهـــا من برية ونيليـــة وبحرية • وفى الفصل الرابع عرضت للتطور الضرائبى والمالى فى السودان والى أى مدى كان هذا التطور مسئولا عما حدث عام ١٨٨١ وما قبله • وفى الفصلين الخامس والسادس درست المجتمع الســـودانى من حيث تركيبه السكانى والقبلى وعاداته وتقاليده ، مبينا التنوع الشـــديد بين سكانه من خلال الأصول العرقية ، الأمر الذى أفرز عادات وتقاليد متباينة أيضا • ولم أستطع أن أغض الطرف عن دراســـة بناء القبيلة السودانى والذى كان سمة أساسية لهذا المجتمع • وفى الفصلين الأخيرين ــ السابع والثامن ــ عرضت للطرق الصـــوفية ثم التعليم والثقـــافة حيث انتشرت الطرق فى طول البـــلاد وعرضها ومارست دورها الدينى والاجتمـــاعى ، تاركة آثارا جلية على ثقافة المواطن السودانى وحياته الاجتماعية ، كما بينت فى الدراسة الى أى مدى كانت هـــذه الطرق مركزا تجمع حـــوله السودانيون من كل عرق ، بحيث يمكن القول دون تردد إنهـــا قد لعبت دورا أقرب ما يكون الى الدور الذى تلعبه الأحزاب فى أوربا •

أما الجانب التعليمى فقد غلب عليه الطابع الدينى حيث انتشرت الخلاوى فى أرجاء البلاد تؤدى دورها من خلال عمليات الدعم سواء أكان نقودا أو أراض أو حتى فى صورة حبوب •

وقد بنيت أسس هذه الدراسة على ركام ضخم من الوثائق ضمته خزائن دار الوثائق والمحفوظات ، وتنوع بتنوع دواوين الحكومة ومصالحها فى القرن التاسع عشر ، بالاضافة الى وثائق الخارجية البريطانية والخارجية الأمريكية والخارجية الفرنسية أو ما يعرف بالأرشيف الأوربى بدار الوثائق القومية بالقلعة • كما اعتمدت هذه الدراسة على كثير من الوثائق المنشورة وكتابات الرحالة ، والدوريات المعاصرة للأحداث والدراسات العربية والأجنبية مما هو مسجل بثبت المصادر •

وفى الختام أجد من الأمانة العلمية أن أقدم الشكر خالصا والثناء عاطرا الى كل الهيئات العلمية التى وفرت لهذه الدراسة ولصاحبها كل سبل الرعاية ، وعلى رأسها دار الوثائق القومية بالقلعة — من خلال القائمين عليها — فقد عشت بينهم سنوات طويلة لم يبخلوا فيها بشىء ، وكذلك مكتبات دار الكتب المصرية والجامعات المصرية ، والجمعية الجغرافية والجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وجميع مراكز البحوث التى أعانتنى على إخراج هذا العمل • كما لا يفوتنى أن أشيد بالمناخ العلمى الرفيع الذى أحاطنى به سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة عين شمس • ومن واجب العرفان أن أشكر أخى الدكتور أحمد زكريا ، على تشجيعه وعونه لى • كما اننى أخص بالثناء استاذى العزيز الدكتور عبد الخالق لاشين الذى غمرنى بفيض من علمه الغزير ، الأمر الذى يجعل قلمى عاجزا عن صياغة ما يكنه قلبى له ، فقد استمعت إليه كثيرا كما كتب إلى وهو فى الخارج أكثر ، موجها ومرشدا وناصحا •

أما استاذى الكريم الاستاذ الدكتور عبد العزيز نوار استاذ التاريخ الحديث بكليتنا والمشرف على السمنار ومدير مركز بحوث الشرق الأوسط ، فقد أسبغ على هذه الدراسة وصاحبها كل رعايته وعلمه وكرمه .. فقـد فتح لى كل الأبواب وذلل كثيرا من عثرات البحث فأضاء لى الطـريق باستاذيته وريادته ، فجزاه الله عنى خير الجزاء .

وأخيرا فإننى أرجـو أن أكون قـد وفقت فى الإجـابة على بعض التساؤلات ـ التى تطرحها مثل هذه الدراسة ـ من خلال النتائج التى توصلت اليها أو القضايا التى طرحت من خلالها .

واللـه ولى التوفيـق

دكتور حمدنا الله مصطفى حسن

القاهرة ، حدائق القبة . فى أغسطس ١٩٨٤

تمهيـــــــد

تطور السودان الاقتصادى والاجتماعى

١٨٢١ ــ ١٨٤١

ــ الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية قبيل عام ١٨٢١

(أ) الملكية الزراعيـــة .

(ب) النشـــاط التجـــارى .

(جـ) نظام البداوة وآثاره الاجتماعية .

(د) دخـــول الطرق الصوفية .

ــ التطورات الاقتصادية والاجتماعية بين عامى ١٨٢١ ، ١٨٤١

(أ) السياسة الاقتصـــادية .

(ب) الأوضاع الزراعية والتجارية والصناعية وتطورها .

(جـ) إنشاء المـــدن :

١ ــ مدينة دنقله الأوردى (دنقلة الجديدة) .

٢ ــ مدينة الخرطـــوم .

٣ ــ مدينة محمـــد على .

٤ ــ مدينة كســـلا .

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية قبيل عام ١٨٢١ :

قد يكون من المفيد بداية أن نشير ، بشكل مركز ودون الولوج فى تفصيلات ، الى بعض القضايا المتعلقة بالنشاط الاقتصادى فى تلك المرحلة حتى يمكننا ادراك مدى التغيير الذى طرأ على هذا النشاط فى « المرحلة المصرية » التى بدأت بعام ١٨٢١ • ومن بين تلك القضايا التى تطرح نفسها وتنتظر الاجابة قضية الأرض أو نظام ملكية الأرض زمن السلطنة السنارية • ففى النوبة السفلى حيث كانت السيادة للكشاف الأتراك ، باستثناء دنقله ، خضعت الأرض لنظام الدولة العثمانية الاقتصادى الذى ينص ، بين ما ينص ، على أن الأرض ملك للسلطان وليس للفلاح سوى حق الإنتفاع بالأرض التى يعمل بها لقاء ضريبة معينة للكاشف الذى تقع هذه الأرض ضمن دائرة نفوذه (١) • وأما دنقله فقد كانت خاضعة للسيادة السنارية ولنظامها الاقتصادى الذى تقوم فيه ملكية الأرض على النظام القبلى الذ كان سائدا فىالنوبة العليا • وفحوى هذا النظام ــ الذى نشأ وسط تلك الممالك والمشيخات الصغيرة مثل الشايقية ، والمناصير ، والرباطاب ، والميرفاب والجعليين ــ أنه كان قائما على انقاض الممالك والدويلات المسيحية أو الوثنية التى كان نظام ملكية الأرض فيها يستند أساسا على النظام الإقطاعى المطلق ، حيث كان رئيس الدولة أو الملكة هو المالك لجميع الأراضى فيما عدا الأراضى الموقوفة على المعابد ، والأهالى فى عداد العبيد يعملون فيها لمصلحة الحاكم أو رئيس المعبد أو من ينوب عنهما (٢) •

وما أن أتت الهجرات العربية الى السودان وحدث شىء من التطور فى حياة المجتمع أصبحت الأرض توزع على الجماعة ويقوم أفرادها

---

(١) بوركهارت : رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان : ترجمة فؤاد اندراوس • ص ٨ •

(٢) الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر الى القرن التاسع عشر • ص ٥١ •

باستغلالها ودفع « الجعل » المعين لشيخ القبيلة أو زعيم الدار ، ويعتبر ذلك تطورا من النظام الإقطاعى المطلق إلى نظام يعطى الفـرد نصيبا من جهده فى الأرض بعد أن يتناول الزعيم أو الشيخ الاتاوة المقررة (١) . وقد ظل هذا النظـام سـائدا بين تلك المشيخات والممالك العربية عقب إنضوائها تحت الزعامة السنارية ، حيث كان الزعيم القبلى أو الشـيخ المحلى يقوم بتوزيع الأرض على أفراد رعيته كل حسب امكاناته وقدراته على العمل الزراعى ، فى مقابل ضريبة عينية شملت الرقيق بالاضـافة الى الخدمة البيتية . وكان الزعيم القبلى يبعث من جانبه جـزأ من هـذه الضريبة الى زعيم الدار الذى يقوم بدوره بارسـال جزء منها الى سلطان سـنار (٢) .

وفى حوض النيل الأزرق وأرض الجزيرة كان يسود نظام الاقطاع ، ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من هذه الاقطاعات فى الأراضى التى خضعت خضوعا مباشرا للفونج ، الأول ويسمى بالإقطاع العسكرى الذى خصص لقادة الجيش ليكون معاشه ومعاش جنوده منها ، فلم تكن لهم مرتبـات ثابتـة (٣) . وكان هؤلاء القـادة العسكريون زمن السلطنة السـنارية يقطنون مقاطعة « بروم » حيث خصصت لهم بعض الاقطـاعات يعيشون عليها ، بالاضـافة الى جزء من غنائم الغارات التى كانوا يشنوها ضد الزنوج (٤) . والنـوع الثانى من الاقطاعات يمكن تسميته بالإقطـاعات الدينية ، فقد حرص ملوك الفونج على تدعيم ملكهم دينيا وثقافيا فأظهروا احترامهم لعلماء المسـلمين ، وهيأوا للمتصوفة مناخا طيبا فى البـلاد

---

(١) الشاطر بصيلى : نفس المرجع . ص ٥١ ، انظر أيضا : نسيم مقار : أحوال السودان الاقتصادية قبيل الفتح المصرى الأول . ص ٥٦ ، ٧٨ .
(٢) نفس المرجع السابق . ص ٦٤ ، ص ٦٦ .
(٣) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، الجـزء الثالث . ص ٨ .
(٤) Cailliauld; Voyage a Méroé, au Fleuve Blanc, au dela de Fazogl dans Le midi du Royaume de Sennar, à Syouah et dans cinq autres Oasis, 1819-22. Tome II, pp. 291-292.

فجــاؤا إلى سنار ــ ومنح هؤلاء العلماء إقطاعات ، ولم تكن السلطنة السنارية ــ فى أعتقادنا ــ تستن سنة جــديدة فى هذا المجــال تجــاه العلماء ، فقد كان رجال الدين دائما فى كل العصــور يلاقون هذه الرعاية ، فهم دائما حلقة الوصــل بين الرعية والحكام ولسوف نشهد شيئا قريبــا من ذلك فى خــلال الادارة المصرية عنــدما راحت تمنح القائمــين على التعليم الدينى أراض معفاة من الضرائب حتى يمكنهم القيــام بالرسالة التعليمية على خير وجه • وقد أعفى سلاطين سنار الإقطاعات الممنوحــة لرجال الدين من الضرائب أو أية التزامات أخرى (١) •

أما النوع الثالث من هذه الإقطاعات فكان خاصا بالأفراد العاديين ، وقام فيه مشايخ القرى بتوزيع الأراضى على المزارعين لقاء ضريبة تحدد حسب المحصول ، وكان هناك مندوبون من طرف السلطان مكلفين بتسوية الحساب مع المشايخ وتسلم مستحقات الملك (٢) •

ولقد كان من حق صاحب الاقطــاع تأجير الأرض وتوريثها من بعده لذريته من الذكور والاناث طبقا للشريعة الاسلامية (٣) • ولكن انتقــال الإقطاع من شخص إلى آخر كان لابد أن يتم بموافقة الســلطة الذى هو المالك الأصلى للأرض وإصدار توثيق بذلك يحمل خاتمه حتى ولو كان صاحب الاقطاع من رجــال الدين الذين منحت لهم الأرض هبــة دون إلتزامات • ذلك ما ورد فى وثيقتين ترجعان إلى أوائل القرن الثامن عشر ، الأولى تمثل عقد للشيخ رحمه بن الشيخ يونس أمين السلطان تقر بتنازله عن قطعة أرض للشيخ يعقوب هبة لوجهالله ، والثانية بتصديق من جانب

---

(1) Arkell : Fung Origins, S.N.R. Vol. XV, 1932, p. 250.

(2) Cailliauld : Op. Cit. pp. 290-91.

(3) Reid : Some notes on the tribes of the White Nile province. S.N.R. Vol. XIII, p. 158.

السلطان على هذا العقد (١) •

وتتمة للفائدة فى موضوع الأرض قبل عام ١٨٢١ نشير الى سياسة سلاطين دارفور تجاهها • فقد وضع السلطان موسى بن السلطان سليمان سولونج أول سلطان من سلاطين الفور سياسة شاملة ازاء الأرض حيث اعتبر كل أراضى السلطنة ملكا خاصا له ، ثم مضى من جاء بعده من السلاطين على هذه السياسة ، يتصرفون فى الأرض كيفما شاءوا بالأخذ والعطاء (٢) •

ويذكر نعوم شقير أن السلطان موسى قد قام — وفقا لهذه السياسة — بتقسيم بلاد الحضر الى « حواكير » أو اقطاعات وزعها على أهله وأخصائه وكبار قومه بحجج مختومة بخاتمه فعاشوا بريعهاهم ومزارعوها ، كما قام بتقسيم قبائل البادية فخص كل قبيلة بأمير من أبناء السلاطين أو بعين من الأعيان تجبى له زكاتها ، وكان المقاديم يجمعون الزكاة من البادية وملوك الجباه يجمعون « الفطرة والعشور » من الحضر ، وربما كان السلطان يتنازل عن نصيبه فى « الحاكورة » فيعطى صاحبها « حجة بالجاه » فلا يقربه أحد من الجباه أو المقاديم • وقد سار على هذا النظام جميع سلاطين دارفور الذين أتوا بعد السلطان موسى حتى انتهاء السلطنة (٣) • ويعلق الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم على ذلك قائلا : صحيح أن هذه السياسة التى وضعها السلطان موسى قد جعلت التصرف فى كل أراضى السلطنة بيد السلطان ، ولكن ينبغى ألا نبالغ فى الأمر بحيث يأخذنا التعميم بعيداً عن الوضع • فقد كانت

(١) Arkell : Op. cit. pp. 248-250.
انظر أيضا نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٣٠١ • وحول هذا الموضوع انظر الدراسة التى أعدها الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم تحت عنوان الفونج والأرض عام ١٩٦٧ •
(٢) محمد ابراهيم أبو سليم : الفور والأرض • ص ٥٦ •
(٣) تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته • الجزء الثانى ص ١٣٦ •

بعض البلاد بعيدة عن قبضة السلطان المباشرة بحكم المسافات أو الأوضاع المحلية أو أن بعضها كان عـديم الفائدة بحيث لا تجعله يقـوم بمباشرة سـلطته فى التصرف (١) .

لقد كانت ملكية السلطان لأراضى السلطنة مطلقة من الناحية النظرية وأيدتها الأعراف ، إلا أن الواقع كان يجـرى حسب الظروف القائمة فى المنطقة . ومن ناحية أخرى كان هناك قانون « دالى » * الذى ينظـم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، كما كانت هناك أيضا الشريعة الاسلامية بمثلها ونظمها وأشراطها والتى كان من المفروض أن يلتزم السـلطان بها فى تعامله وتصرفاته ، خاصة وقد كان احترام التقاليد والعلماء والعـدالة أمورا يحرص الجميع عليهـا ، ولطالما تفاخر السـلاطين فى وثائقهـم بحمايتهم للعدالة ونشر الويتها ، وكانوا إذا حدث نزاع حـول الأرض احتكموا الى القضـاء الذى كان يأخـذ بالشريعة والعرف معا . ومـع ذلك كله فان إحترام العـدالة والملكية أمر معنـوى يتوقف على تصرف السلطان ومدى التزامه الأخـلاقى ، فالسلطان لا سـبيل إلى محاسبته ولا رقابة عليـه (٢) .

ولقد كانت العطايا التى يمنحها السلاطين على ثلاثة أنواع : الأول كان « أمر الرواعيـة » وهـم عربان من كردفان أو الصـباح كمـا تذكر الوثائق ، أو من دارفور ، حيث يعطى السلطان أحد رجاله حق التصرف فى هؤلاء على اعتبار أنهـم رعاة فى مقـابل أن يجد الرعاة حـق المرعى والحمـاية ويقوم هؤلاء برعى حيوانات الموكل من قبل السـلطان مـع القيام بدفع حق السلطنة ، والنوع الثانى من العطـاء يتعلق بالقبـائل

---

(١) الفـور والأرض . ص ٥٧ .

(*) قانون دالى : هو عبارة عن مجموع الأحكام العرفية ، وقد جمعهـا الفور فى كتاب واحد . وكانت تشكل قسما رئيسيا مع القضاء الشرعى الـذى يستند الى الكتابة والسنة .
(انظر نعوم شقير : المصدر السابق . ص ١٨) .

(٢) محمد ابراهيم ابو سليم : المرجع السابق ص ٥٨ .

الرعوية أيضا ولا يقتضى أن تكون القبيلة عربية • ولم يكن هـؤلاء الرعاة يدفعون الكثير من الحبوب ولكن ما يدفعونه من الابل والماشية والسمن كان كثيرا • وفى مقابل ذلك كانت القبيلة تنـال الحماية وحقوق المرعى • كما كانت لصاحب العطاء أيضا مسئولية ادارية تجاه القبيلة • والنـوع الثالث من العطاء هو قطع الأراضى التى تقـدم للأفراد وهو أهمها جميعا وينقسم الى نوعين : نوع يعطى لشخص يزرعه ويستفيد من انتاجه فى معيشته ، وغالبا ما يكون فى شكل قطع صغيرة توصف بأنها هبة أو صدقة ، وأكثرها ما كان يعطى للعلمـاء والفقـراء • والنـوع الآخـر ويسمى « بالحاكورة » وهى قطعة أرض كبير ، يختص السلطان وحده بمنحهـا عن طريق وثيقة تسجل فيها حدودها وكافة الشروط (١) •

ويشير التونسى الى الاقطاعات التى كانت تمنح للأفراد فى دارفور ، ومن بينها الاقطاع الذى منحـه السلطان عبد الرحمن لوالد التونسى • وفيه يتضح تماما خلوه من أية التزامات أو ضرائب حيث كان يحق له أن يتصرف فيه كيفمـا يشاء ، لأنـه على حـد قول الوثيقة « هبة لوجـه الله تعالى » (٢) •

ويذكر التونسى أيضا أنه كان للسلطان أراض خاصة يقوم بزراعتها الأهالى دون مقابل ، كما كان لحكام الأقاليم مزارع خاصـة أيضا يقوم على زراعتها الأرقاء والأهالى (٣) •

ويقترب نظام ملكية الأرض بكردفان وتقلى من ذلك ، فكان أيضـا يقـوم على أسـاس أن جميع الأراضى كانت ملكا للملك الذى يمنحهـا

---

(١) محمد ابراهيم ابو سليم : المرجع السابق • ص ٥٩ وما بعدها •

(٢) تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان • ص ٦٧ ، أنظر أيضا نفس المصدر ص ٦٩ نص الوثيقة التى منح بمقتضاها والد التونسى اقطـاعا بجهـات دارفـور •

(٣) نفس المصدر • ص ١٧٧ •

للأفراد بقصد الاستغلال مقابل جزء من غلتها فى صورة ضريبية (١) .

ذلك ماكان يجرى بالنسبة للأرض الزراعية ، أما فى مجـال التجارة فيمكن القول إن السلطنات الوطنية والمشيخات والممالك التى نشأت فى السودان قبل عام ١٨٢١ قد ارتكز نشاطها الاقتصادى بشكل أسـاسى على التجارة ، وكان زعماؤها من سلاطين وشيوخ ومكوك من أكبر التجار . وقد اشتهرت فى ذاك العصر مدن تجارية عديدة مثل الدر وأبريم ودنقلة وبربر والدامر وشندى فى النوبة ، وسنار والعطبرة وقوز رجب وسواكن فى شرقى السودان ، والأبيض وباره فى كردفان ، والفاشر وكـوبه فى دارفور ، فجميعها كانت مراكز للتجارة . وأهم سلعة كانت تتداول آنذاك وتكاد تكون السلعة الرئيسية لجميع تلك المراكز هى الرقيق الـذى كان يمثل ٣٨٫٨٪ من حجم تجارة دافور وسنار (٢) . وأهم ما يلاحظ على النشاط التجارى آنذاك هو غياب الإدارة المنظمة التى تشرف على أمـور التجارة ، اللهـم إلا اذا استثنينا الضرائب والمكوس التى كانت تفرض على القوافل ، كما ان تلك السلطنات والمشيخات لم تكن تخضع لسياسة تجارية موحـدة ، فليست هنـاك عملة مشتركة بينهـا أو نظـام ثابت للضرائب .

وفيما يتعلق بالحرف فلا نكاد نلمح تطورا ملموسا لها فقد كان جلها آنذاك يدويا بسـيطا ، وكان هذا شيئا طبيعيا لمجتمع حاجاته محـدودة إلى جانب أنه يأنف العمل اليدوى حيث يغلب عليه طابع البداوة .

أما البناء الاجتماعى للسودان فى ذلك الوقت فيمكن القول إنه كان يستند الى قاعدة سكانية متنوعة قوامها القبيلة . فمن بجـاه فى الشرق على ساحل البحر الأحمر الى نوبيين فى الشمال فقبائل عربية على طـول

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق ص ١٦٤ .

(٢) Terence Walz; Trade between Egypt and Bilad AS - Soudan. 1700 - 1820. p. 36.

وانظر ايضا بوركهارت : المصدر السابق . ص ٢١٣ ، ص ٢٥٢ .

النهر وأخـرى متفرقة فى أرجـاء السـودان ، الى مجموعات سكانية زنجية وعربية بدارفور وكردفان ، وزنجية خالصة فى الجنوب •

نظام البداوة وآثاره الاجتماعية :

كان الرعى قبيل ضم السـودان عام ١٨٢١ هـو الحرفة الرئيسية لغالبية سكانه • ويميز البعض بين عدة أنواع للبداوة ، فهناك نوع يومى بين الصباح والمسـاء ، وآخر موسمى • فخلال موسم المطر يهبط الرعاة من الجبال الى السهول بين عطبره والنيل حيث تكثر المراعى ، وفى الصيف يفرون من السهول الجـافة المحرقة الى الجبـال المرتفعة حيث عيـون الميـاه والمرعى • وهنـاك نوع ثالث من تلك الانتقالات أو الهجـرات الجماعية والذى كان يشترك فيه الرعاة والحضر ويسمى بالنجيع والذى يكون تخلصا من الجدب كلما انخفض النيل أو فرارا من وباء الجـدرى الخطـير (١) •

ونظام البداوة هـذا ، كان من أبرز الظواهر البشرية للرعاة حيث تتحرك الجموع الهائلة من الحيوان ، وقبائل بأكملها أو أجـزاء منها ، تتحرك عبر الصحراء والوديان والسهول صاعدة الجبال ومنحـدرة منه ، آمنة متباطئة حينا ، أو وجلة مهرولة حينا آخـر هربا من الخطر ، محدثة من الثغاء والرغاء والصهيل والنباح والصراخ ، منتقلة بخيامها ومشاكلها اليومية المألوفة • فاذا وصلت المهجر تعقد صلات ود وألفـة قد تنتهى بعقد مصاهرات مع سكان المنطقة ، أو ربما تثير خصومة تؤدى الى اراقة الدماء بينهما • وفى كلتا الحالتين تتفق الآراء أو تختلف ، وتتفرق البطون المتحالفة أو يتحالف البعض مع قبائل أخـرى فتضعف بطون وتتقـوى أخرى ، وتبرز قيادات جديدة تغير تاريخ القبيلة •

---

(١) حسين كامل ابو الليف : مرحـلة من مراحل التطـور السـياسى والاجتماعى فى السودان . المجلد الخامس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . ص ٩٧ وما بعدها .

ومن الآثار الاجتماعية التى نجمت عن هذا النظام تفـرق السكان السودانيين الى جماعات صغيرة العدد متركزة فى مواطن متباعدة ، الأمر الذى أدى الى قلة العمران • وأصبحت الهجرة الى أمـد معلوم أو حتى الى غير عودة شيئا مألوفا ، فلم يعرف السودانى ــ آنذاك ــ الالتصاق الشديد بمكان محـدود كما كان الحال لدى فلاحى مصر •

دخـول الطرق الصوفية للسودان :

ومن الظواهر الاجتماعية الملفتة للنظر أيضـا فى تلك الفترة ظاهرة الطرق الصوفية التى بدأت تنمو فى السلطنة السنارية •

لقد هيأ المنـاخ السياسى والثقافى للمجتمع آنذاك أن تتبوأ هـذه الطرق مكانة كبيرة بين أفراد المجتمع ، فقد كانت بمثابة الزاد الفكرى الذى يرتوى منه الرجل العـادى الذى تلقى تعليما بسـيطا ، فلم يكن يستطيع أن يناقش بعض الأمـور أو الظواهر الخارقة ــ وما أكثرها ــ التى كان يبديها بعض شيوخ هـذه الطرق ، وما كان لهـؤلاء الأفراد الا أن يتقبلوا هذه الخـوارق التى لا تقـوى عقولهم على مناقشتها • كذلك فقد ساعدت الأوضاع السياسية على أن تجـد هذه الطرق التربة الملائمة لكى تنمو ، فقد كان السـودان آنذاك مفكك الأوصـال تتنازعه سلطنات وممالك ومشيخات راح كل سلطان و « مك » لها يقنـع بدائرته الضيقة غير ملتفت الى ضرورة خلق كيانات موحـدة ذات حجم كبير ، ومن هنا كانت هذه الطرق الصوفية هى البديل السياسى لكى ينضـوى فى صفوفها كل أبناء المجتمع السودانى من شـماله وجنوبه الى شرقه وغربه ، وتلاقت على باب حلقة شيخ الطريقة ــ على حد قول البعض ــ « نعال الفونج والعرب » [١] •

---

(١) ود ضيف الله : مقـدمة كتاب الطبقـات فى خصـوص الأوليـاء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان • ص ١١٨ •

هـكذا كانت بنية السـودان الاقتصادية والاجتماعية قبيل عـام ١٨٢١ .. اقتصاد متخلف وأوضاع اجتماعية متردية ، تلاها على القمـة وضع سياسى مفكك حتى جاءت رياح الشمال لتسوق اسماعيل كامل لضم هذا الشتات ومحاولة انشاء نظام اقتصادى واجتماعى جديد .

التطورات الاقتصادية والاجتماعية (١٨٢١ ــ ١٨٤١) :

لقد بات من العسير ان يتطور الاقتصاد السودانى فى المرحلة السابقة من الشـكل البدائى ذى الطـابع القبـلى ، طالما كان التفكك السياسى والادارى هو الطابع السائد بين سلطناته ومشيخاته . فلما خضعت البلاد لادارة واحدة منذ عام ١٨٢١ ، أصبح لهذه الادارة الجـديدة سـياسة اقتصادية تستمد نظمها وقوانينها من مثيلتها فى مصر ، وتعتمد أسـاسا على تنمية واستغلال موارد البلاد المتنوعة . وتتضح هذه السياسة حين خاطب محمد على بعض المشـايخ والزعماء السـودانيين قائلا : « إنه لا ينقصكم شىء لكى تتجحـوا فلديكم الأراضى الواسعة ، كما عنـدكم الكثير من الماشية والغـابات الشاسعة ، وشعبكم كثير العـدد كما أن رجالكم أقوياء أشداء ونساءكم كثيرات الولادة . وقد كنتم « لغاية » هذا الوقت بدون مرشد يقودكم ويأخذ بيدكم ولكن ها هو قـد جاءكم هـذا المرشد ، وهـذا المرشد هـو أنا فأطيعونى واعملوا بنصائحى وحسب ارشاداتى وسوف أقودكم الى المدنية وأجلب لكم الرخاء ... إن مصر ليست بالاقليم الواسـع المترامى الأطراف ولكنها بفضل العمل والصناعة وبفضل نشـاط سكانها أصبحت عظيمة وسوف تصبح أغنى من ذى قبل ، وهذا أيضا معروف عن كافة البلاد الأخـرى . وإذا صرفنا النظر عن مشارق السودان ومغاربه واكتفينا بجزيرة سنار لرأينا أنهـا من جهـة الرقعة أكثر من عشرة أضعاف مسـاحة مصر ولكنها تكاد لا تنتج شـيئا لأن سكانها كسالى لا يميلون للعمل . وان الانسـان اذا توانى ولم يسع ، لن ينـال المقصود . ضعوا فى رءوسكم جيدا انكم بدون عمل لا تستطيعوا

أن تحصلوا على شيء .. » [١] .

من بين فقرات هذا الخطاب السابق يمكننا أن نستخلص الخطوط العامة لسياسة محمد على الاقتصادية فى السودان منذ ضمه عام ١٨٢١ والتى تتمثل فى دعوة السودانيين الى استغلال مواردهم الطبيعية والبشرية ، ولفت أنظارهم الى أسس بناء هذا الاقتصاد المتمثل فى الأرض الواسعة والثروة الحيوانية والنباتية ، بالاضافة الى الأيدى العاملة القوية والتى يمكن زيادتها بزيادة النسل ، وأخيرا تكتمل أسس هذا البناء بمجيء المصريين الذين يمثلون الخبرة الجديدة المتطورة التى كانت لها تجربتها القوية والراسخة . لقد ركز الباشا على العمل والصناعة مطالبا الاستفادة من موارد البلاد المحلية ، وكأنه بذلك كله يرسى قاعدة اقتصادية مؤداها ان نهضة أى بلد ، اقتصاديا ، لا يمكن أن تأتى كلية من الخارج بل لابد من تسخير كافة الموارد الداخلية من طبيعية وبشرية لخلق اقتصاد قوى . هكذا كانت سياسة محمد على الاقتصادية فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، وقد لا نسرف القول إن خلصنا إلى أن هذه الأسس والأفكار التى طرحت آنذاك أصبحت — أخيراً — حقائق ثابتة لدى رجال الاقتصاد فى القرن العشرين .

لقد راحت الادارة المصرية تنفذ برنامجها السالف فى كافة المجالات ، ففى مجال الزراعة أمدت مصر السودان بما تحتاجه من الخبراء والفنيين فى شئون الرى والزراعة ، حيث قاموا بشق الترع واقامة الجسور الجديدة فى كافة مديريات السودان [٢] كما أرسلت أعدادا كبيرة من

---

(١) محفظة رقم ٢٢٣ — ملف متفرقات — دوسية بدون تاريخ — السودان ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة ، أنظر أيضا : الدكتور انجلو ساماركو : رحلة محمد على الى السودان تعريب طه فوزى ص ٩ — ١٠ .

(٢) دفتر رقم ٧٦٣ ، ديوان خديوى ، ترجمة الكاتبة التركية رقم ٣٠٨ بتاريخ ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٤٥ هـ . من مأمور ديوان خديوى الى مأمور ميت غمر والسنبلاوين . دار الوثائق القومية بالقلعة ، أنظر أيضا : الوقائع المصرية العدد رقم ١٢ بتاريخ رمضان سنة ١٢٤٤ هـ . ص ١٦ .

« الخولية » إلى سنار لتنفيذ البرامج الزراعية هناك (١) •

ونود أن نشير هنا الى حقيقة هامة وهى أن الجيش المصرى — فى هذه المراحل الأولى لبدء الادارة المصرية فى السودان — قد حمل على كاهله الى جانب مهامه العسكرية ، عبء المشاركة فى الاصلاحات الإقتصادية ، فقد إعتمد محمد على بشكل رئيسى على الجيش ، وكان الحكمدار ، قمة الجهاز الإدارى فى السودان ، ومديرو المديريات وسائر الكتبة — والذين كانوا جميعا من العسكريين — هم القائمين أيضا بالاشراف على تنفيذ البرامج الاقتصادية (٢) •

وقد تفانى هؤلاء الضباط وجنودهم فى تنفيذ تلك البرامج ، فكان على حد قول البعض ، « لا يمضى ستة أشهر على إنشاء معسكر للجنود المصرية فى السودان وإقامتهم فى معسكرهم حتى يكون من المؤكد ظهور الزرع والخضر •• » ، فالمصرى — كما يؤكد أحد الدارسين — ميال بطبيعته لغرس الحدائق والبساتين ، وفى أى مكان يحل فيه يتوقع المرء أن يجد بجواره بستانا (٣) • وكان بعض الضباط يقدمون عروضا لانشاء سواقى فى بعض المديريات كدنقله وبربر ، والبعض الآخر ، كان يأخذ على عاتقه مهمة ابادة جيوش الجراد ، وحفر الآبار وتطهير بعضها (٤) •

هكذا جرت محاولات محمد على فى تنفيذ برنامجه الزراعى لأنه لم يكن يرمى الى اصلاح شىء موجود أصلا ، كما كان الحال فى مصر ، بل كانت محاولاته خلقا جديداً لشىء لم يكن موجوداً من قبل •

---

(١) دفتر رقم ٢٠ ، معية تركى ، ترجمة البيورلدى رقم ٣٢٩ بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٢٤١ هـ • مرسوم • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) حمدنا الله مصطفى : الجيش المصرى ودوره فى الادارة المصرية بالسودان بين عامى ١٨٢٠ — ١٨٤٨ • ماجستير غير منشورة • كلية الآداب جامعة عين شمس • ص ١٦٣ •

(٣) Deherain : Le Soudan Egyptien Sous Mehemet Ali. p. 210.
انظر أيضا : عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية • الجزء الأول •ص ٩١ •

(٤) حمدنا الله مصطفى : المرجع السابق • ص ١٦٤ •

وفى مجال الصناعة لا يمكننا القول بأن السودان قد شهد نشـاطا إقتصاديا فى تلك الفترة القليلة نسبيا ، فقد كان الأمر يتطلب جهودا وامكانات خاصة ومكثفة تؤدى فى آخر المطاف الى خلق صناعة . وكل ما شهدناه فى هذه الفترة عدة محاولات متواضعة للبحث عن المعادن وخاصة الذهب . بالاضافة الى استمرار الصناعات اليدوية البسيطة التى تعتمد على المنتجات الزراعية والحيوانية وغيرها . لقد اصطدمت الصناعة السودانية أساسا بخيبة الأمل فى وجود الثروة المعدنية التى هى أساس بعض الصناعات ، بالاضافة لبعض المعتقدات الاجتماعية التى تحتقر هذا اللون من النشاط الذى كان ، فى نظرهم ، من اختصاص النساء والعبيد (١) .

أما الجانب التجارى فى السنوات الأولى لضم السودان فقد شهد نشاطا ملموسا تمثل فى التطورات السريعة بالنسبة للأوضاع الأمنية التى بدأت تنشرها الادارة المصرية فى ربوع السودان منذ أن توحدت الادارة ، بعد أن كانت التجارة مهددة من جانب قطاع الطرق وخاصة بين مصر والسودان والذين وصفهم بوركهارت وقاسى من هولهم الكثير (٢) . كما بدأت الادارة الجديدة منذ عام ١٨٢١ تعمل على عقد الاتصالات مع جيرانها أمثال سلطان دارفور وملك الحبشة رغبة فى فتح آفاق جديدة للتجارة السودانية واظهارا لروح المودة ، خاصة بعد أن بدأت هذه البلاد تترقب الأوضاع الجارية فى السودان عقب دخول اسماعيل كامل لسنار (٣).

ويلاحظ فى هذه الفترة أيضا قيام حملات نهرية بقيادة الضابط

(١) انظر فصل الثروة المعدنية والصناعة .

(٢) رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان ص ٢١ . أنظر ايضا : امين سامى :تقويم النيل وعصر محمد على باشا ، الجزء الثانى . ص ٣١٨ .

(٣) محفظة رقم ٢٦٥ عابدين — ملف أحمد باشا مأمور السودان ، مرفق بالوثيقة رقم ١٥ مسلسل اصلى . بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

المصرى سليم قبطان متجهة الى الجنوب عن طريق النيل الأبيض ، وبدأت أولى هذه الحملات فى أوائل نوفمبر عام ١٨٣٩ ، والثانية فى ٢٣ نوفمبر عام ١٨٤٠ والثالثة فى سبتمبر عام ١٨٤١ ، وتوغلت هذه الحمـلات حتى خط عرض ٤٢ ٤° شمالا (١) • ومن بين النتائج التى أسفرت عنها هـذه الحملات فتح طريق الملاحة والتجارة فى النيل الأبيض والسودان الجنوبى فاندفع التجار حاملين تجارتهم محاطين بسياج من الأمان •

ومن أهم الأمور التى تلفت الأنظار ان السـودان فى الفترة ما بين ١٨٢١ ، ١٨٢١ يكاد ان يكون مقفلا أمام التجارة العالمية بالذات ، اللهم الا من بعض المغامرين من الرحالة والمستكشفين الذين لم تـكن بغيتهم التجارة فى المقـام الأول ، فقـد احتكر محمد على أهم السلع التى كان ينتجها كالصمغ والعاج والجلود حتى اذا جاء عام ١٨٤١ بدأ الأوربيون فى الالحـاح ، وبشكل مكثف ، لتطبيق معاهدة ١٨٣٨ التجـارية مع الدولة العثمانية ، ومن ثم بدأت مرحلة جديدة فى تطور الاقتصاد السـودانى فى القرن التاسع عشر •

التطورات الاجتمـاعية :

لا نكاد نشعر فى هذه السنوات القليلة بتطورات اجتماعية سريعة من حيث البناء الاجتماعى للسودان وما طرأ على مؤسساته الاجتماعية ، ولكن يمكننا أن نرصد ونسجل ظاهرة اجتماعية هامة فى هذه المرحلة ونعنى بها إنشاء المدن الجديدة فى السودان والتى من أهمها :

---

(١) انجلو ساماركو : رحلة محمد على الى السودان ص ١٢ ، ١٣ •
انظر أيضا : ملخص المجموعة الرسمية للجمعية الجغرافية بفرنسا فى عددها الصادر فى يوليو ١٨٤٢ ، الرحلة الأولى للبحث عن منابع البحر الأبيض (النيل الأبيض) الصادر بها أمر ساكن الجنان محمد على باشـا والى مصر بقيادة ربان الفرقاطة البيكباشى سليم قبودان • (تعريب محمد مسـعود) ص ٨ ، ص ٣٧ •
وانظر ايضا : فرد ريك بنولا : كتاب مصر والجغرافيا • ص ٢٤ •

١ ـ مدينة دنقلة « الأوردى » (دنقلة الجديدة) :

سميت هذه المدينة بدنقلة الجديدة تمييزا لهـا عن دنقلة العجـوز أو القديمة ، كما سميت أيضا بدنقلة « الأوردى » (الجيش) ، ذلك أن جزءا من جيش إسماعيل كامل كان قد أقام معسكرا له فيهـا إبان ضم السودان • وقد حرف هذا الاسم بعد ذلك الى « العرضى » (١) • وقد كانت هذه المدينة بمثابة عاصمة للجزء الشمالى من السودان وعلامة بارزة للجهـود المصرية فى نشر العمران فى هذا الجزء من البلاد • وقد احتلت هذه المدينة فى تلك الفترة مكانة تجارية هامة سـوف نعرض لها فيما بعد ، فقد كان يربطها طريق تجارى الى الفاشر وآخر الى الأبيض (*) •

٢ ـ مدينة الخرطـوم :

تعتبر هذه المدينة من أهم المـدن التى أنشـأتها الادارة المصرية فى السودان وعلى الرغـم من أنهـا خلق مصرى ، الا أن أحـد التجـار الأجانب راح يقرر بأنها مدينة قديمة وأنهـا كانت قبل ضم السـودان لمصر بنصف قرن مدينة عظيمة الى أن هاجمها « الشلك » من سكان النيل الأبيض عام ١٧٧٢ ودمروها حتى جاء المصريون وأعادوا تأسيسها (٢) •

ولكن البعض ينفى تماما ما قرره هذا التاجر ، لأن ذلك يتنافى مـع ما تقرره الخرائط الهامة التى رسمت لأفريقيا وحوض النيل فى السنوات السابقة لسنة ١٧٧٢ ، فقد ظهرت تلك الخرائط وهى خالية من أى مدينـة أو حتى قرية كبيرة فى موضع الخرطوم ، كما أن كتابات « كايو » الذى كان يرافق اسماعيل عند ضم السودان قد خلت من ذكر مدينة أو « حلة »

---

(١) نعوم شقير : المصدر السابق . الجزء الأول . ص ٨٣ — ٨٤ .
(*) عن أهميتها التجارية أنظر فصل التجارة والمواصلات .
(٢) Rollet, B; Le Nile et le Soudan. p. 153.
أنظر أيضـا : أحمد احمد سيد أحمد : تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى ١٨٢٠ — ١٨٨٥ رسـالة دكتوراه غير منشـورة ، بجامعة القاهرة ص ٤٨ ، ٤٩ .

فى موضع الخرطـوم (١) •

وحاول أحـد الباحثين أن يربط بين اسم « الخرطوم » وبين قبيلة « الدينكا » التى تعيش فى جنوب السودان على أساس أن هـذا الاسم يتكون عند تلك القبيلة من مقطعين معناهما معـا (نقطة التقـاء مجريين مائيين) • وهنا تثار عدة تساؤلات حول ما اذا كانت منطقة الخرطـوم وطنا للدينكا قبل مجىء العرب اليهـا وأنهم هـم الذين أعطوها هـذا الاسـم أم لا ؟ (٢) •

واذا ما تتبعنا نشأة وتطور مدينة الخرطوم خلال مرحلة دراسـتنا لوجدنا أنفسنا نبدأ منعام ١٨٢٤ حين وصل عثمان بك (١٨٢٤ — ١٨٢٦) حكمدار السودان الى موضع الخرطوم والذى لم يكن به من آثار الحكومة الجـديدة سوى المعسكر وسوق « القش » • ورغم قصر مـدة حـكم « عثمان بك » فإن عهده قد شهد بداية نشـاط عمرانى فى البلاد تمثل فى قيام مدينة الخرطوم التى نقل اليهـا أقلام الحكومة ومخازنها بعـد أن كانت بود مدنى من قبل • وعمـل عثمان بك على إقامة بعض المنـازل بها للموظفين ، وأكثر من هـذا أعطى للمدينة أهمية تجارية بين سـائر مـدن السـودان (٣) •

وبعد وفاة عثمان بك خلفه محو بك (١٨٢٦) الذى قام بجمع الجنود المصرية وأقام بالخرطوم ، ولـكن مع ذلك وحتى نهـاية عهـده لم تكن الخرطوم قد ظهرت بمظهر المدن • ويرجع الفضـل الأكبر فى تأسيس مدينة الخرطوم الى خورشيد باشا (١٨٢٦ — ١٨٣٨) فقد بدأ فى بنائها

---

(١) Cailliauld; Op. Cit. Tome I. p. 252.

وأنظر أيضا : احمد احمد سيد : المرجع السابق ص ٤٩ •

(٢) احمد احمد سيد : نفس المرجع ص ٥٩ — ٦١ •

(٣) Walkeley; C.F.J. «The Story of the Khartoum, S.N.R. Vol. XVIII, 1935, p. 227.

أنظر ايضا فردريك بنولا : المصدر السابق • ص ١٧ •

حين شرع فى إقامة الجامع فى أواخر عام ١٨٢٩ ، وبعدها بدأ أهــل البلد فى العمارة ، وكان خورشيد يمــدهم بالألواح والأخشاب ، كمــا أعطى أوامره بإزالة « بيوت الشكاب والقطاطى والزرائب » (١) .

وكان السهل الذى اقيمت عليه المدينة يخلو من مواد البناء ، الأمــر الــذى أدى إلى جمــود عمارتها فى تلك الفترة مما دفع خورشــيد الى إصدار أوامره الى الشيخ عبد السلام زعيم المغاربة فى حلة « كوكو » بحفر الآجر من بقــايا مدينة ســوبا القديمة ونقــله على المراكب الى الخرطــوم (٢) .

وهكذا أخــذت الخرطوم تســمو فى مبانيها ودورها وســط أقاليم السودان المختلفة وبدأت تزدهر بينما تضمحل سنار بعد أن كانت عاصمة البلاد . ولم تكن مدينة الخرطوم فى سنة ١٨٢٧ الا قرية بائسة ، ولم يكن يقطنها سوى ستمائة مواطن تقريبا ، ولكن فى سنة ١٨٣٤ ارتفــع عــدد سكانها الى حوالى خمس عشرة ألف نســمة واتسعت مساحتها وأصبحت المدينة الرئيسية التى يقيم فيها الحكمدار (٣) .

وازدهرت الخرطوم تجاريا فأصبحت مركزاً هاما من مراكز التجارة تقصده القوافل من كل الجهات وتحمل اليها المنتجات المتنوعة من البلاد المحيطة بهــا ، لذا فقــد زخرت بالوكلاء التجاريين القادمين من القــاهرة والقسطنطينية (٤) .

وقــد أعجــب القنصــلان الفرنسى « دروفــتى » Drovetti والانجليزى « صولت » Salt بهذه المدينة حين اصطحبهما محمد على

---

(١) مخطــوطة كاتب الشــونة ، تحقيق الدكتور مكى شــبيكه . ص ٢٨ — ٢٩ .

(٢) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٣) Combés; Edward, Voyage en Egypte et Nubie : dans les deserts et Beyouda, Des Bicharys et sur les cotés et la Mer Rouge. p. 111.

(٤) Ibid. p. 111.

معه خـلال زيارته للسـودان (اكتوبر ١٨٣٨ ـ مارس ١٨٣٩) ، حيث شاهدا هذه المدينة وهى محاطة بالحدائق الواسعة ، وفى خارجهـا كانت القبائل تقوم بزراعة النباتات للماشية (١) • كذلك فقد لعبت الخرطـوم دورا علميا وسياسيا واجتماعيا الى جانب دورها التجارى ، حيث كانت ترسل باشعاعاتها نحو دنقلة وسواكن وأثيوبيا وفاشودة والأبيض ، وكانت منطلقا لرحلات الإكتشاف تجاه منابع النيل (٢) •

٣ ـ مدينة محمد على :

لقد ارتبطت نشأة هذه المدينة بزيارة محمد على للسـودان ، وعملية البحث عن الذهب فى شرقى السودان • ولسوء الحظ أن هذه المدينـة لم تنـل قسطا من الإزدهار أو الشهرة كسائر المدن الأخرى التى أنشأتها الادارة المصرية بالسـودان • وكانت هذه المدينة تقع على ميمنة النيـل الأزرق ، ففى خلال عمليات البحث عن خام الذهب فى تلك الجهـات أعجب محمد على بموقعها فضرب خيامه بهـا وأمر المهندس دارنو Darnoud أن يبنى بها قصرا ، كما طلب أن يقيم المهندسون بيوتهم بجوار القصر ، بالإضافة الى ثكنات لاقامة الجنـود • وعلى هذا النحـو برزت هـذه المدينة للوجـود •

ويعود الفضل الأكبر فى بروز هذه المدينة إلى أفراد الجيش الذين كانوا يرافقون البعثة العلمية الخاصة بالبحث عن الذهب ، وكانت بمثابة مدينة عسكرية عمالية لأن الجنـود أقاموا ثكناتهم بها ، بالإضـافة إلى كونها مأوى للمهندسين والعمال القائمة على عملية التنقيب • وحتى يخلد محمد على ذكراه فى تلك البقعة طلب اطلاق اسمه على هذا المكان « ليزداد

---

(١) Driault; La Formation De l'empire De Mohamed Aly, De l'arabie au Soudan Correspondance De Consuls De France en Egypte. p. 43.

(٢) Ibid. p. 43.

عمرانا وليذكر على ألسنة الناس » (١) • إلا أن هذه المدينة ــ بالذات ــ لم يقرر لها أن تبقى طويلا وربما يعود ذلك الى فشــل المهمة التى دعت لإنشــائها •

٤ ــ مدينــة كســلا :

على أثر فتح أحمد باشا أبو ودان (*) لإقليم التاكة فى عــام ١٨٤٠ تم إنشاء هــذه المدينة • فقد إتخــذ هذا الحكمدار معسكره على نهــر « القاش » بسفح جبل كسلا ، وحين غادرها ترك بهــا حامية ثابتة من الجنود ، وحينئذ تدفق إليهــا الأهالى من المنــاطق المجــاورة واتخذوها موطنا لهم • ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه المدينة عاصمة لمديرية التاكه • وواضح تماما أن نشأة هذه المدينة وإزدهارها يعودان إلى الجيش المصرى فهو الذى استقر بها وأنشأ معسكره فيها ، وبعدها راحت المدينــة تنمو وتتطــور (٢) •

هكذا شهدت الفترة ما بين ١٨٢١ ــ ١٨٤١ تطورا اجتمــاعيا كان أبرزها إنشاء مدن جديدة مصحوبة بتطــور إجتمــاعى • ومما يدعو إلى الاكبار والتقدير ان هذا الجهد الذى بذل فى انشــاء هذه المدن لم يكن عشوائيا ، بل كان قائما على الدراســة والتخطيط ولعــل نظرة فاحصة الى المواقع التى انشئت فيها هذه المدن تقيم الدليل على مدى صــدق هذه المقولة ، فقد توزعت هذه المدن فى كافة أرجــاء السودان وربطت بين

---

(١) محفظة رقم ١٢٣ مترجمة عن وثيقة تركية ــ ملف متفرقات دوسيه بدون تاريخ (رجب / شوال سنة ١٢٥٤ هـ) رحلة ســاكن الجنان مولانا محمد على باشا الكبير . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(*) انحصرت مدة حكمداريته بين عامى (١٨٣٨ ــ ١٨٤٣) .

(٢) حمدنا الله مصطفى : المرجع السابق . ص ٢٠٥ .

أجزائه ففى الشمال برزت دنقـلة الجديدة التى كانت حلقة وصـل مع دارفور وكردفان من جهة ومع الأجزاء الواقعة شمالها وجنوبها من جهـة أخرى • كما أصبحت الخرطوم ، التى كانت بمثابة القلب لكونها عاصمة البلاد الجـديدة ، ملتقى للتجار ، بالاضافة الى كونها مقر الحكم ، ثم كسلا التى ربطت الأجزاء الشرقية من السودان بداخل البلاد • وقـد تجلى المعنى الاجتماعى من خـلال الهجرات السـكانية الى تلك المـدن الجديدة واستقرار الوافدين اليها ومن ثم تناقضت أعداد البدو الرحـل مع عمليات التوطين الجديدة ونشـوء علاقات اجتماعية جـديدة تتواءم وحيـاة المدن •

الفصل الأول

تطـور الأوضاع الزراعيـة

ــ الأرض : حجمها ــ أنواعها ــ شكل الملكية الزراعية أو الحيازة •

ــ العمــل : عمال الزراعة فى الســودان وجهود الحــكومة لايجاد عمــال متخصصين •

ــ الــرى : وسائله وتطــوره •

ــ الفصول الزراعية •

ــ الأدوات الزراعية •

ــ الغلات الزراعية •

ــ الثروة الزراعيــة •

ــ الآفات الزراعيــة •

ــ النظم والقوانين •

شغل موضوع الزراعة السـودانية فى القـرن التاسع عشر أذهان المسئولين بمصر والسودان ، فراحوا يبحثون عن وسـائل شتى للنهوض بها ، وذلك لوضع الاقتصاد السـودانى على عتبات العصر الحـديث ، أو على الأقل مواكبته للاقتصـاد المصرى آنذاك ، والذى كان قد سبقه فى عـدة مراحل من تطـوره . وإذا كانت أذهان المفكرين الإقتصاديين المحدثين ، وخاصة أولئك المشتغلين بأمور الزراعة قد وضعوا ركائز أساسية لدراسة أى نشـاط زراعى لبلد ما ، وجعـلوا عوامل الانتـاج الزراعى المتمثلة فى الأرض والعمل ورأس المـال على قمة تلك الركائز الضرورية للنهوض بالإنتـاج الزراعى ، فإن القائمين على هـذا الأمـر فى مصر والسودان أيضا قد توصلوا الى مثل هـذه العناصر فى القرن التاسـع عشر وإن اختلفت المسميات .

ففى واحدة من المكاتبات المرسلة الى السودان نقرأ « بأن أسـاس عمار الممالك مركب على ثلاثة أشـياء : الأول وجـود الأرض المخصبة والأمطـار ، والثانى وجـود النفوس لإستعمال الزراعة بهـا ، والثالث التبصرات التى تلـزم لنقـل المحصـولات وتوصـيلها لمحـلات البيـع والشرى * » (١) .

الأرض :

وفيما يتعلق بالعنصر الأول وهـو الأرض فإنه يمكن القـول بأن الأراضى السودانية كانت مترامية الأطراف ومتعـددة ، وتقدر بملايين الأفدنة . وتشير احدى الوثائق فى عام ١٨٧١ — على سبيل المثال — الى أن الأراضى الصالحة للزراعة فى مديرية « التاكة » وحـدها تبلغ نحو

---

(١) دفتر رقم ٣٩١ معية سنية — صورة المكاتبة رقم ٨ بتاريخ ٩ رجب سنة ١٢٨٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة . ، انظر أيضا : دفتر رقـم ٥٥٨ معية تركية — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥ ص ١٥ بتاريخ ٢ جمادى الآخر سنة ١٢٨٢ هـ . ارادة سنية الى جعفر باشا وكيل حكمدارية السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(*) الشرى : يقصد بها الشراء .

المليونين ونصف المليون من الأفدنة (١) • وكانت هناك شكوى دائمـة من كثرة الأراضى الصالحة للزراعة فى السودان بوجه عام والتى تتركز على سواحل نهر النيل ولا تجد من يقـوم بزراعتها فتركت بورا ، نظرا لقلة الأيدى الزراعية العاملة (٢) ، وتأخر الوسائل الزراعية الحديثة كالآلات التى تختزل الجهد الآدمى والوقت معا ، بالاضافة الى عامل هام ومؤثر يتمثل فى عزوف الرجل السـودانى عن العمـل فى الزراعـة والتى كان يعتبرها من أعمال العبيد ، وأخيرا يمكن أن نضيف الى ذلك خوف الفلاح السودانى من عـدم الوفاء بدفع الضرائب عن الأراضى للحكومة • كل ذلك ، مع غيره من العوامل الأخـرى ، قد ساهم بصورة فعالة فى تراكم تلك المساحات الشاسعة من الأراضى الزراعية وتركها دون زراعة •

وفيما يتعلق بأنواع الأراضى السـودانية فإنه يمكن تقسيمها إلى ما يلى :

١ ــ الأراضى الخراجيـة :

وهى تلك الأراضى التى يمكن لصاحبها أن يقوم بزراعتها مقـابل دفع ضريبة للحكومة ، وإذا توفى هذا الشخص دون وارث من الذكور ، أو قصر فى أداء الضريبة ، فإن الحكومة تمنحها لشخص آخـر يستطيع زراعتها واستغلالها وبالتالى يمكنه أن يؤدى ضريبتها (٣) •

---

(١) دفتر رقم ١٨٤٧ معية سنية ــ وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٨ هـ • ص ٦٩ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ١٨٤٧ معية سنية ــ نفس الوثيقة السابقة •

(٣) دفتر رقم ١٨٨٩ ج ١ معية سنية عربى ــ صـادر أقاليم ، مديرية دنقلة وبربر ــ وثيقة رقم ٦ ص ٣٩ بتاريخ ٨ شعبان سنة ١٢٧٤ هـ •

انظر أيضا : مصطفى أبو شعيشع : تاريخ الزراعة فى السـودان منذ عام ١٨٢١ حتى يناير ١٨٦٣ ــ رسالة دكتوراه غير منشورة ــ معهد البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة • ص ٢٤ •

٢ ـ أراضي مسموح المشايخ والمصاطب :

وهي الأراضي التي تركت لمشايخ البلاد ليقوموا باستغلالها لحسابهم الخـاص دون أن يدفعوا عنها أية ضرائب ، وبالإضافة إلى ذلك فقـد منحتهم الحكومة نسبة معينة على السواقي التي تقع في دائرتهم بواقع « فرانستين » * عن كل مائة فرانسة نظير معاونتهم للمديرين والكشاف في أمور الادارة وجمع الضرائب .

وفي عهد محمد سعيد لم يحصل منهم ضريبة أربعة أفدنة عن كل مائة فدان ما في حوزتهم نظير جهودهم في جباية الضرائب من الأهالي (١) .

وفي مقابل الخدمات التي كان يؤديها المشايخ والمتمثلة في تقـديم الطعام والمبيت لرجال الحكومة ، كان هذا المسموح بواقع سـاقية واحدة عن كل خمس وعشرين ساقية بدون ضرائب (٢) . وقد أقرت هذه القاعدة في عهد محمد سعيد ابان زيارته للسـودان وقيامه ببعض الاصـلاحات المتنوعة والتي شملت الجانب الاقتصادي .

٣ ـ أراضي الأبعـادية :

من المعروف أن هناك أراض واسعة في السودان وخالية من الزراعة ، ولم تكن في حوزة أحـد ، فقامت الحكومة بإعطائها للأفراد من أجـل إستغلالها بوسائل مختلفة . وتشجيعا لهم في إصلاحها أعفت بعضها من الضرائب لمـدة ثلاثة أعـوام ، فقد حـدث أن منحت الحكومة بعض المهندسين من رجالها في السودان أبعاديات من الأراضي البور بواقـع

(*) الفرانسة من ١٢ — ١٥ قرشا .

(١) دفتر رقم ٧٣٤ ديوان خديوى عربى — وثيقة رقم ٤٠ بتاريخ ٢٣ جمادى الأول ١١٧٣ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٨٦ — صورة المكاتبة العربية رقم ٢ في غاية جمـادى الأولى سنة ١٢٧٣ هـ أمـر كريم الى مدير كردفان . دار الوثائق القوميـة بالقلعـة .

مائة فدان لكل مهندس ، يقــوم باستصلاحها وزراعتها ، ووفرت لهــم الآلات والأدوات والبذور (١) •

وفى عهــد محمد سعيد منح الضباط غــير القادرين على الخــدمة العسكرية أبعاديات واسعة فى السودان مكافأة لهم من جانب ، وكســبا لمساحات جديدة مستصلحة ومستزرعة من جانب آخــر ، ووفرت لهــم الحكومة التقــاوى فى الســنة الأولى وأعفتهم من الضريبة لمــدة ثلاثة أعــوام أيضا (٢) •

٤ ــ أراضى الرزق :

وقد منحتها الحكومة منذ عهد محمــد على للمقتدرين والراغبين فى زراعة مســاحات من الأراضى « البور » على شــكل « رزقة بلا مال » أى بدون ضريبة (٣) • وقد شملت هذه الأنواع من الأراضى مناطق متنوعة فى الســودان ، فى ســنار وحلفاية وكردفان (٤) ، ودنقــلة (٥) ، وبربر والجاعلين ، وأقاموا فيها السواقى تمهيدا لإستغلالها (٦) • ويبــدو أن

---

(١) محفظة رقم ١١٣ عابدين ـــ رحلة ساكن الجنان محمد على باشـــا الى السودان دار الوثائق القومية .

(٢) دفتر رقم ٤ معية سنية عربى ـــ وثيقة رقم ١٩ بتاريخ ٥ شعبان سنة ١٢٧٤ هـ من اللــواء أراكيل باشـــا الى المعية السنية . دار الوثائق بالقلعـــة .

(٣) دفتر ٣٣٤ صادر شورى المعاونة الى حكمدار السودان . ملحــق الوثيقـــة التركية رقم ١٩٣ بتاريخ ٢٨ رمضان ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعـــة .

(٤) دفتر رقم ٣٣٤ صادر شورى المعاونة ـــ الى حكمدار السودان . وثيقـــة رقم ١٩٢ بتـــاريخ ٢٨ رمضـــان ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القوميـــة بالقلعـــة .

(٥) دفتر رقم ٣٣٤ صادر شورى المعاونة ـــ الى حكمدار السودان ـــ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥٨ بتاريخ ٢٠ رمضان ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القـــومية بالقلعـــة .

(٦) دفتر رقـــم ٣٧٨ معية تركى ـــ من الجانـــب العـــالى الى حكمدار السودان ـــ وثيقة رقم ٣٤٢٥ بتاريخ ١٧ شعبان سنة ١٢٦٠ هـ .

هذا النوع من الأراضى فى السودان كان يعطى أساسا للمسئولين الكبار القادرين على خدمة هذه الأراضى • وقد بقيت هذه الأراضى مستمرة فى أيدى الورثة لا تنزع منهم طالما كانوا يقومون بزراعتها • ومن أمثلة هذه الأراضى ما أعطى لحكمدار السودان أحمد باشا أبو ودان (١٨٣٩ — ١٨٤٤) بمديرية الخرطوم ، وقد ظلت زوجته بعد مماته تشرف عليها وتستفيد بريعها (١) • ومن أمثلة هذا النوع أيضا من الأراضى ما أعطى لخليل أغا أحد المسئولين الكبار فى إدارة السودان الذين خدموا الحكومة هناك بجهة بربر • وكانت هذه الأراضى أحيانا تعطى للأشخاص بناءً على طلبهم إن كانوا فى حاجة للمعيشة ، ورعاية لأطفالهم إذا ضاق الحال بهم (٢) •

٥ ـ أراضى الأوقاف :

وهى تلك الأراضى التى أوقفت لخدمة المساجد والمدارس ، وذلك تشجيعا لأصحابها على إقامة شعائر الصلاة ، وتعليم أبناء السودان ، حيث كان المسجد وما يلحق به من خلوة يقوم بهذه المهمة التعليمية التى تحتاج — دون شك — الى مورد مالى ثابت يمكن أولئك الفقهاء من الالتفات الى هذه المهام (٣) •

٦ ـ أراضى الحكومة :

وهى تلك الأراضى التى احتكرتها الحكومة لنفسها وقامت

---

(١) دفتر رقم ٤٠٨ صادر معية ، وثيقة رقم ٩٤٦ بتاريخ ٩ محرم ١٢٦٣ هـ • من الجنات العالى الى حكمدار السودان • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ٦٠٣ ، صادر ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ٦٩ بتاريخ ٢٢ ذى القاعدة سنة ١٢٦٥ هـ • الى حكمدار السودان • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) دفتر رقم ٣٣٤ صادر شورى المعاونة — وثيقة رقم ١٥٨ بتاريخ ٢٠ رمضان عام ١٢٥٤ هـ • الى حكمدار السودان • دار الوثائق القومية بالقلعة •

باستصلاحها وزراعتها لحسابها الخاص ، ببعض المحاصيل كالنيلة وقصب السكر والقطن (١) • وواضح أن هذه الأراضى قد زرعت بمحاصيل ذات نوعية خاصة كانت توليها الحكومة رعاية من نوع خاص أيضا • فالنيلة كما هو معروف كانت فى أيام محمد على تخضع للاحتكار الحكومى ، وأما قصب السكر والقطن فكانا من المحاصيل الهامة والرئيسية فى البلاد وكان الأخير — ونعنى به محصول القطن — يشكل محصولا أساسيا فى صادرات البلاد سواء فى مصر أو السودان ، ومن ثم لا ندهش إذا خصصت الحكومة فى السودان أراض خاصة لها تخضع خضوعا مباشرا لاشرافها حتى تضمن سلامة هذه المحاصيل وعدم خضوعها للإهمال الأمر الذى يجعلها تضمن إستمرار تصديرها للسوق الخارجية •

وتجدر الاشارة الى أن الأراضى السودانية — طبقا للظروف الطبيعية — ليست على وتيرة واحدة ، فقد وجدت هناك : أراضى الجروف ، وهى التى تقع على ضفاف النيل وتعتمد الزراعة فيها على مياه الفيضان إذا كان الشاطىء منخفضا وعلى السواقى إذا كان مرتفعا ، وأراضى الجزائر وهى الواقعة فى مجرى النهر وتتم زراعتها عقب إنحسار مياه الفيضان ، وأراضى « المتره » وهى الأراضى التى تسقى بماء « المتره » وهى حفرة واسعة تحفر بعيدا عن النيل فيتسرب اليها ماؤه وتقام عليها السواقى • وينتشر هذا النوع من الأراضى فى دنقله وبربر • وأراضى « الكروه » ، وهى عبارة عن منخفضات أشبه ما تكون بالترع يغمرها النيل أثناء الفيضان • وأخيرا أراضى « الضهارى » أو ما تعرف أحيانا بالأراضى المطرية ، وهى التى تروى بماء الأمطار ، وتكون بعيدة عن مجرى النيل (٢) •

---

(١) محفظة ١٩ بحر برا . وثيقة رقم ٤٩ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٦٠ هـ . من الجناب العالى الى حكمدار السودان . أنظر أيضا : ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غردون وكتشنر — الجزء الأول ص ٦٥ .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته — الجزء الأول — ص ١٤٢ . أنظر أيضا : نسيم مقار : أحوال السودان الاقتصادية من عام ١٨٢١ — ١٨٤٨ ص ٦٢ .

أما ملكية الأراضى السودانية فى ظل الإدارة المصرية فقد بقيت من حيث المبدأ ملكا للحكومة ، إلا أنهـا تركت فى حوزة أصحابها ولم تتعرض لها بشيء ، بل إنها أخذت تشجع الملاك على الحصـول على حجج شرعية لهذه الأراضى حتى تضفى على هذه الأراضى نوعا من الملكية للفلاحين فى السودان . ولما كان الحصول على مثل هذه الحجج متعذرا أمام الكثيرين منهم فقد تركتهم الحكومة يفلحون الأرض دون أن تناقشهم فى مسـائل فقهية حول ملكيتهم لها ، بل صـار كل ما يعنى الحكومة هو أن يظـل أصحاب الأراضى يزرعونها بانتظام ولا يتركونها بورا (١) .

وكان المبدأ الذى تسير عليـه الحكومة فى هـذا الشأن كما ورد فى سجلاتها الرسمية هو « أن الأرض ملك لمن يستصلحها ويزرعها (٢) .. » ومن ذلك يمكن القول صراحة أن مسـألة الملكية الزراعية فى السـودان واثباتها لم تكن هى الشغل الشـاغل لرجـال الادارة ، بل كان الهـدف الأساسى أمامها هو إستغلال هذه الأراضى زراعيا والإستفادة منها بقدر الإمكان ، ولا بأس لديهـا أن يكون مزارعـوها ملاكا أو لا يكونـون ، فالأراضى شاسعة ومترامية الأطراف ، وسكان السودان أو « العمـال الزراعيون » على وجه الخصوص قليلون أمام هذه المسـاحات ، ولذلك فإننا نود أن نشير الى حقيقة هامة وهى أن البـلاد السودانية فى تلك الفترة لم تشهد نموا أو بداية نمو لكبار الملاك الزراعيين فلم يكن الرجـل السودانى يحرص كثيرا ـــ بعكس الفلاح المصرى ـــ على تكوين أو انشاء مثل هذه الملكيات .

وربما يرجع عزوفه عن ذلك الى كثرة الأراضى الزراعية فى السودان ،

---

(١) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ ـــ ١٨٨٥ . ص ١٠٠ ـــ ١٠١ .

(٢) دفاتر محافظـة سـواكن (عـربى) صـادر دفتر رقـم ٣٥٨١ (قديم) ص / ٢٨/٥/٢/٤ ، مكاتبة رقم ٦٩ مأمورية تركز عام ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

وأنه مهما حاول هذا الفلاح أن يحوز منها الكثير ، فإنها لا تضفى عليه مكانة إجتماعية خاصة ، أو حتى ترقى بها إلى مكانة سياسية عليا •

وقد كانت مسألة تملك الأراضى الزراعية فى السودان ومنح الحجج يخضعان لعملية اختبار دقيق للمزارع ، فإذا أظهر جده واجتهاده فى فلاحة الأرض استحق أن يتملكها ، أما اذا تبدى منه القصور نزعت منه وأعطيت لغيره ممن يستطيع العناية بها (١) • ونادرا ما كانت الحكومة تتدخل فى بحث الملكية آلا فى تلك الأمور التى شرحناها ، أو فى حالة وفاة صاحب الأرض الذى لا يترك وريثا فهنا تتدخل وتسلمها لآخرين (٢) •

وأما فى جنوب السودان فقد كانت الأرض ملكا للدولة ، ولم يكن معترفا بالملكية الفردية ، وربما يعود ذلك لوفرة الأراضى التى كانت القبيلة أو الجماعة تملكها على المشاع ، فالملكية هنا هى ملكية القبيلة ككل لا الفرد بعينه ، فلم تنم بعد تلك النزعة الفردية بينهم فى هذه الناحية • ويفسر أحد الدارسين عدم شيوع الملكية الفردية فى تلك الجهات بأن أغلب سكان الجنوب كانوا من الوثنيين ولم يأخذوا بما حوته الشريعة الاسلامية من الاعتراف بالملكية الفردية (٣) • وربما يكون هذا التفسير غير مجانب للصواب ، فليست الملكية الفردية قاصرة على الشريعة الاسلامية ، بل إننا نلاحظ شيوع هذه الملكية فى بلدان أخرى لا تدين بالاسلام ومنها أيضا شعوب وثنية • ولكننا نميل الى ترجيح التفسير الأول الخاص بالملكية الجماعية على مستوى القبيلة التى تقوم بتلبية كل

---

(١) دفتر رقم ١٨٦٠ معية عربى — صورة المكاتبة الصادرة من المعية السنية الى المجلس الخصوصى بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٩٠ هـ • نمرة ٣١ ص ٤٩ •
دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ٢٨٣ وارد المجلس الخصوصى — صورة المكاتبة الواردة من مديرية عموم السودان الى المجلس الخصوصى بتاريخ ٩ ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ هـ نمرة ٣ ص ١٣٦ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) محمد عمر بشير : جنوب السودان • دراسة لأسباب النزاع ص ٢٠ •

حاجة الفرد من خلال نظمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أيضا ، الأمر الذى لم يعد فيه مجال للفرد أن ينزع نزوعا فرديا .

وقد حدث تطور فى الضريبة الزراعية التى كانت تحصل على الأرض فى السودان فهى تارة فى أول الأمر ، وتحصل على الرءوس من الأهالى ، ثم هى تارة أخرى تربط مباشرة على الأرض ، ثم يعلن سعيد باشا صراحة إرتباطها بعدد الأفدنة التى فى حوزة الشخص ، إلا أن هذا النظام الأخير الذى وضعه سعيد ألغى على يد الحكمدار موسى حمدى الذى أمر بتحصيلها من الأفراد الذين فى حوزتهم الأراضى . ولا نريد أن نستطرد فى مسألة الضرائب فى السودان فلسوف نعود الى ذلك فى موضع آخر فيما بعد . وثمة نقطة أخرى تتعلق بموضوع الأرض ، وهى أن محمد على عندما ضم السودان لم يقم بعمل مسح لأراضيه وإعادة توزيعها من جديد على الفلاحين ، كما حدث فى مصر عام ١٨١٣ ، وربما يفسر ذلك العزوف عن القيام بمثل هذه المهمة إلى إتساع الأراضى السودانية وتفرقها فى جهاته ، الأمر الذى كان متعسرا معه القيام بعملية حصر دقيقة لها ، وزاد من صعوبة ذلك أن الأراضى السودانية كانت متنوعة ــ كما ذكرنا ــ من أراضى جروف الى جزائر ومطرية وغيرها ، بعكس أراضى مصر التى كانت من نوع واحد .

وأكثر أراضى السودان لا تقاس بالفدان ، كما فى مصر ، وان وردت احصائيات متفرقة بالفدان ، ولكنها تقاس بالسواقى و « الجدعات » . والساقية عبارة عن ثمانية أفدنة فى الجزائر وعشرة فى البر الثابت (١) . وأما الجدعة فهى ثلاثة حبال ونصف (٢) .

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . ج١ ، ص ١٤٥ .
(٢) نفس المرجع ص ٥٣ . والحبل عبارة عن ثلاثة اذرع وقبضة وعمامة والقبضة والعمامة مقاييس قديمة فى السودان .

العمــــل :

وقد اتبعت مصر أساليب شتى للاهتمام بأمور الزراعة فى السودان ، وبدأت فى أول الأمر ومنذ عهــد محمد على تهتم بعنصر هــام من عوامل الانتاج الزراعى ونعنى به عمال الزراعة الســودانيين أو بمعنى آخــر وأكثر اتساعا المزارع السودانى ، فقد كان هذا العنصر البشرى لا يعلم من أمور الزراعة إلا قليلها ، وحتى هذا القليل كان متخلفا وباليا لا يتواءم والنهضة التى شــهدتها مصر فى مجــال الزراعة ، ولمــا كان هذا العنصر البشرى ضروريا ولازما فى بلد كالسودان يتمتع بأراضى واسعة تحتــاج الى الخبرة الفنية من أهله فى هذا المجــال ، فقد أرسل محمد على فوجــا منهــم الى مصر من أجــل هــذا الغرض « ليتعلموا أصــول الزراعــة والفلاحة » (١) ويعودوا الى أوطانهم لنقل هذه العلوم وتطبيقها فى مجال الزراعة الســودانية .

وقد تطلب إلمــام هؤلاء المبعوثين بأمــور الزراعة البقــاء فى مصر سنوات أكثر عما حــدد لهم إذ ثبت أنهــم كانوا فى حاجة إلى مزيد من التعلم (٢) . ويبدو أن النية كانت صادقة تماما فى إحداث نهضة زراعيــة سودانية تعتمد فى أساسها على أبنائها ، وكانت المتابعة لهم جادة فلم تكن المســألة مجرد سفر أو نزهة خارج البلاد وحسب ولكنها كانت تعنى أكثر من ذلك ... تعنى إلماما حقيقيا وفعليا لأحــدث الأســاليب الزراعية فى مصر . ولمــا أدرك الســودانيون أن محمد على قد وطــد العزم ، قولا وفعــلا ، على أن السودان لابد وأن يكون بلدا زراعيا من الدرجة الأولى ، وأنه قــد بدأ يلقى بثقله لإحــداث نقله زراعية فى السودان بادر بعض المشايخ فى السودان من تلقاء أنفسهم فى تقــديم عرائض يرجون فيهــا

---

(١) دفتر رقم ٣٢١ صادر شورى المعاونة . وثيقــة رقم ٦٥٨ بتاريخ ٩ صفر سنة ١٢٥٩ هـ . كتاب الى ديــوان المدارس . دار الوثائق القومية بالقلعــة .

(٢) دفتر رقم ٣٢١، صادر شورى المعاونة ، نفس الوثيقة السابقة .

السماح لأبنائهم بالسفر الى مصر لتلقينهم فن الزراعة (١) . وهنا أيضا لابد وأن نشير إلى إلتقاء وجهتى النظر حول هذا الموضوع ، فلم تكن النية موجودة لدى الباشا فقط ، ولكنها أيضا موجودة فى الشعب السودانى ، فالجميع لديهم الرغبة فى بدأ نهضة زراعية على أسس علمية لإحداث نقلة زراعية فى السودان .

ولم تقف الجهود عند هذا الحد بل كانت الحكومة فى السودان تقدم للمزارعين البذور بأسعار رخيصة وفى متناول أيديهم ، ولم تتقاض أثمانها منهم إلا عقب جمع المحصول بشرط أن يقدم المزارع ضمانا بالسداد مختوما بخاتم أحد المشايخ السودانيين المتصلين بهؤلاء المزارعين وأيضا بالحكومة (٢) . وهذه التسهيلات فى تقديرنا أقرب إلى ما تقوم به الجمعيات الزراعية وبنوك الفلاحين فى مصر فى الأيام الحالية .

وحرصا على نشر الوعى الزراعى بين المزارعين السودانيين اشترطت الحكومة على المهندسين الذين استقدمتهم من مصر للبحث عن المعادن فى السودان — ثم منحتهم أبعاديات فى المناطق الخالية أو البائرة « كى يقوموا بصلاحها — أن يلحق بكل واحد منهم عدد معين من الأهالى توطئة لتعليمهم الزراعة الفنية على أسس سليمة ، من ناحية أساليب الزراعة وطرق العناية بها وغيرها من الجوانب الأخرى (٣) . وبلغ حرص الحكومة مداه ، أنها كانت تشترط فى تعيين بعض مديرى ومأمورى المديريات

---

(١) دفتر رقم ٣١٧ ؛ صادر شورى المعاونة . وثيقة رقم ١٠٧٦ بتاريخ ٩ جمادى الاولى سنة ١٢٥٨ هـ ، ارادة الى مدير ديوان المدارس . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفاتر محافظة سواكن — دفتر رقم ص / ٢٧/٥/٤٠ ، مكاتبة رقم ٤٨ بتاريخ ١٣ ج (جماد ثان) سنة ١٢٨٦ هـ ص ٤٠ — رسالة الى الشيخ عمر أحد تجار سواكن . انظر أيضا صورة المكاتبة الصادرة من المعية السنية الى مدير عموم شرقى السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر نمرة ٢٤ بتاريخ ٧ رجب ١٢٩١ ، دفتر رقم ١٨٧١ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محفظة ١٢٣ عابدين (دوسيه بدون تاريخ) رحلة ساكن الجنان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

السودانية أن يكونوا خبراء فى الزراعة مثل « على دمنه » الذى اختير مأمورا على دنقلة نظرا لخبرته السابقة بأمور الزراعة (١) .

ومن بين تلك الوسائل التى اتبعت للنهوض بالزراعة فى السودان على عهد الخديو إسماعيل ، ما كانت تقوم به الحكومة من إعفاء بعض السواقى والمزروعات وخاصة الحدائق ، من الأموال المقررة عليها ترغيبا للأهالى فى مزيد من الزراعة ، وعملا على استقرارهم فى الأرض بعد أن هجرها الكثيرون ، وفروا الى أطراف السودان من جراء الضرائب (٢) .

ولم يكتف المسئولون بمصر بهذه الوسائل للنهوض بالزراعة السودانية ، ويقتنعوا بتلك التقارير التى تصلهم من السودان عن سير الأمور الزراعية بها ، ولكنهم كانوا يبعثون بلجان تفتيش خاصة من مصر « لاستكشاف الأراضى ، وفحص السواقى والحشائش » (٣) . وتقديم تقرير عن كل ذلك ، وهى أشبه بلجان المتابعة أو المراقبة ، وعلى ضوء نتائج هذه اللجان كانت تحدث تطورات ملموسة فى نواحى الزراعة وغيرها من جوانب الاقتصاد السودانى ، بل كان ينجم عنها أحيانا تغييرات وعمليات نقل لكبار رجال الإدارة فى السودان إذا ما تبدى أى اهمال من جانبهم .

السرى :

وقد أولى المسئولون فى السودان إهتماما كبيرا لمسألة مياه الرى ،

---

(١) دفتر رقم ٦١ صادر المعية — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣٣ بتاريخ ٢٠ شعبان ١٢٥٠ هـ . الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٥٢٩ معية سنية — مكاتبة رقم ٤ بتاريخ ٦ رجب سنة ١٢٨١ هـ من الجناب العالى الى حكمدار السودان . أنظر أيضا : على ابراهيم عبده : مصر وافريقية فى العصر الحديث . ص ٣٦ .

(٣) دفتر رقم ٢ أوامر عربية — أمر كريم رقم ٧ صادر الى حكمدارية السودان بتاريخ ١٩ شوال سنة ١٢٩١ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

فقد كان الرى الحوضى ، من قبل ، هو النظام المتبع فى السودان ، وعلى وجه الخصوص فى جهات النوبة الشمالية حيث تقل الأمطار حتى تكاد تنعدم . وعندما يرتفع منسوب مياه النيل فى الفيضان تفيض المياه على الحياض المختلفة والمتاخمة للنهر فتظل هذه البقاع مغمورة بمياه الفيضان حتى يبدأ منسوب النهر فى الانخفاض التدريجى والانحسار . وبعد أن تنحسر المياه عن الحياض يبدأ الأهالى بزراعة أراضيها (١) . كذلك فقد قاسى السودانيون أيضا من جراء انحباس الأمطار الأمر الذى أدى لحدوث شح فى الحبوب وظهور مجاعات نظرا لاعتماد السودانيين فى معيشتهم على الحبوب وخاصة الذرة منها (٢) . لذلك كله كان لابد للادارة المصرية فى السودان أن تبحث هذه المسألة وتجد لها حلولا مناسبة ، ففى محاولة لادخال الرى الدائم فى السودان قام المسئولون بتوجيه عنايتهم الى حفر الترع والقنوات فى كثير من جهات البلاد ، ففى جهة دنقلة على سبيل المثال جرى حفر ترعة ، وأرسلت لذلك آلاف الفئوس للقيام بعملية الحفر (٣) . وفى عام ١٨٤٣ صدرت الأوامر بحفر مجرى مائى فى طريق عتمور الكائن بين (أبو حمد) وكرسكو ، وأسندت هذه المهمة إلى أحد المهندسين وبعض تلامذة « المهندسخانة » حيث تم توفير جميع الأدوات والتسهيلات اللازمة لاتمامها (٤) .

---

(١) مصطفى أبو شعيشع : المرجع السابق . ص ٩ .

(٢) محفظة ١٩ بحر برا تركى — وثيقة رقم ٤٩ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٦٠ هـ من المير ميران احمد منلكلى الى الجناب العالى . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) الوقائع المصرية : العدد رقم ٢٣٢ بتاريخ ٢٧ رجب ١٢٤٦ هـ . ص ٢ ، وأنظر أيضا دفتر رقم ٧٧٤ ديوان خديوى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٦٨ بتاريخ ٧ رجب سنة ١٢٤٦ . من الجناب العالى الى مدير بربر . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) رئاسة مجلس الوزراء : مجموعة وثائق عن تاريخ السودان . ص ١٢ ، أنظر أيضا سجل تركى رقم ٢٠٨٨ وارد ديوان المدارس من غرة المحرم ١٢٥٩ هـ الى ١١ جمادى الآخرة ١٢٥٩ هـ — ترجمة الخطاب التركى رقم ٩٣٥ بتاريخ ٦ جمادى الآخرة ١٢٥٩ . من الشورى الى ديوان المدارس . دار الوثائق القومية بالقلعة .

كذلك فقد تم إقامة السـدود على مجـارى بعض الأنهـار لحجز مياه الفيضان واستغلالها فى الزراعة كما حدث بالنسبة للسد الذى أقيم على نهر الجاش فى اقليم التاكة على عهد الحكمدار أحمد باشا أبو ودان والذى تم فتحه على يديه عام ١٨٤٠ ، وبذا أمكن الاستفادة من زراعـة مساحات كبيرة من أراضى هذا الاقليم عن طريق التحكم فى هذه الميـاه التى كانت تضيع سدى من قبل (١) .

وفى سواكن قام المسئولون بإيجاد الحل الملائم لمشكلة المياه سـواء للزراعة أو للشرب ، فقد وجدت آلاف الأفدنة الصالحة للزراعة فى حـالة إهمال بسبب شح المياه فرأوا ضرورة الاستفادة من مياه السـيول التى تسقط فى المنطقة والتى كانت أيضا تضيع دونما أية فائدة ، ولذلك فانهم توصلوا الى اسلوب أمثل حيث كانت السـيول تتجمع فى خور يسـمى بـ « التمانيب » (٢) ، وبدأوا يتحكمون فيها تماما ويعيدون توزيعهـا من من هذا الخور الى ترع بلغ طولها ستة آلاف متر . وقد بدأ هذا المشروع فى عام ١٨٦٩ وتم انجـازه على وجه السرعة وبدأ يعطى حوالى مائتين وخمسين ألف متر ميـاه صيفا وشـتاء ، وبذلك أمكن استمرار زراعـة المحاصيل طوال العام بعد أن كانت موسمية وتقتصر على أنواع محدودة من المحاصيل الزراعية . وقد شارك فى إنجـاز هذا المشروع الحيـوى ممتاز باشـا (٣) .

وفى عام ١٨٧٢ وأثناء مرور محافظ مصوع على جهـة « زلا » (*) التابعة للمحافظة لاحظ جملة أراضى متسعة صالحة للزراعة ، وبهـا خور لمجرى السيل من جهة الحبشة فاقترح القيام بسده لحفظ المياه والاستفادة

---

(١) مصطفى أبو شعيشع : المرجع السابق . ص ١٤ .
(٢) دفاتر محافظة سواكن — دفتر ص ٤ / ٢ / ٢٨/٥ ج ٢ — مكاتبة رقم ٢ بتاريخ ٩ شعبان سنة ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .
(*) زلا : مينـاء صغير جنوب مصوع .
(٣) دفاتر محافظة سواكن — الوثيقة السابقة .

برى الأرض المجاورة له ، وبالفعل تم البدء فى هذا المشروع وتنفيذه (١) .
وفى بعض جهات كردفان حيث تشح المياه ويبقى الاعتماد فقط على مياه الآبار ، كان لابد من مواجهة هذه المسألة فقامت الحكومة باستكشافات مكثفة بحثا عن أماكن مناسبة لحفر آبار للمياه ، وتوجت هذه الجهود باستكشاف العديد منها فى (وادى أبو قرى) و (وادى الرزان) و (وادى جوز الحرما) (٢) .

ومن قبل إمتدح الرحالة جون بتريك ، الذى زار كردفان عام ١٨٤٧ ، مثابرة المصريين فى إيجاد المياه لزراعة الحدائق والبساتين وذلك بحفر العديد من الآبار على الرغم من عمق مياهها الجوفية (٣) .

وفى عهد محمد سعيد استمرت هذه المحاولات التى جرت لايجاد مصادر جديدة للمياه ، ففى أحد أوامره لمدير الخرطوم طلب مدة للقيام بحفر آبار للمياه فى الطريق الموصلة بين وادى حلفا والخرطوم (٤) ، حيث كانت هذه المنطقة تكاد تكون خالية من الآبار على الرغم من أهميتها كطريق بين السودان ومصر ، وكان يرمى من وراء حفر هذه الآبار الاستفادة منها سواء فى الزراعة أو لسقى المسافرين المارين بهذه الجهات .

وتابع الخديوى اسماعيل طريق أسلافه البحث عن المياه فى السودان بشكل جدى ومنظم ورصد لهذا الأمر البعثات الكشفية ، ففى

---

(١) جورج جندى وجاك تاجر : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ص سجل رقم ١٨٤٨ — معية عربى .

(٢) جريدة أركان حرب الجيش المصرى — عدد رقم ٧ بتاريخ غرة ربيع الأول سنة ١٢٩٥ هـ السنة الثالثة — ١١٩٧ دوريات دار الكتب المصرية .

(٣) Petherick, J.; Egypt, the Soudan and Central Africa, pp. 300 - 307.

(٤) دفتر رقم ١٨٩٣ صادر الأوامر — صورة الأمر الكريم رقم ٦ ص ٤٨ — الى مدير سنار والخرطوم فى ١٧ جمادى الثانية سنة ١٢٧٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

أواخر عـام ١٨٧٤ كلف الخديوى اسماعيل « ستون باشا » رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى بإعداد بعثتين كشفيتين تتجـه إحداهما الى كردفان والأخرى الى دارفور ، اشـترك فى الأولى ضباط مصريون أمثـال أحمد حمدى وفى الثانية أيضا أمثـال محمود صبرى وغيرهما • ولقـد أسفرت الاستكشافات التى أجرتها هاتان البعثتان ، وخاصة الأولى منهما والتى تولى قيادتها الفعلية أحمد حمدى ، على طول المسـافة الواقعـة بين الدبة والأبيض ، عن أن الآبار المائية الموجـودة بتلك المناطق تتميز بعذوبتها ووفرتها ، وأن أعماقها تتراوح فيما بين أربعة أمتار وخمسـة وعشرين مترا الأمر الذى يشير الى مـدى الجهـد المضنى الذى أنفقته الحكومة فى هذا السبيل • وبالاضافة الى ذلك فقد تمكن رجـال البعثة المصرية من استكشاف مجموعة أخـرى من الآبار كانت تقع فى عـدد من الوديان المختلفة مثل وادى « أبو سدير » و « أبو أندراب » وغيرهما • وقد لاحظوا كثرة الآبار فى وادى « عيلاى » إذ كان يوجـد به نحـو ثلاثة وعشرين بئرا موزعة على إتسـاع مساحة الوادى التى تبلغ ميلين تقريبا ، وكانت أعماق هذه الآبار لا تزيد عن أربعة أمتـار ومياهها قليلة ، ماعدا الآبار الموجودة بوسـط الوادى التى تتميز بغزارة مياهها • كمـا أن جميع هذه الآبار تتميز بعذوبة مياهها (١) •

كذلك فقد حرص أفراد البعثة المصرية على إستكشاف عدد كبير من الأخوار المائية الموجـودة بتلك المناطق والتى أصبحت إحدى المصـادر الهامة لجلب المياه ومن أهمها أخوار الطريفة « وأبو سدير » و « البريجة » و « أبو هشيم » و « وأبو شاهين » و « الحسـناوى » و « المـزروب » « وأبو عروق » وغيرها ، وقد كانت مياه هـذه الأخوار تتكون من جراء

---

(١) جريدة أركان حرب الجيش المصرى : السنة الثالثة — الجزء الأول من المجلد الثانى — العدد ٧ بتاريخ غرة ربيع أول سـنة ١٢٩٥ هـ (٥ مارس سـنة ١٨٧٨ م) . تقرير يتعلق بأشـغال الاستكشافات التى أجراها من الدبة الى بندر الأبيض مركز مديرية كردفان صاغقول أغاسى أركان حـرب تحـت رياسـة « كولستون » . ص ٤٩٧ ، ص ٤٩٨ . ، أنظر أيضـا : عبد العليم خلاف : جهود مصر الكشفية فى افريقيا فى عهـد الخديو اسماعيل ص ١٧٣ وما بعـدها .

سقوط الأمطار ، كما لوحظ أن بعضها كان ينبع من الجبـال القريبة منها كجبال « الطريفة » و « الصنقور » و « الجلود » و « الأبرق » وغيرها • وكان المجـرى المائى لهذه الأخوار يتراوح ما بين ثمانيـة أمتار وعشرين مترا ، وأعماقها لا تزيد عن ثلاثة أمتار ، وقد تأكـد أفراد البعثـة من أن كثيرا من هـذه الأخوار كانت تصب مياهها فى الصحراء المجـاورة ، بينمـا تصب بعضـها كأخـوار وادى « الزراق » و « المـزروب » و « أبو عروق » فى « بحيرة الصـاف » وقد أجرى أفراد البعثـة بعض الكشوف عن هذه البحيرة فلاحظوا أن مياهها لا تتكون من مياه الأخـوار فحسب ، بل أيضـا من جراء إنحـدار مياه الأمطار إليهـا حيث كانت أرضها منخفضة ، وعلى هذا فقد كانت الميـاه بهذه البحيرة غزيرة جدا الأمر الذى أهلها لأن تكون موردا مائيا هاما سـواء للزراعة أو لسـقى حوالى عشرة آلاف دابة تفد إليها يوميا حيث كانت تلك المنـاطق متميزة بتربية الماشية وتعتمد عليها إعتمادا رئيسيا •

كذلك فقد أشـار أفراد البعثة الى وجود بحـيرة أخرى تبعـد عن بحيرة الصاف بمسـافة خمسة وسبعين ميلا تقريبا بالقرب من بلدة « كجمر » أطلق عليها الأهـالى اسم « مصارين » وتقـل فى حجمهـا عن سابقتها كمـا أن عمقها لم يـكن ليزيد عن مترين ، ومياههـا كانت تتكون أيضـا من مياه الأمطـار التى تتجمع فى الوديان القريبة منهـا وتنحدر إلى البحيرة • وتوجـد حول هذه البحيرة ثمانية آبار كان يفيـد منها الأهالى فى الحصـول على المياه عقب انتهـاء موسم سقوط الأمطار وجفاف البحيرة • كذلك فقد توصـل أفراد البعثة إلى إكتشاف مناطق جديدة تصلح لحفر الآبار مثل منطقة وادى « أبو قمرى » الواقعة بين « برق عجيـل » و « البريجة » ومنطقة « وادى الزراق » الممتدة بين « الهاويجى » و « الصـاف » ومنطقة وادى جوز الحرما الواقعـة بين الصاف و « كجمـر » (١) •

---

(١) جريدة اركان حرب الجيش المصرى : العـدد السـابق ص ٢٩٨ — ٥٠٠ •

وفى تقرير الضابط الأمريكى « بروت » ، الذى وصل الى الخرطوم فى أوائل مايو ١٨٧٥ وبدأ مهمته الكشفية على رأس بعثة مصرية بدأت رحلتها من أم درمان فى ٢٠ مايو ١٨٧٥ متخذة حزاء النهر طريقا ثم اتجهت نحو الأبيض ، نلاحظ وصفا دقيقا أيضا للآبار المائية التى مر بها فى طريقه مثل آبار « أبو جراد » و « الحلبة » و « الدنابج » وغيرها . وقد لاحظ أن المياه الموجودة بها كانت على أعماق بعيدة ، تتراوح بين ثلاثين وخمسين مترا ، بالاضافة الى قلة هذه المياه المستخرجة وإن كانت عذبة ، ولذلك فإنه أوصى فى تقريره بضرورة العمل على حفر آبار أخرى جديدة فى أماكن متفرقة حتى تنتشر مصادر المياه فى تلك الجهات (١) .

وفى أواخر عام ١٨٧٥ قام الضابط المصرى محمود صبرى على رأس بعثة كشفية إلى المنطقة الشمالية الغربية لدارفور ، وتحرك بالفعل من الفاشر فى ١١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ واستمرت بعثته حتى ٣٠ يناير ١٨٧٦ قدم على أثرها تقريرا الى بوردى ، ومن بين ما جاء فيه أن بعض القرى فى تلك الجهات التى زارها لم تكن تجد صعوبة فى الحصول على المياه إذ كانت تجاورها وديان مختلفة تنتشر بها عدة آبار مائية مثل آبار « وادى المجدوب » وآبار « وادى كتم » وغيرها فى كوبية والدور و « أبو سكات » و « أبو عرديب » وغيرها أيضا ، وقد لاحظ كثرة الآبار فى وادى كوبية غربى الفاشر حيث كان يتميز عن بقية الوديان الأخرى باتساعه ، ويتجه مجرى هذا الوادى من الشمال الى الجنوب حيث ينبع من جبال « سى » الواقعة على بعد خمسة عشر

---

(١) جريدة اركان حرب الجيش المصرى : السنة الثالثة — الجزء الأول من المجلد الأول — العدد ١ بتاريخ ٢٧ شعبان سنة ١٣٩٣ هـ (١٥ سبتمبر ١٨٧٦ م) تقرير وارد لديوان الجهادية من طرف المسيو « براوت » بكباشى أركان حرب ، ويتضمن نتيجة الأعمال الكشفية التى اجراها فيما بين الخرطوم والأبيض بولاية كردفان . وصورته بتعريب عمر افندى رشدى بكباشى أركان حرب ص ١٢ .

ميلا شـــمال شرقى بلدة « كبكبية » ويتوقف جريانه عنـــد بلدة « دار الزريقات » جنوبا حيث يكون بركا ومستنقعات وذلك عندما تكون الأمطار قليلة ، أما اذا كانت الأمطـــار غزيرة فانـــه يســـتمر فى جريانه نحـــو الجنـــوب ، حيث يصب فى بحـــر « الزريقات » الواقـــع جنوب دارفور والذى يسير مجراه من الغرب الى الشرق ليصب فى بحر الغزال (١) .

وفى مجال البحث عن وسائل أخـــرى لجلب المياه بصـــورة منتظمة وسريعة إقترح المسئولون بمصر إستخدام « طلمبات هوائية » كتـــلك التى تستخدم فى أوروبا لرفع الميـــاه الى الترع ، والعمـــل على تدريب المزارعين السودانيين على استخدامها (٢) ولا شـــك فى أن ادخال هـــذا النوع من الآلات سوف يزيد من حجم المياه المستخدمة فى الزراعة بصورة ملموسة عما كان يتم رفعه بواسطة السواقى المستخدمة منذ القدم (*) . وفى عهـــد الحكمدار اسماعيل أيوب (١٨٧٣ ـــ ١٨٧٧) تم اســـتخدام الآلات البخـــارية فى أعمال الرى (٣) .

ولم تكن الإدارة فى السودان لتقبل أى نوع من التقاعس فى مسألة مياه الزراعة ووصـــل الأمر بها ـــ فى بعض الأحيان ـــ الى وقف صرف مرتبات بعض المسئولين عن هذا التقاعس (٤) ، فقـــد كانت لا تقبل ترك

---

(١) جريدة أركان حرب الجيش المصرى : السنة الثالثة ـــ الجـــزء الأول من المجـــلد الأول ـــ العدد ١ فى ٢٧ شعبان ســـنة ١٢٩٣ هـ (١٥ سبتمبر ١٨٧٦ م) تقرير يتعلق بالخريطة الاستكشافية للجهات الشمالية الغربية من دارفور الخديوية مقـــدم من محمود افندى صبرى يوزباشى أركان حـــرب الى ميرالاى أركان حرب رئيس مأمورية استكشاف دارفور : ص ٤٩ .

(٢) محافظ أبحاث السودان ـــ محفظة رقم ١٨ دفتر رقم ٤ .

(*) أدخلت الساقية التى كان يجرها ثور الى الســـودان منذ اربعـــة قرون .

(أنظر :) Smith Hempton : The New African : p. 25.

(٣) محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر : ص ١٩ .

(٤) دفاتر محافظة ســـواكن : دفتر ص /٢٨/٥/٢/٤ ، ورقم قـــديم (٣٥٨١) مكاتبة رقم ٦١٤٥ بتاريخ ٢ رجب ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعـــة .

« قيراط واحـــد بدون زراعة » (١) • وفى سبتمبر عام ١٨٧٥ اقترح أن يتم انشـــاء مقياس للنيل فى جهة بربر بعد مصب نهر عطبره مشـــابها للمقياس الموجود بمنيل الروضة بمصر • ولا شـــك أن مثل هذا العمـــل يعد قمة مشروعات الرى فى الســـودان ، إذ عن طريقه يمكن معرفة زيادة وعجـــز الميـــاه (٢) •

الفصـــول الزراعيـــة :

هناك ثلاثة فصول زراعية فى السودان وتحســـب بالأشهر القبطية وهى : الدميرة وهو فصـــل الفيضان ويبدأ من أواســـط بؤونه ويستمر لـــدة ثلاثة أشهر وتزرع فيه أرض السواقى ، والشتوى وهو فصـــل نزول النيل ويبدأ من أواسط شهر توت ويستمر لمدة ستة أشهر وهو أهم الفصول الزراعية ، وفيه تزرع أرض السواقى بعد حصاد زراعة الدميرة وتزرع أيضا الجروف والجزائر التى يغمرها النيل وأرض « الكروه » وأرض « الأمتار » • وآخر هذه الفصـــول الفصل الصيفى وهو فصـــل التحاريق ومدته ثلاثة أشهر من أواسط برمهات إلى أواسط بؤونه وتزرع فيه أرض السواقى والجروف وتحصـــد مزروعات هذا الفصـــل قبـــل أوانها وغالبـــا ما تكون علفـــا للمواشى وذلك حتى يتم إعـــداد الأرض لزراعة الدميرة (٣) •

أما الأراضى المطـــرية فليس لها ســـوى فصل واحـــد هو فصـــل الأمطار ، ويمتـــد سقوط الأمطـــار فى كثير من جهات الســـودان وحتى شمالى بربر • أما مديرية دنقلة فكانت الزراعة فيهـــا بواسطة الســـواقى

---

(١) دفتر رقم ٣٤٧ ، صادر تحريرات مديرية بربر والجاعلين — مكاتبة رقم ٥ بتاريخ ٣ رجب سنة ١٢٦٥ هـ . الى حاكم المتمة . دار الوثائق القومية بالقلعـــة .

(٢) محفظة رقم ١١ جهادية تركى — مكاتبة من الجناب العالى الى دولة ناظر الجهادية بتاريخ ٧ شعبان ١٢٩٢ هـ . انظر ايضا : أمين ســـامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — المجلد الثالث — الجزء الثالث . ص ١٢٦٣ .

(٣) نعوم شـــقير : المرجع السابق . ص ٤٣ .

المقامة على النيل • ويستخدم السودانيون بالاضافة الى الساقية التابوت الذى يشــبه الساقية إلا أن له تجاويف فى جسم الاسطوانة بديلا عن الأوانى الفخارية فى الساقية •

ومن أهم الآلات الزراعية المستخدمة فى السودان المحراث والزحافة وتسمى « واســوق » ويستخدمها فردان أو فرد واحــد وهى عبــارة عن لوح خشبى مستو يسحب من الأمام بحبــل مزدوج متصل بسطح اللوح الخشبى لتسوية الأرض وعمــل الجسور ، والقصابية وتستخدم لتسوية سطح التربة ، وعصا الزراعة ، وهى عصا خشبية تنتهى بطــرف مقوس ومفلطح وحــاد وتدفع هذه العصا لاحــداث حفرة توضع فيهــا البذور ، وبالاضــافة الى تلك الأدوات هناك الفأس والمنجل وسكينة الحصاد والنورج والمذراة •

الغــلات الزراعيــة :

القطــــن :

إذا حاولنا أن نتكلم عن أهــم المحاصيل الزراعية فى الســودان ، فلا شك أن القطن يأتى فى مقدمتها من حيث الأهمية البالغة التى أولاها لــه المسئولون فى السودان • وقد عرف السودانيون القطن منــذ زمن بعيد وصنعوا منه أقمشة عرفت باسم « الدمــور » وكانت هذه الأقمشة تقوم مقام العملات النقدية فى الأســواق ، إلا أن ذلك القطن كان من أردأ الأصــناف [1] •

وحتى فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر كان القطن الذى يزرع

---

(١) English, G. B. : Narrative of the Expedition to Dongola and Sennar. pp. 18-21.

أنظر أيضا :

Numerous Authors : Agriculture in the Sudan. p.

بها من نوع ردىء أيضا ولا يصلح الا « للتنجيد » • وفى سنة ١٨٢١ حدث فى مصر تحول كبير فى زراعة القطن ، ذلك أن المسيو جوميل Jumel الذى جىء به من فرنسا لتنظيم مصانع النسيج لاحظ نوعا جيدا من القطن فى حديقة محو بك فأعجب برتبته ، ونصح محمد على بتعميم زراعته فى الأراضى الزراعية بدلا من قصره على الحدائق [١] •

ولقد لفت نظر محمد على إرتداء أحد رجاله وهو المعلم حنا الطويل لثوب جديد مصنوع من قماش قطن « مكاده » بالحبشة ، فبعث الى حاكم سنار طالبا إرسال كمية من تقاوى هذا القطن لتجربة زراعته فى مصر [٢] • وطلب محمد على إجراء التجارب فى المزارع الحكومية بمصر ، وأسفرت النتائج عن وجود نوعين من القطن المكادى : أحدهما ذو لوزة سوداء ولم يعط محصولا وفيرا ، والنوع الآخر ذو لوزة خضراء ويعطى محصولا جيدا ، فأمر الباشا بالتوسع فى زراعة الصنف الأخير [٣] • وبمرور الوقت ساءت بذرة هذا النوع من القطن [٤] •

وقد أبدى محمد على إعجابه ، فى عام ١٨٣٨ / ١٨٣٩ — حين زار السودان — بالنتائج التى توصل إليها محو بك فى زراعة القطن بالروصيرص، فطلب إرسال كميات من بذرته لزراعتها فى مصر بعد أن تغيرت بذرة

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ٥٨٥ .

(٢) دفتر صادر معية تركى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٦٢٩ بتاريخ ١٧ ربيع الآخر سنة ١٢٤٠ هـ من الجناب العالى الى البك الكتخدا . انظر أيضا دفتر ٢٠ معية تركى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٤ بتاريخ ٢٨ شوال سنة ١٢٤٠ هـ من الجناب العالى الى محو بك حاكم سنار . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ١٦٩ — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٩٠١ بتاريخ ٣ ذى الحجة سنة ١٢٥٥ هـ من مجلس شورى المعاونة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفتر رقم ٢٠٠ عابدين — ترجمة الأمر العالى — رقم ٢٤ بتاريخ ٢٥ رمضان سنة ١٢٥٨ هـ من الجناب العالى الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية .

القطن المصرى وهبطت بالتالى أسعاره فى أوربا [١] • واستمر السودان يبعث ببذور القطن ذات النوع الجيد الى مصر لاستخدامها فى الزراعة [٢] ، وأحيانا كانت ترسل بعض الشجيرات المزروعة بعد عمل كل الوسائل والإحتياطات اللازمة لوصولها سليمة إلى مصر [٣] وهذا لا يعنى أن مصر ظلت تستورد هذه البذور والشجيرات على مر الأيام ، ولكن ذلك كان من قبيل التجارب ، بل إن مصر هى التى كانت ــ فى أحايين كثيرة ــ ترسل ببذور القطن إلى السودان عندما يحدث شح فيها حيث يتم توزيعها على الفلاحين هناك [٤] •

وكانت الحكومة تقوم بتشجيع الفلاح السودانى على زراعة القطن وذلك بتزويده بالبذور وتعليمه طريقة زراعته • ولم تقتصر زراعة القطن على فئات معينة كالمزارعين فقط ، بل طلبت الحكومة أن يقوم الآخرون أيضا بزراعته ، وحذرتهم جميعا من عدم زراعة كافة البذور وأن لا تترك «ولا بذرة واحدة » [٥] • كذلك ، لأجل زيادة تشويق المزارعين

---

(١) دفتر رقم ٢٠٠ عابدين ــ ترجمة الأمر العالى رقم ٨٣٤ بتاريخ ٢٥ رمضان سنة ١٢٥٨ هـ من الجناب العالى الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية .

(٢) دفتر رقم ٢٢٩ ديوان الكتخدا ا ــ وثيقة رقم ٨٣ بتاريخ ٦ جمادى الثانية سنة ١٢٦٨ هـ . ، أنظر ايضا : دفتر ٦٣٩ ديوان الكتخدا ــ وثيقة رقم ٥٤٩ بتاريخ ٩ ربيع الأول سنة ١٢٦٩ هـ الى الباشمعاون . دار الوثائق بالقلعة .

(٣) دفاتر محافظة سواكن (عربى) صادر ــ جـ ٢ دفتر ص /٨٥/٥/٢/٤ مكاتبة رقم ٤٣ ــ مأمورية توكر بتاريخ ٢٧ رجب ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفاتر محافظة سواكن (عربى) صادر ، نفس الدفتر السابق ، مكاتبة رقم ٥٤ بتاريخ ١١ رجب سنة ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٥) دفاتر محافظة سواكن (عربى) نفس الوثيقة السابقة ص ١١١ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

السودانيين على الإقدام نحو زراعة القطن على نطاق واسع ، قامت الحكومة برفع أسعاره عند شرائه منهم (١) •

ووصلت عناية المسئولين بزراعة القطن إلى حد أنهم كانوا يبعثون من مصر بمراسلات تشرح الطريقة المثلى لزراعته ، ويبدو أن زراعة القطن فى السودان لم تكن تحتاج إلى جهود ضخمة كما هو الحال بمصر ، من حيث تكرار الحرث والرى ، بل يزرع ببذر تقاويه فى الأرض مثل الذرة ، ثم تنظف الحشائش ، ولما ينمو الشجر لا يتأثر مطلقا بشىء ، ويروى أن شجرة القطن فى السودان تعيش حتى عشرين سنة (٢) • ويتضح من ذلك أن شجرة القطن فى السودان تعطى محصولا لسنوات متتالية ، واذا ما غرست أغراس جديدة من القطن كل عام أصبحت الأراضى الخالية — على حد قول أحد المسئولين آنذاك — « غابات قطن » (٣) • وحتى الجراد الذى عرف بخطورته فى السودان لا يحدث ضررا بالغا على القطن ، فبالرغم من أنه يأكل أوراقه وفروعه الا أن الشجيرت تنمو ثانية بعد ذهاب الجراد وتظل تعطى محصولا وفيرا • أما زراعة القطن فى مصر فلا تنجح إلا عاما واحدا من شدة البرودة ، حتى أن القطن الذى تتأخر لوزاته فى أيام الصيف يتلف من البرودة أيام الشتاء ويضطر إلى إعادة زراعته مرة أخرى • أما فى السودان فإن القطن يعطى لوزات صيفا وشتاءً إذا ما وجد ماءً يرويه • وفى أيام الصيف اذا شحت المياه تسقط أوراقه ، أما اللوزات « فتتكرمش » وتبقى ، وبعد زوال الحر تنتج أوراقا ولوزات جديدة (٤) •

---

(١) دفاتر محافظة سواكن (عربى) ص / ٣٨/٥/٢/٤ ج ٦ (رقم قديم ٣٥٥٣) الى محافظ السواحل بتاريخ ١٢ جماد أول سنة ١٢٨٨ من مكاتبة رقم ١٠٩١ ص ٢٠ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) محافظ ابحاث السودان — محفظة رقم ١٨ دفتر رقم ٤ وثيقة رقم ٢٤٥ بتاريخ ١٠ شعبان ١٢٨٢ هـ • دار الوثائق بالقلعة •

(٣) محافظ ابحاث السودان — محفظة ١٨ ، نفس الوثيقة السابقة •

(٤) محافظ أبحاث السودان • نفس الوثيقة السابقة • دار الوثائق القومية بالقلعة •

ومن بين الوسائل الأخرى التى اتبعت لتشويق الفلاح السودانى فى زراعة القطن أن الحكومة كانت تبعث ــ أحيانا ــ ببعض تقاوى القطن دون أن تتعاطى منه شيئا سواء بالنسبة لأسعاره أو نفقات نقله ، بالإضافة إلى أنها كانت تبعث إليه بالخبراء اللازمين فى شئون زراعة القطن لتبصيره بأفضل السبل فى زراعته (١) • وكانت أيضا لا تلزم الفلاح السودانى بدفع الأموال على الأراضى التى تزرع قطنا ، بل كانت تكتفى بتحصيل العشور (٢) •

وفى مقابل تلك التسهيلات كانت الرقابة صارمة على زراعة القطن فى السودان ، فلم يكن يسمح بأدنى تهاون ، لأن هذا المحصول ، على حد بعض التعبيرات التى رددها أحد كبار المسئولين آنذاك ، « •• ينتج منه ذهب أحمر ، ومن محصوله يتيسر سداد الأموال بمواعيدها •• وترتفع المشقات والمضايقات •• » (٣) وفى واحدة من الوثائق نقرأ تعنيفا شديدا لأحد المسئولين بسواكن ، ذلك لأنه سمح للمزارعين أن يضعوا بكل نقرة أكثر من ثلاث حبات من التقاوى حتى يفرغوا من زراعته على وجه السرعة (٤) • وكانت زراعة القطن فى السودان أشبه بالمعارك وخاصة فى عهد الخديوى إسماعيل ، فها نحن نقرأ إحدى الرسائل التى بعث بها مأمور « سنكات » بسواكن يشكو فيها من قلة الذين جندوا من العمال لإنهاء عملية زراعته ، ويطلب توفير المزيد منهم حتى « يصير

---

(١) دفتر رقم ١٩٣٨ ــ صورة الأمر الكريم الصادر الى مديرية بربر رقم ٨٠ بتاريخ غرة المحرم سنة ١٢٨٨ هـ ــ دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٩٣٨ ــ صورة الأمر الكريم الصادر الى مديرية بربر رقم ٤ بتاريخ ١٦ شوال سنة ١٢٨٧ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفاتر محافظة سواكن ــ دفتر ص ٢٧/٥/٤/ ــ مكاتبة رقم ٦٣ بتاريخ ١٢ رجب سنة ١٣٨٦ هـ ص ١٦١ ــ دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفاتر محافظة سواكن ــ نفس الدفتر والوثيقة السابقة .

الهجوم على زراعته » فى أيام قلائل قبل جفاف الأراضى وانقضاء موسم الزراعـــة (١) ٠

ولقد ازدهرت زراعة القطن فى عهد الخديوى اسماعيل فى السودان ولا سيما فى الأجزاء الشرقية منه ، وفى أحد التقارير المرسلة الى المسئولين بمصر نجد بيانا وافيا بأراضى السودان الخصبة والصالحة لزراعة القطن ، ففى مصوع مثلا هناك ١٫٠١٢٫٧٤٩ فدانا تصلح لزراعته ٠

وفى سواكن وطوكر وبعض الجهات المجاورة يوجد ما يربو على مائتى ألف فدان من الأراضى التى يمكن ريها بواســطة السيول فقط وتكون جاهزة لزراعة القطن ٠ وفى مديرية التاكة توجد أراضى مساحتها أكثر من سبعة ملايين فدان ، منها ما يزيد عن مليونين فى وادى القاش ، ويمكن زراعة مائة ألف فدان من أراضى هذه المديرية (٢) ٠ وفى مأمورية القضارف شرقى سنار والخرطوم حيث تقل الجبال والرمال فى هذه الجهة فان جميع أراضيها منبتة وصالحة للزراعة ، وتتشقق قبل موسم هطــول الأمطــار فاذا أمطرت السماء إنساب الماء فى هذه الشقوق وتشبعت الأرض بالماء ، وفى هذه الحالة يمكن زراعة مائتى ألف فدان من القطن (٣) ٠

وفى جهات سنار حيث التربة الصالحة تجود أيضا زراعة القطن (٤) ،

---

(١) دفاتر محافظة سواكن — دفتر رقم ص ٢٧/٥/٤/ (رقم قــديم ٣٥٨٠) — مكاتبة رقم ٩ ص ١٥ الى مامــور سنكات بسواكن بتــاريخ ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٨٦ هـ — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) محفظة ١٥٣ عابدين بتاريخ ربيع الثانى ســنة ١٢٨٨ هـ وهــذه البيــانات موجودة بالمحفظــة رقم ٢٣ ، دفتر ١ رقم ١. من محافظ أبحــاث الســودان .

(٣) محفظة ١٥٣ عابدين — نفس الوثيقة السابقة .

(٤) F. O. 87-1404 Chartum. Decemb. 10 th. 1857. John Petherick to L. Muller. H. B. M's Acting Counsul Cairo.

ونظرا للمساحات الشاسعة من أراضيها ، فانه يمكن أن تتجاوز المساحات المزروعة قطنا بها ثلاثمائة ألف فدان (١) .

وفى مديرية الخرطوم توجد حولها أراضى بها القليل من الرمال ، وبها مواطن كثيرة للقبائل على النيلين الأزرق والأبيض وبحر عطبره ، وجميع أراضيهم تروى بماء الأمطار ، بالإضافة إلى وجود أكثر من ألف ساقية ، وإذا أضفنا إلى ذلك كله توفر وسائل النقل فى المديرية نظرا لوجودها قرب الأنهار أمكن زراعة حوالى مائتى ألف فدان قطن بها .

وفى مديرية كردفان ، خاصة الجزء الجنوبى (٢) منها ، يمكن زراعة مائة ألف فدان من محصول القطن (٣) . وفى مديرية بربر — لاسيما عند تلاقى نهر عطبرة بالنيل وفى الزاوية المنفرجة التى أوجدها تلاقيهما — بضعة مئات ألوف من الأفدنة صالحة للزراعة ويمكن زراعة مائة ألف فدان منها قطنا . وفى مديرية دنقلة حيث توجد أراضى صالحة للزراعة بواسطة السواقى ، كان من الممكن زراعة نحو ستين ألف فدان من الأقطان (٤) .

ومن هذا كله يتبين لنا مدى المساحات الشاسعة التى يمكن زراعتها قطنا فعلا آنذاك ، ويجب أن نلاحظ أن هذا لا يعنى عدم إمكان زيادة هذه المساحات التى ذكرت ، ولكن على العكس من ذلك توجد مساحات أخرى من أراضى المديريات السودانية يمكن بقليل من الجهود أن تضاف إلى المساحات السابقة ، إذ كان نقص الأيدى العاملة فى السودان يمثل واحدة من المشكلات التى تقف أمام التوسع الزراعى هناك ،

---

(١) محفظة ١٥٣ عابدين — نفس الوثيقة السابقة . ، انظر أيضا : دفتر ١٨٤٧ معية سنية ، وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١١٨٨ هـ ص ٦٩ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) انظر : F. O. 78 - 1404 Op. Cit.

(٣) محفظة ١٥٣ عابدين — نفس الوثيقة السابقة .

(٤) نفس الوثيقة السابقة .

بالاضافة إلى سوء وسائل نقل المحصـــول سواء باستغلال الأنهـــار السودانية أو غيرها من وسائل النقل الأخرى فى أماكن انتاجه •

ويرتبط إسم أحمد ممتاز فى السودان بالقطن وخاصة فى الجـــزء الشرقى من البلاد • فقد شغل هذا الرجل وظيفة محافظ سواحل البحر الأحمر فى عهد الخديوى إسماعيل ، وبذل جهودا مضنية فى إستكشاف الأراضى الصالحة لزراعة القطن وتشويق الأهالى إلى الزراعة ، وطلب من مصر ارسال مقادير وافرة من البذور الجيدة وآلات لحلجه وكبسه واستخراج الميـــاه (١) •

ولقد أراد ممتاز باشـــا الاستفادة من مياه السيول التى تضيع ســـدى واستخدامها فى الزراعة ولا سيما زراعة القطن التى كانت شغله الشاغل آنذاك ، وذلك عن طريق عمل خزان لها قرب سواكن يتســـع لحـــوالى مائتين وخمسين ألف متر مياه صيفا وشتاء ، كما سبق أن ذكرنا ، وقدرت تكاليفه بثمانمائة كيســـة (٢) • ولم تكن قيمـــة هـــذا المشروع تكمن فى زراعة مساحات واسعة من الأراضى المخصصة لمحصول القطـــن أو غـــيره من المحصـــولات ، ولكن أيضا فى توفير ميـــاه الشرب العذبة ، بالإضافة إلى توفير قدر من المـــال للحكومة من جـــراء فرض مبلغ زهيد من المال لقـــاء هذه الخدمات (٣) ، ويبدو أن هذا المبلغ الذى فرضته الادارة هناك كان بقصد تغطية نفقات هذا المشروع • ففى مكان يدعى « شطة » أقام أحمد ممتاز سدا ترابيا ضخما لعمـــل هذا الخزان ، وسخر له الأهالى لإنجـــازه بأسرع وقت ممكن • ولقد لاقى أحمد ممتاز

---

(١) دفتر رقم ١٩٣٨ — اوامر صفحة ١٨ ، صورة الأمر الكريم الصادر الى مديرية بربر رقم ٤ بتاريخ ١٦ شوال ١٢٨٧ هـ • انظر ايضا :
Holt, P. M.; A Modern History of the Sudan. p. 73

(٢) محفظة ١٩ بحر برا ، وثيقة رقم ٢١ — تقرير احمد ممتاز ماحفظ سواكن بتاريخ ٩ شعبان ١٢٨٦ هـ — دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) محفظة ١٩ بحو برا — نفس الوثيقة السابقة •

بعض المصاعب من جانب جعفر مظهر باشا الذى شكاه الى الخديوى اسماعيل ، ولكن ــ كما يذكر البعض ــ لم يلتفت الخديوى الى ذلك الأمر ، فقد كان تفكيره فقط مركزا على القطن وكيفية زيادة أسعاره وقيمة الأموال التى تتأتى من ورائه خاصة وأنه كان يطلب المال بأى وسيلة لسداد ديونه • وبدلا من أن يعاقب ممتاز باشا دعاه إلى القاهرة لشرح أفكاره حول زيادة إنتاج القطن السودانى ، فكشف ممتاز باشا عن مشروع لانتاج نصف مليون قنطار قطن سنويا فى شرقى السودان ، وبناءً على الصورة الوردية التى رسمها ممتاز للخديوى طلب الأخير إليه أن يضع مشروعه فى حيز التنفيذ (١) •

وفى عام ١٨٧٠ عينه الخديوى حاكما عاما على الأراضى الممتدة فى سواكن ومصوع حتى الساحل الصومالى • وازاء هذا النصر الذى ظفر به ممتاز باشا راح ينفذ مشروعه ، وتحت تأثير من سلطته طلب من مدير التاكه أن يقوم ببناء « أطواف » * فى قوز رجب على نهر عطبره حتى يتم نقل قطن دلتا « القاش » الى مصر عبر النيل (٢) •

وفى عام ١٨٧١ أرسل الخديوى ، وربما ليتأكد من أن ممتاز باشا لم يخدعه ، مستشاره الخاص شاهين باشا كنج ليقدم له تقريرا عن مدى التقدم الذى أحرزه فى انتاج القطن ، وبالفعل وجد هذا المستشار أن ممتاز باشا عند وعده للخديوى ويعمل على قدم وساق فى إنجاز مشروعه القطنى ، وأثنى شاهين باشا على المشروع فى « شطه » ، وأوصى ببناء ترينكيتات Trinkitat (أطواف ــ أرماس) قرب توكر لشحن القطن ، ونصح بزراعة المزيد من الأراضى حينما لاحظ وجود الكثير من الأراضى

---

(١) Hill, R ; Egypt in the Sudan. p. 115.

(*) الأطواف هى عبارة عن الواح خشبية يشد بعضها الى بعض وتستخدم فى النقل عبر النيل •

(٢) Hill, Ibid. p. 115.

انظر ايضا : مكى شبيكه : السودان عبر القرون • ص ١٦٩ •

جاهـزة للزراعة وتمتد من منطقة راوية الى عقيق (١) . ونظـراً لنجاح زراعة القطن فى طوكر ألزم كل شخص هناك بزراعة مساحات من الأراضى أقلهـا من أربعـة الى خمسـة أفدنة ، ومن يأبى ذلك يفرض عليـه « إجبـاريا » ، على حـد قـول ما ورد فى إحـدى المراسـلات ـ ، « ... ما دام القصـد هو حصـول النفع لهـم لا لخلافهم واتسـاع معاشهم وانقاذهم من درجة الضيق .. » (٢) .

وتمتد مواسم زراعة القطن من أبيب الى أمشـير * ، وفى زمن الصيف لا يعتريه أى ضرر بسبب ترادف الأمطـار ، وكذلك فى الشـتاء لا يخشى عليه من شدة البرودة نظرا لقرب السودان من خط الاسـتواء ، وهكذا فان الحرارة والبرودة لا يحـدثان أى ضرر على زراعـة القطن السودانى فى تلك المنطقة (٣) .

وتجدر الإشارة هنا إلى إرتفاع أسعار القطن سواء فى السـودان أو فى مصر فى تلك الفترة من عهد اسماعيل وذلك بسبب الحـرب الأهلية الأمريكية ، وانقطاع تصديره من الولايات المتحـدة الى بلدان العالم الخارجى وخاصة أوربا ، ولكن عقب انتهـاء هذه الحرب ما لبث التجـار أن انصرفوا عن شراء أقطان السودان (٤) .

---

(١) Hill, Op. Cit. p. 116.
انظر ايضا شوقى الجمل : الوثائق السياسية لسياسة مصر فى البحر الأحمـر . ص ١٠١ .

(٢) دفاتر محافظة سواكن ـ دفتر ص ٢٧/٥/٤/ . مكاتبة رقم ١١٢ بتاريخ ٢٣ جمادى الثانيـة سـنة ١٢٨٦ هـ . ص ٨٣ دار الوثائق القوميـة بالقلعـة .

(*) أبيب وأمشير من الشـهور القبطية ، وكان يسير وفقها الفـلاح السـودانى وغالبا ما يقابل شهر أبيب شهر يولية ، وشهر أمشـير شهر فبرايـر .

(٣) دفتر رقم ١٨٤٧ ـ معية ـ من محافظة سـواحل البحر الأحمر ـ الى المعية السنية بتاريخ ٥ جمادى الثانية سـنة ١٢٨٨ هـ ص ١٤٦ ـ وثيقة رقم ٣ مرور . دار الوثائق بالقلعـة .

(٤) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ ـ ١٨٨٥ ص ١٠٣ ، انظر أيضـا : Holt ; op. cit., p. 73.

ولقد جرت محاولات ضخمة لنقــل القطن من مواقع الإنتاج وحتى وصـــوله إلى مصر ، وكان الجمل إحدى الوسائل التى ينقل عليها القطن من الحقول الى النهر ، وحينئذ تقوم المراكب بنقله الى بربر ، ومـــرة أخرى تقوم الجمال بنقله عبر الصحراء من « أبو أحمد » الى كرسكو ، على هيئة قوافل فى مدة تصل من عشرة الى خمسة عشر يوما ، ثم تشــحن إلى شلال أسوان ، وعليها هنا أن تقطع مسافة ما بين ثلاثة إلى أربعـــة أميال بالجمال حتى تصـــل الى أسوان ، ومرة أخرى يتم شحن القطن الى الاسكندرية عبر النيل (١) • ومن ذلك كله يتبين لنا أن محصـــول القطن كان يمثل واحدا من أهم المحاصيل الزراعية السودانية فى عهـــد الادارة المصرية ، وعلى وجه الخصوص فى عهد الخديوى اسماعيل ، ولقى اهتماما مكثفا من المسئولين فى جميع مراحله بدءا من إنتقـــاء البذور ومـــرورا بتمهيد الأرض وتوفير المياه وإنتهاءً بنقله إلى مراكز الشحن والتصدير ، كذلك وضح لنـــا أيضا أن المسئولين كانوا يسيرون وفق برامج وخطط مدروسة يقوم على تنفيذها رجـــال أكفاء أمثال ممتاز باشـــا فى شرقى السودان ، والذى إستحق أن يقرن إسمه مع اسم القطن فى السودان ، بالإضافة إلى وجود رقابة صارمة عليهم جميعا ، فكل هذه الخطوات كانت حلقات فى سلسلة قوية ، وكل حلقة منهـــا تؤدى إلى الأخـــرى لذا كانت النتيجة الطبيعية لكل تلك المقدمات المنطقية والعلمية انتـــاج وفـــير من القطن غطى الاستهلاك المحلى فى الســـودان ومصر وتم تصدير كميات ضخمة منه إلى الخـــارج إستطاعت فى فترة من الفترات أن تسيطر على الأســـواق الأوربية والعالمية • وفى النهـــاية أيضا إستطاع إنتاج القطن أن يساهم فى ميزانية الدولة بمـــا وفره من نقد ضخم أدى أيضـــا الى التخفيف من الأزمة الماليـــة التى كانت تمر بها مصر فى تلك الآونة •

الـــذرة :

ويعد محصول الذرة من المحاصيل الرئيسية والتقليدية فى السودان

(١) F. O. 78 - 1404 op. cit.

اذ أنه كان يعد الغذاء الرئيسى للمواطن السودانى ، وتوجد عدة أنواع له أهمها : « الفترينـــه » و « الكمرقى » ويزرعان فى شرقى السودان ، وأم قرظ والصفرا ويزرعان على النيل الأبيض و « المقــد » وهو من أجود أنواع الذرة السودانية (١) ٠

وتزرع الذرة فى الأراضى التى تعتمد على الرى الدائم أو الــرى الفيضى أو أراضى المطر ٠ وكان الســودانيون يقــومون بزراعتها مرة واحدة فى العام ، ولكن فى بعض المناطق زرعوها مرتين فى العام ، كأقاليم النوبة الشمالية ، فالزراعة الأولى كانت تعرف بالزراعــة الشتوية عقب الفيضان ويتم حصــادها فى نهاية شــهر مارس ، والزراعة الثانيــة هى الزراعة الصيفية وتبدأ بنهــاية شــهر ابريل ويتم حصــادها فى شــهر يوليــو (٢) ٠

وبالاضافة الى مناطق النوبة الشمالية فى زراعة الذرة نجــد منطقة التاكة تحوز على شهرة واسعة فى إنتاجه حيث أنتجت أنواعا منه ذات ســلالات ممتازة ســواء من حيث كبر حجمها وجــودة نوعها ونصــاعة بياضها وطيب مذاقهــا ، لذلك فقد كان يشــتد طلب الأهالى عليهــا فى أنحاء السودان لدرجة أن خبز القمح لم يكن يفضــل الخبز المصنوع من الــذرة إلا قليــلا (٣) ٠

ولقد حرص البشــاريون فى عطبره على زراعــة الذرة ولكنهم على الرغم من إمكانية الانتاج بصورة تكفى حاجاتهم ، فإنهم كانوا يعتمدون على إنتاج جيرانهم ، فكانوا يجلبونه من « قوز رجب » التى كانت تصلها

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ٠ جـ ١ ص ٣٦ ٠

(٢) Ibry C. L & Mangles : Travels in Egypt & Nubia p. 14.

انظر ايضا : مصطفى أبو شعيشع : المرجع السابق ٠ ص ١٦٤ ٠

(٣) بوركهارت : المرجع السابق ٠ ص ٣٠٥ ٠

الغـــلال من إقليم التاكه ، كذلك فقد كانت الذرة هى المحصـــول الرئيسى عند الميرفاب فى بربر (١) ، وفى جبل دول لم تجـد العساكر فى أواخـر ١٨٤٥ أى نوع من الحبــوب أفضل من الذرة والتى كان الأهالى يحرصون على زراعتهـا (٢) ، وحتى فى هرر أيضـا حرص الأهالى على زراعـة الذرة (٣) ، وكذلك فى فيزوغلى (٤) .

وفى محاولة لإدخال سلالات جيدة من الذرة إلى السودان ، نظـرا للإقبال الشديد عليها من الأهالى ، قامت الإدارة المصرية هناك بتجـربة نوع من الذرة الحبشية كانت تعطى محصولا وفيرا ، وبالفعـل نجحت التجـربة حيث أعطى كل عـود ذرة ما بين « سبعة كيزان أو ثمانية » مما جعل محمد على يطلب تجربة زراعته بمديرية القليوبية بمصر (٥) . ويذكـر فـرن Werne المهندس الألمانى الذى رافق سليم قبطان فى رحلاته لكشف النيل الأبيض أن سليما قـد أعطى السلطان (لاكونو) زعيم قبيلة البارى غلات زراعية من أجـود السلالات ومن أهمها الذرة النيلية والذرة العويجة (٦) . وكان إنتاج الذرة فى السودان يعمـل على سـد الاستهلاك المحلى ، بل وترسـل منه ـ فى بعض الأحايين ـ كميات ضخمة الى مصر يتم شراؤها من الأهالى حسب الأسعار الجارية « بدون

---

(١) دفتر رقم ١٥٨١ ـ صادر من خلاصات جمعية الحقانية ـ وثيقـة رقم ١١٣ بتاريخ ١١ صفر ١٢٦٢ هـ ـ دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٣٧٨ بعية تركى ـ ترجمـة الارادة رقم ١٣٣٢ بتاريخ ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٦١ ارادة الى مدير كردفان . دار الوثائق القوميـة بالقلعـة .

(٣) جريدة أركان حرب الجيش المصرى : العدد ٦ بتاريخ غرة رمضـان سـنة ١٢٩٤ هـ .

(٤) الوقائع المصرية : العدد ١٠٣ ، بتاريخ ٢٦ رجب سـنة ١٢٤٥ هـ ص ٤ .

(٥) دفتر رقم ١٦٩ صـادر شورى المعـاونة اقاليم ـ ترجمة المكاتبة التركية رقـم ٦١٣ بتـاريخ ٥ ذى الحجـة سـنة ١١٥٥ هـ . دار الوثائق القوميـة بالقلعـة .

(٦) Werne, Expedition to discover the Sources of the White Nile in the years 1840 - 1841, Vol. II. p. 77.

مجبورية » (١) وأحيانا أخرى كان يحدث العكس حيث ترسل مصر تقاويه اذا حلت مواعيد زراعته وكان المخزون قد نفد ، فكثيرا ما كانت تحدث ضائقة شديدة بسبب قلة هذا المحصول نظرا لعدم هطول الأمطار بالسودان (٢) • وكان الفائض من الذرة أحيانا أخرى يباع ومن أثمانه تصرف ماهيات بعض الجنود بالسودان (٣) •

الدخن :

ويجيء الدخن ، وهو حب صغير أصفر ، فى المرتبة التالية للذرة كأحد المحاصيل الغذائية فى السودان ، بل انه فى كردفان كان يعد غذاءً رئيسيا للأهالى (٤) ، حيث يعتمد عليه حوالى ٩٠ ٪ من سكانها • كذلك فإنه يزرع فى أقاليم النوبة الشمالية •

وتتم زراعة الدخن فى بداية موسم الأمطار ، ولا يحتاج فى زراعته إلى عناء شديد ، اللهم إلا شخصين فقط أحدهما يحفر الأرض حفرا متباعدة بمسافات محددة ، ويقوم الآخر بوضع البذور فى كل الحفر ثم يردمها بقدمه ، وتتم عملية نموه فى فصل الصيف ويستغرق نضجه حوالى أربعة أشهر • ويعطى الفدان الواحد من الدخن متوسطا قدره

---

(١) دفتر رقم ١٨٨٦ أوامر عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ١ ص ١٣ بتاريخ ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ هـ • أمر كريم الى مدير الخرطوم • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ٥٥٨ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية نمرة ٣ بتاريخ ٢٧ رجب ١٢٨٢ هـ • ارادة سنية الى ممتاز باشا محافظ سواكن ومضوع ، أنظر أيضا : دفتر ١٨٨٦ — أوامر عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ٦ ص ٦٩ بتاريخ ٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٧٣ هـ • أمر كريم الى مدير اسنا • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) دفتر ١٠٠٧ نظارة المالية — الى جدة وبلاد السودان وغيرها — وثيقة رقم ٣٧ بتاريخ ٧ ذى الحجة سنة ١٢٦٣ هـ الى حضرة خالد باشا حكمدار السودان • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٤) جريدة أركان حرب الجيش المصرى : العدد ٨ بتاريخ غرة جمادى الأول سنة ١٢٩٥ هـ • ص ٥٨٢ •

حوالى نصف أردب (١) • ويستخرج من الذرة والدخن شراب « البوظة » أو الماريسة (٢) •

القمـــح :

أما القمح فلم تكن الأهالى تهتم بزراعته كثيرا لأنه لم يشكل غذاءً رئيسيا لهم ، وكانوا يستعيضون عنه بالذرة • والمناطق التى كان يزرع بهـا قليلة جـدا سواء فى النوبة الشـمالية أو كردفان • وكانت زراعته تتم بواسـطة الرى الدائم عن طريق الآبار خاصة فى فصل الجفاف •

واشتهرت المحس بزراعته خاصة فى جزيرة « صاى » ورغم تشجيع الحكومة على زراعته الا أن إنتاجه ظل قليلا وكان تناوله يعد نوعـا من الترف (٣) •

محاصيل أخـرى :

كذلك فقد كانت زراعة الشعير قليلة فى السودان ، وهذا القليل منـه كان يزرع فى دنقلة بشـمالى السودان • ومن بين المحاصيل التى لقيت اهتماما كبيرا فى السـودان ، كانت النيلة ، حيث استخدم محصولها فى صباغة الملابس ، وكانت فى بادىء الأمر تنمو بريا دون تدخل بشرى (٤) ، ولكن الادارة المصرية فى السودان لم تقنع بهذا المحصول الضئيل منهـا

---

(١) دفتر رقم ١٦٢٦ ج ٢ معية سـنية — عربى صـادر اقاليم مديرية كردفان وثيقة رقم ١.١ ص ٨٩ ، بتاريخ ٣ جمادى الأولى سنة ١٢٧٧ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) نعوم شقير : المرجع السابق ج ١ • ص ٣٦ •

(٣) دفتر رقم ١٨٨٦ أوامر عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ٥ ص ١٨ بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ هـ • الى مدير كردفان •

انظر أيضا : مصطفى ابو شعيشع : المرجـع السابق • ص ١٧ •

(٤) دفتر ١٩٧ معاونة جهادية — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٤٤٨ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٥٣ هـ • من حكمدار السودان الى الجناب العالى • دار الوثائق القومية بالقلعة •

فرأت أن تقوم بزراعتها والتوسع فيها والعمل على تحسين أنواعها لأن نباتها ينمو دون عناء ، فضلا عن أن استخراج الصبغة منها سهل وميسور ، بالاضافة الى ما يدره هذا المحصول من أرباح طائلة [1] .

ولقد نجحت زراعة النيلة نجاحا عظيما نتيجة الجهود الضخمة التى أولتها الحكومة لزراعتها ، وقد لاحظ ذلك الرحالة هوسكنز Hoskins خلال زيارته للسودان حيث خصصت لريها فى « دنقلة العرضى » خمسة آلاف ساقية [2] . وفى أرقو وحدها خصص لزراعتها خمسمائة ساقية [3] . وفى كردفان زرعت مساحات شاسعة منها وبعثت الحكومة بخبيرين لزراعتها ، وآخرين لتجهيزها من حيث إستخراج الصبغة منها . وعقب نضج المحصول كانت غالبا ما ترسل البذور الى مصر فى صناديق أعدت لهذا الغرض [4] . وكانت الحكومة تسارع بمد يد العون عند حدوث أى نقص فى التقاوى ، التى تعددت أنواعها كالهندية منها والشامية [5] ووصل الاهتمام مداه ساعة أن طلب محمد على من حاكم دنقلة أن يمتنع عن زراعة القطن ويتوسع فى زراعة النيلة [6] . وقد لا ندهش لذلك الطلب اذا ما علمنا أن النيلة فى عهد محمد على كانت تدخل ضمن المحاصيل الاحتكارية التى كانت تعتمد عليها البلاد بدرجة أساسية فى دخلها القومى ، ولم يكن القطن عند محمد على فى ذلك الوقت قد أصبح

---

(١) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان . ص ٣٠ .

(٢) Hoskins ; Travels in Ethiopia. p. 177.

(٣) حسن أحمد ابراهيم : محمد على فى السودان . ص ١٥٢ .

(٤) دفتر رقم ١٨ صادر المعية . وثيقة ٦٧١ بتاريخ ١٢ جمادى الأولى ١٢٤٠ هـ . من الجناب العالى الى البك الكتخدا . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٥) دفتر رقم ١٩٧ معاونة جهادية — الى حكمدار السودان — ترجمة المذكرة التركية رقم ٤٨٨ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٥٣ هـ .
انظر أيضا : دفتر رقم ٦٠٠ ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ٢٣ بتاريخ ٩ شوال سنة ١٢٦٥ هـ . الى حكمدار السودان — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٦) دفتر رقم ٢٦ معية تركى — ترجمة المكاتبة رقم ٦٠ بتاريخ ١١ جمادى الآخر سنة ١٢٤٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

يمثل محصـــولا رئيسيا ونقـــديا فى الســـودان بل كان ذلك على عهـــد اسماعيل باشا •

وقد بلغ انتاج السودان من أقراص النيلة المصنوعة سنويا آلاف الاقات (١) • وكان الفـــدان الواحد من أوراق النيلة يعطى حوالى خمسين قنطـــارا ، ويمكن الحصـــول على مائة وســـتة دراهـــم من كل قنطـــار واحـــد (٢) •

ونود أن نشير هنا الى أن الحكومة ظلت تحتكر محصول النيلة فى عهد محمد على ، فكانت تشترى القنطار الواحـــد من الفلاح السودانى بسعر ١٢ قرشـــا ، وكانت تبيع هى الأقة الواحـــدة على شكل أقراص مجففة بسعر خمسة وسبعين قرشا للنوع الممتاز من الدرجـــة الأولى ، وخمسين قرشا للدرجة الثانية وخمسة وثلاثين قرشا للدرجة الثالثة (٣) • وقد ظلت الحكومة تحتكر النيلة حتى عام ١٨٣٩ حيث أعلن محمد على إبان زيارته للسودان حرية التجارة فيها ، مع إستمرار المعونات السابقة التى كانت تقدم لمزارعيها من قبـــل للتوسع فى زراعتها (٤) •

وكان لهذا الإعـــلان أثر طيب فى نفوس الفلاحين السودانيين خاصة فى دنقلة ــ أهم مناطق زراعة النيلة فى الســـودان ــ الذين كانوا قـــد

---

(١) محفظة رقم ٢٧١ عابدين ـــ ملف متفرقات السودان ، وثيقة رقم ١٦٧ بتاريخ ١٢ صفر ١٢٥٦ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر بدون رقم ـــ ديوان خديوى تركى ـــ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣٢٧ بتاريخ ٧ رجب سنة ١٢٤٥ هـ • من الجناب العالى الى حاكم دنقلة • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) دفتر رقم ٢٩٧ معاونة جهادية ـــ ترجمة المذكرة التركية رقم ٤٨٨ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٥٣ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٤) دفتر رقم ١٩٧ ـــ معاونة اقاليم ـــ صورة المكاتبة رقم ٨٠٨ بتاريخ ١٣ ربيع الثانى سنة ١٢٥٨ هـ • من الجناب العالى الى حكمدار الســـودان دار الوثائق القومية بالقلعة •

تقدموا بالتماسات الى الحكومة يرجون فيها السماح لهم بزراعة النيلة ، وبالفعل أجيبت طلباتهم ومنحوا « رخصا لزراعتها » (١) .

الأرز :

ومن المحاصيل التى حاولت الادارة المصرية زراعتها فى السودان بشكل منظم الأرز ، فقد كان هذا المحصول من قبل ينمو بريا ، بالاضافة الى ما كانت تزرعه من قبل قبائل البقارة فى كردفان على شواطىء البحيرات ، وكذلك فى جنوب السودان (٢) . الا أنه كان من النوع الردىء ذى الحبوب الصغيرة والمذاق غير المستساغ .

أما تلك الجهود التى بذلت لإدخال أنواع أخرى جيدة فكانت تتمثل فى إرسال بعض التقاوى من الأرز المصرى لتجربته فى أراضى السودان . ويبدو أن هذه التجربة كان مصيرها الفشل ، اللهم الا فى بعض المناطق القليلة فى السودان (٣) .

وفى سنار فشلت زراعته على عهد محمد على ، رغم الجهود المكثفة التى بذلت من أجل زراعته ، وقد شرح المسئولون عن زراعته عوامل الفشل التى كانت تتمثل فى صعوبة وصول المياه الى أراضى سنار نظرا لارتفاعها ، وكانت النتيجة أن العائد من زراعة هذا المحصول لم يغط نفقاته ، الأمر الذى دعا الى العدول عن المضى فى زراعته (٤) .

---

(١) دفتر رقم ١٩٧ — معاونة أقاليم — صورة المكاتبة رقم ٨٠٨ بتاريخ ١٣ ربيع ثانى سنة ١٣٥٨ هـ — من الجناب العالى الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) F. O. 78 - 1404.. Chratum Decemb. 10 th. 1858 John Pethrick to Muller.

(٣) دفتر رقم ١٠ معية تركى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٣٨ بتاريخ ٧ شعبان سنة ١٢٤١ هـ من حاكم سنار الى الجناب العالى . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفتر رقم ٧٦٤ ديوان خديوى تركى — ترجمة القرار التركى رقم ١١٧ ص ٤٠ بتاريخ غرة المحرم سنة ١٢٤٦ هـ دار الوثائق القومية بالقلعة .

وفى دنقلة نجحت زراعته نسبيا ، الا أن نفقات انتاجه أيضا كانت باهظة ، الأمر الذى جعل القائمين على زراعته يقصرونه على مساحات محدودة تكفى فقط حاجة عساكر الجهادية المقيمة بدنقلة (١) • فمن المعروف أن العساكر المصرية قد اعتادت أن تتناول فى وجباتها مقداراً من الأرز ، وأصبح هذا الطعام بحكم العادة ضروريا ، فلما وصلت هذه العساكر الى السودان كان لابد أيضا أن تستمر قائمة طعامهم كما هى ، وكثيرا ما وقع رؤساء الجنود فى مأزق بسبب تأخر ورود الأرز من مصر ، وأيضا بسبب عدم زراعته فى السودان أو بمعنى أدق عدم نجاحه فى التربة السودانية ، ولذلك فقد جرت كل تلك المحاولات لسد هذا النقص من ناحية ، ومن ناحية أخرى لكى يعتاد عليه الشعب السودانى كما هو المتبع بمصر ، خاصة وان السودان له من الأراضى الواسعة ما يساعد على تحقيق هذه الفكرة اذا ما زللت بقية الصعاب الأخرى كالمياه وغيرها • ورغم ذلك كله لم تنجح زراعة الأرز فى السودان وأصبح اعتماده كليا فى القرن التاسع عشر على ما تنتجه مصر • ومن المدهش أن الجهود قد وقفت الى هذا الحد فى محاولات زراعة الأرز فى السودان ، واستمرت الأوضاع كما هى حتى القرن العشرين !

قصب السكر :

وقد جرت محاولة لإدخال زراعة قصب السكر فى السودان ، وهو من المحاصيل الجديدة التى أدخلتها الادارة المصرية فى السودان ، وقامت بتجربة زراعته فى مساحة بلغت ثمانية عشر فدانا بدنقلة بقصد استخراج السكر منه (٢) •

---

(١) دفتر رقم ٧٦٦ ديوان خديوى تركى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٥١ بتاريخ ١٩ رمضان سنة ١٢٤٥ هـ • من حاكم دنقلة الى الجناب العالى •

(٢) دفتر رقم ٤٤ معية تركى ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٤٤١ بتاريخ ١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٤٨ هـ من الجناب العالى الى حكمدار السودان ، انظر أيضا شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل — جـ ٢ ص ١٤٢ .

ويبدو أن زراعته فى السودان كانت مبشرة فى بادىء الأمر مما دفع الحكومة الى التوسع فى زراعته فى جهات بربر وسنار لملائمة مناخهما ، وتوفر المياه اللازمة بهما عن طريق السواقى ، لدرجة أن مأمور دنقلة طلب من الحكومة إنشاء مصنع للسكر فيها وإرسال خبير فى هذا الشأن [1] .

ولقد تم إنشاء مصلحة حكومية للاشراف على زراعة القصب فى بلدة « الكاملين » على النيل الأزرق وفى جنوب (أبو حمد) [2] . ومع ذلك كله لم يكتب لزراعة قصب السكر فى السودان النجاح التام أو الاستمرار ، فلم يقبل الأهالى على زراعته ، ووقفت المياه حائلا دون نجاحه إذ أن زراعته تحتاج إلى كميات وفيرة منها وبشكل منظم ، بالإضافة إلى جهد شديد يبذل فى زراعته ورعايته . وهكذا قدر لهذا المحصول الفشل رغم المحاولات الجادة التى بذلت فى البحث عن عوامل فشله [3] ، ورغم المقدمات الطيبة التى ظهرت فى تجاربه الأولية .

البن :

ومن المحاصيل التى عرفها السودانيون أيضا البن ، والذى يعتبر من أهم المحاصيل الزراعية فى ساحل البحر الأحمر الغربى وخاصة فى منطقة هرر ، والذى فاق فى جودته سائر أنواع البن ، حتى أن البن الذى كان يباع فى « مخا » باليمن ، والذى اشتهر بجودته ، هو فى الحقيقة بن هرر زرع بها وقام التجار بتصديره وبيعه فى مخا [4] ،

---

(١) شوقى الجمل : المرجع السابق . ص ٤٤ .

(٢) Hoskins : op. cit. p. 5.

(٣) رئاسة مجلس الوزراء : مجموعة من الوثائق عن السودان . ص ١٠ .

(٤) جريدة أركان حرب الجيش المصرى — السنة الثالثة ١٢٩٤ هـ . الجزء الخامس — المجلد الأول ، أنظر أيضا : الوقائع المصرية العدد رقم ٦٥٦ الأحد ٢٨ ربيع الأول ١٢٩٣ هـ (٢٣ ابريل ١٨٧٦ م) ص [illegible] .

ذلك لأن العرف قد جرى آنذاك أن ينسب البن الجيد الى محل بيعه . وقد اشتهرت عدة قبائل فى هرر بزراعته مثل قبائل « اللالا » ، و « اينو شرشر » و « اويورا » و « العروس » (١) . وتثمر كل شجرة من أشجار البن فى السنة مرتين وكان مقدار ما يتحصل من الشجرة المتوسطة سبعة أرطال هررى وكل رطل يقدر بحوالى ٢٤٤ درهما (٢) . وقد كان أمراء هرر يحتكرون زراعة البن فى تلك المنطقة ولا يسمحون للأهالى بزراعته ، ولكن الادارة المصرية تدخلت فى هذه المسألة ، وسمحت للأهالى أن يشاركوا هم أيضا فى زراعته ، وطلبت إعلان ذلك للناس جميعا ، وأن يقوم الحكمدار بنفسه بالمرور على الأهالى للتأكد من تنفيذ هذا الأمر . وزيادة على ذلك طلبت بذل الجهد فى زراعته وتحسين انتاجه ، وأوصت بالاستعانة بخبراء فى هذا الشأن من الانجليز ممن لهم دراية بذلك (٣) .

وفى مديرية خط الاستواء أيضا جرت محاولة لزراعته هناك ، حيث قام أمين باشا باستيراد البن من أوغندا القريبة من المديرية ، وأدرك أنه طالما نجحت زراعته فى تلك الجهات المجاورة فانه بالتأكيد سوف تنجح محاولته أيضا فى المديرية وبالفعل أتت محاولته بنتائج طيبة ونجحت زراعته بمديرية خط الاستواء (٤) .

ولقد أدخلت الادارة المصرية فى السودان كذلك الكثير من أشجار

---

(١) جريدة أركان حرب : العدد السابق ص ٤٦٢ .

(٢) جريدة أركان حرب — السنة الثالثة — العدد ٦ بتاريخ غرة شعبان ١٢٩٤ هـ ص ٤٧٤ .

(٣) جورج جندى وجاك تاجر : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٦ ، أنظر أيضا : سجل رقم ١٠ اوامر عربية بتاريخ ١٢ شوال سنة ١٢٩٢ هـ (١١ نوفمبر ١٨٧٥) رقم ٤ ص ٣٧ ، أنظر أيضا : شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، الجزء الثانى ص ١٢٩ وأيضا شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر ص ٢١٨ .

(٤) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الإستواء — الجزء الثانى — ص ٥٠ .

الفاكهة كالبرتقال والليمون والرمان والعنب (١) • وكان البطيخ يزرع فى السودان من قبل وخاصة فى جهتى دنقلة ودارفور • وكانت له فائدة كبرى — بجانب أنه فاكهة — فى دارفور حيث يستخدم كبـديل للمياه طـوال موسـمه ، ولا يمكن للأهالى أن يقتربوا من مخـازن الميـاه الا بعـد نفـاد البطيخ (٢) •

وتوجد أنواع أخرى كثيرة فى منطقة هرر كالموز والنارنج والسفرجل وغـيرها (٣) ومن الجـدير بالذكر أن بساتين الفاكهة فى عهد الخـديوى إسماعيل كانت تعفى من الضرائب تشجيعا لزراعتها والإكثار منها (٤) • وقد عرف السودانيون أيضا زراعة الخضروات ، ولكن زراعتها لم تكن قـد أخـذت بعـد شـكلا كبيرا ، فمثلا لم يزرع فى هـرر إلا صنف البطاطس (٥) ، ويبدو أن الخضروات فى تلك الجهة كانت فى حاجة الى المياه الدائمة والعذبة وهذا ما لم يكن يتوفر ، بل أن أحمد ممتاز أوضح فى تقـرير له عام ١٨٦٩ إلى عدم توافر هذه العوامل لإنجـاح زراعـة الخضر فى معظم أنحاء السودان (٦) •

وقد اشتهرت السودان وخاصـة سـنار بانتاج نوع من التبغ وكثر

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على . ص ١٩٨ ، أنظر أيضا : عمر طوسون : المرجع السابق ص ٢٨ ، ٢٩ •

(٢) سجلات السودان — دفتر حسابات دنقلة وبربر رقم ٥٥٠٠ من الحجة ١٢٩٠ . ١٢ شـوال سنة ١٢٩٢ هـ ص ١٠ ، أنظر أيضـا : السيد يوسـف نصر : جهـود مصر الكشفية فى أفريقيا فى القرن التاسـع عشر . ص ١٨٥ .

(٣) جريدة أركان حرب : العدد ٥ بتاريخ غرة رجب سـنة ١٢٩٤ هـ . ص ٤٦٢ .

(٤) دفتر رقم ٥٢٩ معية سنية — مكاتبة رقم ٤ بتاريخ ٦ رجب ١٢٨١ من الجناب العالى الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية باقلعة .

(٥) جريدة أركان حرب : العدد السابق . ص ٤٦٢ •

(٦) محفظة ١٩ بحر برا — وثيقـة رقم ١٢١ بتاريخ ٩ شعبان سـنة ١٢٨٦ هـ . من أحمد ممتاز الى مهمند دار جنـاب الخديوى بمحافظ أبحـاث السـودان محفظة رقم ٢١ دفتر ١ .

تداوله خاصة فى منطقة شندى ويسمى باسم « تابا » ، وعقب إمتداد الحكم المصرى للسودان أدخلت زراعة نوع جديد من الدخـان فى بلاد القضارف إمتـاز بجودة نوعه وعرف باسم « التنبـاك »(١) •

كذلك فقد عرف السودانيون زراعـة الكتان الذى كان ينمو بريا وخاصة بكردفان ، وقد طلب المسئولون بمصر جلب بعض منه لتجربته فى مصر لمعرفة مـدى فائدته فى صنع الحبال ، ويبـدو أن تجربته قـد أظهرت نتائج مشجعة مما دعا المسئولين الى التوسع فى زراعته خاصـة فى جهة دنقلة ، وقد طلب حاكمها السماح بزراعة هـذا المحصول بهـا فأجيب الى طلبه وأرسـلت له التقاوى اللازمة (٢) •

وتجـدر الاشـارة الى نبات آخـر اشتهر به السـودان وهـو « السنامكى » والذى كان ينمو بريا وخاصة فى النوبة الشمالية ، كـذلك فقد عرفت زراعته فى جهات النيل الأزرق • وتستخدم أوراق هذا النبات كمسهل • وقد ظلت الحكومة تحتكره حتى عام ١٨٤١ (٣) •

ومن محاصيل السودان الهامة والشهيرة الصمغ أو ما عرف باسـم الصمغ العربى وقـد اشتهرت به كردفان على وجـه الخصوص ، ونظرا لأهميته فقد أنشأ محمد على مصلحة خاصة به وعين لها ناظرا يقـوم بالإشراف على جمع المحصـول ، بل إنه زيادة فى العناية والحرص ، ورغم وجـود هذا المسئول فى كردفان مـكان انتاجه ، فانه كان يرسـل فى بعض الأحيان أحد كبار الموظفين للاشراف على جمع ونقـل هذا المحصول من كردفان الى دنقلة ، ثم يبدأ موظف آخر يتولى الاشراف على نقـله

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق • ص ١٥٤ •

(٢) دفتر رقم ٧٤٠ — ديوان خديوى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٦٠١ بتاريخ ٢٦ رمضان سنة ١٢٤٣ هـ • من المعية الى أميرالاى الجهـادية • ، أنظر أيضا : دفتر رقم ٧٦٦ ديوان خديوى — ترجمة المكاتبة التركية بتاريخ ٢٧ رمضان سـنة ١٢٤٥ هـ • من الجناب العالى الى حاكم دنقلة • دار الوثائق القومية بالقلعـة •

(٣) دفتر رقم ١٢٥٨ — ايرادات — وثيقة رقم ٢٥١ بتاريخ ٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٥٧ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

من دنقلة الى حلفا ، وثالث من حلفا الى أسوان وهكذا حتى يضمن سلامة وصوله الى مصر [١] • وقد كان المحصول الذى يتم جمعه من السودان يقدر بحوالى خمسين ألف قنطار فى العام اذا كان الموسم جيداً من حيث كثرة الأمطار ، وبخمسة عشر ألف قنطار فى المواسم الشحيحة [٢] •

وللصمغ فى السودان أنواع عدة عرف بها مثل العطيش والنقى والزغل [٣] • وقد كان محمد على يحتكر محصول الصمغ ولا يسمح لغيره بالمتاجرة فيه ، فقد طلب فى إحدى رسائله لمدير التاكة فى عام ١٨٤٧ بأن « يمنع العرب من جمعه » حيث كان هؤلاء العرب يبعثون به الى الحجاز [٤] • وقد كان الباشا يعول أهمية بالغة على المحاصيل التى كان يقوم باحتكارها ومن بينها الصمغ ، ولم يكن ليسمح بأى تهاون فيها ، فهى تمثل عنده ركنا أساسيا فى موارد البلاد النقدية حيث كان يصدره للعالم الخارجى ، فهو مثلا يتدخل فى أدق شئون الصمغ ويطلب بل ويشرح الطرق المختلفة لحفظه من البلل ، ووصل به الأمر الى فصل أحد المسئولين الكبار لاهماله فى العناية بهذا المحصول الحيوى [٥] •

---

(١) محفظة رقم ٢٧١ عابدين — ملف متفرقات — وارد من احمد باشا الى دولة الباشمعاون فى ٢٠ المحرم ١٢٥٦ هـ ، أنظر أيضا : محمد الأمين سعيد سياسة محمد على فى السودان — رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ص ٤٤ .

(٢) محمد الأمين سعيد : المرجع السابق ص ٤٤ .

(٣) دفتر رقم ٣٣١ صادر المعية — وثيقة رقم ٩١٠ بتاريخ ١٥ جمادى الأولى ١٢٦٤ هـ . ارادة الى الباشا الكتخدا .

(٤) محافظ أبحاث السودان — محفظة رقم ١١ كتاب رقم ٤١٣ صادر المعية وثيقة رقم ١٣٥١ بتاريخ ١٥ ربيع الآخر سنة ١٢٦٣ هـ . كتاب الى مدير التاكة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٥) دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى — ترجمة الارادة التركية رقم ١٥٦٧ بتاريخ ١٠ رجب سنة ١٢٦١ هـ . ارادة الى مدير دنقلة . ، أنظر أيضا : دفتر ٢١٥ عابدين — بند المتفرقات — ترجمة الافادة التركية رقم ٣٤ بتاريخ ٢٣ ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ . من المعاون الى مدير دنقلة .
دار الوثائق القومية بالقلعة .

الثروة النباتيـــة :

وقد تميز السودان بأعداد وفيرة من الأشجار أشهرها النخيل وهى تكثر فى بلاد النوبة وتشتهر بأجـــود أنواع التمر ، وأفضلها نخيل سكوت الذى حــاز شهرة واسعة ، ثم نخيـــل المحس ، ثم نخيــــل الشايقية فى جنوبى دنقلة • والدوم من أخص أشجار الســــودان ، وهــــو ينتشر فى أجزاء متفرقة من البـــلاد •ويقوم السودانيون بتجفيف ثمره ثم يدقونه ويستخدمونه كغذاء (١) • ولمـــا رأت الادارة المصرية فى عهـــد الخديوى اسماعيل ضرورة مد خطـــوط التليغراف فى أنحـــاء السودان وجدت أن شجر الدوم يصلح لهذه الخطوط ، فرأت الاستفادة من أشجاره فى هـــذا الشأن خاصة وانه يوجد بكثرة (٢) •

كذلك زخر السودان بأشجار أخرى مثل شجر الدوليب الذى يشبه أشجار الدوم ، والعرديب وهو شجر التمر الهندى ، وأشجار السدر وهى النبق ، وكذلك الجميز ، وأشجار السنط الذى اشتهر بصلابة أخشـــابه وثقلها وكانت تصنع منها المراكب الكبيرة وآلات الســـواقى فى السودان •

وكذلك وجدت أشـــجار « الأبنوس » التى اشتهر بها الســـودان وهى تكثر على النيل الأزرق ، ومن أخشابه كانت تصنع الكراسى والموائد والصناديق والعصى والمسابح • وهناك أيضـــا شجر « العشر » الـــذى يستخدم فى صناعة البارود والحبـــال والقوارب الصغيرة وأسرجة الحمير وألواح الكتابة (٣) •

وبالاضـــافة الى ذلك وجدت أشـــجار « الأراك » الذى يستاكون

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق • جـ ١ ص ٢٩ •

(٢) دفتر رقم ٥٦٠ معية تركى ـــ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣٤ ص ٨٧ بتاريخ ٢١ محرم سنة ١٢٨٣ هـ • من شريف باشا الى المهندار • دار الوثائق القوميـــة بالقلعـــة •

(٣) الوقائع المصرية : العدد ٥٤٨ ، الخميس فى ٢٠ ربيع الآخـــر سنة ١٢٤٩ هـ •

انظر أيضا : نعوم شقير : المرجع السابق ، ص ٢٩ وما بعدها •

بفروعه بعد تهذيبها ، وأشجار الخروع ويستخرجون منها زيتا يدهنون به أجسادهم ورؤوسهم • وكذلك وجدت « الحلفا » وهى من النباتات الشهيرة أيضا فى السودان وتأكلها الجمال والدواب وتجفف وتصنع منها حبال يشدون بها السواقى والأسرة (١) •

وبالاضافة الى هذه الأشجار وجدت أنواع أخرى أيضا مثل « السليق » الذى يعتقد بعض السودانيين أنهم اذا أرادوا أن يقدموا على شيء قطعوا غصنا منها وحملوه بأيديهم ظنا منهم أن حاجاتهم سوف تقضى بحمله (٢) • وهناك شجر « السردل » الذى ينبت فى كنف الجبال ويدوم أزمانا طويلة ، وتوجد أيضا شجرة « أبو خميرة » وهى تشبه شجر التمر حنا ويؤكل ورقها كورق « العرديب » ويداوى به بعض الأمراض التى تصيب العين ، وله ثمر كألسنة الحيوانات (٣) ، وهناك أنواع كثيرة أخرى من هذه الأشجار مثل « اللعوث » و « الدبكر » و « أم شلله » وغيرها • وقد استخدمت الأشجار فى دارفور لتخزين المياه بكميات ضخمة زمن الأمطار ، وتظل تشرب منها القوافل والأهالى لمدة ثلاثة شهور (٤) •

وكانت مصر فى حاجة الى أخشاب السودان ورأى المسئولين بمصر أن هذه الأخشاب لو عملت آرماثا وأرسلت الى مصر لانتفع أهاليها وتم توفير أثمان هذه الأخشاب ، وكانت الحاجة إليها شديدة فى مصر وخاصة فى المطابخ المصرية التى على حد قول المسئولين « لو استخدمت فسوف

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٣٥ •

(٢) الوقائع المصرية — العدد ١٠٣ ، الأربعاء فى ٢٦ رجب سنة ١٢٤٥ هـ ص ٤ •

(٣) الوقائع المصرية — العدد السابق • ص ٤ •

(٤) محفظة رقم ٢٩ معية عربى — مستخرج من المعية التركى رقم ٤٤ — ٤٢ بتاريخ ١٤ صفر سنة ١٢٨٤ هـ • من القائمام محمد نادى الى الخديوى انظر أيضا : السيد يوسف نصر : المرجع السابق • ص ١٨٥ •

يتضح مدى المبالغ التى يتم توفيرها » [١] • وبالفعل فقد جرت الاستعدادات من توفير الرجال والأدوات لقطع هذه الأخشاب فى عام ١٨٧٧ من غابات النيلين الأبيض والأزرق [٢] •

ولما رأى المسئولون بمصر غنى السودان بالثروة النباتية وتنوعها طلبوا إرسال عينة « فسائل أشجار وتقاوى نبات » من هناك وتجربتها فى الحديقة التى كان يجرى تنظيمها داخل سراى « طوب قبو » السلطانى بالأستانة [٣] •

وبالرغم من تلك الجهود التى بذلت للاستفادة من غابات ونباتات السودان فانها تعتبر جهوداً متواضعة، ذلك أن تلك الثروة النباتية الهائلة كان يمكن إستغلالها بصورة أفضل مما حدث نظرا لحجم المساحات الضخمة من الغابات وتنوع هذه الأشجار • ويبدو أن صعوبة التنقل والمواصلات فى السودان وخاصة فى الوصول الى تلك الغابات وعدم وجود الأيدى العاملة الكثيرة وندرة الأدوات الحديثة وأخيرا قسوة المناخ قد حال دون الاستفادة منها اقتصاديا بصورة كاملة •

الثروة الحيوانية :

وبالاضافة الى الثروة النباتية يمكننا أن نتكلم أيضا عن الثروة الحيوانية فى السودان لما لهذا الجانب من أثر فعال فى عملية الانتاج الزراعى ، وخاصة فى مجتمع السودان فى ذلك الوقت حيث كانت

---

(١) محافظ ابحاث السودان : محفظة ١٨ — وثيقة رقم ٢٤٥ بتاريخ ١٠ شعبان ١٢٨٢ •

(٢) دفتر رقم ١٨٥٢ معية عربى — صورة المكاتبة رقم ٨٨ ص ٦ الصادرة من المعية السنية الى نظارة المالية بختم سعادة المهردار بتاريخ ١٦ شوال سنة ١٢٨٨ هـ •

(٣) دفتر ٥٥٨ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣١ ص ٦٢ بتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٣ هـ • ارادة سنية الى حكمدار السودان دار الوثائق القومية بالقلعة .

الحيوانات كالجمال والثيران والأبقار تلعب دورا لا بأس به فى عملية الاقتصاد • ومن المعروف أن السودان أيضا بالاضافة الى غناه فى الثروة النباتية هو أيضا غنى بثروته الحيوانية سواء المستأنسة منها أو البرية ، ويمكن القول بأن الادارة المصرية منذ أن امتدت الى السودان استطاعت أن تستغل هذه الثروة الى حد كبير وتسخرها فى خدمة الانتاج السودانى أو الانتاج المصرى • وقد حث محمد على — منذ الوهله الأولى — رجاله فى السودان على الاجتهاد فى ارسال المواشى السودانية الى مصر • وقد حصل محمد على على هذه المواشى بثلاث وسائل : الأولى عن طريق شرائها من أصحابها والثانية عن طريق الغزوات ضد القبائل المتمردة فى جبال السودان ، والثالثة كانت تؤخذ — أحيانا — بدلا من الضرائب اذا عجز البعض عن دفعها نقدا (١) •

وكان الباشا يعين بعض « النظار » فى الأماكن التى تمر منها المواشى وهى فى طريقها من السودان الى مصر ، وخاصة فى جهات أسوان وجرجا والمنيا ، وكانت مهامهم تنحصر فى تقديم الكشوف التى تصل الى هذه المناطق وعدد ما ينفق منها فى مسيرتها الطويلة (٢) • بل انه زيادة فى الاهتمام أرسل فى احدى المرات أعدادا كبيرة من الضباط والمعاونين لتوظيفهم فى « أشوان المواشى الآتية من بلاد السودان » (٣) •

---

(١) حسن أحمد ابراهيم : محمد على فى السودان ص ١٣٨ — ١٤٠ .
انظر أيضا : Pallme : Travels in Kordofan. p. 37.

(٢) دفتر ١٨٩ ، شورى المعاونة الملكية — ترجمة الوثيقة رقم ١٦٧ بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١٢٥٩ هـ . افادة الى الترسانة . وهى موجودة بمحافظ أبحاث السودان محفظة رقم ٨ . دار الوثائق القومية بالقلعة
أنظر ايضا دفتر رقم ٣٦٩ معية تركى — وثيقة رقم ٤١٦٦ بتاريخ ٩ رجب سنة ١٢٥٩ هـ . ارادة الى الشورى . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ٢١٠ ، صادر ديوان المعاونة للاقاليم — وثيقة رقم ٣١١ بتاريخ ٦ صفر سنة ١٢٥٩ هـ — كتاب الى حكمدار السودان .
انظر ايضا : دفتر ٣١٧ — صادر شورى المعاونة — جهادية — وثيقة رقم ٧٤٩ بتاريخ ٨ شوال سنة ١٣٥٨ هـ . كتاب الى مدير الجهادية .

وقد وفر محمد على كل السبل حتى تصل هذه المواشى سليمة الى مصر ، من حيث الأعلاف وطريقة السير بها عبر صحراوات السودان وبين دور كل مديرية من المديريات السودانية والمصرية التى تمر عبرها هذه المواشى • وزيادة على ذلك كله أمر الباشا بارسالها فى فصل الخريف حتى يضمن وجود العلف الكافى لهذه الحيوانات (١) • وقد استمر ارسال هذه المواشى فى عهد خلفاء محمد على الى مصر ولكن بصورة متقطعة ، واستطاعت هذه الحيوانات أن تسد نقصا كبيرا فى حيوانات الزراعة (٢) سواء فى السودان أو مصر ، فهذه المواشى فى السودان استخدمت فى ادارة السواقى ، ويمكننا أن نتصور مدى الخسارة التى كان يمكن أن تواجهها مديرية كدنقلة — على سبيل المثال — اذا لم تتوافر مثل هذه الأعداد الهائلة من المواشى ، فقد كانت هذه البلدة وما حولها تعتمد بصورة أساسية عليها فى ادارة آلاف السواقى ، بالاضافة الى استخدامها فى عملية الحراثة وغير ذلك من المهام التى كانت تؤديها •

ومن بين الحيوانات الأخرى التى اشتهر بها السودان كانت الابل * ، وقد توفرت فى مناطق كثيرة من البلاد ، وكانت تؤدى هى الأخرى مهام عدة ، فقد كان السودانيون يقومون بتأجيرها لتجار الحضر ، بالاضافة الى أكل لحومها والانتفاع بأوبارها فى صناعة الخيام • الا أن الدور الكبير والرئيسى الذى لعبته الابل كان ينحصر فى الحمل والركوب ، ومن أشهر ابل الركوب والحمل ابل الهدندوة نظرا لشدة

---

(١) دفتر رقم ٧١ معية تركى — ترجمة الوثيقة رقم ٣٤٦ بتاريخ ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٥١ هـ ، انظر أيضا : دفتر رقم ٢٤ معية تركى — ملخص الوثيقة رقم ٢٨٠ بتاريخ ٢٢ شوال سنة ١٢٤٤ هـ ، انظر ايضا : دفتر رقم ٧٤ معية تركى — ملخص الوثيقة التركية رقم ٣١٢ بتاريخ ٢٨ شوال سنة ١٢٤١ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — المجلد الثانى — الجزء الثالث ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(*) ادخلت الابل الى السودان عن طريق الفرس منذ أن غزا قمبيز مصر عام ٥٢٥ ق • م •
انظر : Smith Hempstone, The New African p. 25.

صبرها على الجوع والعطش ، وأما ابل الركوب فأشهرها على الاطلاق ابل البشارية نظرا لسرعتها وخفة حركتها ولين ظهرها (١) .

وتجدر الاشارة الى أن الابل قد لعبت دورا هاما فى حملة عام ١٨٢٠ الى السودان ، فقد استعان الباشا بقبائل العبابدة فى جنوب مصر فى امداده بالابل لحمل الأمتعة والأسلحة عبر صحراوات السودان ، وقد ظلت الابل تلعب دورا هاما منذ ذلك الوقت فى الجيش المصرى بل حتى وقت قريب وخاصة بسلاح الحدود حيث توجد صحراوات واسعة على كافة حدود البلاد .

ومن العجيب أن الفلاح السودانى لم يستخدم الجمل بصورة كبيرة فى عملية الانتاج الزراعى اللهم الا فى مسألة نقل المحصولات الزراعية ، فلم يستفد منه — مثلا — فى ادارة السواقى مستغلا طاقته الكبيرة كما يحدث ببعض جهات مصر وخاصة بالوجه البحرى . وربما يرجع ذلك الى توفر البديل والمتمثل فى الأعداد الرهيبة من الثيران والأبقار بصورة لم تدع الى استخدام الجمل فى ادارة تلك السواقى ، وسهولة استخدام تلك الثيران والأبقار عن الابل ، وأصبحت هناك شبه قناعة بأن الابل ينحصر دورها فى عملية النقل والتنقل عبر الصحراء .

ولما كانت الأبقار والثيران ترسل الى مصر ، فقد أرسلت أيضا الابل لتؤدى دورها فى عملية الانتاج الزراعى بمديريات مصر (٢) .

وبالاضافة الى ذلك وجدت الأغنام والماعز فى السودان ، وعلى نطاق واسع أيضا ، ولكن يبدو أن الصوف والشعر الناتج عنهما كان قصيرا ، لذا فان المسئولين بمصر رأوا أن من الأفضل لو أرسلت أعداد من

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ١ . ص ٤٠ .

(٢) محفظة رقم ٢٧١ عابدين — نمرة اصلية ٢١ ، نمرة حمراء ٧٦ ، بتاريخ ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

الأغنام الى السودان فسيكون ذلك مدعاة لتحسين نسلها وظهور ذرية ذات صوف طويل (١) .

وتوجد أنواع أخرى من الحيوانات كالخيل بأنواعها الدنقلاوية والغرباوية والمكادية ، والحمير ، والبغال .

وربما يكون من المفيد أن نشير الى المكانة الهامة والخطيرة التى احتلتها الثروة الحيوانية فى حياة المجتمع السودانى ، فقد كانت تقيم مكانة الفرد بين قبيلته ، بل ومكانة القبيلة نفسها بين سائر القبائل الأخرى بما تمتلكه من هذه الثروة الحيوانية ، وحسب نوع الحيوان السائد فى كل قبيلة ، فعند قبائل البقارة فى غرب السودان وقبائل الدينكا فى جنوبه كانت تقدر بحجم الماشية التى فى حوزة كل من هاتين القبيلتين .

كذلك فقد لعبت الابل عند البجه دورا اجتماعيا هاما ، فالدية كانت تدفع ابلا ، وكذلك المهر ، وكانت الابل تفضل على سائر القطعان الأخرى كالأغنام مثلا ، ولا وجه للمقارنة عندهم بينها وبين الابل من حيث الأهمية الاقتصادية والوجاهة الاجتماعية اللتين تضفيهما هذه الثروة الحيوانية على مالكيها . فالقبيلة التى تنقص ابلها أو تبيد تتعرض لكارثة ، وربما تهن ويضطرب كيانها ولابد بعد ذلك ، ان أرادت الحياة ، أن تندمج فى قبيلة أخرى وإلا فالفناء مصيرها (٢) .

وبالاضافة الى تلك الجهود التى بذلت فى السودان للمحافظة على

---

(١) رئاسة مجلس الوزراء : مجموعة من الوثائق عن تاريخ السودان . ص ١٥ ، أنظر أيضا : محافظ أبحاث السودان ، محفظة ١٨ ، دفتر رقم ٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٤٥ بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله . ص ٥٢ .

الثروة الزراعية ، امتد الاهتمام الى محاربة الآفات التى تعرضت لها الزراعة كالجراد مثلا الذى كان يهجم على المزروعات ، ويؤثر بالتالى على حجم الانتاج الزراعى • ففى عام ١٨٦٥ عجزت الأهالى فى حلفا عن منعه فأكل مزروعات تلك الجهة ، حتى جريد النخيل ، ولم يترك شيئا من « المزروعات والأشجار حتى سقوف المنازل أيضا » (١) •

وكثيرا ما كان ينتج عن تلك الهجمات الشرسة التى يقوم بها الجراد على المزروعات شح فى التقاوى والخبز أيضا (٢) •

ولم تقف الحكومة مكتوفة الأيدى أمام هذا الخطر ، فكانت كثيرا ما تكل الى الجنود مهمة ابادة الجراد وتقليل خطره ، عن طريق تغيير مسار اتجاهه ، أو القيام بحفر حفر فى طريقه وإشعال النيران فيها (٣) •

كذلك فقد كانت المزروعات تتعرض أحيانا لخطر بعض الديدان ، فكانت ترسل عينة منها لمصر لفحصها وابتكار الوسيلة الملائمة للقضاء عليها (٤) • وبالاضافة الى ذلك فقد وجدت الفئران فى بعض جهات السودان والتى كانت تصيب المزروعات بالتلف البالغ من جراء ما تسببه من أكل لها (٥) • وقد انتشرت أيضا الصراصير وهى ذات نوعين فى

---

(١) دفتر رقم ١ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ٦٧ — ورد بتاريخ ليلة ١٤ جمادى الثانية سنة ١٢٨٢ هـ • من مفتش عموم قبلى الى سعادة رياض باشا • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ٣٩٣ صادر المعية السنية — ترجمة الارادة التركية رقم ٥٥ بتاريخ ٢٣ رمضان سنة ١٢٦١ هـ • ارادة الى مدير كردفان • ، انظر ايضا : محافظ ابحاث السودان — محفظة رقم ١٧ — دفتر رقم ٢ وثيقة بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) محافظ أبحاث السودان — محفظة رقم ١٠ ، وثيقة مستخرجة من الدفتر رقم ٣٩٣ صادر ديوان المعية — ترجمة الارادة التركية رقم ٦٢ بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ١٢٦١ هـ • ارادة الى مدير كردفان • دار الوثائق القومية بالقلعة • ، انظر أيضا :

Hill ; Egypt in the Sudan p. 55.

(٤) دفتر رقم ٢٠ معية تركى • ترجمة المكاتبة التركية ٢٨٥ — ٢٨ جماد أول ١١٤١ هـ من الجناب العالى الى حكمدار السودان — دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٥) نعوم شقير : المرجع السابق • جـ ١ ص ٤٩ •

السودان الأول منها يسمى « الجنـوب » وهـو صغير الحجم والآخـر يعرف باسم « الجدجد » وهو صرصار الليـل ، وتكثر هذه الصراصير فى مواسم الأمطار وتفتك بالبذور والنباتات الصغيرة ، وأخـيرا وجـد النمل الأبيض الذى انتشر فى معظم أرجاء السودان وكان هو الآخـر يلحق ضررا بالغا بالنباتات . وهذه الأخطـار التى تعرضت لها الزراعة فى السودان قد تركت بعض الآثار عليها . ورغم تلك المحـاولات التى بذلت فى القضاء عليها ، فقـد أمكن — كما رأينـا — وقف أو تقليـل أخطار بعضها على المزروعات ، وفى أحيان أخـرى كانت تحدث أضرارا جسيمة ، قد تؤدى الى مجاعات اذا كانت واقعة على الحبوب .

النظـم والقـوانين :

وفى ختام هذا الفصل نود أن نشير الى أن السياسة الزراعية التى اتبعت فى السودان طوال هذه الفترة ، قد استمدت معظم عناصرها ونظمها الرئيسية من السياسة التى اتبعت فى مصر آنذاك مع شىء من التعـديل الذى اقتضته ظروف السودان الخاصة ، لعل فى مقدمتها وأهمها نظـام الاحتكار الزراعى فى عهد محمد على ، فقد طبقه فى السودان وان لم يكن بنفس الشـدة التى طبقه به فى مصر ، فالاحتكار فى السودان لم يشمل الحبوب وغيرها من الغلات الغذائية التى كان يعتمد عليها الفلاح السودانى فى معيشته ، وما يقـال عن نظـام الاحتكار الزراعى يمكن أن يقال عن نظام السخرة الذى اتبع مع الفلاحين . والسخرة فى السـودان كانت تنحصر فى بعض نواح معينة كتكليف بعض الفلاحين المقيمين على ضفاف النيـل بتيسير مرور المراكب والقوارب الحكومية وسحبها حين لا تقـوى الريح على دفعهـا (١) .

---

(١) دفتر رقم ٣٩٢ معية تركى — وثيقة رقم ١٨٥٦ بتاريخ ٢٦ رجـب سنة ١٢٦٢ هـ من الجنـاب العالى الى حكمدار السـودان . دار الوثائق القوميـة بالقلعـة .

ولم يحدث ذلك الا فى بعض الأوقات وبشكل غير رسمى وتحت ظروف معينة • وكانت الحكومة ترسل بعض المسئولين للتحقيق فى مثل هذه الأمور وتعاقب المسئول عنها (١) •

وقد منع سعيد باشا بشكل قاطع أعمال السخرة فى السودان وطلب بأن « لا يصير تسخير أبقار ولا جمال ولا أخذ شيء من الأهالى بغير رضاهم » (٢) • وقد اعترف الأجانب ، رغم بعض تلك التجاوزات التى حدثت من قبل بعض المسئولين تجاه الفلاح السودانى على عهد محمد على ، أنه كان أسعد حالا من الفلاح المصرى (٣) •

ولم يشأ محمد على أو خلفاؤه أن يشتدوا فى تطبيق النظم والقوانين مع الفلاح السودانى كما فعلوا مع الفلاح المصرى ، لأنهم كانوا يعتقدون بأن الزراعة فى السودان فى حاجة الى النهوض ولابد من ترغيب السودانيين فيها • وأما ما يقال عن تلك الغلات التى شملها نظام الاحتكار فى السودان فقد كانت برية ، مثل الصمغ ، وبعض المنتجات الحيوانية ، فالصمغ كان متوفراً فى الغابات سواء بكردفان أو سنار ، وأما جلود الحيوانات فلم يكن السودانى يستفيد منها بصورة كبيرة نظرا لعدم معرفته بطرق اعدادها وتمليحها • وهذه الغلات كانت تشترى من المزارعين بأسعار زهيدة ، وأحيانا تؤخذ فى مقابل الضريبة المقررة عليهم • ولم تكن الحكومة تصر على هذا الاحتكار ، فخلال زيارة محمد على للسودان فى عام ١٨٣٨ / ١٨٣٩ استمع لبعض الشكاوى حول احتكار

---

(١) دفتر ١٨٨٦ — أوامر عربى — صورة الأمر الكريم رقم ٣٥ ص ٣٣ بتاريخ ٢٩ جمادى الأول سنة ١٢٧٣ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ١٨٨٦ — أوامر عربى — أمر الى الشيخ احمد على بشير شيخ ناحية احمد بشير بخط المتمه — أمر رقم ٣٥ ص ٣٣ بتاريخ ٢٩ جماد أول ١٢٧٣ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) Hoskins : Op. Cit. p. 232.

الحكومة لزراعة النيلة ، وأنهم يرغبون فى زراعتهـا لحسابهم الخـاص فما كان منه الا أن أمر بحرية زراعتها والاتجار بها (١) •

وقد خلص محمد سعيد باشا الفلاح السودانى من مشاكله الماليـة وذلك بالغاء الضرائب المتأخرة عليه ، وتخفيض الضريبة القائمة ، وأمر فى خلال زيارته للسودان عـام ١٨٥٧ بأنه من الآن فصـاعدا يقررون بأنفسهم ما يتفق مع ظروفهم وأحوالهم ، وكانت النتيجة لذلك أن أقبـل الفلاح السودانى على الزراعة بنفس راضية وانعكس ذلك كله على الانتاج زيادة ورخـاء (٢) •

وفى الفترة التى تلت عهـد محمد سعيد وحتى عـام ١٨٨١ ، بدأت تظهر بعض اللوائح والقوانين كأسلوب حتمى لمواجهة التطورات الزراعية فى السـودان والظروف المالية التى تمر بهـا البلاد ، وبدأ المزارعـون يتذمرون منها ، خاصة وقد اشتط الحكام فى اسـلوب تطبيقها مما أدى الى ضرورة بحث هذه اللوائح والقوانين حتى يتمكن الفلاح السودانى من القيام بأمـور زراعته ••• ذلك ما قام به بالفعـل رءوف باشـا فى تقريره المشهور عام ١٨٨٠ عن أوضاع المديريات السودانية ولـكن بعد فـوات الأوان • *

---

(١) محفظة ١٢٣ — ملـف متفرقات — دوسية بـدون تاريخ سـنة ١٢٥٤ هـ رحلة ساكن الجناب محمد على باشا الى السـودان — وثيقة رقم ١٠٨/٢٥ ملف السودان — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) Abbate : De l'Afrique Centrale ou Voyage Du S : A. Mohammed Said-Pasha dans Ses Provinces du Soudan. p. 47.

(*) سوف نعرض بالتفصيل فى فصل لاحق للضرائب وشئون المـال فى السـودان .

الفصل الثانى

الثروة المعدنيـــة والصناعة

(أ) البحث عن المعـــادن :

- الذهـــب
- الحـــديد
- النحـــاس
- الرصـــاص
- الملح فى الأجزاء الشرقية والجنوبية

(ب) أهم الصناعات وتطورها :

- الصناعات القائمة على الغلات النباتية :
  (صناعة حليج القطن ـ صناعة نسيج القطن)
- صناعة النيـــلة
- الصناعات الخشبية (صناعة المراكب ـ صناعة السواقى ـ صناعة الأسرة والأبواب والنـــوافذ ـ الأوانى والأوعيـــة الخشبية ـ صناعات أخرى) .
- الصناعات القائمة على أشجار النخيل والدوم .
- صناعة الصـــابون .
- صناعة قصب السكر .
- ادخال الحرف للسودان .
- عوامل فشل الصناعة السودانية .

الفصل الثانى

الثروة المعدنية والصناعة

لم يكتف محمد على ولا خلفاؤه فى السودان بالاهتمـام بالجوانب الزراعية وحسب ، ولكنهم راحوا يفتشـون عن مصدر اقتصادى آخـر يساعدهم على بناء دولة قوية موطدة الأركان • ومنذ أن وطئت أقـدام الجيش المصرى أرض السودان بدأ البحث عن المعادن ، بل قـد لا نسرف القول ان قلنا ان هـذا الاهتمـام كان قبل ذلك ، فقـد تردد كثيرا أن الذهب كان من بين الدوافع التى حفزت محمد على الى ضم السـودان الى مصر • ومما لا شـك فيه أن قيام أى نهضة صناعية فى أى بلد من بلدان العالم لا يمكن لهـا أن تزدهر أو حتى تقف على أقدامهـا الا اذا توافرت لهـا جملة أسـباب على رأسـها توافر مواد الخـام بصورة اقتصادية ، بمعنى أن هذه المواد الخـام لابد أن تكون متوفرة بشـكل يغطى جميع نفقـات البحث عنهـا والا أصبحت عملية التنقيب ضربا من التخبط الاقتصادى • ولهذا ، بدأ محمد على ، كمـا ذكرت ، ينقب عن هذه المعادن وفى مقدمتها الذهب الذى أولاه عناية بالغة •

(أ) الذهـب :

تركز البحث عن الذهب فىالسودان فى منطقتين رئيسيتين همـا : حول جهات فازوغلى وفى جبل شيبون الذى يقع جنوبى كردفان ، ولكن فى واقع الأمر ان التركيز فى البحث كان على أشـده فى منطقة فازوغلى •

وبمجرد أن سيطر اسماعيل كامل على سنار ، حتى قصد فازوغلى فى أول يناير عام ١٨٢٢ ، ومكث بها ثلاثة عشر يوما ، ثم مضى بعـدها الى جهات « القماميل » فى جبـال بنى شنقول ، وكان يرافقـه فى هذه

الرحلة أخصائى المعادن « المعدّن » « مليود » وبعض « اللغمجية » (١) .

وكان الأهالى فى هذه المنطقة قد حفروا عـدة آبار « مناجم » فى سبيل البحث عن هذا المعـدن ، فملأ اسماعيل من ترابها جوربين وأرسله الى الباشـا فى مصر لاخضـاعه للتجارب لمعرفة نوع الذهب ودرجـة جودته (٢) . وعقب تسلم الباشا للجوربين قرر أن يبدأ فورا البحث عن الذهب ، فطلب خبيرا أوربيا له دراية واسعة فى مجـال التعدين ، وأمر بارساله عقب فصل الخريف مباشرة إلى السـودان ليطوف مع نجـله فى تلك البلاد « فيعاين المواضع التى يرجى وجـود المعدن فيها ويتبين من حقيقة الحال بمقتضى صنعته . ثم يقرر ما وجـد ، ان وجد شـيئا وما لم يجده . فيقول الكلمة القاطعة ... » (٣) .

ويبدو أن الأحداث التى اندلعت فى السودان ، عقب الاجـراءات الضريبية التى اتخذها « حنا الطويل » وغيرها من الأسباب ، قـد حالت دون اتمام مهمة البحث عن الذهب . فعاد اسماعيل الى سنار ، ثم تطورت الأحـداث لتؤدى الى مقتـله فى اكتوبر عـام ١٨٢٢ ، ثـم تتلو ذلك أحـداث الدفتر دار الانتقامية . وأدت هذه الأحداث الى تهديد سلامة الطريق الى مناطق الذهب فى جهات فازوغلى وغيرها . وعقب هدوء هذه الأحداث وسيطرة الحكومة على الطرق المؤدية الى مناجم الذهب ، كلف محمد على فى عام ١٨٢٥ « بروكى » بصحبة درويش أغا « ناظر المعادن » للبحث عن المعادن بشـكل عام والذهب بصفة خاصة . ويبدو أن المسئولين

---

(١) حسن أحمد ابراهيم : محمد على فى السودان . ص ١٠٠ .

(٢) دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمـة الوثيقة التركية رقم ٢٤٠ بتـاريخ ٧ شـعبان سـنة ١٢٣٧ هـ . من الجنـاب العالى الى سر عسكر السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ١٠ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقـم ٢٤٥ ، بتاريخ ٧ شـعبان سـنة ٢٣٧ هـ من الجناب العالى الى سر عسكر السـودان . دار الوثائق اقومية بالقلعة .

بالخرطوم لم يذللوا مهمة بروكى فمكث بها حتى عام ١٨٢٩ ولما ينجز مهمته التى جاء من أجلها (١) ٠

وفى عهد حكمدار السودان خورشيد باشا « ١٨٢٦ — ١٨٣٨ » أولى عملية التنقيب عن الذهب عناية لا بأس بها ، فقد آل على نفسه أن يذهب على رأس المنقبين ، أو يرسل « عيسى أغا » الى جبال بنى شنقول من أجل انجاز هذه المهمة ، ولكن ثمة أمور حالت دون اتمام خورشيد لمهمته ، حيث ترامت الى سمعه أخبار تزعم أن الأحباش يدبرون مع بعض القبائل السودانية والعصاة الفارين الى تخوم الحبشة مؤامرة للقضاء على سلطة الحكومة فى الجزيرة وسنار واعادة السلطة لأهل البلاد (٢) ٠ إلا أن هذه القبائل السودانية ومن شايعها لم تنفذ مؤامرتها ، ولم تنزل من جبالها ، وربما كانت هذه الأنباء اشاعات مبالغا فيها ، أو أن هذه القبائل ربما ترددت فى هجومها بعد أن علمت باستعدادات الحكومة الضخمة للقضاء عليها (٣) ٠ وهكذا حالت هذه الأحداث دون ذهاب خورشيد الى مهمته ٠

ومن بين اهتمامات خورشيد بمعدن الذهب ، وفى محاولة لعدم تسرب الذهب السنارى الى جهات أخرى ، طلب هذا الحكمدار من محمد على أن يرسل اليه ألفى كيس * لشراء الذهب بواقع ثلاثمائة وخمسين قرشا للأوقية الواحدة (٤) ٠ وقد قام الباشا بتحليل ذلك الذهب

---

(١) ساماركو : رحلة محمد على الى السودان ٠ ص ٥ ٠

(٢) محفظة رقم ٢٦٢ عابدين — ترجمة الوثيقة التركية (بدون رقم) بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٢٥٣ هـ ٠

(٣) مكى شبيكة : السودان فى قرن ٠ ص ٤٢ — ٤٣ ٠
انظر أيضا : حسن احمد ابراهيم : المرجع السابق ص ١٠١ ٠

(*) الكيس = حوالى ٥٠٠ قرش ٠

(٤) دفتر رقم ٦٣ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٣٩ بتاريخ ٦ رمضان سنة ١٢٥١ هـ ٠ دار الوثائق القومية بالقلعة ٠

بدارسك النقــود بمصر • وبالفعل قبل الباشا طلب الحكمدار وأرســل له نصف ما طلبه من النقــود (١) •

وفى عام ١٨٣٧ خرجــت بعثة علمية ضخمة توفرت لهــا الكثير من الاستعدادات من خبراء وعمال وأدوات بهدف البحث عن الذهب تضــم ألفا من الجنــود « الجهــادية » برئاسة اللــواء مصطفى بك يصحبهم مسيو روسيجير Russegger ، ومسيو بوريانى Poreani الخبيران الموفدان من قبل محمد على للمساعدة فى البحث عن معدن الذهب ، ووصــل الجميع الى فازوغلى وشرعوا فى استخراج المعــدن واستمرار البحث عنــه ، ولكنهم لم يتوصلوا الى نتائج مرضية ، فتوجهوا الى جهة « سنجة » ومكثوا فيها ليلة ، توجهوا بعدها الى مكان يسمى « زنبو » فمكان يسمى « توجاتو » وقاموا بمسح هــذه المناطق ، وكانت النتائج كسابقتها • وأخــذ أفراد البعثة يتنقلون من مكان الى آخــر ، ويختبرون الرمال ، وتعرضوا فى عمليات البحث لمصاعب كثيرة خاصة من جانب بعض العبيد فى جبل سنجة (٢) ، ناهيك عن وعورة الأماكن ورداءة المناخ • وقد عــاد أعضاء هذه البعثة بعــد ستة أشــهر الى الخرطوم ، فأخــذوا يحللون ما تحصلوا عليه وعرض مسيو « روسيجير » ومسيو بوريانى نتــائج هذه التحليلات على الباشا فلم تكن مرضية ، فقد ورد فى تقرير بوريانى عن الذهب الذى عثر عليه فى طريق عودة البعثة الى الخرطوم « ان التبر المستخرج من الستة عشر قنطاراً من التراب الذى أخــذ من موضــع المعدن الكائن بجبل فازنقروا وغربل وغســل بمعرفة خمسة عشر جنديا فى ثلاث ساعات يكون بصفة معدل ثمانية قناطير وعمل سبعة « أنفار » والنصف فى ثلاث ساعات ، وصافى الذهب السنارى الحاصل من هــذه القناطير الثمانية بعد الغسل والتصفية والاذابة خمس عشرة حبة بحساب

---

(١) دفتر رقم ٦٧ معية تركى — ترجمة الأمر الكريم رقم ٥٨٨ بتــاريخ ٢٦ رمضان سنة ١٢٥١ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) رفاعة الطهطاوى : مناهج الالباب • ص ٢٢١ — ٢٥٣ •

القيراط والوقية والحبة الجارية الاستعمال فى الوزن القديم وباعتبـار الوزن السودانى • وعليه فيكون ما ينتج النفر الواحـد من سكان البلد الموجودين فى يوم بشرط أن يعمل عشر ساعات فيه من الذهب ست حبات وثلثى الحبة • وبما أن « وقيــة » الذهب تساوى ثلاثمائة وخمسـين قرشا فى بلاد الســودان فيكون قيمة ست حبات وثلث الحبــة الحاصلة من المعدن المذكور سبعة قروش و ١١ بارة (*) و ٦ ما نقر وثلث المانقر ، وعلى هذا الحساب اذا اشتغل شخص فى استخراج الذهب فيسـاوى قيمة ما يســتخرج فى اليــوم ٧ قروش و ١١ بارة و ٦ مانقــر وثلث المانقر ... » (١) •

وفيما يتعلق بالذهب فى جهـات قماميل ذكر بوريانى « أن التبر المستخرج من ستة عشر قنطارا من التراب الذى أخذ من موضع كائن بجبل « قشيش » من جبال قماميل وغربل وغسل بمعرفة عشرين جنديا فى ثلاث ســاعات يكون بصفة معدل ثمانية قناطير من التراب وعمـل عشر جنود فى ثلاث ســاعات وصافى الذهب السنارى المستخرج من هذه القناطير الثمانية بعـد الغســل والتصفية والاذابة ثلاث عشرة حبـة بحســاب القيراط والوقية والحبة الجارية الاستعمال فى الوزن القــديم وباعتبار الوزن الســودانى • وعليه فيكون ما ينتجه « النفــر » الواحد من أهالى البلد الموجودين فى اليـوم الواحد ــ بشرط أن يعمـل عشر ســاعات فيه ــ من الذهب أربع حبات وثلث الحبة • وبما أن وقية الذهب تســاوى ثلثمائة وخمسين قرشا فى بلاد السودان فيكون ثمن الحبــة من الذهب ٤٣ بارة و ٧ ما نقر ، وعليــه فيكون ثمن الأربع حبات والثلث الظاهر من المعدل أربعة قروش و ٢٩ بارة و $\frac{1}{2}$ ٥ مانقر وثلث المانقر •

(*) البارة اســم تركى اطلق على العملة المصرية « نصف فضــة » وتساوى ربع القرش •

(١) محفظة رقم ٢٦٥ عابدين ، ملف حكمدار السودان ــ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٨٨ بتاريخ ٢٢ محــرم ســنة ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة •

وعلى هذا الحساب فاذا اشتغل شخص فى عملية استخراج الذهب لنتج فى اليوم الواحد من الذهب السنارى ما يساوى أربعة قروش و ٢٩ بارة و ١/٢ ٥ مانقر وثلث المانقر (١) ٠

وعلى العكس من بوريانى فقد كان زميله روسيجير متفائلا فقد جاء فى تقريره « ان الشخص الواحد ينظف كل يوم ثلثمائة وخمسين أقة من الرمل ، فيتحصل منها ذهب قيمته من ثمانين قرشا الى مائة قرش ، فكأن هذا المعدل يزيد عن معدل مسيو بوريانى عشرين مرة (٢) ٠ وكان هذا الاختلاف بين التقريرين كفيلا لاثارة حنق الباشا على بوريانى ، الأمر الذى جعل الأخير يعدل عن رأيه — رغم اقتناعه به — قائلا ان الطريقة التى اتبعها مسيو روسيجير ، وهى التحليل بالزئبق ، تعطى نتائج أفضل من الطريقة التى استخدمها ، وان العامل الواحد فى البحث عن الذهب يستطيع أن يحصل على ما قيمته أربعين قرشا يوميا (٣) ٠

ونظرا لهذا التضارب الشديد بين النتائج الواردة فى التقريرين قرر محمد على أن يبحث الأمر على الطبيعة ، فعزم فى ١٥ أكتوبر ١٨٣٨ على القيام بزيارة الى السودان والى مناطق فازوغلى وبنى شنقول لمعرفة حقيقة المعادن وقد أعد الباشا العدة من أجل البحث عن الذهب من حيث الخبراء ، والعمال اللازمين لعملية التنقيب الذين استطاع أن يجهزا منهم أربعة آلاف ، ساعد فى جمعهم — بالأجرة — الشيخ ادريس من كبار المشايخ السودانيين القاطنين بالقرب من مناطق المعدن ٠ ووعد هذا الشيخ الباشا بالاتصال بسكان جهات بنى شنقول والقماميل

(١) محفظة ٢٦٥ عابدين : الوثيقة السابقة ، انظر : حسن احمد ابراهيم المرجع السابق ٠ ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) رفاعة الطهطاوى : المرجع السابق ٠ ص ٢٥٥ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٥٦ .

الخارجين عن سـيطرة الحكومة لاقناعهم بالدخـول فى طاعـة الحكومة والعمل فى مجال البحث عن الذهب نظير مرتبات لهم (١) ٠

وفى ١٤ يناير عام ١٨٣٩ وصـل محمد على الى فازوغلى ونزل فى قرية « فامكة » على النيل الأزرق ، ومن هذه القـرية بعث الباشا بثلاثة من خبراء المعـادن وهـم بوريانى الايطـالى ، ولمبير وأحمـد يوسف الجشنجى الى نواحـى « فاشـنغارو » وبنى شـنقول للبحـث عن الذهب (٢) ٠ وقام هؤلاء الخبراء بتجارب عدة وقرروا انهم تمكنوا من وجود أدلة تثبت وجود هذا المعدن (٣) ، مما دفع الباشا الى الانتقـال بنفسه الى هذه الجهات لتقرير الأمـر على الطبيعة ٠ ولقد قام الخبراء المعدنون بتجارب عديدة أملا فى الحصـول على نتـائج طيبة ، إلا أن هذه النتائج كانت كسابقتها مخيبة للآمال ٠ وجمع الباشا كل المهندسين للتشاور وقرروا عمل تجربة بأسلوب جديد حيث جمعوا الرمال من جميع الأماكن بمقادير متناسبة لمعرفة مقدار ما يمكن استخراجه منهـا وكانت النتيجة كالسابق (٤) ٠ وقام محمد على بتشكيل لجنـة لاعداد تقـرير شامل عن الأعمال التى قامت بها تلك البعثة أشير فيه الى فشل البعثة فى تحقيق هدفها ، فقد كان استثمار المناجم بواسـطة الغسل الاعتيـادى لا يمكن العامل من الحصول على ما يساوى ثلاثة قروش عن عمله فى اليـوم الواحـد (٥) ٠ وعلى هذا يكون الباشا قد فشـل فى الحصول على الذهب من جهات فازوغلى ٠

---

(١) محفظة ٢٦٥ عابدين — ترجمة الوثيقـة رقم ٤٤ / ١٩٩ أصلى بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٥٤ هـ ٠ دار الوثائق القومية بالقلعة ٠

(٢) محمد فؤاد شـكرى : رحلة محمد على الى السـودان — مقـال بمجلة كلية الآداب ٠ جامعة القاهرة ٠ العدد ٨ عام ١٩٤٦ ٠ ص ٤١ ٠

(٣) نفس المرجع ص ٥٣ ٠

(٤) رفاعة الطهطاوى : المرجع السابق ٠ ص ٢٥٨ ٠

(٥) سامارکو : المصدر السابق ٠ ص ١١ ٠

وبالرغم من ســوء النتائج التى توصــل اليها فريق الباحثين عن الذهب ، إلا أن الباشا لم يوقف عمليات البحث فى تلك الأماكن ، بل ترك وراءه نحو عشرين فردا منهم لمتابعة التنقيب (١) • وقد ارتبط بعملية البحث عن الذهب وزيارة محمد على للسودان انشاء مدينة عمالية اقترن اسمها باسم الباشــا وسميت بمدينة محمد على كما ســبق أن أشرنا اليهــا * •

ولا تعنى تلك النتائج غير المرضية التى توصل اليها محمد على أنه أهمل عملية البحث عن الذهب بعــد أن غادر السودان ، بل انه وعــد حكمدار السودان أحمد باشا أبو ودان أن يمده بكل الوسائل فى هــذا الصدد حتى يصل الى الهدف المنشود (٢) • ويبدو أيضا أن النتائج لم تكن مشجعة فى عهد أبو ودان ، فقد بعث بتقرير الى الجناب العالى من فازوغلى فى ١٧ ابريل عام ١٨٤٣ فيما يتعلق بأمور البحث عن هذا المعدن فى هذه المناطق أشــار فيه الى الفشــل الذريع الذى حاق بالخبراء فى الحصــول على هــذا المعدن بعد بحــوث وتجارب عديدة خاصــة فى « خور رونده » على بعد تسع عشرة ساعة ونصف من مدينة محمد على ، وكان جملة ما تحصلوا عليه أربعين أوقية من الذهب فقط (٣) •

وفى عهد الحكمدار أحمد باشا المنكلى طلب منه أن يذهب الى جهات فازوغلى وبالفعل أجرى ، ما بين عامى ١٨٤٣ ، ١٨٤٤ ، عدة تجارب لابحث عن الذهب فى الجبال الموجودة هناك ، إلا أن الكميات التى تم الحصول

---

(١) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٥٦ .

(*) انظر الفصل التمهيدى .

(٢) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٥٦ .

(٣) محفظة رقم ١٩ بحر برا — وثيقة رقم ٢٣ بتاريخ ١٧ ربيع الأول سـنة ١٢٥٩ هـ ، انظـر ايضا : حسن احمد ابراهيم : المرجع الســابق ص ١١٨ .

عليهـا لم تكن مشجعة على المضى فى البحث عنـه (١) • ومع ذلك فان محمد على قرر أن يرسل خبيراً من مصر ليتحقق من صحة النتائج التى توصل اليها المنكلى (٢) •

وواصل الحكمدار خالد خسرو « ١٨٤٥ ــ ١٨٤٩ » جهود سابقية فى البحث عن معدن الذهب فى جهات فازوغلى وبنى شنقول ، ذلك أن هـذا الحكمدار قد ترامى الى سمعه ، عن طريق الشيخ عدلان شيخ قبـائل العربان القاطنة جبل دول ، وجـود بئر قرب هـذا الجبـل ، فقـام الحكمدار بحمـلة فى عـام ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ / ١٨٤٧ م) من أجـل هذا الغرض وأخرى فى عام ١٢٦٤ هـ (١٨٤٧ / ١٨٤٨ م) الى جبـل قسان (٣) • ولأجل مساعدته فى انجاز هذه المهمـة أرسـل اليه محمد على مهندسا روسيا يدعى كوفالفيسكى Kovalvesky • وستمائة جمـل تحمل الأدوات من ترسانة بولاق (٤) • وعلى الرغـم من ذلك كله فان هذه المحـاولات ــ كالعادة ــ لم تأت بنتائج طيبة تتناسب والجهـود التى بذلت من أجلهـا (٥) •

أما المنطقة الأخرى التى جرى البحث فيها عن معدن الذهب فكانت فى جنوبى كردفان ونعنى بها « جبل شيبون » حيث زعم الأوربيون الذين زاروا هذه المنطقة ، أمثال براون Brown ، وبالم Pallme وبتريك Petherick وروسيجير ــ أن هذا المعدن متوفر هناك (٦) •

---

(١) محفظة رقم ١٩ بحـر برا ــ ترجمـة الوثيقة رقم ٦ بتاريخ ١٧ المحـرم ١٢٦١ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق ص ١١٨ ، أنظر ايضا : Hill : Egypt in the Sudan. p. 81.

(٣) محفظة ١٩ بحر برا ــ ترجمة الوثيقة رقم ٩٥ بتاريخ ٣ ربيـع اول سـنة ١٢٦٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) Hill; Op. Cit., p. 83.

(٥) Gessi; Op. Cit, p. 156.

(٦) Bell; S.N.R. Vol. 20 (1937), «Shaibon Gold», pp. 129-30.

ويذكر البعض أن الزنوج قد عملوا بالتنقيب عن معدن الذهب فى تلك الجهة ولكنهم لم يعلموا قيمته تمـاما ، بينما على العكس منهـم ، عرف الدناقلة ، الذين وصلوا الى هذه المناطق كتجار ، قيمته الاقتصادية فنقبوا عنه وربحوا من ورائه كثيرا (١) ٠

وقد طلب محمد على من الدفتر دار الذى ضـم اقليم كردفان أن يولى اهتماما كبيرا للتنقيب عن هذا المعدن النفيس ويبعث اليه بالنتائج التى يتوصل اليها فى هذا الصدد (٢) ٠

وقد أولى خالد باشا مسـألة البحث عن الذهب فى جبـل شيبون اهتماما بالغا ، حيث قام بتعيين « حسن حيدر باشا » مسئولا عن التنقيب عنـه (٣) ٠ ومرة أخرى ، نسجل فى هذه الجهة فشـلا لجماعات البحث عن معدن الذهب فى عهد محمد على ٠

وهكذا أنفقت الأمـوال الطـائلة التى تحملتها الخزينة المصرية فى سبيل ذلك من حيث اعداد الآلات اللازمة للتنقيب وحملها الى تلك المناطق النائية وفى اعداد المهندسين والعمال اللازمين ، ولم تكن بطبيعة الحـال الكميات التى تم الحصول عليها من الذهب ــ كما اتضح لنا من التقارير ــ تغطى النفقات الباهظة التى تحملتها خزينة الدولة فى مصر ٠ ويسـوق البعض (٤) عدة أسباب حول فشل بعثات التنقيب عن الذهب فى السودان على عهد محمد على وفى مقدمتها تلك التقارير المضللة التى تلقاها محمد على والتى تصـور لـه امكان العثور على الذهب ، ثم الطريقـة التى

---

(١) Pallme; Travels in Kordofan. pp. 160-61.

(٢) دفتر رقم ١٠ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٨ بتاريخ ٥ ربيع الأول سـنة ١٢٣٧ هـ ٠ دار الوثائق القومية بالقلعة ٠

(٣) Hill; Op. Cit. p. 83.

(٤) انظر : حسن احمـد ابراهيم : المرجـع السـابق ٠ ص ١٣٤ وما بعدها ٠

استخدمها الخبراء فى البحث والتى كانت بدائية ، بالاضافة الى العداء السافر الذى لاقتــه بعثات التنقيب من جانب الأهالى فى تلك المنـــاطق نظرا لما كانت تضمه هذه البعثات من عناصر أجنبية • وقد امتنع الأهالى عن مد يد المعــونة لهذه البعثات • كذلك فقد كره المصريون العمــل فى الســـودان عامة والجهـــات النائية منه كجبل شيبون وجهـــات فازوغلى خاصـــة ، كما أن المهندسين المسئولين عن التنقيب لم يجـــدوا المعاونة الكافية من المعسكر المسئولين عن حراستهم ، بالاضافة الى أن عـــرب الشـــايقية والزنوج السودانيين المكلفين بالعمــل فى التنقيب عزفوا عن هذا العمل وهرب بعضهم كما حدث فى عـــام ١٨٤٥ حيث فر ثلاثة من الشـــايقية (١) •

وقـــد تعرضت البعثات التعدينية فى أحـــايين كثيرة الى نقص فى المـــوءن بسبب هروب الأهالى وتركهم لأوطانهم ورفضهم امداد البعثات بما تحتاجه • وأخيرا يمكن أن نضيف لتلك العوامل السابقة صعوبة المناخ الذى لم يكن ملائما فى مناطق البحث لرجـــال البعثات المكلفة بالتنقيب ، فقد تعرضوا لبعض الأمراض كالملاريا التى أودت بأحـــد رجال البعثة التى تركهـــا محمـــد على فى الســـــودان وهـــو المســـيو « ليفبره » Levbre (٢) •

وبالرغم من ذلك كله فان خلفاء محمد على حاولوا أيضا البحث عن معدن الذهب فقد كانوا ـــ وخاصة فى مصر ـــ فى حاجة شـــديدة الى هذا المعدن وخاصة فى سك النقود ولذلك فاننـــا نلاحظ المراسلات العـــديدة

---

(١) دفتر رقم ١ / ٣٤٥٣ مديرية بربر والجاعلين عربى وارد • أمـــر رقم ٣٧٣ • ص ٢٦ بتاريخ ٤ جمادى الثانية سنة ١٢٦١ هـ •
دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) رفاعة الطهطاوى : المرجع السابق ص ٢٦٠ •

الواردة من مصر الى السودان فى طلب هذا المعدن • (١) وهذه المحاولات التى قام بها خلفاء محمد على كانت متواضعة للغاية وربما يرجع ذلك الى فتور الهمم ، خاصة عقب فشـل تلك الجهود السـابقة غير المشجعة ، أو الى اهتمامهم بنواحى أخرى مضمونة النتائج كالزراعة والتجارة • وللأسـف الشـديد فاننـا لم نعـد نسـمح على عهـودهم عن جلب آلات حديثة أو ارسـال خبراء متخصصين فى أمور المعادن الى السودان كما حـدث فى عهد محمد على ، بل ظلت عملية البحث والتنقيب متروكة لجهود الأهالى المتواضعة ، أو لمحـاولات الحكومة التى ظلت على منوالها القديم تخضع لأساليب بالية ثبت عدم جدواها اقتصاديا • ويبدو أن المسئولين فى هذه الفترة الطويلة قنعوا بالنتائج التى توصل اليها المنقبون فى عهـد محمد على ، ولم يتداركوا أوجه القصور التى كانت تواجـه هؤلاء ومن ثم يبدأوا من حيث انتهوا فآثروا السـلامة ، أو أن وجـود هذا المعدن فى تلك الأجزاء أصبح « أكذوبة » •

(ب) ــ الحـديد :

ولم يقتصر البحث عن المعـادن فى السـودان على معـدن الذهب وحسب ، بل اتجه الى المعـادن الأخرى كالحديد مثلا الذى اشتهرت به كردفان ، فصنع الأهالى منـه أدواتهم المنزلية وآلاتهم المستخدمة فى شئون الزراعة ورؤوس رماحهم وان استخدموا فى ذلك أساليب بدائيـة لصهر هذا المعـدن (٢) •

ولقد طلب محمد على الى الدفتر دار أن يتحقق من أماكن وجـود هذا المعدن الذى ترامى الى أسماعه بأن مناجمه توجـد بوفرة وأنه من

---

(١) امين سامى : تقويم النيل : المجلد الأول من الجـزء الثانى ص ٤٢٨

(٢) Hill; Op. Cit., p. 57.

النوع الجيد ، كذلك فقد طلب اليه أن يهيىء « الأسباب اللازمة التى تستوجبها سهولة استخراجه وصوغه .. » (١) وقد طلب محمد على من الدفتر دار أن يرسل الى مصر خمسمائة قنطار من الحديد ، حيث كانت الكميات التى تحتاجها مصر تستورد من الخارج (٢) .

ولقد قام خورشيد باشا حكمدار السودان فى عامى ١٨٢٨ ، ١٨٢٩ باستخدام الحديد فى صنع مسامير بترسانته فى « منجارا » على النيل الأزرق . وقد أرسل محمد على بعثة للتنقيب عن هذا المعدن ، تضم ثمانية من المكتشفين الانجليز ، الى منطقة على النيل الأبيض من أجل بناء مسبك « مصهر » ، وقد صحبهم أحمد أفندى يوسف المعاون الذى عين خصيصا كمسئول عن المصنع المزمع انشاؤه (٣) .

ولم تستطع البعثة أن تؤدى مهمتها على الوجه الأكمل ، فقد اصيب أفرادها بالأمراض ومات منهم الكثير (٤) ، مما شل عملها وبالتالى أدى الى فشلها ، فقرر محمد على عودة ما تبقى منها الى مصر (٥) . ولم نعد نسمع بعد ذلك عن استغلال معدن الحديد بكردفان إلا عندما أرسل المعدن روسيجير فى عام ١٨٣٨ على رأس بعثة رسمية . وفى العام التالى أرسل محمد على المهندس الفرنسى لامبرت Lambert الذى زار المنطقة وكتب تقريرا عن وسائل صهر الحديد المختلفة التى كان يستعملها العاملون فى هذا المجال (٦) . وفى عام ١٨٤٧ أرسل

---

(١) دفتر رقم ١٠ معية تركى ، ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢٤ بتاريخ ٣ صفر سنة ١٢٣٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) Hill; Op. Cit., p. 57.

(٣) Ibid, p. 57.

(٤) دفتر ٣٨ صادر المعية السنية . ملخص الوثيقة التركية رقم ٣١٥ بتاريخ ٢٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٥) دفتر ٣١ / ١٩ معية سنية عربى صادر ، الأمر الكريم رقم ٣٠٤ ص ٣٤ بتاريخ ٧ صفر سنة ١٢٦٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٦) Hill; Op. Cit., p. 58.

جون بتريك الى كردفان للتنقيب عن هذا المعــدن واستخراجه بوسائل حديثة ، وســافر بالفعــل وبدأ مهمته إلا أنـــه كان قد ترك الخــدمة بالحكومة ، واشتغل بالتجارة عقب وفاة محمد على (١) ٠

وفى عام ١٨٤٨ أرسل شخص يدعى ابراهيم أفندى بصحبة مهندس انجليزى وبعض « اللغمجية » للبحث عن معدن الحديد فى كردفان (٢) ٠ إلا أن العمــل قد توقف بناءً على طلب المسئولين نظرا الى أن الحديد المستخرج لم يعد يغطى نفقات استخراجه (٣) ٠

(جـ) ــ النحــاس :

وأما فيما يتعلق بمعدن النحاس فقد اشتهرت جنــوب دارفور به وخاصة فى الجهة المعروفة باسم « حفرة النحاس » ونظراً لأن دارفور لم تكن قد ضمت فى عهد محمد على ، وكانت حفرة النحاس بالتالى خارجة عن نفوذ الادارة المصرية فى السودان وتابعة لسلطان دارفور ، فقــد أرسل محمد على أحد أتباعه ويدعى أحمد بك ، الى دارفور للتشاور مع سلطانها فى كيفية استخراج النحاس هناك (٤) ٠ ويبدو أن هذه المساعى باءت بالفشل ولم يتمكن محمد على من الحصــول على النحاس فى تلك المنطقــة ٠

وقد ظل استغلال حفرة النحــاس يتم بمعرفة أهلها فقط ، وكان

---

(١) نسيم مقار : الرحالة جون بتريك ص ١ ٠

(٢) دفتر رقــم ١٤ / ٢٥ معية ســنية عربى وارد ــ وثيقــة رقم ٣٤١ ص ٦٤ بتاريخ ٥ ذى القعدة ســنة ١١٦٤ هـ ٠
دار الوثائق القومية بالقلعة ٠

(٣) دفتر رقم ٣٧ / ٢٢ ديوان المعية السنية عربى صادر ــ الوثيقة رقم ٢ ص ٧٩ بتاريخ ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٦٣ هـ ٠
دار الوثائق القومية بالقلعة ٠

(٤) دفتر رقم ١٠ صادر معية ــ وثيقة رقم ٢١١ بتاريخ غرة رجــب سنة ١٢٦٤ هـ ٠

سلطان دارفور يمنع الآخرين من استغلالها ، وتصريف النحاس للخارج • وفى عهد الخديوى اسماعيل أمكن الحصول على عينة من هذا النحاس وأخضعت لدراسات علمية تمهيدا لاستغلال هذا المعدن اقتصاديا • كما أن الزبير رحمت الذى كان مديرا لبحر الغزال أرسل عينة من هذا المعدن الموجود فى (حفرة النحاس) الى مصر لفحصها ، وكانت النتيجة أن النحاس المستخرج منها نقى وصالح للاستغلال (١) •

وقد جاء فى الوقائع المصرية بتاريخ ٣٠ ابريل عام ١٨٧٦ ، وطبقا للتقارير الواردة الى (أوستون باشا) رئيس أركان الحرب من « بوردى » أحد أعضاء الجمعية الجغرافية الخديوية الذى كان يقوم باستكشافات فى جهات دارفور ، أن معادن النحاس المشهورة بتلك الجهات تبعد نحو ثلاث مراحل عن قرية « قبيسة » الواقعة على الدرجة الحادية عشرة من العرض الشمالى ، وأنه يمكن معاينة هذه المعادن وكشفها وهو متوجه الى موقع « حفرات المعادن » لأجل الوقوف على الحقيقة » (٢) •

وفى أحد تقارير هيئة أركان حرب الجيش المصرى عام ١٨٧٨ ترد اشارات حول وجود معدنى الحديد والنحاس حيث استرعى انتباه أفراد البعثة المصرية وجود مجموعات جبلية كثيرة تمتد من منطقة الدبة الى الأبيض مثل مجموعة جبال « زريقة » و « أيد الزلطة » و « الكاب » و « الحرارة » و « نصب الحصان » وغيرها • وتأكد هؤلاء الأفراد

---

(١) محفظة رقم ٩ معية عربى مستخرج من المعية التركى رقم ٤١ — ٤٢ ، بتاريخ ٢٤ صفر سنة ١٢٨٤ هـ • تقرير من القائمقام نادى الى الخديوى — دار الوثائق القومية بالقلعة • أنظر ايضا :

شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل — الجزء الثانى ص ١٢٩ ، ١٣٠ •

(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — المجلد الثالث — الجزء الثالث — ص ١٣٢٢ •

من أن معظم هذه الجبال تزخر بكميات هائلة من المعادن وخاصة معدنى الحـديد والنحاس (١) .

معـدن الرصـاص :

وفى دارفور أيضا جرى التنقيب عن معدن الرصاص فى جهة « جبل الكتم » ، وفحص الميـاه المعدنية بجبل « مرة » فى عينين تسمى الأولى : بركة الانثى والثانية بركة الذكر (٢) . وقد دلت الاستكشافات المصرية التى تمت على أيدى هيئة أركان حرب الجيش المصرى فى غربى السودان بدارفور وخاصة ما ورد بتقـرير الضابط محمـود صبرى عن وجـود معدن الرصاص فى أنحـاء مختلفة من هـذه الجهات وخاصـة فى بلدة « البنداقة » الواقعة غربى الفاشر .ولعل اسم هذه البلدة يدل على كثرة ما كان يوجـد بها من معـدن الرصاص ، فهذا الاسم يعنى بلغة الفور المحلية كلمة الرصـاص ، كما أن شيخ البلدة كان يلقب باسم « ملك الرصـاص » (٣) .

وعلى سـواحل البحر الأحمر بجهات زيلع وجبـال بنى عامر بين سواكن وعقيق ، وعلى حدود هرر المتاخمة لشوا الحبشية ، كلف محافظ سواكن ووكيل محافظة زيلع (أبو بكر شحيم) وحكمدار هرر رءوف باشا

---

(١) جريدة اركان حرب الجيش المصرى — الجزء الأول من المجلد الثانى العدد رقم ٧ « تقرير احمد حمدى » ، انظر ايضا : عبد العليم خـلاف : المرجـع السـابق . ص ١٨٢ .

(٢) دفتر رقم ١٤٨ معية عربى — مكاتبة رقم ٥٢ فى ٢٧ ربيع الأول سنة ١١٤٣ من المعية الى حكمدار السودان .

(٣) جريدة أركان حـرب الجيش المصرى — السنة الثالثة — الجـزء الأول من المجلد الأول — العدد الأول فى ٢٧ شعبان سـنة ١٢٩٢ هـ (١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٦ م) تقرير متعلق بالخريطة الاستكشافية للجهات الشمالية الغربية من دارفور الخديوية مقدم من محمـود أفندى صبرى يوزباشى أركان حرب الى اميرالاى اركان حرب مأمورية استكشافات دارفور . ص ٤٩ . أنظر ايضا : عبد العليم خلاف : المرجع السابق ص ١٩٦ .

بفحص الفحم فى تلك الجهات وذلك حتى يتسنى معرفة مدى صلاحيته كوقود نافع (١) • كذلك فقد تم البحث عن معدن الملح فى جهات السودان ، وخاصة سواحل البحر الأحمر • وقد تكونت فى مصر عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) ادارة خاصة لهذا الأمر أطلق عليها « مصلحتا الملح والنطرون » كان من بين مهامها الاشراف على الملاحات الموجودة بسواحل البحر الأحمر واستغلالها ، والعمل على استكشاف ملاحات جديدة (٢) • وكان بزيلع وحدها خمس ملاحات ، نظمت فيها عملية الاستخراج والتصريف ، وكان الأهالى فى هذه المنطقة يعتمدون عليه اعتماداً رئيسيا فى تجارتهم ، وقد حرصت الادارة المصرية هناك أن يباع الملح للأهالى بسعر منخفض • وقد تم بناء مخزن للملح المستخرج فى زيلع وأرسلت عينات منه الى البلاد الأجنبية والى لندن على وجه الخصوص لعمل الدعاية اللازمة له (٣) •

وبالاضافة الى ملاحات زيلع ، توجد ملاحة « راوية » بجهة سواكن وأخرى بين سواكن ومصوع ، وكان الملح المستخرج من ملاحة راوية ينقل منها على الحمير حتى البحر ، ثم ينقل بعدها بحراً الى جدة (٤) •

وقد تم تنظيم هذه العملية بدقة بالغة تحت اشراف مسئولين

---

(١) دفتر رقم ١٨٣٥ معية عربى — مكاتبة رقم ١٠ فى ١٦ صفر ١٢٨٧ هـ من محافظ سواكن الى المعية السنية ، انظر ايضا : دفتر رقم ١٧ مكاتبة رقم ٢٠ سايرة فى ٥ رمضان ١٢٩٢ هـ • من رءوف باشا الى المعية ، وانظر كذلك : دفتر رقم ١٠ معية عربى — ص ١٣ فى ١٢ شوال ١٢٩٢ هـ الى حكمدارية هرر وملحقاتها . دار الوثائق بالقلعة .

(٢) شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ص ١٧٨ •

(٣) دفتر رقم ٢٤ وارد من معية عربى — مكاتبة رقم ٤٩ سايرة ص ٢٤ بتاريخ ٦ ربيع الأول سنة ١٢٩٤ هـ • من محافظ زيلع •

(٤) امين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا المجلد الثانى جـ ٣ ٩١٢ •

مسئولية مباشرة أمام كبار رجـــال الادارة ، وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الدقة ان وصلت ايرادات الملاحة المذكورة ــ فى عام ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م) وحده ــ الى عشرين ألف جنيه (١) .

وفى جنوب السودان كانت توجـد ملاحة واحـدة تسـمى ملاحة « أونجاتى » وهـذه الملاحة استطاعت أن تفى بحاجات جميع سـكان مديريتى بحر الغزال وخط الاستواء (٢) .

وبالرغم من تلك الجهود التى بذلت بحثـا عن المعـادن فى شرقى السودان إلا أن النتائج لم تكن أيضا بذات قيمة اقتصادية بحيث يمكن أن تشجع المسئولين على الاستمرار فى البحث عنها بصـورة أكثر جدية . وثمة ملاحظة عامة حول البحث عن المعادن فى السودان ينبغى أن تذكر لوجـه الحقيقة العلمية وهى أن المسئولين فى مصر بدءاً من محمد على وحتى عهد توفيق عام ١٨٨١ حين هبت رياح الثورة المهدية فى السودان ، لم يتقاعسوا فى البحث عن المعادن فى أرض السـودان شماله وجنوبه .. شرقه وغربه ، وان تفاوتت درجات الاهتمـام من حاكم الى آخـر ، فلا يمكن مثلا أن نقارن جهود محمد على فى هذا المجـال بجهـود خلفائه مجتمعين ... وهكذا يمكن أن نقرر ، بعد بسـط هذا الموضـوع وبحث الجهود المتوالية من أجله ، ان الآمال والطموحات (المعدنية !) كانت أكبر بكثير مما فى باطن التربة السـودانية فتوقفت الجهـود الى ذلك الحد ، وقنع المسئولون بتلك النتائج التى كانت لها انعكاسات خطـيرة فى عدم قيام صناعة قوية فى السودان فى ذلك الوقت .

ونتيجة لما سبق ، فان أى محـاولة لرصـد أو تتبع تطور الصناعة

---

(١) دفتر رقم ٢ أوامر عربيـة ص ١٢ ، رقم ٦ أمر كريم صـادر الى عمـوم شرقى السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر بتاريخ ٢٢ شـوال سنة ١٢٩١ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء ، الجزء الثانى ص ٥٦ ــ ٥٧ .

السودانية فى القرن التاسع عشر بصفة عامة ، سوف تكون مسألة شاقة أمام أى باحث فيها ، فسوف لا يجد صناعة قوية كما كان الحال فى شمال الوادى ، وينبغى عليه من ثم أن لا يضع فى ذهنه صورة لبعض البلدان الرأسمالية الأوربية — وخاصة فى القرن التاسع عشر — حيث بدأت بها ثورة صناعية — حتى لا تخرج النتائج مغايرة تماما ، كما أننا أيضا نحذر من استخدام بعض الاصطلاحات الخاصة ببعض المذاهب الاقتصادية ، اللهم فى بعض المواضع التى يناسبها المقام ، فى محاولة لشرح أوضاع الصناعة السودانية فى ذلك الوقت ، فالأوضاع جد مختلفة هنا وهناك ، اللهم إلا فى أمور قليلة فى مسيرة هذا التطور وخاصة فى عهد اسماعيل عندما بدأ الأجانب يشكلون قوة ضاغطة عليه فى السودان • وهنا بدأ السودان يتأثر بالفعل بما يجرى فى أوربا وتنعكس عليه ظروفه الاقتصادية التى جعلته يفتش عن أسواق جديدة لتصريف صناعاته •

لقد ظلت الصناعة السودانية فى بداية عهد محمد على — كما كانت قبل عام ١٨٢٠ تقتصر على انتاج سلع ضرورية تقوم على الغلات النباتية ، أو المنتجات الحيوانية ، بالاضافة الى بعض الأدوات التى صنعوها من المعادن كأدوات الحرب والقتال ، وأدوات الزينة ، وكلها صناعات بسيطة ، وكان يوكل أمر القيام بها عادة الى الرقيق والنساء اللاتى كن غالبا ما يقمن بأكثر الصناعات والمنتجات الريفية • ومع ذلك كله فقد كانت هناك بعض الصناعات السودانية على بساطتها تخدم بعضا من أمور الحياة فى البيئة السودانية ، ويسمح بتصدير الفائض منها — كالحصر مثلا — الى الخارج •

وبالرغم من ذلك كله يمكن القول بصفة عامة بأن الصناعة السودانية ظلت متأخرة اذا نظرنا بعين الاعتبار الى امكانات البلاد الطبيعية من حيث وفرة الخام — اذا استثنينا المعادن — والتى يمكن أن تقوم عليها بعض الصناعات التى تخدم نواحى النشاط الاقتصادى •

ومن الطبيعى خلال هذه المسيرة التاريخية الطويلة للحكم المصرى حتى عام ١٨٨١ أن تقوم بعض الصناعات التى تفاوتت درجة تقدمها طبقا لما كانت تعتمد عليه من مواد خام • وفيما يلى عرض لأهم تلك الصناعات :

(أ) الصناعات القائمة على الغلات النباتية :

١ ـ صناعة حلج القطن :

كانت هذه الصناعة فى بادىء الأمر وعلى عهد محمد على نادرة فى السودان ولم نسمع عنها بصورة قوية وربما سر ذلك أن زراعة القطن لم تكن قد ازدهرت بعد فى السودان ، إذ أن هذه الزراعة ـ كما علمنا ـ كانت قد بلغت مرتبة عظيمة فى عهد حكمدار السودان أحمد ممتاز على عهد الخديوى اسماعيل وعلى هذا فقد كان يتم تنظيف البذور فى محالج مصر (١) •

وتشير الوثائق أنه فى عام ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) قد حدثت مشقة حول وجود بذور القطن بالسودان نظرا لعدم توافر المحالج الكافية لهذا الأمر ، مما دعا المسئولين هناك الى ضرورة « حضور دولاب حلاجة أفرنكى » يمكنه حلج كمية ما بين عشرة الى خمسة عشر قنطارا فى اليوم ، بالاضافة الى حضور خبير له المام بتركيب هذه الآلة • كذلك فقد طلب المسئولون أيضا ضرورة العمل على ارسال عدة « دواليب » أخرى نظرا لما سيصير اصلاحه من الأراضى مما ينتج عنه بالتالى زيادة فى انتاج القطن السودانى (٢) • ولم يكتف رجال الادارة فى السودان

---

(١) دفتر رقم ٦٣٩ ديوان الكتخدا ـ وثيقة رقم ٥٤٩ بتاريخ ٩ ربيع الأول سنة ١٢٦٩ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) محافظ سواكن ـ صادر (عربى) دفتر ص ٤ / ٢ / ٥ / ٢٨ مكاتبة رقم ٣ بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١٢٨٦ هـ • ص ٥١ معية سنية . أنظر ايضا :محفظة ١٩ بحر برا ـ وثيقة ١٢٢ . بدون تاريخ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

على عهد الخديوى اسماعيل بما كانت ترسله مصر من خبراء يقومون بمهمة ادارة ماكينات حليج القطن فى السودان ولكنها أخذت على عاتقها ضرورة ارسال تلاميذ سواء من مدرسة الخرطوم أو من أبناء العساكر أو غيرهم لتعلم هذه المهنة ، ثم يعودون الى السودان للقيام بهذه المهمة ، خاصة وان زراعة القطن قد بلغت شأوا عظيما فى ذلك الوقت من حيث زراعة مساحات شاسعة من القطن فى أنحاء كثيرة من السودان خاصة الجانب الشرقى منه ، مما استلزم بالضرورة القيام بعملية الحلج قرب مواقع الانتاج وعلى سبيل المثال كان القطن المتحصل من طوكر يرسل الى سواكن للحليج ، ناهيك عن الصعوبات التى كان يتعرض لها الخبراء القادمون من مصر الى السودان من ناحية سوء المناخ الذى يجعلهم عرضة للموت (١) .

وفى عام ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) ازدادت الحاجة بشكل ماس الى المزيد من المحالج ، فقد بلغ ما طلب فى احدى المرات « ستمائة دولاب » للحليج من أجل تركيبها فى جهات الخرطوم وفاشودة والكوخ وأبو حراز والقضارف (٢) .

وعلى الرغم من ذلك كله فان ما كان يرسل من آلات حليج القطن الى جهات السودان لم يكن يفى بالحاجة المتزايدة اليها ، فقد جأر المسئولون هناك بالشكوى لقلة وجود هذه الآلات أمام الكميات الضخمة والمتزايدة من الأقطان السودانية التى هى فى حاجة الى حليج . ويبدو أن هذه الكميات قد بلغت من ضخامتها حدا جعل أحد المديرين فى

---

(١) دفتر رقم ٥٦٠ عربى — وثيقة بتاريخ ٢٩ ربيع الأول سنة ١٢٨٩ هـ . من مدير عموم قبلى السودان الى خيرى باشا . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٦٧٣ عربى . وثيقة بتاريخ ٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٩ هـ من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

السودان يقول انه « على قدر ما ترسـل محالج ومكابس الأقطـان من المحروسة فانه توجـد أقطان لتشغيلها •• » (١) •

من ذلك العرض لصناعة حليج القطن فى السودان يتبين لنا أن هذه الصناعة قد نمت وازدهرت على عهد اسماعيل على وجه الخصوص وهذا يعود الى السياسة الزراعية التى انتهجهـا أحمد ممتاز وخاصـة زراعة القطن فى شرقى السودان بشـكل مكثف ، الأمر الذى كان لابد أن تقوم معه وتواكبه صناعة حليج أيضـا •

٢ ــ صناعة نسيج القطن :

كانت هذه الصناعة فى بادىء الأمر من نوع خشن ردىء يسـمى « الدمور » وقد ذكر جيمس بروس أثناء زيارته حلفاية فى عام ١٧٧٠ أن صناعة نسيج القطن الخشن فى المنـازل كانت موردا رئيسيا للرزق هنـاك ، وأن (قطع الدمور) كان يتم التعامل بها بدلا من النقود وعلى نطاق واسع • ولقد اقتصرت هذه الصناعة على النساء دون الرجـال ــ عدا العبيد منهم ــ حتى عدت مشـاركة الرجل فى هذا العمل من أقبح علامات الكسل (٢) •

وكان يتم نسج القطن بهذا الشكل البدائى فى مناطق النوبة الشمالية والدامر ، والمتمة ، وسـنار ، وتقلى جنوب كردفان • إلا أن منطقـة النوبة السودانية ــ وخاصة فى دنقلة وما يجاورها من بلاد ــ كانت قـد اشتهرت بهذه الصناعة • فقد وجـدت بها « الأنـوال » العـديدة التى تنتج الأقمشة القطنية ، فنحن نقرأ فى وثائق عهد محمد على فى السودان عن انتشار هـذه الصناعة فى تلك المناطق وخاصة ما كانت تنتجه دنقلة وكان « يجرى بيعه بالوجه القبلى من مصر » (٣) •

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان . جـ ١ ص ٤٦ .

(٣) محفظة رقم ٢٦٢ عابدين . ترجمة تقرير المسـائل التى حرر عنها حكمدار السودان فى ذى القعدة سنة ١٢٥٢ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

وكان القماش الذى يتم صنعه فى بربر من نوع يسمى « جديرى » ويبدو أن القماش المنتج منه لم يكن على المستوى الطيب حيث نقرأ شكاوى من جانب الأهالى بعدم مطابقة هذا القماش للمواصفات المطلوبة (١) .

وفى عهد الخديوى اسماعيل تم انشاء « ورشة بالخرطوم » لصنع ملابس الجنود بناء على اقتراح حكمدار السودان فى عام ١٨٦٤ (٢) .

ويبدو أن دارفور كانت تقوم بسد حاجتها من الأقمشة المنسوجة بمصانعها المحلية ، حيث طلب المسئولون بمصر ارسال عينة من الأقمشة التى تصنع بها للاطلاع عليها ومعرفة مدى دقتها (٣) . كذلك نقرأ فى جريدة أركان حرب الجيش المصرى أن أهالى هرر فى عام ١٨٧٧ بدأوا يتقدمون فى صناعة الأقمشة ونسجها عن سائر بلاد السودان الأخرى على الرغم من أن معظم مصنوعاتها المختلفة كانت تأتيها من بلاد العرب عن طريق البحر الأحمر حيث كانت الصناعة فيها متأخرة وبدائية (٤) .

وبالرغم من هذه المحاولات المتواضعة لخلق صناعة لنسج القطن

---

(١) دفتر صادر رقم ٣٤٨٢ تحريرات مديرية بربر ودنقلة وثيقة ١٣١ فى ٢٤ شعبان ١٢٨١ هـ .

(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — مجلد ٢ ، ج ٣ ص ٥٩٦ وثيقة بتاريخ ٢٤ شعبان سنة ١٢٨١ هـ .

(٣) دفتر ٢٤ عابدين — صادر تلغرافات — صورة التلغراف العربى رقم ١١ فى ٢٥ رجب سنة ١٢٩١ هـ . من خيرى باشا الى سعادة حكمدار السودان بالفاشر ، أنظر أيضا : دفتر رقم ١٧ (معية عربى) قيد الافادات الواردة من جات الأقاليم والمحافظات والسايره . ص ٣٥ مكاتبة رقم ١ مرور بتاريخ ٢٨ شعبان سنة ١٢٥٢ هـ . من حكمدار السودان الى المعية السنية .

(٤) جريدة أركان حرب الجيش المصرى — السنة الثالثة — العدد ٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٩٤ . ص ٤٦٢ — ٤٦٥

فى جهات السودان فان هذه الصناعة ظلت فقيرة وغير دقيقة ولم تبلغ فى جودتها ما كانت تنتجه المصانع المصرية آنذاك فى اخميم والمحلة • ولكن ينبغى أن نشير الى أن تلك المصانع القليلة كانت تقوم ـ الى حد ما ـ بسد حاجة الاستهلاك المحلى • وأما فيما يتعلق بتواضع هذه الصناعة رغم الانتاج الوفير من القطن فان ذلك يعود فى جملته الى أن معظم الأقطان السودانية كانت تنقل الى مصر ولا يتم تصنيعها داخل السودان •

٣ ـ صناعة النيلة :

لقد كانت صناعة النيلة * واحدة من الصناعات الجديدة التى أدخلها الحكم المصرى الى السودان فى عهد محمد على ، فلأول مرة فى تاريخ هذه البلاد انشئت خمسة مصانع للنيلة بمديرية دنقلة فى كل من « مروى » و « حنك » و « حفير » ودنقلة العجوز ودنقلة العرض (الأوردى) بلغ انتاج الواحد منها حوالى ١٨٤٦ أقة سنويا (١) • وكان محصول الفدان الواحد من النيلة يبلغ حوالى خمسين قنطارا ، ومقدار الصبغة التى يمكن الحصول عليها من القنطار حوالى ١٠٦ دراهم (٢) •

ولقد أرسلت الحكومة الى دنقلة خبراء فى هذا الصدد من مصنع قليوب ، بالاضافة الى « مرجلين » بآلاتهما للاشراف على تجهيز النيلة

(*) أنظر الفصل السابق حول زراعة النيلة فى السودان .

(١) دفتر رقم ٧٥٧ ديوان خديوى ـ وثيقة رقم ٢٤ بتاريخ ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢٤٥ هـ ، أنظر أيضا : حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق ص ١٥٢ .

(٢) دفتر (بدون رقم) ديوان خديوى تركى ـ ترجمة الوثيقة التركية ص ٣٢٧ بتاريخ ٧ رجب سنة ١٢٤٥ هـ . من الجناب العالى الى حاكم دنقلة .

وتعليم الأهالى أصول هذه الصناعة (١) • كذلك فقد عينت الحكومة أحد الأوربيين ممن لهم دراية فى هذا المجال رئيسا عاما لادارة مصانع النيلة فى السودان • ويبدو أن بقاء هذا الموظف الأجنبى هناك لم يدم طويلا اذ يحدثنا الرحالة « بكلر مسكاو » الذى زار مصانع النيلة عام ١٨٣٧ بأنه لم يعد يوجد أى موظف أوربى فى هذه المصانع (٢) • وربما يرجع ذلك الى حرص الباشا فى أن يتولى ادارة هذه المصانع والعمل بها عمال سودانيون بعد أن يتم تدريبهم على أيدى خبراء مصريين وأجانب ، وهذا بالفعل ما عبر عنه محمد على فى احدى مكاتباته لخورشيد « أغا » ناظر سنار (٣) • ومسألة الاستعانة بالخبرة الأجنبية هذه ظاهرة واضحة فى المؤسسات التى كان يبنيها محمد على من جديد ؛ فمعروف تماما أنه عندما أراد تكوين جيش قوى فى مصر أتى بخلاصة التفكير العسكرى الأوربى فى ذلك الوقت وكلفه بأداء هذه المهمة ونعنى به الجنرال سيف أو ما عرف باسم سليمان الفرنساوى وكذلك فى مجال الصناعة المصرية التى أنشأها فقد لاحظنا أنه أسند الى كثير من الخبراء الأجانب مهمة ادارة هذه المصانع وتدريب المصريين ، على ادارتها ، وهكذا كان سبيله أيضا فى بقية النواحى الطبية وغيرها • فلم يكن هذا الرجل منغلقا على نفسه بل كان يحاول الإستعانة بأحداث ما وصل إليه العصر من تقدم ، ولذلك فإنه نجح كثيرا فى مشاريعه المختلفة • وكذلك كان الحال فى السودان فكانت سياسته فى السودان هى نفس السياسة التى اتبعها فى مصر •

---

(١) دفتر رقم ١٨ صادر المعية — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢٤ بتاريخ ٢٥ ذى القعدة سنة ١١٤٥ هـ من الجناب العالى الي مدير دنقلة • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) Puckler, Muskau; Egypt under Mehemet Ali, Vol. II. p. 164.

(٣) دفتر رقم ٧٤٢ ديوان خديوى — ترجمة الوثيقة رقم ١٨٥ بتاريخ ٢٧ ربيع الأول بسنة ١٢٤٣ هـ من الجناب العالى الى خورشيد إنا ناظر سنار • دار الوثائق القومية بالقلعة •

وأما طريقة تحضير صباغة النيلة فتتلخص فى وضع أوراق سيقان نبات النيلة فى حوض كبير به ماء لمــدة ثمان عشرة ســاعة تقريبا ، ثم تنقل محتــويات الحوض فى إنــاء آخــر تجرى فيــه عملية الغليــان لبعض الوقت يحرك المحلول أثناءها بعصى ذات أفرع تساعد على تفتيت أجزاء النبات • وبعد ذلك يستخلص المحلول من البقايا النباتية ويترك حتى يتحول الى مادة رسوبية تصنع منها أقراص فتجفف وتصبح معدة للاستعمال (١) •

وكانت مادة الصباغة التى يتم الحصول عليها بهذه الطريقة لا تقل جــودة عن ذلك النوع الذى اشتهرت به الهند فى ذلك الوقت (٢) •

وكانت النيلة السودانية تدر دخلا طيبا للحكومة ، كما كانت تخضع لاحتكارها حتى عام ١٨٣٨ عندما زار محمد على الســودان حيث أعلن حرية زراعة الأهالى لها والاتجار فيها ، مما كان له الأثر الطيب فى نفوس المزارعين فأقبلوا على زراعتها والتوسع فيها (٣) •

(ب) ــ الصناعات الخشــبية :

١ ــ صناعة المراكب :

من المعروف أن الســودان يتمتع بثروة خشــبية هائلة تتمثل فى الغابات ذات الأشجار الكثيفة ، وكان لابد من محاولة لاستغلال هــذه

---

(1) Cadalvene ; L'Egypte, La Nubie, Tome II, p. 340 & Hoskins; op. cit., p. 53.

وانظر ايضا : نسيم مقار : المرجع السابق ص ٢٢١ .

(٢) Muskau, P. op. cit., vol. II. p. 164. & Hoskins : op. cit. p. 52 & Cadalvene : op. cit., p. 339.

(٣) دفتر رقم ١٢٦ ديوان خديوى ــ صورة المكاتبة رقم ٤٠٨ بتاريخ ٨ صفر سنة ١٢٥٨ هـ • ، انظر ايضا : رحلة ســاكن الجنان ــ محفظــة ١٢٣ ــ عابدين ــ ملف متفرقات ، دار الوثائق القومية بالقلعة .

الثروة فى صناعة المراكب والسفن (١) • وبالفعل فقد وجهت الادارة المصرية فى السودان اهتماما كبيرا لهذا الأمر واتجهت فى عهد الحكمدار خورشيد باشا الى بناء ترسانة لصنع القوارب فى « منجارة » أعلى النيل الأبيض ، وأخرى فى جهة الكاملين ، كما تم تشييد ترسانتين أخريين فى سنار وبربر (٢) •

وقد اهتم محمد على وهو بمصر بإرسال جميع مستلزمات صناعة المراكب من مهندسين وخبراء متخصصين فى هذا المجال ؛ خاصة اذا علمنا أن البلاد السودانية آنذاك كانت فى حاجة ماسة الى مثل تلك المراكب ، فقد كانت الوسائل المستخدمة فى مسألة النقل والتنقل – كما سنعرف – بدائية ولا تصلح لمسايرة عمليات التطور التى بدأها محمد على فقد بدأ يرسل البعثات العلمية فى النيل الأبيض والتى كانت تعتمد أساسا على المراكب والسفن ، ناهيك عن الإستخدامات الأخرى لهذه المراكب فى نقل المحاصيل بكميات ضخمة بدلا من الإعتماد على الإبل التى لا يمكنها نقل كميات كبيرة • ولهذا كله بدأت تلك الترسانات التى انشئت فى جهات السودان تقوم بصنع مراكب تقوم بهذه المهام • وعلى الرغم من هذا الإهتمام بهذه الصناعة فقد وجه نقد للمراكب المصنوعة فى ترسانات السودان الأمر الذى جعل محمد على يرسل فى عام ١٨٣٢ سعيد أفندى للتحقيق فى أسباب رداءة صناعتها وما ينبغى أن يتم إتخاذه نحو تقدمها •

وبمرور الوقت تحسنت صناعتها حتى إن كثيرا من واردات السودان

---

(١) الوقائع المصرية – العدد رقم ١٣١ – الثلاثاء ١٢ شوال سنة ١٢٤٥ هـ ص ١ •

(٢) Hill; op. cit., p. 61.

انظر ايضا : دفتر رقم ٨٧٥ ديوان الخديوى تركى – وثيقة رقم ٣٠٤ بتاريخ ٢١ رجب ١٢٤٨ هـ ص ١٩١ ، انظر ايضا : دفتر رقم ٢٥ / ٣٤٥٨ مديرية بربر والجاعلين (عربى) صادر وثيقة رقم ٢٢٢ بتاريخ ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٦١ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

بدأت ترسل بواسطة المراكب فى النيل (١) والأهم من ذلك إزدياد أعداد المراكب والسفن المصنوعة محليا وخاصة فى عهد حكمدارية أحمد باشـــا أبو ودان الذى يعتبره البعض مؤسس النواة الأولى للبحرية التجارية فى الســـودان (٢) •

ولقد لعبت ترسانة الخرطوم دورا بارزا فى حمـــلات الكشف عن منابع النيـــل الأبيض ، حيث أوفـــد محمد على الضابط المصرى ســـليم قبودان على رأس حمـــلات ثلاث ، فأمدت هذه الحملات بالسفن اللازمة وسهلت من مهمتها وأســـدت بذلك فوائـــد عظيمة للكشـــوف العلمية فى الســـودان حيث ترتب على هـــذه الرحلات كتابة تقـــارير علمية فى غاية الأهمية من النـــواحى الاقتصادية والاجتماعية وغيرها الأمر الذى ترتب عليـــه أن تمـــد الحكومة إدارتها واهتمامها الى تلك البلدان فيها بعـــد وإدخالها فى ركب التقدم بعد أن كانت معزولة عن الجـــزء الشمالى من الســـودان •

كذلك فقد كان لتقدم صناعة السفن فى السودان أثر طيب فى نشاط حركة النقـــل المائى فى النيل وبين المناطق الصالحة للملاحة ، ومع شمال الوادى • وكانت السفن المصنوعة محليا تستخدم فى نقل السلع والمنتجات السودانية المتنوعة كالصمغ وريش النعام والرقيق الى مصر ، كما كانت تقوم بنقل معدات الجنود وأدوات البحث عن المعادن فى السودان (١) •

وكانت ترسانات الســـودان تقوم أحيـــانا بصنع أعداد كثيرة من المراكب وإرسالها الى مصر ، فقد طلب فى عهد خورشيد من ترسانة سنار

---

(١) حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق • ص ١٥٠ •
أنظر أيضا : نبيم مقار : المرجع السابق • ص ٢٣٥ •
(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار • الجزء الثـــانى ص ٢٣٣ •

أن تقوم « بصنع خمسين مركبا وإرسالها للمحروسة » (١) • وربما كان هذا الطلب لصنع هذه السفن فى السودان بقصد توفير الجهد فى نقل الأخشاب من السودان الى مصر ، وجعل هذه الصناعة قرب مواقع الإنتاج وهو تفكير إقتصادى سليم •

وبالرغم من تلك الجهود التى بذلت فى سبيل الإرتقاء بصناعة المراكب والسفن فى عهد محمد على فإننا نلاحظ أن الكثير من البواخر النيلية التى كانت موجودة بترسانة الخرطوم على عهد اسماعيل كانت قد أرسلت من مصر بطريق النيل بعد أن تم صنعها وتركيبها بمصر ، ماعدا الباخرة « الاسماعيلية » التى اتخذها حكمدارو السودان لركوبهم فقد جرى نقلها على هيئة قطع مفككة وتم تركيبها بترسانة الخرطوم (٢) •

ويبدو أن عملية الكشوف الجغرافية الضخمة التى تمت فى عهد اسماعيل فى أرجاء السودان وأفريقيا قد جعلته يولى عناية فائقة لصناعة السفن النيلية فأصدر فى عام ١٨٧٧ أمره الى الجنرال غوردون بإنشاء (دار صناعة نيلية) ، فاهتم الأخير بذلك كثيرا وقام بتنفيذ إنشائها على نظام بديع وتم فيها بناء المعامل والورش المختلفة ، وبلغ عدد العمال ٤٥٠ فردا ، بالإضافة الى الكتبة والملاحين والقبودانات ، كذلك طلب أن تشيد بها ثمان بواخر ليصل بذلك عدد البواخر التى كانت تستخدم الى ست عشرة باخرة ، بالإضافة الى الصنادل والسفن التى لم يكن يقل عددها عن ثلاثمائة كان أكبرها يحمل نحو ١٥٠٠ أردب وأصغرها يحمل خمسمائة أردب (٣) •

---

(١) الوقائع المصرية : العدد ١٣٦ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٤٥ هـ • ص ٢ •
(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل : الجزء الأول ص ١٦١ •
(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، الجزء الثانى ص ٣٣٧ •
أنظر أيضا : ابراهيم فوزى • السودان بين يدى غوردون وكتشنر ج ١ ، ص ١٧ •

٢ ـ صناعة السـواقى :

وتعد صناعة السواقى فى السودان من أهم الصناعات التى استغلت فيها أخشاب السـودان ، فقـد بلغت أعدادها الآلاف الكثيرة وخاصة فى شمال السودان فى منطقة دنقلة • وعلى الرغم من بساطة هذه السواقى ، التى لم تـكن تحتـاج الى آلات معقدة بل الى بعض آلات بسـيطة تتوفر لدى الفـلاح السودانى ، فإنها قـد أدت مهمتها على الوجـه الأكمل • وقد شجعت الإدارة المصرية الفلاح السودانى على إنشـائها والإكثار منهـا • وبلغت شهرة السواقى فى جهات دنقلة حـدا جعلت المسئولين فى السـودان يقـدرون الضرائب بعدد السـواقى لا بعـدد الأفـدنة * •

٣ ـ صناعة الأسرة :

لم يـكن استخدام الأسرة شـائعا بكثرة فى ذلك الوقت بين جميع السكان ولكنه اقتصر على سكان المدن وخاصـة التجـار منهـم وقبيلة الشايقية وسكان المحسن ودنقلة • أما الفراش الشائع عند البدو فـكان الحصير •

والأسرة السـودانية مستطيلة الشكل ذات قوائم أربعة قصيرة ، وقد تكون قاعدتها من الخشب أو أعـواد الغاب ويعرف هـذا النـوع بالسرير ، أو تشـد بسيور دقيقة من الجلد شـدا محكما وهنـا يعرف « بالعنقريب » • وقـد اشتهرت بصناعة الأسرة كل من سـنار وبربر ، وإمتازت سنار بالأنواع الجيدة التى كانت تجد طريقها الى الأسـواق الخارجية فى مصر العليا وبلاد العرب (١) •

(*) انظر الفصل الأول : تطور الأوضاع الزراعية .

(١) نسيم مقار : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

كذلك فقد صنع السودانيون الأبواب والنوافذ من الأخشاب واشتهرت هذه الصناعة فى المدن الرئيسية مثل شندى وبربر وسنار ، أما النوافذ فكانت من الأحجام الصغيرة ، وكان يقتصر على نافذة واحدة فى كل حجرة ، لذلك فلم تكن تعطى إلا ضوءاً بسيطا ولهذا فقد كان دائما باب الحجرة مفتوحا (١) .

ومن الخشب أيضا صنع السودانيون الأوانى والأوعية الخشبية واختص بها طائفة من النجارين فى المدن الشهيرة بالسودان كبربر وسنار والطياره بكردفان ، وإمتازت هذه الأوانى بدقتها الشديدة الى الدرجة التى لم تكن تبدو عليها آثار الآلات الحادة التى استخدمت فيها . وكان بعضها يستخدم فى الطعام والبعض الآخر يعلق على الحوائط داخل الحجرات بقصد الزينة ، وكانت تطلى بالدهان وتوضع على النار حتى يسود لونها ، كما أن بعضها كان كبير الحجم بحيث يسع من الطعام ما يكفى لأعداد كبيرة من الناس ، وهكذا كان يرجع انتشار هذه الأوانى الخشبية المتنوعة الى كثرة الأخشاب فى جهات السودان .

ومن الأخشاب أيضا صنعت الأدوات الزراعية كالجاروف والمذراه ، وأيادى الفؤوس والبلط ومقابض السكاكين ، كما أنهم صنعوا من الخشب القسى والسهام والرماح .

(جـ) ـ صناعات قائمة على أشجار النخيل والدوم :

من المعروف أن السودان وخاصة الجزء الشمالى فى النوبة منه تكثر به أشجار النخيل ، كما تكثر أشجار الدوم فى جهات أخرى مثل كردفان . وقد تفنن السودانيون فى الإستفادة من هذه الأشجار فصنعوا من خوصها وأليافها الحصر والأوعية ذات الأحجام والأشكال المتنوعة

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

والتى إمتازت بدقة صنعتها وجمال ألوانها ، وكان السودانيون يصنعون بعض الأسرة والمقاعد من جريد النخيل وأليافه ، بالإضافة الى الحبال التى كانت تلعب دورا كبيرا فى حياة قطاعات عديدة من سكان السودان ، فالبدوى فى حاجة اليها لربط سلعه وخيامه على الإبل عند ترحاله ، والمزارع يستخدمها فى السواقى وغيرها من أمور الزراعة ، بالإضافة الى إستخدامها فى صناعة السفن التى كانت تفتقر الى المسامير • أما التجار فى المدن فكانوا يستخدمونها عند شحن بضائعهم فوق الجمال فى خلال الرحلات الطويلة عبر مخازات السودان الشاسعة أو الى خارج البلاد •

كذلك استخدم السودانيون نبات الحلفا فى صناعة الحصر والأوعية والقدور المجدولة جدلا دقيقا يحول دون نفاذ الماء منها وقد إستخدموها فى حفظ اللبن ، وإستخدموا بالإضافة الى ذلك ، ثمار القرع بعد نضجها فى صنع أقداح وأوانى متنوعة الأحجام ، وكانت ترسم عليها أشكال من الطيور والحيوانات •

وقد تميزت الأوانى المصنوعة من ثمار القرع بخفتها وكثرة احتمالها على عكس ما يتصور ، بالإضافة الى سهولة تنظيفها وعدم تعلق أجزاء من الطعام على جوانبها كما يحدث فى الأوانى الخشبية ، وأكثر من ذلك فقد كان سعرها زهيدا جدا • وقد انتشرت جميع هذه الصناعات فى بقاع السودان المختلفة سواء بين البدو أو الحضر ، بيد أن هناك بعض المراكز إشتهرت بإنتاج أنواع ذات صفات جيدة وجميلة واكتسبت بالتالى شهرة واسعة مثل بلاد النوبة ، كذلك فقد إشتهرت الدامر بصناعة أجود أنواع الحصر من شجر الدوم التى عرفت بإسمها ، كما أن بدو الشايقية إشتهروا بصناعة الحصر ذات الألوان الجميلة •

ومن الملاحظ أن هذه الصناعات ، سواء التى قامت بين البدو أو سكان الريف والحضر فى أنحاء السودان المختلفة كانت من اختصاص النساء وعزف الرجال عن القيام بها مفضلين الخروج للتجارة أو العمل

بالزراعة ، فكان الرجـل يأنف أن يقبع فى بيته كالسيدة ليؤدى مثل هذه الصناعات ، بالإضافة الى إرتباط بعض هذه الصناعات بالعبيد فقد كانوا يكلفون بها بالإضافة الى أعمالهم المنزلية فإرتبطت بهم وأصبحت عنوانا للتدنى وسـط مجتمع يموج بالتيارات القبلية التى تفخر بأنسابها ، ومن هنا تركـوا هذه الصناعات وظلت محصـورة بين النسـاء والعبيد فلم يحدث فيها تطور ملموس وظلت كما هى بدائية الصنع وإن كانت تسد حاجة المجتمع الضرورية •

صناعة الزيوت النباتيـة :

كانت هذه الصناعة شـأنها فى ذلك شـأن الصناعات السـودانية الأخرى بدائية ، فإنه على الرغم من وجود النباتات الزيتية ـ كالسمسم ـ فى كثير من بقاع السـودان فلم يستفد الأهالى منهـا إستفادة كاملة ، فقد ظلوا ، مثلا ، مكتفين باستخدام الخشب فى الإضـاءة بدلاً من زيت السمسم ، وفى عهد محمد على بدأ أهل كردفان ، كمـا يذكر « بالم » ، يستخرجون الزيت من السمسم ويستعملونه فى دهان ضفائر الشعر على رؤوسهم ، بالإضـافة الى دهن بشرتهم [١] • فالسـودانى ، وخاصة أولئك الذين يقومون بالأسفار عبر صحراوات السودان لهم ولع شـديد بوضع الزيوت وأنواع الشـحوم على رؤوسهم إتقـاء لوهج الشمس المحرق • ومن أشهر النباتات الزيتية الأخرى « الخروع » الذى يزرع فى بلاد النـوبة و « بطن الحجار » ومن ثمـاره يستخرج زيت طبى لدهان الشـعر •

ومن الصناعات التى اشتهر بها السودان صناعة « العرديب » من التمـر الهنـدى بدارفور وكردفان على وجه الخصـوص ، وكانت تتم صناعته بوضع الثمار تحت تأثير حرارة الشمس حتى تختمر وتعمل منها

---

(١) Pallme, op. cit., p. 69.

أقراص كبيرة يتم تصــديرها الى كافة جهات السودان الداخلية وخارجه حيث يستخدم كمشروب •

كذلك فقد عرف الســودانيون صناعة الخمــور وأنواع المريسة ، وهذه الخمور يقصد بها كافة الأنواع التى تستخرج أو تصنع من البلح والتى تســمى « عرقى البلح » فى بعض جهــات مصر ، والنبيذ الذى يستخرج من كروم العنب • وهــذان النوعان إشتهرت بهما بلاد النوبة وذلك لتوفر أشجار النخيل والكروم بها •

ويقوم النوبيون فى السودان بصناعة الخمر من التمر وذلك بوضع ثمار البلح الناضجة فى قدور كبيرة من الفخــار بها ماء ثم توضــع على النار لتغلى لــدة يومين كاملين دون انقطاع ثم يصفى الشراب ويوضع الرائق (العصــير) منه فى جــرار من الفخار تغلق بإحكام وتدفن تحت الأرض لمدة عشرة أيام أو اثنى عشر يوما حتى يختمر الشراب فيكشف عنه ويمكن عندها تقديمه للشرب [١] •

كذلك يصنع النوبيون نوعا آخر من الخمــر يسمى (البوظــة) أو المريســة وهو شديد الشبه بالجعة أو البيرة • ويتم استخراجه من الذرة أو الشــعير ، وأفضل أنواعه ما كان من الشــعير • ويتم إعداد المريسة دون مشقة أو مجهود إذ يؤتى بحبوب الشــعير أو الذرة عقب تجفيفها أو تحميصها على النــار لتوضع فى إناء من الفخار به ماء بارد وتترك لمدة يوم كامل تتم خلالها عملية التخمير ، ثم بعدها يصفى السائل بواسطة قطعة قماش ليقــدم بعدها للشرب • وقد إشتهر شراب المريسة فى جميع أنحاء السودان نظراً لتوفر المادة التى تصنع منها وهى الذرة أو الشعير بعكس البلح الذى لا يتوفر إلا فى بلاد النوبة ، ولهــذا كان شراب المريسة ينتشر بين كافة السودانيين الى الدرجة التى جعلت البعض

---

(١) بوركهارت : المرجع السابق ص ١٢٤ ـــ ١٢٥ •

يقول إن الكثير منهم كان لا يشرب قطرة ماء طوال السـنة معتمدا على شرابهـا (١) •

وكانت المريســة على أنواع ، أشـهرها المسمى « أم بلبل » التى شبهها أحد الرحـالة الذين زاروا تلك المناطق فى القـرن التاسع عشر بالشمبانيا (٢) ، والبعض الآخر وصفها بأنهـا نـوع من البـيرة (٣) • وكالعـادة ، كان العبيـد والنســاء فى البيوت هـم المكلفين بإعـداد المريســة •

وقد اشتهرت مناطق معينة فى السودان كسنار ودارفور على سبيل المثال بزراعــة التبغ ، وكان الأهالى يقومون بصنع أنواع من أوراقــه على شكل أقماع هرمية الشكل ، وذلك بعد دقة ــ وهو أخضر ــ حتى يصير كالعجين ويجعلونه أقمـاعا ويجفف فى الشمس وكانوا يتعـاملون بها ــ كما يقـول التونسى « فى سفاسف أمورهم •• » (٤) •

ومن الصناعات التى أدخلت الى السـودان على عهـد محمد على صناعة الصابون وقد تم ذلك على يد الحكمدار أحمد باشا أبو ودان فى جهة كاملين بإقليم سنار حيث تم إنشــاء معمل من أجل هذا الغرض • وكان هــذا المصنع يقــدم للآليـات المرابطة هنـاك كل ما تحتاجه من الصابون • ولكن يبدو أن ثمة مشــاكل حالت دون استمرار هذا المصنع فى أداء مهمته لفترة ما ، وهذه المشاكل نشأت من الخلاف الذى دار بين اللواء حمزة باشـا مدير الخرطوم وبين شخص يدعى نور الدين كان شريكا لحكمدار السودان أحمد باشـا أبو ودان الذى توفى وترك لــه

---

(١) Poncet; Avoyage to Ethiopia, p. 26.

(٢) نسيم مقار : المرجع السابق ص ٢٤٤ ، أنظر أيضا :
Journal of avisit to some parts of Ethiopia. p. 260.

(٣) Muskou, P. : op. cit., p. 164.

(٤) محمد بن عمر التونسى : تشحيذ الأذهـان بسـيرة بلاد العـرب والسودان ص ٣٠٠ — ٣٠١ •

ادارة هذ المصنع ، وبدأ مدير الخرطوم يطالب الشريك الثانى بمبـالغ باهظة ادعى أنها أثمان لمواد وردت بإسم الحكمدار السـابق ولم تسدد منذ وفاة الحكمدار (١) •

ويبدو أن المصنع قد عاد ليؤدى مهمته مرة أخـرى ، ففى فبراير عام ١٨٤٤ أبدى الرحالة لبسوس Lepsus الذى زار الخرطوم آنذاك إعجابا بالنشاط الظاهر فى بلدة الكاملين ، وأشار الى المصانع التى انشئت بها ومن بينها مصنع الصابون هذا •ويقرر أن ادارة هذه المصـانع كانت على أحسن ما يرام من النظام والنظافة وهو أمر غير مألوف — على حـد قوله — فى تلك البـلاد (٢) •

وفى شوال عام ١٢٧٧ هـ (ابريل ١٨٦١ م) على عهد محمد سعيد باشا تشير الوثائق الى أن هذا المصنع لم يعد يؤدى دوره على الوجـه الأكمل ، وبدأ المسئولون بالسودان يكتبون الى مصر كى تبعث لهم بكميات الصابون الضرورية • ويبدو أن هذه المشكلة ناشئة عن الإهمال ، حيث نجد ردود المسئولين بمصر على هذه الطلبات بالغة الحدة حيث تطلب من مدير التاكة أن يقـوم « بمعرفة مدير سنار والخرطوم بتدارك ما هـو لازم من هذا الصنف بأى وجه حسب السوابق •• » (٣) •

---

(١) محفظة ١٩ بحر برا — وثيقة رقم ٤٩ بتـاريخ ١٥ رجب سـنة ١٢٦٠ هـ من الميرميران احمـد منكلى الى الجنـاب العـالى . دار الوثائق القوميـة بالقلعـة .

انظر أيضا : دفتر رقـم ٣٩٢ معية تركى — وثيقة رقم ٨٦٥ بتـاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٦١ هـ خطاب الى مدير عموم الوجه القبلى .

(٢) Lepsus, Dr, R. ; Letters from Egypt, Ethiopia and Sinai. tr. by J., B. Horner. pp. 163-165.

انظر ايضا سيد احمد احمد سيد : رفاعه فى السودان . ص ٢٤ .

(٣) دفتر رقم ١٨٩٤ — أوامر عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ٧٠ ص ٣٧ بتاريخ ٢٤ شـوال سنة ١٨٧٧ . أمر كريم الى مدير التاكة .

صناعة قصب السكر :

ومن الصناعات التى أدخلتها الإدارة المصرية فى السودان صناعة قصب السكر ، حيث سمحت بزراعة محصول القصب فى دنقلة بقصد صناعة السكر منه (١) • وقد توسعت الحكومة فى إنتاجه بالمديريات الأخرى كبربر وسنار حيث كان المناخ ملائما لزراعته ، بالإضافة الى إمكانية توفير مياه الرى بواسطة السواقى بشكل منتظم • وقد طلب مأمور دنقلة إنشاء مصنع للسكر فيها ، وإرسال خبير لإستخراج السكر من القصب (٢) • كذلك نقرأ فى الوثائق عن وجود مصنع للسكر ، ضمن مجموعة المصانع التى كانت ببلدة كاملين بسنار ، أنشأه الحكمدار أحمد باشا أبو ودان (٣) •

وفى عهد الخديوى اسماعيل يطلب أحد مديرى السودان زراعة مائة فدان قصب حتى يتمكن من إنتاج السكر والعسل وتصريفه للأهالى بالأثمان المناسبة ، ويطلب المدير أيضا من المسئولين فى مصر الإسراع بإرسال الأفراد اللازمين من « النجارين » و « السكاكرية » الذين بفرشوط لعمل عشر معاصر ، وتعليم من يلزم تعليمه من الأهالى •• » (٤) •

وقد اهتمت الحكومة بإنشاء المطاحن بالسودان على نطاق واسع وخاصة فى عهد الخديوى اسماعيل • ففى عام ١٨٦٥ تمت الموافقة

---

(١) دفتر رقم ٤٤ معية تركى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٤٤١ بتاريخ ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٢٤٨ هـ • من الجناب العالى الى حكمدار السودان •

(٢) شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل • الجزء الثانى • ص ٤٢ •

(٣) محفظة ١٩ بحر برا — وثيقة رقم ٤٩ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٦٠ هـ دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٤) دفتر رقم ١٨٥٩ معية — صورة المكاتبة الواردة من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية بتاريخ غرة شوال سنة ١٢٨٨ هـ • رقم ٩ ٨ ص ٤٢ دار الوثائق القومية بالقلعة •

على اقامة عشرة مطاحن موزعــة على النحو التالى : ستة منهــا بكسلا ، وأربعة بسواكن • وبجانب هذه المطاحن تم إنشــاء مخبز بجهة سواكن ، وهــكذا أصبح من الممكن عقب إنشــاء المطــاحن والمخــبز أن يقــدم للجنود على حد تعبير أحد المسئولين « يوم جراية طازة ويوم بقسماط » (١) فقد كانت مســألة إعاشة الجنــود فى تلك المناطق فى غاية الصعوبة • وكان الطعام الذى يقدم لهم مجففا مما دعا الكثيرين منهم الى الشكوى فكان هذا الحل الذى توصلوا إليــه ، خاصة وان الحبوب كانت متوفرة الى حد ما بجهة ســواكن •

وفى عام ١٨٧٥ طلب مأمور بربره إنشــاء مطحنين ومخبز بهــذه البلدة نظــر لصــعوبة جلب الدقيق حيث كان يكلفهم ذلك كثــيرا من النقود ، بالإضــافة الى الصعوبة الناتجة عن خبزه على « الصــاج » الأمر الذى جعل صحة الجنود والضباط قد ساءت بسبب الإعتمــاد على « البقسماط » وحده دون الخبز ، وقام المأمور بشرح الفوائد التى تعود من إنشــاء هذين المطحنين ليس فقط بالنسبة للجنود ولكن أيضا ســوف يتم بيع كميات من الخبز لمن يرغب فى الشراء بالإضافة الى تنــاول أجر عملية طحن حبوب الأهالى (٢) •

ولقد شجعت الحكومة فى الســودان الأهالى على تعلم الصناعات والحرف وإتقانها على الوجــه الأكمل • فمثلا كانت مصر تبعث بالقبانيين وتطلب من المسئولين ضرورة الحــاق أعــداد من الســودانيين بهــؤلاء القبانيين لتعلم أصو لالصنعة ، وكذلك الحــال بالنسبة للنجارين الذين بعثت بهم الحكومة الى الســودان • وزيادة فى حرص الحــكومة على

---

(١) دفتر رقم ٢٤ معية عربى — وثيقة رقم ٦٩ بتاريخ ١٨ جمادى الثانية سنة ١٢٩٤ هـ ص ٧٥ من مأمورية بربره الى المعية الســنية . دار الوثائق القوميــة بالقلعــة .

(٢) أمين سامى : تقــويم النيــل وعصر اسماعيل . المجلد الثالث — الجزء الثالث ص ١٣٧٥ .

نشر هذه الحرف إقترحت على القبانين بأن من يرغب منهم فى العودة الى مصر لا يمكن السماح له بذلك إلا إذا علم شخصين على الأقل حرفة « القبانية » وحتى لا تصبح هناك حاجة فى المستقبل الى إرسال مثل هؤلاء من مصر (١) .

وسيرا على هذا المنوال فى تشجيع تعلم الحرف وتعليمها للسودانيين قامت الحكومة — على عهد الخديوى اسماعيل — فى مديرية البحر « النيل » الأبيض بجنوب السودان بمنح أرباب الحرف الذين يتوجهون اليها من البنائين والنجارين و « المهندسين » وغيرهم مرتبات تزيد عن غيرهم ممن لا يتوجهون الى هذه الجهات النائية . وطلبت من هؤلاء الحرفيين أن ينتشروا فى عدة أماكن حتى يعم إنتشار الحرف والصناعات فى هذه المناطق (٢) . وكانت الحكومة أيضا لا تتخذ فى نشر هذه الحرف أسلوب القوة أو العنف فى ترغيب الأهالى على تعلم هذه الحرف فكانت تحض رجال الإدارة فى تلك الجهات على اتباع أسلوب حكيم فى هذه المسألة ، وتشجيعا لأبناء الأهالى خصصت لكل صبى يقدم على تعلم مثل هذه الحرف راتبا من المال ، وأوصت بضرورة تعليمهم الحرفة على أصولها . ولم تنس فى الجانب الآخر القائمين على عملية التعليم هذه إذ كيف تعمل على حل مشاكل المتعلمين بكافة الطرق وتغفل الطرف الآخر الذى يؤدى هذه المهمة فجعلت لكل معلم مكافأة مقابل كل فرد يقوم بتعليمه (٣) . ولا شك أن هذه النظرية تتسم بالحكمة فى عملية التعليم حتى يستطيع المعلم أن يضاعف من جهده بنفس راضية . وهذا الأسلوب الذى طبقته مصر فى القرن التاسع عشر وفى جنوب السودان ، قد أخذت به الدول المتقدمة فى أوربا ، فهو يذكرنا بالسياسة المعروفة

---

(١) دفتر رقم ٧٤٤ — ديوان خديوى تركى — ترجمة الأمر التركى رقم ١٧٧ بتاريخ ١٦ ذى القعدة سنة ١٢٤٣ هـ . من الجناب العالى الى خورشيد أغا ناظر سنار — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) أمين سامى : المرجع السابق ، المجلد الثانى . ص ٥٦٤ .

(٣) نفس المرجع ص ٥٦٥ .

بإســم : Stakanovism فى الاتحــاد الســوفيتى ، وسياسة تمجيــد الكفاية فى العمــل التى كانت هى أصل نظام Arbeitehere فى ألمانيــا الهتلرية (١) .

ولا نريد هنا أن نبالغ فى حجم الصناعات والحرف التى نشــأت فى السودان حتى لا يتبادر الى الذهن صورة الحرف والصناعات التى نشأت فى مصر ، ولكنها كانت هنا متواضعة جدا وتنمو على استحياء ، وكان قوامها من حيث الأفراد رجال الجيش المصرى فى الســودان كمــا يبين الجــدول التالى :

العــــدد	الرتبــة	نوع الحرفة
٢٧١	نفــرا	ترزية — جزمجية — خدما الجبخانة
٢٤	اونباشى	
١٢	جاويش	
١	بلوك امين	
٤	باشجاويش	
٢	ملازمون ثوان	
٢	ملازمون أول	
١	صــاغ	
١	بيكباشى	

جدول يبين أصحاب الحرف من الضباط والصف
والجنود بالسودان عام ١٨٨١
(الوثائق الأفريقية ــ محفظة ١٠٣ ــ ملف ٦)

---

(١) على الجريتلى : تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ص ١٣٥ .

وبالاضافة الى أفراد الجيش المصرى ، استقدم بعض الصناع من مصر كما سبق القـــول • وعلى الرغم من تواضع هذه الصناعات فانهـــا قد حازت اعجاب العالم الخارجى عندما أطلع لأول مرة على مصنوعات السودان أثنـــاء عرضها بمعرض باريس الدولى سنة ١٨٦٧ ، وخاصـــة المصنوعات الفضية منها (١) •

وهكذا يتبين لنا من خلال عرضنا لأحوال الثروة المعدنية والوضع الصناعى فى السودان مدى الجهود التى بذلت للبحث عن هذه المعـــادن ومحاولة خلق صناعة حديثة وتطوير الحـــرف والصناعات البدائية التى كانت تسود المجتمع السودانى ، ثم أيضا محاولة ادخال حـــرف جـــديدة اقتضتها الأوضاع الاقتصادية الجديدة فى السودان • ولكن مع كل هذه الجهود المبذولة لابد من طرح تساؤل ثم محاولة الوصـــول الى إجـــابة عن السر فى عـــدم رقى الصناعة الســـودانية الى مســـتوى مثيلتها فى مصر آنـــذاك •

وربما يعود ذلك الى ما يلى :

أولا : إن المواد الخام التى وجه المسئولون اليها عنايتهم فى بادىء الأمر ورصدوا لها كل الخبرات قد باءت بالفشل التام ، وقد يعلم تماما كل خبراء الصناعة مدى أهمية هذا العنصر لقيام صناعة حديثة وقـــوية ومتطورة ، خاصة اذا كانت هذه المواد متوفرة قرب المصانع •

ثانيا : ان الثروة الحيوانية والمائية فى السودان بالرغم من كثرتها وتوفرها فى جميع أنحائه لم تستغل إستغلالا كافيا فى المجـــال الصناعى ولو إنهـــا استغلت لنشـــأت حولهـــا عدة صناعات قوية قوامهـــا الثروة الحيوانية والثروة السمكية • وهكذا أغفل السودانيون عنصرا اقتصاديا

---

(١) أحمد أحمد سيد أحمد : رفاعة الطهطاوى فى السودان ، ص ٥٣ •

هاما لقيــام الصناعة والذى يتمثل فى مــدى الإســتفادة من التخصص الاقليمى للبــلاد •

ثالثا : لم يستخدم السودانيون فى الصناعة طرق الإنتــاج الحديثة على نطاق واسع ، وظلت تعتمد على أساليب قديمة بالية ، وربما يكون لهم العذر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وان كنا قــد شهدنا تجربة لا بأس بها فى شمال الوادى قام بها محمد على ، إلا أننا لا يمكن أن نقبل الإعذار فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حيث بدأ العالم الأوربى يأخذ بأساليب حديثة ومتطورة فى كافة الجــوانب الاقتصادية وخاصة الصناعية منها فظهر ما عرف بإسم الانقلاب الصناعى أو الثورة الصناعية •

رابعا : تخبط المســئولين الاداريين فى الســودان ، ومعــروف أن استقرار نظام الحكم الإدارى والقانونى فى أى بلد ما ينعكس تمــاما على درجة النجاح الذى تصيبه السياسات الاقتصادية التى تنهجها البلاد • حقيقة أن محمد على كانت له سياسة واضحة وكان يقوم بتنفيذها على أحسن وجه ، ثم جاء بعــده خلف لم يسيروا على نهجه تماما ، بل حاول بعضــهم النكوص على عقبيه فى مجــال الصناعة فى مصر وذلك بقفــل أبوابها ، فكيف ننتظر منه أن ينشىء صناعة قوية فى الســودان ؟ وحتى اسماعيل الذى بدأ يأخــذ بالأساليب الأوربية لم يعط الجانب الصناعى حقــه بعكس ما فعــل فى الجانب الزراعى حيث شهدنا نهضة زراعية لا بأس بها وخاصة فى مجال زراعة القطن •

خامسا : هنــاك سبب خاص بالســودان نفسه وهــو أن الرجــل السودانى قد عزف عن العمل فى الصناعة مفضلا العمــل فى التجــارة ، وهى مجال ضيق ، وغيرها من الأعمال ، وترك الصناعة للنساء والعبيد • ولذلك ظلت الصناعة السودانية بدائية فى أكثرها ولم تشهد فى تلك الفترة صناعة بالمعنى الحــديث تعتمد على الآلات وتأخــذ بأحدث الأســاليب المعروفة آنذاك إلا فيما ندر •

الفصل الثالث

التجارة والمواصلات

(القسم الأول)

التجارة الداخلية

— طرقها

— التجارة فى جنوب السودان :

(أ) تجارة العاج .

(ب) تجارة الرقيق .

— التجارة فى غربى السودان :

(أ) فى كردفان (مراكزها : الأبيض — باره — الطبارة — أهم السلع) .

(ب) فى دارفور (أنواع التجارة — قوة نفوذ التجار وعلاقتهم بالحكم) .

— التجارة فى وسط السودان وشرقه :

(أ) فى التاكة (كسلا) — أسواقها .

(ب) فى سواكن .

— التجارة فى شمالى السودان (بلاد النوبة) :

(أ) فى سكوت والمحس .

(ب) فى دنقلة العجوز .

(جـ) فى دنقلة الجديدة .

(د) فى بربر .

(هـ) فى شندى .

— التجارة الأجنبية فى السودان •

— التجارة مع مصر :

(أ) طرق التجارة بين السودان ومصر •

(ب) سياسة محمد على الاحتكارية وأثرها على السودان •

(جـ) أهم الصادرات والواردات بين البلدين وتطورها •

(القسم الثانى)

التجارة الخارجية

— طرقها •

— التجارة مع الحبشة •

— التجارة مع بلاد شبه الجزيرة العربية وجنوب شرقى آسيا •

— التجارة مع شمال أفريقيا •

— قوانين ونظم التجارة السودانية •

(القسم الثالث)

المواصلات

(أ) السكة الحديد •

(ب) البريد والتليغراف •

(جـ) المواصلات النهرية •

(د) المواصلات البحرية •

القسـم الأول

التجـارة الداخليـة

شهدت التجارة السودانية اهتماما بالغا من المسئولين منذ أن ضم السودان الى مصر فى عام ١٨٢١ ، بل ان هذا الاهتمـام التجارى قـد اعتبره الكثيرون ممن تتبعوا تطور العلاقات المصرية السـودانية فى القرن التاسع عشر أحـد العوامل التى كانت قد وجهـت محمد على شـطر السـودان ، إلا أن الاهتمام قد بدأ يتزايد تدريجيا فى السنوات التالية ليأخذ طورا آخر ، وهذا الطور بدأ فى عام ١٨٤١ بولوج التجـار الأجانب وخصـوصا الأوروبيين منهـم مستظلين بتسـوية ١٨٤٠ / ١٨٤١ التى فرضت على محمد على والتى تنص على ضرورة تطبيق كافة المعاهدات والاتفاقيات التى عقدتها أو تعقدها الدول الكبرى مع الدولة العثمانيـة ومنها اتفاقية عام ١٨٣٨ (بلطة ليمان) التى حوت بندا هاما يتعلق بحرية التجـارة فى أراضى الدولة العثمانية ومنها مصر والسودان أيضا ، فقـد أصبح السودان بمقتضى فرمانى ٢٣ مايو ، وأول يونية ١٨٤١ يحـكم بواسـطة محمد على ، وهذا يعنى سريان المعاهدات التى أبرمتها الدول مع الدولة العثمانية فى أراضيه ، وهكذا وفى ظل مزايا تسـوية ١٨٤٠ / ١٨٤١ تدفق الأجانب على السودان ومنهم التجار ، وبدأ تغلغل النفـوذ القنصلى والأجنبى فى السودان مثلما تغلغل فى مصر نتيجة اشراف الدول الأوربية على الدولة العثمانية وبالتالى على مصر والسودان .

طرق التجارة الداخلية :ـ

قد يكون من المفيد ونحن نعرض للتجـارة السـودانية أن نبـدأ بالتجـارة الداخلية لنتعرف على الطرق التى سلكتها وأنواعها ، فمـن أهم الدروب التى سلكتها هذه التجارة والتى كانت أكثر ارتيادا فى القرن التاسع عشر بصفة عامة ما يلى :ـ

أولا : الدرب الموصل من الخرطوم الى بربر ومنها الى سواكن • والجزء الأخير من هذا الطريق من بربر الى سواكن قدرت مسافته بنحو ٢٤٥ ميــلا (١) •

ثانيا : الدرب الموصل من الخرطوم الى بربر والى كرسكو •

ثالثا : الدرب الموصل من دارفور الى الخرطوم والى دنقلة •

رابعا : هناك درب يوصل بين الخرطوم والقضارف الى مصوع •

ويلاحظ أن هذه الطرق وإن كانت داخلية إلا أنه كان يمكن النفــاذ من خلالها الى الطرق الخارجية التى سوف نتحدث عنها فيما بعد •

ويصف لنا على مبارك طريق وادى حلفا دارفور فيقول : « انــه يخرج من وادى حلفا طريقان يوصلان الى دنقلة الأوردى ثم الى دنقلة العجــوز ومنها الى دارفور ، احــدى الطريقين فى البر الشرقى والأخرى فى البر الغربى ، فأما التى فى البر الشرقى فحجرية صعبة المســالك ، ومسافتها حتى دنقلة الأوردى ثمانية أيام ، بسير الهجين المعتاد وعشرة أيام بسير القافلة ، ولا يمكن الســير فى هذا الطريق إلا بصحبة خبراء من عرب تلك الجهــات ، وكانت أجرة الجمل من حلفا الى شرق دنقلة الأوردى مائة قرش ديوانى وحمل الجمل فيها من أربعــة الى خمســة قناطــير » (٢) •

وأما الطريق التى فى الغرب فهى رملية سهلة المسالك لا صعود فيها ولا هبوط إلا قليلا ، وهى أكثر أمانا ، ومسافتها إثنا عشر يوما بســير القافلة وتسعة أيام بســير الهجين وستة أيام بسير هجين البريد ويمكن

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . جـ ١ . ص ١٠ .
انظر ايضا : الشاطر بصيلى : تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل (القسم الأول) حتى ١٩٠٦ . ص ٨ .
(٢) الخطط التوفيقية الجديدة : جـ ٧ . ص ٤١ .

السـير فيها بلا خبير ، وإن جرت العادة السـير فى هذه الطريق بالخبير لأنه يؤدى مهام أخرى غير الدلالة على الطريق كحمل أثقال المسـافرين إذا عطبت رواحلهم وضبط مسيرتهم • وتمر تلك الطريق على قرية صغيرة تسمى « سمنه » فى البر الغـربى على شط النيل ومنها يخرج طريقان : طريق الى الفاشر بدارفور وطريق الى الخرطوم (١) •

وقد فتحت بعثات الضابط المصرى سليم قبودان فى النيل الأبيض طريق الملاحة والتجارة مع جنوب السودان ، فعلى سبيل المثال كان يمكن الولوج الى منطقة بحر الغزال من ثلاثة طرق :

أولهما عبر النيل الأبيض عن طريق مرفأ (شامبى) ، وثانيهما عن طريق بحر الغزال عبر مرفأ الرق ، وثالثهما عن طريق شـمال دارفور بمنطقة راجا (٢) • وأصبح من الميسور اتصـال الشماليين بأهـل الجنوب وقيام نوع من التبادل التجارى بينهما •

وهكذا ارتبط السودان شرقه وغربه ، شماله وجنوبه بعـدة طرق داخلية سلكتها القوافل والمراكب محملة بالبضائع •

التجارة فى جنوب السودان :

(أ) تجـارة العـاج :

مع بداية أربعينيات القرن التاسع عشر ، وعقب فتح طريق الملاحة مع جنوب السودان بدأ التجار يتصلون بأهل الجنـوب ، فمنذ شـهر مارس ١٨٤٠ وهو التاريخ الذى عادت فيه رحلة سليم قبطان الأولى الى الخرطوم توالت الأخبار الشفوية عن ثروات الجنوب ، لا سيما وقـد

---

(١) الخطط التوفيقية . ص ٤٤ .

(٢) التيجانى عامر : جنـوب السودان ، بحـر الغزال بين العصابات والحكومات ١٨٥٠ — ١٩٢٠ ص ١٧ .

عادت سفن الحملة الثانية الى الخرطوم وهى تحمل سن الفيل (العاج) وبعضا من غلات الجنـــوب (١) •

وقد كان العاج (سن الفيل) من أبرز متاجر الجنوب فقـــد عرفه تجار شمال السودان قبل فتح النيل الأبيض للملاحة إذ كان معظمه يأتى آنذاك من دارفور وكردفان • وبالرغم من الحظر الذى كان يفرضــه محمد على ، على بعض السلع ومنها العاج غداة ضم السودان إلا أن التجار ومنهم تجار الخرطوم كانوا يقومون بتهريبه الى موانىء البحـــر الأحمر حيث تحمله سفن الشركات الانجليزية بالهند والتى كانت تقوم بإعادة تصديره الى أوربا (٢) •

وفى بادىء الأمر كان كبار التجار كالعقاد وغطاس وغيرهما محتكرين للعاج وكانت لهم منشآت ومخازن أو زرائب بالقرب من بحر الغـــزال ودارفور وكردفان وكان لهم جند وخدم وأتباع منتشرين فى كل مكان •

وقد سبق هؤلاء الرجال مغامرون أوربيون أمثال جون بتريك الذى نفذ الى بحر الغزال وتجـــول فى منطقة الدينكا عـــام ١٨٥٣ واســـتقر بإحدى « الزرائب » حيث باشر منهـــا أعماله التجارية بمنطقة الجـــور حتى عام ١٨٦٣ (٣) •

كذلك نشير الى مغامر آخـــر فرنسى الجنسية وهـــو ألفونسو دى مالزاك Malzac الذى جاء الى بحر الغـــزال عـــام ١٨٥٦ ، ويعتبر هو المؤسس لبلدة (رمبيـــك) التى دخل موضعها عن طريق « شامبى » وأسس له تجارة فى كلتيهما ، وظل يمارس نشاطه حتى وفاته ١٨٦٠ •

---

(١) نسيم مقار : جهود مصر فى الكشف الجغرافى ، البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل ص ١١٣ •

(٢) أحمد أحمد سيد أحمد : تاريخ مدينة الخرطوم ص ١٣١ •

(٣) التيجانى عامر : المرجع السابق ص ١٨ — ١٩ •

وهناك أيضا شركة فرنسية ضمت لفيفا من المغامرين أمثال « الإخوان امبروز وجوليز بونسيه Poncet » وهؤلاء دخلوا جنوب السودان عن طريق « شامبى » ومارست هذه الشركة كغيرها أعمال التجارة فى كافة ما ينتجه الجنوب الى أن صفت أعمالها وغادرت بحر الغزال عام ١٨٧٢ (١) .

ولقد أصبحت تجارة العاج تشكل المورد الرئيسى لدخل التجار فى الخرطوم إذ كانت الرحلة الى الجنوب إذا ما عادت ، على الأقل بنحو خمسة وعشرين قنطارا فقط من العاج قادرة على تغطية نفقاتها ، هذا وإن كانت الرحلة فى أسوأ الأحوال لا ترجع بأقل من مائة قنطار ، وقدر البعض قيمة العاج الذى قام سوق الخرطوم بتصديره بين عامى ١٨٦٠ — ١٨٧٠ بنحو أربعين ألف الى مائة ألف من الجنيهات فى السنة (٢) .

ولما أصبح غوردون مأموراً على خط الاستواء (١٨٧٤ — ١٨٧٦) احتكر تجارة العاج فى هذه المديرية وتوقع المراقبون الاقتصاديون كساد هذه التجارة ، إلا أن الأمور سارت عكس ذلك تماما فى بادىء الأمر ، فلم تتعرض صادرات السودان من العاج فى تلك السنوات لأى شكل من أشكال الضعف ، وذلك لأن العائد الذى تدره كفيلا بأن يحتال التجار بكافة السبل للحصول عليه فقد كانت تدر دخلا لا يقل عن مائتين فى المائة فى أسوأ الظروف (٣) .

ويذكر احد الدارسين أن الفترة التى عاد فيها غوردون حكمدارا للسودان (فبراير ١٨٧٧ — يناير ١٨٨٠) ، تذبذبت خلالها صادرات العاج تذبذبا شديدا ، فقد بلغت صادراته عام ١٨٧٩ حوالى

---

(١) نفس المرجع ص ١٩ .

(٢) احمد احمد سيد احمد : المرجع السابق ص ١٣٤ .

(٣) Gessi; op. cit., p. 61.

(٨٠ر٠٠٠ من الكيلو جـرامات) ، بينما بلغت فى عام ١٨٧٨ أعلى معدل لها ، طوال الحكم المصرى وهو ٢٠٥ر٠٠٠ من الكيلو جرامات) • ويفسر ذلك بأن التجار كانوا يخزنون العـاج عقب تهريبه حتى إذا وجـدوا الفرصة الطيبة لبيعه أخرجوه (١) •

ولدينا احصائية تفصيلية لإنتاج العاج فى كل مركز من مراكز جنوب السودان عام ١٨٨١ ، تشير الى ارتفاع معدل انتاجه بشكل مضطرد ، إذ بلغ فى هذا العام جملة انتاج هذه المراكز ١٧٠٠ قنطاراً كما يشـير الجـدول الآتى :

اسم المركـز	المقادير بالقنطار
بـــود	١٠٠
لادو	٦٠
كـرى	٢٠
دوفيليه	١٥٠
فويرا	٢٠
لاتوكـا	٢٠
فادييـك	٥٠
مكراكـا	٥٠٠
رول	٢٠٠
ممبيتـو	٤٠٠
الاجمـالى	١٧٠٠

(١) أحمد احمد سيد احمد : المرجع السابق ص ١٣٤ •

وقد بلغ ثمن الـ ١٧٠٠ قنطار على أســاس ثمن القنطار الواحــد ثلاثين جنيها حوالى ٥١٠٠٠ جنيه مصرى (١) .

ولقد تعرضت سياسة احتكار العاج فى جنوب الســودان لاستياء التجار ونقد بعض المؤرخين ، فمن المعروف أنه ما أن تسلم غوردون حكم مديرية خط الإســتواء حتى أعلن :

أولا : أن التجارة فى العــاج خاصة بالحكومة .

ثانيا : أنه لا يسوغ لأحــد أن يأتى الى هذه النواحى دون الحصول على تذكرة « تصريح » من حاكم السودان العمومى ، وهذه التذكرة انما يعمل بها بعد النظر فيها من حكومة (غوند كرو وغيرها) .

ثالثا : أنه لا يسوغ لأحــد أن يجمع رجــالا مسلحين داخل هــذه الجهــات .

رابعا : ان جلب السلاح والبارود ممنوع .

خامسا : أن كل من يخالف هذا المرسوم يجرى عليه الجزاء بحسب القوانين العسكرية (٢) ويتبين من هذه القرارات انها كانت ضربة قاصمة لتجار العاج فى تجارتهم فهى لم تحرمهم هذه التجارة وحسب ، بل حرمتهم حتى الدخول الى تلك الأراضى إلا بشروط شبه مستحيلة ، ومعنى ذلك كله أن غوردون سوف يقوم بإسم الحكومة بعملية إحتكار للعاج ، ولــكن من أين له الخبرة فى هذا المجــال الذى له رجاله ؟ . لقــد أراد غوردون أن يستغل بعض التجار القدامى ويستثمر خبرتهم فى هذا المجال فضم إليــه بعضا منهم أمثال « الأطروش » وهو أحد صيادى العاج القدامى الذين قدموا الى هذه البــلاد منذ زمن طويل مع مجموعة من الدناقلة

---

(١) عمر طوســون : تاريخ مديرية خط الاستواء . الجــزء الثانى . ص ٧٧ .

(٢) ابراهيم فوزى باشا : كتاب السودان بين يدى غوردون وكتشنر — الجــزء الأول ص ٦ .

وعمل بتجارة العاج فى بلاد المكراكيين « نيام نيام » ونجح فيها ، وعقب احتكار الحكومة للعاج دخل فى خدمتها (١) • فقد كان رؤساء الزرائب المنتشرة على طول ساحل بحر الزراف والنيل الأبيض مجبرين على إخلاء منشآتهم فى ظرف ثمانية أشهر يصبح للحكومة بعدها الحق فى مصادرة العاج والإستيلاء عليه •

وقد تسببت هذه الاجراءات فى خسائر جسيمة للحكومة تمثلت فى عدم دفع ضرائب سنة كاملة ، كما ترتب أيضا على إلغاء هذه الزرائب ، والتى كانت مراكز طبيعية لتمويل الأهالى بلوازم المعيشة ، إزدياد نفقات الحملات التى قامت بها الحكومة فى تلك البلاد الشاسعة (٢) •

وقد وصف البعض أيضا قرار إحتكار العاج بعدم الحكمة ، إذ أن هذا القرار قد جعل صيد الفيل يقل بصورة ملموسة فى المديريات وجعل انتاج العاج فى البلاد الجنوبية (الاونيورو بوجه خاص) يتجه نحو الجنوب بدلا من الاتجاه صوب الشمال طريقه الطبيعى (٣) •

وكان الخديوى اسماعيل فى بعض الفترات يلجأ الى الإحتكار لأسباب خاصة ، فها هو يخاطب صمويل بيكر بقوله « واحتكروا التجارة كما تقترحون وأنا أوصيكم بذلك لا لأنى أميل الى الإحتكار ولكن لأن الإحتكار له ما يبرره فى هذه الحالة فهو ضرورى لإقصاء التجار الذين يستخدمون العبيد كوسيلة من وسائل المقايضة • على أنى أريدكم أن تحتكروها إحتكارا ينطوى على السماحة (٤) • وكان التجار يقدمون للجنوبيين فى مقابل العاج الخرز على اختلاف أنواعه وألوانه ، ثم الودع والقصدير ، وكانت جميعها تستخدم للتزين سواء بالنسبة للرجال

---

(١) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء • ص ٢٠٨ •
(٢) محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر هامش ص ٧٢ •
(٣) نفس المرجع ص ٧٢ ، ٧٣ •
— ص ٢٣٧ •
(٤) جورج جندى وجاك تاجر : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية

أو النساء ، وكان الأهالى يفضلون هذه الأشياء على الذهب والفضة . وكانوا يقدمون فى مقابل ذلك بالإضافة الى العاج ، ريش النعام والمطاط والحـديد والنحاس (١) .

(ب) تجارة الرقيق :

ولقد ارتبطت تجارة العـاج بتجارة أخـرى وهى تجارة الرقيق ، لأن مطاردة الرقيق وحدها كانت لا تأتى بربح وفير إذا ما سبق هؤلاء الرقيق الى الساحل فارغى الأيدى .

فكان التجار فى غزواتهم المسلحة ينتهبون العاج ويحملون الرجـال والنســاء والأطفال أسرى وعبيدا (٢) .

وقد كان لاعــلان حرية الملاحــة فى النيــل الأبيض خــلال عامى ١٨٥٣ / ١٨٥٤ نتائج خطيرة ، إذ سرعان ما أصبحت أقاليم النيل العليا وخاصة عند غندكرو ، ميدانا لنشاط تجارة الرقيق (٣) .

ومنذ عام ١٨٥٤ أصبحت تجارة الرقيق السلعة الرئيسية فى سوق الخرطوم بلا منازع بعد أن كان العاج يحتل هذه المرتبة ، ففى هذا العام وبالقــرب من غندكرو على بحر الجبل قتــل تاجــر العــاج السردينى « فودى » مع بعض رجاله ، وعقب هذه الحادثة توسع تجار الخرطوم فى استعمال الحــراس بالإضــافة الى أن عــددا كبيرا من أصــحاب رؤوس الأموال الصغيرة من أهل الخرطوم المتعددى الجنسيات قد تنبهوا منذ عام ١٨٥٠ الى ضخامة مكاسب رحلات العاج فبدأ الجميع يتجه الى

---

(١) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ١٨ — ١٩ .
(٢) محمد صبرى : المرجع السابق ص ٥٣ .
(٣) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ — ص ٥٢ ، ٥٣ .

الجنوب ، كما أن الزنجى بدأ يرفع أسعار عاجه ، لذلك كان الاتجاه الى تجارة الرقيق الذى كانت تقل نفقاته كثيرا عن العاج (١) .

هكذا بدأ الاتجاه نحو الجنوب لإستنزاف رجاله فى صورة سلع وبدأت تنتعش تجارة من أبشع أنواع التجارة فى العالم والتى أطلق عليها البعض « تجارة العاج الأسود » وكان من الطبيعى أن يصحب هذه الانتعاشة اقامة عدة بيوت تجارية مثل بيت أحمد العقاد « وأبو السعود » « وأبو عمورى » والبصيلى وشنودة وغطاس وكجوك على وخليل الشامى ومحمد خير والزبير رحمت وخورشيد أغا وعبد الحميد وغيرهم .

ومن التجار الأجانب ديبونو Debono وأمبيلى Ambile وينتميان الى سلالة مالطية ، ومالزاك Malzac ، وبارثلمى Barthelmy ولافارج Lafargue وبونسيه Poncet وينتمون الى فرنسا ، وبترك الانجليزى ، بالإضافة الى أحد البيوت الايطالية « انجيلو — بولوينزى — انطونيولى » (Angelo - Boloynesi - Antonyoli) الذى اختص بالتجارة الحبشية .

وفى عام ١٨٦٠ باع أكثر هؤلاء التجار زرائبهم ومحطاتهم الى التجار العرب حيث عجزوا عن منافستهم (٢) .

وهكذا تربع هؤلاء الأفراد على قمة هذه التجارة وتألفت من « أبو عمورى » وبصيلى وكوجك على « ديكتاتورية ثلاثية » فرضت سطوتها على السودان فى اقليم بحر الغزال ، فى حين تألفت من شنودة

---

(١) احمد أحمد سيد احمد : المرجع السابق ص ١٣٥ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، الجزء الثانى ، ص ٣١٥ ، أنظر أيضا شكرى : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية ص ٨٥ .

وخورشيد أغا ، وديبونو ديكتاتورية ثلاثية أخرى حــول غندكرو بإقليم بحر الجبــل وجهات النيل العليا (١) •

وكان لكل عصابة من تلك العصابات « مشرع » خاص بها يســمى مشرع الرق وأحيانا يسمى « زريبة »أو « ديم » ﴿*﴾ •

وكان لموسى العقاد فى عهد الخــديوى اسماعيل خمسة مشــارع فى جهات النيل الأبيض (٢) وقد كانت شركة العقاد هذه من الشركات التجارية بمصر والخرطوم التى استطاعت أن تحصــل من حكومة الخرطوم على احتكار حقوق الاتجــار فى أعالى النيــل •

ومن الأسماء المقترنة بأسرة العقاد أبو السعود العقاد الذى جــاء الخرطوم شابا حيث التحق ببيت العقاد التجارى • وفى عام ١٨٧٠ تبوأ مكان الصدارة فى هذه الشركة وبدأ يمارس هذه التجارة على نطاق واسع الأمــر الذى جعل بيكر يضيق ذرعا به وبأفعاله فوجه إليه فى ١٨ يونية ١٨٧١ من غندكرو خطابا شــديد اللهجة يتهمه فيه بالتحالف مــع قبيلة

---

(١) شكرى : المرجع السابق ص ٨٦ •

(*) المشرع عبارة عن مكان محصن على شــكل مربع مبنى من عروق الخشب يقيم فيه التاجر أو وكيله ومعه حراس مسلحون ، وهذا المكان كان يضم افرادا من العبيد لمصاحبة أسيادهم فى الغــارات والبحث عن العاج ، والعمل فى الحقول والبعض الآخر فى رعى الماشية •

أنظر اسماعيل سرهنك : المصــدر الســابق • ص ٣١٦ ، وأيضــا محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر • ص ٧٠ •

وأيضا : سعد الدين : الزبير باشا رجل السودان • ص ١٨ •

وأيضا : دفتر رقم ١٩٢١ — أوامر كريمة ، صورة الأمر الكريم رقم ٢ ص ٤ بتــاريخ ٢٩ ربيع الثــانى ســنة ١٢٨٢ هـ • أمر كريم الى حكمدار السودان • دار الوثائق القومية بالقلعة •

وأيضا : Gessi; op. cit., p. 222.

وأيضا : Douin; G.; Histoire Du Régne Du khedive Ismail L'Empire African. 3 Partie (1874-1876). Tome Troisieme p. 58.

(٢) دفتر رقم ١٩٢١ — الأمر الكريم رقم ٢ بتاريخ ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٢٨٢ هـ • الى حكمدار السودان • دار الوثائق القومية بالقلعة •

« البنـارى » ضد الحكومة ، وقيام جماعته بسرقة المواشى والزنوج من داخل البلاد واشـاعة الفوضى فى المنطقة ثم طلب إليه أن يخلى مـع أتباعه المنطقة النازلين بهـا وأن يوافق على مصـادرة المواشى المسلوبة لصالح الحكومة .

ويبدو أن الأمر قـد تأزم بين بيكر و « أبو السعود » مما جعـل الأخير يشكو بيكر للخديوى ويتهمه بالتهجم عليه وإفساد تجارته ويطالب بالتحقيق فى هذا الأمر . ولكن الخديو حدد له مهلة ليخلى المنطقـة بل وصـل الأمر الى حـد طلب القبض عليه فورا ومنعه من هذه التجـارة خاصة وأن بيكر منذ عام ١٨٦٩ كان معنيا بالقضـاء على هذه التجـارة كما جاء فى البنـد الثانى من العقد المبرم بينه وبين الحكومة المصرية (١) .

ومن التجار الذين اشتهروا فى هذا المجـال أيضا على أبو عمورى بمنطقة بحر الغزال وهـو ينحدر أصـلا من بلدة نجع حمادى بصعيد مصر .

ومن الشخصيات التى ارتبطت « بأبو عمورى » وذاعت شـهرتها الآفاق شخصية « الزبير رحمت » فهو كغيره من التجار قد مارس تجارة الرقيق فى الجنوب وخاصـة ببحر الغزال حيث أنشـأ « ديم الزبير » واكتسب فيها شهرة عظيمة من خـلال تجارته وعصابته المسلحة هناك ،

---

(١) Crabites; Gordon. The Sudan and Slavery pp. 33, 5, 49 - 50.

وانظر ايضا : Hill; Abiographical Dictionary of the Anglo Egyptiann Sudan.

وكذلك : عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء . الجـزء الأول ص ٤٤ ، ٤٥ ، وأيضـا جميل عبيد : المديرية الاسـتوائية ص ٣٨١ ، ص ٤٣٣ ، ٤٣٧ ، ، وكذلك : محمد احمد الجابرى : فى شـأن الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله ص ١٠٤ .

وأيضا : محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٥٣ .

واستطاع أن يعقــد مع عربان الرزيقات اتفاقا لفتح طريق « شــكا » للتجارة بين مملكته فى بحر الغزال وســلطنة دارفور ثم اســتولى على « شــكا » وبسط سيطرته على جميع أجزاء بحر الغزال حتى استشعرت الحكومة خطره خاصة بعد هزيمته لمحمد الهلالى (البلالى) الذى أرسل الى بحر الغزال فى عام ١٨٦٩ ، فأسندت اليه قيادة الحملة التى ضمت دارفور عــام ١٨٧٤ (١) .

هذا فيما يتعلق بالأفراد والجماعات التى سلكت هذه التجــارة ، أما عن أسلوب الحصول على هذه السلعة فكان يتم عن طريق اشــعال الحرب بين تلك القبائل الجنوبية ، فكانت القرى تغير على مثيلتها دون مبرر مقبول اللهم إلا مبرر السلب ، وكان الأسرى يباعون الى القبائل الأخرى ويبادلون بالبقر والماعز ، والى هذه الخطــوة يمكن أن يســأل الجنوبيون عن تشجيع هــذه التجارة حتى يأتى تجار الرقيق والعــاج ويمرون ببعض القرى ويشترون صمتهم بوعدهم بالماشــية ويستبقون لأنفسهم الرقيق والعاج ، وكانوا يبــدأون جميعا عملهم ليــلا بمساعدة الأهالى المسلحين بالرماح حيث يقومون بإشعال النــيران فى الأكواخ ، بينما يقوم حلفاء التجار بنهب الممتلكات ومنها الأفراد ، ويظل الأسرى مقيدين حتى يفك أسرهم ويقادوا محملين بالعاج ومعهم الماشية . وما أن يصلوا الى الزريبة حتى تقسم الغنائم على النحو التالى : العاج والعبيد للتجــار ، والماشــية للوطنيين .

ثم يقيد العبيد ويظلون هكذا لمدة ثلاثة أســابيع حتى يصلوا الى

---

(١) دفتر رقــم ١٨٦٤ معية ، ص ٣٨ ، صــورة المكاتبة الواردة من مديرية عمــوم قبلى الســودان الى المعية السنية بتاريخ ٢٥ شعبان ١٢٨ هـ دار الوثائق القومية بالقلعة . ، انظر ايضا : السودان — مجلس الوزراء — محفظة موضوعات عوايد . دار الوثائق القومية بالقلعة .
وايضا : سعد الدين الزبير : المرجع الســابق ص ٦٥ ، وشــكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ . ص ١٧٣ .

الخرطوم • وكانت هنــاك وســيلة أخرى للحصــول على الرقيق وهى قيام البعض من الأهــالى ببيع أبنائهم بسبب الضائقات المختلفة مثــل المجاعات وغــيرها (١) •

ويفرق البعض بين نوعــين من هذه التجــارة ، الأولى وتعــرف « بالبحارة » حيث يتوغل صيادو الرقيق فى النيل الأبيض حتى يصلوا الى أعاليه منتشرين فى بلاد بحر الغزال وخط الإستواء • والنوع الثانى يسمى « بالنهاضة » وهم الذين كانوا يغزون الجبــال كجبال النــوبا وجبــال فازوغلى (٢) • وكان شــعارهم « يا دهب أحمــر يا مــوت أحمــر » (٣) •

وعقب تلك العمليات يصــل الرقيق الى أســواق السودان لبيعــه للأهالى أو للتجار الذين يقــومون بتصديره الى الخــارج وأشهر هــذه الأسواق السودانية أسواق فاشــودة والقلابات والأبيض وهى تختص برقيق دارفور وجبال النوبا وبحر الغزال وخط الإســتواء والحبشة ، وكان التجار يشترون من هذه الأســواق ويقومون بالبيع فى أســواق الخرطوم والمسلمية وود مدنى وسنار والقضارف وكسلا وبربر وشندى ، ويصــدرون ما يزيد عن حاجة البلاد عن طريق النيل والبحر الأحمر (٤) ويباع الرقيق فى هــذه الأســواق إما بالمزايدة العلنية أو عن طــريق الاتفاق الشخصى ، ولحظة شراء الرقيق يســمح للمشترى قبل إتمــام الصفقة بإيواء الرقيق بمنزله ثلاث ليــال ذكرا كان أم انثى فى مقــابل « عربون » يعادل ربع الثمن أو خمســة • ويعيب الرقيق أن يكون به

---

(١) الشاطر بصيلى عبد الجليل • تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط من القرن السابع الميــلادى الى القرن التاســع عشر الميــلادى ص ٤٠١ •

(٢) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ٣ ص ٥٠ — ٥١ •

(٣) عمر طوسون : المرجع السابق ص ٣٥٠ •

(٤) شقير : المرجع السابق • ص ٥١ •

مس من الجنــون أو ألف التبول أو الشخير أثنــاء النــوم أو مصــابا بالزهرى ، فإن كان خاليا من هذه العيوب تمت الصفقة وإلا أعيد صاحبه واسترد العربون • أما إذا كانت الجارية بكرا وعاشرها المشترى معاشرة الأزواج فلا يمكن ردها (١) •

ويختلف ثمن الرقيق تبعــا لإختــلاف السن والصحة والجمال ، والصفة المطلوبة غالبا فى الرقيق الذكر النشــاط والقــوة ، وفى الأنثى الشباب والجمال • والرقيق من الإناث — فى أغلب الأحيــان — أغلى من الذكور ، كما أن أثمــان الأطفال أقل من أثمان المراهقين ، اللهم إلا إذا كانوا قد تعلموا اللغــة العربية أو الخدمة بالمنازل فحينئذ تزداد قيمتهم خاصة وان مسألة هربهم قد أصبحت غير متوقعة • وأثمن الذكور جميعا الخصى المخصص لخدمة السيدات التركيات ، أما أثمن الجــوارى جميعا فالحبشيات حيث تباع أكثرهن للمتاع البدنى (٢) •

وظل هؤلاء التجار يمارسون هذه التجارة رغم ما صدر اليهم من أوامر منذ عهد محمد على بالكف عن هذه التجارة خاصــة وأنه — كما سبق القــول — لم يعــد محمد على يكترث بعــائدها ، وبدأت الدول الأوربية تضغط عليه لمنعها واستمرت هذه المحــاولات فى عهد خلفــائه وخاصة فى عهد اسماعيل حيث أشرنا الى ما قام به مبكرا فى هذا الصدد •

---

(١) تقرير بورنج السابق ص ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٧٤ •

(٢) نفس التقرير • ص ٥٧ • انظر ايضا :
احمد أحمد ســيد : المرجــع الســابق ص ١٧٢ ، ويقسم الأهــالى السودانيون الاناث من الرقيق الى طبقات السن الآتية : فالبنات اللائى تقل أعمارهن عن ١١ ســنة يدعــون بالخماسى ، واللائى عمرهن من ١١ — ١٥ سنة يدعون بالسداسى وهن أغلى الرقيق • انظر :

Cailliauld; Voage a Meroé Au Fleuve Blanc, Au Della De Fazogl dans le midi Du royaune de Sennar A. Syouoh et dans Cinq autres Oasis, Tom. III, p. 117.

انظر ايضــا : محفظة ١٩ بحــر برا — وثيقة رقــم ١ ملف رقــم ١ دار الوثائق القومية بالقلعــة •

وكثفت هذه المحاولات ﷺ على يد غوردون الذى أعلنها حـربا شعواء على تجار الرقيق وأخيرا توجت بقرارات رسمية كان أهمهـا معاهدة ٤ أغسطس ١٨٧٧ التى نصـت صراحة على ايقاف هذه التجـارة ورسمت السبل الخاصـة لمنعهـا تماما ولكن هذه المعـاهدة لم تكن إلا مـدادا على ورق فاستمرت هذه التجارة بشكل أو بآخـر وأصبح من الصعوبة إيقافها حيث أمست متغلغلة فى كيان السودان الاقتصادى •

وفى عهد الخديوى اسماعيل وضعت عدة أمور لتنظيم عملية التجارة مع الجنوب بعد أن كانت متروكة للأهـواء الفردية لكل تاجر ، فأقامت الحكومة المحطات العديدة بهدف انتشار الأمن وراحة المتمردين عليهـا والمستوطنين وكمرسى للوابورات والسفن التجارية (١) •

وقد خصصت الحكومة فى كل من هذه المحطات طبيبا ووفرت له كافة الأدوية لمعالجة من تقتضى معالجته من العساكر والأهالى والتجار ، على أن تتحمـل الحكومة نفقات هـذا العـلاج • وكان الهدف من إرسـال العساكر الحكومية الى هذه المنطقة كما جـاء بالبند الثالث عشر لتنظيم

(ﷺ) حول هذه الجهود انظر على سبيل المثال مما يلى :
— نص معاهدة الرقيق بتاريخ ٤ أغسطس ١٨٧٧ المشار اليها .
— لائحة تنفيذ قرار الرقيق فى السودان بمحفظة اللوائح بدار الوثائق القومية .
— دفتر رقم ٤٦ عابدين — وارد تلغرافات — صورة التلغراف العربى رقم ٤٨ ص ٦٢ بتاريخ ٢٢ ربيع الأول ١٢٩٤ هـ . ارادة الى حكمدار عموم الأقاليم السودانية .
— محافظ السودان — مجلس الوزراء — رقيق — دار الوثائق القومية بالقلعـة .
— محافظ السودان — مجلس الوزراء — رقيق — ترجمة نص الخطاب المرسل من نظارة الداخلية الى الكونت صالة بتـاريخ ١٥ مايـو ١٨٨٠ .
— ونفس المحافظ — محفظة الرقيق — صورة المنشور الصـادر من نظارة الداخلية بخصوص منع الرقيق بتاريخ غرة رجب ١٢٩٧ هـ . (٩ يونية ١٨٨٠) .

(١) أمين سامى : تقويم النيل — المجلد الثانى جـ ٣ ص ٥٦٥ .

جهات البحر (النيـــل) الأبيض هو « عماريتها وضبطها ووقاية أهلهـا والتجار المـارة أو المقيمة بها من سائر أنواع الضرر (١) » • كـذلك فقد جاء فى البند السادس عشر أن كل هذه الأمور الأمنية التى أجرتهـا الحكومة فى تلك البلاد كان القصد منها « توسيع دائرة التجارة فى تلك الجهـات » • ولم تـكن الحكومة تقتصر فى نشر مظلتهـا الأمنية على التجاء السودانيين أو المصريين بل إمتدت هذه الرعاية الى التجار الأجانب طالما كانوا يحترمون القوانين التجارية « فى الأخـذ والعطاء مع أهالى تلك الجهات » (٢) •

ولقد كانت هناك مبـادرة شخصية من لدن موسى حمدى حكمدار السودان فى شأن تنظيم عملية الأجرة التى كان يتقاضاها بعض المرشدين نظير ارشادهم لحملات التجـار فاقترح هذا الرجـل أن يدفع هـؤلاء مائتى قرش لرؤسـاء الإرشـاد (الأدلاء) بالإضـافة الى مائة قرش للخـدم ، ولكن التجار لم يكن لديهم استعداد أن يدفعوا أكثر من سـتة وثلاثين قرشا فقط ، ونتيجة لهذا الشح الذى كان يقابل به هؤلاء الأدلاء ، تعرض كثير من التجار للمخاطر فى هذه الرحلات ، من ذلك ما حـدث للسـيدة الفرنسية (تـنى) Tinne التى تعرضـت الى ظروف سـيئة اضطرتها فى النهاية الى دفـع مبلغ مائة قرش بـدلا من ستة وثلاثين قرشـا •

ويبدو أن هؤلاء التجار الفرنسيين كانوا برمين بمثل هذه الأوضاع والتنظيمات التى كانوا يلاقونها من قبل المسئولين فى السودان (٣) •

---

(١) أمين سامى : المرجع السابق • ص ٥٦٥ •
(٢) نفس المرجع • ص ٥٦٧ •
(٣) الأرشيف الفرنسى : محفظة ٥٩ بدار الوثائق القوميـة بالقلعة • رسـالة موجهة من :
M. C. Thibut, Vice - Consul de France à Khartoum à M. Testu, Agent et Consul General de France. Alexandrie. Khartoum. Le 2 Juin, 1864.

ومن بين الأمور المنظمة للتجارة فى جنوب السودان بنود تنص على الكشف على المراكب وعدد أشخاصها فى الذهاب والإياب وإجراء التفتيش عليهم (١) • ويصف ابراهيم فوزى أوضاع التجار ببحر الغزال عقب سيطرة الحكومة على هذه المناطق قائلا : « ••• ثم كتبنا منشورا الى جميع الجهات (ببحر الغزال) لوكلاء الكباين (الشركات) والأهالى بصيرورتهم من رعايا الحكومة المصرية وأن يحضر أولئك الوكلاء والأعيان الى مركز (مشرع الرق) • ولم تمض أيام قلائل حتى حضر قنـاوى بك وأبو عمورى ونظاره (وكلاؤه) ومشايخه على القبائل طائعين ، وحضر أيضا وكلاء الخواجة غطاس • وهكذا أخذ رؤساء التجار يفدون واحدا بعد الآخر إظهارا لطاعتهم وسرورهم بإمتداد سلطة الحكومة المصرية عليهم ••• » (٢) •

وفى ظننا أن مجىء هؤلاء التجار لم يكن يعنى البتة رضاءهم عن هذه الأوضاع الجديدة التى أصبحوا فى ظلها تابعين بعد أن كانوا يسيطرون على هذه الجهات بقوة السلاح وكانوا بحق ، يشكلون حكومات غير شرعية • فمجيئهم اليوم لم يكن إلا نوعا من أنواع الهدنة المؤقتة ولا يمكن للمرء أن يتصور أن هؤلاء التجار سوف يقنعون بما تقرره الحكومة فى هذه الجهات ، ولعل فى ثورة سليمان نجل الزبير رحمت فى بحر الغزال ما يقوم دليلا على صدق هذه المقولة •

وقد أخذت الحكومة من التجار أسلحتهم ، وفرضت عليهم مقدارا معلوما من تجارتهم « كحصة للحكومة » كانت تقدر بثلاثة أخماس تجارتهم من ريش النعام والصمغ وسن الفيل وكان الحال يستوجب على الحكومة فى تلك الجهات المرور على أماكن هذه الشركات التجارية واحدا بعد الآخر ، لأخذ نصاب الحكومة منهم • وقد أبدى هؤلاء التجار كثيرا

---

(١) أمين سامى : المرجع السابق • ص ٥٦٧ •
(٢) السودان بين يدى غردون وكتشنر جـ ١ • ص ٣١ •

من الضجر إزاء هذه المعاملة وجأروا بالشكوى والتمسوا فى نظير ذلك أن تعفيهم الحكومة من أجرة نقل بضائعهم على مراكبها بين بحر الغزال والخـــرطوم (١) .

التجارة فى غربى السودان (كردفان ودارفور) :

وفى غربى السودان كان من الطبيعى أن ينشـــأ نوع من الاتصـــال التجارى مع أجزاء السودان الأخرى وخاصة المجـــاورة له . وقد سهلت عملية ضم كردفان الى أجزاء الســـودان فى عهد محمد على زيادة هذه الصلات خاصة وأن تجارة كردفان قبل هذا الضم كان أكثرها يتجه نحو مصر ، أما الآن ، وقد أصبحت الإدارة واحدة والجميع يخضعون لقوانين واحدة بدأت هذه التجـــارة وخاصـــة فى كردفان يتجه كثير منهـــا الى سوق الخرطوم . فكان سوق الأبيض يعج بتجار الخرطوم الذين يقومون بنقل بضائع كردفان الى سوق الخرطوم والتى كان أهمها الصمغ وريش النعام والعبيد والعـــاج وشمع العسل والقطن والسمسم والجلود والتمر الهندى والملح والدخان والذهب والماشية بالإضافة الى كميات قليلة من السنامكى والحنظل (٢) .

وقد احتلت الأبيض ـــ التى كانت عاصمة لكردفان ـــ مركزا تجاريا هاما نظرا لموقعها الهـــام على ملتقى طرق القوافل القادمة من النـــوبة وسنـــار ودارفور ووادای وشمال غـــرب أفريقيا ومصر (٣) . وقد سكن هذه البـــلدة الكثير من التجـــار ســـواء الذين كانوا قادمين من جهـــات السودان المختلفة أو أولئك الذين قدموا من خارج السودان ، وأصبح هؤلاء التجار يشكلون جاليات ولكل جالية حى تعرف به أو قرية من القرى الكبيرة . فالتجار الذين قدموا من دنقلة أقاموا فى احدى القرى بوادى

---

(١) ابراهيم فوزى — المصدر السابق . ص ٣١ .

(٢) Pallme; op. cit., vol. I. p. 280.

(٣) Ibid. pp. 295-8.

نجيلى Nagele ، وكذلك الحال بالنسبة للقادمين من بلاد التكرور الذين سكنوا حيا عرف باسم حى التكارنه أو قرية الحجاج (١) .

وكان الرحالة والمكتشف جون بتريك واحداً من أولئك التجار الذين أقاموا فى الأبيض وتاجروا فى الصمغ العربى من كردفان بين عامى ١٨٤٨ — ١٨٥٣ .

ولم تقتصر الأبيض على هذه الأحياء بل أضيفت إليها أحياء أخرى عديدة على يد الإدارة المصرية فى السودان تبعا لإزدياد النشاط التجارى . ويصف أحد الرحالة سوق الأبيض بأنه كان من أكثر أجزاء المدينة حيوية ونشاطا (٢) ، فقد كان يضم أقساماً متنوعة لعرض السلع المحلية والواردة من الخارج ، فكان للابل والماشية والأغنام « قسم » ، وللسلع رخيصة الثمن « قسم » خاص بها وكذلك الحال بالنسبة للسلع عالية الثمن قسم ثالث . وكان الأخير أكثر تنظيما من الأقسام الأخرى فهو عبارة عن صفين من « الدكاكين » المشيدة من الطمى و « سقيفة » لحجب أشعة الشمس عن واجهتها وكانت الأدوات المعدنية والذهب من أهم السلع المحلية ، بينما كانت السيوف وأجراس الابل والأقواس ، والكحل والأسلاك النحاسية والحديد والمرايا والسكر والصابون والكبريت من أهم السلع الآتية من خارج كردفان (٣) .

وكان لتجار الجملة فى سوق الأبيض قسم خاص ، شيدوا فيه منازل خاصة بهم يقيمون فيها ، وتؤدى مهمة أخرى ، إذ كانت تعقد فيها الصفقات التجارية الكبيرة التى تأخذ طريقها الى الخارج مثل الرقيق وسن الفيل أو ريش النعام والصمغ والتمر هندى (٤) .

---

(١) John Pethrick; op. cit., p. 300.

(٢) Hill; A Biographical Dictionary. p. 35.

(٣) Pallme; op. cit., vol. I. p. 280.

(٤) Ibid. pp. 297-98.

ولقد خضعت السلع التى كانت تعرض فى سوق الأبيض لنظرية العرض والطلب فهى تارة تنخفض بشكل نسبى أثناء قدوم القوافل المحملة بالكثير من هذه السلع وتارة أخرى ترتفع عندما يتعذر وصول القوافل من الخارج وخاصة فى موسم الأمطار • والرقيق هو أوضح مثال لذلك إذ كان سعره يرتفع عندما يصبح المعروض منه فى السوق قليلا والقوافل التى تقوم بشحنه على وشك مغادرة البلاد (١) •

والرقيق فى الأبيض كان إحدى السلع التجارية الهامة والرئيسية التى اشتهر بها على كافة أجزاء السودان الأخرى • لذلك فلا عجب إذا لاحظنا أن أسواق الرقيق فى الأبيض كانت تعقد يوميا •

ويتم الحصول على هذه السلعة بواسطة الجلابة من مواطن الزنوج القريبة ، فقد إعتادت البقارة القيام بشن الغارات على قبائل الشلك والدنكا وسكان مرتفعات النوبا • ولم يكن يخلو بيت من البيوت من وجود الرقيق ذكرا كان أم أنثى للقيام بشئون المنزل بل إن كثيرا من البدو كان يقتنى الرقيق ، كما أن الفلاح الكوردفانى كان يعتمد عليه فى الإنتاج الزراعى (٢) •

وبالإضافة الى الرقيق إشتهرت الأبيض بتجارة العاج إذ كان الجلابة من الأبيض وباره يحصلون عليه من جهات كردفان والأقاليم المجاورة مثل دارفور وبلاد الشلك وبعض المرتفعات • ومن المدن التجارية الأخرى والتى تلى الأبيض من حيث الأهمية التجارية مدينتا بارة والطيارة ويرجع الفضل فى تشييد بارة الى الدناقلة * • وإشتهرت

---

(١) نسيم مقار : أحوال السودان الاقتصادية ١٨٤٨/٢١ ص ٣١٧ •
(٢) Pallme : op. cit., pp. 52-60.
(*) تجدر الاشارة الى ان الدناقلة قد احتلوا جزءا كبيرا من حركة النشاط التجارى فى الأبيض وبارة والطيارة وغيرها من المراكز التجارية فى كردفان بالاضافة الى مرتفعات النوبا المجاورة وكانت جماعتهم من أكبر
=

هاتان المدينتان على وجه الخصوص بتجارة الصمغ العربى ولم يكن الإستغلال التجارى لهذه السلعة يتم على نطاق كبير بل كان يقتصر على الجهات المجاورة للمدن الكبيرة كالأبيض وطبارة ، وإمتاز صمغ كردفان بجودة نوعه ولذلك فقد كانت أسعاره تزيد كثيرا عن مثيله من الصمغ المنتج من سنار والتاكا والحجاز والسنغال •

وتتم عملية جمع محصول الصمغ عادة عقب سقوط الأمطار فى أشهر نوفمبر وديسمبر ويناير ، وكان فى استطاعة الفرد الواحد أن يجمع خلال هذه الأشهر الثلاثة خمسة قناطير من الصمغ (١) • وأصبحت الطرق بين الخرطوم وكردفان تعج بقوافل الصمغ كما إستمر حجم تجارته فى إضطراد طوال الحكم المصرى فى السودان ، إذ بلغت صادرات سوق الخرطوم منه سنة ١٨٨٠ مائة ألف قنطار (٢) •

كذلك فقد احتل ريش النعام أهمية كبيرة فى تجارة كردفان وأصبح من السلع التجارية الهامة خاصة بعد عام ١٨٥٠ ، حيث سارع تجار الخرطوم الى إقامة الزرائب فى كردفان لتربية النعام للحصول على ريشه وقشر بيضه • ويبدو أنه أصبح مادة تجارية بالغة الأهمية ومن

= الجماعات التجارية فى كردفان . وقد أخذ عليهم بالم الذى زار كردفان بين عامى (١٨٣٧ — ١٨٣٨) بعض سياستهم التجارية من حيث عدم امداد السوق بالسلع الجديدة ، بل وقفوا تجارتهم على السلع التقليدية التى اعتادوا المتاجرة فيها منذ سنوات طويلة ، كما أن الواحد منهم لم يكن يترك السوق من أجل جلب سلعة أخرى الا اذا باع كل ما لديه من السلع المعروضة حتى ولو كان المتبقى شيئا قليلا ، كما أنه لا يبيع السلعة الا اذا وصلت الى السعر الذى يحدده بنفسه دون المشترى ولو أدى ذلك الى تلفها . ولم يكن أحدهم ليثق فى زميله التاجر فى أن يترك سلعته معه حتى لو كان ابنه .

أنظر : (Pallme; op. cit., pp. 301-2).

(١) نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٣٢٠ — ٣٢١ •

(٢) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ١٢٦ •

ثم كانت تلك الترتيبات الخاصـــة من أجــل اقامة هــذه الزرائب التى كان بعضها يضم أكثر من مائة نعامة (١) •

وبمرور الزمن وطبقا لمجرى الأحداث السياسية فى السودان ظهر نوع جديد من التجارة بين تجار كردفان وخاصة فى الأبيض ونعنى بها تجـارة الأسلحة والبارود وخاصة عندما ثار سليمان نجل الزبير فى بحر الغزال ، فكان التجـــار يمدونه بهذه الأسلحة بل ويعطفون عليه لما ينالون منه من ربح وفير • وكانت هذه الذخائر ترسل بواسطة الجلابة أو صغار التجـــار فيما بين الأبيض وبحر الغزال • وقد حاول موظفو الإدارة فى الأبيض وقف هــذه التجارة ولكن الصعوبات التى واجهتهم كانت عظيمة ، منهـــا القبـــائل التى كانت تقطن المناطق الواقعـــة بين كردفان وبحـــر الغزال بالإضافة الى خروج التجار فى قوافل صغيرة يمكنها الإختباء فى الغابات والمرور منها بسهولة (٢) •

وقد تسببت هذه التجارة فى أن يقوم غوردون باشا باللجــوء الى وســـائل حساسة للقضاء عليهـــا فأمر بالقبض على التجـــار الجـــلابة وإرسالهم بالقوة الى « دارة » و « طويشة » « و أم شنجة » والأبيض وحدد لهم تاريخا معينا لوقف هذه التجارة وانهم مسئولون عن وجودها بعد هـــذا التاريخ ، وأمرهـــم بترك المراكز الواقعـــة جنوبى الأبيض والطويشة وطريق دارة وحصر تجارتهم فى الجزء الشمالى والغربى • وقد أدت هذه الإجـــراءات التى عمد اليهـــا غوردون الى قيـــام بعض القبائل ، منتهزين الفرصة ، بنهب الجلابة والتجار الذين كانـــوا بالأمس يعيشون بينهم وليس لهم دخـــل فى تجارة الأسلحة والبارود (٣) •

---

(١) احمد احمد سيد احمد . المرجع السابق ص ١٢٧ •

(٢) دفتر رقم ٤٧ عابدين وارد تلغراف ـــ صورة التلغراف العـــربى الشفرة رقم ٣٥٥ ص ٧٥ بتاريخ ٢٧ يولية ١٨٧٧ • ورد فى يوم الثلاثاء ٢٧ رجب سنة ١٢٩٤ هـ . ، انظر أيضا : سلاطين باشـــا : السيف والنـــار فى السودان ص ٧ ، ٨ •

(٣) سلاطين باشا : المصدر السابق ص ٧ ، ٨ •

ومما لا شــك فيه أن مثل هذه الإجــراءات القاطعة والأحــداث الجسيمة التى مست التجار وتجارتهم قد أصابت تجارة كردفان وجعلت التجار يجفلون ولا يخاطرون بأرواحهم وتجارتهم إذ أنه من المعــروف أن التجــارة والأمن توأمان لا يفترقان ٠

كذلك فقــد كانت هنــاك أمور أخــرى تأثر بها عامة التجــار فى كردفان وهى تفضــيل غوردون لبعض التجــار مثل اليــاس أفنــدى (باشــا فيما بعــد) الذى أصبح « سر تجار » ورئيس مجلس مديرية كردفان ، ويبدو أن هذا التاجر كان يسدى خدمات كثيرة للحــكومة فقد جهز من تلقاء نفسه وعلى نفقته ثلاثمائة فرد مسلحين من جمــاعته بل إنه قام بتجهيز ملابس للعساكر دون تأخير (١) ٠

ولا شك أن هذا الرجــل كان يطمح الى منصب سياسى لحمــاية تجارته ، فقد وصلت الأحوال التجارية فى السودان بصفة عامة فى عهد حكمدارية غوردون (١٨٧٧ ، ١٨٧٩) الى درجة من الســوء حيث رفــع تجار البلاد وأعيانها عريضة الى الخديو اسماعيل عام ١٨٧٨ يشــكون حالهم وفساد الحكام ، وما أصابهم من جــراء تلك الســياسة المتبعة حيالهــم (٢) ٠

وأما تجارة دارفور المجــاورة لكردفان فتكاد تكون متصلة بينهمــا نظرا لتجاورهما ، ويمكن القول أن السلع والمنتجات التى كانت تتــاجر فيها كردفان ودارفور متشابهة كالرقيق والعاج وريش النعام ٠

هذا ، ولا يمكن القول بأن تجارة دارفور مع مديريات الســودان

---

(١) دفتر رقم ٥ معية عربى ، وارد الافادات ص ٦١ — مكاتبة رقم ١١ بتاريخ ١٣ ذى الحجة ١٢٩١ من الحكمدارية الى المعية السنية أنظر أيضا : محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن ١٩ ص ٦٩ ٠

(٢) نفس المصــدر ص ٦٩ ٠

الأخرى قد توقفت تماما قبيل ضمها فى عام ١٨٧٤ ، لكننا نقــول إنها قد تأثرت بعض الشىء بالظروف السياسية التى حدثت فى بعض أجــزاء السودان وخاصة كردفان المجاورة لها والتى ضمت لسنار ، وخوف سلاطين دارفور من فقدان أزمة الحــكم على يد محمد على .

فجميع هذه الأمــور والملابسات قــد أثرت دون شك فى مســيرة القوافل الدارفورية مع أجــزاء السودان ولكن محمد على أدرك سراعا هذه الأمور ومدى خطورتها على الأوضاع التجارية فبدأ يكتب « رسائل إطمئنان » لسلطان دارفور ويبعث إليه بالهدايا تعبيرا عن الود وحسن الجــوار ، وفى نفس الوقت يحــث حكمدار الســودان ومدير كردفان على ذلك ، فها هو ذا يكتب الى مدير كردفان قائلا « ... من الواجــب عليك إذا ما أظهر نحــوك فى خطاباته شــعور المحبة والولاء أن تجامله وتعامله بالمثــل ... » ، بل لقد وصــل الأمر بمحمد على أنه كان يختار العبارات التى يكتبها مدير كردفان حيث يقول « وليكن خطابك التــالى على هذا النحــو ... إننى بحكم الجــيرة أتمنى لك الخــير وأميل الى مصافاتك ، غير إننى أعلم أن حبل المودة مقطوع بينك وبين محمد على منذ مدة . ولئن كان من الواجب على نظرا لما بيننــا من المــودة والولاء أن أسعى الى إزالة ما بينكما وإحــلال التفاهم والوئام محل النفــور والإختــلاف ... » (١) .

ثم يقترح مدير كردفان على سلطان دارفور أن يسمح له باستغلال منجم النحاس الموجــود فى سلطنته وبذلك تكون أفضل وأجمــل مناسبة لعودة الميــاه الى مجاريها وإتصال حبل الود بالإضافة الى فتح طريق التجــارة بين الطرفين (٢) .

---

(١) دفتر رقم ٣٧٨ ، معية تركى — ترجمة الارادة التركية رقم ٩٠٢ بتاريخ ٢ صفر ١٢٦١ هـ . ارادة الى مدير كردفان . دار الوثائق القوميــة بالقلعــة .

(٢) نفس الوثيقة الســابقة .

وتمشيا مع سياسة تشجيع التجارة بين دارفور ومديريات السودان الأخرى طلب حكمدار السودان فى أواخر عام ١٨٧٣ من الزبير رحمت ، عندما أصبح مديرا على جهات بحر الغزال ، عدم تعدى حدود دارفور بل « ... تكون المودة والتجارة والأخذ والعطاء ما بين هنا (بحر الغزال) ودارفور على ما كانت عليه ... » (١) .

وهكذا بدأت جسور المودة والتجارة تقوى وتمشى على إستحياء فى عهد محمد على ثم بدأت تنمو فى عهد خليفتيه عباس ومحمد سعيد الى أن تم ضم دارفور فى عهد اسماعيل .

ومن أهم أسواق دارفور التى كانت تعج بالتجار والتجارة « الفاشر » وهى مقر السلطنة و « كوبية » و « كبكبية » و « سرف الدجاج » ز « منطقة قرلى » (٢) .

وقد نشطت التجارة فى دارفور نشاطا ملحوظا ، وأمها التجار من كافة أنحاء السودان وتبوأ بعضهم مكانة رفيعة فى دارفور ، فمن قسم عبود بمديرية الخرطوم جاء الى أم « شنقة » بدارفور أشقاء للمتاجرة فيها ووصل أحدهم ويدعى الشيخ فضل المولى محمد الى منصب « سرتجار » تلك الجهة (٣) ، أو ما كان يسمى أحيانا بإسم (ناظر التجار) (٤) .

---

(١) دفتر رقم ٢٢ عابدين وارد تليفونات — صورة التلغراف العربى . الشفرة رقم ٢٧٥ ص ٢ بتاريخ ٦ ذو القعدة ١٢٩٠ هـ .

(٢) التونسى : تشحيذ الأذهان . ص ٢٩٦ — ٢٩٨ .

(٣) دفتر رقم ٥ معية سنية (عربى) ، وارد الافادات ص ١٦ ، مكاتبة رقم ٢ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٩١ هـ . من حكمدار السودان الى المعية السنية .

(٤) سجل ابعاديات بلاد السودان — توتى سنة ١٢٦٥ هـ — مخزن رقم ٢١ (السودان) عين ٩١ نمرة ٢٦١٧ . دار المحفوظات العمومية بالقلعة .

كذلك فقد جاء الى دارفور كثير من التجار الدنقلاويين الذين عرفوا بحب التنقل والمغامرة والولع بأمور التجارة كما لاحظنا فى كردفان وغيرها من أجزاء السودان . فقد تقلد أحدهم فى أوائل عام ١٨٧٥ منصب « سرتجار دارفور » بل وصل به الأمر بعد أن تضخمت ثروته الى الزواج من شقيقه حاكم دارفور السابق السلطان ابراهيم (١) ، حتى يضفى على نفسه نوعا من الوجاهة وهو ما تلجأ إليه عادة طبقة التجار حتى تضمن سلامة تجارتها ولا مانع لديها من وضع بعض رجالاتها فى دست الحكم إن وجدت الى ذلك سبيلا .

وتجدر الإشارة هنا الى أن جماعات التجار فى دارفور قد لعبت دورا كبيرا فى التمهيد لضمها الى الإدارة المصرية على عهد اسماعيل باشا ، فقد جرت اتصالات خفية بين بعض التجار وبين المسئولين فى الخرطوم لمعرفة أحوال دارفور ولعبوا دورا كبيرا فى إرشاد الجيش المصرى لدخول دارفور ومن هؤلاء التجار الذين لعبوا هذا الدور الشيخ فضل المولى محمد « سرتجار دارفور » وشقيقه ابراهيم ، فقد قاما مع غيرهم بتأمين الأهالى والعربان والتجار المقيمين ببلدة (أم شنقه) وغيرها وأحضروا الأبقار والغلال اللازمة للجنود (٢) .

ويبدو أن هذين التاجرين كانا بعيدى النظر فى هذا العمل فقد أدركا أن دارفور لا محالة سوف تفتح بيد الجيش المصرى وإذا ما تم هذا العمل بشكل دموى فلا شك أن فى ذلك كساداً للتجارة والتجار ، وكعادتهم فى كسب السلطة السياسية سعوا الى كسب ود الجيش المصرى ، وبدأو يحسبون المكاسب والخسائر تماما كما يفعلون فى التجارة

---

(٢) دفتر رقم ٤ معية عربى — وارد الافادات ص ٥٠ — مكاتبة رقم ١٠ مرور بتاريخ ٣ ذى الحجة ١٢٩١ هـ . ورد فى ١٦ محرم ١٢٩٢ هـ من حكمدار السودان الى المعية .

(١) دفتر رقم ٥ معية سنية (عربى) وارد الافادات ص ١٦ . مكاتبة رقم ٢ مرور بتاريخ ١٥ شعبان سنة ١٢٩١ هـ — من حكمدارية السودان الى المعية السنية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

فسلموا وسلمت تجارتهم ، بل إن حكمدار السودان إقترح منحهم « مراتب شرفية » وتعيين أحدهم فى وظيفة « سرتجار أم شنقة » (١) .

كذلك فقد كان التجار فى دارفور حلقة وصل فى الأمور السياسية فهم حملة للخطابات التى تشرح الأمور الغامضة بين أمراء دارفور وخديوى مصر .

وليس معنى ذلك كله أن جميع طبقة التجار بدارفور لم يمسسها سوء خلال عمليات ضم دارفور فقد لوحظ أن العناصر الكبيرة من التجار هى التى نعمت تماما بما أسدته من خدمات للجيش ، كذلك فإن الأمراء الدارفوريين كانوا يشكون مر الشكوى من الزبير رحمت وما أحدثه فى بلادهم من آثار وتأثر التجار بذلك (٢) .

وقد تكون شكايات الأمراء صحيحة الى حد ما ، ولكن هى فى مجملها « صرخات حزينة » لما فقدوه من إمارة وأبهة فى دارفور . وعموما فإن المكاسب التى عادت على التجارة السودانية عقب ضم هذه السلطنة كانت طيبة حيث إنفتحت على داخل السودان بشكل مباشر .

التجارة فى وسط السودان وشرقه : — سوق الخرطوم :

أصبحت بلدة الخرطوم فى عهد الإدارة المصرية مركزا تجاريا هاما فى قليل من الوقت ، وقد تجمع فيها كثير من الأجانب بالإضافة الى مواطنيها من السودانيين والمصريين ، فقد طلب محمد على إبان رحلته الى السودان ضرورة الإهتمام بأحوال التجار بها من أجانب ومواطنين « وضرورة وضع نظام لهم » وإتجهت نيته منذ ذلك الوقت الى إنشاء سكة حديدية تصل

---

(١) نفس الوثيقة السابقة .

(٢) محفظة رقم ١٠٤ — ملف رقم واحد ، وملف رقم ٦ — قسم الوثائق الافريقية .

ما بين السودان ومصر (١) •

ومدينة الخرطوم كان لها سوق يتوسط المدينة ويفترش ثلاثة أو أربعة شوارع ترابية ذات سقوف من القش وفروع الشجر ، تمتد على جانبيها محلات صغيرة متجاورة ، وأمام هذه المحلات تقوم مصاطب من الطين الجاف بارتفاع قدمين ، ويقوم التجار بوضع البضائع على هيئة أكوام وصفوف من أمامهم وخلفهم ، وفى المحل الواحد بسوق الخرطوم نجد كل شيء : الملابس والطرابيش والأدوية والدهانات والدخان وغير ذلك •

ولم تقتصر التجارة فى الخرطوم على هذه المحلات الثابتة بل كانت هناك تجارة يحملها أفراد يطوفون بها من مكان الى آخر ، فقد عرف سوق الخرطوم أسلوبا أشبه بالمزاد فى تصريف بعض السلع ولكن بشكل بعيد عن صورة المزاد فى هذه الأيام ، إذ لم يكن يوجد مشترون يلتفون حول البضاعة ، بل كان التاجر يدور بها فى السوق ويتلقى عروض الشراء ، فإذا قضى وقتا طويلا فى هذه المسألة بحث عن أكبر عرض شراء قدم له وذهب الى صاحبه وأتم عقد الصفقة معه • ومن أهم ما كان يتاجر فيه على هذا النحو العبيد (٢) •

وقد كانت العملة التىيتداولها التجار فى سوق الخرطوم هى نفس العملة المتداولة بمصر وكانت تضرب فى مصر وتركيا والنمسا وفرنسا وإنجلترا • ولم يؤد هذا التنوع فى مصادرها الى تغير قيمتها وتنوع أسمائها فقط بل تعداه الى حدوث مشاكل وإختلافات حول القيمة الشرائية لكل عملة وقبول بعض التجار التعامل بعمله ورفض البعض الآخر التعامل ببعض العملات •

---

(١) انظر رحلة ساكن الجنان : محافظ عابدين — السودان — وثيقة بدون رقم ص ١١ ، ١٢ •
(٢) أحمد أحمد سيد أحمد : تاريخ مدينة الخرطوم • ص ١١٢ •

وقد كانت أبخس عملة فى السوق قيمتها خمس بارات (ثمن القرش) وأغلاها الجنيه المصرى وأشهرها الريال والقرش (١) .

وقد إختصرت كثير من العملات والموازين والمكاييل والمقاييس بعد أن ظلت فترة طويلة — بعد ضم السودان للإدارة المصرية — تحت رحمة الإختبار ، وكان ذلك الإختصار نتيجـة لإحتكاك تجار الخرطوم بأفراد المجتمع الكبير فى المدينة وبخاصة المصريين والأتراك والأجانب (٢) .

ومن الجهود التى كانت الإدارة تبذلها فى السودان فى هذا الجانب تلك الزيارات المفاجئة التى كان يقـوم بهـا مدير الخرطوم للسـوق وبخاصة فى يوم الجمعة لمراقبة البيع والشراء وفحص الموازين والمكاييل ، وقد انشئت بالخرطوم فى عهـد الحكمدار جعفر باشا مظهر قـوة من « القواصة الضبطية » كانت تقوم بهذه المهام (٣) .

وأصبحت الخـرطوم على عهـد الادارة المصرية تتمتـع بأهميـة اقتصادية كبيرة — بالإضافة الى أهميتها السياسية على إعتبار أنها عاصمة البلاد — فقد كانت مركزا لكبار التجـار وخاصة تجار العاج والرقيق وجاءتها القوافل من كل أنحـاء السـودان محملة بكل أنواع السـلع والمنتجات سواء التى كانت موجودة فى البلاد أو التى ترد إليهـا من

---

(١) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ١١٣ . ومن أهم الريالات التى كانت متداولة فى السوق : الريال المصرى ويساوى ١٥ر١٩ قرشا والريال التركى (وكان يعرف « بالمحمودية » وهى عملة ذهبية) ويساوى ١٨ قرشا ، والريال النمساوى (ريال مارياتريزا) ويساوى ٢٠ قرشا وكان من أوسع العمـلات تداولا . ومن القروش التى كانت متداولة فى السوق : قرش الحكومة (الصاغ) وقرش السـوق (نصف الصـاغ) ، والقرش التركى (الذى صك عـام ١٢٢٣ هـ) . والقرش النحاسى . وقد تفاوتت هذه القروش فى قيمتها (أنظر حول ذلك أمين سامى : تقويم النيل : الجزء الثانى المجلد الثالث . أماكن متعـددة) .

(٢) أحمد أحمد سيد احمد : المرجع السابق ص ١١٣ .

(٣) دفتر رقم ٥٥٨ تركى قسم ثان — ارادة رقم ٩ الى حكمدار السودان بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٢٨٣ هـ ص ١٩ .

خارجها لدرجة أن الناس قد رددوا فى السودان عبارة تقول « إيش معدوم فى سوق الخرطوم » (١) .

ومن بين النظم التى استحدثت فى السودان إنشاء « مجلس تجار الخرطوم » حيث تم الإسترشاد عند وضع قوانينه بنسخه من قوانين مجلس التجار التى كان يجرى العمل بها فى مصر ، وذلك للفصل فى الدعاوى التجارية بالسودان (٢) .

كذلك فقد أصبح لسنار دور هام فى التجارة السودانية نظرا لموقعها الجغرافى عند ملتقى طرق القوافل القادمة من كردفان والحبشة ومصر وسواكن وهى بذلك حلقة وصل بين أكثر مناطق السودان الهامة ، وهذه الأهمية ربما ترجع الى أنها كانت عاصمة للسلطنة السنارية . كذلك فإن هذه الأهمية التجارية ترجع أيضا الى أنها تقع فى إقليم لـه شهرته الواسعة فى بعض السلع والمنتجات التجارية كالرقيق والصمغ والتمر هندى والسنامكى ، بالإضافة الى الذرة والتبغ وغيرها من المنتجات الزراعية التى كانت متوفرة بشكل يزيد على حاجة الإستهلاك المحلى فى سنار . وقد لعبت بعض المصنوعات القائمة على المنتجات الزراعية دورا هاما فى تجارة سنار أهمها « الدمور » الذى إشتهرت به ، كذلك فقد كان لذهب سنار الذى يأتيها من فازوغلى وبنى شنقول والكماميل أهمية خاصة فى تجارتها (٣) .

وجميع هذه السلع والمنتجات كانت تعرض فى أسواق سنار ، وأما ما كان يأتيها من الأقاليم الداخلية الأخرى فكان التمر والقمح

---

(١) شقير : المرجع السابق . جـ ١ ص ٩١ .

(٢) دفتر رقم ١٨٨٦ صادر أوامر عربى ؛ أمر عالى لمديرية الخرطوم ١٢ ذى الحجة سنة ١٢٧٣ ؛ انظر أيضا : أمين سامى تقويم النيل وعصر عباس حلمى ومحمد سعيد . المجلد الأول ص ٢٣ .

وأيضا : شوقى الجمل : تاريخ سودان . جـ ٢ ؛ ص ٧٦ .

(٣) Douin : op. cit.. Tome. I. p. 62.

والخيـــول من دنقلة . والحـــديد وتبر الذهب والرقيق من كردفان . وبالرغم من ذلك كله ينبغى أن نشير الى أن سنار لم تعد بعد عام ١٨٢١ تحتل المكانة الأولى فى تجارة الســـودان بل إنها تخلت عن هذه المكانة للخرطوم العاصمة الجديدة للبلاد . كذلك فقد لعبت كسلا الواقعة عنـــد دلتـــا نهر القاش دورا هاما فى تجارة المنطقة ، فمن المعروف أيضا أن هذه المدينة كما سبق القول قد نشأت عام ١٨٤٠ إبان الحكم المصرى فى السودان على يد الحكمدار أحمد باشا أبو ودان .

وفى عام ١٨٦١ وصف صموئيل بيكر المعسكر الذى تركه أحمـــد باشا أبو ودان عام ١٨٤٠ ، ونعنى به المكان الذى شغلته بلدة كســلا ، بأنـــه أصبح مدينة مسورة وحصينة ومحاطة بخندق من المياه ، وفضلا عن ذلك فإن بها سوقا عامرة يقصدها التجار من الخرطوم وســـواكن ، وكانت تقطنهـــا طبقة غنية من التجـــار من أبنـــاء البلد واليونانيين والمصريين ويرأســـهم « سرتجار » مصرى ، وكانت المدينـــة على درجـــة كبيرة من الأهمية الأمر الذى دعاه الى وضعها على قدم المساواة مع الخـــرطوم العاصـــمة (١) .

ومدينة كسلا تقع فى الاقليم المسمى بالتاكة والذى امتـــاز بوفرة انتاجه من الصمغ والذرة ذات المواصفات الجيـــدة بالإضافة الى ثروتها الحيوانية من الماشـــية ، والابل وهذا الإقليم تمر به أكثر قوافل بـــلاد النوبة وسنار ودارفور وكردفار المتجهة الى سواكن على ســـاحل البحر الأحمر ، وقد إمتازت بلدة كسلا بموقعها الإستراتيجى فى أسفل الهضبة الحبشية كمفتاح نحو الأراضى الحبشية ومفترق للطرق (٢) .

---

(١) الناصر عبد الله أبو كروق : تاريخ مدينة كسلا ١٨٨٣ — ١٨٩٧ . رسالة ماجستير غير منشورة بجامعة القاهرة ص ١٥ .
انظر أيضا :

Baker, Sir Samuel; The Nile Tributaries of Abyssinia & the Himran Arabs. pp. 69 - 75.

(٢) الناصر عبد الله : — المرجع السابق ، ص ١٥ .

وفى اقليم التاكة هذا حدث نوع من التبادل التجارى ، فحملت إليه قوافل شندى « الدمور » فى مقابل الذرة والماشية حيث كانت بلاد النوبة تفضل استيراد الماشية من التاكة للقيام بالأمور الزراعية وأهمها ادارة السواقى التى اشتهرت بها ، فكانت هذه الماشية تفضل على ماشية سنار وغرب السودان (١) .

كذلك فقد قام تجار سواكن بنقل الصمغ من التاكة مقابل الملح والبصل وقد ظل هؤلاء التجار يتمتعون بحرية التجارة فى الصمغ حتى عام ١٨٤٧ حيث منعوا من ذلك وقامت الادارة نفسها بهذه المهمة على أن تدفع نفس الأثمان التى كان يدفعها التجار وتقوم بإرسالها لمصر (٢) .

وقد كان للتاكة أسواقها المعروفة أهمها « سوق كسلا » و « سوق الهدندوه » و « سوق الحلنقا » ، وأشهرها جميعا سوق الهدندوه الذى أصبح يعج بالنشاط التجارى . فقد كان يعقد مرة فى الاسبوع ويتردد عليه البدو وأهل الريف وبعض تجار القوافل المارة به . فأهل الريف يأتون بالماشية والابل وبعض منتجاتهم الريفية ومصنوعاتهم اليدوية (٣) .

وكانت تعرض فى هذا السوق أيضا بعض السلع المجلوبة مثل الملح والتبغ من سنار وفارس واليمن ، بالإضافة الى بعض أنواع التوابل كالقرنفل والبخور . ولم تكن أسواق التاكة تخلو من بعض الحدادين

---

(١) دفتر رقم ٢٠٨ ، صادر ديوان المعاونة للاقاليم — وثيقة رقم ٤٥ بتاريخ ١٢ محرم ١٢٥٩ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٤١٣ صادر المعية السنية وثيقة رقم ٣٢٧١ بتاريخ ١٨ رجب ١٣٦٣ هـ ، كتاب صادر الى مدير التاكة .

(٣) محفظة ٢٦٨٠ عابدين — ملف السودان — وثيقة رقم ٣٦ أصلية رقم ٧٨ حمراء . من احمد باشا حكمدار السودان الى الباشمعاون الخديوى بتاريخ ٣١ جمادى الآخرة ١١٥٥ هـ . انظر أيضا : دفتر رقم ٧٦٠ الديوان الخديوى . ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٧٨ ص ١٤١ . بتاريخ ١٥ جمادى الأولى عام ١٢٤٥ هـ .

الذين يقومون بعمل السكاكين ورؤوس الحراب والسلال . وتجدر الاشارة أيضا الى مركز تجارى رئيسى فى السودان الشرقى وهو « قوز رجب » الذى يقع على مسافة ميل تقريبا من الضفة الشرقية لنهر عطبرة فى سهل رملى (١) وكانت هذه البلدة تتمتع بموقع جغرافى هام ، فالقوافل القادمة من سواكن الى سنار مباشرة كانت تمر بقوز رجب وتعرض فيها بعض السلع التى كانت تحملها .

وقد اعتمد سكان قوز رجب اعتمادا يكاد يكون كليا على التجارة ، إذ أنهم لم يكونوا يمارسون نشاطا زراعيا وإنما كانوا تجارا فى المقام الأول ، فقد كانوا يملكون القطعان الكثيرة من الأغنام التى ترعى على ضفاف العطبرة صيفا وداخل الصحراء شتاء ولم يكن ذلك ليصرفهم عن نشاطهم التجارى الذى إمتد الى أسواق النوبة لبيع الماشية والأغنام (٢) . كذلك فقد اشتهرت قوز رجب كغيرها من أجزاء السودان بتجارة الرقيق التى كانت شائعة آنذاك .

تجارة سواكن :

كذلك فقد كانت سواكن من أهم مراكز التجارة السودانية فى شرقى السودان . ويهمنا هنا الاشارة إليها من ناحية علاقتها بالسوق الداخلية للسودان ، أما علاقتها بخارج السودان فسوف نرجئه الى مقام آخر لحظة تعرضنا لتجارتها مع العالم الخارجى . لقد كانت هذه المدينة كغيرها من مراكز السودان التجارية تحفل بمجموعات ضخمة من التجار سواء من أهل السودان أو من القادمين اليها من الأقطار الخارجية ، والآسيوية منها ، على وجه الخصوص .

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٢) Werne; Expedition to discover the sources of the white Nile in the years : 1840, 1841, vol. I. p. 20.

انظر أيضا نسيم مقار : المرجع السابق ص ٣٠٥ .

وقد ربطت سـواكن مع أقاليم السودان الأخـرى بعـدة طرق ، اخترقتها قوافل التجار والتجارة ومن أهمها :

١ ـ طريق يربطها ببربر ويخترق الصحراء الشرقية التى تفصـل بين النيل النوبى وساحل البحر الأحمـر ومتجها رأسـا من الشرق الى الغرب ، وتقطعه القافلة فى مدة اثنى عشر يوما • وقد حف هـذا الطريق قبيل الادارة المصرية بالمخاطر نظرا لإختراقه مواطن قبائل البشارية ، ولـكن الادارة المصرية عنيت به ، فأمنته وحفرت الآبار على إمتداده ، خاصة بعد ضم سواكن • وهنـاك طريق آخـر يصل ما بين سـواكن وبربر ، مارا بالتاكة ، ولم يكن يطرقه أحد من التجـار نظرا لخطـورة المرور فيه • وبمجرد ضم التاكة أصبح هذا الطريق آمنا •

٢ ـ الطريق الذى يربط سواكن بشندى • وهو عبارة عن عـدة طرق ، فهناك الطريق المباشر الذى يمر بالدامر • وهناك طريق آخـر يمر بعطبره ومنها يتفرع الى فرعين : أحدهما يصـل مباشرة الى سواكن مخترقا الصحراء والثانى يمر بالتاكة ، وكلاهما أكثر أمانا من الطـريق الذى يمر بقبائل البشـارية • أما طريق العطبرة فقد كان يمـر بأوطان القبائل الصديقة للحداربة من تجار سواكن •

٣ ـ طريق يصلها بسنار وهو أيضا عبارة عن طرق ، كمـا وجـد طريق آخـر يمر بقوز رجب (سواكن ـ قوز رجب ـ سنار) ولا يمر بالعطبرة أو شندى • وكان هذا الطريق مفضلا فى الصيف رغم شـدة الحـرارة • ويرجـع ذلك الى أن بدو الشكرية اعتادوا تهديد الطريق شتاءً ، بينما يرحلون عنه صيفا وفقا لنظام الانتقال الموسمى بحثا عن المـرعى •

٤ ـ الطريق الواصل بين سواكن وكردفان ، وله مسـاران الأول يبدأ من الأبيض فشندى ومنها الى سـواكن مارا بالدامر أو العطبرة ،

أو التاكة ، وآخـر من الأبيض فسنار ثم الى شندى ثم الى سـواكن مارا بالتاكة (١) .

وعن طريق المسالك السابقة انتقلت تجارة سواكن الى جميع أجزاء السودان . وقد تزعم حـركة النشاط التجـارى فى سـواكن جمـاعة الحدارية ، فقد ترددوا علي سنار لشراء الذهب والرقيق ، كمـا ذهب بعضهم الى شندى لشراء نفس هذه السلع فى مقابل الخـرز الزجاجى المعروف بإسم ريش Reish الذى كان يرد الى سواكن من بلاد الهند وكان يمثـل — آنـذاك — سلعة مربحـة ، بالإضـافة الى إمكانيـة إخفـائه عـن عيـون الحـكام الطامعـين . وبالإضـافة الى الرقيق والذهب كان تجار سواكن يحصلون من شندى على الخيل التى ترد من دنقلة ويقومون بتصديرها الى مخـا والحديدة . ومن التاكة استوردوا الذرة التى لم تكن متوفرة بسواكن مقابل الملح والقرنفل والبصل .

وكانت السوق المحلية بسـواكن تعقـد فى مكان مكشوف محاطـة بالأكواخ ، وفيهـا يتم عرض سلع ومنتجات السـودان بالإضـافة الى المنتجات والسلع الواردة من الخـارج عن طريق البحر . وكان البـدو المجاورون لسواكن يترددون على هـذه السـوق لشراء الذرة الآتية من التاكة والأقمشة القطنية « الدمور » الواردة من سنار .

وفى مجال الجهود المبـذولة لخدمة التجارة الداخلية بين سـواكن وكسلا وإيجاد حل لمشكلة النقص فى الابل اللازمة لنقل البضائع ، إقترح المسئولون فى عام ١٨٦٥ تسيير عربات خشبية تجـرها ثيران تسـمى « حريق » بين سواكن وكسلا ، خاصة وأن الثيران كانت متوفـرة جدا فى تلك الجهـات (٢) .

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٥٩ .

(٢) دفتر رقم ٥٥٨ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية (بدون نمرة) ص ٢٦ بتاريخ ٧٨ جمادى الآخرة سنة ١٨٨٢ هـ . ارادة سنية الى وكيـل حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

كذلك فقد وجدت اتصالات تجارية بين مصوع وزيلع وهرر وبربره وبين داخـل الأراضى السودانية وكانت هذه الموانى بمثابة جسر اتصال قوى للتجارة الخارجية لذا فسوف نرجىء الحديث عنها الى موضـوع التجارة الخارجية مع شبه الجزيرة العربية وبلدان جنوب شرقى آسيا •

التجارة فى شمالى السودان (بلاد النـوبة) :

(أ) فى سـكوت والمحس :

وهما من المراكز التجارية التى لها شهرة خاصة بتجارة التمر فى بلاد النوبة السـودانية إن لم يكن فى السـودان كله • ففى جهـات الدر و « ابريم » ينتج التمر بوفرة • وكانت الكميات الكثيرة منه تجد طريقها الى داخل السـودان ولا تصل الى الأجزاء الشمالية من النوبة أو صعيد مصر • وربما يرجع ذلك الى صعوبة الملاحـة فى منطقة (بطن الحجار) شمالى سكوت ، بالإضافة الى أن تجار الأقاليم السودانية مثل كردفان وإقليم الشايقية وسنار كانوا لا يكلفونهم مشقة الانتقال إذ كانوا يأتون بقوافلهم للحصول على التمر فى مقابل الذرة والذبدة والدروع المصنعة من جلود التماسيح والتى أولع النوبيون باستعمالها • ولم تقتصر تجارة المحس على التمر ، بل شملت كذلك الرقيق الذى كان يأتيها من دنقـلة وبربر ومنطقة الشـايقية [1] •

(ب) فى دنقلة العجـوز :

تحتل دنقلة العجـوز موقعـا جغرافيا ذا أثر فعـال فى النشـاط التجارى ، وأتاح لها هذا الموقع الاشراف على طريق القوافل بين مصر وكردفان حين مرورها ببلدة « الدبة » الواقعة فى جنوبها ، بالإضافة الى مرور قوافل سنار وشندى وبربر بدنقلة عبر صحراء « بيوضة » فى بعض

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق ـ ص ٢٨٨ •

الأوقات ، إذا ما تعرض الطريق الشرقى عبر الصحراء النوبيـــة لخطر الرباطاب (١) • وعلى هذا فقـــد تمتعت دنقلة بميزة تجارية من جـــراء هـــذا الموقع الذى أتاح لها الحصـــول على مختلف أنواع السلع التى تحملها القوافل المارة بها • وقد عبر أحد الدناقلة عن ذلك للرحالة كومب Combes عام ١٨٣٤ بقوله « انه لم يكن هناك فى نظرهم أجمل وأعظم من منظر القوافل حين تغادر بلادهم وحين تعود إليها ، وأنهـــم كانوا آنذاك فى رخـــاء ونعيم » (٢) •

ولقد اشتهرت دنقلة بتصدير الخيل التى كانت تقـــوم بتربيتها ، وكذلك التبغ بالإضافة الى التمر الذى كانت تنتج بعضا منـــه والبعض الآخر يأتيها من المحس • ولدنقلة شهرة خاصـــة فى الرقيق المدرب على الخدمة فى المنازل وتقوم بتصديره الى شندى وبربر وكان يفضـــل على غيره من أنواع الرقيق سواء الواردة من سنار أو غرب الســـودان • كما كان لدنقلة أيضا شهرة واسعة وقديمة فى التجارة بشكل عام ولكنها بدأت تتدهور داخليا بسبب الغارات التى كان يشنها أهل الشايقية الأمر الذى أدى الى هجرة الكثيرين منهم فى الســـنوات التى سبقت الحـــكم المصرى الى داخل الســـودان ، فاشتهروا بنشـــاطهم التجارى وأصبحوا على حد قول البعض يمثلون « رجال المال والتجـــارة فى السودان » (٣) • ويشبههم كروفورد Crawford — فى هذا المجال — باليهود فى عصرنا الحـــاضر (٤) • فقد انتشروا فى كل جزء من أجزاء السودان وخاصـــة غربه وجنوبه وكانت لهم البيوت التجارية الضخمة وشاركوا فى أنـــواع التجـــارة التى عمت هـــذه المناطق من تجارة عاج ورقيق ثم بعد الغـــاء

---

(١) Crawford; The Fung Kingdom of Sennar. pp. 215-219 & Hoskins; Travels in Ethiopia. p. 61.

(٢) Combes; op. cit., Tome. II. p. 21.

(٣) Cadalvine; L'Egypte et al Nubie. Tome. II. p. 191.

(٤) Crawford, op. cit., p. 290.

الأخيرة عملوا بالحراسة والإرشاد • وهكذا حرمت دنقلة العجوز من نشاط أبنائها لتسعد به مدن أخرى • ويبدو أن سمة الهجرة عند الدناقلة من السمات المتأصلة فى نفوسهم إذ أنها لم تتجه الى داخل السودان وحسب ولكنها اتجهت أيضا نحو مصر والقاهرة على وجه الخصوص حيث عملوا فى المنازل •

(جـ) فى دنقلة الجديدة (الأوردى) :

سبق القول إن هذه المدينة قد ظهرت مع إمتداد الادارة المصرية الى السودان عام ١٨٢١ ، وإستطاعت أن تحتل مكانة تجارية عظيمة وساعدها على تبوء هذه المكانة التجارية إزدياد حركة نقل السلع بين كردفان ومصر عن طريق (الأبيض ـ الدبة) المار بها خاصة بعد أن قل استخدام طريق الأربعين بين دارفور وأسيوط • ولقد تم إنشاء العديد من المتاجر بها ، وزارها الرحالة هوسكنز عام ١٨٣٣ ووصف سوقها بأنه « •• أعظم من سوق أسوان ، وتعرض فيه مختلف أنواع الأقمشة والطرابيش والأحذية والأوانى الزجاجية وبعض أنواع الأدوية وأدوات التدخين ، والبن والسكر والملح وأدوات الزينة وبعض أنواع التوابل » (١) •

وفضلا عن ذلك فقد زخرت دنقلة بأسواق الرقيق الذى كان يأتيها من كردفان والخرطوم وسنار ويعرض بكثرة • وكان الجلابة عند مرورهم بدنقلة فى طريقهم الى القاهرة يتخلصون فيها من بعض الرقيق بالبيع حتى يمكنهم الانفاق عليهم وربما لدفع الرسوم الجمركية (٢) •

(د) فى بربر :

كانت بربر بحكم موقعها الجغرافى ملتقى للقوافل الآتية من داخل

---

(١) Hoskins; op. cit., pp. 183-184.

(٢) انظر تقرير هولرويد الوارد بتقرير بورنج بكتاب الدكتور محمد فؤاد شكرى بناء دولة مصر محمد على . ص ٥٥٦ .

السودان وخارجه فهى تستقبل ــ بحكم موقعها شمال شندى وسنار ــ القوافل الآتية من مصر عبر صحراء العتباى قبـل أن تصـل الى هذه الجهات ، وتمر بها قوافل شندى وسـنار وهى فى طريقهـا الى مصر • وبالإضـافة الى ذلك فهى تقـع على أقصر طريق يصـل النيل النوبى بساحل البحر الأحمر (طريق بربر ــ سواكن) عبر الصحراء الشرقية ، الذى ازدادت أهميته وكثر استخدامه عقب فتح الطريق البحـرى بين سواكن والسويس (١) • وهكذا هيأ لها هذا الموقع شهرة تجـارية شهد بها بعض الرحـالة الذين زاروا بلادهم فى النصف الأول من القـرن التاسع عشر (٢) • وقد كثر تردد قوافل بربر على دنقلة بانتظـام حاملة التمر والتبغ ، كمـا كانت قوافل سـنار تحمل إليهـا الرقيق والأسرة الخشبية وجلود الثيران بالإضافة الى البن الذى يجلبه تجار سـنار من الحبشة والذى كان يباع ببربر بسعر أقـل من بن مخا • وقد وجـدت جماعة من تجار سنار ودنقلة كان لها نشاطها التجارى الملحوظ فى بربر • كذلك فقد كان لبربر صـلات تجارية نشـطة مع إقليم التاكة ، فقـد تردد تجار هذا الاقليم على أسـواق بربر لبيع الابل والماشية والحصول على الأقمشة القطنية (الدمور) والتوابل (٣) • بالاضـافة الى الرقيق إذ كانت بربر ملتقى لتجار الرقيق القادمين من سـنار والخرطوم عن طريق صحراء كرسكو (٤) •

(هـ) فى شـندى :

كانت لشندى شهرة واسعة فى التجـارة بين بلاد النوبة جميعا بما

---

(١) Petherick; Egypt, the Sudan. p. 143. & Crawford op. cit., p. 63.

(٢) English; A Narrative of the Expedition to Dongola and Sennar. pp. 116-117. & Cailliauld; op. cit., Tom. II. p. 118.

(٣) دفتر رقم ٣٨٤٦ صـادر تحـريرات مديرية بربر ودنقلة بتاريخ ٥ ذى الحجة سنة ١٢٦٧ هـ .

(٤) تقرير هولرويد السابق • ص ٥٥٦ .

فيها بربر ، وكانت هذه الشهرة تعود الى قبل ١٨٢١ ، لدرجة أنها عدت كأكبر مدينة تجارية على مستوى وسط السودان وشرقه بعد سنار . ويرجع الفضل الى موقعها الجغرافى الهام الواقع على أعظم طريقين للتجارة فى افريقيا الشرقية : الأول بين كردفان ودارفور غربا وسواكن على البحر الأحمر ، ويقدر ما كان هذا الطريق معبرا للحجاج القادمين من أفريقيا الوسطى الى مكة كان ممرا تجاريا هاما . والطريق الثانى كان يصل ما بين سنار والحبشة جنوبا ومصر شمالا . ولعل هذا هو السبب فى شهرة شندى بإسم « البوابة » (١) . ويشبهها البعض فى هذه الناحية بفلسطين الواقعة عند ملتقى الطرق الفاصلة بين الأقطار العربية التى حولها (٢) .

وعلى هذا فقد كانت شندى بمثابة « مخزن كبير » للسلع والمنتجات الآتية من سنار ودنقلة وكردفان ودارفور والحبشة ومصر وبعض الأقطار الآسيوية مثل الصين والهند ومناطق شبه الجزيرة العربية ، وظل اعتمادها الرئيسى على هذه الحركة الدائبة للقوافل القادمة من تلك المناطق والبلدان . وكغيرها من بلاد النوبة لم تخل أسواقها من تجارة الرقيق تلك السلعة التى كانت رابحة فى ذلك الحين خاصة إذا أدركنا خطورة موقعها التجارى الذى كان لابد أن تسلكه قوافل الرقيق سواء المتجهة الى الشرق أو الشمال .

التجارة الأجنبية فى السودان :

تعتبر تسوية عام ١٨٤٠ / ١٨٤١ معلما رئيسيا لتدفق الأجانب الى السودان ، مثلها فى ذلك مثل مصر ، حين فتحت هذه التسوية باب التدخل الأجنبى وتغلغله فى مصر . ونحن لا ننفى بذلك قيام محمد على بتشجيع

---

(١) آلان مورهيد : النيل الأزرق . ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(٢) Crawford, op. cit., pp. 58-61.

الأجانب – من قبل – فى القدوم لمصر وسياحتهم فى السودان ، وتوفير سبل الحماية والأمن لهم ، حين كانت – آنذاك – سلطته وسيادته الداخلية عليهم كاملتين حتى تاريخ هذه التسوية • أما فى أعقابها فبدأ التسرب الأجنبى يزداد بشكل واضح ، ساعد على ذلك ظروف أوربا الاقتصادية التى كانت تعيشها فى ذلك الوقت • ونعنى بها الانقلاب الصناعى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حيث بدأت أوربا تشعر تدريجيا بحاجتها الى مصادر جديدة للخام ، وأسواق خارجية أيضا لتصريف مصنوعاتها ذات الانتاج الكبير ، ووجدت فى مصر كل بغيتها ، فمصر ذات مناخ معتدل وأرض خصبة ، والأهم من ذلك كله أن مصر أصبحت بعد هذه التسوية « ذات وضع شاذ » بالنسبة للدولة العثمانية ناهيك عن معاهدات « الامتيازات الأجنبية » التى بدأت تسرى بموجب هذه التسوية (١) •

وقد عانى السودان – تقريبا – نفس المعاناة التى عاشتها مصر والناجمة عن تلك التسوية • فقد صدرت فرمانات : ١٣ فبراير ١٨٤١ ، ٢٣ مايو ١٨٤١ ، أو يونية ١٨٤١ من لدن الدولة العثمانية الى محمد على ، وهذا كله يعنى ضرورة سريان المعاهدات والقوانين التى أبرمتها أو تبرمها الدولة العثمانية مع الدول ، وسريان قوانينها التى سنتها أو تسنها فى السودان ، ومنها الإمتيازات الأجنبية • كذلك فقد شجع الأجانب على القدوم الى السودان – عدا تسوية ١٨٤١ – عاملان رئيسيان : إستتباب الأمن فى ربوع السودان نظرا لقيام حكومة موطدة الأركان فى الخرطوم ، ثم فتح النيل الأبيض بفضل الرحلات التى قام بها سليم قبودان بين عامى ١٨٣٩ ، ١٨٤١ • وقد وفد الى السودان فى بادىء الأمر الرحالة والمستكشفون ، سواء مع جيش اسماعيل كامل نجل محمد على أو فى أعقابه ثم تبعهم التجار الأوربيون والليفانتيون لجمع

---

(١) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان • ص ٢١ •

العاج والإتجار فيه أولا ثم لاقتناص الرقيق بعد أن أصبح العاج غير مربح .

ولم يكن التجار الذين جاسوا خلال السودان بين عامى ١٨٤٠ و ١٨٦٠ من خيار القوم ، بل كانوا ــ كما وصفهم القنصل الإنجليزى فى مصر « كوهون (Col. Quhoun) ــ من المغامرين الذين اقتصرت تجارتهم على الرقيق ، تحميهم الإمتيازات الأجنبية ويرعاهم القناصل (١) .

ولقد جأر الأجانب بالشكوى ــ كما سنفصله فى حينه ــ من جراء سياسة الاحتكار التى اتبعها محمد على حيال بعض المنتجات السودانية ، وجرت محاولات كثيرة لأثنائه عن هذه السياسة . وتجدر الاشارة هنا الى أن التجار الفرنسيين ــ على ما يبدو ــ كانوا ، أحيانا ، يلاقون « معاملة خاصة » من جانب محمد على ، ففى احدى المرات ضبط تاجر فرنسى يتاجر فى الصمغ العربى الذى يدخل ضمن السلع المحتكرة ، فعفا عنه الباشا نظرا « .... لما بينه وبين الفرنسيين من الروابط الأكيدة .... » (٢) .

وقد وضع الباشا فى عهده نظاما لتجوال وسفر الأجانب سواء من التجار أو السائحين يتمثل فى ضرورة حصول الفرد منهم على « تذكرة » (تصريح) من القنصل التابع له ثم يقدمها الى (ديوان الأمور الأفرنجية) الذى يقوم بالتوقيع عليها وختمها (٣) .

---

(١) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق . ص ٢٢ .

(٢) دفتر رقم ٣٩٠ صادر ديوان المعاونة ، ترجمة الارادة التركية رقم ٢٤٨ بتاريخ ١٧ شوال سنة ١٢٦١ . ارادة الى ارتين بك . انظر ايضا : دفتر ٣٧٦ صادر ديوان المعية ــ وثيقة رقم ٢٦٥٩ بتاريخ غاية محرم ١٢٦٠ هـ . ارادة الى احمد باشا المنكلى .

(٣) دفتر رقم ٤٥٨ ــ معية تركى ــ ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٥٥ بتاريخ ٨ جمادى الآخرة سنة ١٢٦٥ هـ . من المعية السنية الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

وقد يكون من المفيد أن نشير الى الفروق الهامة بين تغلغل النفوذ الأجنبى والقنصلى فى السودان وبين مثيله فى مصر ، وهى : أولا : كثرة وفود الأجانب الى السودان بالمقارنة مع مصر ، فحكومة عباس الأول لم تول الأجانب اهتماما كبيرا لذا فإننا نجد عزوفا بينا عن مجيئهم الى مصر فى عهده ، ولم يبدأ مجيئهم بشكل واضح إلا منذ أواسط عام ١٨٥٤ . ثانيا : ان النفوذ الأجنبى والقنصلى فى مصر — الذى بدأ بين عامى ١٨٥٤ ، ١٨٦٣ واستمر بعدها — قد نتج عنه تقييد أو تقلص فى حقوق السيادة الداخلية لمصر ، وإرهاق للخزانة من جراء التعويضات الجسيمة والتمهيد للأزمة المالية . ولكن الوضع فى السودان كان أكثر خطورة . ذلك أن النفوذ القنصلى ومقره الخرطوم قد اتخذ لنفسه اسلوبا آخر غير المطالبة بالتعويضات المالية تمثل فى مؤازرة تجارة الرقيق حين تقلصت تجارة العاج (١) .

ومن العجيب حقا ، أن يشهد عهد عباس الأول إزورار الأجانب عن مصر ، بينما يشهد نفس العهد فى السودان تدفقا ملحوظا ونشاطا واسعا لهم . ففى عهده نمت تجارتهم وأنشئت قنصلياتهم ، وبدأ رهبانهم يبشرون بالمسيحية حتى إشتد ضغطهم عليه (٢) . ففى ١٢ مارس عام ١٨٥٠ وردت رسالة من الخارجية الانجليزية الى قنصلية الاسكندرية بضرورة وجود وكيل قنصلى فى الخرطوم لحماية التجار الانجليز الذين بدأوا فى ممارسة تجارة الصمغ وسن الفيل وغيرهما من منتجات السودان ، كما وافقت أيضا على اقتراح بتعيين « جون بتريك » لهذا المنصب (٣) .

---

(١) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٥٨ — ٥٩ .

(٢) محفظة ١٩ بحر برا — ملف رقم ١٦ — وثيقة رقم ١٠٢ ، مرفق بحرف (د) سنة ١١٦٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) F. O. 78-841 March 12, 1850. M-C. A. Murray, Alexandria Consular. No. 4.

وحول مهام القنصل الانجليزى انظر الوثيقة التالية :

F. O. 78-841 Inclose in M-C. A. Murray. May 6, 1850 No. 20.

وفى عهــد الحكمدار عبد اللطيف باشــا (١٨٥٠ ــ ١٨٥١) لاقى التجار الأجانب مشقة فى تجارتهم حيث وجه اليهم هذا الحكمدار تهمــة شراء الرقيق وحمل الأسلحة ، كمــا اقترح أن تقــوم الحكومة باحتكار التجارة بدلا منهم . وأمام ذلك كله قدم القناصل فى الخرطوم شكوى شديدة اللهجة ضد عبد اللطيف باشا مطالبين بحرية التجــارة ، واتهموه بالإساءة الى رهبان الكاثوليك فى الخرطوم ، ثم طالبوا بإقصــائه عن الحكم . وبالفعل نجحوا فى مسعاهم وإستدعى عباس هذا الرجــل وتم تعيين رستم باشا بدلا منه (١) .

ويسجل عهد الخديوى اسماعيل تدفقا ملحوظا للأجانب فى السودان من تجار وسياح وموظفين تبوأوا أعلى مناصب الادارة فى البــلاد . ويبدو أن الأسباب التى دعت الى استخدامهم ترجع الى أن مصر كانت ــ وهى لا تزال فى طور إنشــاء الدولة الحديثة ــ تفتقر الى الخبرات المتوفرة لدى هؤلاء الأوربيين . كمــا أن استخدام موظفين أوربيين فى سلك الادارة يمكن الخديوى من اكتساب عطف الدول الأوربية أو موافقتها على مشروعاته التوسعية فى أفريقيا . وأخيرا فان اسماعيل حــاول أن يقنع ... من خلال ذلك ــ هذه الدول ولا ســيما إنجلترا أن سياسته فى أفريقيا يمكن أن تخدم الحضارة الأوربية التى كان فريق من الإنسانيين ينادون بها آنذاك ، بل إنه تأكيدا على حسن نواياه دخــل مع بريطانيا فى معاهدة خاصــة بالغاء تجارة الرقيق فى الســودان والمناطق المجاورة له ، حتى يجد اعترافا منها بالدور الحضارى الذى تقــوم به مصر فى أفريقيــا (٢) .

وقد بلغ من سطوة الأجانب فى السودان ان كان حكمدار السودان يخضع ــ أحيانا ــ لآراء بعضهم بناء على نصيحة المسئولين بمصر ، كما

---

(١) مكى شبيكة : السودان عبر القرون . ص ١٤٩ ــ ١٥٠ .
(٢) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ص ٢٥١ .

تشير احدى الرسـائل التى بعثت الى موسى باشـا عام ١٨٦٣ (١) • بل بلغ الحد بهم أن كانت الأوامر تصدر فى صراحة تامة الى الحكمداريين بمؤازرة الأجانب فى السودان • نرى ذلك واضحا من خلال النصائح التى اعطيت لجعفر باشا حكمدار السودان خلال تسلمه لوظيفته عام ١٨٦٥ ، حيث قيل له « •••• إنكم ستجتهدون فى تقرير رفاهية العبـاد وتأسيس عمـران البـلاد وتجاملون الأجانب وتعاملونهـم بالحسنى ••• » (٢) وبلغت سطوة الأجانب قمتها من خـلال تعيين غوردون باشـا حكمدارا عاما للسودان فى سنة ١٨٧٧ بعد أن كان حاكما لمديرية خط الاستواء •

وفى المجـال التجارى راح التجار الأجانـب ، والأوربيون منهـم بخاصة ، يجوسون ديار السودان من شماله الى جنوبه ومن غربه الى شرقه • وشملت تجارتهـم جميع منتجات السـودان المشـار إليها • وإزداد نشاطهم بإنشاء الوكالات التجارية • ففى احدى وثائق الخارجية الأمريكية بتاريخ ٣١ يولية عام ١٨٧٦ وصف للوكالات الأمريكية المنتشرة فى سائر مدن مصر الكبرى والخرطوم (٣) كذلك فقد طلبت اليونان أن يكون لها وكيل قنصلى بسواكن نظراً لوجـود رعايا لها بالسودان (٤) • كما رأت إنجلترا أيضا أن تكون لها قنصلية على ساحل البحر الأحمـر

---

(١) دفتر رقم ٥٣٧ — معية سنية — وثيقة رقم ٩ بتاريخ ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٨٠ هـ • الى حكمدار السودان •

(٢) دفتر رقم ٥٣٧ — ترجمة الوثيقـة التركية رقم ٤ ص ٧ بتاريخ ٢٦ صفر سنة ١٢٨٢ هـ • ارادة سنية الى جعفر مظهر باشا حكمدار عموم السودان دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) الأرشيف الأمريكى بدار الوثائق القوميـة بالقلعـة — محفظـة رقم ١٢ •

Desp. No. 36. Agency and Consulate General of the U. S. in Egypt. Cairo, July 31, 1876. to Hon. Hamilton Fish. Secy. of State, Washington.

انظر أيضا : نفس الأرشيف — محفظة رقم ٦ ، مكاتبة رقم ٩٠ ، محفظة رقم ١٣ مكاتبة رقم ١١٧ •

(٤) دفتر (بدون رقم) معية وثيقة رقم ٩٥٧ بتاريخ ٢٢ رمضـان سنة ١٢٨٨ هـ • الى ناظر الجهادية •

المواجه للسودان ، وفضلت أن تختار مصوع مكانا لها ، نظرا للتطــور المحتمل للعلاقات التجارية مع الحبشة ، بالإضافة الى قربها من الإتصال بعــدن (١) .

وفى يولية عام ١٨٦٤ بعث وكيل القنصل العام الفرنسى بالاسكندرية رسالة الى الخارجية الفرنسية ، وهى رســالة تلقاها بدوره من الوكيل الفرنسى بالخرطوم تتعلق بإحتجاج مقــدم من مواطن فرنسى يدعــى (Bisson) (بيسون) ضد الحكمدار موسى حمدى الذى قام بطرده من أرض كان قد اشتراها ــ كما تقول الوثيقة ــ بمبلغ ٢٠٫٠٠٠ فرنك . ويفهم من هذه الوثيقة أيضا أن هذا المواطن الفرنسى كان على رأس جمــاعة من الناس حطت رحالها فى إحدى الجهــات بالسودان (لم تشر إليهــا الوثيقة ، ونرجح أنها فى شرقى السودان) واستطاعت أن تستعمرها بعد أن تلقت معونة من رجال الادارة فى السودان ، إلا أنه فجأة ــ كمــا تذكر الوثيقة ــ تغير الحــال بسبب ورود معلومات من باريس تفيد بأن هذا المواطن الفرنسى لم يكن مكلفا بأى مهمة من قبل الامبراطور ..» (٢).

ثم بدأت ايطاليا تزحف نحو ساحل البحر الأحمر وخاصة نحــو مصوع ، بشكل أثار الخوف لدى المسئولين بمصر حين توجــه الايطالى (سوبكى) الى مصوع عام ١٨٦٥ بصحبة عائلته وأتباعه ومعداته بغرض الاقامة فى تلك الجهــات . وتصف إحدى الوثائق هذا الرجل بالفســاد خاصة عندما كان يعمل بالدائرة السنية فى مصر (٣) .

---

(١) F. O. 78-2632. Cairo, Map. 12, 1877. G. Vivian to the Earl of Derby.

(٢) الأرشيف الفرنسى ــ محفظة رقم ٥٩ بدار الوثائق القومية بالقلعة رســالة من :

M. Drouyn De L Huys, Ministre des Affairss Etrangers. Alexandrie. Le 24 Jullet. 1864. p. 257.

(٣) دفتر رقم ٥٦٠ ــ معية تركى ــ ترجمة المكاتبة التركية (غير رسمية ودون نمرة) ص ١٠٦ بتاريخ ١٠ ربيع الثــانى ١٢٨٤ هـ . من المعية الى محافظ مصوع .

هكذا بدأ هذا النشاط المحموم لهؤلاء المغامرين الأوربيين سـواء أكانوا تجارا أو رحالة أو غيرهم ، والذى كان يواكب الموجة الاستعمارية التى بدأت – فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر – تجتاح القارة الأفريقية • لقد مهد أولئك التجار والمغامرون الطريق لدولهم الاستعمارية عن طريق شراء الأراضى على ساحل البحر الأحمر الغربى • ففى أوائل عام ١٨٦٥ بدأت احدى الشركات الفرنسية بالإشتراك مع أحد التجار الفرنسيين ويدعى « بستره » شراء قطعة أرض بجهة مصوع من أحد مشايخ العربان •ويبدو أن الانجليز كانوا هم أيضا يفكرون فى السيطرة على تلك الجهة مما أدى الى مجىء فرقاطة انجليزية « الى تلك الجهات • وقد انتهت تلك الحادثة بشراء هذه الأرض من ذلك التاجر الفرنسى وقفاً للنزاع والتسابق (١) • وفى عام ١٨٧٠ أتت باخرة ايطالية الى عصب – تلك المنطقة الهامة التى تقع على رأس الحدود قرب باب المندب – وأقامت بها منزلين خشبيين ، ثم راحت تشترى أراضى تلك الجهة من المشايخ والعربان بمبلغ سبعمائة ريال ، ولم تلتفت هذه الجماعة الايطالية الى أن هذه الجهات تابعة لمصر (٢) • ثم عادت فرنسا من جديد لتشارك فى هذه اللعبة ••• لعبة شراء الأراضى حيث راح أحد أتباعها ويدعى « قسطندى » بمنطقة مصوع يشترى قطعة أرض من أحد الأفراد • وللأسف الشديد وافق المسئولون – فى هذه المرة – على بيعها واستخرجت لها حجج شرعية ، بل وزيادة فى توسيع هذه المسألة ، طلب المسئولون ، ألا يمنع الأجانب فى تلك الجهات من شراء الأرض طالما « ••• كانت خالية من المحذور ••• » وأنه « ••• لا بأس من أن تطبق بمصوع وسواكن الأصول المتبعة فى مصر واسكندرية

---

(١) دفتر رقم ٢٢ عابدين – ترجمة الوثيقة (بدون رقم) ص ١٠٧ بتاريخ ١٢ شوال سنة ١٢٨٢ هـ • من افندينا الى معتمده فى الاستانة دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) صورة المكاتبة الواردة من محافظة سواحل البحر الأحمر الى المعية السنية بتاريخ ٩ رجب سنة ١٢٨٧ هـ (سبتمبر ١٨٧٠) دار الوثائق القومية بالقلعة •

والبنادر الأخرى بشأن بيع مثل هذه الأملاك للأجانب ... » (١) هكذا بدأ هؤلاء التجار الأجانب تساندهم دولهم فى السيطرة على أملاك الخديوية المصرية على سواحل البحر الأحمر الغربى غير قانعين بالاتجار فى السلع والمنتجات . ومن المؤسف حقا أن حكومة الخديوى استسلمت لمشيئة هؤلاء المغامرين ومكنتهم « رسميا » من السيطرة ، وكان هذا نتيجة طبيعية للإنفتاح الأجنبى المحموم على السودان وسواحله الشرقية الذى بدأ على شكل تجارة فتسلل وظيفى ثم إستيلاء على الأراضى فاحتلال دائم وأخيرا تقلص للنفوذ المصرى .

التجارة مع مصر :

طرقها : سلكت التجارة بين مصر والسودان طرقا عدة يمكننا أن نقسمها الى ما يلى : أولا : النوبة السفلى والعليا : فالنوبة السفلى بحكم موقعها كانت أقرب الى صعيد مصر وبمثابة حلقة وصل بين البلدين . وكانت أسواق إسنا ودراو وأسوان أماكن لتصريف سلع ومنتجات النوبة السفلى كالتمر والشب والسنامكى فى مقابل الذرة والمنسوجات القطنية . أما النوبة العليا أو الجنوبية فكانت مراكزها التجارية مثل بربر وشندى تتصل بمراكز التجارة فى صعيد مصر عن طريق القوافل الشرقى الذى يخترق الصحراء الشرقية ثم ينقسم الى فرعين متوازيين : الأول : يخترق صحراء العتمور (طريق أبو حمد ـ كرسكو) والتالى الى الشرق قليلا ويخترق صحراء العتباى (طريق بربر ـ دراو) . فعلى سبيل المثال يمكن لقافلة شندى المتجهة الى مصر أن تمر ببربر ثم عليها أن تختار السير إما فى محازاة النيل حتى (أبو حمد) ، ومنها تخترق صحراء العتمور الى كرسكو ثم دراو الواقعة شمالى أسوان ، أو أن تسير بعد أن تغادر بربر الى الشرق

---

(١) سجل رقم ٥٨٣ ص ٩٨ نمرة ٢٤ ـ ترجمة الادارة الصادرة الى ناظر الداخلية بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٢٨٨ هـ (ابريل ١٨٧١) (محافظ ابحاث السودان محفظة رقم ١) دار الوثائق القومية بالقلعة .

قليـلا مخترقة صحراء العتباى شمالا حتى تصـل الى دراو • وكان التجار فى الغالب يفضلون السير فى طريق العتباى تاركين طريق العتمور رغم أن الأخير قصير وذلك لأن القوافل كانت تعانى فى طريق العتمـور من شح المياه وقلة العشب الضرورية للابل ، ناهيك عن تعرض القوافل فى هذا الطريق لأعمـال السلب ودفع المكوس • وتقطـع القافلة طريق العتباى من دراو الى بربر فى مدة من سـتة عشر الى سبعة عشر يوما ، ومن بربر الى دراو فى مـدة اثنى عشر يوما ، وذلك لأن القافلة عقب مغادرتها لبربر تكون مزودة بعدد وافر من الابل فيمكنها بذلك اراحـة الابل المحملة ، بالتناوب ، بالاضافة الى جدية رجالهـا فى السير ليـلا بحيث إنهم كانوا لا ينامون إلا قليلا ، وأخيرا فإن نفقات القافلة المتجهة الى مصر تقل لتوفر الابل (١) • ويقال أن راكب الهجين السريع من رجال البريد فى إمكانه أن يقطع المسافة ما بين بربر ودراو فى ثمانية أيام (٢) •

ولم يأل المسئولون ، سـواء فى مصر أو السودان ، جهدا فى سبيل تأمين هذه الطرق خاصة طريق العتمور ، الذى كانت تكتنفه المخاطر • ففى عهد محمد على لوحظ كثرة تعرض التجـار والمسـافرين لأعمـال السلب والنهب على هذا الطريق فعهد بحراسته الى الشيخ حسين خليفة العبادى مقابل « عشر » ما يمر فيه من بضـائع وسلع (٣) •

وفى عهد عباس الأول ظهرت الى السطح مشكلة هذا الطريق من جديد إذ بدأ عربان البادية بشن اعتداءات على المسافرين والتجار لدرجة أن مدير بربر طلب بعدم إرسال « ••• أدوات ميرى ولا تجارى بالعتمور ما لم يرسل خبير ••• » (٤) •

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٣١٤ •

(٢) Douin; Histoire du Soudan Egyptien - Tome. I. p. 61.

(٣) دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى : وثيقة رقم ٥٩٣ بتاريه ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٦٠ هـ • ارادة الى مدير دنقلة • انظر أيضا : حسن احمد ابراهيم : المرجع السابق • ص ١٤٩ •

(٤) دفتر رقم ٤٩ صادر معية عربى — صورة المكاتبة العربية نمرة ٢٩ ص ٢٨ف بتاريخ ٢٠ محرم سنة ١٢٦٧ هـ • من المعية الى مدير عموم قتلى •

ويبدو أن مشكلة هـذا الطريق قـد استمرت الى عهـد الخديوى اسماعيل حيث تشير الوثائق الى وقوع حوادث عبر الطريق من جانب بعض الأشـقياء من العربان الذين يعترضون طرق التجارة والتجار ، ووصل بهم الأمر الى قتل بعض العساكر أيضا (١) .

وفى رسالة من نائب القنصل الفرنسى بالخرطوم بتاريخ ١٨ أكتوبر عام ١٨٦٤ نقرأ شكوى مريرة من سوء طريق العتمور (أبو حمد — كرسكو) وطريق العتباى (بربر — دراو) ، حيث كانا دائما « مزدحمين باحتياجات الحكومة من السلاح والمؤن الحربية الخاصة بالجيش ، وكأن هذين الطريقين مسـخران لخدمة الجيش وحسب » . ويضيف قائلا : ان كل ذلك يترك قليلا من الأمل للتجارة التى تعانى كثيرا من المواصـلات والخسـائر الجسيمة الناجمة عن ذلك . فهناك على سبيل المثال بضـائع فرنسية مهملة ومعطلة بكورسكو نتيجـة الأزمة المستحكمة لمـدة شهور بسبب قلة الابل » ، ناهيك عما يلقـاه التجـار من شـح فى الاحتياجات الضرورية ووهج الشمس المحرقة والجبال الجرانيتية المطبقة عليهم من كل جانب (٢) .

وراح نائب القنصل الفرنسى فى السـودان يردد فى رسائله تلك المخاطر التى لخصها فى عبارة واحـدة قائلا « ... وللتجـار اليوم فى السودان عدوان : الحكومة بما تقوم به من تفتيش مستمر للتجار دونمـا معايير ثابتة ، والعدو الآخر : يتمثل فى جماعة الأعراب التى تغـير على

---

(١) دفتر رقم ٥٥٨ — ترجمة الارادة الصادرة الى حكمدار السـودان بتاريخ ٩ ربيع الثانى سـنة ١٢٨٣ ص ١٦٢ ارادة رقم ٢٣ . دار الوثائق بالقلعـة .

(٢) الأرشيف الفرنسى — محفظة رقم ٥٩ بدار الوثائق القومية بالقلعة . رسـالة من :

M. C. Thibaut, Vice - consul de France à Khartoum à M. Tastu, Agent et consul General de France à Alexandrie. Khartoum, Le 18 Octobre, 1864. pp. 404-409.

القــوافل ... » (١) •

ولم تقف الحكومة إزاء هذه المخاطر مكتوفة الأيدى بل راحت تبذل الكثير لراحة التجار والمسافرين • ففى يولية عام ١٨٦٥ طلب من حكمدار السودان تأمين هذه الطرق ، والقيام بإعدام الأشخاص الذين تم القبض عليهم بتهمة إرتكاب حوادث السلب ، وإرســال البعض الآخر الى جهات جنوب السودان لإستخدامهم فى الأعمال الشاقة ، كما طلب الى الحكمدار أيضــا أن يطبق هذه العقوبات سالفة الذكر على من يرتكب مثل هــذه الأفعال مستقبلا (٢) • كما بعث المسئولون بمصر رسالة الى الشيخ حسين خليفة متعهد طريق العتمور يحثونه على أداء مهمته فى يقظــة قائلين له « ... إن من أهم الأمور المرغوبة الينا وأعظم المواد الملتزمة لدينا التى لم نزل نداوم على رعايتها والحض على مزيد ملاحظتها هو تأمين الطرق والمعابر وتسهيل السبل لكل وارد وصــادر وصيانة كل تاجر ومســافر حتى لا يضيع لأحد عقال بعير ولا يصــاب أحد فى نفسه ولا فى ماله بقليل ولا كثير ... » (٣) وبعد ذلك يوجهون اليه اللوم الشــديد على ذلك الإهمــال الذى أدى الى وقوع حــوادث النهب والقتل محذرين ومنذرين من وقوع مثل ذلك فى المستقبل (٤) •

والى جانب تلك الأعمال حرص المســئولون على حفــر الكثير من الآبار على طول تلك الطرق رعاية وراحة للتجار والمسافرين (٥) ، فوجود

---

(١) الأرشيف الفرنسى ، محفظة رقم ٥٩ . أنظر :

Annexe No 1. à la lettre de M; OUTREY, du 19 Novembre, 1865. M. Munzinger General du vice - Consul general de France a Alexandrie. Cassala (Taka) 12 aqut 1865. p. 1169.

(٢) دفتر رقم ٥٥٨ — نفس الوثيقة السابقة .

(٣) دفتر رقم ١٩٢١ أوامر كرام ص ١٨٩ — صورة الأمر الكريم رقــم ٢٣ بتاريخ ٩ ربيع ثانى سنة ١٢٨٣ أمر كريم الى الشيخ حسين خليفة متعهد طريق العتمور . دار الوثائق بالقلعة .

(٤) نفس الوثيقة السابقة .

(٥) دفتر رقــم ١٩ عابدين — وارد التليغرافات — صــور التليغراف العربى — رقم ٥٩١ بتاريخ ٣ ربيع الثانى ســنة ١٢٩٠ هـ . من مدير دنقلة وبربر الى المعية الســنية — ورد فى تاريخ ربيــع الثانى ســنة ١٢٩٠ . دار الوثائق القومية بالقلعــة .

للميـــاه عبر تلك الصحراوات ، لا شـــك إنه يساعد على استمرار سـير القوافل التجـــارية •

ثانيا : طريق منطقـــة حوض النيـــلين الأزرق والأبيض وروافدهما وكردفان الشرقية ، حيث تتدفق تجارة هـــذا الاقليم عبر هذين النيلين نحو الخرطوم ومنها الى بربر ثم شـــمالا الى مصر عبر صحراء العتباى أو طريق العتمور الســـابق ذكرهما (١) •

ثالثا : الطريق الغربى أو ما عرف باسم درب الأربعين : ويبدأ هذا الطريق من كوبى بدارفور حتى أسيوط • ويبـــدو أن استخدام هـــذا الطريق فى عهد محمد على لم يكن بالصـــورة السابقة ، وذلك بسبب سوء العلاقات التى كانت بين سلطان دارفور ومحمد على وان كان الأخير قـــد بذل محاولات مضنية لتبديد السحابات التى تكونت فى سماء العـــلاقات بينهما • وليس معنى ذلك ان هذا الطريق قـــد إنتهى استخدامه ، بل إستمرت عليه التجارة بين مصر ودارفور فى العهود التالية لمحمد على ، خصوصا فى عهد اسماعيل حين أصبحت دارفور تابعـــة للادارة المصرية فى السودان • ففى عام ١٢٨١ هـ — (١٨٦٤ م) يحدثنا صاحب الخطط التوفيقية عن ورود احدى القوافل الضخمة من دارفور والمحملة بالبضائع المتنوعة مثل سن الفيل وريش النعام والخرتيت والتمر هندى والنطرون وجـــراب الجلد وغير ذلك (٢) •

ولم يكن طريق الأربعين يقتصر على حمل بضائع دارفور وحسب ،

---

(١) مكى شبيكة : السودان فى قرن • ص ١٣٦ • انظر ايضـــا : شوقى الجمل تاريخ سودان وادى النيل ، ج ٢ • ص ١٣١ ، ١٣٢ •

(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية الجـــديدة • ج ١٧ • ص ٣١ — ٣٣ • وحول هذا الطريق وأهميته فى التجـــارة • انظـــر : التونسى : المصـــدر السابق • ص ٤١ — ٥٥ ، الســـيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى افريقيا • ص ٥ ، مكى شبيكة : المرجـــع السابق ص ١٣٦ ، الجمـــل ، المرجـــع السابق ص ١٣١ •

بل كان أيضا يقوم بحمل بضائع كردفان والمناطق المجاورة لدارفور مثل واداى وباجرمى وبورنو •

رابعا : طريق سواكن ـ السويس : وهـذا الطريق برزت أهميته عقب الحاق ميناءى سواكن ومصوع للادارة المصرية ، ولسوف تزداد أهمية هذا الطريق كمعبر للتجارة الخارجية السودانية بمرور الوقت كما سنوضحه فيما بعد حين نتعرض لطرق المواصلات البحرية بين مصر والسودان • وعلى الرغم من سهولة وقصر هذا الطريق ، فإن التجار قد عزفوا عن إستخدامه بسبب تحصيل جمارك عالية على البضائع الصادرة والواردة من والى سواكن والبالغة ثمانية بالمائة بالإضافة الى إرتفاع نفقات وابورات النقل بين سواكن والسويس ، لذلك فإننا نجد حكمدار السودان يقترح فى عام ١٨٧٦ ـ حلا لهذه المشكلة ـ تخفيض الجمارك فى سواكن الى واحد بالمائة ، كما كان الجارى بالاسكندرية ، وإحتسا بأجرة القنطار الواحد الذى يتم نقله على الوابورات بواقع ثمانية قروش فقط (١) •

وهكذا يتبين لنا مما سبق أن هناك طرقا عدة إستخدمت لنقل السلع والبضائع بين مصر والسودان منها ما كان بريا ومنها ما كان بحريا • ولعل من الملفت للنظر حقا أن نهر النيل لم يكن يلعب دورا هاما فى نقل السلع بين البلدين نظرا لما تكتنفه من « جنادل » كانت تعوق مرور السفن فيه ولذلك فضلت عنه الطرق الأخرى •

السلع المحتكرة :

قبل أن نخوض فى أنواع السلع المصدرة أو المستوردة بين مصر والسودان نود أن نشير الى مسألة هامة شغلت أذهان المسئولين والتجار فى مصر والسودان بل وأوروبا طوال عهد محمد على ، وهى مسألة

---

(١) دفتر رقم ١٧ (معية عربى) قيد وارد الافادات من جهات الأقاليم والمحافظات والسايرة ص ٩٥ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

إحتكار التجـارة فى بعض المنتجات السـودانية كالصمغ وسن الفيـل والسنامكى • فقد دارت مساجلات ومحادثات عنيفة وحادة بين محمد على من ناحيـة والتجار الأوربيين من ناحية أخـرى وراح كل طرف يدلى بدلوه فى هذه المسـألة • ولنبدأ القضية من أولها • فمنذ عام ١٨٢١ تمت لمحمد على السيطرة على سنار وبدأ يضع يده على الصمغ وسـن الفيل والسنامكى ويحرم التجـار الأجانب من هذه المنتجات • ويبدو أن هذا الأمر لم يرق للقنصـل الانجليزى العـام بالاسكندرية (تشارلس مرى) ولم يستطع أن يكظم غيظه من جراء هذا الاحكام فراح يتهم الباشا « بالغبـاء » لأن محمد على ــ فى رأى القنصل ــ قد حرم مصر من تجارة سـنار التى بحثت لها عن منافذ أخرى (١) وفى ظننا أن القنصـل البريطانى لم يكن موفقا الى حـد كبير فى تحليله هذا إن كان فى نيتـه الخـوف على « حرمان » مصر من مثل هذا المورد ، وربما يكون موفقا فقط إذا كان يعنى حرمان التجارة الانجليزية • فلقد كان الباشا يشترى هذه السلع برضاء الأهالى ولم تكن تجارة السودان قد أخذت منافـذ أخـرى ، اللهم إلا بعض حالات قليلة كان يتم تهريبها بواسطة السـفن الانجليزية فى البحر الأحمـر •

ولم تكن شكوى التجـار الأجانب فى سـنار فقط بل إمتدت الى كردفان حيث نجد الرحالة « بالم » يشكو بمرارة من أساليب إحتكار الصمغ التى لم تكن تقتصر على شراء الحكومة لـه ، بل كانت تمنع التجـار من بيعه فى السوق ، ناهيك عن الضرائب الباهظة التى كانت تؤخـذ على البضائع المصدرة الى مصر ، الأمر الذى كان يضطر معه كل فرد أن يبيع للحـكومة (٢) •

وفى سواكن ومصوع نسمع صرخات التجـار الانجليز من جـراء

---

(1) F. O. 78-708. Alexandria 15th. July. Ch. A. Murray to Lord Cowley No. 14.

(٢) نسيم مقار : الرحالة بالم • ص ٤٤ •

الإحتكار ، فقـد بعث أحـد المسـئولين الانجليز في مصر عـام ١٨٤٧ برسالة ـ نيابة عن أحد التجار الخاضعين لرعاية حكومة بريطانيا والمقيم بجدة وله بعض المندوبين فى كل من سواكن ومصوع يعملون بتجـارة الصمغ ـ يقول فيها : ان مندوبيه يتعرضون لعراقيل كثيرة منذ تم الحاق هذين الميناءين الى الادارة المصرية بالسودان • ويضيف هذا التاجر أن الصمغ المصـدر عبر الميناءين يبتاعه منـدوبوه من الحبشـة وليس من السودان ، ومع ذلك فإن الباشا يريد فرض الإحتكار عليه (١) •

ويبدو أن محمد على لم يكن يتشدد ـ أحيانا ـ فى مسألة الاحتكار أمام بعض التجار الفرنسيين حيث نرى أحدهم يعمل فى تجارة الصمغ بكردفان على عهد الباشا على نطاق واسع ، ولكن بعد أن لاحظ محمد على إزدياد وتضخم تجارة هذا الرجل والتى بلغت فى العام الواحد من ٤٥٠ ـ ٥٠٠ جمل من الصمغ أظهر قلقه وغيرته (٢) •

ولجأ التجار الأجانب ، والانجليز منهم ـ على وجه الخصوص ـ الى وسيلة ناجعة لإلغاء الاحتكار التجارى فراحوا يحتكمون الى معاهدة عام ١٨٣٨ (بلطه ليمان) والى المـادة الثانية منها والتى تنص على إنه « ••• مسـموح للرعايا البريطانيين أو وكلائهم أن يشتروا من سـائر الأماكن الخاضعة لأملاك الدولة العثمانية (Ottoman Dominion) سواء أكان ذلك بغرض التجارة الداخلية أو الخارجية » (٣) • وراح القنصل بارنت Barnett يردد هذه المقولة ، ويطلب أن ينصاع الباشا لقوة هـذه المـادة ويوافق على حرية التجـارة فى سنار وسائر جهات السـودان التى هى ـ طبقا لهذه المادة ـ جزء من أملاك الدولة العثمانية (٤) •

---

(١) F. O. 78-708. Cairo 2nd. July, 1847. Thomas Mirialacch to Alfréd Sloalne.

(٢) Deherain; Le Soudan Egyptien. p. 117.

(٣) F. O. 78-502, September 30, 1842, to L. t Col. Barnette.

(٤) F. O. 78-582, No. 25, Cairo, November, 16th 1844. C. J. Barnette to Earl of Aberdeen.

وفى أغسطس ١٨٤٧ يخاطب « مرى » بالمرستون قائلا « .. إننى سوف أكتب الى ارتين بك — الذى خلف بوغوص عام ١٨٤٤ — طالبا منه آن يخبر نائب السلطان إننى لا أستطيع قبول شرعية الإدعاء الذى حال دون تنفيذ شروط المعاهدة التجارية بالقوة ... » ، ثم يضيف بعد أن تزداد حدة مخاطبته « ... ولسوف أعتبر الحكومة المصرية مسئولة عن الأضرار التى تلحق بأى تاجر بريطانى من جراء سياسة الإحتكار لمنتجات السودان (١) . وتفيض وثائق الخارجية الانجليزية بالمراسلات المتبادلة بينها وبين قنصلها بالاسكندرية فى وصف الأحوال السيئة للتجارة البريطانية فى السودان والناجمة عن الإحتكار التجارى . وتذكر احدى هذه الوثائق ان محمد على إمعانا منه فى إحكام سيطرته على مقدرات التجارة السودانية طلب من الباب العالى ضم ثغرى سواكن ومصوع الى السودان . وقد عد هذا الطلب فى نظر تشارلس « ... عملا غير مشروع ، وان محمد على بهذا قد أدى الى إغلاق المنافذ أمام المنتجات السنارية ، وجعل التجار الأوربيين فى جدة والمناطق الأخرى المرتبطين بتجارة الصمغ تحت رحمته .. » (٢) وهكذا بدأ التجار الأوربيون يجأرون بالشكوى من جراء هذا العمل ، فتقدم نفر منهم الى القنصل النمساوى والى القنصل الانجليزى لشرح هذه المسألة مما دعا قنصل النمسا الى مقابلة الباشا نفسه فى هذا الصدد ، ولكن محمد على لم يعره أذانا صاغية وتمسك بسياسته الاحتكارية (٣) .

هذا فيما يتعلق بالجانب الأوربى ، ولكن فى الجانب الآخر ألا يحق لنا أن نتساءل عن مبررات محمد على فى فرض سياسة الاحتكار على بعض المنتجات السودانية . والى أى مدى كان محقا فيها ؟ وما درجة

---

(١) F. O. 78-708, 10th. August, 1887. Ch. A. Murray to Viscount Palmerston No. 99.

(٢) F. O. 78-708, Alexandria, 15th. July, 1847. Ch. A. Murray to Lord Cowley. No. 14.

(٣) F. O. 78-708. Ibid.

إقتناع الباشـــا نفسه بهــا ؟ ففى رســـالة من محمد على الى القنصـــل الانجليزى العـــام بالاسكندرية راح يشرح مبررات ســـياسته قائـــلا :
« ... إننى أعلم جيدا إن الغاء نظـــام الاحتكار والأخذ بنظام التجارة الحرة يوجبان رخاء كل أمة .. وإننى كنت أتوق الى تحقيق هذه الأمنية غير أنها تعد أمرا حادثا فى هذا البلد كما يعلمه الجميع فلا يمكن حصولها دفعة واحـــدة ، وإنما يجب أن تراعى سنة التدريج مع العناية بحـــالة الأهلين وتوفير الأمن لهم كما يفعـــل فى البلاد الأخرى المتمدنة ، وكنت قلت : لا يشددوا على وليتركونى وشأنى بعض مدة فإننى أدقق لحل مسألة التجارة الحرة حلا يرضاه الجميع وإننى مازلت على كلامى هذا ، فأعمل ليل نهار لتحقيقه ، وصديقنا (يقصد القنصل العام الانجليزى) وان كان يقدر مزايا ذلك ، غـــير أن بعضا من التجار الواقفين على سير الأمـــور يجب أن يقرروا هكذا .. » (١) . ولا يحتاج منا هذا الرأى الى جـــدل كثير للاقتناع بوجهة نظر الرجل ، فهو لا ينفى مزايا حرية التجـــارة ، والإنفتاح على العالم ، ولكن هذه المسألة قد تكون ضارة بالنســـبة لبلد كالسودان كان يعيش منذ عهد قريب على إقتصـــاد قبلى بسيط وأمامه مراحل طويلة حتى يتطور ويقف على قدميه ، فلابد لهذا الاقتصـــاد من من مرحلة حضانة ورعاية مباشرة من جانب الباشا فى بادىء الأمر حتى يستوى عوده ويبلغ أشـــده . ولم يكن الباشا ـــ فى تقديرنا ـــ يتمسك بهذه السياسة عن عنت وجهل ويصر على رأيه دون الاستماع الى آراء غيره حول هذه السياسة ، بدليل أنـــه وافق ـــ دون تردد عنـــد زيارته السودان (١٨٣٨ / ١٨٣٩) ـــ على الغاء احتكار النيلة حين شكا اليـــه فلاحو السودان أمرهم فى هذا الصدد (٢) . كذلك فقـــد كان محمد على يبرر حـــق إحتكاره للصمغ والسنامكى بأن هذين المحصـــولين ينبتان من

---

(١) دفتر رقم ٩ عابدين ـــ ترجمة الارادة رقم ٣٤٤ بتاريخ شوال سنة ١٢٥٧ هـ من الجنـــاب العـــالى الى البك الترجمان . دار الوثائق القوميـــة بالقلعـــة .

(٢) انظر فصـــل الزراعة .

تلقاء نفسهما ، وبذلك يصبحان من حق الحكومة (١) .

ونلمح من بين سطور احدى الرسائل — المرسلة من القنصل العام الانجليزى بالاسكندرية الى الخارجية الانجليزية فى ديسمبر عام ١٨٤٧ — اتهامات الى فرنسا بأنها كانت من وراء تمسك الباشا بهـذه السياسة الاحتكارية (٢) .

ويبدو أن هذا الاتهـام كان يستند الى التأييد الـذى كان يلاقيه الباشا فى سياسته الخارجية والداخلية ، بالاضافة الى خريف العلاقة بين انجلترا وفرنسـا والتنافس الدائر بينهمـا — آنـذاك — فى المجـال الاستعمارى . وبالرغـم من حـدة المناقشات التى دارت بين المسئولين الانجليز وبين الباشا حول مسألة الاحتكار ، فانهم كانوا — على حد تعبير احدى الوثائق — « .. يحسبون حساباتهم على أن الضغط الشـديد من جانب انجلترا على الباشا معناه فقدان النفوذ القليل الذى كان لديهم عند الوالى ، فى مقابل زيادة النفوذ الفرنسى .. » (٣) .

وهكذا كانت الدبلوماسية الانجليزية حريصة كل الحرص على عدم توسيع هوة الخـلاف مع الباشا ، حتى لا تتيح لفرنسا أن تجـد طريقا ممهدا على حساب انجلترا . وغاية ما كانت تطمح اليه هذه الدبلوماسية هو تنفيذ الحقوق الواردة بالمعاهدة التجارية الموقعة مع الدولة العثمانية عـام ١٨٣٨ (٤) .

وقد كثر الجدل بين انجلترا والباشا حول هذا الموضوع مما جعـل الأخير يلجـأ الى استشارة رجـال القانون الدوليين فى باريس ولنـدن

---

(١) دفتر رقم ٩ عابدين — ترجمة الخطاب السادس رقم ٤٦١ بتاريخ ١٦ رمضان سنة ١٢٦٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) F. O. 78-708, Cairo, December 25th, 1847. Ch. A. Murray, to Vice Count Palmerston. No. 69.

(٣) F. O. 78-756, No. 2, February 4, 1848. to M. - Murray.

(٤) F. O. 78-756. Ibid.

وتريستا وتسكانيا وفلورنسا ، وقد أقروا جميعا وجهة نظر محمد على (١) .

وإزاء اصرار الانجليز على الغاء الاحتكار ، وبخاصة مساعى سفيرهم فى القسطنطينية « ستراتفورد كاننج Stratford Canning » أصدر الباب العالى أمرا الى محمد على فى ٦ يونية عام ١٨٤٨ بالغاء احتكار تجارة سنار ، ومع ذلك ظل هذا الأمر حبرا على ورق ولم ينفذه أحد (٢) . وفى مستهل سبتمبر عام ١٨٤٨ رفع الانجليز مذكرة الى ابراهيم باشا ، أعادوا فيها مطالبهم بتطبيق معاهدة عام ١٨٣٨ المبرمة مع السلطان وحق الرعايا الانجليز « ... فى تصدير منتجات سنار بعد دفع الرسوم .. » (٣) ولكنهم ووجهوا أيضا بأبواب موصدة حيال هذا المطلب .

ومن الغريب حقا أن أولئك الانجليز الذين هاجموا سياسة محمد على الاحتكارية ، أشاروا — فيما بعد — على رياض باشا رئيس مجلس النظام فى عام ١٨٨١ على عهد توفيق باشا أن يطبق سياسة الاحتكار فى جنوب السودان ، والذى أشار بهذا هو « جيجلر » باشا الذى كان وكيلا لحكمدارية عموم السودان آنذاك (٤) .

وهكذا ظل الاحتكار مستمرا حتى جاء عباس الأول الى الحكم فقام

---

(١) محافظ السودان — محفظة بدون رقم — مجلس الوزراء — ١٢٦٣ هـ ، انظر ايضا : شكرى : بناء دولة ص ٦١ .

(٢) نفس المرجع . ص ٦١ ، ٦٢ .

(٣) F. O. 78-735, Memorandum for Ibrahim Pasha sent in September. 8, 1848.

(٤) دفتر رقم ٩ عابدين — ترجمة الخطاب رقم ٤٦١ بتاريخ ١٦ رمضان السودان — ترجمة الخطاب الوارد لحضرة دولتلو افندم رياض باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية والمالية من جيجلر باشا وكيل حكمدارية عموم السودان بتاريخ ١٨ يونية ١٨٨١ ص ٥١٠ .

بالغــائه فى عــام ١٨٤٩ (١) ٠

وفى الخامس من يناير عام ١٨٥٠ كتب تشارلس مرى قنصل انجلترا فى الاسكندرية الى الخارجية البريطانية يزف اليهــم نبــأ نتائج الغــاء احتكار الصمغ والسنامكى ومنتجات سنار الأخرى حيث تمكن كثير من التجار الأوربيين ــ ومنهم رعايا انجلترا ــ من العمل فى هذه التجــارة ، ثم نصح المسئولين بضرورة البحث عن وسيلة لحماية هؤلاء التجــار ، وأخيرا طلب من حكومته أن تحذو حذو الحكومة النمساوية بتعيين وكيــل لها فى الخرطوم (٢) ٠

وقد يكون من المفيد بعد أن ناقشنا مسألة الاحتكار التجــارى فى السودان أن نعرض بشىء من التفصيل لأهم أنواع الصادرات السودانية الى مصر والتى شملها الاحتكار ، وفى مقدمتها الصمغ العربى الذى إحتل المكانة الأولى فى تجارة السودان مع مصر ٠ فقد احتلت أشجار « السنط » التى يستخرج منها الصمغ مساحات كبيرة من مديريات كردفان والتاكة وســنار ، كما عرفت منــه أنواع كثيرة أهمهــا ما كان يؤخــذ من سنط « الهاشاب » وسنط « الطلح » والنوع الأول أكثر جــودة من الثانى ، ولذلك كان الاقبال عليه كثيرا (٣) ٠

ويكثر وجــود أشــجار الصمغ بصفة عامة فى المناطق المدارية التى تمتــاز بأن فصل المطر فيها محدود ، وتتعرض للجفاف فترة طويلة من السنة ٠ فخلال أشهر المطر القليلة تظلل شجرة الســنط المنتجة للصمغ

---

(١) F. O. 78-804 Cairo, Mard 12, 1849. Ch. A. Murray to Sir Stratford Canning, No. 6.

وانظر ايضا : شكرى : الحكم المصرى فى الســودان ص ٧٤ ، وزاهر رياض ٠ السودان المعاصر ص ٧٤ ٠

(٢) F. O. 78-840. Cairo January. 5, 1850. Murray to Viscount Palmerston. No. 2.

(٣) محمد محمود الصياد : الســودان ٠ دراسة فى الوضــع الطبيعى والكيان البشرى والبناء الاقتصادى ٠ ص ٢٨٢ ٠

تستمد الماء وتتشكل بحيث تحتفظ بالرطوبة فيها طوال أشهر الجفاف ، ويكون ذلك بتحويل المـاء الى مادة صمغية داخل لحاء الشجرة • وتمتاز هذه المادة بتحملها للحـرارة الشديدة وقلة تأثرها بجفاف الجو وعـدم قابليتها لتبخر الرطوبة بسرعة • وهكذا تستمر الرطوبة فى لحاء الشجرة خلال فصل الصيف • ويساعد التفاوت بين درجات الحرارة على تشقق لحـاء الشجرة فتخرج من خـلال تلك الشقوق المـادة الصمغية التى تتجمع فيها يعـرف باسم « الكعكول » • ولكن هـذه الشقوق الطبيعية لا تكفى فيقومون بعمل شقوق صناعية أو « طقوق » كما يسميها البعض فيزداد الإفراز (١) •

ويتميز الصمغ السودانى بأنه يذوب تماما فى الماء على عكس صمغ « بوشـير » فى ايران الـذى لا يذوب فى المـاء ، أو صمغ عدن الأقـل ذوباناً (٢) • وكانت الحكومة تدفع مائة وخمسين مليما عن كل (مائة وعشرة أرطـال) ، ثم تحسنت تدريجياً سنة ١٨٥٠ الى (مائتين وسبعين مليمـا للقنطار (٣) • وكان يتم تصدير الصمغ الى أوربا وتركيا عن طريق مينـاء الاسكندرية •

هذا ، وقـد بلغ محصـول الصمغ عن سنتى ١٢٥٨هـ ــ ١٢٥٩ هـ (١٨٤٢ ــ ١٨٤٣ م) بمديرية كردفـان ١٨٫٢٥٧ قنطـارا وكسور (٤) • وهناك وثيقة تشـير الى أن ما وصل منـه الى مصر من كافـة مديريات السودان فى عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢) قد بلغ ٧١٣٨ قنطارا و٧٧ رطلا (٥) •

---

(١) محمد محمود الصياد : المرجع السابق ص ٢٨٣ •
(٢) نفس المرجع • ص ٢٨١ •
(٣) نفس المرجع • ص ٢٨٦ •
(٤) دفتر رقـم ٣٧٨ معية تركي ــ ترجمـة الارادة التركية رقم ٨٣٠ بتاريخ ٢ صفر سنة ١٢٦١ هـ • ارادة الى مدير كردفان •
(٥) محفظة رقم واحد ــ موضوع التجارة (١٢٤٢ هـ ــ ١٢٦١ هـ) من محفظة رقم ٣ محفوظات ديوان التجارة والمبيعات بتاريخ ١٢ الحجة سنة ١٢٥٨ هـ • من الجناب العالى الى بوغوص بك مدير التجـارة والمبيعـات • دار الوثائق القومية بالقلعـة •

وقد كان الباشا يولى هذا المحصول اهتماما شديدا لأنه كان يلعب دورا كبيرا فى التجارة الخارجية لمصر ، فكان ينتدب الكثير من المعاونين للاشراف على سرعة شحنه وإرساله الى جمرك أسوان ، كما كان يتم توزيع أولئك المعاونين على طول الطريق من مقر انتاجه حتى وصوله الى جمرك أسوان ، فيكون مقام الأول بكردفان والثانى بدنقلة والثالث بوادى حلفا والرابع بأسوان [١] .

وقد لاحظ محمد على تلاعب بعض القائمين على نقل الصمغ من جمرك أسوان الى القاهرة فقام بوضع حراسة من الجنود على كل مركب ، إلا أن رؤساء المراكب استطاعوا اكتساب هؤلاء الحراس الى جانبهم ، فابتكر محمد على طريقة جديدة تكشف هذا التلاعب ومؤداها انه كلما ورد صمغ الى جمرك أسوان يوزن وتؤخذ منه « عينة » وتوضع فى زجاجة وتختم من أمين الجمرك حتى إذا وصلت هذه العينة الى جمرك مصر توزن الإرساليات مرة أخرى وترسل رأسا مع تلك العينة الى الاسكندرية [٢] . هذا وقد كانت تشرف على عملية الحصول عليه ونقله مصلحة خاصة [٣] .

سن الفيل :

وبالاضافة الى احتكار الصمغ فقد تم احتكار سن الفيل أو ما كان يسمى بالعاج . وكان يرد الى مصر فى عهد محمد على من جهات سنار وكردفان ثم من دارفور وجنوب السودان فيما بعد .

---

(١) دفتر رقم ٢٠٩ — معاونة أقاليم — وثيقة رقم ٦٥٣ بتاريخ ٢١ جمادى الثانى سنة ١٢٥٩ هـ خطاب الى سليمان افندى أمين جمرك أسوان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٣٩٣ ، صادر ديوان المعية — ترجمة الارادة التركية رقم ١٠٠٧ بتاريخ غاية رمضان سنة ١٢٦١ هـ . ارادة الى عباس باشا .

(٣) الوقائع المصرية . العدد رقم ٣١١ بتاريخ ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٢٤٧ هـ .

ويشير أحد الباحثين اعتمادا على الرحـــالة بالم الذى زار كردفان الى أن محمد على كان يلجأ الى وسيلة غريبـــة فى الحصـــول على سن الفيل بحيث يترك باب التجارة فى هذه السلعة مفتوحا فلا يتعرض للقوافل أو التجار الذين يحملونه الى مصر حتى إذا وصلوا الى القاهرة — وقد تكبدوا المشـــاق — تقدم هو بشرائه بالسعر الذى يحدده والذى كان ضئيلا للغاية كما يقرر هذا الرحالة (١) • وهذا القول فيه شيء من المبالغة إذا نظرنا الى هذه المسألة من عدة جوانب : الجانب الأول — كما توضحه الوثائق بجلاء — أن محمد على كان يحتكر شراء السن فى أماكن إنتاجه ويدفع للتجار أسعارا لا بخس فيهـــا (٢) ، والجانب الثانى والذى يجب أن نسيـــه تماما ان بالم نفســـه كان واحـــدا من التجار المغامرين الذين جاءوا الى أفريقيا بحثا عن الثراء السريع ، فكان طبيعيا أن يردد ما كان يقوله بنو جلدته حول سياسة محمد على الاحتكارية ولا بأس عنده أن يرتدى مسوح القديسين المدافعين عن التجار وحرية التجارة • والجانب الثالث والأخير وهو الأهم فى رأينـــا ، انه إذا جاز لنا أن نصـــدق هذه العبـــارة عن قيام الباشا بشراء العاج بثمن بخس فما الذى كان يجبر هؤلاء التجار على نقله وتكبد المشاق كل عام عبر صحراوات الســـودان حتى يصلوا به الى مصر ؟ !

ويبدو أن شكاوى التجار الأوربيين قـــد استمرت فى عهـــد خلفاء محمد على ، ففى عام ١٨٥٠ على عهد عباس الأول قدم التجار الأوربيون فى الســـودان شكوى تبناها قناصل كل من سردينيا والنمسا وفرنسا ، ووكيل القنصل الانجليزى ، حيث ضيق لطيف باشا حكمدار الســـودان الخناق عليهم فيما يتعلق بالاتجـــار فى هـــذه السلعة على الطريقة التى يفضلونها هم لا التى تقوم بتنظيمها الحكومة عن طريق إجراء مزاد عام

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق ص ٣٤٥ نقلا عن الرحالة بالم : المرجع الســـابق ص ٢٨٦ •

(٢) دفتر رقم ٢٦١ معـــاونة ايرادات وثيقة رقـــم ٢ بتاريخ ٣ محـــرم سنة ١٢٥٨ هـ افادة الى محمود بك الايرادات • دار الوثائق القومية بالقلعة •

لهذه السلعة بحيث يمكن لهؤلاء التجار الأوربيين أن يشاركوا فيه كغيرهم ، إلا أنهم ــ كما يبدو من رسالة الحكمدار ــ كانوا لا يفضلون هذا الأسلوب (١) .

وفى عهد محمد سعيد باشا استغل هؤلاء التجار حرية التجارة فى هذه السلعة ولم يؤدوا الضريبة المقررة عليها للحكومة عقب بيعهم لها فى الخرطوم وترتب على ذلك أن تكدست عليهم أموال طائلة للحكومة (٢) . وتجدر الاشارة هنا الى أنه فى عهد الخديوى اسماعيل تم إحتكار سن الفيل فى جنوب السودان . ففى مايو عام ١٨٧١ أصدر صمويل بيكر أمرا بمنع تجارة العاج بين الأهالى واحتكار الحكومة له (٣) .

وفى عام ١٨٧٤ أصدر غوردون باشا قرارا باحتكار الحكومة لتجارة العاج فى البحيرات الاستوائية (٤) . وهكذا أصبح العاج فى المناطق الجنوبية على عهد اسماعيل من ممتلكات الحكومة وكان على الأهالى جميعهم دون استثناء توريده الى مستودعات الحكومة عقب صيد الفيلة ودون مقابل إذ كانوا يصطادونها إبتغاء الحصول على لحومها وشحومها أكثر مما كانوا يبغون أنيابها ، وقد كانوا من قبل يبادلون عليها بالخرز وبزجاجة من الخمر المغشوشة التى يحملها التجار (٥) . وقد كان يجرى

---

(١) محفظة ١٩ بحر برا ــ ملف ١٦ ــ وثيقة رقم ١٣٧ بتاريخ ٨ صفر ١٢٦٧ هـ . من وكيل الأمور الخارجية اصطفان رسمى الى الحضرة الخديوية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) امين سامى : تقويم النيل وعصر عباس الأول ومحمد سعيد ــ المجلد الأول من الجزء الثالث ص ١٣٦ .

(٣) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء ، الجزء الأول . ص ٣٨ .

(٤) دفتر رقم ١٨٧١ ــ عابدين ــ معية عربى ــ وثيقة رقم ٦ ص ٤١ بتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ١٢٩١ من المعية السنية الى حكمدار السودان . انظر ايضا : شكرى : الحكم المصرى فى السودان ص ٣١٠ .
انظر ايضا : Gessi, Seven years. p. 36.

(٥) عمر طوسون : المرجع السابق . جـ ٢ . ص ٣٧ .

بيع العاج المجلوب من هذه المناطق بالخرطوم ولكافة التجار (١) .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان التجار يقومون بتهريب العاج مع الرقيق على ظهور المراكب ، وإذا ما تم ضبطه على هذا النحو ، عقد له مزاد يتقدم له جميع التجار (٢) وقد كانت للعاج أنواع عدة ، ولكل نوع سعر محدد ، فمن أنواعه « العال » و « الظهر » و « البار » و « الكلنج » (٣) .

السنامكى :

كذلك فقد احتكرت الحكومة فى عهد محمد على تجارة السنامكى ، وقد إعتبرت دنقلة الجديدة بمثابة المستودع الرئيسى الذى يمد الحكومة بحاجتها من هذه السلعة التجارية نظرا لوفرتها فى هذه المنطقة (٤) . كذلك فقد توفرت فى جهات أخرى مثل كردفان إلا أن جمعها بغرض بيعها كان محدودا . ويبدو أن الاقبال على تجارة السنامكى فى مصر لم تكن بصورة مشجعة مما جعل المسئولين فيها ينصحون مدير دنقلة وبربر عدم إرسال هذه السلعة إلا حين يطلب منه ذلك (٥) .

---

(١) دفتر رقم ١٦ عابدين — صادر تلغرافات — صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ٣٩٦ ص ٦١ بتاريخ ليلة ١٥ شوال سنة ١٢٩٠ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٧٥ صورة المكاتبة رقم ٣٦ ص ١٠١ بتاريخ ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٢٩١ هـ . من حكمدارية السودان الى المعية السنية انظر أيضا : دفتر رقم ٢٧ عابدين — وارد تليغرافات صورة التليغراف العربى رقم ٦٦٠ ص ٩٧ بتاريخ ١٧ رمضان سنة ١٢٩١ هـ .

(٣) نفس الدفتر والوثيقة السابقة .

(٤) سجل رقم ٣٧٧ معية تركى — وثيقة رقم ١٢٦٩ بتاريخ ١٠ ربيع الأولى سنة ١٢٦٠ هـ . ارادة الى مدير دنقلة .

(٥) سجل رقم ٣٧٧ معية — وثيقة رقم ١٤٨٨ بتاريخ ١٧ جمادى الثانية سنة ١٢٦٠ هـ . ارادة الى مدير دنقلة . وايضا : دفتر رقم ٤٣٨ معية تركى — وثيقة رقم ٤٥١٦ بتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٦٤ هـ . الى مدير دنقلة وبربر . دار الوثائق القومية بالقلعة .

ريش النعـــام :

وهو أيضا من المنتجات التى إحتكرها محمد على ، ومع ذلك ، فقـد ظل يتداول بين الأهالى وخاصة فى غرب الســودان • فقد كانوا يقبلون على صيده وأكل لحمه بشراهة ويجدون له مذاقا لا يقــل عن اللحــم البقــرى • وفى أعقـــاب ضم منطقة خط الاســتواء تم إحتكار هــذه السلعة هناك حيث كان يتم تسليم الريش فى مستودعات الحكومة بعــد دفع نصف الثمن وحجز النصف الآخر لسداد الضريبة (١) •

الجـلود :

وأخيرا تم احتكار الجلود فى عهد محمد على ، فقد إحتلت القرب والأكياس التى تم صنعها من جلود الحيوانات مكانة هامة فى الســلع المستوردة من السودان ، خاصـــة إذا علمنا أن المــدن المصرية آنذاك وبخاصة القاهرة كانت فى حاجة ماســة لهذه القرب لنقل المياه من نهــر النيل الى السكان داخل المدينة • ويقدر ما كانت تحمله قافلة دارفور فى المرة الواحــدة بحوالى ٨٠٠٠ قربة ســواء أكانت مصنوعة من جلــود الثيران أو جلود الابل (٢) • ومما هو جدير بالملاحظة أن الجلود الخــام لم تكن تلقى مكانا أكبر بين صادرات الســودان الى مصر على الرغــم من وفرتها ويرجع ذلك الى جهل المواطنين بالســودان بوسائل حفظهــا سليمة ، وهو ما أدركته حكومة محمد على حيث أرسلت خبراء من مصر

---

(١) عمر طوسون : المرجع السابق . جـ ٢ ص ٣٨ ، وكانت أسعاره كالتالى :
— ١٨ ريالا ثمن رطل الريش الأبيض بضاعة عالية ويسمى (عوام) .
— ١١ ريالا ثمن رطل الريش الاســود بضاعة متوســطة ويســمى (الاســود) .
— ٣ ريالات ثمن رطل الريش الأشهب بضاعة عادية ويسمى (Rcbcda)
وكانت هذه الأثمان لا تدفع نقدا بل غلة (عمر طوسون : المرجــع السابق . ص ٣٨) .
(٢) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٥١ .

لإعداد الجلود ودبغها وتدريب السودانيين على ذلك وطلبت من الأهالى تسليم جلود الحيوانات التى يقومون بذبحها مقابل ثلاثة قروش للجلد الواحد من جلود الماشية وعشرين باره لجلد الضأن . وبهذا أصبحت السودان على رأس الأقطار التابعة لها التى تمدها بالجلود كما يتبين من الجدول التالى : (١) .

البلد	عدد الجلود
السودان	٩٥٫٠٠٠
الحجاز	٨٠٫٠٠٠
الشام	٢٠٫٠٠٠
كريت	٢٫٠٠٠

السلع والمنتجات غير المحتكرة :

(أ) **المواشى** : هناك نوع آخر من التجارة لم تكن الحكومة قد بسطت إحتكارها عليه اطلاقا ، وأهم تلك السلع التجارية المواشى التى إزداد الطلب عليها فى عهد محمد على . ويرجع ذلك الى تلك النهضة الزراعية التى كان الباشا يقوم بها فى مصر والتى كانت تلزمها تلك المواشى سواء فى أعمال الحرث أو ادارة السواقى (٢) .

ويذكر أحد الباحثين أن الباشا قد حصل على تلك المواشى من السودان بوسائل ثلاث ، أولها الغزوات التى أرسلت لصيد العبيد فى

(١) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٥١ .

(٢) دفتر رقم ٣٧٦ صادر ديوان المعية — وثيقة رقم ٢٧٤٩ بتاريخ ١٥ ربيع الآخر سنة ١٢٦٠ هـ ارادة الى احمد باشا المنكلى .

انظر أيضا : سجل رقم ٣٣٧ معية تركى — وثيقة رقم ١٢٩٣ بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى سنة ١٢٦٠ هـ . ارادة الى مدير دنقلة ومدير سنار ومدير تاكه ومدير الخرطوم . دار الوثائق القومية بالقلعة .

فازوغلى وجبال النوبا • وثانيها عن طريق الشراء من أصحابها وأخيرا حصل عليها على شكل ضرائب اذا ما عجز الأهالى عن دفعها نقدا (١) • وفى ظننا أن الوسيلة الثانية هى التى كان غالبا ما يتبعها الباشا ويحرص عليها أشد الحرص ، ولم يكن يجبر الأهالى على تقديم مواشيهم أو يهاجمهم فى ثروتهم التى تلعب دورا كبيرا فى تنمية الزراعة السودانية التى كان حريصا على إزدهارها • ولو كان فى نيته اللجوء الى غير وسيلة الشراء للجأ فورا الى ضع هذه التجارة تحت الاحتكار وقد كان فى امكانه ذلك •

ويبدو أن الباحث قد تأثر بما ذكره فى الوسيلة الأولى والثالثة ببعض الأوربيين من الرحالة * وغيرهم ممن كانوا يمارسون أعمال التجارة آنذاك وكانوا شديدى الحنق على نشاط الباشا التجارى • وليس معنى ذلك أنه لم تحدث بعض تجاوزات من المسئولين فى السودان ، ولكنها لم تكن بشكل رسمى أو دائم • بل كانت التعليمات اليهم صريحة كى يقوموا بشرائها (٢) •

وقد عنى الباشا بإرسال هذه الحيوانات من السودان الى مصر فعين لها رجالا مخصصين لها بل وناظرا يشرف عليهم ، كما أنشأ المحطات اللازمة على طول الطريق الذى تسلكه ما بين السودان ومصر وأمد هذه المحطات بكل ما يلزمها من أعلاف ومياه وغير ذلك •

وكان محمد على يتوعد الكسالى والمهملين ممن يقومون على ارسال

---

(١) حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ١٣٨ — ١٤٠ .
(*) اعتمد هذا الباحث فى هاتين النقطتين على ما ذكره كل من :

— Pallme; Travels in Kordofan. p. 37.

— Hill; Egypt in the Sudan. p. 55.

(٢) دفتر رقم ٣٦٩ معية تركى — وثيقة رقم ٣٤٧٨ بتاريخ ١٧ ذى القعدة سنة ١٢٥٩ هـ ارادة الى مدير الوجه القبلى ، أنظر أيضا سجل ٣٧٧ — معية تركى — وثيقة رقم ١٢١٦ بتاريخ ٣ جمادى الثانية سنة ١٢٦٠ هـ • ارادة الى مدير دنقلة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

المواشى بأقسى أنواع العقاب (١) فقد صدرت الأوامر لحاكم بربر أن يقوم بصرف العليق اللازم للأبقار الواردة من كردفان الى حاكم دنقلة لضمان وصولها سليمة ، كما طلب محمد على أن ترسل فى فصل الخريف لضمان وجود الأعلاف الكافية لها (٢) • وزيادة فى ضمان سلامتها وعدم هلاكها فى الطريق أمر بأن تسير لمدة ثلاث ساعات أو أربع على الأكثر فى اليوم الواحد ، وأن يتم ارسالها على دفعات متعددة كل دفعة منها تتكون من حوالى مائتين وخمسين رأسا فقط ، وتبعث كل واحدة منها قبل الأخرى بيومين حتى لا يتسبب إزدحامها فى حدوث أذى وتعب لها • وزيادة فى الحرص عليها ، أوصى بأن تكسى أظلاف المواشى التى تعرضت للأذى بكسوة خاصة من « الليف » (٣) •

ولم تكن تلك الرعاية تقتصر على مسافة الطريق عبر مديريات السودان وحسب ، بل كانت تمتد الى أماكن دخولها أرض مصر حيث كلف بعض المأمورين والمديرين فى الوجه القبلى بترتيب العلف الكافى لهذه المواشى وعزل الضعيف منها وتسليمه لشيخ المنطقة التى هى بها حتى تسترد نشاطها (٤) • وقد بلغت المسافة التى كانت تقطعها المواشى أربعا وتسعين محطة ، كانت المواشى تقطع خلالها أربعمائة واثنين وثمانين ساعة ، وكانت أول محطة بالسودان تسمى « الترعة »

---

(١) دفتر رقم ١٩٩ معاونة اقاليم — صورة ترجمة المكاتبة رقم ٤٥١ بتاريخ ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٥٨ هـ من شورى المعاونة الى عيسى أفندى .
أنظر ايضا : دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى — وثيقة رقم ٣٦٤ بتاريخ ٢٠ شوال سنة ١٢٦٠ ، ارادة الى متعهد الصوالح ، انظر ايضا : ٣٦٩ معية تركى • وثيقة رقم ٣٦٤ ١٧٨٣ بتاريخ ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٥٩ هـ . ارادة الى مدير الخرطوم ، أنظر ايضا : دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى — ترجمة الارادة التركية رقم ٩٠٤ بتاريخ ٢١ صفر سنة ١٢٦١ هـ • ارادة الى مدير الجيزة والوجه القبلى والأقاليم الوسطى . دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٢) حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ١٤١ — ١٤٢ .
(٣) دفتر رقم ٨٤ معية تركى — ترجمة الوثيقة رقم ٣٠٩ بتاريخ ١٤ صفر سنة ١١٥٣ هـ • وأيضا : حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق ص ١٤٢ .
(٤) دفتر رقم ٨٥ معية تركى — ترجمة الأمر رقم ١١٠ بتاريخ ٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٥٢ هـ .

وآخر محطة هى « غرب أســوان » (١) .

من ذلك كله يتبين لنا عظم الدور الذى كانت تلعبه هذه المواشى فى النشـــاط الاقتصادى بمصر وخاصة فى عهد محمد على ، ومقدار الجهود التى بذلت لوصول هذه الأداة الانتاجية . ويبدو أنه فى أواخـــر القرن التاسع عشر بدأ يقل ورود هذه المواشى كما تشـــير بذلك الوثائق بشكل واضح حيث لا نقرأ أية خطابات حول ارسالها لمصر ، بل نقرأ وثيقـــة تعلن صراحة انتهاء هذه المهمة (٢) . والتفســـير المقبـــول لانتهاء هــذه المهمة آنذاك هو اكتفاء مصر بما أرسل من هذه الحيوانات ، خاصـــة إذا علمنا أن الآلاف منها كان يصـــل سنويا منذ عام ١٨٢١ وبشكل منظـــم كما لاحظنا . بل ان هناك وثيقة تشير الى أن عـــدد المواشى السودانية التى تساق يوميا من « .. أصوان الى الجهات السفلى يتراوح عـــددها بين مائة وستين ومائتين رأس من المواشى ... » (٣) فلذلك نحن نميـــل الى هـــذا التفسير سالف الذكر .. وربما يذهب البعض فى تفســـير ذلك الى نضوب المعين أو العقبات التى كان يصادفها القائمون على ارســـالها الى مصر وغير ذلك . ولكن محمد على بما عرف عنه من همـــة وعزيمة لم تكن لتقف أمامه مثل هذه الأسباب . وليس معنى ذلك كله انقطـــاع ارسال هذه المواشى كلية ، فقد وصلت أعداد منها الى مصر خلال عهود خلفاء محمد على ولكن بشكل غير منظم وقليل جدا وليس كما كان الحال فى عهد محمد على .

ولم يقتصر ارسال الحيوانات على الأبقار فقط ، بل استوردت مصر

---

(١) محفظة ١٩ بحـــر برا — ملف رقـــم ١١ . دار الوثائق القـــومية بالقلعـــة .

(٢) دفتر رقم ٤١٢ — معية ســـنية — مكاتبة رقـــم ١٧٥٣ بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٢٦٣ هـ . من المعية الى مدير الجفالك . دار الوثائق القومية بالقلعـــة .

(٣) دفتر رقم ٣٩٢ — معية تركى — وثيقة رقم ١١٤٨ بتاريخ ١٩ ربيع الثانى سنة ١٢٦٢ هـ . خطـــاب الى مدير الوجه القبلى .

الجمال من السودان • فقد لعبت الابل دورا هاما فى حملة السـودان عام ١٨٢٠ حيث قامت بنقل المعدات والأمتعة ، كمـا استخدمت كدواب للركوب • واستمرت الابل تؤدى دورها سـواء فى نقل البضـائع عبر مفازات السـودان ، أو فى الدوريات الصحراوية على حدود البـلاد • بالاضافة الى أعمال الزراعة ، فقد كان محمد على يطلب امداده بعـدد منها للعمل فى « الجفالك » وخاصة فى نقل المحاصيل (١) • كذلك فقـد كانت مصر تشترى بعضا من أنواع الخيول السودانية وخاصة ما اشتهرت به بعض المناطق فى النوبة كدنقلة مثلا • ولكن هذا النوع من الحيوانات كان استعماله الرئيسى قاصرا على الجيش (٢) •

وبالاضافة الى ذلك كله فقد كانت مصر تستورد بعضا من الحيوانات البرية كالزراعة والخرتيت والفيل والغزال والطيور البرية (٣) • ويبدو

---

(١) دفتر رقم ١٨٨ — معـاوية أقاليم — مكاتبة رقم ١٣١٨٣ بتاريخ ١٤ جمـادى الأولى سـنة ١٢٥٧ هـ . من شورى المعـاونة الى حكمدار السودان .

أنظر أيضا : دفتر رقـم ٣٦٩ معية تركى — وثيقة ٤٣٨٨ بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٥٩ هـ. دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٢٦٢ صـادر ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ٣٩ بتاريخ ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢٦٧ هـ . الى البك المهردار . أنظر أيضا : دفتر رقم ٦٧ معية عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ٨ ص ٣١ بتاريخ ٢١ ذى القعدة سـنة ١٢٦٧ هـ . من المعية السنية الى ديوان الجهادية ، أيضا : دفتر رقم ١٣ صادر معية عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ٣١٢ ص ٨٦٢ بتاريخ ١١ شعبان سنة ١٢٦٧ هـ . من المعية الى الجهادية وأنظر كذلك محفظـة رقم ٧ معية تركى — وثيقة رقم ٢١٨ ص ١٩ بتاريخ ٢٤ ذى القعدة سـنة ١٢٧١ هـ — من حكمدار السودان الى كاتب ديوان الخديوى .

(٣) أنظر الوثائق الآتية : — دفتر رقم ٨ وارد تليفرافات عابدين — صورة التلغراف العربى رقم ٥٩ ص ٦٧ . بتاريخ ١٧ رجب سنة ١٢٨٥ هـ . من حكمدار السـودان الى مهر دار الخديوى ، نفس الدفتر . تليغـراف عربى رقم ٥٩٦ ص ٧٤ بتاريخ ليـلة شعبان سـنة ١٢٨٥ هـ . من محافظ السـويس الى سعادة رياض باشا ، ونفس الدفتر تليغراف رقـم ١٠١٠ ص ١٢٩ أ بتـاريخ ١٩ رمضـان ١٢٨٥ هـ . من مدير المنيـا الى سـعادة خيرى بك . ، دفتر رقم ٩ عابدين وارد تليغرافات — صورة التلغراف العربى رقم ٤٦٢ ص ٦٦ بتاريخ ليلة غرة محـرم ١٢٨٦ هـ . من مدير اسـنا الى سعادة رياض باشا . ، أيضـا : دفتر رقم ١١ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ١٥٠٨ من الخاصة الى سعادة زكى باشا بتاريخ ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٨٧ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

أن الاهتمام بارسال مثل هذه الحيوانات والطيور كان يلقى اهتماما فى عهود خلفاء محمد على أما محمد على فلم يكن يحفل بها ، بل كان همه الكبير يتجه نحو حيوانات الانتاج •

تجارة الرقيق :

كان الرقيق القادم من الأراضى السودانية واحدا من السلع الهامة التى وجدت طريقها الى مصر حيث استخدمت أعداد لا بأس بها فى زراعة « الجفالك » المنتشرة فى الوجه البحرى على وجه الخصوص (١) •

وبالرغم من تعدد مصادر الرقيق السودانى الى مصر ، فان الجهات الغربية للسودان كدارفور وكردفان كانت هى المصدر الرئيسى لهذه السلعة الآدمية • وكانت القافلة القادمة من دارفور حتى أسيوط تستغرق نحوا من أربعين الى خمسين يوما فى سفرها بالطريق البرى (٢) وأما قوافل سنار فكانت تصل الى بربر فى نحو ستة أيام ثم تأخذ طريق النيل حتى تبلغ دراو بأسوان فى أربعين يوما • ويمكن لهذه القافلة أن تجتاز الصحراء فى زمن أقل بادئة من بربر • وأما قوافل دنقلة فتسير عادة فى نهر النيل ، ويلاحظ على هذا الطريق الأخير قلة الأعداد التى كانت تحملها السفن (٣) •

ويقدر البعض أعداد الرقيق التى كانت تصل الى مصر سنويا

---

(١) دفتر رقم ٤١٩ معية تركى — وثيقة رقم ٥٨٨٩ بتاريخ ٣ جمادى الثانية عام ١٢٦٣ هـ . من حكمدار السودان الى المعية . انظر ايضا : دفتر رقم ٦٩ وارد معية ، صورة المكاتبة العربية رقم ٣ بتاريخ ١١ ربيع الثانى سنة ١٢٦٧ هـ . من قلم الجفالك بالمالية الى المعية السنية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) تقرير بورنج اعتمادا على تقرير هورلويد عن الدكتور محمد فؤاد شكرى : بناء دولة ص ٧٥٤ ، انظر ايضا دفتر رقم ٥٠ عابدين وارد تليغرافات صورة التلغراف العربى رقم ٣٤٨ بتاريخ ٢٠ اغسطس سنة ١٨٧٨ . من غور دون باشا الى سعادة خيرى باشا بالاسكندرية .

(٣) نفس التقرير السابق ص ٥٥٤ .

بين عشرة آلاف الى اثنى عشر ألفا حتى عهد محمد على (١) • وقد عدت أسيوط — آنذاك — أعظم سوق لتجارة الرقيق القادم الى مصر حيث وفدت اليها أعداد كبيرة من دارفور وسنار كما كانت هذه السوق تمد القاهرة وسوريا وتركيا مما تحتاجه من هذه السلعة (٢) •

وكانت هذه السلعة وهى فى طريقها الى مصر تلقى الكثير من المشاق • ففى واحد من التقارير التى بعثت بها القنصلية العامة للولايات المتحدة عام ١٨٧٨ بمصر نقرأ وصفا لاحدى قوافل الرقيق التى سلكت طريق الأربعين الى أسيوط ، من حيث الأخطار التى تتعرض له فى الطريق ، بالاضافة الى سوء المعاملة التى لقيها هؤلاء الرقيق • فقد بيع أحدهم — خلال الطريق — ثلاث مرات ، كما تعرض آخر للموت لحظة سقوطه من على الجمل وثالث ربط الى جزع شجرة لأنه طلب شربة ماء أثناء سير القافلة ، ورابع كان مصيره الرمى بالرصاص (٣) •

وربما يكون فى هذا الوصف شيء من المبالغة ، خاصة اذا علمنا أن التاجر الذى كان يجلب هذه السلعة كان يعنيه تماما أن يحافظ عليها سليمة حتى تصل الى السوق ، أما اذا تعرضت خلال الطريق للمرض أو الوفاة فهذا يعنى الخسران المبين للتاجر •

وتجدر الاشارة الى أن هذه التجارة لم تكن ذات فائدة كبيرة بالنسبة لمصر ، خاصة ابان عهد محمد على ، إذ كانت دائما عرضة للكساد سواء من ناحية الأمراض أو الموت عبر الطريق ، بدليل أن محمد على لم يحتكر هذه السلعة بل تركها حرة لسائر التجار (٤) •

---

(١) نفس التقرير • ص ٥٥٦ •
(٢) نفس التقرير • ص ٥٥٤ •
(٣) الأرشيف الأمريكى بدار الوثائق بالقلعة — محفظة رقم ١٤ ، رسالة من القنصل فارمان •

Desp. No. 235, Agency and consulate General of U. S. in Egypt. Cairo, June, 1878. Hon. W. M. Ekarts, Secy. of State, Washington.

Shukry; Khedive Ismail and the Slavery in the Sudan. p. 76. (٤)

وقد اكتظت أسواق القاهرة بالرقيق السودانى وهبطت أسعارهم فى ذلك الوقت ٠ فقد ورد بتقرير بورنج على لسان أحد تجار الرقيق بكردفان ان الرقيق الواحد كان يكلف التاجر حتى وصوله القاهرة حوالى ستة جنيهات استرلينية ، بينما يباع بعد هذه المشاق بأقل من هذا المبلغ (١) ٠ ومع ذلك كله ، ورغم كل اللوائح والقوانين والنداءات الأوربية فى وقف هذا التجارة ، فقد ظلت مستمرة بين مصر والسودان على المستوى الفردى بعيدا عن أعين الحكومة (٢) ٠

أما أهم السلع التى كانت تصدرها مصر الى السودان فكانت الأقمشة المختلفة وأهمها المعروف باسم القطنى و « الأجا » والأقمشة الكتانية من أسيوط ، واللباد الذى يوضع تحت سروج الخيل والقمصان التى تستخدم كدروع واقية والملح والأرز والسكر ٠ كذلك فقد دخلت السلع الأوربية الى السودان عن طريق مصر مثل الكهرمان والآلات القاطعة كالأمواس والسيوف وبعض الصناعات كأسلاك الحديد والنحاس وبعض أدوات الزينة والورق ، بالاضافة الى بعض السلع من بلاد الشام كالصابون والمصنوعات الحريرية (٣) ٠

وتشجيعا للتجارة بين مصر والسودان حقق محمد سعيد خطوات

---

(١) تقرير بورنج السابق ٠ ص ٥٦٢ ٠

(٢) دفتر رقم ٧٢١ قيد الأوامر واللوائح بديوان خديوى ، صورة المكاتبة رقم ١٠٦ ص ١٣ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ ، وايضا : دفتر رقم ١٠٥٤ ، صادر نظارة المالية الى الدواوين ، وثيقة رقم ٢٦٨ بتاريخ ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ ٠ الى جمرك اسوان ، وانظر ايضا : محافظ السودان ، مجلس الوزراء — رقيق — صورة ما تحرر من نظارة الداخلية الى حكمدار السودان فى ٨ ج سنة ١٢٩٧ هـ رقم ٣١ ٠ وانظر أيضا : نص معاهدة منع تجارة الرقيق المبرمة بين الحكومة المصرية والحكومة الانجليزية فى ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ م ، وكذلك لائحة تنفيذ قرار الغاء الرقيق فى السودان الموجودتين بكل من : محفظة اللوائح ، ومحفظة ١٦٢ عابدين ، محفظة رقم ٦ من الوثائق الافريقية بدار الوثائق القومية بالقلعة ، والوقائع المصرية العدد رقم ٧٣١ بتاريخ ٤ شوال سنة ١٢٩٤ هـ (١١ أكتوبر ١٨٧٧ م) ص ٣ ، ٤ ٠

(٣) نسيم مقار : المرجع السابق ص ٣٥٩ ٠

واسعة فى هذا المضمار حيث ألغى الضرائب الجمركية داخل السـودان تماما وخفض الرسـوم المتحصلة على المتاجر المصدرة من السـودان الى خارجه فأتاح ، بذلك ، حرية التجارة وسهولة حركتها بين البلدين مما حدا بقنصل النمسا فى مصر ويدعى هوبر Huber الى القول : « ... إن البضائع الواردة من النوبة ودنقلة والخرطوم وسنار وكردفان وفازوغلى أصبحت تعتبر بضائع مصرية فلا يدفع عنهـا رسـوما على الاطلاق ، ولا يفرض عليها أى شىء طالما كانت تستهلك فى داخل البـلاد » [١] . وبالاضافة الى ذلك فقد أمر محمد سعيد بجباية « رسـوم امرارية » طفيفة على البضـائع الآتية عن دائرة النفـوذ المصرى ـ اذا كانت فى طريقها الى خارج البلاد [٢] . كمـا أرسل محمد سعيد الى السـودان نسخة من قوانين مجلس التجـار الجارى العمل بهـا فى مصر للعمـل بمقتضاها أثناء الفصل فى الدعاوى التجـارية التى تنشأ بين التجـار وبعضهم أو بينهم وبين الحكومة [٣] ويبدو أنه قد جرت فى عام ١٨٦٢ محاولة لتأسيس بنك يقوم بتمويل العمليات التجارية فى السودان وتم تسجيله بالقاهرة إلا أنه فشل فى عام ١٨٧٣ نظرا لسوء الادارة [٤] .

وإبان زيارة محمد سعيد للسودان عمـل على الاتصـال بسلطان دارفور عن طريق الكتابة اليـه وابداء رغبته الأكيـدة فى « تواصـل التجارة ، سـواء مع مصر أو مع بقيـة المديريات السـودانية » [٥] .

---

(١) محفظة رقم ١ (موضوع التجارة) ١٢٤٢ ـ ١١٦٢ من محفظـة رقـم ٦ محفوظات ديوان التجـارة والمبيعات بتاريخ ٢٤ شـوال سـنة ١٢٥٧ هـ . من الجنـاب العـالى الى الباشـمعاون . دار الوثائق القومية بالقلعة وأنظر أيضـا : شكرى : الحـكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ ـ ١٨٨٥ . ص ٥٤ .

(٢) نفس المرجع . ص ٥٤ .

(٣) Hill; op. cit. pp. 97-98.

(٤) Ibid, p. 99.

(٥) محفظة رقم ١٠٢ ـ قسم الوثائق الافريقية ـ ملف بتاريخ سـنة ١٢٧٤ هـ صورة الوثيقة العربية رقم ١٣ ص ٥٧ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٧٤ هـ من دفتر رقم ١٨٨٩ دواوين . أمر كريم الى سلطان دارفور .

لذلك فقد كان سلطان دارفور حريصا على وجود مندوب تجارى دائم يقيم بأسيوط نقطة وصول قافلة دارفور عبر درب الأربعين (١) .

واستمرت تلك الجهود فى عهد اسماعيل للارتقاء بالتجارة بين مصر والسودان ، فعقب توليه راح يبعث خطابات الود الى سلطان دارفور لزيادة حجم التجارة بين البلدين (٢) كذلك فقد عمل اسماعيل على تأسيس شركة تجارية فى يونية ١٨٦٣ سميت « شركة السودان » وبلغ رأسمالها خمسين مليونا من الفرنكات ، وكانت تهدف الى تنمية موارد السودان وادخال التجارة المشروعة فى الأقاليم التى لم تكشف بعد . وقد أسهمت فى تأسيسها خمسة بيوت تجارية مصرية من الاسكندرية بمبلغ ثمانية وثلاثين مليونا من الفرنكات واكتتب بالباقى مصرف (الكريدى انترناسيونال) واتخذت الشركة إسما آخر هو (الشركة المصرية التجارية) . The Egyptian Commercial Trading Co.

ولقد فتحت أبوابها للممولين من لندن وباريس وفرانكفورت ، ومن شركة اوبنهايم وبيت « درفيو » بالاسكندرية . وأصبح لها برنامج واسع ، فقد كان اسماعيل يريد أن يصدر الى مصر سلعا تجارية كالحبوب والبن والسكر والأخشاب الى جانب السلع القديمة كالعاج وريش النعام (٣). ومن مظاهر اتساع الحركة التجارية بين مصر والسودان انشاء البيوت التجارية العديدة أمثال بيت السيد أحمد العقاد ،

---

(١) محفظة رقم ٣ مديريات قبلى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٧٥ بتاريخ ١١ رمضان سنة ١٢٧٥ هـ . من محمد سعيد والى مصر الى صاحب العزة مدير أسيوط .

(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل . مجلد ٢ جزء ٣ . ص ٥٥٩ .

(٣) شكرى : المرجع السابق . ص ١٥ ، شوقى الجمل : تاريخ سودان جـ ٢ . ص ١٣٠ .

و « أبو عموري » ، وفرج الله الموصلي ، وغطاس وغيرهم والتي وصل عددها في عصر اسماعيل الى نحــو ثلاثة آلاف بيت مقــابل ألف بيت للاوربيين (١) .

---

(١) عبد الله حسين : الســودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية . الجزء الأول ص ١٥٥ ، أنظر ايضا : الرافعي : عصر اسماعيل . الجزء الأول . ص ١٦٤ .

القسم الثـانى

التجـارة الخارجيـة

طرقهـا :

لم تقتصر التجارة السودانية على النطـاق المحلى فقط ، ولكنهـا تعدت هذا النطاق الى العالم الخارجى وخاصة مع الحبشة ، وبلاد العرب وما جاورها ، وشـمال أفريقيا •

وقد سلكت التجارة السودانية الى الخارج دروبا عدة قسمت الى ثلاثة أقسام على أساس المنفذ الذى يأخـذه كل اقليم لتصدير تجـارته عن طريقه الى العالم الخارجى •

فالاقليم الأول يضم النيلين الأبيض والأزرق وفروعهما ، والجـزء الشرقى من كردفان ويرتبط هذا الاقليم بمصر عن طريق وادى النيـل ، والبحر الأحمر بطريق بربر سواكن (١) •

وهذا الاقليم أو الطريق توجد به أغنى منطقة لانتاج الحبـوب فى السودان ، والتى تقع جنوبى سنار وترتبط بسواكن بطريق القوافل الذى يمر بالقضارف • وتعتبر الخرطوم المركز الرئيسى لهذا الاقليم • وأهـم متاجره العبيد والذرة والصمغ والعاج وريش النعام وجلود أفراس النهر وقرون الخرتيت والشمع والعسـل والملح والتمر هنـدى والسنامكى ، والمسـك والنيله (٢) •

---

(١) دفتر رقم ٥٥٨٢ معية تركى – ترجمة الوثيقة التركية (بدون نمره) ص ٢٦ بتاريخ ٢٨ جمادى الآخرة ١٢٨٢ هـ . ارادة سنية الى وكيل حكمدارية السودان . وانظر ايضا : محافظ أبحاث السودان – محفظة رقم ١٧ ، دفتر رقم ١٧ ، دفتر رقم ٢ ، وثيقة من جعفر مظهر باشا وكيـل السـودان الى مهـردار الحضرة الخديوية بتاريخ ٢٧ جمـادى الأولى سـنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) أحمد أحمد سيد : تاريخ مدينة الخرطوم • ص ١٢٢ ، وانظر ايضا : الشاطر بصيلى : تاريخ المواصلات . ص ٨ ، وأيضا مكى شبيكه : السودان فى قرن • ص ١٣٥ .

والاقليم الثانى يضم دارفور وغربى كردفان • وهذا الطريق يتصل بمصر بطريق درب الأربعين الذى يعد أيضا طريقا لخروج متاجر واداى وباجرمى وبرنو وغيرها من الجهات الواقعة غرب دارفور الى العالم الخارجى • ومن أهم ما حملته القوافل عبر هذا الطريق العبيد والصمغ وريش النعام والعاج والأبنوس والجلود • وتقدر هذه المتاجر بمائة ألف قنطار سنويا ، إلا أن حجم هذه التجارة قد هبط فى أواخر الحكم المصرى حين سد طريق الأربعين فى وجه تجارة الرقيق الى مصر • ويشير البعض الى تحول الكثير من تجارة واداى وباجرمى عن هذا الطريق الى طريق آخر يمتد من بحيرة تشاد الى مرزوق عاصمة فزان ثم طرابلس ، وذلك من جراء الهلع الذى أصاب سلاطين تلك الجهات من امتداد الحكم المصرى اليهم عقب ضم دارفور الى السودان عام ١٨٧٤ (١) • وقد يكون هذا التفسير صحيحا الى حد بعيد ، ولكننا نود أن نؤكد من ناحية أخرى ، ان محمد على وخلفاءه كانوا حريصين على الاتصال التجارى بتلك الجهات القريبة للسودان ، من خلال الرسائل التى كانوا يبعثون بها الى أولئك السلاطين مؤكدين من خلالها على احترامهم لحرية التجارة وانتقالها بين الطرفين • فازورار التجارة هنا عن درب الأربعين ليس مبعثه محمد على أو خلفاؤه بقدر ما كان نتيجة لحركة مناهضة تجارة الرقيق وضغط انجلترا الشديد لتنفيذ بنودها •

أما الاقليم الثالث فكان يضم الحبشة والمناطق المحيطة بها • ويرتبط هذا الاقليم بالبحر الأحمر عن طريق ميناء مصوع • وكانت تجارة الرقيق والبن والشمع والعسل من السلع والمنتجات التى سارت عبر هذا الطريق • وإذا حاولنا أن نعقد مقارنة بين حجم التجارة التى تمر عبر كل طريق من هذه الطرق الثلاثة لتبين لنا أن الطريق الأول كان يفوقها جميعا من حيث عدد القوافل والرجال الذين يعملون فى تلك المتاجر •

---

(١) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق . ص ١٢٣ .

التجـارة مع الحبشـة :

من الطبيعى أن ينشـأ نوع من التبادل التجـارى بين السـودان والحبشة بسبب الجوار وتداخل الحدود والسكان ٠ وكان اقليم سـنار ، الواقع على النيل الأزرق الذى ينبع من الحبشة ، من أكثر أقاليم السودان ارتباطا بالحبشة حيث يعد المنفذ الرئيسى لتجارة هذه الدولة الافريقية مع جهات السـودان الأخرى مثل دارفور وكردفان بل ومصر أيضـا ٠ ولقد أكد الرحـالة الذين زاروا هذه البـلاد على استمرار مثل هـذه العلاقات التجارية بين السودان والحبشة ٠ فالرحالة فالنتيـا Valintia الذى زار الحبشة فى أوائل القـرن التاسع عشر يؤكد استمرار حـركة القوافل التجارية بين الحبشة ودارفور (١) ٠ وكذلك الرحالة بوركهـارت الذى أشار الى أن طريق القوافل بين سنار وجوندار بالحبشة — ابان رحلته بين عامى ١٨١٣ — ١٨١٤ — كان يؤمه الكثير من تجـار سـنار وتجار الحبشـة الذين أسـماهم « بالجبرت » ٠ وكان هؤلاء التجـار يعملون بتجـارة الرقيق والذهب ويلتقون فى مكان على منتصف الطريق بين البلدين على مسيرة أربعة أيام تقريبا من سنار ويسمى « رأس الفيل » حيث يتم تبادل السلع بين تجار سنار وتجار الحبشة (٢) ٠ كذلك فقـد كانت مدينة « شلقا » Chlga على الحدود المشـتركة بين سـنار وجونـدار من أهم المراكز التجارية التى التقى فيها تجار البلدين لبيع الرقيق والذهب والماشـية وغـيرها ٠ وكان تجار سـنار يصدرون الى الأحباش الملح الذى يحصلون عليه من شندى بالاضافة الى الأقمشـة القطنية « الدمـور » (٣) ٠

وفى عهد محمد على وعقب ضم السودان الى مصر تأثرت التجارة

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق ، ص ٢٦٣ ٠
(٢) بوركهارت : المصدر السابق ، ص ٢٤٠ ٠
(٣) نسيم مقار : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ ٠

بين الحبشة والسودان بالظروف والنظم الجديدة التى وضعها الباشا وخاصة نظام الاحتكار التجارى ، بالاضافة الى العلاقات السياسية بين « رؤوس الأحباش » وبين محمد على والتى اتسمت بالحذر والترقب حيث يذكر بورنج فى تقريره أن نزاعا شديدا كان قد نشأ بين الطرفين بسبب امتلاك محمد على لمنافذ الحبشة (١) • فمن المعروف أن السلطان العثمانى كان قد منح لابراهيم باشا ايالة جدة وملحقاتها التى هى سواكن ومصوع منفذ الحبشة الرئيسى الى البحر الأحمر ، والجزء الممتد على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر بما فيه الأراضى الحبشية التى تطل عليه وذلك فى يولية عام ١٨٢٠ مكافأة له على انتصاره على الوهابيين فى الجزيرة العربية ، ومعروف أيضا ان انجلترا قد وقفت بالمرصاد لمحمد على فى نزاعه مع الحبشة ، وهددت بأن دول أوربا لن تسمح بأى اعتداء على الحبشة البلد المسيحى • وفى ظننا أن وقوف انجلترا فى جانب الحبشة لم يكن إلا مسألة ظاهرية وتكأة لحماية مصالحها الحيوية فى البحر الأحمر التى بدأ محمد على يهددها ، ومنها أيضا ما يتصل بالحبشة نفسها التى بدأت انجلترا تسعى لاقامة علاقات تجارية معها بارسالها فالنتيا فى أوائل القرن التاسع عشر لأجل هذا الغرض •

كذلك فقد استطاع محمد على فى عام ١٨٤٦ أن يضم ميناء مصوع ــ منفذ الحبشة ــ الى ادارته فى السودان ، ومن قبل كان قد ضم « القلابات » و « عطيش » عام ١٨٣٧ أيام خورشيد باشا حكمدار السودان ، وهى مناطق تقع على حدود الحبشة ، الأمر الذى جر الطرفين الى سلسلة من المنازعات فيما بينهما حيث لم يسلم الأحباش بضم هذه المناطق للسودان • وبناء على ذلك فقد رددوا بأن لهم الحق فى جمع الضرائب من أهلها ، إلا أن الادارة المصرية عارضت ذلك تماما • ونضيف

---

(١) تقرير بورنج السابق . ص ٥٨٩ ، وانظر أيضا :

F. O. 78-589. Aden, 18th. March, 1844. Copts Bttains Pol. Agent at Aden to J. P. Willough by Chief Secretary to Gov. t Bomby.

الى هــذا العــوامل التى أدت الى توتر العــلاقات بين الطــرفين زمن محمد على ، ما حدث عقب مقتل اسماعيل كامل نجل محمد على وما تلاه من فرار « الملك » نمر وجماعة من أنصاره الجعليين الى حدود الحبشــة وأصبحوا بذلك حجر عثره أمام طريق التجــارة الرئيسى من الســودان والحبشة والذى يمر عبر القلابات (طريق جوندار ــ سنار) • وهــكذا كانت تلك العقبات ذات تأثير سىء فى العلاقات التجارية بين البلدين •

ومع ذلك كله فقد حاول أحــد التجــار الفرنسيين « فــزير » Vizire ــ بعد موافقة محمد على ــ أن يجلب عدة مقادير من البن الحبشى عن طريق السودان قدرت بحــوالى ٢٠٫٠٠٠ رطل ســنويا ، وجنى من ورائها أرباحا طائلة ، الأمر الذى جعل محمد على لا يجــدد موافقته له فى هذه التجارة وفضــل أن يحتكرها لنفسه ، ولكن النتيجة كانت نقصا بينا فى واردات هــذه السلعة وارتفاعا باهظــا فى أسعارها بالسودان • وربما أراد الأحباش ألا يفيد محمد على من تجارتهم بسبب العداوة بينهمــا (١) •

ويبدو أن الطرفين رغبــا فى ازالة ما حــدث بينهما حتى تستأنف التجارة بين البلدين ، فتوسط شيوخ السودان فى هذا الأمر ، وتبودلت المكاتبات والهــدايا (٢) • ويمــكن اعتبــار زيارة محمد على للســودان (١٨٣٨ / ١٨٣٩) محاولة لعودة العــلاقات التجارية بين الســودان والحبشة • فقد أسفرت هذه الجهود عن فتح سوق عام فى اقليم القلابات

---

(١) Deherain, H; Le Soudan Egyptien Sous Mehemet Ali pp. 177-78.

(٢) انظر الوثائق الآتية : محفظة رقم ٢٦٨ عابدين ــ ملف السودان ــ وثيقة رقم ١٩ أصلية نمرة ٦١ حمراء بتاريخ ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ هـ . من أحمد باشــا حكمدار السودان الى الباشمعاون الخديوى بتاريخ ٢٣ ربيع الآخــر ســنة ١٢٥٥ هـ . ، محفظة رقم ١٢٣ عابدين ــ ملف متفرقات ــ دوسيه بدون تاريخ ــ السودان سنة ١٢٥٤ ــ رحلة ســاكن الجنــاب ، وأيضا محفظة رقم ١٩ بحر برا صــورة الوثيقة رقم ٤٣ بتاريخ جمادى الأولى سنة ١٢٦٠ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

للاشراف على حركة التجارة وأصبح يقيم فيه وكيل مشـــترك لكل من الحكومة المصرية والزعيم الحبشى الذى كان يحكم مقاطعة (مكادى) المتاخمة لاقليم القلابات • وانحصرت مهمة هذا الوكيل فى تحصيل الرسوم والعوائد الجمركية فى هذه المنطقة ، والتى رغب الطـرفان فى أن تكون رسوما رمزية تشجيعا للتبادل التجـارى بين الطرفين ، شريطة أن يتم تقسيم الايراد الناتج عن هذه الرسوم مناصفة بين الطرفين (١) •

وقد اشتهر سوق القلابات منذ ذلك الوقت وأصبح له شأن كبير فى تاريخ العلاقات التجارية بين السودان والحبشة (٢) •

وطبقا لهذه السياسة الجديدة بدأت الحركة التجـارية تنمو بـين البلدين فتم فتح طريق للتجارة بين فيزوغلى والحبشة فى عهد الحكمدار أحمد باشا ، وبدأت القوافل تسـير فيه (٣) •

وفى عهد محمد سعيد باشا جرت محاولات من لدنه لدفع العــلاقات التجارية بينهما الى الأمام ، فأرســل أثناء زيارته للســودان برسالة الى ملك الحبشة يعبر له فيهـا عن المودة وحسن الجـوار و « ••• صــلة المصـالح التجـارية التى هى أقـوى صـلة بـين أعضـاء العـائلة البشرية •• » (٤) •

وفى مستهل عهد الخديوى اسماعيل استمرت محاولات مد الجسور وتدعيمها بين البلدين خاصة فى المجال التجارى ، ولكن يبدو أن حـدوث

---

(١) محفظة رقم ٢٦٥ عابدين — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥ مسلسل ٣١ أصلى بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٢٥٤ هـ • وأيضا : دفتر رقم ١٨٩ معاونة أقاليم — مكاتبة رقم ٧٥١ بتاريخ ٢١ شـوال سنة ١٢٥٧ هـ • من الجناب العالى الى حكمدار السودان •

(٢) نعوم شقير : المرجع السابق • ج ٣ • ص ٢١ •

(٣) محفظة رقم ٢٦٨ عابدين — ملف السودان • الوثيقة السابقة •

(٤) دفتر رقم ١٨٨٦ — أوامر عربى — صورة الوثيقة العربية رقم ١٣ ص ١٠ بتاريخ ٩ جمـادى الأولى سـنة ١٢٧٣ هـ • أمر كريم الى سـلطان الحبشـة •

بعض المنازعات بين الطرفين قد عكر صفو العلاقات • ففى عهد الحكمدار موسى حمدى (١٨٦٣ / ١٨٦٥) اعتدى الأحباش على حدود السودان واستطاعوا أن يستميلوا بعضا من العربان اليهم ولكن هذا الحكمدار استطاع أن يعيدهم الى سيرتهم الأولى ، وزيادة على ذلك قام بتحصين القلابات وفرض جزية سنوية عليها بلغت ٢٤٠٠٠ ريال • ولما كان بعض مشايخ الحدود يدفعون الجزية لملك الحبشة من قبل ، منعهم من ذلك وأصبحوا يدفعونها لحكومة السودان • ومع ذلك كله استمرت التجارة تفد من الجانبين الى سوق القلابات • فمن الحبشة كان يرد الرقيق وبعض الحيوانات كالبغال بالاضافة الى البن والذهب (١) •

وفى المقابل كانت الحبشة تتلقى الأنسجة والأردية والسروج والخيل الدنقلاوية • ولكن ينبغى أن نشير هنا الى أن شيخ عربان رفاعة الشرق فى تلك المنطقة قد فرض جزية على واردات السودان فى سوق « وهناى » (٢) •

وفى أغسطس عام ١٨٧٥ حاول ملك الحبشة منع دخول البضائع الحبشية الآتية من « عدوة » الى مصوع فثار التجار غضبا ، وأمام ذلك وافق الملك على فرض رسوم مضاعفة على البضائع المتجهة الى مصوع ، فمنهم من قبل ومنهم من رفض •ونتيجة لهذا كله طلب محافظ مصوع من المسئولين بمصر سرعة التدخل لرفع الضرر الذى أصاب التجار بسبب تصرفات ملك الحبشة ، واقترح هؤلاء التجار على الحكومة المصرية ارسال قوة عسكرية لعلاج هذا الموقف (٣) •

---

(١) الأرشيف الفرنسى بدار الوثائق القومية بالقلعة — محفظة رقم ٥٩ :
Annex No. I. à la lettre de M. Outrey, du 19 November; 1865. M. Munzinger Grant du Vice - Consulate de France à Mussaoue à M. Outerey, Agent et consul general de France a Alexandrie. p. 1169.

(٢) نعوم شقير : المرجع السابق • ج ٣ ص ٣٣ ، ٣٤ •

(٣) دفتر رقم ٣٣ عابدين — وارد تلغرافات — صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ٩٧ ص ١٦ بتاريخ ٩ شعبان ١٢٩٢ هـ • من محافظ مصوع الى سعادة خيرى بك •

وقد جرت فى أواخر شهر مارس عـام ١٨٧٧ محـاولة من جانب اسماعيل لعقد اتفاقية مع ملك الحبشة (١) • وقد ركزت هذه الاتفـاقية على موضوع التجارة وضرورة تسهيل مرورها بين السودان والحبشة • وقد انتهز الخديوى فرصة طلب ملك الحبشة لبعض القوات المصرية ــ التى لم تفصح الوثيقـة عن الغرض من ارسالها ــ فعرض بعض الشروط لاستمرار العلاقات الطيبة بين البلدين (السودان ــ الحبشة) ومن أهم شروط هذه الاتفاقية : أولا : منع التجارة فى الرقيق • ثانيا : اطـلاق حرية المعاملات التجارية وعدم وضع قيود تحد من حرية حركتها ، واقترح فى هذا البند عدم تحصيل أية جمـارك أو ضرائب على البضـائع التى تصدر الى الحبشة من لدن السودان ، فى مقابل عدم أخذ أية مبالغ عن نفقات الجنـود المرسـلة للحبشـة • ثالثا : زيادة حجم التبـادل بين الطرفين والترخيص لكل من يرغب من التجار المصريين أو السـودانيين بالتوطن فى الحبشة والقيام بالتجارة والسياحة والمحافظة على أرواحهم ، مع ضرورة بذل الجهود للمحافظة على سـلامة التجـارة فى الطريق بين البـلدين (٢) •

وهناك بنود أخرى لا تتعلق بأمور التجارة تناولها مشروع هـذه الاتفاقية • ويبدو من سلسلة الأحداث العسكرية المعروفة التى جرت فى عهد اسماعيل بين الحبشة ومصر ان هذه الاتفاقية لم توضع موضع التنفيذ •

---

(١) دفتر رقم ٤٦ عابدين ــ وارد تلغرافات ــ صورة التلغراف العربى الشـفرة رقـم ٣٤ ص ٨٠ بتاريخ ١٦ ربيع الأول سـنة ١٢٩٤ هـ . (٣١ مارس ١٨٧٧) ارادة سنية الى غوردون باشـا حكمدار عمـوم الأقاليم السودانية بسنهيت . دار الوثائق بالقلعة .

(٢) محفظة رقم ١٠٩ ــ قسم الوثائق الافريقية ــ الفترة التاريخيـة (١٢٨٦ ــ ١٣٠١) (١٨٦٩ ــ ١٢٨٤) حـوادث بلاد الحبشة ــ رسالة الخديوى اسماعيل الى الأحباش . وللاسف الشديد فانه لم يرد تاريخ محـدد لهذه الوثيقة ، ولـكن بمقارنتها بالوثيقة السـابقة رجحنا ان تكون فى عـام ١٨٧٧ .

التجارة مع بلاد شبه الجزيرة العربية ومناطق جنوب غرب آسيا :
أهمية ميناءى سواكن ومصوع فى التجارة الخارجية :

لعبت سواكن باعتبارها منفذا تجاريا هاما على الساحل الغربى للبحر الأحمر دورا رئيسيا فى تجارة السودان الخارجية مع بلاد شبه الجزيرة العربية والبلدان المجاورة لها بل والبعيدة عنها مثل الهند والصين .

فمن المعلوم انه منذ القرن السادس عشر قد خضعت سواكن للنفوذ العثمانى حين استولى سنان باشا على هذا الميناء بالاضافة الى مصوع . وقد استمرت هذه السيادة على سواكن وان تذبذبت بين القوة والضعف (١) فقد كان هذا الميناء مع مصوع تابعين لايالة جدة ، وكان يطلق على هذه الجهات (ولاية الحبش العثمانية) ربما لانها كانت تشرف على بلاد الحبشة باعتبارها منافذ رئيسية لها على البحر الأحمر كما سبق القول . وعقب تدخل مصر عام ١٨١١ فى الجزيرة العربية الحقت ولاية الحبش بالادارة المصرية . وبعد تسوية ١٨٤٠ / ١٨٤١ بين مصر والدولة العثمانية عادت الى ما كانت عليه سابقا . وفى عام ١٨٤٦ احيلت ادارة جمركى سواكن ومصوع الى مصر مرة أخرى فألحقت إدارتهما بمديرية التاكا . إلا أنه فى عام ١٨٤٨ عاد الميناءان مرة أخرى الى جدة (٢) . وقد طلب الخديو اسماعيل إعادة ضمهما للادارة المصرية فقدم مبررات قوية لذلك الى كل من الدول الأوربية والدولة العثمانية . فبالنسبة للدول الاوربية راح يذكرها إنها إذا ما أرادت القضاء على تجارة الرقيق فان الحل الوحيد هو وضع هذين الثغرين تحت ادارة يمكنها معالجة هذه المسألة بحزم وشدة ، أما تبعية هذه المناطق (لجده)

---

(١) بوركهارت : المصدر السابق . ص ٣٤٢ وما بعدها .
(٢) شوقى الجمل : تاريخ سودان . جـ ٢ ص ١٩٦ .
انظر ايضا :
Douin; Histoire du Regne de Khedive Ismail, Tome 3, Iire partie. p. 234.

وهى بعيدة عنها فلا يحقق الاشراف عليهـــا • أما المبررات التى ســـاقها للدولة العثمانية فكانت تشير الى مطامع ومشروعات الدول الأوربيـــة فى تلك السواحل التى كانت تبدو جلية فى محاولات القناصل ونوابهم الاتفاق مع المشـــايخ المحليين ووضعهم تحت نفوذهم ، ولتفادى مثل هذه الأمور ينبغى ضم هذين الثغرين للادارة المصرية وتصبح مصر بالتالى أقدر على توطيد الأمن فى هذه الجهات ، بالاضافة الى أن الدولة العثمانية لن تخسر شيئا ، فمصر مستعدة لأن تدفع للخزانة العامة ما كانت تجبيه من جمارك سواكن ومصوع [١] • وبالفعل اعيدا للادارة المصرية فى مايو ١٨٦٥ [٢] • وفى مايو ١٨٦٦ جعلت الاحالة وراثية وغير مقصـــورة على وال بعينه ، طبقا لفرمان تغيير الوراثة الصادر فى ٢٧ مايو ١٨٦٦ [٣] •

وعقب تسلم الادارة المصرية لسواكن ومصوع عين (مختار بك) محافظا لسواكن و (حسن بك رفعت) محافظا لمصوع • وفى عام ١٨٧١ تم فصل الأقاليم المطلة على البحر الأحمر — ومنها سواكن ومصوع — وتكوين محافظة مستقلة تعرف باسم (محافظة سواحل البحر الأحمـــر) وعين لادارتها ممتاز باشا بلقب (مدير عام شرق السودان ومحافظ سواحل البحـــر الأحمر) [٤] •

ومما لا شك فيه ان الحاق هذين الثغرين بادارة مصر كانت له آثار اقتصادية هامة ، كمـــا أوضح أحـــد المسئولين بالســـودان ، من حيث « ••• تقدم التجارة والمصالح الأميرية وعمار البـــلاد •• » بالاضـــافة

---

(١) شوقى الجمل : المرجع السابق . ص ١٩٦ ، ١٩٧ .
(٢) أنظر مجموعة الفرمانات الشاهانية . فرمان ١٩٣ . دار الوثائق بالقلعة ؛ أنظر أيضـــا : محفظة ١٤٢ عابدين — سودان — ترجمة المكاتبة التركية رقـــم ٦ بتاريخ ١٧ ذى القعدة ســـنة ١٢٨١ من القبو كتخـــدا الى الحضرة الخديوية . دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٣) مجموعة الفرمانات الشاهانية . فرمان رقم ٩٢٥ فى ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ هـ . أنظر : شوقى الجمل : المرجع السابق ص ١٩٧ .
(٤) نفس المرجع . ص ١٩٩ .

الى « ... فتح واستكشاف الطرق والمعـابر المتصلة بسـواكن من كل الجهات والحصول على التعهدات القوية واللوازم اللازمة لنقـل التجارة وسير القوافل ... والتجارة العمومية بالأمن التام مرة كل خمسة عشر يوما من حدود الحبشة الى تاكة ، ومنهـا الى سـواكن ومن الخرطوم والبحر (النيل) الأبيض وكردفان الى بربر ومنها الى سواكن .. » (١) .

ويبدو أن تركيز المسئولين فى السودان كان ينصب بصـفة رئيسية على ميناء سواكن أكثر من مصوع ، لأن الأخيرة لم تكن لها نفس أهمية سواكن ، فأكثر ايرادات مصـوع كانت تنحصر فى الجمرك الذى يتقاضى عن الرقيق ، ثم تقلص هـذا الايراد عقب الاتفاقيات التى وضعت بين الدول ، بالاضافة الى أن نفقاتها كانت أكثر من ايراداتها ، وأخيرا فانها كانت مسرح نزاع دائم لمتاخمتها حدود الحبشة (٢) . أما سواكن فقـد كانت فى موقع متوسط بين جهات مصر والسـودان الممتدة على سـاحل البحر الأحمر ، كما أنه يمكن عن طريقهـا نقـل كل واردات وصادرات السـودان (٣) .

التجـار الحـدارية : (*)

أما معظم نشاط سواكن التجارى فقـد كان بأيدى الحداربة الذين كانوا حلقات وصل بين أسـواق السـودان المحلية مثل بربر وشـندى وسنار والتاكة والأبيض وبين موانىء بلاد العرب على البحـر الأحمر

---

(١) محافظ ابحاث السودان : محفظة رقم ١٨ ، دفتر رقم ٤ ، ورقـة رقم ١٤٥ من جعفر باشا مظهر الى الأعتـاب الخديوية الكريمة بتاريخ ٢٣ ذى الحجة سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) محافظ ابحاث السودان : نفس الوثيقة .

(٣) دفاتر محافظة سواكن — دفتر (عربى) صادر ٤٢/٥/٢/٤ مكاتبة رقم ٥ بتاريخ ١٩ ل سـنة ١٢٨٨ هـ (ديسمبر ١٢٧١ هـ) .

انظر أيضا : صلاح الشامى : الموانىء السودانية ص ١٤٠ .

(*) أو الحضـارمة نسـبة لحضرموت موطنهم الأصلى فى جنـوب بلاد العـرب .

بوجه خاص ، إذ كانوا يحصلون من أســواق هــذه المناطق على السلع والمنتجات التى اشتهرت بها ويقومون بتصديرها الى الحجاز واليمن • وكان لهم فى جدة حى خاص بهم ، بالاضافة الى وكلاء تجاريين منتشرين فى أكثر مدن الحجــاز ، كما كانت لهم الســفن التجارية التى تقــوم بنقل التجارة بين سواكن وجدة ومخا والحديدة •

ومن أهم السلع التى صدرها الســودان عن طريق سواكن الرقيق ، فقد كان هذا الميـنــاء أحد الأسواق الرئيسية لتصديره حيث كان يأتيها من سنار وشندى وغرب السودان والحبشة • وقد تضاءلت هذه التجارة بمرور الأيام خاصــة عقب أحكام منافذ خروجها فى عهد اسماعيل وبالذات منفذ البحر الأحمر • كذلك فقد صدرت السودان الى بلاد العــرب الذرة التى كانت تأتيها من اقليم التاكة الذى اشتهر بوفرة انتاجه منهــا مع جودة نوعها • كما اشتد الطلب فى الحجاز واليمن على الحصر السودانية وذلك لجودة نوعها ، فكان البدو يقبلون عليها ، كما كان أهل الحضر فى المدن يقبلون عليها أيضا وخاصة فى مكة والمدينة حيث كانت المساجد تفرش بالحصر •

كذلك فقد استوردت بلاد الحجاز من السودان القــرب والأكياس الجلدية التى غدت من منتجــات السودان الرئيسية وكانت تستخدم فى حفظ ونقــل الماء والزاد • كمــا تم تصدير الزبدة الى بلاد الحجــاز حيث كانت مكة والمدينة تعتمد ، فى حاجتها الى هذه المادة الغذائية ، وخاصة فى موسم الحج ، على ما كان يــرد من الســودان عن طريق ســواكن ومصــوع (١) •

ولقد لقى الذهب السنارى — وخاصة زمن محمد على — طريقه الى بلاد العر بحتى ان البعض يقدر متوسط ما كان يدخل بلاد اليمن منــه

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٨٢ .

بين عشرة آلاف واثنتى عشرة أقة سنويا ، وكان هذا الذهب ينقل — غالبا — عن طريق ميناء مصوع الى اليمن (١) • وقد يكون فى هذا الرقم مبالغة إذا علمنا أن محمد على — بجهوده الكبيرة التى سبق الحديث عنها — لم يستطع الوصول الى نتائج مرضية بالنسبة للذهب •

وفى عهد الخديوى اسماعيل نلاحظ تصدير الصوف والصمغ العربى والجلود بأنواعها والتمر هندى والسنامكى والسيوف الى بلاد الجزيرة العربية وما جاورها عن طريق ميناء مصوع (٢) •

أما السلع التى كانت ترد الى السودان عن طريق البحر الأحمر فكانت الأقمشة على اختلاف أنواعها والبن والخرز الزجاجى المعروف باسم ريش Reich والمصنوعات المعدنية البسيطة مثل الأجراس والمسابح والصابون والسكر وخشب الصندل والتوابل • ولم تكن جميع هذه السلع تأتى مباشرة من بلاد العرب ، بل كان بعضها يأتى من بلاد الهند والبعض الآخر من أوربا عن طريق موانىء البحر الأحمر الشرقية والخليج العربى الواقعة على طريق التجارة بين الشرق والغرب وتربطها بسواكن علاقات تجارية أهمها جدة والحديدة ومخا ومسقط والبصرة (٣) •

وتجدر الاشارة هنا الى الأطماع الانجليزية التى بدأت فى منطقة البحر الأحمر خاصة بعد انفتاح المجال أمامها للسيطرة على الهند • ومن هذه الأطماع سيطرتها على عدن لتصبح قاعدة لنشاطها التجارى والسياسى فى المنطقة • حيث قامت بتحصينها عسكريا وجعلها محطة للسفن ومستودعا للتجارة مع بلاد العرب والساحل الافريقى المقابل •

---

(١) Hamnt; L' Egypte Sous Mehemet Ali, Tome. II, p. 588.

انظر ايضا : نسيم مقار : المرجع السابق ص ٣٨٣ •

(٢) محفظة رقم ٥٣ معية — مرفق (د) — محافظ ابحاث السودان — محفظة رقم ٣٦ دفتر رقم ٢ (بيان بالأصناف الصادرة من كمرك مصوع الى كمرك السويس باسم الخواجة كرستو فرانساوى من ابتدى ١٠ رجب سنة ١٢٨٩ هـ — ربيع الأول سنة ١١٩٣ هـ) دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٣٨٤ •

كما حاولت الاحتفاظ بعمـلاء تجاريين لها فى موانىء سـواكن ومصوع وزيلع وبربره سـواء من بين السـكان أو من الفرس أو الهنود أو من الانجليز فى بعض الأحيان • ولم يقبل محمد على هذا النفـوذ الانجليزى وسعى الى وقفه إلا أن انجلترا عارضته بشدة واضطرته الى التنازل عن مشروعاته التوسعية فى الساحل الافريقى (١) • بل واضطر أيضـا الى الانسحاب من بلاد العرب عقب اتفاقية لندن ١٨٤١ وأن كان قـد سعى فى ضم سواكن ومصوع بعد ذلك كما مر بنا •

وعلى الرغم من الجهود التى بذلتها الادارة المصرية فى السـودان للاهتمام بسواكن لتلعب دورها فى التجـارة الخارجية والداخلية إلا أن البعض يشير الى تذبذب سواكن تجاريا فى عهد الحكم المصرى بصفة عامة• ويفسر هـذا التذبذب بأن مصر كانت لا تحرص على بـذل تلك الرعاية أو خدمة التوجيه البحرى إلا فى أضيق الحدود وفى الحالات التى يتعارض فيها ذلك مع أغراضها الاقتصادية والعسكرية (٢) • كما يذهب نفس القائل الى أن رحلة محمد على السودان كانت تهدف — من بين ما تهدفه اليه — الى جذب تجارة السـودان الى موانىء البحر المتوسط ، بدلا من موانىء البحر الأحمر ، لتأخذ طريقها الى أوربا (٣) • ويمضى نفس الباحث قائلا : لقد بقيت لسواكن نفس الصورة المهزوزة فى التجارة السـودانية حتى حدث الانقلاب الخطير الذى قفز بها الى الازدهار والشهرة ونعنى به شق قناة السويس وافتتاحها للملاحة الدولية عام ١٨٦٩ وترتب على ذلك شدة الصراع بين انجلترا وفرنسا للانتفاع بالطريق وظهـور أطماعهما السياسية والاقتصادية فى تلك الجهات • لذلك فقد كان طبيعيا أن تعطى مصر اهتمامات لممتلكاتها فى سـواحل البحـر الأحمر — ومنهـا سواكن ومصوع وغيرهما — حيث شهدت هذه الفترة رغبة مصر الحقيقية فى عودة

---

(١) تقرير بورنج السابق . ص ٥٨٥ .
(٢) صلاح الدين الشامى : المرجع السابق . ص ١٣٥ .
(٣) نفس المرجع . ص ١٣٥ .

سواكن الى النشاط والازدهار من خلال اهتمامها بالطرق البرية الموصلة اليها وإرساء قواعد الأمن على طول هذه الطرق وتوفير المياه العذبة (١) ٠

والجدول التالى * يبين السفن التى زارت سواكن فى الفترة الواقعة بين عامى ١٨٦٩ — ١٨٧٧ ٠

السنة	السفن	عدد السفن	السفن المصرية		السفن الأجنبية	بالطن الحمولة
			تجارية	حربية		
١٨٦٩	٤٦	٣٠	—		١١٦	—
١٨٧١	٢٠١	٦٩	—		١٣٢	—
١٨٧٣	٣٤١	٣٢٠	١٤		٧	٥٨ر٤٣٢
١٨٧٤	٢٦٤	١٩٦	٣٩		٩	٤٤ر٩٠١
١٨٧٥	٣١٩	٢٩٥	٢١		٣	٦٠ر٣٢٦
١٨٧٦	٢٢٥	١٧٨	١٢		٣٥	٧٢ر٠٥٨
١٨٧٧	٢٣٠	١١١	١٣		١٠٦	٨٠ر٥٢٣

ومن هذا الجدول يمكن أن نستخلص ما يلى :

أولا : زيادة عدد السفن وحمولتها بشكل مضطرد من سنة الى أخرى ٠ وتتفق هذه الزيادة مع زيادة حركة ورود السفن الى البحر الأحمر بعد افتتاح قناة السويس للملاحة الدولية من ناحية والنشاط الانتاجى والتطور الاقتصادى المترتب على توجيه الحكومة واستقرار النظام فى الأقاليم السودانية من ناحية أخرى ٠

---

(١) صلاح الدين الشامى : المرجع السابق ٠ ص ١٣٨ ٠

(*) Douin; op. cit., Tome. II. 3'eme Partie. p. 1245.

وانظر ايضا : صلاح الدين الشامى : المرجع السابق ص ١٤٨ ٠

ثانيا : التناقص الواضح فى عدد السفن الأجنبية خلال السنوات الخمس منذ عام ١٨٧٢ • وواضح أن مجموع تلك السفن قبل عامى ١٨٦٩ ، ١٨٧١ كان يمثل نسبة تبلغ من ٦٠ ٪ الى ٨٠ ٪ من عدد السفن التى تزور سواكن ، وانها هبطت بعد ذلك الى نسب مئوية ضئيلة للغاية • ويمكن ربط الزيادة فيها قبل عام ١٨٧٢ باقبال السوق الأوربية على استيراد القطن السودانى بسبب تعذر الحصول عليه من الولايات المتحدة خلال الحرب الأهلية وتفسير هذا التناقص فى عدد السفن الواردة الى هذا الميناء يزداد صعوبة إذا علمنا أن حركة السفن الأجنبية فى ميناء مصوع لم تتأثر خلال تلك الفترة (١) وربما كان للجهود المبذولة فى وقف تجارة الرقيق وإحكام الرقابة على سواكن أثر فى قلة ورود هذه السفن الى سواكن • وقد تساعدنا احدى الوثائق فى تفسير ذلك ، حيث تشير الى ظهور الأمراض « ببر الغرب » (ساحل البحر الأحمر الغربى) ، الأمر الذى أدى الى عمل « كورنتينة » على المراكب الواردة الى سواكن ، مما دعا الى الحاق الضرر البالغ بالتجار وتعطلت حركة التجارة ، بالاضافة الى انتشار الأمراض التى أثرت بشكل وبائى على الجمال والأبقار حيث نفقت الآلاف منها • وقد أدى ذلك بشكل مباشر الى شل حركة القوافل المتجهة الى سواكن والتى تعتمد اعتمادا كليا على الجمال (٢) • ويمكن أن نضيف الى هذه الأسباب جميعا الظروف العسكرية التى حدثت بين مصر والحبشة فى تلك الآونة •

زيلع والتجارة الخارجية : (*)

ترجع أهمية هذا الميناء الى أنه يقع فى خليج عدن قرب مدخل البحر الأحمر من الجنوب ، وكان تابعا من قبل لولاية اليمن قبل أن

---

(١) صلاح الدين الشامى : المرجع السابق • ص ١٤٩ •

(٢) دفتر رقم ٣١ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ١ ص ١ بتاريخ ٣ ربيع الثانى سنة ١٢٩٢ هـ •

(*) الحقت جهات زيلع وبربره وهرر بحكمدارية عموم السودان عام ١٨٧٧ • وكانت زيلع وبربره من قبل تابعتين لحكمدارية هرر • (الوقائع المصرية : العدد رقم ٦٦٩ بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٢٩٤ هـ) •

يدخل الى حوزة الادارة المصرية ، ولم يكن هذا الميناء صالحا للملاحة فعملت الادارة المصرية على اقامة مرسى له بطول ٣٥٠ مترا وعرض سبعة أمتار حتى يمكنه استقبال التجارة الخارجية وتصدير بعض منتجات السودان والجهات المجاورة له ؛ وكانت تجارة زيلع مع جهتين رئيسيتين : الأولى عدن وكانت تستورد منها الأرز والذرة والأقمشة البيضاء والصمغ والسكر والدخان والخرز • أما الثانية فكانت مع القبائل المجاورة لها حيث تبعث اليها بالأغنام والأبقار والمسلى والتمر هندى • وهذه البضائع تستبدل بالعاج وريش النعام والصمغ والبن والرقيق قبل الغاء تجارته رسميا — حيث كانت زيلع من أكبر الأسواق الافريقية لبيع الرقيق (١) •

ولتوسيع نطاق التجارة وتنظيمها فى زيلع عملت الادارة المصرية على ادخال واستعمال النقد والموازين والمكاييل ، ونشر الأمن والطمأنينة بين الأهالى مما أدى الى اتساع نطاق التجارة الخارجية بين زيلع والجهات المجاورة • كما قامت أيضا بتوسيع الطريق الموصل بين زيلع وهرر الأمر الذى كان له الأثر الفعال فى رواج التجارة ، بالاضافة الى تسهيل انشاء محال تجارية لمن يرغب من الأهالى والأجانب وذلك عن طريق منحهم أراضى للبناء من أجل هذا الغرض (٢) •

بربره والتجارة الخارجية :

كانت بربره بطبيعتها ميناء تجاريا صالحا لرسو السفن ، ولم تكتف الادارة المصرية بذلك بل أولته عنايتها • فقد زار (ميكلوب باشا) رئيس عموم الفنارات والموانى فى عهد اسماعيل وعين الأماكن الملائمة لانشاء

---

(١) دفتر رقم ١٤٨ صادر معية . ص ١٦ — وثيقة رقم ٣٧ بتاريخ ١٦ رمضان سنة ١٢٩٦ . امر الى ابو بكر افندى شحيم وكيل محافظ زيلع وملحقاتها ، انظر ايضا : شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر . ص ١٧٥ وما بعدها . وايضا : عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل . الجزء الأول . ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٢) شوقى الجمل : المرجع السابق . ص ١٧٦ •

فنار لارشـــاد السفن ومرسى لتسهيل عملية الشحن والتفريغ (١) • كما حرصـــت الادارة المصرية على تنظيم عمليـــة البيع والشراء فى بربره ، فأرسلت الموازين والمكاييل من مصر لتوحيد الوزن والكيل وأيضا العملة التى كانت تجلب من عدن (٢) • وقد أدت هذه الاصلاحات الى اتســاع نطاق التجارة واستقرار القبائل بالمدينة بعد أن كانت لا تبقى بها إلا زمن الموسم الذى يمتد من اكتوبر الى مارس من كل عام (٣) • وهذا يذكرنا بسياسة ابراهيم باشا فى ســوريا إذ كان أكبر همه توطين البدو الرحــل وتحضرهم حتى تتبدل طباعهم الجــافة من خــلال المشــاريع الزراعية والعمرانية • ومن الغريب حقا ان الحكومة المصرية ــ رغم تحملها تلك الجهود فى بربرة ــ بالاضافة الى أعباء الأمن والادارة ــ اضطرت تحت ضغط الحكومة الانجليزية الى عــدم تحصيل جمــارك بحجة أن أغلب علاقاتها التجارية كانت مع عدن ، كما اضطرت أيضا الى فتح واعــداد ميناء (بلهــار) للتجارة ــ وهو ميناء صغير لا يبعد عن بربره ســوى مسافة قليلة ــ الأمر الذى كبدها نفقات باهظة (٤) •

---

(١) Douin, op. cit., Tome III. 3 eme Partie. p. 578.

أنظر ايضا : شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٢٩ ، نفس المؤلف : سياسة مصر فى البحر الأحمر ص ١٤٥ .

(٢) أنظر محفظة تحت عنوان (السودان) (جمادى الثانية — آخــر ذى الحجة سنة ١٢٩٣ هـ) دفتر رقــم ١١ معية صادر صــورة المكاتبــة الصادرة رقم ١٠٢ بتاريخ ٧ صفر ســنة ١٢٩٣ هـ . ص ٨١ من المعية الى المالية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقــم ٣٧١٤ وارد معية عربى . ص ١٤٦ رقــم ٢ (فى ١٢ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ) ، أنظر أيضا : شوقى الجمل : تاريخ ســودان ، جزء ثان ، ص ١٠٩ ، أنظر ايضــا : محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية هرر — زيلع — بربره . ص ٤٦ . (كانت قبيلة « عيــال » الصومالية على سبيل المثال لا تقيم فى بربرة الا فى فصــل الشتاء فبدأت تبنى بيوتا ودكاكين تقضى فيها العام كله : (نفس المرجع . ص ٤٦) .

(٤) دفتر رقم ٥٠ عابدين وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ١٨٧، ص ٣٣ بتاريخ ٩ رجب ١٢٩٥ هـ (٩ يولية ١٨٧٨) من غوردون باشا بالخرطوم الى خيرى باشا .

أنظر ايضا : شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٢٠٩ .

وقد اعتاد التجار الذين يأتون الى بربره فى زمن الخريف من عدن أو مخا أو الحديدة أن ينزلوا فى بيوت من الخشب ويدفعوا « أرضية » عن كل بيت « للابانة » الصوماليين نظير المحافظة على هذه البيوت فى غير أوقات الموسم • وقد رأت الادارة المصرية بعد انتظام الأمور فى بربره تحصيل هذه المبالغ للحكومة فقط ، لأنها أصبحت هى المسئولة عن الأمن فى بربره ، ولكن اتفق أخيرا على أن تقتسم هذه الضريبة بين الحكومة وبين « الابانة » الصوماليين (١) •

ولتنظيم عملية التجارة ببربره جمع المحافظ تجار وأعيان البلد وطلب منهم أن يختاروا رئيسا لهم « سر تجار » لتنظيم أمور الأخذ والعطاء ولتقديم الضمانات من التجار والأشراف على شئونهم • كما أرسلت نسخة من القوانين التجارية المعمول بها فى مصر للعمل بموجبها فى بربره (٢) • ونتيجة لتلك الجهود ساد الأمن جهات بربره وأصبح « ••• بمقدور سيدة واحدة المسير منفردة ببعيرها ، دون التعرض لها من جانب القبائل الصومالية ••• » (٣) •

ولقد كانت تصدر بربره الى عدن الأبقار التى كان يصل عددها سنويا الى ما يقرب من عشرة آلاف بقرة ، بالاضافة الى الخراف التى بلغت ما يقرب من ستين ألف خروف سنويا • بالاضافة الى الزبدة (٤) • وتجدر الإشارة الى أن عدن كانت تعانى كثيرا طوال أشهر الخريف قبل امتداد الادارة المصرية الى بربره لتعذر شحن الأبقار والخراف على مراكب صغيرة بسبب هبوب رياح الشمال العاصفة ، حتى جاءت هذه

---

(١) شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر • ص ١٤٧ •
(٢) دفتر رقم ٣٧١٥ صادر محافظة بربره — وثيقة رقم ٤٤ فى ١٤ شوال سنة ١٢٩٣ هـ •
(٣) دفتر رقم ٣٧١٤ — معية عربى — وثيقة رقم ٢٠ بتاريخ ١٢ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ ، أنظر ايضا : شوقى الجمل : المرجع السابق ص ١٤٨ •
(٤) محمد صبرى : المرجع السابق • ص ٤٦ •

الادارة المصرية فأمكن حل هذه المشكلة واستمر التبادل التجارى مع عدن طوال العام (١) .

تجـارة هرر الخارجيـة :

كانت هرر متصلة ببربره تجاريا ، فقد اعتادت تجارتها أن تصدر وترد عن طريق ميناء بربره ، لذلك فقد قيل « ان الذى يهيمن على بربرة يمسك بيده ذقن هرر » (٢) . وقد أصبحت هرر ــ بموقعها الذى يميل الى الداخل بعيدا عن الساحل ــ تحتل مكانة تجارية لا بأس بها إذ مكنها هذا الموقع من تجميع البضائع الآتية من داخل القارة ومن الحبشة لتصدر بعد ذلك عن طريق ميناء بربره وأحيانا عن طريق زيلع ، وكذلك الحال بالنسبة للبضائع الواردة من بلاد العرب واليمن وعدن (٣) .

وينبغى أن نفرق بين مرحلتين من مراحل تطور هرر التجارى . ففى المرحلة الأولى ، وهى التى سبقت امتداد الادارة المصرية اليها ، عاشت فى تخبط تجارى حيث سادتها الفوضى وانعدام الأمن فقد كان المسافر لا يأمن على حياته وبضائعه إلا اذا أضفت عليه كل القبائل التى يمر بها حمايتها ، فلا يخطو خطوة إلا برفقة رجل من رجال القبيلة المسمى بالابان مقابل أجر فاحش . وقد ذكر مستر بروكمان ان الرحالة برتون كان لا ينتقل خطوة إلا بصحبة الابان يسلمه الواحد منهم لزميله حتى تنقضى الرحلة (٤) .

وأما المرحلة الثانية والتى أصبحت فيها هرر تحت الحكم المصرى

---

(١) محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٣٧ .

(٢) محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية . ص ٣٢ .

(٣) جريدة أركان حرب الجيش المصرى . العدد رقم ٦ غرة شعبان سنة ١٢٩٤ هـ . الجزء السادس ــ المجلد الأول . ص ٤٦٥ .

(٤) Brockman; British Somali land. p. 217.

وانظر ايضا : شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر ص ٢٢٢ ، وكذلك جريدة أركان حرب ، العدد السابق ص ٤٦٥ .

فقد عمل خلالها رءوف باشا بمجرد ضمها على تأمين الدروب والقضاء على قطاع الطرق ، وعانى كثيرا فى هذا الصدد من قبائل « الجالا » . وقد نصح رؤوف بضرورة استمالة هذه القبائل عن طريق « ... صرف مؤونة » لهم وترتيب « ماهية » لمشايخهم والحاق بعض أفرادها بصفة عساكر بمرتبات دون حمل السلاح ، بل يكتفى بأسلحتهم المعتادين عليها حتى يمكن اصلاح أخلاقهم وتهذيب طباعهم وفى النهاية يستتب الأمن وتروج التجارة ... » (١) .

لقد كانت التجارة — تقريبا — هى المرتزق الوحيد لأهل هرر وأغلب المناطق المجاورة وكانت قاصرة — من قبل — على فصل الشتاء ، وذلك لأن أغلب قبائل السومال والجالا كانت تقيم فى الصيف على الهضبات لاعتدال مناخها وتعمل على رعى قطعانها الضخمة . وكانت ريح الشتاء تساعد السفن الشراعية على اجتياز البحر والوصول للموانى (٢) .

وقد أصبح من الضرورى للتجار القادمين من بلاد العرب والمتوجهين الى الأجزاء التابعة لهرر والى بلاد الحبشة أن يمروا بهذه المدينة . صحيح أن هناك طريقا من « تجره » والحبشة لكنه غير آمن من قبائل الدناكل وباقى العربان المقيمين حوله (٣) .

أما أهم واردات بلاد الجزيرة العربية الى هذه الجهات فكانت تتمثل فى الأقمشة « البفت » وبعض الحرير الخاص بالأمراء ، والخرز وبرادة النحاس » (٤) ، كذلك فقد حملت السفن الآتية من عدن وحضرموت ومسقط واليمن الأرز الهندى والتمر والأقمشة القطنية والدخان والحديد والسكر والشاى والنبيذ (٥) .

---

(١) شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، الوقائع المصرية . العدد رقم ٦٣٩ بتاريخ ١٣ ذى الحجة ١٢٩١ .
(٢) محمد صبرى : المرجع السابق . ص ٣٢ .
(٣) جريدة أركان حرب ، العدد السابق . ص ٤٦٥ .
(٤) الوثائق الافريقية — محفظة ١٠٣ — بتاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٨٧٥ . دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٥) محمد صبرى : المرجع السابق ص ٣٢ .

وكان التجار العرب يشترون من هرر البن الجيد والجلود المدبوغة وغير المدبوغة وما يرد الى المدينة من البضائع الأخرى كجلود النمر وريش النعام وسن الفيل ، وكان أمير هرر من قبل له حق احتكار الصنفين الأخيرين (١) .

وقد إقترح محمد رءوف أن تتولى الحكومة المصرية تجارة هرر بنفسها حتى يمكن الحصول على ثلاث فوائد : الأولى الحصول على جملة المكاسب الناشئة عن التبادل التجارى مع بلاد الجزيرة العربية ، والثانية زيادة تداول العملة . وأما الفائدة الثالثة فكانت زيادة ايرادات جمارك مصر والسويس وزيلع وهرر ، بالاضافة الى المكاسب التى سوف تعود على الأهالى (٢) . ويبدو أن الحكومة فى مصر لم توافق على مثل هذا الاقتراح لأنها آثرت ألا تعود القهقرى لسياسة الاحتكار التجارى .

وفى ختام عرضنا للأوضاع التجارية بالنسبة للمناطق الواقعة على ساحل البحر الأحمر نخرج بحقيقة هامة مؤداها أن تلك المناطق كانت حلقة وصل بين تجار الجزيرة العربية واليمن وعدن وحضرموت وبلاد الهند والصين وغيرها من المناطق المجاورة وبين مديريات السودان وما جاورها من البلدان الافريقية . فقد هيأ لها موقعها الجغرافى أن تشرف على التجارة الخارجية السودانية هناك وأن تلعب هذا الدور الخطير الذى ازدادت خطورته وأهميته بامتداد الادارة المصرية اليها .

التجارة مع شمال وغرب أفريقيا :

كذلك فقد كان للسودان اتصالات تجارية بشمال وغرب افريقيا ترجع الى زمن بعيد وان كانت هذه الاتصالات لم تصل الى درجة تماثل

---

(١) الوثائق الافريقية — الوثيقة السابقة .
(٢) نفس الوثيقة .

تجارته مع الحبشة أو بلاد العرب • وبطبيعة الحال كانت هذه الاتصالات مع الأقاليم السودانية المتاخمة مثل كردفان ودارفور ، فقد حفلت الأبيض عاصمة كردفان بالتجار المغاربة ، لدرجة أننا نسمع عن حى خاص بهم فى هذه المدينة ، وفى هذا الحى كان يتم عرض السلع والمنتجات التى يجلبونها من بلادهم بالاضافة الى السلع التى ترد اليهم من أوربا (١) • وبالمثل نسمع عن نشاط المغاربة بالفاشر عاصمة دارفور أمثال الشيخ عبد الغنى التازى وكيل دولة المغرب الأقصى بمصر ، ممن رغبوا فى تأسيس شركات تجارية فى دارفور ، بالاضافة الى الشريف العمرانى والحاج الحبابى المغربى (٢) • وفى الجانب المقابل نرى التجار السودانيين من كردفان ودارفور يبعثون بتجارتهم الى طرابلس وغيرها محملين بمنتجات بلادهم حيث يلتقون بالتجار المغاربة ويعقدون معهم الصفقات التجارية •

وقد لعبت امبراطورية البرنو (٣) فى وسط افريقيا دورا هاما فى تجارة السودان مع شمال وغرب افريقية ، فهى بحكم هذا الموقع كانت ملتقى للقوافل التجارية • وقد تعرضت هذه الامبراطورية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر لفترة من الفوضى واجهت فيها التجارة نوعا من السلب والنهب من جانب السكان وغارات البدو • ولما تولى محمد الكانمى زمام الأمور استطاع القضاء على اللصوص وقطاع الطرق ، كما وضع حدا للحروب والفتن الداخلية مما كان له الأثر فى انتظام حركة القوافل التجارية • وقد اشتهرت دارفور بقافلتها التجارية مع شمال وغرب افريقيا سيما خلال السنوات الأولى من حكم محمد على حين دب الخلاف مع سلطان دارفور • ولست مع القائلين ان هذا الخلاف كان مرده الى تعرض محمد على لرجال قافلة دارفور المتجهة لمصر

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٣٨٣ •

(٢) ابراهيم عبده : مصر وافريقية فى العصر الحديث • ص ٢٨ •

(٣) حول هذه الامبراطورية انظر : ابراهيم طرخان : امبراطورية البرنو الاسلامية • الهيئة المصرية العامة للكتاب •

واستيلائه عليها بثمن بخس ، وانما العامل الأول وراء هذا الخـلاف هو تخوف سلطان دارفور من محمد على وسياسته فى ضم الأقاليم السودانية خصوصا وان الحـدود قد أصبحت متاخمة والجولة القادمة كانت تنتظر دارفور ، فكان طبيعيا أن يخشى السلطان على عرشه من التهاوى الأمـر الذى نشأ عنه تخـوف سياسى تلاه فتور تجارى ، وان كان الباشـا قد عمل حثيثا لتنشـيط التبادل التجارى بين الطرفين كما سبق القـول * . إذن ليس هنالك ما يدعو لترديد مثل هذه الأقاويل عن علاقة محمد على به آنذاك . والمسئولون عن ترديد هذه النغمات هم أولئك الأوربيون الذين كانوا فى إستياء شديد من سياسة محمد على الاحتكارية (١) .

ومن أهم السلع والمنتجات السودانية التى وجدت طريقها الى شمال وغرب افريقية الرقيق (قبل الغائه) حيث كان يمثل السـلعة الأولى فى التجارة مع بلاد المغرب . ويليه الذهب وريش النعام وسن الفيل والوسائد الجلدية ذات الألوان الزاهيـة والأوانى الخشـبية التى يتـم صنعهـا بكردفان . أما أهـم واردات بلاد المغـرب فكانت الأقمشـة المصبوغة والمنسـوجات الحريرية والبسـط وأوراق الكتابة والطرابيش المغـربية والقفاطين وأقداح القهوة .

قوانين ونظـم التجـارة السودانية :

وفى ختام هذا الفصـل قـد يكون من المفيد أن نشـير الى النظم والقوانين التى كانت تحكم التجارة السودانية بشكل عام ومدى تطـورها خلال فترة الدراسة . ففى عهد محمد على سـبق أن أشرنا الى نظـام الاحتكار الذى كان يطبقه الباشا فيما يتعلق ببعض السلع والمنتجـات السودانية حتى استطاع الأوربيون بعـد كثير من الضغوط وبعـد مفاة

(*) انظر فيما سبق ص . ١٦١ ، ١٦٢ .

(١) من امثلة هؤلاء :

— Driault : La Formation de L'empire de Moh. Ali p. 82.

— Jomard : Observation Sur : le voyage au Darfur. p. 7.

الباشـــا أن يصـــلوا الى مأربهم بالغـــاء الاحتكار ، وبـــدأت التجـــارة السودانية تخضع لمعاهدة بلطة ليمان الموقعة بين انجلترا والدولة العثمانية فى ١٩ أغسطس ١٨٣٨ والتى تم العمل بها فى مارس عام ١٨٣٩ • وقـــد كان لهذه المعاهدة آثار عميقة فى المجـــال الاقتصـــادى ، فبموجبها ألغى الاحتكار ومن خلالها أيضا تسلل الأجانب الى السودان • فقد نص فى بندها الثانى على ضرورة أن يـــكون لرعايا دولة بريطانيا العظمى أو لمن ناب عنهم فى كل الممالك العثمانية أن يشتروا كل الأصناف ــ بدون أدنى استثناء ــ من حاصلات تلك الممالك زراعيـــة كانت أم صناعية ، ويتعهد الباب العالى بإبطال احتكار الحاصلات الزراعية وغيرها من الأصناف ، والغاء الرخص التى كانت تعطيها الحكومة المحلية بشرائها ونقلها من مكان لآخر بعد شرائها •

أما فيما يتعلق بالنظـــام الجمركى الذى كان يســـود السودان ــ آنذاك ــ فانه كان يسير وفقا لنظام الدولة العثمانية والذى يتم تنفيذه فى سائر أملاكه ومنها مصر ولكن بشىء من التحوير أو التطـــوير الذى كان يدخله عليه حكام مصر •

وينبغى أن نشير هنـــا الى أن مصر والســـودان كانتا ــ آنذاك ــ تعتبران حكومة واحدة ، ولذلك فقد اقترح فى عـــام ١٨٤١ التخلص من متاعب إنشاء جمارك متعـــددة فى جهات الســـودان والاكتفاء بانشـــاء جمرك واحد فى أسوان التى « ••• هى باب السودان » • واستيفاء رسوم البضائع الصادرة من مصر الى السودان والواردة من السودان الى مصر فى هذا الجمرك ، على أن يقيم أمين الجمرك فى كرسكو (١) •

وتشجيعا للتجارة الخارجية فى عهـــد محمد على بين كل من دارفور

---

(١) رئاسة مجلس الوزراء : مجموعة من الوثائق عن تاريخ السودان ص ١٩ •

والحبشة كان يكتفى بتحصيل رسوم جمركية خفيفة (١) وكانت القيمة الجمركية التى تؤخذ على البضائع الآتية من السودان مارة بأسوان وليس معها « رفتية » (شهادة) تبلغ ١٢ ٪ وذلك اعتبارا من ذى الحجة سنة ١٢٥٧ (أول يناير سنة ١٨٤٢) (٢) .

وفى عام ١٨٦٥ أبلغ مأمور ادارة بندر مصوع المسئولين بمصر انه سوف يأخذ رسما جمركيا يبلغ ١٢ ٪ على السنامكى والصمغ المصدر عبر هذا الميناء (٣) . وتسهيلا لدفع الرسوم بجمرك أسوان طلب اليه أن يقبل دفعها عينا من أصناف السلع اذا لم يدفعها التجار نقدا (٤) .

ورغبة فى تشجيع التجار المسلمين على العمل بالتجارة أمر محمد على فى أغسطس عام ١٨٤٢ أن يكتفى بتحصيل ٥ ٪ منهم فقط كرسم جمرك على البضائع الواردة الى مصر بمعرفتهم (٥) . وقد أعفى محمد على البضائع التى كانت ترد باسم القناصل من الرسوم ، كما أعفى أيضا الحيوانات التى ترد من السودان الى مصر من هذه الرسوم (٦) .

وفى عام ١٨٤٥ أصدر محمد مادة تقضى بتوقيع العقاب الشديد على من يتعامل مع بعض التجار الذين وضعوا « بالقائمة السوداء » وألحق

---

(١) رئاسة مجلس الوزراء . ص ١٩ .

(٢) دفتر رقم ٢٦١ معاونة أقاليم — صورة ترجمة الوثيقة رقم ٧ بتاريخ ٨ محرم سنة ١٢٥٨ هـ . الى محمود بك مدير الايرادات .

(٣) دفتر رقم ٤٦٦ — معية تركى — مكاتبة رقم ٤٧٨ بتاريخ ٧ ذى القعدة سنة ١٢٦٤ هـ من خليل بك مأمور ادارة بندر مصوع الى المعية السنية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) محفظة رقم واحد بعنوان (موضوع التجارة) (١٢٤٢ — ١٢٦١ هـ) وثيقة بتاريخ ٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٨ هـ . من الجناب العالى الى الباشمعاون . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٥) المحفظة السابقة . وثيقة بتاريخ ٢٢ رجب سنة ١٢٥٨ هـ . من الجناب العالى الى الباشمعاون .

(٦) المحفظة السابقة . وثيقة بتاريخ ٢٨ ذى القعدة سنة ١٢٥٨ هـ ، وأيضا : نفس المحفظة ، وثيقة بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٢٥٩ هـ .
دار الوثائق القومية بالقلعة .

هذه المادة بقانون الحقانية • ويرجع السبب فى اصداره تلك المادة الى ذلك التلاعب الذى حدث فى احدى صفقات الأخشاب التى عقدها مجموعة من التجار وكانت مخالفة للمواصفات التجارية • وقد تم ابلاغ هذه المادة القانونية لكافة الجهات ومن بينها الخرطوم (١) •

وفى عهد محمد سعيد صدرت الأوامر بأخذ رسم جمرك مقداره ٥ ٪ على البضائع الواردة من دارفور وجهات النيل الأبيض ان كان الغرض منها التوزيع داخل الحكومة ، وتحصيل ٣ ٪ ان كانت بضائع امرارية (ترانزيت) بغرض تصديرها الى الخارج ، على أن يوضع على الأخيرة خاتم يبين أنها بضاعة ترانزيت (٢) •

ويبدو أن الرسوم الجمركية فى عهد اسماعيل قد وصلت الى ٨ ٪ الأمر الذى أدى الى شكوى التجار الأجانب وتذمرهم من هذه الرسوم ومطالبتهم بتخفيضها الى ١ ٪ فقط ، وبالفعل صدرت أوامر بذلك ، ونفذت فى جمرك سواكن (٣) • ويبدو أن هذه الاستجابة السريعة جاءت حين علم المسئولون ان جمرك طرابلس الغرب يحاول منافسة الجمارك المصرية عن طريق تخفيض نسبة رسومه الجمركية الى ٢ ٪ فقط بدلا من ٨ ٪ حتى تتحول تجارة السودان وافريقية عن طريق مصر الى

---

(١) دفتر رقم ١٩٨٣ صادر جمعية الحقانية — ترجمة المادة التركية رقم ٢٧٤ بتاريخ ٧ شوال سنة ١٢٦١ هـ • الى مدير الخرطوم • مادة • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر عباس ومحمد سعيد • مجلد ١ جـ ٢ • ص ١٣٦ •

(٣) أنظر الوثائق التالية : — محفظة رقم ٥١ معية تركى — وثيقة رقم ١٨٣ بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٦١ هـ نمرة ٢ من يوسف فهمى أمين الجمارك المصرية العامة الى مهردار الخديوى وأيضا : نفس المحفظة ، وثيقة رقم ٤١٦ (باللغة العربية) بتاريخ ٣ ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ • من اسماعيل صديق ناظر المالية الى مهردار خديوى وأيضا : دفتر رقم ١١ صادر معية — صورة المكاتبة رقم ٩ ص ١٢١ بتاريخ ٢٢ رمضان ١٢٩٣ هـ • من المعية السنية الى ديوان الزراعة والتجارة • دار الوثائق القومية بالقلعة •

هذا الميناء • ولكن المسئولين بمصر فطنوا لذلك وأصدروا أوامرهم بتخفيض هذه الرسوم كما ذكرنا [١] •

وفى ٣١ مارس عام ١٨٧٧ طلب غوردون باشا حكمدار السودان استخدام موظفين أوربيين فى جمارك السودان خصوصا بجهات بربر وسواكن ومصوع وزيلع وتيجره بالاضافة الى أسوان • وقد وعد المسئولون ببحث هذا المطلب ، ولكن لم نقرأ فى الوثائق — التى اطلعنا عليها — ما يفيد تحقيق هذا المطلب [٢] • ويمكن تفسير هذا المطلب برغبة غوردون فى السيطرة على منافذ التجارة الداخلية والخارجية للسودان ووضعها تحت رحمة الأوربيين تمهيدا للسيطرة الأوربية على هذه المناطق الحيوية ، على الرغم من عمله فى خدمة الادارة المصرية • ولا ننسى ان غوردون كان مرشحا للعمل فى السودان من قبل أمير بريطانيا ، ولذلك فان مثل هذه المطالب ليست مثار دهشة ولا حتى جديدة فى مظهرها على رجال الادارة فى السودان فى ذلك الوقت • فقد طالبت انجلترا مرات عديدة بتعيين موظفين أوربيين فى السودان تحت ادعاءات صورتها للعالم أنها جد خطيرة كتجارة الرقيق مثلا التى لا يمكن وقفها — من وجهة نظرها — إلا بتعيين مثل هؤلاء الأوربيين الأوفياء ذوى القلوب الرحيمة !

وفى عام ١٨٧٧ أجبر الانجليز الخديوى اسماعيل على توقيع معاهدة أصبح بمقتضاها ثغرا بربره وبلهار حرين أمام التجارة وأعفيت صادراتهما من الرسوم والعوائد الجمركية الأمر الذى جعلهما يمثلان عبئا ثقيلا على خزانة الحكومة المصرية [٣] •

---

(١) دفتر ٥٣٠ معية سنية تركى — ترجمة كتاب المعية لأمين جمرك اسكندرية رقم ١٠٢ فى ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٧٦ هـ • ص ١٥٠ .

(٢) دفتر رقم ٣٤ عابدين — صادر — صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ١٩ ص ١٦٤ بتاريخ الثلاثاء غرة ذى القعدة سنة ١٢٩٤ هـ • ارادة الى سعادة غوردون باشا حكمدار الأقاليم السودانية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية • ص ٤٥ .

القسم الثالث

(المواصلات) *

(أ) السكة الحديد :

قبيل منتصف القرن التاسع عشر بسنوات قليلة بدأت المديريات السودانية تأخذ طريقها نحو الحياة المستقرة ، حيث عاد الفارون من الجبال والصحراوات ، كما بدأ تثبيت الملكية الفردية وازداد النشاط الزراعى فانتعشت بذلك الحياة الاقتصادية وبدأ المستوى المعيشى للسكان فى الارتفاع النسبى • وكان من الطبيعى والحالة هكذا أن تكون الخطوة التالية القيام بتحسين وسائل النقل والمواصلات داخل المديريات السودانية وربط أجزائها ببعضها البعض ، ثم محاولة ربط السودان كله بمصر من خلال شبكة مواصلات •

ولقد بدأ التفكير فى انشاء سكة حديدية لربط السودان بمصر فى عهد محمد سعيد باشا حيث جرت محاولة لاقامة خط حديدى يدور حول الجنادل والحواجز النهرية تسير عليه السفن ، ولكن يبدو أن هذا المشروع لم يجد قبولا وبالتالى لم ير النور (١) • كذلك فقد حاول هذا الوالى مرة أخرى انشاء خط حديدى حيث كلف المهندس الفرنسى (موجيل) الذى كان يعمل فى خدمة الحكومة بتقديم تقرير حول هذا

(*) سوف لا نتعرض للطرق البرية وسنكتفى بما تحدثنا عنه من الطرق البرية التى سلكتها التجارة الداخلية والخارجية فى السودان . انظر فيما سبق ص ١٣٧ وما بعدها .

(١) الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل — القسم الأول حتى عام ١٩١٦ . ص ٢٨ .

الموضـــوع ، ولكن فداحـــة النفقات التى تطلبها هذا المشروع جعلتـــه يعـــدل عنـــه (١) •

وفى عهد الخديوى اسماعيل احتل موضوع المواصلات فى السودان ، وخاصـــة السكة الحديد حيزا كبيرا من تفكير هذا الرجل • وقد أبـــدى أهتمامه بها فى حديث له مع المسيو جارنييه Garnier أحد رجال القنصلية الفرنسية وذلك فى أكتوبر عـــام ١٨٦٤ • وفى هـــذا العام أرســـل بعثة برئاســـة المهندس حسن بك الدمياطى لبحث انشـــاء خط حـــديدى بين ســـواكن وكسلا مخترقا التلال عن طريق خـــور النقيب (٢) • وفى نفس الوقت أرسلت بعثة ثانية برئاسة المهندسين الانجليزى « براى ووكـــر » (Bray & Walker) لدراسة الطريق بين كرسكو الى « أبو حمد » والخرطوم لانشـــاء سكة حديدية • وفى مارس عـــام ١٨٦٥ قـــدما تقريرهما الى الخديوى ثم سافرا من أسوان الى كرسكو حتى وصـــلا الى شـــندى مخترقين الصحراء النوبية ثم عـــادا بطريق صحراء « بيوضة » ودنقلة ثم وادى حلفـــا • وقد بلغ طول هذا الخط ٧٦٥ ميـــلا ، وكانت نفقـــات الميـــل الواحـــد ١٢٦٦٧ جنيها (٣) • وأمام ضخامة هذه النفقات تعطل العمل فى هذا المشروع • وقد بعث الخديوى فى عام ١٨٦٦ الى حكمدار السودان يقول « ••• انه لو انشئت فى السودان السكك الحديدية التى أصبحت الأساس الأعظم للتقدم والعمران لأفادت البلاد الفوائد الجمة فى قليل من الوقت ــ والله يعلم أن هذه الفكرة لم تبرح مخيلتنـــا لحظة واحـــدة ــ ولو كان فى الامكان لأمرنا بمباشرة العمل فى هذا المشروع منذ

---

(١) صلاح الدين الشـــامى : المواصـــلات والتطـــور الاقتصـــادى فى الســـودان . ص ٩ . انظر أيضا : الشـــاطر بصيلى : المرجع السابق ص ٢٨ ، نعوم شقير ة المرجع الســـابق جـ ٣ . ص ٣٢ ، الرافعى : عصر اسماعيل جـ ١ . ص ٤ .

(٢) الشاطر بصيلى : المرجع السابق . ص ٢٨ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٨ ، انظر أيضا : شوقى الجمل : تاريخ سودان . جـ ٢ . ص ١٣٤ ، وأيضـــا :

Hill; Op. Cit., p. 123.

الآن ، ولكن ما الحيلة وانشـــاء السكك الحديدية فى تلك الجهـــة يصطدم بصعوبات كبيرة ويحتاج الى نفقات طائلة ، والحـــالة تقتضى بارجـــاء تحقيق مثل هذه المشروعات العظيمة التى تتطلب هذه النفقات الى بعـــد فترة ، ريثما تتخلص الماليـــة من بعض الضيق الذى تعانيه فى الوقـــت الحاضر ... » (١) .

وفى أوائل يناير عام ١٨٦٧ أرسل « اسماعيل الفلكى » على رأس بعثة لبحث مسألة السكة الحـــديد بين (سواكن وبربر) أو من (سواكن الى شـــندى) وأتمـــت البعثة مهمتها وعـــادت الى مصر بتقريرها الذى يقترح ترجيح طريق شـــندى ، الذى قدرت مســـافته بحوالى ٥٨٤ كيلو متراً ، عن طريق بربر الذى تعترضه الجبال (٢) . ويتضـــح من ذلك كله ان مشروعات السكك الحديدية لربط الســـودان بمصر شمالا أو البحـــر الأحمر شرقا كانت تسير جنبا الى جنب .

وبعد مرور أربع ســـنوات لآخـــر محاولة فى انشـــاء سكة حديدية بالسودان عاد التفكير من جديد عـــام ١٨٧١ فاستدعى الخديوى اسماعيل مهندسا انجليزيا يدعى جون فاولر Fowler ، وأبرم معه عقدا لمـــدة خمس سنوات لوضع التصميمات الخاصة بانشـــاء السكة الحديد وتحسين الملاحة النهرية فاقترح هذا المهندس فى تقريره ما يلى (٣) : ضرورة قيام خط حديدى من وادى حلفـــا ينتهى عند بلدة شندى ، كمـــا اقترح أن

---

(١) دفتر رقم ٥٥٨ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٧ بتاريخ ٢٨ صفر سنة ١٢٨٣ هـ . ص ٥٩ . الى حكمدار الســـودان . وانظر أيضا شوقى الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر . ص ٨٢ .

(٢) سجل رقم ٥٦٠ — معية تركى ، دفتر معية تركى (بدون نمرة) ص ٨٩ قسم ثان . بتاريخ ٢٤ صفر سنة ١٢٨٤ هـ . انظر ايضا : شوقى الجمـــل : المرجع السابق ص ١٣٤ ، وايضا اسماعيل سرهنك : حقـــائق الأخبـــار ص ٣١٥ .

(٣) تقرير مستر فولر عن السكة الحديدية السودانية لتوصيل السودان بمصر ، بناء على أمر سمو الخديوى سنة ١٨٧١ (١٢٩٠ هـ) . وهذا التقرير مودع بمحفظة اللوائح — دار الوثائق القومية بالقلعة .

تكون « المتمــة » ﴿*﴾ آخر محطة لهذا الخط ، وفضلت المتمــة بالذات كمحطة نهائية نظرا لموقعها المتوسط بين بربر والخرطوم ، بالاضــافة الى مركزها التجارى الهام للغلال والأقطان والسكر الذى يحتمل وروده من تلك الجهات والأراضى المتسعة جنوبى شندى ، لاسيما وانهــا ملتقى لطرق القوافل التى ترد من الخرطوم ومن النيل الأبيض وسواكن والنيل الأزرق (١) • وفى حالة عــدم امكان تحقيق هذا المشروع اقترح انشــاء أحد الطريقين الآتيين : الأول يبدأ من كرسكو مخترقا صحراء النــوبة « صحراء العتمور » الى (أبو حمــد) ، يسير بعدها فى اتجــاه النيل حتى شندى والثانى يبدأ من وادى حلفا ويسير فى اتجاه النيل حتى بلدة (امبقــول) مخترقا صحراء بيوضة حتى المتمــة أمام شندى • ولقــد فضل الطريق الشــانى الذى يبــدأ من حلفا لأنه يمكن فى هذه الحــالة استفادة السكان بين كرسكو ووادى حلفا من المواصــلات كما أن هنــاك سببا هاما وهو ان مرور الخــط عبر صحراء بيوضة أفضل من صحراء النوبة نظرا لتمتع صحراء بيوضــة بالمياه الكثيرة والعــذبة والأشجار والأعشاب الصالحة لاطعام الابل والمواشى مدة عملية السكة الحديد (٢) •

وبعد اختيــار المحطتين الابتدائية والنهائية والاتجاه العمودى للخط الحديدى تم بحث موضــوع مرور السكة من وادى حلفا الى الجنــوب وهل تكون على الشاطىء الغربى أو الشرقى للنيــل • وأخيرا تم تفضيل الشاطىء الشرقى (الأيمن) نظرا لقلة النفقات ، بالاضافة الى أن الشاطىء الأيسر به رمال متحــركة يخشى من خطورتها على المشروع •

ويبلغ طول الخط الحديدى ٨٨٩ كيلو مترا ، قسم الى أربع مراحل :

١ ـــ من وادى حلفــا الى بلدة « كوهــة » (على الضفة اليمنى للنهـــر) ٢٥٩ كم

(*) بلدة تقع على الشاطىء الأيسر للنيل أمام شندى •
(١) نفس التقــرير السابق •
(٢) نفس التقــرير •

٢ ــ مرحلة اجتياز النهر وذلك بعمل قنطرة فوق النهر ــــ

٣ ــ من كوهــه الى امبقول (الضفة اليسرى للنهر) ٣٤٩ كم

٤ ــ من أمبقول الى شندى (عبر صحراء بيوضة) ٢٨١ كم

وبذلك يكون مجموع المراحل الأربع ٨٨٩ كيلو مترا [١] •

وقدرت نفقات هذا المشروع بحــوالى أربعة ملايين من الجنيهات أو ٤٥٠٠ جنيها لكل كيلو متر تقريبا • وقد جــرى حوار بين الخديوى اسماعيل وبين المستر ســوزول مراسل جريدة النيويورك هيرالد حــول نفقات هذا المشروع حيث سأل هذا المراســل الخديوى قائلا ان هــذا المشروع يكلفكم كثيرا فأجابه : « ••• لا يكلفنا أكثر من أربعة أو خمسة ملايين من الجنيهات وهذا مبلغ يسير ، فما قيمة ستة أو ثمانية أو عشرة ملايين اذا حصلنا على الفائدة المرجوة ؟ انه من الجنون صرف مليــون من الجنيهات فى عمــل غير مجــد ، ولكن لا تنس موارد الســودان • انى سأنشىء الخط مهما كلفنى ذلك • ألا تعتقدون ان الســودان يساوى أكثر من عشرة ملايين ••• » [٢] ؟ وعلى العكس من رأى هذا المراســل كان القنصل الأمريكى فى مصر فى ذلك الوقت يرى ضرورة انشــاء هــذا الخط حتى يمكن وقف تجارة الرقيق فى السودان [٣] •

وبالفعل تعاقدت مصر مع شركة انجليزية لانشــاء المائة ميل الأولى

---

(١) نفس التقرير السابق . وقد اختلفت تفاصيل الأرقام التى أوردها المرحوم الشاطر بصيلى قليلا فجــاءت بالنســبة للمرحلة الأولى ٢٥٧ كم ، والثالثة ٢٤٩ ، والرابعــة ٢٨٣ كم ، وان كان يلاحظ ان المجمــوع الكلى لا يختلف . (أنظر : بصيلى : المرجع السابق . ص ٢٧٣) .

(٢) عن جريدة النيل ــ ترجمة ــ بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٨٧٢ . أنظر : جورج جندى وجاك تاجر : المرجع السابق . ص ٢٧١ .

(٣) رسالة بيروسلى قنصل الولايات المتحدة الى وزارة الخارجية بتاريخ ٢٤ فبراير سنة ١٨٧٣ عن جورج جندى وجاك تاجر : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

من وادى حلفا الى « كرمة » ، وعين شاهين باشا مشرفا على العمل بالانابة عن الحكومة المصرية • وبدأ العمل فى ١٥ فبراير ١٨٧٥ ، ووصل الى بلدة « سرس » (بعد حلفا) فى عام ١٨٧٧ • وقد بلغت نفقات الحكومة المصرية لانشاء الثلاثة والثلاثين ميلا حوالى نصف مليون جنيه (١) •

وفى عام ١٨٧٨ توقف العمل فى هذا المشروع بسبب تدهور الأوضاع المالية فى مصر ، بالاضافة الى عدم اقتناع غوردون بهذا المشروع ، فقد كان يميل الى مد خط حديدى من سواكن الى بربر لا عن طريق النيل (٢) •

وفى ٣ نوفمبر عام ١٨٨١ قرر مجلس النظار (الوزراء) تشكيل لجنة لبحث مسألة استئناف العمل فى سكة حديد السودان حتى دنقلة الجديدة • وقد ناقشت اللجنة مشروعين ، الأول مقدم من شخص يدعى (جورنج) كان يهدف الى مد السكة الحديدية الى جهة (فركه) أمام شلالات (دال) • والثانى يرمى الى مد خط سكة حديد حتى (حنك) أى الى دنقلة الجديدة • وقد فضل المشروع الثانى لقيمته

---

(١) الشاطر بصيلى : المرجع السابق . ص ١٣٤ . ويقدر د • شوقى الجمل المسافة التى تمت فعلاً بحوالى ٥٧ كم (سودان وادى النيل ج ٢ ص ١٣٥) بينما يقدرها د . صلاح الشامى بحوالى ٥٣ كم (المرجع السابق ص ١٣ — ١٤.) وحول العمل فى المشروع أنظر على سبيل المثال الوثائق الآتية : دفتر رقم ١١ صادر معية — صورة المكاتبة الصادرة رقم ٢٠ ص ١٣٠. بتاريخ ٢١ جمادى الثانية سنة ١٢٩٣ هـ . دفتر رقم ١٥ معية وارد — افادات عربى ص ١٦٨ وثيقة رقم ٤٧ بتاريخ ٢ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ ، دفتر رقم ١٧ معية عربى — قيد وارد الافادات من جهات الأقاليم والمحافظات السايرة ص ١ — مكاتبة رقم ٦ (١٤٣ سايرة) بتاريخ ١٥ شعبان سنة ١٢٩٢ هـ •

(٢) صلاح الدين الشامى : المرجع السابق . ص ١٣ — ١٤. ، أنظر ايضا : شقير : المرجع السابق ج ٣ • ص ١٠ •

الاقتصادية [١] • وكانت اللجنة مملوءة بالحماس فى اتمام خط السكة الحديد وقدمت براهين على ذلك منها ان ايرادات القسم الأول من الخط الذى تم انشاؤه (من وادى حلفا وسرس) كانت فى عامى ١٨٧٩ / ١٨٨٠ أكثر من مصر وفاته وأن الوضع سوف يزداد فى التحسين للأسباب الآتية :

أولا : ان التجارة المصرية السودانية فى تقدم حيث بلغت ايرادات السكة الحديد فى عام ١٨٧٨ مبلغ ٣٦٢٠ ليرة * مصرية ، وفى عام ١٨٧٩ بلغت ٥٠٨٣ ليرة مصرية ، وفى عام ١٨٨٠ وصلت الى ٧٣٦٠ ليرة أى أنها تضاعفت فى مدة سنتين •

ثانيا : ان مد سكة حديدية طولها ٤٠٠ كيلو مترا يجلب التجارة أكثر مما تجلبه سكة طولها ٥٠ كيلو مترا •

ثالثا : انه متى تيسر نقل البضائع عن طريق السكة الحديد من دنقلة الى وادى حلفا قلت نفقات النقل فضلا عن عدم تعرضها للتلف ، كما هو الحال بالنسبة للقوافل التى تقطع مسافة طويلة وسط أخطار جسيمة •

وفى النهاية رأت اللجنة ضرورة استئناف العمل ومد الخط من « سرس » الى دنقلة الجديدة [٢] • وتطالعنا مذكرة بتاريخ ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨١ حول هذا الموضوع مقدمة من أحد الأفراد الى الحكومة

---

(١) انظر نص هذا التقرير بمحافظ السودان — سكة حديد — نظارة الأشغال — تقرير القومسيون الذى تعهد للبحث فى انشاء السكة الحديدية السودانية « محفظة بدون رقم » بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٨٨١ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(*) هكذا وردت كلمة ليرة وان كنا نعتقد أن واضع التقرير يعنى جنيها .

(٢) محافظ السودان — سكة حديد — التقرير السابق .

المصرية للتصريح له باتمام الخط المذكور — الذى توقف عام ١٨٧٨ الى النقطة التى تعينها الحكومة وانه سيتكفل الانفاق على المشروع نظرا للضائقة المالية التى تمر بها البلاد شريطة أن تتنازل الحكومة له عن الخط الذى سبق انشاؤه ، حيث يقوم هو بتشغيله عن طريق شركة مساهمة • أما اذا ازداد دخل العملية عن ضمان الحكومة فيكون لها حق الانتفاع ببعض الزيادة وفضلا عن ذلك يحق لها الحصول على الخط المذكور عن طريق الشراء فى أى وقت تشاء (١) •

ولم نقرأ فى الوثائق عن نتائج هذه الاقتراحات ، ويبدو أن الأمور ظلت على ما هى عليه حتى عام ١٨٨٤ حين وصلت مجموعة من المهندسين الانجليز وتسلمت الخط الحديدى بين حلفا وسرس (٢) •

البريد والتليغراف :

(أ) البريد :

لقد كانت مسألة البريد من التطورات الملموسة فى حياة المواطن السودانى ، وذلك منذ أن ضم هذا البلد الى مصر • فقد أولى محمد على هذه المسألة عنايته حتى جاء خلفاؤه فأكملوا المسيرة •

وقد كانت الخرطوم هى المركز الرئيسى للبريد حيث ينقل فى السفن ثم يحمل على ظهور الابل فى مرحلة تالية من الطريق حتى يصل الى مصر • كذلك فقد كان لتوزيع هذا البريد فى داخل المديريات السودانية نفس الاهتمام •

---

(١) مذكرة بشأن الموافقة على انشاء شركة مساهمة لمد خطوط السكك الحديدية بالسودان . السودان — سكة حديد — محفظة (بدون رقم) ٢٠ ديسمبر ١٨٨١ — ٢٤ ابريل سنة ١٨٨٣ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) الشاطر بصيلى : المرجع السابق . ص ٣٧ .

ولقد أصبحت مأمورية دنقلة فى عهد محمد على مركزا للاتصـال بين مأموريات سنار وكردفان فى بداية ضم السودان حيث أمـر حاكمها بأن يتلقى أخبار سنار وكردفان وأن يبعث « بهجانة » فى الجبال عند وصول أخبار جديدة عن تلك المأموريات • وفى عهد الحكمدار خورشيد باشا جرت تعديلات فى مسألة البريد حيث صدرت اليه الأوامر بتنظيم البريد وذلك بتحديد موعـد ذهاب وعـودة الهجانة باليوم والسـاعة وأن ينذر من يقوم بالتأخير ، ويقطع مرتب من لا جمـل له ، ويقوم كذلك باعداد دفتر للتعيين والرفت • وبالفعل فقد تم انشاء محطات عديدة على طول الطريق من الخرطوم إلى مصر تستريح فيها الابل وتبدل • وكانت الرسائل تصل الى الخرطوم مرتين كل شهر ، وتقطع المسـافة بينهما فى خمسة وعشرين يوما أو ثمانية عشر يوما • وقد عقب المسـيو « جومار » على انتظـام البريد فى عهد محمد على بقوله « ••• من ذا الذى كان يصـدق قبـل أربعين عاما بل خمسة عشر عاما فقط أن تصلنا الرسائل من ضفاف النيـل الأبيض الى ضفاف السين فى اثنين وثلاثين يوما • وتصلنا من (قزنقور) (جنوب فازوغلى) عند الدرجـة العاشرة من خط الاستواء فى خمسـين يومـا » (١) •

وزيادة فى الحرص على انتظام وصول البريد عين معاون لكل مديرية للطواف على محطات البريد فى جميع أنحاء المديرية والتفتيش على الجمال ومعرفة مدى قدرتها على القيام بعملها ، وتوقيع عقوبة الجلد على كل من يهمل فى أداء هذه المهمة من شيوخ المحطات (٢) •

---

(١) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعـلاقات العربية الافريقية ص ٢٧٦ عن :

Jomard ; M, Observation Sur Le Voyage au Darfur, et le Nile Blanc Supérieur. Paris, 1845.

(٢) سجل مديرية بربر وجاعلين رقم ٣٤٥٧ . الى محمد افندى مأمور اشغال سر عسكر بتاريخ (٧ رمضان ١٢١٦ هـ — ١٩ جمادى آخر ١٢٦٢ هـ) دار الوثائق القومية بالقلعة .

وكانت الخطابات والأوامر التى تصل الى المديريات السودانية تلف « بمشمع » وتوضع فى داخل أكياس تسمى « جربان » لوقايتها من الأمطار ، كما كانت ترفق بهذه الخطابات « حافظة » من كرسكو توضح فيها المحتويات وأسماء أصحاب الخطابات ثم تختم هذه الخطابات بالشمع الأحمر زيادة فى الحرص عليها من العبث (١) .

وقد صدرت أوامر الى مختلف الجهات لاجراء المزيد من التنظيمات التى تكفل وصول البريد فى الموعد المحدد له ، وأن يدون الوقت — الذى يقوم فيه البريد — على المظروف حتى يتسنى معرفة الموعد المحدد له ، وبذلك يمكن معرفة الموعد الذى يصل فيه الى المحطات . وبهذه الوسيلة يمكن تحديد المسئولية ويتفادى التأخير (٢) .

وفى عهد محمد سعيد باشا تم تنظيم البريد بين الخرطوم ومصر فسيره على الهجين بطريق كرسكو وأنشأ محطات فى هذا الطريق (٣) . ويقول فردريك بنولا ان الجمهور فى أيام محمد على لم يكن له الحق فى استخدام السعاة لنقل مراسلاته العادية وحمل النقود من جهة الى أخرى إلا فى عهد محمد سعيد ، فكان مقدار الرسم الذى يؤخذ على الخطاب المرسل من مصر الى الخرطوم سبعة قروش ونصف . وكان يصل الى الخرطوم فى حوالى خمسين يوما من تاريخ ارساله (٤) .

ومنذ عام ١٨٦٤ اتسع نطاق المراسلات وأصبح عبئا ثقيلا على

---

(١) سجل مديرية بربر وجاعلين رقم ٣٤٥٥ . الى متعهد البريد بتاريخ ١٤ ربيع ثان ١٢٦٢ هـ — ٣ رجب ١٢٦١ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٣٩٢ صادر وثيقة ١٢٢٥ الى حكمدار السودان بتاريخ ٤ جمادى أول ١٢٦٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) فردريك بنولا : كتاب مصر والجغرافيا . ص ٣٦ ، أنظر أيضا نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ٣١ ، ايضا : عبد الرحمن الرافعى : اسماعيل . الجزء الاول . ص ٤٠ .

(٤) بنولا : المرجع السابق . ص ١٠٠ .

الحكومة فرأت اسناد هذه المهمة الى احـدى الشركات الأجنبية • وفى أول يناير عـام ١٨٦٥ عادت الحكومة الى الاشراف على هـذه المصلحة وعهدت بادارتها الى « موتزى بك » ولم تلبث على عهـده ان ازدهرت ازدهارا ملحوظا إذ انشئت مكاتب جديدة للبريد فى مصر والسودان •

وبالاضافة الى ذلك ، فقد عنيت الادارة المصرية فى السودان — على عهد الخديوى اسماعيل — بتنظيم بريد برى بين سـواكن والقصير حتى يتم تنظيم الخط الملاحى البحرى بين سـواكن ومصـوع وبينهـا وبين السويس • وبالفعل تم انشاء مكتبين للبريد بكل من مصوع وسـواكن ، وتم تخصيص باخرة لنقـل بريد السودان كافة من سواكن الى مصر مرة كل أسبوع • فقد كان البريد السودانى ينقل من الخرطوم الى سـواكن برا بواسـطة رجال الهجانة ، ثم من سـواكن الى السـويس بحرا • وبالاضافة الى ذلك تم ربط مصوع وسواكن بخط بحرى ، فخصص وابور للاقامة بكل منهما ؛ وجـرى تنظيم مواعيد تحركهما بدقة تامة (١) •

وفى عام ١٨٦٧ تم افتتـاح مكتب للبريد بسـواكن ، وفى عـام ١٨٦٩ افتتح مكتب بمصوع (٢) ، وما ان حل عام ١٨٧٣ حتى عمت مكاتب البريد أرجاء السودان ، فى وادى حلفا وكرسكو ودنقلة وبربر والخرطوم ثم امتـدت فيمـا بعـد الى سـنار وفازوغلى والقضـارف والأبيض والفـاشر (٣) • وفى نفس العـام تم انشـاء ادارة خاصـة للبريد فى

---

(١) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا . المجلد الثانى من الجزء الثالث ص ٦٥٣ . انظر أيضا : شوقى الجمل : المرجع السـابق ص ١٩٩ ، وأيضا : محفظة رقم ٣٨ معية تركى — ترجمة الوثيقـة التركية رقم ٩٣ بتاريخ ١٩ محرم ١٢٨٣ هـ • من جعفر مظهر الى السكرتير الخاص للجناب العالى . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٣٣ عابدين وارد تليغرافات . تليغراف رقم ٤٦ بتاريخ ١٤ شعبان سـنة ١٢٩١ هـ • من حكمدار السودان بالفاشر الى خديوى باشـا .

(٣) دفتر رقم ٣٣ — الوثيقة السابقة . وايضا : شوقى الجمل : المرجع السـابق ص ١٣٣ — ١٣٤ وأيضا بنولا : المرجع السابق . ص ١٠٠ — ١٠١

الخرطوم (١) • وفى عام ١٨٧٥ تم افتتاح خط جـديد للبريد بين بربره وعدن وزيلع (٢) • ولقد انضم البريد السودانى الى اتحاد البريد العالمى فى عـام ١٨٧٨ (٣) • كذلك فقد رتب أمين باشـا بريدا أسـبوعيا يربط محطات خط الاستواء بعضها بالبعض الآخـر ، مما حـدا بالمبشر فيلكن Felkin الى القـول بأن المراسـلات كانـت تسـافر وهى أكثر أمنـا (٤) •

وظلت مكاتب بريد السودان تؤدى مهمتها بانتظـام الى أن تعطلت عقب اندلاع الثورة المهدية • أما مكتب الخرطوم فقد ظل حتى سـقوط المدينة فى أيدى الثوار عـام ١٨٨٥ (٥) •

والجدير بالذكر ان هناك احصائية فى عام ١٨٧٨ تذكر بأن مصاريف « بوستة » السـودان تبلغ ستة عشر ألف جنيه سنويا • أما الجارى تحصيله من ايرادها فهو مبلغ سبعة آلاف جنيه فقط (٦) •

التليغـراف :

وفيما يتعلق بخطوط التليغراف فقد بدأت الادارة المصرية فى مدها بين مصر والسودان منذ عام ١٨٦٤ • وفى عام ١٨٦٦ وصلت هذه الخطوط الى وادى حلفا • وفى عام ١٨٧٠ الى قرب الخرطوم • كذلك فقـد تم

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل — الجزء الأول ، ص ١٦٥ .
(٢) دفتر رقم ١٥ معية وارد الافادات (عربى) ص ١٦ . مكاتبة رقم ٦ بتاريخ ١٥ رمضان سنة ١٢٩٢ هـ .
(٣) شوقى الجمل : المرجع السابق . ص ١٣٤ .
(٤) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء . الجزء الأول . ص ٣٨٥ .
(٥) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق . ص ١٦٥ .
(٦) دفتر رقم ٥٠ عابدين وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ٢٣٠ بتاريخ ١٦ رجب سنة ١٢٩٢ هـ (٢٠ يولية ١٨٧٨) من غوردون باشا بالخرطوم الى سعادة صبرى باشا .

تمهيد طريق (سواكن ــ بربر) لمد خطوط التليغراف به وجــرى تفضيل هذا الطريق على طريق (سواكن ــ كسلا) لقربه وسهولته • كما مــدت أيضا خطوط التليغراف بين سواكن ومصــوع وموانىء البحر الأحمــر وبينها جميعا وبين الخرطوم (١) •

ولقد اختصر التليغراف ــ بين زيلع وبين سواكن ــ زهاء نصــف البحــر الأحمر الجنوبى ، وأصبح من الســهل الاتصال بهذا الميناء الأخير من أى جهــة على الســاحل (٢) ، كذلك فقــد وصلت الخطوط التليغرافية فى غربى السودان الى (فوجه) شرقى الفاشر (٣) •

وكانت الحكومة تولى عناية تامة لحسن سير أمور التليغراف ، ومن ذلك أنها قررت ترتيب (خفر) على طول هذه الخطوط وخصــوصا فى المسافة من حلفــا الى دنقلة وذلك لحفظ وصيانة هذه الخطــوط (٤) • وكان (سلامه بك) كبير مهندسى عمــوم التليغراف فى عهــد اسماعيل حريصا على تفقد سير هذه الخطوط بانتظام (٥) • وقد بلغت مســافات الخطوط التليغرافية التى انشئت فى السودان عام ١٨٧٠ حــوالى ٢١١ كيلو مترا • كمــا بلغ عدد مكاتب التليغراف فى مدن الســودان عام

---

(١) دفتر رقم ٢ عابدين ــ وارد تليغراف ص ٨٨ ــ ترجمة التليغراف التركى نمرة ٥٩٦ فى ١٦ ذى القعدة سنة ١٢٨٢ هـ • انظر شوقى الجمل : الوثائق التاريخية • ص ٧٠ •

(٢) محمد صبرى : مصر فى افريقيا الشرقية • ص ٢٠ •

(٣) دفتر رقــم ١٩٤٦ أوامر عــربى نمرة ٢ ص ٣٨ وثيقة بتاريخ ٨ ذى الحجة ١٢٨٩ هـ •

(٤) دفتر رقم ٢٨ صادر تليغرافات عابدين ــ وثيقة رقــم ٨١ بتاريخ ٢٧ ربيع الآخــر سنة ١٢٩٣ هـ • من خيرى باشــا الى وكيل أشغال السكة الحديد السودانية •

(٥) شوقى الجمل : المرجع السابق • ص ١٣٦ •

١٨٧٧ واحداً وعشرين مكتبا (١) • وتجدر الاشارة الى انه فى عام ١٨٧٨ تم ادماج مصلحة البوستة بالتليغراف (٢) •

المواصــلات النهــرية :

كانت الملاحة فى نهر النيل بصفة عامة قبل ضم الســودان عــام ١٨٢١ لا تمثل أهمية كبيرة بالنسبة لخطوط النقل والمواصلات السودانية وذلك بسبب جهل السودانيين فى ذلك الوقت بصناعة السفن • كما أن التجــارة التى كانت تنقل عن طريق النيل عرضة للرســوم والضرائب والسلب والنهب ، لدرجة ان الرحــلات الطويلة عبر النيل قــد أوقفت تماما فى أواخر عهد السلطنة السنارية نتيجة للفوضى وغياب الأمن (٣) •

وما ان خضع السودان للادارة المصرية حتى بدأت تظهــر نهضة واضحة فى صناعة السفن ، إذ انشئت ــ كما سبق أن ذكــرنا ــ لأول مرة فى تاريخ السودان الحديث ترسانات الخرطوم وسنار وبربر ودنقلة لتمد الحكومة بالسفن الشراعية لنقل السلع والمنتجات السودانية كالصمغ وسن الفيل وريش النعام المصدر الى مصر (٤) •

وفى محاولة للتغلب على المشاكل التى كانت تعترض التجــارة عبر النيل بين مصر والســودان قامت الحكومة بازالة العقبات التى تعترض الملاحة فى مجرى نهر النيل الجنــوبى فأرسلت الحمــلات المكونة من المهندسين والعمال الفنيين الى تلك الجهات لكسر الصخور وشق القنوات بينها حتى يمكن للسفن المرور خلالها (٥) •

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٢) دفتر رقم ٣٦ صادرات تليغرافات ــ صورة التليغراف العــربى الشفرة رقــم ٥٨٣ بتاريخ ١٦ أغسطس ١٨٧٨ . ارادة ســنية الى سعادة حكمدار الأقاليم السودانية .

(٣) حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ١٤٩ .

(٤) دفتر رقم ٧٦٦ ديوان خديوى ــ ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢١٢ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٤٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٥) دفتر رقم ٣٠١ ــ معاونة جهادية ــ ترجمة الأمر رقم ١٠٣٣ بتاريخ ٢٠ ربيع الآخر سنة ١٢٥٤ هـ . الى مختار بك . دار الوثائق بالقلعة .

كذلك فقد عملت الحكومة على تنظيم وتسهيل الملاحة فى الجنادل (أو ما يعرف باسم الشلالات) حيث عينت فى كل منها لجنة من مشرف عام و « ريس » مع بعض البحارة وأهالى المنطقة ، بالاضافة الى تعيين شخص فى كل المدن الهامة الواقعة على النهر للاشراف على سلامة الواردات السودانية الى مصر عبر النيل (١) .

وقد أكد الرحالة الذين زاروا السودان أيام حكم محمد على أن حركة النقل بطريق النيل قد اتسعت بين مصر والسودان فى ذلك الوقت حتى أصبح كثير من التجار والجلابة فى دنقلة وسنار يفضلون شحن بضائعهم وبخاصة الرقيق الى اسنا على سفن وقوارب كبيرة أعدت لهذا الغرض بدلا من نقلها بواسطة الابل عبر الصحراء (٢) .

وينبغى ألا نعول كثيرا على أهمية نهر النيل كطريق للتجارة — فى ذلك الوقت — فرغم تلك الجهود التى بذلها المسئولون ، واشادة بعض الرحالة فان هذا الطريق كان لا يزال محفوفا بالمخاطر الطبيعية أو العقبات التى يثيرها السكان المقيمون حول ضفتيه . أما ما يقال عن تفضيل تجار الرقيق لهذا الطريق المائى فهو نوع من الاستثناء — فأكثر التجار فى ذلك الوقت كانوا يفضلون دروب الصحراء — لأن الرقيق لم يكن يتحمل مشقة الصحراء الأمر الذى يجعله عرضة للموت ، وهذا يعنى كارثة للتجار بعكس بعض السلع الأخرى التى لم تكن عرضة للتلف . ولهذا كله اختار تجار الرقيق أخف الضررين وفضلوا طريق النيل .

واستمرت جهود الباشا فى الاهتمام بالملاحة عبر نهر النيل

---

(١) حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ١٥١ .

(٢) Deherain; Op. Cit. pp. 128-340 - 1 & Muskau; Op. Cit., Vol. II. p. 104.

وخصوصا داخـل الأقاليم السـودانية ، ومن ذلك فتح النيل الأبيض للملاحة والتجارة عقب الحملات الثلاث التى قام بهـا سليم قبطـان فى النيل الأبيض • ففى أعقـابها نشطت حركة الملاحة فى النيـل الأبيض ومناطق النيل العليا (١) •

وقد تركت الحكومة للتجار الأجانب حرية الملاحة وامتلاك السـفن واستئجارها من ترسانات الحكومة من أجـل القيام برحلات تجارية الى الجنـوب (٢) • ولكن فى عهـد الحكمدار عبد اللطيف باشا (١٨٤٩ — ١٨٥٢) — كما سبق القول — جأر التجار بالشكوى لأنه أراد احتكار الملاحة فى النيل الأبيض وانتهى الأمر باستدعائه واعلان حرية الملاحة • وكان من نتائج ذلك ازدياد نشـاط حركة الملاحة والتجـارة فى حوض النيل الأبيض ، وحوض بحر الغزال وبحر الجبل وأصبحت (غندكرو) بين عامى ١٨٥٠ / ١٨٦٠ مركزا رئيسيا لتجارة العاج فى تلك المناطق •

ولقد بدأت معرفة السودانيين بالسفن التجارية فى نهر النيـل على فترات عدة • والبداية كانت على عهد سعيد باشا خلال زيارته للسـودان عام ١٨٥٧ ثم خلال حملة صمويل بيكر عام ١٨٦٩ ، ثم فى عهد حكمدارية غوردون باشـا منذ عام ١٨٧٧ •وقد نقلت أجـزاء أكثر هذه السـفن على ظهـور الابـل عبر صحراء العتمـور من كرسـكو وعبر الصحراء الشرقية وجبال البحر الأحمر من ميناء سواكن الى ترسانة الخرطوم حيث اعيد تركيبها من جديد • وكانت أول سفينة وصلت الى السودان فى عهد سعيد باشـا هى تلك السفينة التى استقلها الأمير عبد الحليم باشا نجل محمـد على عنـد تعيينه حكمدار للسـودان (٢٤ نوفمبر ١٨٥٥ — ٢٨ ديسمبر ١٨٥٦) (٣) •

---

(١) سامارکو : رحلة محمد على الى السودان • ص ١٢ — ١٣ •
(٢) نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٣٣٥ •
(٣) الشاطر بصيلى : المرجع السابق • ص ١٩ •

وفى عهد الخديوى اسماعيل جرى بحث عدة مشروعات للنقل المائى عبر نهر النيــل وهى :

١ ــ انشاء ترعة ملاحية شرقى أسوان لتجنب مناطق الجنادل •

٢ ــ أو انشاء هذه الترعة فى الغرب •

٣ ــ انشاء مجرى ملاحى فى منطقة الجنادل نفسها وذلك بتحطيم الصخور • ولــكن الأزمــة الماليــة ــ آنذاك ــ حالت دون تنفيذها (١) •

وإبان حملة صمويل بيكر تم ارسال ست سفن * الى الخرطوم ، كما أرسلت ثلاث سفن أخرى مفككة عبر صحراء العتمور (كرسكو ــ الخرطوم) للتركيب فى ترسانة الخرطوم (**) •

وقد حــاول غوردون ايجــاد مواصلات بطريق النيل فى الجهــات العليا لمجرى النهر لتحل محل وســائل النقل البرية المتهالكة هناك والتى كانت تكلفه نفقات باهظة • وهذه الوسائل كان لابد منهــا بين معسكره العام والنقط المنتشرة فى الجنوب • وقد انشــأ غوردون (بالدفلاى) شمال بحيرة البرت ترسانة لتنظيم الملاحة فى تلك المناطق • وكان مشروعه ــ فى استخدام النيل فى النقل جنوب غندكرو ــ ضربا من المجازفة إذ كان يســود الناس آنذاك اعتقاد ــ لا أساس له ــ بأن النيل ابتــداء من جنوب الرجاف وحتى دوفيليه غــير صــالح للملاحة وبالتالى لا يمكن استخدامه (٢) •

---

(١) شوقى الجمل : تاريخ سودان ــ ج ٢ • ص ١٣٧ •
(*) « الطلحاوية ــ البوردين ــ صافية ــ المنصورة ــ شبين ــ امبــابة » •
(**) « الاسماعيلية ــ الخديو ــ نيانزا » •
(٢) عمر طوسون : المرجع السابق • ص ١٣٥ •

ومن العقبات الخطــيرة التى كانت تواجه الملاحــة فى نهر الن
وخصوصا فى الجهات الواقعة جنــوبى الخرطوم تلك الســدود الن
الكثيفة التى اعترضت مجرى النهر • وقد كانت هذه السدود فى فص
الأمطار — على حــد قول البعض — تشــغل مساحة تعــادل مسـ
انجلترا (١) • فقد كانت تتخللها ثلاثة مسالك مائية رئيسية كانت عرض
لأن تسد كلها أو أى منهــا فى أى وقت (٢) لهذا كله بذلت جهود مـ
من قبل الحكومة لفتح منطقة الســدود • وذلك بتجنيد الأعــداد
لانجاز هذه المهمــة (٣) •

وقد أشاد غوردون باشا بجهــود اسماعيل باشا أيوب (٨٧٣
١٨٧٧) فى ازالة العوائق التى كانت تعترض الملاحة فى مناطق السـ
النباتية لدرجــة أنه أصبح فى الامــكان الانتقــال من الخرطــوم
غندكرو فى غضون ثلاثة أسابيع بعد أن كانت الرحلة تستغرق من ذ
من عام ونصف الى عامين •

المواصــلات البحــرية :

احتل السودان جزءا طويلا من ساحل البحر الأحمر الغربى
موقعه وكانت كل من سواكن ومصوع بالاضافة الى جــدة على الـ
الشرقى للبحر الأحمر قبل عام ١٨٤٦ تحت ادارة عثمانية ، وضعفت
هذا التاريخ الرابطة السياسية والادارية بين الأقاليم السودانية وسـ

---

(١) الان مورهيد : النيل الأبيض • ص ٩٢ •

(٢) نفس المرجع • ص ٩٣ وحول هذه السدود النباتية انظر ما
دفتر رقم ١٧ عابدين — صور التليغراف العربى رقم ٦٠٦ بتار
هاتور سنة ١٢٨٩ هـ • ورد فى ١٧ رمضان ١٢٨٩ هـ • من مدير عمــوم
الســودان الى صبرى باشا ، وأيضا الوقائع المصرية . العــدد ٢،
١٧ ابريل ١٨٧٤ • ص ١ وأيضا : جورج جنــدى وجاك تاجر : المر
الســابق • ص ٢٦٨ — ٢٦٩ •

(٣) جميل عبيد : المديرية الاستوائية • ص ٤٠٨ ، ص ٤٤١ •

البحر الأحمر وبالتالى انعكس ذلك على عدم اهتمام السودانيين بالبحر وتركوا هذه المهمة للحداربة من سكان سواكن .

ولكن عقب عام ١٨٤٦ نشطت حركة الملاحة بين موانىء السودان وموانىء الساحل الشرقى للبحر الأحمر وبينها جميعا وبين السويس . وقد كانت هناك عدة عوامل أدت الى ذلك من أهمها استخدام البخار فى تسيير السفن وما أدى اليه من تطور سريع ، والتنافس الدولى بين انجلترا وفرنسا وتفكير الأخيرة فى ضرب انجلترا فى مستعمراتها فى فى الشرق والهند ، بالاضافة الى ادراك مصر لمطامع الدول الاستعمارية ومحاولة سبق هذه الدولة فى الاهتمام بهذه الموانىء (١) .

وفى عهد محمد على تم فتح طريق مباشر للملاحة بين سواكن والسويس حتى يتيسر نقل السلع السودانية القريبة من الساحل والتى يصعب نقلها بطريق النيل أو الصحراء وأهمها الماشية من التاكة (٢) .

وفى عام ١٨٥٦ على عهد سعيد باشا تم الحصول على فرمان يمنحه حق تكوين شركة ملاحية بين موانىء البحر المتوسط وموانىء البحر الأحمر . وبالفعل تم تأسيسها فى عام ١٨٥٧ وسميت بالشركة المجيدية . وكانت تقوم بالملاحة بين السويس وموانىء الحجاز واليمن والقصير وسواكن ومصوع . وكانت لهذه الشركة أربعة مراكب هى (الحجاز ونجد والقبارى وجدة) (٣) .

وفى عهد الخديوى اسماعيل حلت الشركة العزيزية محل الشركة

---

(١) شوقى الجمل : سياسة مصر واستراتيجيتها فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . مقال بكتاب : البحر الأحمر فى التاريخ ص ٤١٠ .

(٢) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٣٩ .

(٣) انظر مجموعة الفرمانات الشاهانية ، فرمان رقم ٨٥١ ؛ انظر أيضا : شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

المجيدية وكانت تقـوم بنقل المتاجر والمسافرين الى ثغور البحر الأحمر والبحر المتوسـط وقد خصص لها الخديوى سبع بواخـر كانت موجودة من قبل ، وأوصى بانشـاء بواخر جديدة فى انجلترا • وأصبح يقود هذه البواخر ضباط البحرية القدامى الذين تركوا الخدمة •

ولبواخر الشركة العزيزية فضـل كبير فى نشـاط حركة التجـارة الخارجية لمصر وتسهيل مواصلاتها البحرية مع الأقطار الأخرى ، بل انها نافست شركات الملاحـة الأجنبية فى هذا المجـال الأمر الذى أدى الى نمو ايراداتها ، فلجأ الخـديوى لشراء أسهمها حتى يحتكر أرباحهـا ، وجعلها احدى ادارات الحكومة فعرفت بمصلحة (وابـورات البوسـتة الخديوية) ، وأصبح لها ست وعشرون باخرة تقوم بالتجـارة ونقـل البريد فى ثغور البحر المتوسط وثغور البحـر الأحمر كسواكن ومصوع وينبع وجدة والحديدة ثم تجتاز باب المندب الى زيلع وبربره (١) •

وكانت هنـاك مواقيت منتظمة لمرور البواخـر فيمـا بين موانىء السويس وجدة وبربره وبين السويس وبربره ، وبين بربره وزيلع وعـدن بحيث يمكن ربط جميع موانىء البحر الأحمر بخطوط مواصلات منتظمة وبذلك أمكن للمتاجر وللمسافرين أن ينتقلوا فى سهولة ويسر ، بالاضافة الى الدور الذى كانت تلعبه فى نقل البريد (٢) •

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ، الجزء الأول ص ١٨٨ — ١٨٩ . وانظر أيضا الوثائق الآتية : دفتر رقم ٣ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ١٠٦ بتاريخ ٢٢ ربيع الاخر سـنة ١٢٨٣ هـ من وكيل القومبانية بالسويس الى رياض باشا . وانظر ايضا نفس الدفتر صور تليغرافات تحت ارقام ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ بنفس التاريخ ، ايضا نفس الدفتر ، صورة تليغراف رقم ١٤٩ بتاريخ ٢٨ ربيع الآخر سـنة ١٢٨٣ هـ من القومبانية بالسويس الى رياض باشا . وانظر ايضا دفتر رقم ٤ عابدين وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ٥٨ بتاريخ ليلة ٥ جماد أول سـنة ١٢٨٣ هـ . من وكيل القومبانية بالسـويس الى رياض باشـا . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) محافظ أبحاث السودان . محفظة رقـم ٣٦ ، دفتر رقم ١ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

ولقد كانت الشركة العزيزية تحتكر ملاحة السفن التجارية فى كل من نهر النيل والبحر الأحمر والبحر المتوسط • والجدول التالى يبين ايرادات ونفقات الشركة ثم أرباحها خلال ثلاثة أعوام (يونية ١٨٦٣ — ٩ مايو ١٨٦٦) (*) •

المكان	لايراد بالجنيه الاسترلينى	النفقات	الأرباح
البحر المتوسط	١١ر٢ر٠٢٣ر٢٩٦	٠ر١٧ر٤٩٠ر١٦٢	١١ر١٥ر٥٢٢ر١٣٣
البحر الأحمر	٦ر٥ر٦٤٥ر٣٤٢	١ر١٦ر٢٧٥ر١٥١	٥ر٩ر٣٤٩ر١٩١
نهر النيل	١٠ر٠ر٦٠٣ر٢٤٤	٩ر١٨ر٥٨٠ر١٢٩	١ر٢ر٠٢٢ر١١٥

ويمكننا أن نستنتج من هذا الجدول ما يلى :

أولا : حققت جميع البواخر سواء فى البحرين المتوسط والأحمر أو نهر النيل أرباحا •

ثانيا : ان بواخر النقل فى البحر الأحمر قد حققت أكثر الأرباح ، وربما يرجع ذلك الى كثرة الرحلات والبضائع التى كانت تمر بها على الشاطئين الشرقى والغربى للبحر الأحمر وحتى باب المندب ، بالاضافة الى الرعاية الكبيرة التى كانت تلقاها فى هذه الموانىء التى كانت تحت سيطرة الادارة المصرية •

(*) الأرشيف الأمريكى ، محفظة رقم ٤ ، ملف رقم ٤ بدار الوثائق بالقلعة .

Despatch No. 93, Agency and Consular General of the United States of America. Alexandria, Egypt, June 17, 1867. Hon. William H. Seward. Secretary of State.

وبافتتاح قناة السويس للملاحة البحرية فى عام ١٨٦٩ ازدادت أهمية البحر الأحمر كطريق للمواصلات فازدادت حركة السفن العالمية به الأمر الذى أدى الى فتح آفاق أرحب للتجارة المصرية السودانية ، وانتعاشة اقتصادية لموانىء البحر الأحمر • بل ان افتتاح القناة قد أدى أيضا الى زيادة عدد البواخر الراسية فى ميناء البصرة العراقى بسبب كثرة ورود السفن الأوربية عبر القناة ، وان كان ذلك قد أدى الى فقدان العراق — نسبيا — لعملية نقل منتجات اليمن مثل البن ومنتجات الهند الى دمشق وحلب ، حيث أصبح من الأرخص نقلها مباشرة عبر القناة الى الموانىء الشامية (١) •

هكذا يتبين لنا من خلال تتبعنا لتطور طرق المواصلات السودانية من برية ونهرية وبحرية أنها جميعا قد لعبت دورا فى التجارة السودانية وان تفاوت هذا الدور بينها بحيث يمكننا القول ان الطرق البرية ؛ وخصوصا طرق القوافل ، كانت على رأسها جميعا • كذلك يمكن أن نخلص الى أن نهر النيل لم يلعب دورا رئيسيا فى التجارة الداخلية للسودان على عكس ما كان يتوقع منه على اعتبار انه ممر طويل يشق البلاد من جنوبها الى شمالها وتتصل به فروع عدة كان يمكن به ومعها أن تزدهر التجارة السودانية •

---

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العرب الحديث والمعاصر — الجزء الأول . العراق ص ١٧٢ .

الفصل الرابع

الضرائب وشئون المـال

— أنــواع الضرائب

— تحصيل الضرائب وأساليبه

— الاصلاحات الضرائبيــة :

(أ) فى عهد محمد على .

(ب) فى عهد محمد سعيد .

(جـ) فى عهد اسماعيــل .

(د) اصلاحات رؤوف باشا .

— النظام المالى فى السودان على عهد محمد على .

— انعكاسات مصر السياسية عام ١٨٤١ على أوضاع مصر والســودان ماليــا .

— خلفــاء محمد على وماليــة السودان .

— التدهور المالى فى عهد اسماعيل وعلاقة السودان بذلك .

— ميزانية السودان عام ١٨٨١ وملاحظات حولها .

* * *

— نظــام الاقتصاد السودانى فى القرن التاسع عشر .

ـ أنواع الضرائب :

لم تكن أنواع الضرائب التى فرضتها الادارة المصرية فى السودان جديدة على مواطنى هذا البلد ، بل انهم ألفوها من قبل ، زمن السلطنة السنارية ، وان كانت بصورة تختلف عن تلك التى فرضتها الادارة المصرية ، إذ كانت الأولى أقرب الى الالتزامات منها الى الضرائب ، وذلك لعدم وجود عملة رسمية متداولة بين الناس فى ذلك الوقت . ومن أهم هذه الضرائب كانت ضريبة الأسواق ، حيث كان يتم تحصيل ضريبة عن كل رأس من الرقيق يتم بيعه بلغت « قيراطا واحدا » * من الذهب . كذلك كانت تجبى ضريبة عن كل رأس يتم بيعه من الجمال والبقر تبلغ عشرين « مهلك » (١) .

وقد جرى أيضا تحصيل خمسة « مهلك » عن كل خروف . و « مهلك » واحد عن كل رأس مباع من الماعز . أما الحمير والخيول فلم تحصل عنها ضرائب (٢) . كذلك فقد كانت هناك ضريبة « العشر » على منتجات الأرض المروية بالسواقى أو المطر . وكانت هذه الضرائب تزداد فى سنى الانتاج الكثير ، فيضاف ٢ « بورما » ** من الدخن عن كل جمل (٣) .

وبالاضافة الى هذه الضرائب نلاحظ أشكالا أخرى منها ما سمى

---

(١) المهلك : عملة إثيوبية تساوى $\frac{1}{16}$ من التالير ، والتالير هو أيضا عملة اثيوبية ، وكان يعرف باسم ريال مارى تريزا ، كما كان يسمى « ابو طيره » لوجود رسم على وجهه على شكل نسر .

(٢) Douin; Op. Cit., Tome. I. p. 272-73.

(٣) Hill; Op. Cit., p. 13.

* قيراط الذهب يساوى تاليرا واحدا . أو دولارا ، أو ريالا ، وكان سعره آنذاك ما يوازى ١٥ قرشا .

** البورما مكيال يملأ زنته خمسة أرطال .

« بالسخرة » ، وهى ضريبة عامة تقــدر طبقا لحالة السكان المالية . وهذه الضريبة كانت توزع بنســب معينة على خــزانة السلطان وعلى الوزراء . وكان الوزراء يقــومون بتوزيع جزء منهــا على « المكوك » و « الارابيب » والمشــايخ ثم الأشخاص القائمين بخدمة السلطان . ومن الضرائب أيضا كانت « المترة » وهى ضريبة خاصة لجيب السلطان ، و « المخــلاية » وهى ضريبة غــلال تدفع لخيل فرســان الســلطان . وضريبة « النزل » وكانت تخصص لأمور ضيافة السلطان ومساعدته فى تنقــلاته . و « العــادة » وكانت تحصــل للســلطان لتغطية نفقــات الظــروف الخاصــة بــه من زواج وطهــور وغير ذلك و « النــار » وهى ضريبة كانت تحصل من القرى التى تعمــد الى حرق الحشــائش حيث كانت هذه الحشائش المحروقة تعد كنوع من الســماد للأرض . و « العنــة » ، وهى ضريبة محلية تحصل على المنسوجات التى تصنع فى داخــل البلاد (١) .

وكانت معظم هــذه الضرائب أو الالتزامات يتم جبايتها بواســطة الفقهاء سواء أكانت نقــدا أو عينا فى صــورة منسوجات من الدمــور أو فى صــورة حبوب كالذرة مثلا ، أو حتى فى صورة حيوانات .

وأما الضرائب التى فرضتها الادارة المصرية فى الســودان منذ عهد محمد على فقد كانت متنوعة بتنوع النشاط الاقتصادى ، فمنها الضريبــة الزراعية التى فرضت على الجماعات المستقرة التى تمارس الزراعة (٢) ،

---

(١) الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والاوســط . ص ٢٦٦ — ٢٦٧ انظر ايضــا : محفظة رقــم ٩ معية عربى مستخرج من المعية السنية رقم ٤١ — ٤٢ بتاريخ ٢٤ صفر سنة ١٢٨٤ هـ . من القائمقام محمد نادى الى الخديو ، انظر ايضا السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى افريقيا ص ٩٥ .

(٢) Hill; Op. Cit., p. 14.

ومنها ضريبة الانتاج الحيوانى على البدو الذين احترفوا الرعى وتربية الحيوان ، ومنها الرسوم الجمركية على التجار والجلابة فى المدن ومراكز النشاط التجارى ، ولا سيما الضرائب التى كانت تؤخذ عن العبيد •

كذلك فقد حصلت أنواع أخرى من الضرائب كضريبة الرأس ، وضريبة النخيل فى بعض المديريات التى كثر فيها النخيل ، وضريبة العقارات فى المدن الكبيرة ، وضريبة عن قوارب النيل و « الفلايك » ، وبالاضافة الى ذلك فقد تم تحصيل رسوم على التقاضى وعقود البيع والشراء والتسجيل والزواج والطلاق والمنازعات الخاصة بالميراث •

ولقد اختلفت قيمة الضريبة التى كانت تؤخذ على الأراضى باختلاف نوع الأرض وأسلوب ريها ، فالأراضى التى كانت تزرع على الأمطار أو ما كانت تسمى بـ « السلوكا » Selouka لم تفرض عليها ضرائب مباشرة ، بل فرض على كل قرية تقديم بعض الالتزامات للجيش من القمح والضأن والزبد وكانت تؤخذ حسب المساحة المزروعة (١) •

كذلك فقد اختلفت تقديرات الضرائب من مديرية الى أخرى فى السودان وذلك حسب ظروفها وامكاناتها ، فالضرائب التى كانت تحصل من سنار — أحيانا — كانت تقل عن مثيلتها فى مديرية أخرى ، وخصوصا الضريبة التى حصلت عن العبيد (٢) •

وفيما يتعلق بسواكن كان المعتاد من قبل أن تؤخذ ضرائب عرفت باسم (عوائد الدخول) على البضائع المصدرة من سواكن الى جهات السودان الأخرى والواردة لها من هذه الجهات ، فقامت الادارة المصرية عام ١٨٦٦ بالغائها واكتفت بالجمرك القائم بتحصيل الرسوم

---

(١) Hill; Op. Cit., p. 14.

(٢) Douin; Op. Cit., p. 272.

على البضـــائع الواردة والمصـــدرة (١) ؛ ثم منحـــت عوائد القصـــابة (الجزارة) الى أحـــد الأفراد بسواكن على شكل التزام نظير مبلغ بلغ أربعمائة ريال سنويا ، وذلك عن المواشى التى تذبح بالبلدة أو ترســـل الى جدة (٢) • وفى جنوب الســـودان صدرت الأوامر بعدم اضافة أعباء جديدة عليهم تزيد عما ألفـــوه من قبل ، نظرا لحداثة دخولهم بســـلك المدنيـــة (٣) •

وفى عام ١٨٧٥ شرع اسماعيل أيوب فى فرض ضرائب على أهاليها فجعل على كل فرد خمسين قرشا فى السنة ، وأكثر من ذلك قليـــلا على الأغنياء • وقد طلب من الحكمدار تخفيفها وجعلها من قرشين الى عشرة قروش حتى لا ينفر الأهالى منها • كما اقترح آخـــرون ــ أمثال سلاطين باشا ــ أن يقدم أهل دارفور ضريبتهم على هيئة عبيد (٤) •

هكذا تنوعت الأشكال الضرائبية فى السودان من مكان لآخر وطبقا للنشاط الاقتصادى الذى مارســـه السكان ، ولم تكن هـــذه الضرائب بأشكالها المختلفة والتى فرضتها الادارة المصرية جـــديدة على المواطـــن الســـودانى وان اختلفت مسمياتها فقـــد تدرجت من « طلبيات » الى « فردة » ثم الى « فردة منظمة » وأخيرا وصلت الى ما يعـــرف باسم الضرائب بالمعنى المستخدم حاليا •

---

(١) محافظ أبحاث الســودان ــ محفظة رقم ٢٤ ، دفتر رقم ١ ، منقول عن دفتر رقـــم ٢١١ ص ١٥١ بتاريخ ٢٦ ربيع الثـــانى عـــام ١٢٨٩ هـ • دار الوثائق بالقلعة •

(٢) شوقى الجمل : المرجع السابق • ص ١٠٦ •

(٣) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل • مجلد ٢ ص ٥٦٤ •

(٤) نعوم شقير : المرجع السابق • ص ٨٣ ، وانظر ايضا : ســـلاطين باشـــا : السيف والنار فى السودان • ص ٢٦ •

تحصيل الضرائب وأساليبه :

لقد شرعت الادارة المصرية منذ أن دخل اسماعيل كامل سنار فى تنظيم تحصيل الضرائب ، حيث أمر بتشكيل لجنة ثلاثية ضمت كلا من المعلم حنا الطويل وسعيد أفندى سكرتير الباشا ، والارباب دفع الله و د أحمد • ولعلنا نلاحظ أن هذه اللجنة كانت تضم عضوا من أهل البلاد السودانيين • وقد أمر اسماعيل بتسجيل المنازل وتقسيمها الى « عال » و « متوسط » و « دون » بالاضافة الى تسجيل الرقيق والقطعان التى كانت فى حوزة الأهالى (١) •

وقد شارك الشايقية فى تحصيل هذه الضرائب ، بالاضافة الى مشايخ البلاد ، وربما كانت مسألة اشراكهم فى هذه المهمة فكرة صائبة حتى لا ينفر السودانيون من أدائها لرجال الادارة المصرية بشكل مباشر • وفى بعض المديريات كان يطلب من المدير تعيين أفراد للقيام بهذه المهمة ، حتى يتم انجازها بصورة طيبة (٢) •

ويبدو أن ثمة مصاعب كانت تواجه القائمين على تحصيل هذه الضرئب وخاصة الضريبة الزراعية ، فقد كانت الضرائب التى تحصل عن السواقى فى بعض أجزاء السودان غير مطابقة للواقع ، وبمعنى آخر أن هناك مبالغة فى عدد السواقى التى كانت مسجلة بالدفاتر ، فبينما كانت هناك ٧٠٦ سواق فى بلاد الجعليين كان المقيد منها فى سجلات الضرائب ٢٤٣٧ ساقية (٣) •

---

(١) Holt, P. M., A Modern History of the Sudan p. 43.

(٢) دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى ، ترجمة الافادة التركية رقم ٣٠٨١ بتاريخ ٢ رجب سنة ١٢٦٢ هـ ، افادة الى مدير دنقلة • دار الوثائق بالقلعة •

(٣) Hill, Op. Cit., p. 14.

ولقد أولى محمد على مسألة جمع الضرائب أهمية بالغة فكان يصدر أحكاما قاسية على أولئك المتهاونين فى تحصيلها • فقد أصدر أوامره ذات مرة « بوقف ترقية » أحد الضباط الكبار الذى كان يشـــغل وظيفة مدير بربر وجاعلين لأن الكشف الوارد من لدنه لا يدل على أنـــه أصبح أكثر نشاطا من سلفه فى تحصيل الضرائب • كذلك فقد أصـــدر فى ذات الوقت أمرا « برفت » أميرالاى المشاه الأول لاهماله فى تحصيلها أيضا (١) •

وفى المقابل كان يكافىء المجدين ، فقد بعث ذات مرة يشكر حكمدار السودان على نشاطه ومساعيه فى « تحصيل الأموال المتأخرة » ويطلب منه مكافأة أحد مديرى السودان لجهوده فى هذا الصدد (٢) •

ولا يفهم من ذلك أن القائمين على تحصيل الضرائب كانوا سوطا مسلطا على ظهور السودانيين ، فقد كان أسماعيل كامل يراعى الانسانية فى جمعها ، ويعمل على التخفيف منهـا تارة وتعديلها تارة أخــرى ، كما كان محمد على يندهش أحيـانا لأن العــدالة لـم تراع فى تحصيل الضرائب ، ويطلب بألا يتحمــل الفقراء والأهالى ســوى الضريبة التى تتفق وقدراتهم (٣) • وفى واحــدة من رســائل محمد على الى الباشـا سر عسكر السودان فى عام ١٨٢٢ طلب منه تحصيل الضريبة « ••• على البيوت بحسب الأنفس ، لا على البــلاد والحلل (القرى) ، مع ضرورة تعيين مأمورين من ذوى العفــة والاستقامة والدراية ومعاملة الأهــالى

---

(١) دفتر رقــم ١٨٩ معـــاونة اقاليم — مكاتبة رقـــم ٨٨١ بتاريخ ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢٥٧ هـ • من الجنـــاب العالى الى حكمدار الســـودان • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ١٨٨ معاونة اقاليم — مكاتبة رقم ١١٦١ بتاريخ ٢٥ ربيع الثانى سنة ١٢٥٧ هـ • من الجناب العالى الى حكمدار السودان أنظر أيضا : دفتر رقم ٢٥٧ معاونة ايرادات — ترجمة الافادة رقم ٥٧ بتاريخ ٢١ محرم ١٢٥٧ هـ • الى مدير الايرادات • دار الوثائق بالقلعة •

(٣) Douin; Op. Cit., pp. 280-82-83.

بالرفق واللين ويذكره بأن كل أمر جـديد لابد أن تكون له « مـرارة بادية فى النفوس » (١) •

وفى رسالة أخرى الى حاكم دنقلة طلب محمد على اعفاء السـواقى فى كل من قسمى « سكوت » و « محس » من الضريبة المفروضة عليهما لأن الجراد قـد أكل المزروعات فى ٥٥٠ ساقية ، بل انه يوافق على أن يقترض أصحاب السواقى فى هاتين المنطقتين الحبـوب اللازمة لطعامهم وزراعتهم السنوية من الشونة (٢) • وتسهيلا لأخذ الضرائب من بعض المناطق وافق الباشـا أن يؤخـذ الصمغ بدلا من الأمـوال النقدية ، وأحيانا الرقيق ، لأنه على حد قول الرحالة « بالم » الذى زار كردفان « أيسر على المـرء أن يجـد فى هـذا الاقليـم عبـدا من أن يجـد دولارا » (٣) •

وهكذا تضافر الجميع فى تحصيل الضرائب سواء من أهل البـلاد كالمشايخ والشايقية ، أو من رجال الادارة كالحكمدار والمديرين وغيرهم ، وصدرت الأوامر لهم جميعا تدعـوهم الى الرفق بالأهالى فى تحصيلها ومراعاة الظروف المحيطة بكل جهة من جهات السودان •

---

(١) أمين سامى : تقويم النيل وعصر محمد على . جـ ٢ ص ٢٩٦ .

(٢) دفتر رقم ٧٤٣ — خديوى تركى — سودان دنقلة — وثيقة رقم ١١٩ بتاريخ ٨ رجب سنة ١٢٤٣ هـ . من الجناب العـالى الى قاسـم اغا حاكم دنقلة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) نسيم مقار : الرحالة جون بتريك . ص ٣٨ . وانظر أيضا : دفتر رقم ٤٣٨ معية تركى — وثيقة رقم ١١٢ بتاريخ ٢٧ شوال سـنة ١٢٦٣ هـ الى حكمدار السودان ، وأيضا دفتر رقم ٤٥ صادر معية عربى — صـورة المكاتبة العربية رقم ٧٦ ، ص ٨٩٨ بتاريخ ١٩ شعبان سـنة ١٢٦٦ هـ الى حكمدار السودان ، وأيضـا دفتر رقم ٤٥ صـادر معية عربى — صـورة المكاتبة العربية رقم ٧٦ ، ص ٨٩٨ بتاريخ ١٩ شعبان سـنة ١٢٦٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

موقف الشعب السودانى من الضرائب :

وعلى الرغم من تلك المحاولات التى بذلت لتيسير جباية الضرائب ، فقد كانت هذه المسألة الضرائبية من بين العوامل الرئيسية فى تفاقم الأحداث فى سنار عام ١٨٢٢ والتى تمثلت فى حركة تمرد هجر فيها السكان قراهم ، وانتهز بعض الموتورين من الحكم المصرى أمثال « حسن ود رجب » الذى أزكى نيران الفتنة ، وبدأ بعض السودانيين يفكرون فى الانقضاض على الحكومة ، بل انهم بدأوا بالفعل فهاجموا بعض الفصائل المصرية المعزولة وقتلوا كثيرا من أفرادها ، وكان ذلك فى مارس ١٨٢٢ • ولكى يبثوا الذعر والخوف فى نفوس الجنود أشاعوا بأن اسماعيل كامل قد قتل فى الجبال الموجودة بصعيد السودان ، وأن معظم جيشه قد أبيد ، وأن هناك هجوما مضادا ضد القوات المصرية • وانتقلت هذه الفوضى الى شندى وبعض القرى المجاورة لها ، وراحوا يقتلون كل من يقابلهم وحيدا من الجنود المصريين ، وهرب سكان حوالى خمسمائة قرية بين حلفاية وبين فازوغلى (١) •

ولما علم اسماعيل الخبر أسرع الى سنار ، وبدأ فى معالجة الأمور بحكمة بالغة فعامل الأهالى برفق ، ولم يقتل أحدا منهم سوى « ود عجيلاوى » وبدأ يفتش عن السبب المباشر لهذه الأحداث فعرف أنها الضرائب التى فرضها ديوان أفندى والمباشر حنا الطويل ، فلم يقبل تلك الأوضاع الجديدة التى اشتطا فى وضعها وتنفيذها ، وطلب موافاته بالدفاتر ليقوم بتعديلها فوجد أن المباشر قد أرسلها الى مصر فأوفد رسولا ليعود بها فلم يدركها • وأخيرا لامهم على ذلك وطلب منهم

---

(١) محفظة ١٩ بحر برا — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢١ بتاريخ غرة رجب ١٢٣٧ من اسماعيل باشا الى ولى النعم • دار الوثائق القومية بالقلعة •

انظر ايضا : حمدنا الله مصطفى : المرجع السابق • ص ٢٥٥ •

تحصيلها برفق من الأهالى • ومن العجيب حقا أن اسماعيل حين عاد من جبال فيزوغلى الى سنار ، وكانت نيران الفتنة مشتعلة وأفراد جيشه يواجهون القتل ، لم يلجأ الى استخدام القوة وهو الشاب الذى لم يتجاوز العقد الثالث من عمره ، وكان معه الايان من الجنود يمكنهما بأمر منه أن يعملا القتل والتخريب ، إلا أنه فضل اللجوء الى الأسلوب الهادىء لأنه على حد قوله « لو أخذناهم بالعقاب لأدى ذلك الى تشتت الآخرين والى خراب جديد ففضلنا أن نؤمن ونطمئن كل واحد منهم » (١) •

وقد كان موقف محمد على من هذه الأحداث فى جانب الشعب السودانى وضد القائمين على جمع الضريبة ، ففى رسالة له راح يخاطب ابنه اسماعيل قائلا « يا ولدى العزيز ان هؤلاء قد بالغوا وأفرطوا فى مسألة « الفردة » حتى نفروا الناس عنهم ، والصراط السوى هو مراعاة خطة الاعتدال فى كل شىء » • ثم مضى يلقى باللائمة على المباشر حنا الطويل ومساعديه قائلا : « ان حنا الطويل لا يفطن لهذه الدقائق وان ما تفعله هذه الطائفة فى سبيل كسب المنافع ليأتى فى الغالب مخالفا لقانون الحكومة » • وأخيرا طالب بضرورة البت فى أمر هذه « الفردة » وافراغها فى قالب موافق (٢) •

وهكذا نخلص الى أن تلك الأحداث الدموية التى جرت فى مستهل الادارة المصرية بالسودان كانت ترجع أساسا الى سوء تطبيق نظام الضرائب الجديدة على تلك البلاد •

ومن الأحداث المتعلقة بالضرائب فى عهد محمد على ما جرى فى

---

(١) محفظة ١٩ بحر برا ، نفس الوثيقة السابقة .

(٢) دفتر رقم ١٠ وثيقة رقم ٢٢٩ بتاريخ غرة شعبان سنة ١٢٣٧ هـ . من الجناب العالى الى ابراهيم باشا . وانظر ايضا : مخطوطة تاريخ ملوك السودان . تحقيق الدكتور مكى شبيكه . ص ١٧ .

عام ١٨٣٦ حين قام عربان البشارية فى الصحراء النوبية بالامتناع عن دفع الضرائب المستحقة عليهم ، وقيام الكاشف محمد خربوطلى بمحاربتهم والاستيلاء على بعض الابل منهم بعد أن أوقع الهزيمة بهم ، ولكن المتمردين لم يقبلوا هذا الأمر الذى انتهى اليه حالهم فدبروا كمينا للكاشف حتى قتلوه بالاضافة الى قتل ثلاثة وعشرين من رجاله (١) • وفى مارس عام ١٨٤٤ تمرد أهل التاكة بسبب الضرائب التى فرضت عليهم عقب ضم الاقليم ، الأمر الذى أدى الى أن يقوم أحمد باشا المنكلى حكمدار السودان بمحاربتهم • ويبدو أنه كان من الصعب على عربان البشارية أو سكان التاكة فهم هذه الضرائب والأعباء التى بدأت الحكومة تطالبهم بها بشكل منظم وهم الذين اعتادوا على التنقل وحرية الحركة ولا سلطان عليهم سوى سلطان شيخ القبيلة الذى يحكم فيما بينهم وفقا لأعراف حفظوها ، أما أن يأتى محمد على بقوانين جديدة فذلك شىء غريب ودخيل على حياتهم ، ومن ثم — من وجهة نظرهم — لابد وأن يقفوا فى وجهه وهو ما حدث بالفعل ففهم المصلحة العامة فى ذلك الوقت لم يكن قد تبلور لدى سكان المدن فما بالنا ببدو الصحراء وفى أوائل القرن التاسع عشر !

وقد انتقلت مقاومة الأهالى للضرائب الى طور آخر من أطوار المقاومة ، طارحة شكل المقاومة المسلحة ، وهذا الطور الجديد تمثل فى عمليات الهروب وهجر السواقى ، ففى أوائل عام ١٨٤٧ ،مثلا ، بلغ عدد السواقى الخربة فى مديرية دنقلة بعد أن هجرها أصحابها حوالى ١٢٦٣ ساقية • وكان ينبغى أن تدفع عنها ضرائب الى الحكومة ، فتقدم المدير بشكوى الى المسئولين بمصر يشرح فيها هذه المسألة ويسألهم

---

(١) Hill, Op. Cit., p. 36.

وانظر أيضا : دفتر رقم ٧٨ معية تركى — ترجمة الأمر الكريم رقم ٣٥ بتاريخ ١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٥٢ هـ من الجناب العالى الى خورشيد باشا حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

المشورة تجاه ذلك (١) • ويبدو أن الاجراءات التى كانت تتبع فى جمع الضرائب والتى لم يألفها السودانيون ، وخاصة قطاعات البدو منهم ، قد أدت الى هروبهم • فقد رفض العربان المقيمون بمديرية التاكة « دفع العوايد المقررة عليهم » والتجأوا الى مينائى سواكن ومصوع • وقد كان هذا الأمر واحدا من الأسباب التى أدت الى ضم هذين المينائين الى الادارة المصرية (٢) •

ولا ينبغى أن نقف طويلا عند مسألة هروب الفلاحين والعربان السودانيين على اعتبار أنها ظاهرة انفرد بها السودان تحت الادارة المصرية ، فنفس الظاهرة قد تكررت فى ذلك الوقت فى مصر • ومن أمثلة ذلك ما حدث بقرية « منية السيرج » التى كانت تقع قرب القاهرة آنذاك ، حيث قام بعض الفلاحين بالهروب منها من جراء بعض الاجراءات الادارية القاسية ، وقد تلى عمليات الهروب هذه أحكام قاسية على أولئك الفلاحين (٣) • ويبدو أن هذه الظاهرة لم تكن قاصرة حتى على فترات التاريخ الحديث فى مصر بل كانت تضرب بجذورها فى أعماق

---

(١) دفتر رقم ٥٨٦ صادر ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ٢٣٤٣ بتاريخ ١٥ ربيع الآخر • ١٢٦٣ هـ • كتاب الى مدير المديرية • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ١٠٠١ وارد نظارة المالية من مختلف الجهات — وثيقة رقم ١٩٦ ، بتاريخ ١٦ رجب ١٢٦٣ هـ • بند المعية ، وانظر ايضا : دفتر رقم ٤١٩ — معية تركى • بتاريخ ٢ صفر ١٢٦٢ هـ • من حكمدار السودان الى المعية •

أنظر ايضا : محفظة رقم ٢٧١ عابدين — ملف أحمد باشا حكمدار السودان — مكاتبة بتاريخ ٩ جمادى الأولى ١٢٥٦ هـ •

وانظر ايضا : دفتر رقم ٤١٣ صادر المعية السنية — وثيقة رقم ٣٢٦٩ بتاريخ ١٧ جمادى الآخر ١٢٦٣ هـ • كتاب الى مدير التاكة •

انظر أيضا : دفتر رقم ٨ عابدين — ترجمة الخطاب رقم ٤٢٩ بتاريخ ٩ ذى الحجة ١٢٦٢ هـ • من الجناب العالى الى الباب العالى دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) F. O. 78-582. No. 4. Alexandria, 24th. 1844, J. L. Slodart the Earl of Abearden.

التاريخ المصرى قديمة ووسيطة ، وكانت تمثل لونا من ألوان المقاومة السلبية لتلك الحكومات (١) •

واستمر ضجر الأهالى من العبء الضرائبى الى عهد الخديوى اسماعيل ، وقد عبروا عن هذا الضجر — أحيانا — فى شكل شكاوى ، ففى أكتوبر عام ١٨٧٠ وردت شكوى من بعض الأهالى ببربر بسبب زيادة ضرائب السواقى والأطيان والنخيل عليهم ، فطلب المدير كشف بيان ذلك فعلم أن الزمام الذى كان مربوطا فى عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ / ١٨٦٣ م) بواقع الساقية الواحدة ٢٣٥ قرشا فى العام ، والفدان من الجزائر ٢٥ قرشا ، والفدان من الجروف والعتامير عشرين قرشا ، والنخيل كل واحدة ٢٠ر١ قرشا • وفى عام ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ / ١٨٦٤) أضيف على كل ساقية ٧٥ قرشا وعلى فدان الجزائر ١٥ قرشا ، وعلى فدان الجروف ٢٠ر١٣ قرشا • وفى عام ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦ / ١٨٦٧) أضيف على كل ساقية ١٥٠ قرشا وعلى فدان الجزائر ٢٠ قرشا والجروف ٣٠ر١٦ قرشا والعتامير عشرة قروش ، وكل نخلة قرشا واحدا • وكان مجموع ما على العربان من ضرائب ٣ر٤٠٣٤٨٧ قرشا وبذلك تكون قد وصلت الى ١٨ر٦٧٢٤٧٨ قرشا عدا أجور المستخدمين التى اضيفت الى الضرائب • ونتيجة لكل هذه الزيادات ، بالاضافة الى الأعباء المضافة اليها كأجور لجامعيها أصبحت ضريبة الساقية من ٢٧٥ قرشا الى ١٠ر٥٣٤ قرشا ، وفدان الجزائر ٢٢ر٣٢ قرشا (٢) ، كما أشارت الشكوى

---

(١) انظر المقالات الآتية بكتاب « الأرض والفلاح » الصادر عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية : د . عبد العزيز صالح : الأرض والفلاح فى مصر الفرعونية . ص ٦٢ . ، د . مصطفى كمال عبد العليم : الأرض والفلاح فى عصر البطالمة . ص ١٠١ . ، د . مصطفى العبادى : الأرض والفلاح فى مصر الرومانية . ص ١٣٥ ، د . سيدة كاشف : الأرض والفلاح فى مصر الاسلامية . ص ١٩٦ .

(٢) دفتر رقم ١٨٤٩ وارد المعية ، ص ١٣ ، صورة المكاتبة الواردة من مديرية بربر الى المعية السنية رقم ٤ بتاريخ ٢٠ شعبان سنة ١٢٧٨ هـ (أكتوبر ١٨٧٠) دار الوثائق القومية بالقلعة .

أيضا الى أن مساحة الأراضى التى تؤخذ عنها ضرائب لم تعد ثابتة طوال العـام نتيجة ما يطرأ عليهـا من « أكل البحر وطرحه » • كذلك فقـد أدت هذه الأحوال السيئة الى « تسحب » (هروب) الأهالى نتيجة تراكم هذه الضرائب وعجزهم عن سدادها (١) •

وهكذا يبدو جليا أن حجم الضرائب قد بدأ يزداد تدريجيـا عن ذى قبل ســواء فى عهد محمد على أو محمد سعيد حين كانت الزيادات تدريجية بينما أصبحت الآن على عهد اسماعيل حادة • ورغم كل الجهود التى بذلها محمد سعيد من قبل وحدوث بعض الاستقرار فى هذه الناحية ، فقد بدأت المشكلة تطل برأسها فى عهد اسماعيل وبشكل حاد ، واستمرت فى التـدهور وازدادت معهـا الشكوى من لدن الأهالى • ففى عـام ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥) أرســل عمدة « الشباك » بقســم حلفا بكرسكو الى المسئولين بمصر يعرض لمسألة الضرائب المتحصلة عن النخيل فيقول ان الضرائب التى كانت تحصل على النخيل فى عهد محمد على باشا كانت على النحو التالى : النوع العالى (الممتاز) كان يحصـل عنه قرش وعشر فضـات ، والمتوسط خمسة قروش وثلاثون فضة وعن « الـدون » وهـو أرادأ أنواع النخيل ثلاثون فضة ، واستمر هذا الوضع حتى عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) • وفى عـام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ / ١٨٦٣) صدر أمر بتعيين محصول النخيل بالعشور واســتمر ذلك حتى عـام ١٢٨١ هـ ، ١٢٨٢ هـ (١٨٦٦ م) ثم فرضت بعد ذلك ضريبة تتراوح ما بين ثلاثة قروش الى أربعة قروش • ثم يضيف قائلا وبذلك حدث لنا الضرر والتعب ، ثم حدث نتيجة تقديم عدة « عرضحالات » للمديرية والمفتش والخديوى ان صدر الأمر باجراء التعـداد وربط ضرائب النخيل بالعشـور وذلك فى عـام ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ / ١٨٧٠ م) (٢) •

---

(١) نفس الدفتر والوثيقة السابقة .

(٢) دفتر رقم ٣١ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التلغراف العربى رقم ٥٤٩ بتاريخ ٩ جمادى الآخر سنة ١٢٩٢ هـ • من حمزة سليمان عمـدة الشباك بقسم حلفـا بكرسكو الى مهردار خديوى . دار الوثائق القوميـة بالقلعـة .

واستمرت الحالة الضريبية فى تلك المنطقة تتذبذب بين مد وجـزر الى أن أصبحت الضريبة كالتالى : سبعة قروش وعشرون فضة على النوع العالى (المتـاز) ، وخمسة قروش عن المتوسط ، وثلاثة قروش وعشر نضـات على الدون • وفى عـام ١٢٩١ هـ (١٨٧٥ م) سـددت الضريبة كالتالى : ستة قروش عن النـوع العالى ، وأربعة قروش عن المتوسط ، وقرشان وثلاثون فضة عن الدون • ويختتم صاحب هذه الشكوى قائلا : انه لا قدرة لديهم على دفع مثل هذه الضرائب نظرا لضيق « معايشهم » فى تلك البلاد وتشتت أهاليهم للعمل فى خارج القرى سـواء فى السودان أو خارجه بمصر • ولم يعد يوجد بتلك المناطق سـوى النساء والضعفاء والفقراء من غير القادرين على دفع الضرائب ، بالاضافة الى أن النقـد كان يعوزهم وكل ما كان بيدهم منه يستبد لونه بالغلال التى يجلبها التجار اليهم من بلاد أخرى • وقد التمس صاحب الشكوى ، بالانابة عن هؤلاء جميعا ، التخفيف من الضرائب أو معاملتهم بحسب العشـور كمـا كان سابقا (١) • من ذلك يتبين لنا أن الوضع الضرائبى كان عبئا ثقيـلا على المواطن السودانى وكان لابد أن تجرى بعض الاصلاحات فى هذا السبيل •

الاصـلاحات الضرائبية :

(أ) فى عهـد محمـد على :

لقد جرت محاولات فردية وعلى فترات متفاوتة فى عهد محمد على لاصلاح الوضع الضرائبى فى السودان ولكنها لم تثمر نجاحا كبيرا ، ومن هذه المحاولات ما تم فى عهد خورشيد حين اقترح تعديل ضريبة السواقى طالبا من المجلس الخصوصى تطبيق النظام الضرائبى السائد فى مصر ، وذلك بمسح الأراضى وربط الضريبة عليها وذلك بدءا من عام ١٢٤٣ هـ (١٨٢٨ م) (٢) •

---

(١) نفس الوثيقة السابقة .

(٢) محفظة ١٩ بحر برا — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢١ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٣٧ هـ من اسماعيل باشا الى ولى النعم . دار الوثائق القومية بالقلعـة .

كذلك فقد جمع هذا الحكمدار مشايخ البلاد وطلب منهم اخذ
شيخ من بينهم ينوب عنهم فى تعديل نظام الضريبة فاختاروا الش
عبد القادر الذى أشار عليه بضرورة اعفاء الفقهاء والأعيان منهـا
يتسنى لرجال الادارة الاستعانة بهم فى تسكين روع الأهالى وعو
الى أوطانهـم التى هجـروها ، وبالفعل فقـد اسـتجاب خورشـ
لنصيحته (١) •

(ب) **فى عهد سعيد** : ويبدو أن مثل هذه الحلول لم تكن ذات ف
الى أن قرر سعيد باشا فى عام ١٨٥٧ القيام بزيارة الى السودان
فى وضع علاج جذرى لمسألة الضرائب وخاصة تلك المتعلقة بالأوض
الزراعية التى كثرت الشكوى حيالها • ويبدو أن سعيد قد آل على
أن ينصف الفلاح السودانى كما حاول انصاف الفلاح المصرى من
اللوائح والقوانين الزراعية التى أصدرها • فلما وصـل الى السـ
لاحظ مدى الحالة السيئة التى يعيشـها الأهالى بسبب كثرة الضـ
المربوطة على السـواقى والأطيان فضلا عن الأعباء الأخـرى الم
منهـم (٢) •

وقد طلب أن تجمع الأموال من الأهالى حسب طاقتهم حتى يه
روعهم ويعمروا أوطانهم بدلا من الهروب منها • وازاء ذلك كله ق
بسؤال المشايخ والأهالى الذين حضروا اليه وهو قادم من حدود
عن الاسلوب الأمثل الذى يؤدى الى راحتهم ويمكنهم من خلاله دف
الضرائب دون أدنى مشقة ، فطلبوا منه أن يحصل مال كل ساقية بو
مائتين وخمسين قرشا ولكن محمد سعيد أمر بانزال هذا المبلغ الى ما
فقط عن كل سـاقية رغبة فى كسب حب الأهالى وجذب قلوبهم و

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق • ج ٣ • ص ١٩ ، ٢٠ •
(٢) دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى •
صورة الأمر الكريم رقم ٣٥ ص ٣٣ بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى سـ
١٢٧٣ هـ امر كريم الى احمد على بشير شيخ ناحية احمد على بشـير
المتمـة • دار الوثائق القومية بالقلعـة •

أولئك الذين هربـوا من البلاد (١) • وأما الأطيان الأخـرى كأطيـان الجزائر فقد قرر أن تؤخذ على الفدان الواحد خمسة وعشرون قرشا ، وعلى الفدان الواحـد من أراضى الجروف عشرون قرشا (٢) • وهكذا استطاع سعيد أن يدخل السعادة الى قلوب الأهالى الذين عاهدوه ببذل قصارى جهدهم ، واستجلاب قلوب من هربوا من البلاد حتى يعودوا الى عمار الأراضى • ثم طلب أيضا من الأهالى والعمد أن يرشحوا هم أنفسهم مديرا عليهم من بين المشايخ والمكوك حتى يؤدوا عن طريقـه الضرائب المستحقة عليهم ، فاذا رفض البعض أن يكون هنـاك واسطة بينهم وبين الحكومة فيمكنهم فى هذه الحالة سـداد ضرائبهم مباشرة الى الديوان • كمـا أقر بأن لا تحصـل أية مبالغ اضافية عن المقرر ، وأن يكون التوريد فى « موسم الرواج » أى وقت ظهور المحصول • ولمـا كان محمد سعيد باشا يعلم أن المشايخ فى تلك البلاد يقومون بأعبـاء كبيرة فى جمع الضرائب بالاضافة الى خوفه من أن يقوم هؤلاء المشايخ بجمع أمـوال تزيد عن المطلوب ، فقـد قرر لكل شيخ « مسـموحا » مقداره ساقية واحدة عن كل خمسـة وعشرين سـاقية من أراضيهـم لا تؤخذ عليها ضرائب ، وطلب كذلك أن لا تؤخـذ أموال عن الأراضى « الشراقى » التى تنشـأ عن عـدم فيضـان النيل أو عـدم نزول الأمطـار (٣) •

وازاء تلك الاصلاحات الضرائبية كان من الطبيعى أن يعود أولئك الفارون من الضرائب الى أراضيهم القديمة ، وهنا نشأت مشكلة جديدة بسـبب عودتهم • حيث أن الأراضى التى هجروها أصبحت تحت أيدى آخرين • وقد أوجـد لها سعيد حـلا فقرر ان كان أصحاب الأراضى الفارون قد مضى على هروبهم خمسة عشر عاما وأصبحت أراضيهم تحت أيدى

---

(١) دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى — نفس الوثيقة السابقة •
(٢) نفس الدفتر والوثيقة •
وانظر ايضا : Abbate; op. cit., p. 30
(٣) دفتر رقم ١٨٨٦ — اوامر عربى — نفس الوثيقة السابقة •

آخـرين تعطى لهم أراض جديدة من أراضى « الناحية » وان لـم تكن قد مضت هذه المـدة يستردوا أطيانهم القديمة ويمنح واضـع اليـد أطيـان غيرها (١) .

كذلك فقد تجاوز محمد سعيد عن الضرائب المتأخرة التى كانت على الأهالى وطلب من المسـئولين فى السـودان أن ينفذوا هـذه الأوامـر والوصايا وخاطبهم قائلا : « ... واعلموا انه اذا لم تحفظوا هذه الوصايا وتجروا العمل بموجبها ، بل تركتم كل ذلك وعدلتم عن الحق ، وحصـل منكم ظلم أو غدر لأى إنسـان نعاقبكم بأشد العقـاب .. كونوا على حذر من ذلك ... » (٢) وهكذا اسـتطاع محمد سعيد بتلك الاصلاحات الضرائبية أن يصحح كثيرا من الأخطاء التى وقع فيهـا من سبقوه واستطاع — على سبيل المثال — أن يعيد كثيرين ممن هاجروا من مديرية بربر الى كردفان والنيلين الأبيض والأزرق ، وكذلك المهاجرين من اقليم التاكة والسودان الشرقى عموما . ومعروف أنه بهجرتهم هذه من بلادهم الأصلية قد أضافوا أعباء ثقيلة على كاهل الذين بقوا ولم يهاجروا معهم فتحملوا نصيبهم من الضرائب . وزاد الحـال سوءا ان رؤساء القبائل والزعماء والشيوخ المحليين ، وهم المكلفون بتحصيل الضرائب وتوريدها للحكومة انتهزوا الفرصـة واستغلوا هذا النظـام الضرائبى لمصلحتهم الشخصية . وقد هيأ لهم كبارهم وصغارهم الفرصة لمثل هذه الأفعـال . فقد بلغت الضرائب عن الساقية الواحـدة فى اقليم النوبة ما قيمته ثلاث جنيهات انجليزية سنويا ، وان كانت مديرية بربر وحـدها تدفع سنويا ستة آلاف كيس كضريبة أى حوالى ثلاثين ألف جنيه سنويا (٣) .

---

(١) نفس الدفتر والوثيقة السابقة ؛ انظر ايضا امين سامى : تقـويم النيل وعصر عباس حلمى باشـا ومحمد سـعيد — المجلد الأول ص ١١٢ ؛ ايضا زاهر رياض . السـودان المعاصر ص ٧٨ ؛ وأيضـا : محمد احمد الجابرى : فى شأن الله . ص ٢٤ .

(٢) دفتر رقم ١٨٨٦ — نفس الوثيقة السـابقة .

(٣) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان . تاريخ وحدة وادي النيـل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ — ١٨٩٩ — ص ٧٠ .

واستمرارا فى سياسة محمد سعيد الضرائبية فى التخفيف عن المواطن السودانى قام فى مايو ١٨٥٧ باصدار أمر له باعفاء بعض رجال العلم بمديرية كردفان من الأموال المقررة عليهم ، بناء على طلب منهم حيث أنهم كانوا يقومون بمهمة التعليم وانه ، على حد تعبيره ، كان من شيمته اكرام أهل العلم وضرورة تحبيب المواطنين فى نشر العلوم (١) • كذلك فقد طلب فى نفس العام من مدير التاكة أن يعيد النظر فى مقدار الزمام المربوط على كل قبيلة من العربان المقيمين بهذه المديرية وأن يرفع منه الثلثين ويقيد الثلث الباقى عليهم (٢) •

وعلى الرغم من تلك الجهود المضنية التى بذلتها الادارة المصرية فى السودان على عهد محمد سعيد لحل المسألة الضرائبية فقد استمر بعض العربان والمشايخ فى الهروب واللجوء الى أماكن بعيدة عن أعين السلطة الحكومية حتى لا يدفعوا نصيبهم فى الضرائب • وقد أرسل محمد سعيد باشا فى أغسطس عام ١٨٥٨ الى سلطان الحبشة يشرح له مسألة أولئك الهاربين الى تخوم بلاده هربا من الضرائب ، ويطلب اليه معاونته فى اعادتهم الى السودان (٣) • وللأسف الشديد ــ كما هو واضح تماما ــ فان قطاعات كبيرة من الأهالى لم تزل عند أفكارها البالية حول مفهوم الضريبة وارتباطها بالمصلحة العامة التى سوف تعود بالنفع على جميع الأهالى • وتبدو الأصابع الأجنبية سافرة تعبث وتثير الشكوك

---

(١) دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى ــ صورة الأمر الكريم رقم ٨ ص ١٦ بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٧٣ هـ . أمر كريم الى مدير كردفان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٨٦ ــ اوامر عربى ــ صورة الأمر الكريم رقم ٨ ص ٣٧ بتاريخ ٥ رجب سنة ١٢٧٣ هـ . أمر كريم الى مدير التاكة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ١٨٩٠ أوامر عربى ــ صورة الفرمان العربى رقم ٨٩ ص ٤١ بتاريخ ٢١ محرم ١٢٧٥ هـ فرمان من محمد سعيد باشا الى سلطان البلاد الحبشية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

حول الجهود التى يحاول بذلها محمد سعيد فى السودان ، من خلال الحوار الذى دار بين الباشا وبين أحد المسئولين الانجليز بمصر آنذاك حول أهمية رحلة محمد سعيد الى السودان والآمال المرجوة من ورائها . فقد أشار الباشا لهذا المسئول عن ضرورة اعادة تنظيم الادارة فى السودان على أسس جديدة وافساح المجال للعناصر السودانية بدلا من أولئك الحكام الذين لا هم لهم سوى الابتزاز . وقد وافقه المسئول الانجليزى على ضرورة اجراء مثل هذه الاصلاحات ، ولكنه أبدى تحفظا غريبا ، حول الآمال المرجوة من تلك الاصلاحات التى يرمى اليها الوالى ، مؤداه أنه لا يستطيع أن يرسم صورة للنتائج المستقبلية لتلك التدابير التى تبناها محمد سعيد [١] وهكذا يبدو التشكيك واضحا من جانب كبار المسئولين الانجليز بمصر فى قيمة الأفكار الاصلاحية التى كان الباشا ينوى اجراءها فى السودان . ولكن محمد سعيد لم يستمع الى مثل تلك الأفكار المثبطة للهمم فى جدوى اصلاح السودان ، والتى بلغت قمتها فى اطلاق اشاعة تقول بأن الباشا كان ينوى ترك السودان ، بل مضى فى تنفيذ برامجه الاصلاحية فى السودان وعلى رأسها الاصلاح الضرائبى وسط تلك المتاعب .

(جـ) فى عهد اسماعيل:

وفى عهد الخديوى اسماعيل كان لابد من اجراء تعديلات وتنظيمات جديدة فى مسألة الضرائب تتواكب والظروف الجديدة . وبالفعل قام حكمدار السودان موسى حمدى (١٨٦٣ ــ ١٨٦٥) بعقد مجلس مع المديرين ومشايخ البلاد وأعيانها لمناقشة الضرائب ، وأسفر هذا الاجتماع عن ايجاد نظام جديد مؤداه ان كل فلاح لابد أن يحصل على « سركى » ويكون بحوزته ليدفع بمقتضاه الضرائب المستحقة عليه على

---

(١) F. O. 78 - 1200, No. 52, November 4 th. 1858. Fredrick A. Bruce to the Earl of Clordon.

ثلاثة أقساط معينة فى السنة ، وكلما دفع قسطا منها قيد له فى السركى الذى بيده ، مثلما يقيد فى يومية الصراف (١) .

وفيما يتعلق بمسألة الضرائب فى أجزاء البحر الأحمر مثل سواكن ومصوع فى ذلك الوقت ، يطالعنا أحد التقارير المقدمة من محافظ مصوع وقت تسلم الادارة المصرية لهـا فى عام (١٢٨٣ هـ ـ ١٨٦٦ م) حيث يشـير الى تلك الفوضى التى كانت متبعة فى تحصيلها من قبـل ذلك التاريخ ، مما جعله يضطر الى طلب حضور مشايخ العربان الذين يدفعون أموالا فى مصوع واجراء تحقيقات فى المتأخرات عليهم وجهـا لوجه ، كما أرسل مكاتبات الى باقى الأهالى ممن يدفعـون الضرائب للحضور . وخلال هـذا الاجتمـاع تبين أن شخصين من عائلة واحـدة ادعيا أن جديهما منذ عصر السلطان سليم كانا يقومان بتحصيل « العشور » ولهم دراية بحـالة هذه البـلاد وقبائل « الحبـاب » التى تقطنها وبدافعى الضرائب والعشور ، فقام باستدعائهما . ومن المعلومات التى استقاها منهما وضع نظاما تقريبيا عن أماكن القبـائل المقيمة بهـا ، وأوضاعها المختلفة ، كذلك فقد علم ان الطريقة التى كانت تتبع من قبـل فى تحصيل العشور تتم عن طريق أحد ابنى العـم سالفى الذكر والذى كان يلقب بلقب (نائب) ويقوم بتحصيل العوائد من القبائل والرسوم على البضائع والأشياء الواردة من الحبشة الى مصوع نظير ألف (فرانسة) من ايراد الجمرك ، وكان هذا الأمر مدعاة للنزاع بين ابنى العـم . ولكن حسن رفعت رأى أن يخصص مرتبا منتظما قدره ٧٥٠ قرشـا شهريا لكل من

---

(١) الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهـد الخديو اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩ . المجلد الثانى ص ٢٨ ، أنظر أيضا : نعـوم شـقير : المرجع السـابق . ج ٣ ص ٣٣ ، انظر أيضـا : محمد صبرى الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر . ص ١٨ ، انظر أيضـا : ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غوردون وكتشنر ، الجـزء الثانى ص ٦٧ .

هذين الشخصين مع تخصيص مرتبات مناسبة ببعض أقاربهما (١) .

وفى جهات طوكر كان المسئولون عن الضرائب فيهـا يمهلون بعض المزارعين عدة شهور فى أدائها ، نظرا لانشغالهم فى أمور الزراعة كمـا حدث بالنسبة لعربان « أرتيقه » عـام ١٨٧٠ (٢) . فقد كانت أمـور الزراعة لا تقل فائدة عن غيرها خاصة وأن تلك الجهات كانت تتميز بزراعة القطن . وكان المسئولون يبعثون برسـائل عديدة الى جهـات سواكن وما حولها كى يكف الجنود عن طلب أموال الميرى المقررة على الزراعـة وأن يترك هذا الأمـر « لملاحظ » العربان ، حتى لا ينفرونهم منها (٣) .

(د) اصلاحات رؤوف باشـا :

وفى أواخر عهد الخديوى اسماعيل بدأ تفاقم الوضـع الضرائبى فى السودان فكثرت الشكوى من لدن الأهالى ، لدرجة أن بعضهم كان يفضل موتا جمـاعيا على أن يدفـع ريالا واحـدا حيث ذاع المثل القـائل : « عشرة فى التربة ولا ريال فى الطلبة » (٤) .

وهناك من يفسر ضجر الأهالى منها فى هـذه الآونة ، فيذهب الى أنها لم تكن موزعة توزيعا عادلا إذ كانت شـديدة على الفقراء خفيفة على الأغنياء (٥) . وليس المقصود بأنهـا كانت خفيفة على الأغنياء ان

---

(١) محفظة رقم ٣٨ معية تركى — ترجمـة المكاتبة رقم ٢٢ بتاريخ ٦ المحرم ١٢٨٣ هـ انظر أيضـا : شوقى الجمـل : سياسة مصر فى البحـر الأحمـر . ص ٦ .

(٢) محافظة سواكن — عربى صادر ، جـ ٦ ، دفتر رقم ٤ / ٢ / ٥ / ٣٢ (رقم قديم ٣٥٨٥) مكاتبة رقم ٣٧٦ فى ٧ ج سـنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) . دار الوثائق القومية بالقلعـة .

(٣) محافظة سواكن — عربى صادر ، دفتر رقم ٤ / ٢ / ٥ / ٢٨ ، مكاتبة رقم ٨١ بتاريخ ١٦ ل سنة ١٢٨٦ هـ . (١٨٦٩) دار الوثائق القومية بالقلعـة .

(٤) Mekki Abbas; The Sudan Question p. 30.

(٥) نعوم شقير : المرجع السابق . جـ ٣ . ص ١١٠ .

الحـكومة هى التى شرعت ذلك فى قوانينها ، ولكن المقصـود بذلك أن الأغنياء كان بمقدورهم استمالة المأمورين لقربهم منهم ومن بقية الحكام ، بالاضافة الى أن جانبا كبيرا من أملاك الأغنياء والمأمورين فى السـودان كانت معفاة من الضرائب • كـذلك فقـد تولى عملية تحصيل الضريبة جمـاعات « الباشبوزق » الشـايقية والأكراد والمغاربة الذين تم على أيديهم ضم السودان عام ١٨٢١ فاستعملوا القسوة فى تحصيلها • وأكثر من ذلك أن المأمورين لم يكتفوا بالضرائب الرسمية بل راحـوا يفرضون على الأهالى « فرضا » غير رسمية يقومون بتحصيلها مع الضرائب (١) • ويتفق مع هذا التفسير سلاطين باشا الذى عمل مفتشا ماليا فى السودان عام ١٨٧٩ وطلب اليه ــ حينذاك ــ أن يقوم بجولات فى أرجاء السودان ويفحص شكايات السودانيين المعارضين لدفع الضرائب (٢) • فقد لاحظ هذا الرجل من خلال جولاته كثيرا من الأراضى التى كان يمتلكها الموظفون الحكوميون والتى لا تؤخذ عنها ضرائب البته ، ولمـا سأل عن سر ذلك أجيب بأن هذا امتياز للموظفين نظير خدمتهم للحكومة ، وكانوا يستاؤون تماما إذا ما قيل لهم أنهم يتناولون أجرا لقاء خدمتهم (٣) •

وفى مايو عـام ١٨٨٠ قام رؤوف باشـا حكمدار السودان بوضع تقرير مطـول عن أوضاع السودان عامة والاقتصادية منها على وجـه الخصوص ، حاول فيه أن يقدم صـورة حقيقية للأوضاع التى كانت سائدة آنذاك ، وخاصة فيما يتعلق بجباية الضرائب • فمن بين ما لاحظه بمنطقة (وادى الحجر) التابعة لمديرية دنقلة أن الأهالى عقب سـقوط الأمطار يقومون بنقل الطمى والأتربة من النيل الى الأراضى الحجـرية لزراعتها رغم وجود أراضى صالحة للزراعة فسألهم عن سر ذلك فأجيب « ••• بأن ذلك ناشىء عن ضعف حالهم وعـدم تحملهم لدفع ماليـة

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ٣ • ص ١١٠ •
(٢) سلاطين باشا : المصدر السابق • ص ٣ •
(٣) نفس المصدر • ص ٣ •

سواقى الأراضى الصالحة للزراعة إذ أنها بلغت خمسمائة قرش سنويا ، وما يتحصل منها لا يكفى مصروفاتها وسداد ماليتها ... » (١) واقترح الحكمدار لحل هذه المسألة بوادى الحجر أن تخفف الضرائب عن كاهل الأهالى .

وفى كرسكو لاحظ الحكمدار أيضا « ... أن الميرى مربوط له عوايد على كل « حمل » يدخل منها لبربر .. » (٢) ، وأن هناك « قبانيا » وناظر شونة اتحدا فيما بينهما وبين ناظر شونة (أبو حمد) فى أخذ مال الحكومة لأنفسهم . واقترح الحكمدار حلا لذلك بأن يحال تحصيل العوائد الى متعهد خاص عن طريق « .. اشهارها فى صورة مزاد ، ويقوم الشخص الذى يرسى عليه العطاء بدفع مبلغ معلوم للحكومة » ، شريطة أن تقوم الحكومة بتحديد ما يأخذه هذا المتعهد على كل حمل وأن يقوم بدفع مرتبات سائر الموظفين بتلك الجهة (٣) . وفى كرسكو أيضا تذمر الأهالى من ارتفاع الضريبة المقررة على سواقيهم والتى تراوحت بين ٦٢٠ قرشا الى ٦٤٠ قرشا على الرغم من أن السواقى بمديرية دنقلة القريبة منها كانت ضريبتها ٥٠٠ قرش وكان من نتيجة ذلك كله هروب الأهالى وترك السواقى خرابا ، فاقترح الحكمدار أيضا تخفيض الضريبة (٤) . وقد تكررت نفس الشكوى من قسوة الضرائب على الأهالى فى كل من بربر والخرطوم حيث شاهد الحكمدار بنفسه آثار شدتها عليهم ومدى تفاقمها الى صورة سيئة عن ذى قبل حين زار أراضى الخرطوم ــ كما أشار بالتقرير ــ منذ اثنى عشر سنة حين كانت سواقى الأهالى عامرة وأصبحت الآن خرابا (٥) .

---

(١) تقرير حكمدار السودان محمد رؤوف باشا ، بتاريخ ٢٨ مايو عام ١٨٨٠ مودع بمحافظ السودان ، تحت عنوان : موضوعات (محفظة بدون رقم) بدار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) نفس التقرير .

(٣) نفس التقرير .

(٤) نفس التقرير .

(٥) نفس التقرير .

وقد طلب الحكمدار الكشوف المقيدة بها حسابات تلك المناطق منذ عشر سنوات فتبين له أن أصل أموال تلك الجهات المذكورة فى تلك السنوات قد بلغت ٣١٤٨١٧٥ جنيها ، وأن ما تم دفعه منها بلغ ٢٩٦٢٧١١ جنيها والباقى مبلغ ٨٧٧٤٦٤ جنيها ، ومن ذلك وضح له أن ليس فى مقدور الأهالى تحمل دفع هذه الأموال . ويفسر الحكمدار سر هذا التأخر فى سداد الأموال (الضرائب) بأن الحكمدار السابق جعفر مظهر باشا (١٨٦٦ — ١٨٧١) كان « قد أجرى علاوة ثلثى المال » على جهات السودان عموما ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الأهالى فى تأخير السداد (١) .

وعقب هذه الجولات الطويلة التى قام بها رءوف باشا فى جهات السودان لتلمس جذور المشاكل التى كانت تعانى منها البلاد ، ومن بينها الضرائب على وجه الخصوص ، ومناقشة هذه المشاكل جميعا على الطبيعة ، اقترح حلا جذريا لهذه المشكلة يتلخص فى رفع « ربع » الضريبة المقررة على الأهالى فى السودان وبعدها يمكن أن تزدهر الزراعة بعد أن تعود السواقى الخربة الى العمل وبالتالى يمكن زيادة ايرادات السودان (٢) .

ويبدو أن هذا العلاج الذى وضعه رءوف باشا عام ١٨٨٠ لم يأت بنتيجة فعالة ، أو بمعنى أدق لم تتح له الفرصة الطويلة كى يأتى أكله حيث داهمته أحداث الثورة المهدية .

وتعليقا على هذه النتائج السيئة راح البعض يفتش عن تلك العوامل التى أدت الى تفاقم الوضع الضرائبى فى السودان وأرجعها الى تلك القوانين الضرائبية التى فرضتها الإدارة المصرية بالسودان ذات العيوب

---

(١) نفس التقرير . ورقة رقم ٥ .
(٢) نفس التقرير . ورقة رقم ٥ .

او الثغرات ، فقــد ظلت تلك القوانين لفترة طويلة دون تعــديل جذرى اللهم إلا فيما آجراه محمد سعيد باشا خــلال زيارته للسودان ، فظل القانون الضرائبى هناك فى مجمله وجوهره ولم يتطور والظروف الجديدة حتى قيام المهدية • وكان ينبغى أن يفطن المسئولون الى ذلك التطــور الذى حدث فى حياة الســودان الاقتصادية نتيجة للمشروعات العمرانية التى جاء بها الحكم المصرى حيث تعدل معها توزيع الثروة على السكان ، الأمر الذى كان لابد أن يصحبه تطــور جديد فى آنظمة الضرائب يتم من خلالها توزيع هذه الأعباء توزيعا عادلا • وبالتالى يمكن رفع عبء الضريبة عن فئة لم تعــد هى الفئة الممولة فى المجتمع الســودانى • لقــد ظلت فئات المزارعين والبدو وبعض الشرائح الفقــيرة من السكان هى التى تدفع الضريبة ، بينما الفئات الأخرى ممن يمكن أن نطــلق عليهم كبــار التجار ، وكبار الموظفين والمشايخ فى الدولة من الذين نالوا مراكز كبيرة فى سلك الادارة يتهربون من الدفع ، كذلك فقد وجــدت طبقة أخــرى من السكان وهى طبقة كبار تجار العاج والرقيق ممن أثروا ثراء فاحشا ، وأصبحوا ــ دون مبالغة ــ يشكلون دولة أو دولا داخــل الســودان وأصبح لهم جيش ضخم وزرائب عديدة ووقفوا فى وجه الحكومة التى راحــت تارة تهددهم وتارة أخرى تستميلهم أو تستأنسهم الى جانبها ، كما حدث مع الزبير رحمت الذى ضم دارفور والذى كان أصــلا أحــد كبار تجــار الرقيق •

وهكذا ظلت هذه الفئات تزداد ثراء على ثراء بينما كانت فئــات المزارعين والبدو تدفع الضرائب ، وكان لابد أن يحدث ذلك الخلل الكبير والهــوة العظيمة بين هــذه الفئات جميعا ، وكان حتميا ، نتيجة لتلك الأسباب أو المقدمات ولأسباب آخرى ، أن ينفجر بركان المهــدية عــام ١٨٨١ •

* * *

الشــئون المالية :

كان النظام المتبع فى شئون المال فى السودان على عهد محمد على

أن يقوم كل « خط » (*) من مأموريات السودان بتقديم حساباته الى ديوان المديرية فى أوقاتها المحددة (١) ، كما كانت حسابات السودان آنذاك مرتبطة بمثيلتها فى مصر حيث كانتا تتبعان معا « ديوان الايرادات » (٢) . وصار المسئولون بمصر يطلبون كشوف خزانة حكمدارية السودان كل خمسة عشر يوما ، الأمر الذى شق على الحكمدارية تنفيذه بانتظام نتيجة النقص الذى كان متفشيا فى هذه الناحية ، ونعنى بها عملية تنظيم الحسابات ، وهذا النقص كان مرده الى قلة الكتبة والصيارفة القائمين على هذه العملية ، وحداثة عهد البلاد السودانية بمثل هذه الأمور التنظيمية الجديدة والدقيقة فى حين واحد . وتبدو هذه المشاكل جلية فى الرسائل التى تبودلت بين مصر والسودان آنذاك (٣) . بل ان أحد المباشرين الذين عينوا لمهمة الحسابات فى سنار عام (١٢٤٥ هـ — ١٨٣٠ م) كان من المحال أن ينجز هذه المهمة كل ستة أشهر (٤) .

ويبدو أن ذمم الكتبة والصيارفة فى ذلك الوقت كانت خربة الأمر الذى دعا الباشا الى مجابهة ذلك بأسلوب شديد حين لاحظ تعاونا

---

(١) دفتر رقم ٧٨ معية تركى — ترجمة الافادة التركية رقم ٣٤٤ بتاريخ ١٢ ربيع الآخر ١٢٥٢ هـ . من الجناب العالى الى خورشيد باشا حكمدار السودان .

(٢) دفتر رقم ٩٣٠ : الخزينة ، ترجمة الافادة رقم ٨٢ بتاريخ ٢٢ جمادى الاولى ١٢٥٦ هـ من الخزينة الى مجلس شورى المعاونة . انظر أيضا : دفتر رقم ٣٧٦ صادر المعية السنية بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٢٦٠ هـ .

مكاتبة رقم ٦٥٣ من المعية السنية الى مدير ديوان الايرادات . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ٢٦١ معاونة ايرادات . وثيقة رقم ٨٧٥ بتاريخ ٢ محرم ١٢٥٧ هـ افادة الى توفيق محرم . أنظر أيضا : الوقائع المصرية العدد ٢٢٤ فى ٤ رمضان ١٢٤٦ هـ . العدد رقم ١٠٤ فى مسلخ رجب ١٢٤٥ هـ .

(٤) الوقائع المصرية : العدد رقم ١٥٣ بتاريخ ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٤٥ هـ ص ٤ .

(*) الخط : مصطلح ادارى يعنى قسما من أقسام المديرية .

خفيا بين الصيارفة فى نهب الأموال ، فأبعد كل من له صلة قرابة بالآخر وأودع بعضهم السجن والخدمة بترسانة دنقلة لفترات طويلة (١) • فكان الباشا لا يرى سببا يحول دون تولى بعض السودانيين أمور الحسابات فتم تعيين أحدهم « أمين خزنة » لاحدى مديريات السودان (٢) • وبعد أن كانت ميزانيات المأموريات ترسل رأسا الى مصر تغير الوضع عقب انشاء ديوان الحسابات فأصبحت كل مأمورية أو مديرية ترسل ميزانيتها الى الخرطوم ومنها الى مصر • واستمر ذلك حتى نهاية عهد محمد على (٣) •

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة حقا فى المديريات السودانية آنذاك ، تلك الأعداد الرهيبة من الكتبة الذين كانوا يقومون بتسجيل كل شاردة وواردة فما من صغيرة أو كبيرة إلا أحصوها ، ولم يكن يتم صرف أى شىء من المخازن إلا ويسجل فى بيانات دقيقة وبخط واضح وأرقام أكثر وضوحا ودقة (٤) •

ومنذ بداية أربعينيات القرن التاسع عشر — وبالتحديد بدءا من ١٨٤٠ / ١٨٤١ — شهدنا تطورا فى الأوضاع المالية لمصر والسودان • فقبيل هذا التاريخ جرت أحداث خارجية هامة تأثرت بها مصر اقتصاديا ، ونعنى بها الحروب التى خاضتها مصر فى الشام ، وما تحملته من نفقات طائلة بسبب هذه الحروب الأمر الذى أدى الى ضرورة البحث عن

---

(١) الوقائع المصرية • العدد رقم ٣٢٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٤٧ هـ •

(٢) دفتر رقم ٢٧٢ معاونة ايرادات — مكاتبة رقم ١١١ بتاريخ ٩ ربيع الأول سنة ١٢٦٠ هـ • من شورى المعاونة الى مدير الايرادات •

(٣) دفتر حسابات ابعادية كردفان رقم ٥٥٧٨ بتاريخ ١٩ رمضان سنة ١٢٦٢ هـ — ٢٩ رمضان سنة ١٢٦٣ هـ • (٩ سبتمبر ١٨٤٦ — ١٠ سبتمبر ١٨٤٧) •

(٤) سجل ٤٦٢٣ — مخزن رقم ٢١ قلعة — عين ٩١ — بيان شطب المنصرف من الخزينة العامرة لجهة بلاد السودان سنة ١٢٤٦ هـ •
دار المحفوظات العمومية بالقلعة •

موارد جديدة سواء فى مصر أو السودان . وقد حاول حكمدار السودان (أحمد باشا أبو ودان) فى عام ١٨٤٠ أن يجعل من ضم منطقة التاكة الى الادارة السودانية اضافة جديدة لموارد السودان كما كان حريصا فى نفس الوقت أن يبلغ ذلك مسامع الباشا الذى كان يتحرق شوقا وأملا فى البحث عن موارد جديدة للبلاد (١) . وفى سبتمبر عام ١٨٤١ راح الباشا يطلب من حكمدار السودان بعبارة صريحة « .. أن يجمع ما يمكن جمعه من النقود الذهبية والذهب الخام وارساله الى مصر بغاية السرعة .. » (٢) . كما كان الباشا يستحث حكمدار السودان على ارسال النقود الى مصر وخاصة فى مستهل عام ١٨٤٢ مما جعل الحكمدار يخاطب المسئولين بمصر أنه قد أرسل « ... كافة النقود الموجودة فى خزائن السودان .. » وانه « ... سوف يرسل كل خمسة عشر يوما كشوفا ببيان حسابات الخزائن المذكورة ... » (٣) .

ويحاول محمد على فى تلك السنوات أن يضرب مثلا لكيفية زيادة الايرادات سواء فى السودان أو مصر من خلال خطاب مرسل الى حكمدار السودان فى ابريل عام ١٨٤٣ ومن واقع الحالة التى كانت تعيشها مصر والسودان فيقول للحكمدار « ... انكم تقولون فى جوابكم اننى جاد ومجتهد فى تكثير الواردات ، ولكن تكثير الوارد انما يكون بتقليل المنصرف ولكن أنتم على عكس ذلك آخذون بتزييد المصروفات وهذا غلط منك .. » ثم يضيف قائلا : « .. وها أنا أبين لك ما هو الواقع وهو أنه لما عاد الجيش من بر الشام اجتمع حضرة ولدنا الباشا صاحب الدولة وكبراء

---

(١) دفتر رقم ٢٢٥ عابدين — ترجمة الافادة التركية رقم ١٠ اصل : ١٧ مسلسل بتاريخ ١٨ ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ . من شورى المعاونة الى الباشا حكمدار السودان .

(٢) دفتر رقم ١٨٩ معاونة أقاليم . مكاتبة رقم ٣٥٤ بتاريخ ٢٢ شعبان سنة ١٢٠٧ هـ . من الجناب العالى الى حكمدار السودان .

(٣) دفتر رقم ١٩٧ معاونة أقاليم — مكاتبة رقم ١٦ بتاريخ ٢١ محرم ١٢٥٨ هـ من شورى المعاونة الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

مصر وتبادلوا الرأى لتقليل المصرفات . وذلك ان الرجال الذين ربيتهم من سنين كثيرة وأدخلتهم فى حظيرة الانسانية والذين جمعتهم من هنا وهناك قرروا تفريقهم . وفى ذلك الوقت كنت فى القرى فقدموا لى ذلك القرار الذى قرروه لتقليل المصروفات ، فلما اطلعت عليه لم أر تفريق أولئك الأشخاص الذين جمعتهم من مدة مديدة وأخذت فى تثقيفهم شيئا حسنا .. » (١) وكان من رأى محمد على أن يعطوا نصف مرتبهم ويمكثوا فى بيوتهم الى أن تأتى الساعة التى يطلبون فيها للعمل ، وبالفعل تم ما أراد ، الى أن بدأت الحالة فى التحسن وازداد الدخل عادوا الى الحكومة بمرتباتهم كاملة . وبعد أن ضرب هذا المثل لحكمدار السودان نبهه الى أن المتأخر على السودان من الديون قد بلغ مبلغا ضخما وأن المخرج من هذا لا يكمن فى تقليل المستخدمين والمصروفات وحسب ، ولكن الحل يكمن فى زيادة دخل موارد البلاد باتباع أساليب أخرى . ووصف له طريقة مثلى لجمع المتأخرات وهى القيام بصرف بضعة آلاف لأولئك الرجال القائمين على جمع الأموال فى السودان الأمر الذى يحفزهم الى أداء مهمتهم بنفس راضية وسهولة ويسر وتكون النتيجة الطبيعية زيادة كبيرة فى الايرادات (٢) .

من ذلك يتبين لنا عدة حقائق أولها : ان مصر كانت عقب حروب الشام قد عانت مشكلة مالية حاولت التصدى لها عن طريق تسريح أفراد الجيش ولكن محمد على رفض هذا الحل وأصر على أن هؤلاء المسرحين يمكن أن يكونوا قوة انتاج لا بأس بها . وثانيها : أنه لابد من البحث عن أساليب أخرى جديدة وبديلة لزيادة الدخل والبحث عن علاج لأسباب القصور فى الايرادات . وثالثها : ان محمد على لم يكن يخشى الزيادة الرهيبة فى العاملين بالدولة ولا يلق عليهم وحدهم تبعة القصور

---

(١) دفتر رقم ٢٠٨ صادر ديوان المعاونة الى الاقاليم . وثيقة رقم ٥٠٥ بتاريخ ٤ ربيع الآخر سنة ١٢٥٩ هـ ارادة الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٢٠٨ ، نفس لوثيقة السابقة .

فى الانتــاج وضعف الاقتصاد . ولــم يكن فى نفس الوقت يلجــأ الى الحلول السطحية والسريعة بل كان يبحث عن العلاج الناجع للمشكلة . وهكذا فان المرء ليدهش حقا وهو يقرأ تلك الرسائل أو « الروشتات » المالية التى كان يبعث بهــا محمد على فى القرن التاسع عشر الى مرؤسيه فى أقصى الســودان مناقشا ومحللا لأدق وأخطر المشكلات الاقتصادية وكأنه واحد من رجالات الاقتصــاد المتمرسين . بل كان يفوقهم فى أن اجتهاداته كانت تؤتى ثمارا مؤكدة كما تراءى لنا .

وكانت بعض ايرادات المديريات السودانية فى عهده ــ أحيــانا ــ لا تف بمصروفاتها كما حــدث للتاكة عام ١٨٤٤ ، حين حــدث نوع من الاختلال فى ميزانها التجارى الذى تأخر بسببه تسليم العساكر الموجودة فيها لمرتباتهم [١] . وليس معنى ذلك أن كل المديريات السودانية فى تلك الفترة كانت على شاكلة التاكة من حيث اختــلال حساباتها ولــكن ذلك ربما يكون « حالة خاصة » بهذه المديرية لحداثة ضمها للادارة المصرية فى السودان وعدم ترتيب حساباتها الخاصة كسائر المديريات الأخــرى أو ربمــا لاتســاعها الشــديد الــذى يؤدى الى زيادة مصروفاتها على وارداتها ، وربما تكون كل هذه العوامل معا .

خلفاء محمد على ومالية الســودان :

لم يكن اهتمام خلفاء محمد على يقل عن اهتمامه بالســودان من حيث النهوض اقتصاديا وماليا ، مع تحفظ جوهرى وهو أن الجميع كانوا يصدرون القرارات النظــرية السليمة ولكن محمد على كان يختلف عنهم جميعا بمتابعته المباشرة والدقيقة لمدى تطبيقها وتهيئة الظروف الملائمة لكى تؤدى مهمتها . لقــد طلب عباس الأول فى عــام ١٨٤٩ أن تستمر

---

(١) دفتر رقم ٣٧٦ ــ صادر ديوان المعية ــ وثيقة رقم ٢٨٧٥ بتاريخ ٢٤ جمادى الآخر سنة ١٢٦٠ هـ . ارادة الى أحمد باشا المنكلى .

نفس الجهود السابقة وألا تقل رتبة الحكام الذين يتولون الوظائف بالسودان عن رتبة لواء (١) •

والجدول * التالى يبين ميزانية مديريات السودان فى عهدى محمد على وعباس الأول :

المديريـة	بالجنيه الايراد	المصروفات	ملاحظـات
سنار وفيزوغلى	٣٢٧١٥٨	٧٠٨٦٧	بها زيادة فى الايراد
التاكـا	١٣٠٧٠٤	٢٤٢٣٠	بها زيادة فى الايراد
دنقلة وبربر	٥٥٧٢١١	١٢٤٤٢٥	بها زيادة فى الايراد
الخرطـوم	٤٠٥٩٦٧	١٥٩٤٣٥	بها زيادة فى الايراد
كردفـان	٣٤٤٠٤٤	٩٥٣٥٣	بها زيادة فى الايراد
معدن الذهب بجبل فيزوغلى	٣٥٥٩	٣٤٢٧	بها زيادة فى الايراد
معدن الذهب بجبل قيسان	٥٥١٥	١١٧٢٩	به نقص فى الايراد

ومن هذا الجدول الذى يوضح لنا ايرادات ومصروفات مديريات السودان بين عامى ١٢٦٠ هـ — ١٢٦٨ هـ (ديسمبر ١٨٤٣ / ١٨٤٤ — ١٨٥٠ / ١٨٥١ / ١٨٥٢ م) نستخلص أن ميزانية السودان فى عهدى محمد على وعباس الأول كانت طيبة ولم يحدث بها عجز كما لاحظنا اللهم ألا فيما يتعلق بخام الذهب بجبل قيسان ، وقد سبق أن تعرضنا لهذا الموضوع من حيث ثبوت عدم جدواه الاقتصادية ** ، وها هى

(١) أمين سامى : تقويم النيل وعصر عباس الأول ومحمد سعيد . المجلد الأول ، الجزء الثالث . ص ٢٤ .
(*) الوثائق الافريقية — محفظة ١.٠٣ ، ملف رقم ٦ . دار الوثائق القومية بالقلعة .
(**) أنظر فصل الثروة المعدنية والصناعة .

الأرقام مرة أخرى تثبت ما سبق ذكره • كذلك نلاحظ مسألة هامة بهذه الميزانية وهى أنها لا تعد انعكاسا لجهود عباس الأول فى السودان بل اننا نعدها نتائج لجهود محمد على ولكن عباس استطاع أن يقطف الثمار وحسب •

وإذا مضينا نتتبع الأحوال المالية فى السودان بعد ذلك سوف نلاحظ انعكاس الأزمات المالية عليه منذ عهد محمد سعيد • ففى عام ١٢٧٣ هـ (١٨٥٦ م) كان لمستخدمى السودان استحقاقات متأخرة على الدولة (١) ، ولم يكن بالسودان نقد يكفى لاعطائهم هذه الاستحقاقات المتراكمة رغم محاولاته المتميزة فى اصلاح الجهاز الضرائبى بالسودان كما مر بنا • وفى عهد اسماعيل بدأت بوادر هذه الأزمات تطل برأسها ، ففى أوائل عهد الحكمدار موسى حمدى (١٨٦٢ — ١٨٦٥) وفى عام ١٨٦٤ على وجه التحديد طلب ارسال ثلاثة أو أربعة آلاف كيس نقدا الى مديرية التاكة بسبب ما أصابها من ضائقة مالية نتيجة القحط الذى أصاب حاصلاتها (٢) • وفى عهد الحكمدار جعفر صادق باشا (١٨٦٥ — ١٨٦٦) استمرت مشكلة التاكة المالية وطلب منه إذا ما وصل الى مقر الحكمدارية « أن يبحث ايرادها ومصروفاتها بحثا دقيقا ، وأن ينظم ميزانيتها نظاما موافقا •• » وأن يعرف ما إذا كان السودان فى حاجة الى نقود اضافية عن الايراد السنوى (٣) • ووصل الأمر بمصر الى صرف النظر عن شراء بعض السفن من انجلترا واحضار هذا المبلغ ، المخصص لها ، من انجلترا حتى يمكن المساهمة

---

(١) أمين سامى : تقويم النيل وعصر عباس حلمى باشا ومحمد سعيد باشا . المجلد الأول ، الجزء الثالث . ص ٢١٢ •

(٢) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ ص ١،١١ •

(٣) دفتر رقم ٥٣٧ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢ ص ٦٦ . بتاريخ ٢٨ محرم سنة ١٢٨٢ هـ . ارادة سنية الى صاحب السعادة

به فى حل الأزمة المالية بالسودان (١) •

ومن هنا يلاحظ أن أعباء السودان فى تلك السنوات الحرجة من عهد اسماعيل قد ساعدت فى تفاقم الأزمة المالية فى مصر ، بما كان يقدم لها من أموال •وفضلا عن ذلك فقد تم ارسال كميات كبيرة من الغلال الى السودان لتباع بأسعارها الأصلية للأهالى وموظفى الحكومة بكل من سواكن وكسلا وبربر والخرطوم (٢) •

وتشير الوثائق الى الحجم النقدى الكبير الذى كانت تبعث به مصر الى السودان ، ففى اكتوبر عام ١٨٦٥ تم ارسال ستة وعشرين كيسا ، ووعد المسئولون أن يرسلوا على الفور عشرة آلاف كيس آخر (٣) •

ولما وصل حكمدار السودان الى الخرطوم عام ١٨٦٥ وجد الخزانة خاوية من النقود ، كما تبين له تأخر كثير من الاستحقاقات ، وأن الخمسة آلاف كيس التى أحضرها معه لم تكف حتى لصرف عدة شهور من استحقاقات العساكر المتأخرة ، ولم تجر تسوية ايراد ومصروف حكمدارية السودان حتى تاريخ رسالته • وفى ختام رسالته

---

(١) محافظ أبحاث السودان — محفظة رقم ١٧ — ترجمة افادة من محمد شريف باشا الى صاحب السعادة (رياض باشا) بتاريخ ١٧ صفر سنة ١١٨٢ هـ • دار الوثائق بالقلعة •

(٢) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق • ص ١١٢ •

(٣) دفتر رقم ٥٥٨ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١١ ص ٢٨ بتاريخ ٢٩ جمادى الآخر سنة ١٢٨٢ هـ • ارادة الى حكمدار السودان وبيان هذه النقود التى أرسلت كالتالى :

٥٠٠٠ كيس أرسلت فى ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٢ هـ مع جعفر باشا وكيل الحكمدارية •

١٥٠٠٠ كيس أرسلت فى آخر ربيع الأول سنة ١٢٨٢ هـ الى سعادة الباشا حكمدار السودان •

١٠٠٠ كيس أرسلت فى ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ الى سعادة جعفر باشا وكيل الحكمدارية ٥٠٠٠ كيس ارسلت فى ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ الى سعادة جعفر باشا وكيل الحكمدارية (محفظة رقم ١٧ — نفس الوثيقة السابقة) •

طلب الحكمدار « إسعافه » ومساعدته بخمسة عشر ألف كيس ترسل على الفور (١) .

وفى عام ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦ م) تبين وجود عجز بميزانية السودان مقداره سبعة آلاف وثلثمائة كيس (٢) . ولم تقتصر مساعدات مصر فقط على النقود بل أرسلت أيضا كميات من الدقيق فى عام ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) مقدارها أربعة وعشرون ألف أقة « على ذمة مأمورية النيل الأبيض » وطلب أن يرسل الفائض الى مصوع بالاضافة الى تخصيص جزء لبربره (٣) .

وفى اكتوبر عام ١٨٧٠ بلغت مصروفات محافظة مصوع فى خلال عام واحد ٦٦٣٦ كيسا ، بينما بلغت ايراداتها ٣٦٩٣ كيسا الأمر الذي يشير الى عجز واضح فى ميزانها التجارى . وفى مديرية التاكة ازدادت مصروفاتها عن ايراداتها بحوالى ألف ومائة كيس ، أما محافظة سواكن فقد كان ايرادها يزيد قليلا عن مصروفاتها . وقد أقترح لأحداث توازن فى هذا العجز ، وخاصة بجهة سواحل البحر الأحمر ، الاستغناء عن « أوجاق القواصة » الذى كان استحقاقه السنوى ٣٧٢٣ كيسا (٤) .

وفى عام ١٨٧٠ نقرأ فى احدى الوثائق بعض أوجه المصروفات التى تمت فى السودان وكلفت الميزانية الشىء الكثير ، الأمر الذى يلقى بعض الأضواء فى تفسير الأزمة المالية التى عاشها السودان فى تلك

---

(١) دفتر رقم ١ عابدين ، وارد تليغرافات ، ترجمة التليغراف التركى رقم ١٢٥٠ وارد بتاريخ ليلة ١١ شعبان سنة ١٢٨٢ هـ . من حكمدار السودان الى رياض باشا .

(٢) دفتر رقم ١٩١٦ ، أوامر كريمة ، صورة الأمر الكريم رقم ٢٣٣ ص ٩٦ بتاريخ ١٧ ربيع الآخر سنة ١١٨٣ هـ . أمر كريم الى المالية .

(٣) محافظة سواكن (عربى) صادر ٤ / ٢ / ٥ / ٢٨ (تابع محافظة مصوع عموم (هكذا) . مكاتبة رقم ٢٠ بتاريخ ٧ شوال سنة ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفتر رقم ١٨٤٧ معية سنية . وثيقة رقم ٣ ، صورة المكاتبة الواردة من محافظة سواحل البحر الأحمر الى المعية السنية . ص ٣٩ بتاريخ ٨ رجب سنة ١٢٨٧ هـ .

الفترة ، وخاصة السنوات السابقة لعـام ١٨٧٠ مباشرة إذ « ... كان جارى بها عمارات ميرية وطوابى ومساكن عسكرية ، حتى من الجملة لم يكن يوجـد بها أشـوان وقشـلاق وجبة خانات ودواوين وإسباتاليات إلا « شيء قليل » * مبنى بالطين والطوب الأخضر ، وفى كل سـنة يهد من الأمطار ويصير تجديده « سنوى » ** بمصاريف زايدة ومشقة بدون فايدة » (١) .

ويذكر حكمدار السودان جعفر مظهر باشا ان جهـات السـودان حتى لحظة قدومه السـودان لم تكن تعرف الطوب الأحمر ولا الجـير ولم يكن يوجـد بها أية « بنايين وحجارة ونجارين وحدادين .. » (٢) فمن ذلك يتضح لنا أن المصاريف التى انفقت فى تلك الآونة على البـلاد كانت جسيمة جدا ، إذ كان عليهم أن يبدأوا فى تعمير البـلاد حتى تواكب ما يحدث فى مصر . وكانت النتيجة أن اجـراء مثل هذه الاصـلاحات كان يتطلب نفقات باهظة وفى ظروف حرجة كانت تمر بهـا مصر . ومن الغريب حقـا أنه رغم هذه الظروف المالية الصعبة التى عاشها السودان قبيل عـام ١٨٧٠ والتى أشرنا اليها حالا فان ميزانية البـلاد تسجل فى هذا العـام بالذات فائضا بلغ نحـو عشرين ألف كيس (٣) . ولا ينبغى أن نسارع بالحكم على أن البـلاد السودانية قد أصبحت فى بحبـوحة من العيش ولكنها زيادة طارئة وغير مستقرة .

ومنذ عام ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) تم إحالة حسابات جهات السودان وسواحل البحر الأحمر الى نظارة (وزارة) الجهادية بدلا من تبعيتهـا لعدة دواوين ، على أن يتم تعيين وكيل للمالية بديوان الجهادية ليقـوم

(*) شيئا قليـلا .

(**) سـنويا .

(١) دفتر رقم ١٨٣٦ معية تركى — صورة المكاتبة الواردة من حكمدارية السودان الى المعيـة السنية رقـم ٦ بتاريخ ٤ محرم سـنة ١٢٨٧ هـ . (١٨٧٠) ص ٢٧ .

(٢) نفس الدفتر والوثيقة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) نفس الدفتر والوثيقة السابقة .

بعرض الميزانية بديوان المالية (١) • ولكن فى عام ١٨٧٧ صدر أمر بناء على طلب حكمدار عموم السودان بتشكيل ديوان خاص بالحكمدارية ليقوم « •• بقبول وتسوية حسابات جهات فروع وعموم السودان وإناطته بأمور ماليتها من ايرادات ومصروفات » ، ثم عين مأمور خاص لهذه المصلحة (٢) • ولم تسلم دارفور من آثار الضائقة المالية التى عمت البلاد إبان عصر اسماعيل فقد كان المتحصل منها كايراد سنوى — كما ورد فى يونيو عام ١٨٧٨ — خمسين ألف جنيه تقريبا ، بينما كان مطلوبا لها من الحكمدارية مائة ألف جنيه سنويا حتى يمكنها تصريف أمورها ، وكانت الحكمدارية لا تستطيع أن تسهم بأكثر من خمسة عشر ألف جنيه سنويا ، نظرا لما كانت تتحمله من أعباء أخرى تجاه باقى مديريات السودان ، بالاضافة الى الدين المطلوب منها سداده لمصر ، حيث كان من المفروض أن ترسل خمسة عشر ألف كيس سنويا (٣) •

ولقد كانت انعكاسات الأوضاع المالية التى كانت تمر بها مصر فى عام ١٨٧٨ واضحة على السودان ، فمن المعروف ان الخديوى اسماعيل فى هذا العام وجد نفسه مرغما تحت ضغط كل من فرنسا وانجلترا على قبول تشكيل « لجنة تحقيق عليا » حين صدر أمر عال فى ٢٧ يناير عام ١٨٧٨ بتأليفها وآخر فى ٣٠ مارس عام ١٨٧٨ لتنظيم هذه اللجنة وتحديد اختصاصاتها • وقد سيطرت لجنة التحقيق بفضل هذين المرسومين على كل شئون مصر المالية • وكان يرأس هذه اللجنة « فردناند دلسبس » إلا أن الرئاسة الفعلية كانت لوكيلها الانجليزى

---

(١) دفتر رقم ٢ أوامر ص ١٥ ، صورة الأمر الكريم الصادر الى محافظ زيلع وملحقاتها رقم ٢٣٠ بتاريخ ١٠ شعبان ١٢٩٢ هـ .

(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — المجلد الثالث ، الجزء الثالث .

(٣) دفتر رقم ٥٠ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ١٤٥ بتاريخ ٢٧ يونية ١٨٧٨ (٢٦ جمادى الثانية ١٢٩٥ هـ) . من غوردون الى خيرى باشا . أنظر أيضا : عبد الرحمن الرافعى . عصر اسماعيل . ج ٢ . ص ١٠٥ .

« ريفرز ويلسون » نظرا لغياب دلسبس فى الاسماعيلية . وأما الوكيل الثانى فكان « دى بلينيير » الفرنسى بالاضافة الى الوكيل المصرى رياض باشا وأعضاء آخرين لصندوق الدين .

وقد رأت هذه اللجنة ضرورة الحد من سلطة الخديوى المطلقة كشرط أساسى للاصلاح المالى ، وتوالت الأحداث لتفضى الى تشكيل وزارة عرفت بالوزارة المختلطة أو المسئولة فى أغسطس عام ١٨٧٨ وكانت تضم الانجليزى « ريفرز ويلسون » للمالية والفرنسى « دى بلينيير » للأشغال العمومية . وكانت مهمة هذه الوزارة فى المقام الأول دفع الأقساط المستحقة للدائنين الأجانب . وهكذا تم تقييد سلطة الخديوى واخضاعها « للوصاية الدولية » وأمكن عن طريق هذه الاجراءات التى اتخذت تحت ستار السهر على مصالح الدائنين فرض الرقابة الفعالة على مالية مصر .

ولا يعنينا هنا الدخول فى تفصيلات ما قامت به هذه الوزارة فى مصر ، ولكن ما نود أن نشير اليه حقا هو آثار تلك الاجراءات على السودان . فقد أرسلت « ارادة سنية » الى غوردون باشا حكمدار السودان (١٨٧٧ — ١٨٧٩) فى يونية عام ١٨٧٨ بخصوص ميزانية الأقاليم السودانية التى تحت ادارته ترجوه أن يرسل الى « رئيس قومسيون الانكيت الأعلى » ، ويعنى به رئيس لجنة التحقيق ، كل ما يحتاجه من إيضاحات حول الشئون المالية للسودان . كما تشير هذه الارادة أيضا الى أن ولسون — وكيل اللجنة — قد بدأ يباشر اختصاصه للوقوف على حالة المالية المصرية ، ولما كانت ميزانية حكمدارية السودان لم ترد الى مصر منذ يناير ١٨٧٧ ، فانه يرجو إرسال كشوف ميزانية السودان عن عامى ١٨٧٧ ، ١٨٧٨ على وجه السرعة [١] .

---

(١) دفتر رقم ٣٥ عابدين — صادر تليغرافات — صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ٤٦٨ بتاريخ ٢٨ يونية سنة ١٨٧٨ ، أنظر أيضا : مع نفس الوثيقة ترجمة مكاتبة فرنساوى من ولسون وكيل رئيس قومسيون الانكيت . دار الوثائق القومية بالقلعة .

وهكذا بدأت أحوال مصر المالية السيئة تنتقل آثارها الى السودان وأصبحت مسألة الاشراف الأجنبى لا تقتصر على مالية مصر فقط بل وعلى السـودان أيضـا .

وفى عام ١٨٧٨ بدأت مصر تطالب السودان بدفع متأخـرات بلغت ثلاثة وثلاثين ألفا وخمسمائة جنيه ، وقسمت على قسطين ، أحدهما يدفع فى ١٥ أغسطس عام ١٨٧٨ والآخـر فى ٣٠ سبتمبر عام ١٨٧٨ ، مـع ملاحظة ان ميزانية السـودان قـد حـل بهـا عجـز فى عامى ١٨٧٦ ، ١٨٧٧ (١) .

ومن المدهش حقا أن ميزانية السودان منذ عام ١٨٧٧ بدأت تتدهور بشكل سريع ، مـع ملاحظة أن التهـم السـابقة التى كان يرمى بهـا الحكمداريون والموظفون من حيث الجشـع وفسـاد الذمم وغـيرها من الاتهامات التى كانت تكال لهؤلاء الحكام أصبحت الآن غير واردة — من جانب الأوربيين — بعد أن تولى حكم السـودان حكمدار أجنبى ونعنى به غوردون باشا ، ولعل فى مطالعة أرقام ميزانية عام ١٨٧٨ ما يقـوم دليلا على صحة ما نقـول . ففى هذا العـام بلغ الايراد ٧ بارة ، ١٢ قرشا ، ٥٧٩٧٢٥ جنيها ، والمصروفات ٢٤ بارة ، ٦٧ قرشـا ، ٦٧٦٨٤٩ جنيها ، أى أن هناك عجزا واضحا فى الميزانية السودانية ، بالاضـافة الى أن هناك متأخرات على السودان فى نفس العام بلغ مقداره ٢٩ بارة ، ٦٩ قرشا ، ٣٢٧١٦٨ جنيها مطلوبة لجهات عدة على شـكل استحقاقات وتركات متأخرة لاربابهـا أو « مطلوبات تجار » وغيرها (٢) .

وراح حكمدار السودان — غوردون — يلجـأ الى حلول وتبريرات

---

(١) دفتر رقـم ٥٠ عابدين — وارد تليغرافات — صـورة التليغراف العربى رقم ٢٤٨ بتاريخ ٢١ يولية ١٨٧٨ . ورد فى ٢٣ يولية ١٨٧٨ .

(٢) دفتر رقم ٣١ — وارد معية عربى — ص ٦٤ ، مكاتبة رقـم ١٩ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٩٥ هـ (٢٤ أكتوبر ١٨٧٨ م) من حكمدارية السودان الى المعية .

يلقى بها فى وجه المسئولين بمصر كقوله : ان السـودان يتحمـل نفقات الصرف على المسجونين القادمين من مصر (١) • غير انه من المعلوم ان هؤلاء الأشـخاص يمكنهم أن يصبحوا أداة طيعة يمكن للحكمدارية أن تستغلها فى العمران وكافة الأشغال كمـا كان يحدث بالفعل بالترسانات السـودانية • وقوله أيضا ان هذه الأزمة والخلل الذى أصـاب الميزانية السودانية انما هو ناشىء من كثرة مصروفات بعض الجهات كالتاكة التى لا تنتج شـيئا ، وضرورة رفت أحـد كبار الموظفين لها نظرا لارتفـاع راتبه (٢) ، وكأن هذا الراتب الذى كان يتناوله هذا الموظف هو السبب الرئيسى لحدوث عجز بميزانية السـودان ، وكان الأجـدى به ان يبـدأ بنفسه أولا ، فقد كان الموظفون الأوربيون والأجانب عموما فى السودان يتناولون أضعاف أضعاف مرتبات غيرهم من الموظفين المصريين • أمثـال بيكر وغوردون نفسه •

وعلى هذا المنوال سـار المسئولون فى مصر والسـودان فى حـل الأزمة المالية فى السودان • وقد صدر منشور فى تلك الآونة « •• باستقطاع يوم واحـد » من شهرية كل فرد من مستخدمى الحكومة فى السـودان ، واستثنى المنشور من ذلك كافة الموظفين الذين لهم عقـود مع الحكومة أمثال غوردون !! (٣) وقد ضج الموظفون فى السـودان من هذا الاجراء ، الأمر الذى جعل غوردون نفسه يرسل الى المسئولين بمصر ، مبينـا الآثار التى نجمت عن تطبيق مثل هذا القرار وحـاول أن يجعل الاستثناء يشمل جهات السودان كلهـا (٤) •

---

(١) دفتر رقم ٣١ السابق ، نفس الوثيقة السابقة . ص ٦٤ .

(٢) دفتر رقـم ٥٠ عابدين — وارد تليغرافات — صـورة التليغراف العربى الشفرة رقـم ٦٤١ ص ٩٢ بتاريخ ٨ نوفمبر ١٨٧٨ . من غوردون باشا بالخرطوم الى خيرى باشا .

(٣) دفتر رقـم ٥٠ عابدين — وارد تليغرافات — صـورة التليغراف العربى الشـفرة رقـم ٦٦٠ ص ٩٤ بتاريخ ١٨٧٨ . من غوردون باشـا بالخرطوم الى خيرى باشا .

(٤) نفس الدفتر والتليغراف السابقين ص ٩٤ .

هكذا مضت الأحوال المالية فى السودان على عهد غوردون ووصلت الى نقطة خطيرة كان ينبغى عندها أن يسارع المسئولون فى مصر الى دراسة هذه الأوضاع على وجه السرعة وإيجاد الحلول المناسبة للخروج منها . وعلى ذلك فقد صدر أمر عال لحكمدار السودان رؤوف باشا (١٨٧٩ — ١٨٨١) فى عام ١٨٨٠ ورد به وصف لأحوال السودان من كافة الجوانب واقتراحات لحل الأزمات والمشاكل التى تعانى منها البلاد . وقد جاءت على رأسها جميعا المشكلة المالية حيث طلب منه « .. أن يقوم بتحصيل الأموال والعوايد بطريقة لا يتأتى منها الأضرار بحالة الأهالى ولا الإجحاف بحقوق الخزينة » (١) .

ومضى هذا الأمر يبين للحكمدار طرائق جمع الضرائب والأموال الأخرى وأسلوب ارسالها الى نظارة المالية مما يفهم منه أن موضوع الحالة المالية كان يشغل أذهان المسئولين بصورة رئيسية (٢) .

ولقد جرت محاولات كبيرة من رؤوف باشا لدراسة أوضاع السودان بصفة عامة ، والمالية على وجه الخصوص ، وذلك من خلال زيارات ميدانية لمديريات السودان ، تعرف من خلالها على كافة المشاكل وحاول وضع حلول جذرية لها . كما أنه أرسل ميزانية تفصيلية عن كل مديرية ومصلحة حكومية فى السودان من حيث الايراد والمنصرف وقيمة العجز بكل واحدة منها . ولحسن الحظ أن هذه الميزانية كانت لعام ١٨٨١ الذى يعتبر آخر سنى هذه الدراسة حيث تتوقف عندها لمعرفة حصاد السنوات السابقة لها ، ولذلك فان الوثائق والأرقام المالية تسعفنا تماما فى معرفة تطور الوضع المالى للسودان قبيل عام ١٨٨١

---

(١) محافظ السودان — محفظة بدون رقم — الرقيق — صورة الأمر الصادر لسعادة حكمدار السودان فى ٣ ر سنة ١٢٩٧ هـ . رقم ٢ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) السودان — محفظة بدون رقم — نفس الوثيقة السابقة .

وفى عام ١٨٨١ على وجــه الخصوص (١) .

واذا ألقينا نظرة فاحصة لميزانية الســودان عام ١٨٨١ * فسوف نلاحظ ما يلى : أولا : ان هناك مديريات ومصالح حكومية بالسودان كانت ايراداتها تزيد عن مصروفاتها كمديرية الخرطوم ومديرية كردفان ومطبعة الســودان . ثانيا : أن هناك مديريات ومصالح أخــرى بها عجز مثـل مديرية التاكة ومديرية خط الاســتواء ومصــلحتى التلغراف والسـكة الحــديد . ثالثا : بلغ ايراد الســودان فى هــذا العــام ٣٥ بارة ، ٣٨ قرشا ، ٤٥٩١٥ جنيها ، كمــا بلغت مصروفاته ١٢ بارة ، ٩٠ قروش ، ٥١١٦٨٤ جنيهــا ، وبلغ العجز فى هــذه الميزانية ١٧ بارة ، ٧٠ قرشا ، ٥٢٥٢٧ جنيهــا .

ولنا ملاحظة على هــذه الميزانية التى أوردها رؤوف باشا وتتعلق بمديرية خط الاســتواء حيث أورد أن بها عجزا ، وأكــد مرة أخــرى فى موضــع آخــر هذا العجــز (٢) . إلا أننا نستبعد حدوث مثل هــذا العجز بالنسبة لهذه المديرية فى ذلك الحين لأننا لم نجــد ـ من خـــلال

---

(١) أنظر حول ذلك الوثائق التالية :
ـ السودان ـ ديوان السودان ـ حسابات ـ محفظة بدون رقــم
ـ تليغراف رقم ٢ بتاريخ ٢٥ مايو سنة ١٨٨١ من حكمدار الســودان الى سعادة وكيل مالية مصر .
أيضا : الســودان ـ اعتمادات ميزانيــة ايرادات ومصروفات مديرية عموم هرر عـــام ١٨٨١ .
أيضا محافظ السودان ـ ديوان السودان ـ حسابات ـ محفظة بدون رقم ـ صورة التلغراف المحرر لحكمدارية السودان بتاريخ ٢٣ مايو ١٨٨١ نمــرة ٢٩ .
كذلك الوثائق الافريقية ـ محفظة رقم ١٣ ، ملف رقم ٦ ، وبه تفصيلات دقيقــة عن كل مديرية من حيث الايـــراد والمنصرف والعجــز أو الزيادة .
كذلك ـ السودان ـ محافظ مجلس الوزراء : تقرير محمد رؤف بتاريخ ١٨ جمادى الآخر سنة ٢٩٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .
(*) أنظر الملحــق الخاص بالميزانية .
(٢) السودان ـ مجلس الوزراء ـ تقرير محمد رؤوف باشــا بتاريخ ٢٨ جمادى الآخر عام ١٢٩٧ هـ . (١٨٨٠ م) . دار الوثائق القومية بالقلعة .

ما أطلعنا عليه من وثائق وما أكـده الدارسون ـ أية شكوى من لدن المسئولين بها منذ ضمها للادارة المصرية بالسـودان وحتى عـام ١٨٨١ رغم الجهود التى انفقت لتنظيمها • ويورد لنا الأمير عمر طوسون أرقاما تفصيلية حول ايرادات ومصروفات هذه المديرية عـام ١٨٨١ (١) يتبين لنا منها أن ايراداتها كانت تغطى مصروفاتها تماما بل تزيد عنهـا حيث شهدت هذه المديرية نشـاطا اقتصاديا ملموسا وخاصة على يد أمين بك الذى لو وجـد الوقت الكافى لاستطاع بهذه المنطقة أن يغذى أسـواق السودان وغيرها بكافة الحاصلات والمنتجات • ومما يدعم قولنا هذا أن رؤوف باشا قد ذكر فى موضع آخر بعيد عن التقرير ، حين وضع ميزانية خط الاستواء ، انه لم يجـد لها كشوفا ، فلجـأ الى مصادر أخـرى غير مباشرة (٢) •

وفى موضع آخر نقرأ بأن ميزانية هرر وزيلع وبربرة فى عام ١٨٨١ قد حوت عجـزا واضحا ، فبلغت جملة الايرادات ٣٧ قرشـا ، ٥٣٠٣٤ جنيها ، والمصروفات ٧٢ قرشا ، ٨٦٢٧٠ جنيها (٣) •

كذلك فاننا نلاحظ عجزا آخر فى ميزانية عموم سواحل البحر الأحمر مثل مصوع وسواكن حيث بلغت الايرادات فى عام ١٨٨١ ٥٥ قرشـا ، ٥٤٤٣٠ جنيها والمصروفات ٦٢ قرشا ، ١٣١٦٦٩ جنيها ، وبلغ العجز ٧ قروش ، ٧٧٢٣٩ جنيها (٤) •

---

(١) أنظر تاريخ مديرية خط الاستواء . ج ٢ . س ٧٢ وما بعدها .

(٢) قسم الوثائق الافريقية ـ محفظة رقم ١٠٣ ـ ملف رقم ٦ . ويلاحظ ان حسابات المديرية الاسـتوائية كانت منفصلة عن حسابات السـودان ، كما كانت منفصلة اداريا أيضا عنه ، (أنظر الاخطار الذى أرسـل لغوردون كمأمور للمديرية الاستوائية بدفتر رقـم ١٩٤٨ ـ أوامـر عربى ١٩ فبراير ١٨٧٤) أمر كريم الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) السـودان ـ اعتمادات ميزانية ـ ميزانية ايـرادات ومصروفات مديرية عموم هرر سنة ١٨٨١ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) السودان ـ اعتمادات ميزانية ـ ميزانية عن ايرادات ومصروفات محافظتى مصوع وسواكن وعموم سواكن وعموم سـواحل البحـر الأحمر عام ١٨٨١ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

ومن الملاحظات الجوهرية التى تؤخذ على الميزانية التى قدمها رؤوف باشا عام ١٨٨١ أنها لم تشر لا من قريب أو بعيد الى حجم الديون المتأخرة على السودان ، وذكر الوسيلة أو الوسائل المؤدية الى سدادها • كما أنها أيضا لم تشرح لنا أسباب العجز أو الزيادة الذين لحقا ببعض المديريات والمصالح الحكومية بالسودان • فلا شك أن مثل هذه التساؤلات كان ينبغى أن تجيب عليها ميزانية عام ١٨٨١ ، خاصة إذا علمنا أنها وضعت فى ظروف اقتصادية دقيقة وصعبة كانت تمر بها البلاد سواء فى السودان أو فى مصر •

هكذا مضت الحالة المالية فى السودان منذ محمد على وحتى أوائل عهد توفيق ، بين منحنيات ومنعطفات حادة كانت تتعثر حينا وتقوى حينا آخر حتى وصلت عام ١٨٨١ الى نقطة اللاعودة ولتتبدد كل المحاولات مع رياح الثورة المهدية ••

نظام الاقتصاد السودانى فى القرن التاسع عشر :

قد يكون من المناسب بعد هذا العرض لفصول الاقتصاد السودانى ، أن نرسم صورة أو نقوم « بتوصيف » لهذا الاقتصاد فى الفترة الزمنية التى قمنا بدراستها ، أو بمعنى شامل النظام الاقتصادى للسودان فى القرن التاسع عشر •

وبداية نود أن نشير الى حقيقة هامة وهى ان الاقتصاد السودانى فى هذه الفترة كان يستمد أسسه وأركانه الرئيسية من الاقتصاد المصرى فى شىء من « التحوير » أو الاختلاف نتيجة لظروف السودان الخاصة ، كما أن هناك حقيقة أخرى مؤداها أن النظام الاقتصادى فى السودان فى تلك الفترة لم يسر على وتيرة واحدة من حاكم الى آخر بل كانت هناك تغييرات جذرية أحيانا وبصمات قليلة فى بعض الأحيان •

ففى عهد محمد على كانت مصر تسير وفقا لنظام « الاقتصاد

الموجــه » حتى عام ١٨٣٨ ، وهذا النظــام يعتمد على مبدأين : الأول الاستقلال الاقتصادى والثانى الاحتكار والتوجيه فى بعض السلع (١) • فقد كان يطبق سياسته الاحتكارية فى مصر والسودان والتى ســبق أن تحدثنا عنها ، والاختلاف الوحيد بين تطبيق هذه السياسة فى البلدين ان الاحتكار فى السودان كان أقل وطأة ، فقد كان محمد على متسامحا جدا مع المزارع السودانى فى رفع الاحتكار عنه •

وبعد معاهدة بلطة ليمان (١٨٣٨) بين الدولة العثمانية وانجلترا ، جرت محاولات لتطبيق سياسة اقتصادية جديدة تتجــه نحــو الحــرية الاقتصادية ، ونقول « جرت محاولات » ، لأن هذه المعاهدة لم يطبقهــا محمد على تماما فى بادىء الأمر فى كل من مصر والســودان ، فقــد ظل ينفذ سياسته القائمــة على الاحتكار ، حتى بدأت الدول الأجنبية وخاصة انجلترا ، تضغط عليه لإلغاء هذه السياسة • ومنذ عــام ١٨٤١ م يمكن القول أن الباشا بدأ يتنازل قليــلا عن سياسته ليفسح لسياسة الحرية الاقتصادية مجالا أرحب حتى تم إلغاء الاحتكار فى مصر والسودان تماما وبدأ تدفق التجار الأجانب الى السودان بصورة واضحة ولم يجــدوا أدنى مقاومة من عباس الأول الذى اشتهر بكرهه للأجانب فى مصر ، بل راح يحميهم ، ويقصى — فى سبيلهم — كبار الموظفين كما سبق القول • وتأكد مبدأ الحرية الاقتصادية فى عهد محمد سعيد الذى ترك للــزراع حرية اختيار نوع المحاصيل التى يزرعونها سواء فى مصر أو السودان ، وحرية بيعها ونقلها وقام بإلغــاء الجمارك الداخلية (٢) • وزيادة على ذلك قام فى السودان ، بتنظيم المسألة الضرائبية بما يتمشى وحالة السكان فخفف من وطأتها عليهم • وبدأت رؤوس الأموال والتجــارة الدوليــة تدخل الى السودان • ومعروف أن سعيد بادر منذ أوائل حكمه فى مصر الى إلغاء ضرائب « الدخولية » التى كانت تقف عائقا فى وجه التجــارة

---

(١) احمد احمد الحتــه : تاريخ مصر الاقتصادى . ص ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) حسين خلاف : التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث . ص ٤٣٢ .

الداخلية • وقد صاحب انتهاج سعيد هذا النهج بدء ظهور الرأسمالية الحديثة ســواء فى مصر أو السودان فى شــكل مشروعات مالية وتجارية وزراعية تمثلت فى قيام بعض الشركات المساهمة ، أو فى شكل مشروعات فردية كمــا حدث فى الســودان من قيــام شركات من كبار التجار لبيع العاج ثم الرقيق وأشهرها شركات العقاد وبصيلى والزبير وغيرهم •

وقد تأكدت الرأسمالية فى عهد اسماعيل على وجه الخصوص ، فظهر ما يمكن تسميته — تجاوزا — بالشركات فى جنــوب الســودان وأثرى التجار ثراء فاحشا لدرجة أن أحدهم وهــو الزبير رحمت كان يشــكل دولة داخــل دولة ، واســتطاعت الحكومة المصرية أن تســتغل قوته الاقتصادية ومكانته الاجتماعية والحربية فعهدت اليه بفتح دارفور عام ١٨٧٤ • وقد استمرت هــذه السياسة الاقتصادية حتى قيــام الثورة المهدية عام ١٨٨١ •

الفصل الخامس

التركيب الاجتماعى وتطوره

- معيار تقسيم المجتمع السودانى
- البجاه (البجه)
- النوبيون
- القبائل العربية
- قبائل ساحل البحر الأحمر
- سكان الجبال (قبائل النوبا)
- سكان الجنوب (الزنوج والمتزنجون)
- مجتمع القبيلة السودانى
- الوضع الاجتماعى للرقيق السودانى .
- الأجانب

معيار تقسيم المجتمع السودانى :

لعلماء الاجتماع عدة معايير فى دراسة المجتمعات الانسانية من حيث بنائها الاجتماعى ، فمنهم من يقسمها الى طبقات وفقا لمعايير عدة منها حجم الثروة والتى تتدرج من الغنى الى الفقر • وربما يصلح هـذا المعيار للمجتمعات التى قطعت شوطا كبيرا فى تطورها الاقتصـادى بحيث تكون الفوارق الطبقية قد ظهرت جلية بين طبقة وأخرى • ولما كان هـذا التقسيم ، من ناحية أخرى ، نابعا أسـاسا من المجتمعات الأوربية التى مرت بمراحل اقتصادية متدرجة من الاقطاع الى الرأسمالية ، كما أن لها ظروفا طبيعة خاصة تختلف تماما عما حـدث فى مجتمعاتنا الشرقية وفى السودان بشكل خاص ، لذا فقد طرحنا هذا المعيار جانبا •

وهناك معيار آخر درج الكثيرون على استخدامه ، والذى يقسـم فيه المجتمع الى حكام ومحكومين • وهذا المعيار ، فى تقديرنا ، يحمـل بين جنباته سمات المجتمعات الشرقية التى تحظى فيهـا الفئات الحاكمة بجاه السلطة والثروة بينما فئة المحكومين تعيش على هامش الحيـاة • وقد أضفى على هذه الفئة الأخـيرة صفات تتنافى تماما مع آدمية البشر فهى أشبه بالقطيع الذى لا يملك أية مقومات للارادة الانسانية • كما أن تقسيم المجتمع الى حكام ومحكومين يتنافى مع طبيعة المجتمع السودانى الذى يتمسك تماما بتعاليم الدين الاسلامى التى لا تنظر الى المجتمـع على أنه يتألف من حكام ومحكومين ، بحيث تجعل بينهم فواصل حـادة ، ولكل شريحة سـماتها المتنـوعة ، بل نظرت اليهـم جميعا على أنهـم متساوون • لذلك فقد كان السودانيون شديدى النفور من هذه النظرة الأخيرة للمجتمع وخصوصا فى القرن التاسع عشر الذى شـهد تطورات دينية خطيرة تمثلت فى الطرق الصوفية ، التى سـوف نتحدث عنهـا ، والتى جعلت من المجتمع السودانى ــ الذى حـوى بين جنباته سلالات شتى ــ مجموعة شبه متقاربة ، فأكثرهم كان منضويا تحت طريقة صوفية

أو أخـــرى •• الغنى المتخم بالثروة والفقير حافى القدمين •• كلاهمـــا جلسا جنبا الى جنب مع شيخ الطريقة • وهكذا فان تلك المعايير النظرية الواردة من مجتمعات أوربية لا يصلح تطبيقها فى الســـودان ، ومن ثم وجب علينـــا أن نبحث عن معيار يتلاءم وأوضـــاع هـــذا البلد الذى له « خصوصية متميزة » تصلح كمعيار له • فالســـودان قد ضم قبـــائل عربية ، بعضها عاش حول شريط نهر النيل ، والبعض الآخر منها انتشر فى اجزاء متفرقة من البلاد • كذلك فقد سكنته مجموعات أخـــرى فى شرقى البلاد تختلف عرقيا عن سابقتها وتدعى (بالبجـــاه) ، بالاضـــافة الى النوبيين فى شمالى البـــلاد ، والزنوج فى جنوبها ، وقبائل أخـــرى على ساحل البحر الأحمر الغربى وجماعات من الأجانب وفدت إليـــه من كل أنحاء العالم • كل هذه الجمـــوع أو المجموعات السكانية كانت جـــد متباينة ، فلكل واحـــدة منها صفات وخصائص تختلف عن الأخـــرى ، بحيث بات من الصعب أن ندرسها تحت تلك المعايير التى طرحناها جانبا ، وأصبح من الأفضـــل علميا ، وكمـــا درج أكثر المهتمين بدراســـة سكان السودان — أن ندرس كل جمـــاعة على حـــده متخذين معيـــارا خاصا بطبيعة المجتمع الذى ينقسم الى عـــدد من التكوينات الســـكانية ذات الطبيعة القبلية والتى تتمثل فى المجموعات التالية :

١ — البجـــاه (البجـــه) (*) :

سكن البجاه الأراضى الواقعة بين البحر الأحمر شرقا ونهر عطبره ثم النيـــل الأكبر غربا ، ومن المنحدرات الشـــمالية للهضبة الحبشـــية جنوبا الى نهاية حدود محافظة أسوان فى الوقت الحاضر شمالا •

وينقسم البجه الى أربعة أقسام رئيسية ، ويمكن أن نطلق على كل قسم منها اسم قبيلة وهى : البشاريون فى الشمال ، فى تلك البيئة الجبلية

(*) بكسر الباء ، وهو النطق المتداول اليوم وان كان البعض قد نطق الاســـم بضم البـــاء •

الصخرية حيث تقل الميـاه ويندر الكلأ ، كمـا أنهم أيضا يقطنون الاقليم المسمى بصحراء العتباى • ويليهم من الجنوب « الأمرار » الذين يمتدون بانحراف فى اتجـاه من الجنوب الغربى فى مسار على الخط الحـديدى الى الشمال الشرقى فى اتجاه ميناء بور سـودان ** • والى الجنوب منهم « الهدندوة » ويمتازون بكثرتهم العددية فى السـودان عن بقية الأقسام الأخرى • وتمتد ديارهم من سواكن الى سنار ، وفى الأراضى المجـاورة للخط الحديدى الذى يمتد بين البلدين • وهكذا فانهم احتلوا « دلتا القاش » وعاشـوا على شـواطىء العطبرة المجـاورة لهم على خط عرض ١٥ •

وأخيرا نجد القسم الرابع منهم ويسمى « بنى عامر » فى الجنوب الشرقى حيث تمتـد أوطانهـم من طوكر فى الشمال الى داخل حـدود أرتـريا جنـوبا [1] •

وتوجد جمـاعات أخرى من البجـة ذات كيانات صغيرة وأهمهـا « الأشراف » و « الارتيقـا » و « الكميلاب » و « الحـالنقا » وغيرهم ، البعض منها تابع للجماعات الكبيرة والبعض الآخـر يفضـل أن يعيش مستقلا محاولا إثبات أهميته من خـلال أحاديثهم عن أبطالهم القدامى فى العصور الغابرة • ويعلق الدكتور محمد عوض على هذه الظاهرة قائلا : « ••• وليس فى دعواهم هذه وجه غرابة لأن نظام القبائل من طبعه

(**) نظرا لعدم حدوث تغيير جغرافى كبير فى توزيع هذه القبائل فقد استخدمنا هذا الوصف الحديث .

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، سكانه وقبائله . ص ١٦ ، وانظر أيضا محافظ ابحاث السـودان ، محفظة رقم ١٨ — دفتر رقـم ٤ بتـاريخ ٢٢ ذى الحجـة سـنة ١١٨٢ هـ دار الوثائق القوميـة بالقلعـة وانظر أيضا : محمد محمود الصياد : الناس فى افريقية ، ص ٧٦ . وكذلك : سليجمان : السلالات البشرية فى أفريقية . ص ٩١ ، ٩٢ .
وأيضـا :

Hamilton. J. A. de. C.; The Anglo Egyptian Sudan from within p. 140.

عرضة للتقلب والتطور على مدى الأزمنة ، فيعلو شأن بعضها حينا من الزمن بفضل أسرة قوية الشوكة ، كبيرة الثروة ، ثم لا تلبث بعد ذلك أن يدركها الضعف بسبب الحروب أو الأمراض أو سوء القيادة فيضعف أمرها ويقل عددها .. » (١)

وللبجة لغة حامية خاصة بهم وتسمى « التبداوى » أو « بداويت » ولكن العشائر الجنوبية من البجة من أمثال بنى عامر وجيرانهم من الجماعات القليلة تتكلم لغة « تجره » وهى لغة سامية (٢) . وليس معنى ذلك أن البجة لا يعرفون اللغة العربية ، بل انهم يتحدثونها بالاضافة الى لغة التبداوى أو لغة تجره . ولكن العربية ليست اللغة الأصلية عندهم على الرغم من أن بعضهم يحتفظ بنسب مكتوب فى ورقة يعود بهم الى « قريش » . وتعد اللغة العربية والدين الاسلامى من آثار النفوذ العربى الذى دخل أوطانهم فى عهد متأخر نسبيا من الشرق أو الشمال (٣) .

ويحاول مكمايكل أن يتلمس فوارق بين جماعة البنى عامر وسائر الجماعات الأخرى البجاوية ، فبالاضافة الى التباين اللغوى بين هاتين الجماعتين هناك تباين آخر فى الناحية الجسمانية ، بالاضافة الى قلة التجانس فى هذا الفرع إذا ما قورن بالهدندوة وسائر الجماعات الأخرى البجاوية (٤) .

وفى محاولة لتتبع المراحل التاريخية للبجة يحاول سليجمان أن يجد صلات بينهم وبين المصريين القدماء على أساس أنهما من سلالة واحدة أو من سلالات متقاربة ، وعلى وجه الخصوص سكان مصر الجنوبية

---

(١) السودان الشمالى : ص ٢٧ .

(٢) MacMichael, D. S. O.; A History of the Arabs in the Sudan, Vol. I, p. 35.

(٣) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ٢٥٠ .

(٤) MacMichael; Op. Cit., p. 35.

الذين لم تمتزج دماؤهم كثيرا بالمهاجرين من آسيا عن طريق برزخ السويس . وقد اعتمد سليجمان فى إثبات رأيه هذا على مقارنة جماجم المصريين القدماء — ومنهم بعض الملوك — مع أشكال البجة الحاليين . ويؤكد الدكتور عوض على هذا الرأى القائل بأن الشعبين من أصل واحد ، وان كانت طبيعة البيئة قد سلكت بالمصريين طريقا وأسلوبا فى الحياة ، وسلكت بالبجة طريقا آخر ، فانفصلت أوطان الفريقين فترة من الزمن الى أن نشأت بينهما صلات بحكم الجوار (١) .

ولندع أقسامهم وأصولهم العرقية لنتحدث عن أوضاعهم تحت الادارة المصرية فعلى الرغم من أن الادارة المصرية بصفة عامة كانت سهلة لينة — لم تحاول أن تخضع البجة لحكم صارم دقيق يتنافى مع ما ألفوه من الحرية — فقد واجهت منهم فى بعض الأحيان عنتا ساعة كان رجال الادارة — فى بعض الأحايين — يطلبون منهم المساهمة فى تقديم الابل ، كما حدث بالنسبة للبشارية الذين باغتوا جنود خورشيد باشا — حكمدار السودان — عام ١٨٣٦ وقتلوا منهم الكثير (٢) .

وفى عام ١٨٤٢ على عهد أحمد باشا أبو ودان قام بشاريو العمراب بحركة عصيانية منتهزين انشغال الحكمدار فى حرب التاكة ضد الهدندوة ، وقام أحمد باشا بتكليف الشيخ سليمان نمر العبادى بالقضاء على حركة البشاريين حيث خرج سليمان من بربر على رأس قوة من جماعته العبابدة تقدر بنحو ألفى جندى استطاعوا بها هزيمتهم ، لكن البشاريين تمكنوا من قتل سليمان وجنوده (٣) . ولا تعنى هذه الأحداث — فى تقديرنا — أكثر من سوء فهم للادارة المصرية ونواياها الحسنة حيال هؤلاء ، وكان لابد لهذه الادارة أن تدرس أحوالهم لتأخذ بأيديهم ، وقد

---

(١) المرجع السابق . ص ٢٥٦ .

(٢) دفتر رقم ٧٨ معية تركى — ترجمة الأمر الكريم رقم ٣٥٠ بتاريخ

(٣) Hill; Egypt in the Sudan. pp. 72-73.

١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٥٢ هـ من الجناب العالى الى خورشيد باشا حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

جاء ذلك متأخرا بعض الشيء . ففى سبتمبر عــام ١٨٦٥ ورد تقــرير طويل من الســودان يشرح حــالة البجــة فى مديرية التــاكة من جميع النواحى . ففى مستهل التقرير اشارة الى اختلال المديرية حيث لا مدن ولا بنــادر ولا قرى يمكن أن يعين فيها ناظر قسم أو مأمور أو معاون . أما القبائل فعبارة عن بدو رحل فى حالة من التوحش ، ينتقلون فى كل موسم وفصــل الى مساقط الغيث لرعى مواشيهم ، فلا يقيمون فى مكان واحــد شهرا أو شهرين . كمــا أن المســافة بين حدود قبيلة وأخرى تتراوح بين ٣ ، ٧ الى ٨ أيام على الأقل . وإذا ظهرت أية مطالب أو حاجة للمديرية لدى هذه القبائل تنقضى مدة لا تقــل عن عشرة أيام فى البحث عن الوادى أو الجبل أو المحطة التى تقيم فيها القبيلة . وبعد معرفة محل إقامتهــا يخاطب شيخ مشــايخ أبدانهــا ، حتى أن مشــايخ الأبدان لا يواجهون الحكام ولا يعرفونهم ، وكذلك الحال بالنسبة لحكام المديرية الذين لا يعرفون مشايخ الأبدان (١) .

وربما لأول وهلة يسارع قارىء مثل هذا التقرير باتهــام الادارة المصرية بالتقصير تجاه سكان هذه المديرية ، ولكنه قد يجد لها بعض العذر إذا علم أن هذه المديرية قد ضمت فى عام ١٨٤٠ ، بالاضافة الى المشاكل المحيطة بها من حيث اتســاع مساحتها ومجاورتها للحبشــة واختــلاط السكان ببعضهما البعض الأمر الذى يثير كثيرا من المشاكل أمام هــذه الإدارة التى كانت تحــاول أن توطــد أركانها بعد سلسلة الأحــداث التى مرت بهــا عقب ضم الســودان . وهكذا كان هناك « مشــوار » اجتماعى طويل أمام هذه الادارة لتهذب من طباع هؤلاء البدو والبجاة منهم على وجــه الخصــوص .

وقد عاش البجــاوى حياة بسيطة من حيث المسكن الذى ســوف

---

(١) محافظ أبحاث السودان — تقرير طويل عن احــوال مديرية التاكة بتاريخ ١١ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ ، والمودع بالمحفظة رقم ١٧ بالدفتر رقم ١٧ بالدفتر رقم ٢ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

نتحدث عنه فى موضوع لاحق والمأكل الذى كان أيضا غاية فى البساطة ، فلم يكونوا يزرعون شيئا سوى الذرة العويجة فى مساقط الأمطار ويجمعون المحصول ويبللونه بقليل من الماء ثم يضعونه على حجر كبير يشبه الرخام ويدقونه بحجر آخر صغير ثم يرفعون الدقيق عن الحجر ويقومون بعجنه ووضعه على صاج أو « قصعة » ساخنة وينزلوه قبل أن ينضج • وجميع سكان مديرية التاكة — والبجاة منهم — يأكلون طعامهم بهذه الكيفية كما أن أكثرهم كان يتغذى على السمن والجبن واللحم واللبن ، والأخير يكثر عندهم لتوفر الأغنام والجمال (١) •

ولم يكن البجاة يميلون الى الاختلاط كثيرا ، الأمر الذى دعا البعض الى وصفهم بجفاف الطبع ، وشدة النفور من الناس ، بل والتوحش أحيانا • فميله للعزلة لم يكن فى الواقع وليد الخوف أو الاحساس بالغربة عن الناس بل يعود الى طبيعة البيئة الجبلية التى نشأ بها والتى لا تساعد على التجمع والاختلاط ، فهو ليس مبغضا للغرباء والأجانب • بل انه ألف العيش وحيدا فلا يجد لهم مكانا فى دائرة حياته (٢) •

ويبدو أن البجاوى لم يكن يبادر بالتعارف بل ينتظر ذلك من الآخرين • ولم تكن تجربة رجال الادارة المصرية — فى بادىء الأمر — مع بعضهم طيبة • ففى أحد التقارير نقرأ وصفا لأوضاعهم ولوما لحكام الادارة المصرية الذين تركوا العساكر يعيثون فسادا فى بلادهم ، وكأن الادارة بذلك هى المسئولة عن مثل هذه التجاوزات • فقد بسط كاتب هذا التقرير مثالا لذلك قائلا : انه إذا ما طلبت الحكومة من شيخ احدى القبائل بعض المطالب وأهمل فى تقديمها وتيقن من أن الحكومة ستلومه وتعاقبه على هذا الفعل ، يعمد ظلما الى التحرش برجال احدى البدنات الصغيرة فيعتدى عليهم مستغلا بعض الحزازات الشخصية ، ثم يدعى أن شيخ هذه البدنة هو المتسبب فى تأخير طلبات الحكومة وان

(١) محافظ أبحاث السودان : التقرير السابق •
(٢) محمد عوض محمد : المرجع السابق • ص ٢٧ — ٢٨ •

سائر القبائل قد حذت حذوه ، ويطلب من الحكومة عددا من العساكر لتأديب هذه البدنات (١) • وهكذا بدت الحكومة أمام الجميع انها المسئولة عن تلك المشاكل ، ظاهريا ، بينما الواقع غير ذلك تماما •

ويبدو أن النزاع الدائم كان من طبيعة تلك القبائل حتى أصبح من المستحيل أن يمر رجال القبائل المتنازعة بديار بعضهم البعض ، الأمر الذى أدى الى تعطل التجارة ومرور القوافل ، ناهيك عن وقوع الكثير من القتلى نتيجة هذه النزاعات القبلية (٢) •

وقد حاول رجال الادارة وقف هذه التعديات والقبض على مرتكبيها ومحاكمتهم — فى محاولة لبسط السلام الاجتماعى — ولكن يبدو أنه أمام كثرة مثل هذه الجرائم وطول الاجراءات التى تقتضيها أمور المحاكمة طلب المسئولون فى شرقى السودان الترخيص لهم بمجازاة الفعلة بالقصاص وذلك بإعدام القاتل فى حينه حتى يتم وقف هذه المذابح ، ولما كانت مثل هذه القوانين لا تطبق إلا على العسكريين تطلب الأمر دراستها بمصر • وبالفعل اقتنع المسئولون بهذا الطلب ووافقوا على تنفيذ القانون العسكرى (٣) •

ومن بين الأمور السيئة التى كانت منتشرة بين القبائل مسألة الاغارات المتبادلة ونهب الحيوانات — وخصوصا الجمال — ولم يكن رجال الادارة المصرية فى تلك الجهات ليقبلوا مثل هذه الأعمال ، فأرسلوا فى عام ١٨٧٦ الى مشايخ هذه القبائل ، الذين تعهدوا بوقف الاغارات

---

(١) محافظ ابحاث السودان — التقرير السابق •
(٢) محافظ أبحاث السودان — نفس التقرير •
(٣) دفتر رقم ٢٥ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ٢٧٨ بتاريخ ٢٠ جمادى الآخر سنة ١٢٩١ هـ • من مدير عموم شرقى السودان الى المعية السنية ، أنظر أيضا : دفتر رقم ١٩٤٨ — أوامر عربى — صورة الأمر الكريم الصادر الى مدير شرقى السودان • محافظ سواحل البحر الأحمر بتاريخ ١١ رجب سنة ١٢٩١ هـ نمرة ١٨ ص ٩٢ •

وتأديب الخارجين عن حدود القانون (١) .

وكان رجال الادارة بالسودان يحاولون بشتى الطرق ان يؤلفوا بين قلوبهم وأن يأتلفوا هم أنفسهم معهم ، فعمدوا الى تكريم مشايخهم والإنعام عليهم بالرتب كما حدث فى فبراير عام ١٨٦٨ حين تم منح كل من شيخ بنى عامر الرتبة الرابعة ، كما تم من قبل منح شيخ قبائل الهدندوة نفس الرتبة السابقة (٢) .

وبالاضافة الى ذلك كان رجال الادارة فى السودان يقومون بالمرور على البدو « ... ويخبرونهم ان كان فى نفسهم شىء بسبب سوء الادارة التى كانوا يعاملون بها ، فانه مرخص لكل كبير وصغير منهم ومسموح له بأن يعرض تظلمه دون خوف أو خشية معتمدا بذلك على بساط العدل والرحمة ... » (٣) ويبدو أن هؤلاء البدو فى زمن الخديوى اسماعيل قد بدأو يشعرون بالاطمئنان من قبل بعض العساكر التى كانت تنهب أموالهم ، فقد أصبحوا الآن « ... يتعجبون جدا لعدم اعتداء العساكر المصرية ، وتعرضهم لأموالهم وأعراضهم وشرفهم فى الطريق كما فى السابق ولدفع أثمان صنف اللحوم من الغنم والبقر مقدما وزيادة عن الثمن الذى يطلبوه عند ابتياعهما ، وكانوا يسرعون فى تبشير بعضهم ان الله تعالى قد أمدهم بعساكر منظمة جديدة مشفقة .. » (٤) .

وكان رجال الادارة المصرية كلما اقتربوا من منازل هؤلاء العربان

---

(١) دفتر رقم ٤٠ عابدين — وارد تليغرافات . ص ٩٨ . صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ٥٨٥ بتاريخ ١٩ جمادى الآخر سنة ١٢٩٣ هـ من وكيل عموم شرقى السودان وسواحل البحر الأحمر بسنهيت الى سعادة خيرى باشا . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٥٧٣ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤ بتاريخ ٧ ذى القعدة سنة ١٢٨٤ هـ . ص ١٩ من الجناب العالى الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محفظة رقم ٣٦ معية تركى — صورة ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٤٥ بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١٢٨٢ هـ . من جعفر باشا الى مهر دار خديوى . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) نفس الوثيقة السابقة .

عمد الأخيرون ـ خلافا للمعتاد ـ الى سوق أغنامهم ومواشيهم الى الطرق التى يمر منها العساكر قائلين « .. ان أموالنا فداء للعساكر العادلين المؤدبين .. » وزيادة على ذلك فان نساءهم كن يزغردن لحظة مرور العساكر (١) .

وكانت الحكومة لا تأل جهدا فى دفع ومقاومة الأمراض التى تواجه عربان البجة ، كما حدث فى مايو عام ١٨٦٦ حين تفشت بين عربان قبيلة بنى عامر « بخور بركة » نوع من الحمى المسهلة التى تشبه مرض الكوليرا ، فعمدت الادارة الى اتخاذ كافة الاجراءات الصحية المناسبة حتى تم إزالتها تماما فى أيام معدودات (٢) .

وفى يونية عام ١٨٧٠ إشتكى ناظر قسم بنى عامر من كثرة الوحوش التى تهاجم مواشى العربان ليلا ونهارا الأمر الذى يسبب لهم ضررا بالغا . وقد خصصت الادارة مكافآت مالية سخية لكل من يقتل أحد هذه الحيوانات وكانت هذه المكافأة تزداد حسب خطورة الحيوان (٣) .

ومن العلامات المشرقة التى تذكر للادارة المصرية بالسودان تجاه عربان البجة تلك المحاولات التى جرت لتوطين وإستقرار هذه القبائل البدوية عن طريق العمل بالزراعة ، وهذا الاجراء يعد تطورا خطيراً فى حياة أولئك البدو الذين لم يعتادوا على البقاء طويلا فى بقعة واحدة ، بل جبلوا على حياة التشتت فى شعاب الجبال وراء قطعانهم حيث يوجد الكلأ . ولقد كان أكثر المنتفعين بمشروعات الرى فى طوكر وكسلا من البجة . ومع التسليم بأن مستواهم فى الانتاج الزراعى لم يكن

---

(١) نفس الوثيقة السابقة .

(٢) محافظ أبحاث السودان ـ محفظة رقم ١٨ ـ دفتر رقم ٤ من جعفر باشا مظهر حكمدار السودان بتاريخ ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ١٨٣٥ ـ معية سنية ـ صورة المكاتبة الواردة من محافظ سواحل البحر الأحمر الى المعية السنية بتاريخ ٢٢ ربيع الأول سنة ١٢٨٧ نمرة ٢ . ص ٣٥ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

عاليا إلا إنه مع ذلك لم يكن منحطا • ففى شرقى السودان سارع عربان الكميلاب وارتيقا الى زراعة الذرة بجهة طوكر (١) • وقد شجعت عملية الزراعة هذه على جلب الكثير من البدو الفارين — أمثال عربان أرتيقا — الى المجىء الى جهة طوكر والإستقرار بها وإحداث لون من العمران (٢) •

وتشجيعا لعربان الكميلاب — وهم فرع صغير من البجة — على الزراعة والإستقرار قام رجال الادارة بمحافظة سواكن بصرف التقاوى لملاحظ طوكر لتوزيعها على هؤلاء العربان على أن يسددوا أثمانها عقب جمع المحصول (٣) •

كذلك قام المسئولون فى تلك الجهات بتقديم نصائحهم ومشوراتهم لهؤلاء العربان فيما يتعلق بأمور الزراعة • فقد لوحظ أن أكثر العربان يعيشون فى مسغبة من العيش وأنهم يعجزون عن سداد الضرائب المطلوبة منهم فأشارت عليهم بزراعة القطن والاكثار منه حتى يزداد دخلهم ويمكن انقاذهم من الفقر • وبالفعل أرسلت اليهم أنواع جديدة من القطن ذات رتب عالية من أمثال القطن الهندى والسيلانى (٤) •

ولقد كانت منطقة دلتا نهر الجاش منطقة مستنقعات وأعشاب وشجر تؤمها السباع ، فطهرت أراضيها وزرعت بمختلف المزروعات فيما بين عامى ١٨٤٠ ، ١٨٧٠ ، وأصبح محصول القطن من أهم

---

(١) دفاتر محافظة سواكن — دفتر صادر ٤ / ٥ / ٢٧ سواكن . بتاريخ ٩ ج سنة ١٢٨٦ هـ — مديرية التاكا عموم — مكاتبة رقم ٣ ص ٣ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) الدفتر السابق — مكاتبة رقم ١١ بتاريخ ٩ جمادى ثان سنة ١٢٨٦ هـ ص ٥٩ •

(٣) الدفتر السابق — مكاتبة رقم ٨٦ بتاريخ ١٩ جمادى ثان سنة ١٢٨٦ هـ .

(٤) الدفتر السابق . ماكتبة رقم ١٣٤ بتاريخ ١٧ ج سنة ١٢٨٦ هـ . ص ١١ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

مزروعاتهـا (١) •

هكذا تأثرت حياة القبائل البجاوية بالمشاريع الزراعية والعمرانيـة التى تمت فى طوكر ودلتا القاش ، وفى نمو مدينة كسـلا والقضارف • وقد صحب هذا التطور تشـابك المصالح واحتشاد العناصر المختلفة • واستجاب البجة الى هذه التطورات وبدأوا يتخـذون قرى على ضفاف القنوات ، ويحتلون أحيـاء من بعض المدن وأخـذ كثير منهم يعمـل بالزراعة كما أسلفنا بالاضافة الى مختلف الحرف • ولم يترتب على هذا التطور تفكك فى النظـام القبلى أو العصبية القبلية عنـدهم • فالقاضى الذى يفصـل فى خصوماتهم سيان ان عقـد مجلسـه فى داره بالقرية الجديدة ، أو فى خيمته وسط مسالك عتباى الوعرة (٢) •

ومن الأمور الملفتة للنظر حقا فى حياة البجة — على اختلاف قبائلهم وأوطانهم — انقطاع الصلة تماما بالبحر ، فليست لهم سفن أو قوارب ولا يعرفون حـرفة الصيد البحـرى ، وأهملوا بذلك مـوردا هاما فى غذائهم • وعلى الرغم من أنهم يرعون ابلهم على ساحل طوله أربعمائة ميـل ، بل قد تشرب ابلهم قليلا من ماء البحـر أحيانا ، فانهم لم يلقوا بالا الى هذا البحر • وعلى الرغم من طواف جماعات عربية بالسواحل — واشتغال بعضها بصيد اللؤلؤ فى « دنجو ناب » وغيرها من الجهات — فان البجة لم يتعلموا شيئا من ذلك لدرجة ان الموانىء التى نشأت على البحر لم يكن البجـة قد شاركوا فى انشائها (٣) •

النوبيـــون :

سكن النوبيون الأراضى الملاصقة لنهر النيل من شـمالى أسـوان حاليا الى بلدتى الدبة وكورتى • ويعتبرهم الجغرافيون من الشـعوب

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى • ص ٣٧ •
(٢) نفس المرجع • ص ٢٩ •
(٣) نفس المرجع • ص ٤١ •

النهرية التى تلتزم وادى النيل التزاما شـديدا وذلك بسبب اشتغالهم بالزراعة من جهة ، ولأن الصحراء المتاخمة للنهـر شرقا وغربا قد أرغمت هؤلاء النوبيين منذ زمن طويل أن يظلوا ملتزمين للنهر وللمساحات القليلة الصالحة للزراعة والتى تحف بنهر النيل (١) .

ويتميز هذا الاقليم الضيق بقـدرة كبيرة على امتصاص العنـاصر الغربية التى تدخله من حين لآخر ، وعلى تمثيلها تمثيلا كاملا حتى تندمج فى سائر السـكان .

وقد شهد النوبيون على مدى آلاف السنين ألوانا من السـلالات والجماعات سواء أكانت غازية أو مهاجـرة ما لبثت أن استولت عليهـا البلاد وأدمجتهـا فيها ، وهـذه الخاصية معروفة فى مصر ولكنها أكثر وضوحا فى بلاد النـوبة .

وإذا حاولنا أن نتتبع أصـول النوبيين منذ القدم ، فان ذلك قـد يحتاج منا الى صفحات كثيرة (*) ، ولكن يكفى أن نقول ان النوبيين شعب قديم ، سكن أوطانه الحالية منذ آلاف السنين ، وقد جـاء العرب الى بلادهم واختلطوا بهم وأصهروا اليهـم وبذلك أضيف النسب العـربى الجديد الى النسب النوبى القديم إلا أن هذه الهجرات العربية لم تكن من القوة بحيث تهضم الثقافة النوبية ، ومن ثم بقيت اللغة النوبيـة

---

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ٢٨٤ .

(*) من أهم الدراسات التي تناولت أصل النوبة ما يلى :

— The Archealogical Survey of Nubia.

— Seligman; Nubian Origins S.N.R. Vol. XIII. pp. 137-48.
— Kirwan; A Survey of Nubian origins. S.N.R. Vol. XX. p. 47.
— G. W. Murray; English - Nubian Dictionary (1423).
— Junker and Shafer; Nubisch Texete.

بالاضـافة الى الكتب المتعلقة بالسـودان واهمهـا : كتابات ماكمايكل وترمنجهام وكتب الرحالة أمثال بوركهارت ، والمراجع العربيـة مثل كتابات المقريزى والمسعودى وابن خلدون وغيرها .

بلهجاتها المتنـوعة حتى يومنا هذا جنبا الى جنب مع اللغة العربية ، بينما آخـذ النوبيـون الاسـلام (١) •

وقد لا يكون من قبيل الترف التاريخى إذا أشرنا الى الخلط ــ الذى نشأ بسبب البحـوث اللغوية المتعلقة بالدراسات النوبية ــ بين الشعب النوبى وبين سكان الجبال أو الجماعات التى أطلق عليها اسم « النوبا » فى الجبال الواقعة جنوبى كردفان (٢) • فشعب النوبة كما ذكرنا قـديم أما « النـوبا » أو « النوباويون » ، كإسم لسكان جبال كردفان الجنوبية فلا يعـرفه السكان أنفسهم ! ، وهم يدعـون أنفسهم أحيانا سـكان الجبال أو إن كل شعبة منهم تسمى بإسمها •

ويخلص الدكتور محمد عوض الى أن أصول النوبيين فى السـلالات القوقازية عريقة وقديمة ، وان الصفات الزنجية التى نراها أحيانا بينهم هى العنصر الطارىء الدخيل (٣) •

وقد اختلف العلماء فى أصل تسمية النوبة كمـا اختلفوا فى تاريخهم ونشأة لغتهم • فقد عرفهم المصريون القدماء بإسم « نوب » أو « نوبو » بمعنى الذهب أى انها بلاد الذهب ، حيث أن أوطـان النوبيين مجاورة لمناجم الذهب (٤) • كما أطلقوا على بلاد السودان اسم « تا ــ نحسو »

---

(١) محمد محمـود الصـياد : الناس فى أفريقيـة • ص ٧٤ ــ ٧٥ ويذهب على مبارك الى أن النوبة بطن من لواته ، وهى قبيـلة من البربر سكنت تلك الجهات (الخطط التوفيقية الجديدة • جزء ١٧ • ص ٣٨ ــ ٣٩) ولسنا ممن يميلون الى هذا الراى الذى لا يستند الا على مجرد تشـابه بين كلمتى « البربر » و « البرابرة » رغم أن التسمية الأخـيرة غير دقيقة ويطلقها العامة من غير النوبيين • فالبربر والنوبيون كلاهما بعيد جـدا فى الموطن ، بالاضـافة الى الاختلافات الواضحة بينهمـا من حيث الملامح الشـكلية ، والجوانب الثقافية •

(٢) السـعيد ابراهيم البـدوى : النـوباويون • دراسـة تاريخيـة انثروبولوجية بمجـلة الجمعية الجغرافية • العـدد ٦ لعام ١٩٧٣ • ص ١١٥ وما بعـدها •

(٣) محمد عوض محمد : المرجع السابق • ص ٣٠١ •

(٤) نفس المرجع • ص ٣٠١ •

Ta - Nehesu ، تاء = أرض ، نحسو = السـودان • وعلى هـذا فربما تكون هناك صلة لغوية بين نحسو وكلمة (النحاس) العربية إذ أن سكان النوبة يميل لونهم من اللون النحاسى (١) •

ويتحدث النوبيون لغة تختلف قليلا من اقليم الى اقليم • فلأهـل المحس وسكوت لهجة ، ولأهل دنقـلة فى جنوبهم والكنوز فى شـمالهم لهجة أخرى • وقـد فسر ذلك بأن الجهـات الوعرة فى اقليم الجنـادل الوسطى حالت دون الاختلاط بأهل الشمال والجنوب فتشابهت لغـة سكان الجنادل • غـير أن هذا التفسير لا يسـاعد على أيضـاح تشابه لهجات الدناقلة والكنوز مع بعد المسـافة بينهما • ويفسر الدكتور عوض هـذه المسألة بافتراضه أن الاتصـال بين اقليم الكنوز والدناقلة كان كثـيرا بحكم العلاقات التجارية بين الجنـوب والشـمال ، وكان لابد لسرعة الاتصال من تجنب الاقليم النهرى الكثير الجنادل والذى لا يلعب دورا هاما فى التجارة ، من المعروف أن الدناقلة والكنوز بحكم موقعهم يقومون بدور كبير فى تلك التجارة وبالتالى كان لابد أن يحـدث هذا الاتصـال والتشـابه اللغـوى (٢) •

وينقسم النوبيون عموما الى خمس مجموعات رئيسية : الكنوز فى الجزء الممتد من أسـوان الى كرسكو ، والفديجة ما بين وادى حلفـا وكرسكو ومعروف أن هاتين المجموعتين تشكلان النوبة المصرية فى الوقت الحاضر وقد تم تهجيرهم الى منطقة كوم أمبو بأسـوان خـلال بنـاء السـد العالى •

وأما المجموعات الثلاث الباقية فهى التى تشكل النوبة السـودانية فى الوقت الحاضر وهى على النحو التالى : الدناقلة فى الجنـوب ما بين

---

(١) Budge; The Egyptian Sudan, Its History and Monuments Vol. I. p. 505.

وانظر ايضا شوقى الجمل : معالم سودان وادى النيـل جـ ١ • ص ٧ •

(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى • ص ٣٠٤ •

الدبة وأبى فاطمة ثم المحس والسكوت فى اقليم الشلالات والجنادل (*) •

وقد يكون من المفيد ونحن نتتبع تطـور المجتمع النوبى السودانى فى ظل الادارة المصرية حتى عـام ١٨٨١ أن نميز بين فئتين من السكان : الأولى وتشمل فئة الزراع المستقرين • ففى اقليم دنقلة يعتـدل جريان النهر وتخلو الجنادل وتتيسر الملاحـة ويتسع السهل الفيضى فى مواضع عدة ، الأمر الذى يتيح للسـكان نشاطا زراعيا يقوم على الرى الحوضى والسواقى • وفى المحس لا يتسع النهر للزراعة إلا بمقدار ضئيل ولكن رغم ذلك توجـد جهات يتسع فيها الوادى وتتم عمليات الزراعة (**) •

أما الفئة الثانية فهى فئة التجار • فالدناقلة ـــ على وجه الخصوص ـــ اشتهروا بعملياتهم التجارية فى كافة أرجـاء السودان ، فى وسطه وغربه وجنـوبه ، وظهر من بينهم تجار ذوو ثروات ضخمة وكونوا تجمعات كبيرة فى البلاد التى سكنوها لدرجة أن بعض الأحياء ـــ فى كردفان مثلا ـــ عرفت باسمهم (***) •

ولقد تجمع الدناقلة فى عهـد خورشيد باشـا « بحلة المراكبية » بالخرطوم حيث مارسوا مهنة التجـارة ، وشاركوا فى رحلات الجنوب التجـارية كحراس وخصـوصا بين عامى ١٨٤٢ ، ١٨٥٢ حـين احتكر حكمدارو السـودان التجارة فى الجنوب • ومنذ عام ١٨٦٠ عظم عددهم فى الخرطوم وجنوبها حيث رافقوا تاجر الرقيق محمد خـير الدنقلاوى الذى كان يهاجـم الشلك • وقـد قدر عددهم فى تلك السـنة بثمانيـة عشر ألفـا (١) • وعقب اعـلان الحكومة الحرب على تجارة الرقيق فى عهد اسماعيل لم يتناقص عددهم فى الخرطوم بل تولوا حملات الحكومة

(*) انظر الخـريطة •

(**) انظر فصل تطور الأوضاع الزراعية فيما سبق •

(***) انظر القسم الأول من فصل التجارة والمواصلات •

(١) احمد احمد سيد احمد : تاريخ مدينة الخرطوم • ص ١٦٠ — ١٦٢ •

فى القضـــاء على تجارة الرقيق فى بحر الغزال تحت قيادة البــلالى عام ١٨٦٩ ، كمـــا مارسوا نفس المهمة مع صمويل بيكر فى خط الاســتواء فى نفس العام ، وأيضا مع غوردون بين عامى ١٨٧٤ ــ ١٨٧٦ (١) .

ولقد كانت الهجرة من أهم سمات الجمــاعات النوبية فقــد ضاق اقليم المحس والسكوت بسكانه ، نظرا لقلة موارده فهاجروا الى أماكن جديدة داخــل الســودان مثل جزيرة « توتى » واقليم « عيلفون » . وهنا فى هذا الموطن الجــديد نود أن نشــير الى أن المحس قد استعربوا وأصبحوا لا يختلفون عن جيرانهم من العرب وأصبحت لغتهم الوحيدة هى اللغــة العربية كــذلك تجدر الاشــارة الى أن أغلب الهجرات التى اتجهت الى جبل « ميدوب » وشمال كردفان ودارفور ومصر كانت من المحس (٢) .

ولا تزال الهجرة حتى الآن سمة مميزة للرجــل النوبى ســواء فى السودان أو مصر ، وقلما تجد الرجــال مقيمين فى تلك الأوطان بل إن النســاء هن اللاتى يقمن بالنصيب الأكبر فى العمل الزراعى ، على عكس المرأة عند القبائل العربية السودانية .

٣ ــ القبـــائل العربيـــة :

لعل من المفيد أن نشير بادىء ذى بدىء الى أن النظــام القبــلى فى المجتمع السودانى يمثل ركنا أساسيا فى بنائه . وسوف نلاحظ أن القبائل العربية التى وفدت الى السودان جاءت بكثير من نظمها المختلفة ، والاجتماعية منها بوجه خاص .وبالرغم من التطورات الجــديدة التى حدثت فى الموطن الجديد إلا أن مسألة الانتماء الى قبيلة ظل يمثل شيئا من الوجاهة الاجتماعية وله احترامه الشــديد سواء فى المدينــة أو فى

---

(١) احمد أحمد سيد : المرجع السابق . ص ١٦٢ ــ ١٦٣ .

(٢) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ٣٠٤ .

الحلة (القــرية) • ويصعب تماما ، وخصوصا فى القرن التاسع عشر ، اجراء تقسيمات حادة لمجتمع القبيلة فى الســودان بمعنى أن نقــول ان هناك فروقا واضحة بين مجتمع المدينة ومجتمع القرية • فالرجل ســواء فى المدينة أو فى الحلة لابد وأن يكون منضويا تحت اسم قبيلة وهــذه مسألة يحرص عليها الفرد السودانى تماما فلم يكن لمعيــار الثروة كبير وزن بينهم بقدر ما كان ضروريا أن ينتمى الى قبيلة عربية •

ويشير البعض الى جملة أمور حول تاريخ العروبة فى السودان ، منها هجرة عرب اليمن الى الحبشة قبل القرن العاشر الميلادى وتأثــر أطراف الســودان الشرقية بذلك ثم تلتها هجرات أخرى من الحجــاز منذ ظهور الاسلام ، ومعروف أن نشــأة السلطنة السنارية قد أرجعهــا البعض الى جماعة من القبائل العربية من بنى أمية (١) • ويشير مســتر « ريــد » الى وصول العرب الى شرقى السودان منــذ زمن طويل حين اخترقت مجموعات منهم البحر الأحمر الى السودان الشرقى واتخذوا لهم زوجات من السكان الحاميين ويقصد بهم البجة ، وعن طريق ذلك أمكنهم أن يرثوا مناصب خطيرة (٢) •

وبالرغم من تعدد المسالك التى سلكها العرب نحو الســودان سواء من الشرق عبر البحر الأحمر أو من الشمال خصــوصا عبر مصر ، فان ماكمايكل يرى أن طريق مصر كان أهم منفذ للعرب الى السودان ويفضله عن المنفــذ الشرقى ، ويعلل الأسباب التى دعت العرب الى الهجرة من مصر الى السودان بأعداد غفيرة الى أن الحكم فى مصر قد انتقــل من أيدى ولاة عرب الى اسرات تركية غير عربية منذ الحــكم الطولونى مما

---

(١) يوسف فضل : مقــدمة فى تاريخ الممالك الاسلامية فى الســودان الشرقى ص ٤٥ ، وانظر ايضــا : الشــاطر بصــيلى : تاريخ وحضــارات الســودان الشرقى والأوسط • ص ٢٠٦ — ٢٠٧ •

(٢) انظر مقالته فى S.N.R ، الجزء الثانى — مجلد ١٣ • ســنة ١٩٣٠ • ص ١٥٠ •

جعل العرب يشعرون بضيق أدى الى هجرتهم للجنوب كما يشير أيضا الى أن العرب الذين أتوا الى مصر كانوا من بيئة شبه الجزيرة العربية الرعوية فوجدوا فى البيئة الجديدة (مصر) أنهم قد حرموا مما ألفوه فى بيئتهم الأصلية من ارتحال وتنقل فتركوا مصر ميممين شطر بيئة تشابه شبه الجزيرة العربية (١) ٠

بعد ذلك كله يجدر بنا أن نعرض لتوزيع القبائل العربية فى السودان ، وهنا نذكر بأن العرب فى بلادهم الأصلية كانوا ينقسمون الى قسمين كبيرين : القسم الأول يعرف بالجنوبيين من سكان اليمن وما يليها ، والقسم الثانى ويعرف بالشماليين من سكان الحجاز ونجد ٠ وقد عرفا أحيانا بإسم العرب العاربة والعرب المستعربة أو القحطانيين والعدنانيين ٠

وإذا كنا نلحظ أن العرب فى أى بقعة هاجروا اليها ينقسمون الى مجموعات ينتمى بعضها الى العدنانيين والبعض الآخر الى القحطانيين ، فإن شبيها بهذا قد حدث فى السودان ٠ فقد مثل الجعليون أو العباسيون الشعبة العدنانية ، كما مثلت القبائل الجهنية الشعبة القحطانية ٠

(أ) الجعليون * :

تمتد أوطان هذه المجموعة الكبيرة من القبائل العربية من دنقلة فى الشمال الى بلاد الدنكا فى الجنوب ٠ وللجعليين أوطان أخرى بعيدة عن

---

(١) Mac Michael; op. cit., vol. I.

انظر شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل الجزء الأول ٠ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ٠

(*) علينا أن نفرق بين قبيلة الجعليين وبين مجموعة الجعليين أو العباسيين ، فقبيلة الجعليين تعيش على ضفاف النيل بين مصب عطبرة شمالا وخانق سبلوقة جنوبا ٠ (محمد عوض : السودان ووادى النيل ، دراسات فى تكوين وادى النيل ومكان السودان وسكانه من حوض هذا النهر ص ٤٤) ٠

النهر فى سهل البطانة وكردفان وهى فروع للأوطان النهرية التى تشغل من نهر النيل مسافة تبلغ زهاء الألف كيلو متر .

ويلاحظ الدكتور محمد عوض على توزيع الجعليين عدة أمور أهمها :

١ ــ انتشار بعض قبائل هــذه المجموعة من أوطانهــا النهرية الى أوطان أخرى فى كردفان مثــل الجوامعة والبديرية والبطاحين فى ســهل البطانة ، وبعضها استوطن فى جزء من جبــال النوبا حيث أسس مملكة تقــلى .

٢ ــ لم يكن هذا الانتشــار الذى اتخذته المجمــوعة الجعلية على ضفاف النيل من دنقلة شمالا الى خط عرض ١٥° مضطرداً بل حدث فيــه انقطاع فى احدى أجــزائه من وادى النيل الأبيض احتلته بعض قبــائل الكواهلة .

٣ ــ باستثناء ما سبق ، فان المجموعة الجعلية قــد احتلت الوادى كله لا ينازعها فيه منازع اللهــم إلا فى أطرافه الشــمالية حيث يقاسمها الدناقلة ، وفى الجنوب حيث جماعات البقــارة ، وفيما عدا ذلك ســاد الجعليون المساحات المتاخمة لنهر النيل (١) .

وينتسب الجعليون الى ابراهيم الملقب بجعل ، وهو طبقا للروايات إبن سعد بن فضــل بن عبد الله بن عباس عم النبى (صلى الله عليــه وسلم) وعلى هذا فالجعليون ينتسبون الى الأصل الهاشمى ولذلك فانهم يســمون أحيانا بالمجمــوعة العباسية . ويرفض الدكتور محمد عوض الــزراية بهــذا النســب أو التشــكيك فى حقيقته ، كمــا فعــل ماكمايكل ، نظرا لأن أدلة الأخير غير قوية . فقــد سبق أن شكك البعض فى انتســاب البشاريين وغيرهم الى بنى كاهل ثم أظهرت الأدلة صدق هذا الانتســاب (٢) .

---

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ٣٢٠ .
(٢) السودان الشمالى . ص ١٦٤ .

ويقول ماكمايكل حول هذا الانتساب انه اختراع خالص ، وان لم يكن كذلك ، فأقصى ما يدل عليــه هو تجمع خليط من القبــائل المتباينة الصفات تحت قيادة رجل يدعى الانتساب الى بنى العباس (١) .

وتشمل المجموعة الجعلية على عدد كبير من القبائل ، إلا أن بعضها صغير جدا ومن أشهرها :

أولا : القبائل النهــرية :

الجعليون : وهم الذين أخذوا اسم المجموعة ، وهم دون شك أكبر جــزء من هذه المجموعة ، ويمتد موطنهم من خانق سبلوقة الى العطبرة . وتعد شندى عاصمة الجعليين ، وان كانت المتمة على الضفة اليسرى للنهر تمثل مركزا ثانيا لهم أيضا ، والميرفاب ويسكنون فى الشمال من عطبرة حــول بربر ، والرباطاب ويقطنــون فى المنطقــة من بربر الى (أبو حمــد) . والمناصير من أبو حمد الى آخر الشلال الرابع . والشايقية من الشلال الرابع الى اقليم الدبة . والجوابرة فى داخــل بلاد النوبة بين الدناقلة والمحس والركابية وموطنهم وسط بلاد المحس ، والجموعية وأتباعهــم شمال وجنوب أم درمان حاليا الى حدود الكواهلة ، والجمع فى غرب النيل الأبيض جنوب بلاد الكواهلة .

ثانيا : القبائل المقسمة بين النهر وكردفان :

وتضم هذه القبائل البديرية الذين يقطن جزء منهم بلاد النــوبة والجزء الآخــر كردفان .

ثالثا : القبائل التى ابتعدت عن النهر :

وتضــم الجوامعة فى أواســط كردفان وشــمال وشرق الأبيض ؛

---

(1) History of the Arabs in the Sudan Vol. I. p. 197.
أنظر ايضا : محمد عوض : المرجع السابق . ص ١٦٥ .

والغـديات جنـوبى الأبيض ثم البطـاحين فى النصـف الشـمالى من البطانة (١) .

وقد لا يكون المجال متسعا لتتبع كل قبيلة من هـذه القبائل على حده ، وإنما قد يكون فى الحديث عن أشهرها ما يغنينا عن ذلك خصوصا وأن هناك عوامل مشتركة تجمع بين قبائل هذه المجموعة الكبيرة . وتعـد الشايقية * واحدة من أهم قبائل هذه المجموعة ، وقد وصفهم بوركهارت فى أوائل القرن التاسع عشر بأنهم كانوا يتمتعون بالاستقلال التـام ، ولهم ثروة ضخمة من الماشية والحبوب وانهم اشتهروا بالكرم ويمجدون رجال العـلم (٢) .

ومنذ عام ١٨٢١ ارتبط الشايقية برجال الادارة المصرية فى السودان ، ففى خلال مسـيرة الحملة التى قادها اسماعيل كامل عـام ١٨٢٠ لـم يستسلم الشايقية له إلا بعد قتال مرير فى معركة كورتى حيث انه لم تجد محاولات اسماعيل لاثنائهم عن القتال ، وأسفرت المعركة عن هزيمتهم . ومع ذلك ينبغى أن نشير الى أنهم كانوا محاربين أشداء لم يلقوا السلاح إلا بعد قتال شـديد (٣) . وقد أكرم اسماعيل باشا ابنة أحـد ملوكهم ويدعى (صبير) بعد أن وقعت فى الأسر مما جعله يقبل الانضواء تحت الادارة المصرية ، وأصبح كثير من الشايقية منذ ذلك التاريخ جـزءا من الجيش المصرى غير النظامى ، كى يمارسوا مهنتهم الحربية التى أولعوا بها فاشتركوا فى غزو الفنج وفتح الجزيرة (٤) . وقد منحتهم الادارة

---

(١) محمد عوض : المرجع السابق ص ١٦٨ .

(*) الشايقية هم ابناء شايق بن حميدان بن صبح أبو مريخة وهـو الذى تزعـم رواياتهم انه هاجـر بالقبيلة من بلاد العـرب الى السـودان (عبد المجيد عابدين : قبائل من السودان الأوسط والغربى . ص ١١) .

(٢) أنظر : رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان . ص ١٧٢ .

(٣) حمدنا الله مصطفى : المرجع السابق . ص ٤٧ .

(٤) دفتر رقم ١٨٩٥ صادر الأوامر — صـورة الأمـر الكريم رقم ٨٣ ص ١٨ . أمر كريم الى نظارة الجهادية فى ٢٠ محرم سنة ١٢٨٧ هـ .

المصرية مساحات من الأراضى قرب مصب النيل الأزرق وحـول خانق سبلوقة ، وأصبح لهم وطن جـديد فى حلفاية الملوك والجهات التى تليها فى الشمال • وظل الشـايقية طوال عصر محمد على واسماعيل مخلصين تماما للادارة المصرية فى السودان وكانوا عنصرا هاما اعتمدت عليـه هذه الادارة فى المحافظة على الأمن وجمـع الضرائب ، وان كانت المسـألة الأخيرة قد أضفت عليهم سمعة غير طيبة • وظلوا على هذا الولاء حتى فى عنفوان الثورة المهدية الى أن سقطت الخرطوم فى يناير عام ١٨٨٥ فى أيدى رجال المهدى • ولذلك فإن أمر العفو الذى صدر عن جميع القبائل لم يكن يشمل الشايقية (١) •

وأما الفرع الآخر من المجموعة العباسـية والذى يعد أيضـا من الفروع الهامة لهذه المجموعة فهـو فرع الجعليين بشـندى والمتمـة • وقصة هذه المجموعة أو بالأخـرى زعيمهم الملك نمر مع الحـكم المصرى معروفة تماما لدارسى التاريخ السودانى الحديث • فهو الذى أجمـع المؤرخون على أنه المدبر لمقتل اسماعيل كامل الأمر الذى جعل الدفتردار يحطـم شندى ويفر أهلوها الى أجزاء السـودان وتخوم الحبشـة • وقد استقرت جماعة منهم حول منطقة مقرن النيلين حيث عمـل معظمهم تجـارا ، أو بالأحـرى باعة متجـولين ، يشـترون بضاعتهم بالأجـل ويتجولون بها الى أماكن بعيدة تاركين أهليهـم بالخرطوم ومتجهين الى قرى النيل الأزرق وكردفان ، وكانت تجارتهم تتركز فى الأقمشة القطنية والتوابل والعطور والخضاب وغيرها • وكان من المعتاد أن يغيب التاجر منهم عن موطنه عاما كاملا ، كمـا كان يقنع بالربح القليل • واشتهروا بالصبر والشرف والأمانة ونادرا ما كانـوا يغتنون • وكان لهـذا الخلق التجارى أثره الطيب فى العلاقة بينهم وبين بقية سكان الخرطوم (٢) •

---

(١) نكولز : الشايقية • ص ٦٠ وانظر ايضـا : محمد عوض محمد : المرجع السـابق ص ٢١٨ •

(٢) احمد احمد سيد : المرجع السابق • ص ١٦٤ •

ثانيا : الجهنيـــــون :

وهم المجموعة الثانية الكبيرة من القبائل العربية فى السودان والتى يذكر البعض انها تنتمى الى « جهينه » أى الى القحطانيين باليمن * •

وترجع القبائل الجهنية فى السودان نسبها الى عبد اللـــه الجهنى الصحابى ، وهو وان لم يكن من جهينة مباشرة فانه من قضـــاعة التى تنتسب اليها جهينة • ويبدو انه قد حدثت بعض الفروق بين العدنانيين ، والقحطانيين فى شبه الجزيرة العربيـــة ، وفيما بينهم فى الســـودان ، ففى المنطقـــة الأولى كان النـــاس يفخرون بأنســـابهم اليمنية دون أن يحاولوا خلطها بأنساب أخرى • أما فى السودان فانه قد حدث تصاهر بين العباسيين والجهنيين ونشأت بينهم صـــلات وروابط • وثمة فـــرق آخـــر ، وهـــو ان مجموعة القبـــائل اليمنية تنتمى الى قبيـــلة معروفة ومشهورة • أما الجعلية فيســـمون بإسم شخص يدعى ابراهيم جعـــل أو يتصلون بنسب العباس أى الى شخص أيضا • وتفسير ذلك عنـــد ماكمايكل ان الجهنيين ظلوا على بداوتهم وهم فى السودان ولم يحـــدث بينهم وبين باقى الســـكان إمتزاج شـــديد فاحتفظوا بوحدتهم تبعتهـــم للقبيـــلة • أما الجعليون فعلى العكس منهـــم اختلطوا اختلاطا شـــديدا بالسكان السابقين • ومعنى هـــذا أن الجعليين كانت لهم قبيلة عربيـــة واحدة ينتمون اليها وضاعت معالمها بعد كل هذا الاختلاط [1] •

ويعلق الدكتور محمد عوض على هذا الرأى قائلا : « لعل الأوفق أن الجعليين لم يكونوا أول الأمر قبيلة واحدة بل جماعات عـــديدة من قبائل متقاربة الأنساب ، هاجرت على دفعات وفى أزمان متفرقة واستقرت

(*) انقسمت قحطان الى شعبتين كبيرتين هما : كهلان وحمير وتفرعت عن كهلان عدة قبائل مشهورة مثل جزام ولخـــم وكندة والأوس والخـــزرج وغـــيرها . ومن حمير تفرعت قبائل مشهورة أيضا مثل قضاعة وبلى ومنهـــا جهينة الى نحن بصددها (محمد عوض . المرجع السابق ص ٢٠٨) .

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق • ص ٢١٠ نقلا عن ماكمايكل .

فى الأوطان التى تعيش فيها الى أن نشأت بينهم أسرة قوية تولت الزعامة ووحدت القبيلة فكان لهذه الأسرة الفضل فى توحيد المجموعة وإدماج السكان الأصليين فى المجموعة العربية (١) .

والمجموعة الجهنية فى السودان لا تتركز فى منطقة واحدة مثل العباسيين الذين تركزوا فى الاقليم النهرى من السودان ، بل انتشرت فى الشرق والغرب ، وقلما تدعى قبائل جهنية فى السودان بهذا الإسم بل تدعى كل قبيلة فيها باسمها الخاص . وربما يعود ذلك الى أن هجراتهم كانت متفرقة زمانا ومكانا . ويتوزع الجهنيون فى السودان بين ثلاث مجموعات رئيسية : المجموعة الأولى هى مجموعة رفاعة ومعها القواسمة والعبد لاب والعركيين وغيرهم ، وهناك اللحويون والحلويون والعوامرة والخوالدة وغيرهم . ثم أخيرا الشكرية . وتسكن هذه المجموعة النصف الشرقى فى أقاليم النيل الأزرق والبطانة .

والمجموعة الثانية هى مجموعة فزارة * ، وتضم دار حامد وبنى جرار والزيادية والبزغة والشنابلة والمعاليا . وتعيش هذه المجموعة فى الجهات الشرقية والوسطى من كردفان . أما المجموعة الثالثة فتضم الدويحية والمسلمية والبقارة والمحاميد والماهرية والكبابيش والمغاربة . وتنتشر هذه المجموعة فى كردفان ودارفور ، وان كان بعضهم مثل المسلمية والدويحية لهم أوطان أخرى فى الجزيرة والنيل الأزرق (٢) .

ويتركز الجهنيون الغربيون فى كردفان بكثرة بعكس دارفور التى يقل عددهم فيها ، وهم ينقسمون الى قسمين : رعاة ابل فى الشمال مثل

---

(١) محمد عوض : المرجع السابق . ص ٢١٠ — ٢١١ .

(*) بنو فزاره بهذا الاسم لم يعد لهم وجود فى السودان ولكن فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان هذا الاسم يطلق على أكبر مجموعة من رعاة الابل فى كردفان ودارفور ثم تمزقت هذه المجموعة ومن أهم أجزائها دار حامد (محمد عوض : المرجع السابق ص ٢٢) .

(٢) نفس المرجع ص ٢١٤ .

الكبابيش والحمر (١) . وبالرغم من أن حرفتهم الرئيسية كانت الرعى ، إلا أنهم عملوا أيضا فى نقل البضائع من كردفان الى النيل كما كانوا ينقلون الصمغ من الأبيض الى الدبة وهو ما يزال رطبا ، وكثيرا ما كانوا يجدون متاعب بسبب ذلك حيث يجف أثناء المسير فيقل وزنه ، وربما يكون ذلك مدعاة لحدوث تلاعب فى الوزن ، الأمر الذى خلق نوعا من سوء الفهم بين الطرفين . ويبدو أنهم كرهوا الحساب الدقيق فاتجهوا فى بعض الأحيان الى العمل مع الجلابة رغم قلة ما يبذلونه من عطاء (٢) . أما القسم الآخر فرعاة بقر ويسمون بالبقارة ، وهذا الإسم لا يطلق إلا عليهم على الرغم من وجود بعض القبائل الأخرى التى ترعى البقر ، أى أن هذا الاسم خاص بالقبائل الجهنية فى كردفان ودارفور التى تعنى برعى الأبقار ومن أشهر قبائل البقارة فى كردفان بنو سليم على النيل الأبيض وأولاد حميد وفرع من الهبانية والحوازمة ثم المسيرية وأخيرا الحمر فى الركن الجنوبى الغربى من كردفان . وأما الجزء الذى يعيش فى دارفورد فتمثل فى الرزيقات والهبانية والتعايشة ، وبنى هلبة وبنى خزام (٣) .

ويمتاز البقارة بصفات حربية وهم يشبهون الشايقية من هذه الناحية ، بالاضافة الى أنهم صيادون مهرة . وهذه الصفات الحربية مكنتهم من إنشاء أوطانهم فى بلاد جديدة وجعلتهم يدافعون عنها . وكثيرا ما حدث تصادم بينهم وبين سلطنة دارفور الأمر الذى أضعف شوكتهم فيما عدا قبيلة الرزيقات ويبدو أن الحياة التى تعيشها قبيلة البقارة جعلت هذا الصدام أمرا حتميا لأنهم أثناء فصل الجفاف فى أواخر الشتاء ينزحون بماشيتهم نحو الجنوب حيث يصطادون الفيلة

---

(١) جريدة أركان حرب . العدد رقم ٨ غرة جمادى الأولى سنة ١٢٩٥ هـ تقرير أحمد أفندى حمدى . ص ٥٧٨ .

(٢) عوض عبد الهادى العطا . تاريخ كردفان السياسى فى المهدية ١٨٨١ — ١٨٨٩ . ص ١٢ .

(٣) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ٢٢٩ .

ويهاجمون الزنوج ويخطفون ماشيتهم • وفى فصـــل المطر يتجهون نحو الشمال هربا بقطعانهم من الذباب والمستنقعات الى المرتفعات الشمالية الجافة والتى يدعى الدارفوريون أنها ملك لهم ومن ثم كان لابد من حسم هذا الأمر عن طريق القتال •

الكواهـــلة :

وهى من المجموعات الصغيرة فى السودان إذا ما قورنت بالمجموعة العباسية أو الجهنية • وهذه المجموعة تنتسب فى أصولها الى كاهل بين أسد بن خزيمة فهم بذلك يعدون من عرب الشمال إلا أنهم منفصلون عن المجموعة الجعلية فى النسب • وقد نزلوا فى وقت متقـــدم على السواحل السودانية للبحر الأحمر ما بين عيذاب وسواكن ، واختلطوا مع البجـــة بل وتعلموا لغتهم وصاهروهم واندمجوا فيهم بحيث لم يعد لهم وجـــود فى أقاليم البجة كوحـــدة قبلية مستقلة ، وهم بذلك قـــد حملوا النسب العربى للبجة • وهناك بطـــون أخـــرى من بنى كاهل انتقلت من شرقى السودان الى أقاليم عطبرة والنيل الأزرق ، وأخرى الى النيل الأبيض تسمى بالكواهلة وأحيانا باسم الحسانية والحسينات • كذلك فإن هناك قبيلة فى كردفان تحمل اسم الكواهلة (١) •

وتجدر الاشارة الى أن هناك بعض القبائل اختلف النسابة حـــول أصولهم مثل الشكرية المجاورة للبجة • فالبعض يضعهم تحت مجمـــوعة جهينة • ومع تسليمهم بأنهم من جهينة إلا أنهم يفضلون الانتساب الى قريش • وهم يعيشون فى اقليم البطانة ويجاورون بشارى ام ناجى فى سهل البطانة • ومن القبائل الأخرى التى جاورت البجة « الرشايدة » أو الزبيدية والحمران •

---

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ٢١٤ .

قبائل ساحل البحـــر الأحمر :

ويقصد بهذه القبائل على وجه التحديد جماعات السومال والدناكل والجالا • فمن المعروف أن بعضا من هذه الجماعات القبلية قد شملتها الادارة المصرية فى عهد اسماعيل باشا •

وقد اصطلح علماء الأجناس على تقسيم القوقازيين فى أفريقيـــا الى قســـمين حاميين وســـاميين ، كما انهـــم يميزون بين الحاميين الشرقيين والحاميين الشماليين • وعلى هذا فان هذه القبائل تندرج تحت طائفـــة الحاميين الشرقيين (١) •

وتبدأ أوطان الســـومال من المجرى الأســـفل لنهر تانا على الدرجة الثامنة من درجات العرض الجنوبى وتتجه نحو خليج عدن • وأكثر هذه الأوطان يقع فى الوقت الحاضر داخل جمهورية الصومال ، كما أن بعضا منهم يعيش فى الجزء الجنوبى الشرقى من أثيوبيا أى منطقة أوجادين • ويعبر عن السومال فى بعض الأحيان بأولاد عيسى الذين يتكونون من ثلاث قبائل كبيرة ، وكل منها ينقسم الى أفخاذ عديدة (٢) •

وتعد قبيلة الدناكل جزءا من القبائل الواقعة جنوبى هرر ، وهناك مئات الأقسام الصغيرة لتلك القبائل المنتشرة فى هذه المناطق (٣) • وأما الجالا فتسمى أحيانا باسم « النولى » أو « الجالانولى » وتنقسم الى

---

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٢٣٥ — ٢٣٦ •

(٢) جريدة أركان حرب الجيش المصرى • السنة الثالثة ١٢٩٤ هـ العدد رقم ٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ • والمقـــال بعنوان : نبـــذة تتعلق باستكشاف أراضى العيسى وقبائل الجالا وهرر (تأليف عبد الله أفندى فوزى صاغقول أغاسى أركان حرب • ص ٣٨٦) •

(٣) جريدة أركان حرب ، العدد رقم ٦ بتاريخ غرة شعبان سنة ١٢٩٤ هـ ص ٤٧١ وانظر أيضا : الأرشيف الأمريكى ، محفظة رقم ١٨ مكاتبة رقم ٣٧٨ بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٨٧٥ •

أربع قبائل وأراضيها محصورة بين (جلديسة) ومدينة هرر (١) .

وأكثر هذه القبائل كانت تعيش على ما تكتسبه من حمل البضائع على ابلها ، ولم يكونوا زراعا أو صناعا . وكان البدوى الواحد منهم يكتفى بتأجير جمل أو اثنين مرة واحدة فى السنة أو مرتين ، ومتى أخذ الأجرة كسا نفسه وأسرته ومكث فى قريته يرعى ابله وغنمه ، يشرب ألبانها ويأكل لحومها . وأما مشاكلهم العامة فكانت تناقش مع مشايخهم وتخضع لأعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم ومتى استقر رأى مشايخهم على حكم تم تنفيذه فورا (٢) .

قبائل النوبا (سكان الجبال) :

يستخدم لفظ نوبا للدلالة على السكان المتزنجين فى المنطقة التى تعرف باسم جبال النوبا أو تلال النوبا (دار نوبا) وهى تقع فى الجنوب الشرقى من كردفان (٣) .

ولسنا فى حاجة الى تكرار ما سبق أن ذكرناه عند تعرضنا بالحديث عن سكان النوبة السودانية حين خلصنا الى أنه من الصعب أن تكون هناك صلة قوية بين الأصول النوبية والنوباويين * .

ويذكر الدكتور محمد عوض ان سكان الجبال يمثلون سلالة مستقلة عن الجماعات التى تحيط بها ، وهى تعد مجموعة وطنية قديمة سكنت هذا الاقليم منذ زمن بعيد ، وقد أتاحت لهم أوطانهم الجبلية نوعا من

---

(١) محفظة رقم ٣ عابدين وارد معية . فى ٣ محرم سنة ١٢٩٣ هـ . تقرير مقدم من أركان حرب مأمورية هرر . انظر ايضا : شوقى الجمل : الوثائق السياسية لسياسة مصر فى البحر الأحمر . ص ٢٩٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٩٤ .

(٣) السعيد ابراهيم البدوى : المرجع السابق . ص ١١٥ .

(*) انظر فيما سبق ص ٣٢٣ .

الحمــاية (١) • والبعض الآخر يرجعهم الى الجنس الزنجى ، وان كانوا قد تأثروا بالدماء الحامية والسامية فى بعض المناطق مثل منطقة تقــلى والجــزء الشمالى من الجبال (٢) •

ويذكر تقرير أحمد أفندى حمدى الصادر فى ابريل عام ١٨٧٨ الى أن أصل هــذه المجمــوعة السكانية يرجــع الى شخص يدعى الشــيخ عبد الهادى الشهير بمعاركه مع الدارفوريين ، والذى قدم من « الدابة » مع جم غفير من عائلته وسكنوا تلك الجهة • ثم تزوج بأمرأة من النوبا القاطنين منــذ زمن طويل ، فتناسلت ذريته واختلطوا بالنوبا وصــار للجميع « •• عزوة واحدة » (٣) •

وواضح أن هذا الرأى يحــاول أن يوفق بين الآراء المختلفة التى تقربهــم تارة من النوبة ومن الزنوج تارة أخــرى وتبعدهم عن كليهما تارات أخــرى •

وللنوباويين لغات ولهجات عدة حتى قيل ان عدد اللغات بين النوبا يعادل عدد الجبال • وهذا القــول وان كان فيه شىء من المبالغة فانــه لا يخلو أيضا من الصواب • وقد أرجع البعض لغات النوباويين الى ثلاثة اصول رئيسية أطلقوا عليها الأسماء الآتية :

١ ــ الســودانية •

٢ ــ النبتوئية •

٣ ــ النوبيــة • فكل قبيــلة تدخل لغتهــا ضمن نوع من هــذه

---

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٣٠٢ •
(٢) السعيد ابراهيم البدوى : المرجع السابق ص ١٣٥ •
(٣) جريدة أركان حرب : تقرير احمد افندى حمدى السابق ص ٥٨١ •

الأنواع الرئيسية (١) • وقد قسم آخرون اللغـات النوباوية الى عشر وحـدات (٢) •

وقد بنى النظام الاجتماعى لدى النوباويين على وخدة « العشيرة » التى تتألف من مجموعة أشخاص تربطهم صلات القرابة •

ومن مجموعة العشـائر تتألف وحـدات أكبر • وأكثر العشـائر عندهم أبوية تنحـدر من آباء منـذ قديم الزمان • إلا أنه توجـد فى الجزء الجنوبى عشائر تنحدر عن طريق الأم • وقد يحدث أن تنقسـم العشيرة الى قسمين إذا حدث الزواج داخل العشيرة الواحدة لأن الزواج محرم على الأفراد المنتمين الى عشيرة واحدة (٣) •

ويعمل النوباويون بالرعى والزراعة ، وهنا نشير الى أن النوباويين لا يوجد عندهم « عمال زراعيون » أى اجراء يشتغلون بصفة دائمـة فى أرض غيرهم ، كما أنه ليس لديهم طبقة عبيد تعمـل لطبقة السادة • فقد كان لقبائل النوبا نظام خاص مع الرقيق وهـو نظام التبنى بحيث يصبح الرقيق جزءاً من الأسرة ويعمل فى خدمتها كفرد منها ، وله عليهـا حق دفع المهر ، إذا تزوج ، ومنحه قطعة أرض • ولذلك فقد قيـل انـه عندما حرمت تجارة الرقيق فى السودان لم ينتج عن هذا التحـريم أية مشقة بالنسبة للقبائل النوباوية (٤) •

سـكان الجنوب (الزنـوج) :

هناك ملاحظة هامة نود أن نستهل بها حديثنا عن سـكان الجنوب السودانى تتمثل فى ذلك الخطأ الفاحش فى اطلاق وصف « العبيد » عليهم

---

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق • ص ٣٠٤ •

(٢) عوض عبد الهـادى العطـا : المرجـع السـابق • ص ١٨ ، انظر أيضـا :

Stevenson. R. C.; The Nuba People of Kordofan Province. p. 13 - 14.

(٣) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٢٠٦ •

(٤) نفس المرجع ص ٢٢٢ •

بدلا من الزنوج أو المتزنجين ، فالعبودية ليست سـلالة من السلالات بل هي من صنع الإنسـان ، الذى مارسها سواء فى أفريقيا ــ بالنسبة لذوى البشرة السـوداء ــ أو فى أوربا بالنسبة لذوى البشرة البيضـاء على مر التاريخ (١) •

ويتمثل هؤلاء السكان فى عدة مجموعات قبلية من أهمها :

(أ) الدنـكا : تندرج المجموعة الدنكاوية تحت ما أسماه البعض بالنيليين Nilotes ، الذين تتوزع أوطانهم فى كينيا وأوغندا وأطراف أثيوبيا الغربية والسودان وسوف نركز ــ بطبيعة الحال ــ على الأقسام التى تدخل ضمن السـودان •

وتعتبر الدنـكا من أكثر المجمـوعات النيلية عـددا وانتشـارا ، إلا أنهم لا يحتلون أراضى متصلة ، بل تفصـل بينهم قبـائل النوير ، وتشكل أوطانهم موقعا وسطا يمتد من السوباط الأدنى الى بحر الجبل ثم الى بحر الغزال • والمسـاحة التى يحتلها هذا الشعب الدنكاوى من حيث الطول تعد طويلة جدا حيث تبدأ من العرض السـادس الى الخط الثانى عشر الشمالى ، باستثناء الجزء الذى يحتله النوير • وأما من حيث العرض فان مواطن الدنكا ضيقة فى الشمال وتلتزم الجانب الشرقى للنيل الأبيض ومواضع قليلة من الجانب الغربى • وهـذا الجـزء من أوطان الدنكا لا يزيد اتساعه من الشرق الى الغرب على ثلاثين كيلو مترا • ويسمى سكان هذا الجزء الشـمالى من الدنكا ــ فى بعض الأحيـان ــ بدنكا النيل الأبيض (٢) • وأما الجزء الجنوبى من مواطن الدنكا فهـو أكثر اتساعا ويشتمل على أقطار يتصـل بعضها ببعض تبدأ بالسـهول

---

(١) يونان لبيب وآخرون : مشكلة جنوب السودان . ص ٣٤ .
(٢) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ١٥٠ .

الشرقية فى حوض بحر الجبل ثم تمتد فى شكل مروحة الى الشمال الغربى حتى تصل الى بحر العرب • ولهذا جرت العادة بتقسيم الدنكا الى ثلاث شعب : شعبة النيل الأبيض وشعبة بحر الجبل وشعبة بحر الغزال (١) •

وتطلق هذه الجماعات الدنكاوية على نفسها اسم (جنج) Djing (مفردها جانج) ثم حرفها جيرانهم العرب الى دنكا ومفردها دنكاوى • وهذا الاسم يعنى مجموعة كبيرة من القبائل تبدو لأول وهلة ان كلا منها مستقل بحياته السياسية والاجتماعية والثقافية ، وربما يكون هذا صحيحا الى حد كبير ، إلا أن هناك عناصر أساسية تتحد فيها كاللغة والدين والعادات والنظم السياسية والاجتماعية • ولكل قبيلة من هذه القبائل اسمها الخاص * •

ويرى أحد الباحثين ان الدنكا قدموا من منطقة البحيرات العظمى بشرق أفريقيا ، ويضيف قائلا : ليس لهذه القبائل أو غيرها من قبائل الجنوب السودانى أن تزعم بأن أبناءها هم سكان الجنوب الأصليون إلا بقدر ما يحق ذلك للقبائل العربية التى هاجرت للشمال (٢) •

وتتنوع المهن التى مارسها أهل الدنكا طبقا للظروف المحلية طبيعية كانت أم بشرية • وعموما تشكل مهنة الرعى أساسا عند معظم قبائل الدنكا ، إلا أنه بالاضافة الى ذلك وفى الجزء الأوسط من أوطان الدنكا نلحظ جماعات تعيش على مهنة صيد الأسماك ، والسر فى ذلك هو انتشار المستنقعات فى هذه المنطقة وتعذر الوصول الى المراعى حيث تغمر المياه مساحات كبيرة من الأراضى • وتسمى القبائل التى تعيش فى هذه الأجزاء

---

(١) محمد عوض : المرجع السابق . ص ١٥١

(*) من أمثلة هذه القبائل : بود — علياب — سيك — اجار — توى

(٢) محمد عمر بشير . جنوب السودان . دراسة لأسباب النزاع ص ٢٤ •

باسم (مـون ثان) Mon-than أو جماعة الثان وتعنى بلغتهم الأرض الجافة وسط المستنقعات • ومرة ثالثة نلحظ تنوعا فى المهن حيث تصادفنا قبيلة « سيك » التى تقطن السـهول الواقعة غربى بحر الجبـل والتى تشتهر بمهنة استخراج وصهر الحديد • ويبدو أن هـذه المهنة منتشرة بشكل واسع بين قطاعات كبيرة من الدنكا حيث نلحظ « عشائر الحدادين » فى الجنوب الشرقى من بحر الغزال • وربما يكون لهـذا الاسم الذى حملوه صلة بعملية استخراج وتصنيع الحـديد • وهناك احتمـال أيضا بوجـود عشـائر أخـرى من الدنكا تشتغل بصهر الحـديد فى حوض الغـزال (١) •

ولقد نتج من عملية صهر الحديد لدى هذه القبائل كتل مستديرة من الحديد قطرها حوالى ٢٠ سنتيمترا كانت بمثابة وحدة للمبادلة والتعامل حيث أمكنهم عن طريقها شراء الثيران من القبائل الأخرى التى اشتهرت بتربية الماشية ، بالاضافة الى استخدامها فى دفع المهور للزوجات وان كان ذلك خارجا عن المألوف لـدى هذه القبائل التى اعتـادت دفـع مهورها ماشية • وهنا نشير الى أن العشـائر التى تعتمد على الحديد تتزاوج فيما بينها ، ولكن ليس معنى ذلك أنهـا منغلقة على نفسـها فى هـذه الناحية بل يمكنها أيضا أن تصاهر القبـائل ذات الماشية التى تعـد فى مرتبة أعلى منهـا ، إلا أن قلة ما تملكه قبائل الحـديد يجعل من العسير حدوث مثل هذا التصاهر (٢) •

وعموما فالماشية هى قوام الاقتصاد الدنكاوى وخاصة البقر ، فهى مقياس ثروتهم وفخرهم وعزهم ومصـدر سعادتهم وعمـاد مركزهـم الاجتماعى ، وبها تدفع المهور والديات فالفرد الذى لا يملك ماشـية فى

---

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ١٥٣ •

(٢) نفس المرجع ص ١٥٤ من سليجمان : Pagan Tribes. p. 138.

هذا المجتمع ـ عليه أن يحصل عليها فورا حتى وان اضطر الى الهجرة الى خارج وطنه للعمـل ثم يعود لشراء واقتناء الماشية •والغريب حقا ، حتى انه اذا عـاد هذا الفرد من الخارج فان ثروته التى جمعها لا تمكنه بسهولة من شراء الماشية من قبائل الدنكا • فالنقود عندهم أحقر من أن تقبل ثمنا للبقر ، وهنـا يضطر الفرد الى شرائها من قبائل البقـارة فى الأسواق الشمالية • فالماشية عندهم ليست مجرد مادة للحياة الاقتصادية، على الرغم من خطورة ذلك ، بل هى أهم من ذلك كله من الناحية الروحية • فكل شىء عندهم لا يعلو على الماشية !! • فالأكواخ العظيمة لا تـكون للآدميين بل للماشية ومن أجلها توقد النيران ويحرق روثها لطرد البعوض عنها ، والرجل الدنكاوى يدافع ببسالة عن ماشيته اذا ما حـدث اعتداء عليها وكأنما يزود عن عرضة أو دينة (١) !

وقد جرت محاولة جادة ـ من جانب أحد الآباء الفيرونيين « ويدعى « نادل » بالاشتراك مع زميل له لتصنيف أجروميه دنكاوية • وقـد توجت هذه الجهود فى عام ١٩٣٦ باخراج قاموس « دنكاوى » (٢) •

(ب) **الشـلك** : يتميز الشلك بأنهم جماعة متميزة قائمة بذاتهـا لا تنقسم الى قبائل ، مندمجة الأوطان ومتلاصقة ، أى أنها تكون وحـدة سياسية واجتماعية وثقافية وتقع هـذه الأوطـان على الضفة اليسرى (الغربية) للنيل الأبيض وتمتد من شمال قرية (كاكا) عند نهاية خط العرض الحادى عشر الشمالى الى قرب بحيرة (نـو) • أما على الضفة اليمنى (الشرقية) فقد انكمشت أوطانهم بحيث أصبحت عبـارة عن مساحة صغيرة تبدأ من شمال (ملكال حاليا) بقليل وحتى الشرق من حله (دوليب) قليـلا (٣) •

---

(١) محمد عوض : المرجع السابق ، ص ١٥٦ •

(٢) Santandrea, S.; Little Known Tribes of the Bahr El Ghazal. S. N. R. Vol. XXIX, 1948. Part I. p. 78-87.

(٣) محمد عوض محمد : المرجـع السـابق • ص ١٧٧ ـ ١٧٨، ، انظر أيضا مصطفى فهمى وآخر : فى جنوب السـودان • دراسـات اجتماعية ونفسية وتربوية • ص ١٦ •

ويرجع سليجمان أصل جماعة الشــلك الى رجل يدعى « نياكنج » Nyakang هاجر هو وأتباعه من وطن آبائه شرقى بحر الغزال ثم أخذ يتجــول ، قاهرا الأعداء فى طريقه ، حتى أصبح ذا قــوة فتمكن من تكوين أسرة حاكمة وأمة • ويرجح أن نياكنج قد عاش فى أوائل القرن التاسع عشر الميــلادى (١) •

وتتكون جماعة الشلك من الوحدات الاجتماعية التالية :

أولا : عشيرة الملك : وتســمى كوارث Kwareth ، وهى التى تنحدر من نسل الجد الأكبر الملك نياكنج ، وهذه العشــيرة موزعة فى أرجاء البلاد ، ومنهــا يختار ملك البــلاد شريطة أن يكون والده قــد سبق له أن تولى الملك • وهذه العشيرة تنقسم الى أربعة أقسام :

١ ــ الملك نفسه أو الرث •

٢ ــ أبناء وبنــات الملك الحــالى أو الراحــل ويســمون باســم « نييرث » •

٣ ــ أبناء أبناء الملك ويسمون « نيارث » •

٤ ــ حفداء أبناء الملك •

ويلاحظ فى القسمين الأخيرين انه لا ذكر للبنات ، وذلك لأن بنات الملك لا يتزوجن حتى لا ينجبن من يزاحم الملك فى ملكه • وقد تولى أفراد هــذه الطبقة (الرث) الكثير من المراكز فى أنحــاء بلاد الشلك وكانــوا يتزوجون بكثير من الزوجات حتى تتسع عصبتهم •

ثانيا : عشيرة أرورو Ororo : وتأتى فى الطبقة الثانية بعــد عشيرة الملك ، وهى أصلا من العشيرة المالكة إلا أنها حرمت من حقوقهــا

---

(١) سليجمان : السلالات البشرية فى افريقية ص ١٥٨ •

فى بعض العهود إذ أنه يحق للرث أن يحرم أى أسرة أو فرع من عشيرته . وجرى العرف أن يتخذ منها الملك بعض زوجاته . والميزة الوحيدة التى تميز الأرورو عن العشائر الأخرى دورهـم الخاص فى بعض الطقوس الضرورية التى لابد من اجرائها عند تنصيب الرث الجديد و عند وفاته .

ثالثا : حاشية الملك وأتباعه المقربين ويسمون باسـم (بانج رث) Bang Reth وهم عبارة عن متطوعين للخدمة ، أو أسرى فى الحروب أو من نسل اقترف آباؤهم جريمة القتل فضم الأبناء الى الحاشـية . وتنحصر مهامهم فى الخدمات الزراعية والمبانى وخدمة الملك . وعند وفاة الملك يتولى فريق منهم خدمة مقبرته .

رابعا : الشعب ويسمى (كولـو) Kolo ، وتبلغ عشائرهم نحو المائة ، وتحرص كل عشيرة منها على وصل نسبها بأتباع الملك نياكنج [١] .

ومن الجماعات الأخرى التى سكنت جنوب السودان جماعة النوير فى منطقة السدود وما حولها ، أى بحر الجبل الأدنى حتى بحيرة (نو) . ويعملون برعى الماشية والزراعة . ويرتبط النويريون بالدنكا من حيث الزواج ، وعموما فهم قريبون فى نظمهم الاجتماعية من الدنكا والشـلك المجـاورين لهم [٢] .

كذلك فقد ضم الجنوب السودانى جماعة الآزاندى والتى تمتد حتى الكونغو ويمكن حصرها على وجـه التحديد بين خط العرض الثانى جنوب خط الاستواء الى خط العرض السادس الشمالى فى حوض بحر الغزال . وهنـاك عدد من الازاندى أصبح يسمى بافريقية الوسطى . ويعـرف الأزاندى فى السـودان باسم (الافنجـره) Avangara ويقابله اسم المانجبيتو Mangebetu فى الكونغو . وتجدر الاشـارة الى أن اسم

---

(١) محمد عوض : المرجع السابق . ص ١٨٣ – ١٨٥ .
(٢) زاهر رياض : السودان المعاصر . ص ٥١ .

الأزاندى يختلط كثيرا باسم تلك العشـــائر المندمجة فى الأزاندى مثـل (الماكـــركا) Macarca • كذلك ينبغى أن نشـــير أيضـــا الى الاســم الذى أطلقه الجغرافيون العرب فى العصـــور الوسطى على سكان أواسط افريقية وهو (نيام نيام) ، وكانوا يقصـــدون به مجموعة سكان الاقليم الأوسط الذى يشمل الكونغو وأعالى النيل • وعلى هذا يكون تعميم هـــذا الاسم على الأزاندى دون غيرهم خطأ • والصحيح أن نسمى الشـــعوب بأسمائها (١) •

ولقد كان أساس السكان فى أعالى الكونغو والغـزال عبـــارة عن جماعات متفرقة من الأقزام وقليـــل من الزنوج منتشرين فى هذه البيئة الواسعة حتى تعرض هذا الاقليم لضغط من الجنوب والشرق من بعض سلالات البانتو • ولم يلبث هذا الضغط أن تلاشى أيام الموجات المتتالية من الغرب من عناصر سودانية غربية ، وترتب على هذه الموجات الزاندية ظهور ســـلالات جديدة واندماج القديم فى الجـــديد وتوحيد الثقـــافة وتكوين ممالك منظمة فى هذه المساحات الواسعة • وقد كان أكثر هـــذه الموجات تقودها عشـــائر ذات صفات حربية عالية وكان آخرها بقيـــادة الأفنجرة حتى استتبت الأمور فى أواخر القرن الثامن عشر • وفى أوائل القرن التاسع عشر أصبح الأفنجرة يسيطرون تماما على الأجزاء الشمالية فى مقابل المانجبيتو فى الجنـــوب (٢) •

ومن الجماعات الأخرى فى جنوب الســـودان جماعة « البـــارى » وهى من الشعوب النيلية الحامية التى احتلت الباب الجنوبى لنهر النيل • وتنتشر أوطان البارى على الضفتين الشرقية والغربية لبحر الجبل • أما اذا أدخلنا البارى فى الجماعات التى تتكلم اللغة البارية فان هـــذه الأوطان تمتد شمالا فى خط العرض السادس ، وهنا يحتل البارى الجزء

---

(١) محمد عوض : المرجع السابق • ص ١٩٠ •
(٢) نفس المرجع • ص١٩٥ عن :
Baxler and Butt; The AZ andi

الأوسط • ويروى البارى أن أجـدادهم جاءوا من الشرق أو الجنـوب الشرقى وآخذوا يتنقلون جتى احتلوا الاقليم الواسع شرقى بحر الجبل وأخذوا يتعرضون لإغارات من جماعات أقوى منهم حيث أرغمـوا على الجلاء عن معظم أوطانهم شرقى النيل واللجوء الى الأراضى الواقعة الى الغـرب (١) •

وينقسم البارى الى عشائر منفصلة واغترابية أى لا يتزوج امروء من عشيرته ، حيث انهم يعتقدون ان ذلك ضار بالنسل • ولهم رواية حول ذلك مؤداها ان الزواج فيما مضى كان منتشرا بين أفراد العشيرة فترتب على ذلك انتشـار الأمراض فتدخل الزعماء فى الأمر وقسموا القبيلة الى أقسام وحرموا الزواج داخل كل قسم وبالتالى داخل كل عشيرة • وهناك تقسيم اجتماعى آخـر ـــ الى جانب تقسيم البارى الى عشائر ـــ وفيه يقسم المجتمع إلى قسـمين فى كل مكان • الأول يدعى (لـوى) Lui والثانى يدعى (دوبى) Dupi أى طبقة الخاصة والعامة أو الأحرار والخدم • كما وجـد تقسيم آخر لتمييز الأفراد سواء أكانوا من الخاصة أو العامة ويتناول جمـاعات قليلة تسمى (كـور) أى طبقة العـارفين بشئون الماء مثل جالبى المطـر ومساعديهم • وقد يكون فى طبقـة الكور ـــالكثير من (الدوبى) ولكن زعيم المطر لا يكون إلامن طبقة (لوى) • وهناك طبقات أخرى خلاف الدوبى ينظر اليهم الأحرار نظرة احتقـار مثل طبقـة الصـيادين أو اليارى Yari وطبقة الحـدادين وطبقـة صيادى النهر (٢) •

مجتمع القبيلة السـودانى :

من ذلك التطور السكانى الذى تعرضنا له على أرض السـودان لاحظنا بوضوح أن القبيلة كانت تشكل ركنا أساسيا فى هذا البناء السكانى

---

(١) محمد عوض : المرجع السابق ، ص ١٩٠ •
(٢) نفس المرجع ، ص ١٢٠ وما بعدها •

فى القــرن التاسع عشر • وقد لا يــكون من قبيل الإسراف الفكرى أن نقف أمــام هذه الظاهرة التاريخية لنحدد معالمها وسماتها •

وأولى هذه السمات هى وضوح ولاء الفرد الشديد لقبيلته الــذى يبلغ درجة القداسة للقبيلة ، وهــذا الولاء كان يفرض عليه مجمــوعة التزامات غير مكتوبة ، بل هى أعراف اتفق أفراد قبيلته فى الســير على منوالها • فهناك فائدة مؤكدة فى انتســاب المرء الى قبيلة يجلها ويفخر بها ، لأن هــذا خليق أن يرتفع به عن كل سلوك يشين سمعة القبيــلة ويلحق الضرر بها • والغريب ان هذا الولاء القبلى فى الســودان وان كان يفوق أحيــانا الولاء للحكومة فانه لم يتناقض أو يصطدم معهــا أو حتى يضر بوحــدة البلاد القــومية • ولا عجب فقد تركت الادارة المصرية القبائل السودانية تعيش وفق « ســبرها » دون التغلغــل فى كل كبيرة وصغيرة على عكس ما يبدو أحيانا • وفى نفس الوقت استفادت من نظام القبيلة الســودانية الذى يحتم الــولاء للقبيلة فحاولت كسب القبائل حتى تحول هذا الولاء اليها • ولعل أروع صورة فى كسب هــذا الولاء ما حدث بالنسبة لقبيلة الشايقية تلك القبيلة الوحيدة التى وقفت فى شمالى السودان أمام الحملة التى قادها اسماعيل كامل عام ١٨٢٠ والتى قاتلت بشراسة — فقد استطاع اسماعيل كامل أن يكسب ولاءها بعد ذلك وأصبح رجالها مقاتلين فى صفوف الجيش المصرى بعــد أن وقفــوا فى وجهــه ، وكانــوا بحق من أشــد مؤيدى ومعضدى الادارة المصرية فى السودان حتى اندلاع الثورة المهدية كما سبق الاشارة •

ومن السمات الأخرى التى تميز مجتمع القبيلة السودانى وجــود زعيم لها أو شيخ ، وهذا الشيخ غالبا ما يكون فى مسغبة من العيش ، كامتلاك القطعان الكثيرة من الابل أو الماشية أو الأغنــام أو غــيرها • وبالاضافة الى ذلك كان لابــد أن يتمتع هــذا الشيخ برجاحة العقــل ، ولذلك فانه غالبا ما يكون من الطاعنين فى السن ، الذين زادتهم الحيــاة

تجربة • وهذا الشيخ كان يمثل جسر اتصال بين الإدارة وبين أفراد القبيلة ، فهو المتحدث باسمها وكلمته مسموعة وطلباته مجابة •

وقد استعانت الادارة المصرية فى السودان بنوعين من المشايخ : مشايخ المدن والقرى النهرية كما كان الحال فى دنقلة وبربر وحلفاية والروصيرص وفازوغلى وغيرها • وهذا النوع من المشايخ ثبتوا فى مناصبهم واحتفظوا بشارات وظائفهم « كالطاقية ذات القرون » والقلنسوة الحريرية وحمالة السيف وما شابه ذلك • وفى مقابل ذلك كان عليهم القيام بواجباتهم الادارية من حيث جباية الضرائب وحل النزاعات الصغيرة •

أما النوع الثانى من المشايخ فهم مشايخ البدو وهو ما نريد أن نركز عليه فمن خلالهم تبدو سمات القبيلة جلية واضحة • وقد أقرتهم الادارة المصرية أيضا على قبائلهم والتى من أهمها الشكرية والحسانية والكبابيش وغيرها (١) • ومن هؤلاء المشايخ الذين ارتفعت مكانتهم لدى رجال الادارة المصرية فى السودان الشيخ عبد القادر ود الزين الذى أصبح بمثابة مستشار للحكمدار فى المسائل الأهلية وخصوصا فيما يتعلق بأمور القبائل ، فكان لرأيه القدح المعلى فى هذه الشئون الأمر الذى أضفى نوعا من الاستقرار الاجتماعى وبخاصة فى الأمور الأمنية فى الفترة التالية مباشرة لضم السودان • وكان محو بك حكمدار السودان يأخذ دائما بآرائه •ولذلك فقد كان حريصا قبل أن يغادر السودان أن يوصى خليفته خورشيد بأن يأخذ بآراء هذا الشيخ • وقد أخذ خورشيد — بالفعل — برأيه وانتخبه رئيسا لمجلس المشايخ الذى عقد فى الخرطوم بناء على أمره (٢) • وظل هذا الرجل يؤدى خدماته للادارة المصرية فى ظل أحمد باشا أبو ودان •

---

(١) Deherain; Le Soudln Egyptien sous Mehemet Ali. pp. 151?52.

(٢) دفتر رقم ٧٧٩ صادر ديوان الخديوى — وثيقة رقم ٣٢٣ بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٢٤٨ هـ . انظر ايضا : تاريخ ملوك السودان . تحقيق مكى شبيكه ص ٢٨ .

ومن بين مشايخ القبائل الذين لعبوا دورا كبيرا فى السودان الشيخ (ادريس عـدلان) فى عهد الحكمدار خالد باشا . فقد تعهد هذا الرجل وجميع القبائل التى كانت تحت نظارته بتقديم كافة التسهيلات للقائمين على عملية البحـث عن الذهب فى جهة قماميل وجبـل قسان وفازوغلى وغيرها من الجهات التابعة له والقريبة منه (١) .

كذلك تجدر الاشارة الى مشايخ قبيلة الشكرية (الشـيخ أحمد أبو سن) وخلفائه أمثال الشيخ عوض الكريم أبو سن الذى كان شـيخا لعموم مشايخ الشكرية فى عهد الخديوى اسماعيل . هذا ، وقد كان يحق لشيخ عموم القبيلة أن يعزل أو ينصب من يشاء من شيوخ البدنات فى قبيلته كما حدث فى عام ١٨٧١ عندما حاول حكمدار السودان التدخـل فى شئون قبيلة الشكرية فأجابه المسئولون بمصر بقولهم « ... ان مشايخ عمـوم العـربان ونظـارهم مسـئولون عن جميع مصـالح قبايلهـم وبدناتهم ، ولذا مصرح لهم بالعزل والتنصيب فى حق مشـايخ الفـرق والبدنات بحسب صالح المصلحة .. » (٢) .

وكانت الادارة المصرية تعمل على تكريم هؤلاء المشـايخ تشجيعا لهـم فى أداء مهامهم على أحسن وجه ، ومن أمثلة هذا التكريم الكساوى والسيوف والنياشين المتنوعة . فقد كانت هـذه الخلع والنياشين تضفى على شيخ القبيلة مكانة سامية بين رجاله وترضى فيه نزعات السـيادة والزعامة التى تؤكد مكانته الاجتماعية وسط القبيلة ؛ بالاضافة الى أن

---

(١) محفظة ١٩ بحر برا . سودان ١٩ / ٤٢ من خالد خسرو الى الجناب العالى ــ دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٤٩ معية سنية ــ صورة المكاتبة الواردة من حكمدارية السـودان الى المعيـة السـنية بتاريخ ١٦ ربيع الأول سـنة ١٢٨٨ هـ . وثيقة رقم ١٣ ص ٣٦ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

مثل هذه الانعامات دليل على رضاء الحكومة عن خدماته لها (١) .

ومن السمات التى تميز مجتمع القبيلة السودانى وجود (مجلس الأجاويد) الذى كان يتم اختياره من بين كبار السن من رجال القبيلة المعروفين برجاحة العقل . وكانت مهام هذا المجلس تنحصر فى المسألة القضائية التى تكون نتيجة للنزاعات التى تنشأ بين أبناء القبيلة . وهذا المجلس كان ينجح كثيرا فى أداء مهامه ، كما كانت أحكامه لا تستأنف . وهذه الأحكام غالبا ما تكون عبارة عن دفع أعداد كبيرة من الابل لمن وقع عليه الضرر . وفى أغلب الأحيان كان يتنازل صاحب الحق عن تناول هذه الغرامة . وتستمد قرارات هذا المجلس أساسا من الشريعة الاسلامية ومن مجموعة الأعراف السائدة بين أفراد القبائل .

ويلاحظ أن مجتمع القبيلة السودانى — على وجه الخصوص — كان يسوده الوئام والسلام الاجتماعى وان المشاكل التى كانت تحدث ترجع فى الغالب الى الاختلاف حول أماكن المرعى . أما المشاكل الأخرى فتكاد تكون غائبة تماما عن هذا المجتمع . ومرد ذلك يكمن فى أن المصالح فى داخله لم تتشابك كثيرا أو تتعقد . فالأرض رحبة ، والسكان قليلون وفرصة اللقاء قليلة جدا إلا فى مواسم معلومة . فايقاع الحياة كان بطيئا جدا .

وقد يكون من الضرورى أن نعرض لعلاقة الحكومة بهذا المجتمع ومدى ما أصابه من تطور فى ظل الاصلاحات التى أدخلتها الادارة المصرية . ففى عهد محمد على قامت الحكومة جاهدة بتشجيع الزراعة

---

(١) دفتر رقم ٢٨٩ صادر ديوان المعاونة الملكية — وثيقة رقم ٢٠٩٥ بتاريخ ٢ ربيع أول سنة ١٢٥٩ هـ . افادة الى كامل بك . دار الوثائق بالقلعة أنظر أيضا : دفتر رقم ٣٢ عابدين — صادر تليغرافات — صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ٥٧٠ بتاريخ ٩ جمادى أول سنة ١٢٩٤ هـ . ص ٩٤ أنظر أيضا : دفتر رقم ٤٨ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ١٠ بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٨٧٧ من غوردون باشا الى سعادة خيرى باشا . دار الوثائق القومية بالقلعة .

لاستقرار البدو ، واستمرت هذه السياسة فى عهد خلفائه كما سبق أن ذكرنا ، وخصوصا فى عهد اسماعيل حيث كثرت مشاريع الزراعة وبخاصة زراعة القطن فى شرقى السودان الأمر الذى أغرى البدو هناك بالانخراط فى سلك الزراعة وتحولهم من بدو رحل الى زراع مستقرين * .

كذلك فان الحكومة قد شجعت على اقامة القرى الصغيرة أو ما يشبه المحطات على الطريق بين كسلا وسواكن وتوطين البدو فيها حتى يشيع الأمن عبر هذه الطرق التى يمر فيها المسافرون (١) . كما كان رجال الادارة فى مصر والسودان يصرون على ضرورة الاستفادة من أراضى السودان الواسعة فى احداث عملية استقرار للبدو الرحل وبالتالى حدوث عملية تطور نحو التمدن ، وقدمت فى هذا الصدد الكثير من الاقتراحات . ففى ديسمبر عام ١٨٧١ اقترح مدير عموم قبلى السودان تشكيل مديرية قائمة بذاتها يكون مركزها القضارف وتسمى مديرية القضارف وراشد . وشرح النتائج التى سوف تترتب على ذلك والمتمثلة فى زيادة الرقعة الزراعية التى ستؤدى الى جذب الأهالى واستقرارهم « .. وتحويلهم من حالة التوحش الى المدنية .. » (٢) .

ولم تكن هذه السياسة الاصلاحية تقتصر على قبائل شمالى وشرقى السودان بل شملت أيضا قبائل الجنوب التى كانت فى حالة شديدة من التأخر . ففى احدى رسائل اسماعيل الى بيكر يوصيه هو ومن معه بأن يكونوا عادلين مع قبائل البارى حتى يطمئنوا اليهم . ويضيف قائلا :

(*) أنظر فيما سبق فصل تطور الأوضاع الزوراعية .

(١) دفتر رقم ٥٥٨ — معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥ ص ١٥ بتاريخ ٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ . ارادة سنية الى جعفر باشا وكيل حكمدارية السودان .

(٢) دفتر رقم ١٨٥٩ معية سنية — صورة المكاتبة رقم ٢٤ الواردة من مديرية عموم قبلى السودان الى المعية السنية تاريخ ٢٩ شوال سنة ١٢٨٨ هـ . ص ٣ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

« ... ان العمل الخلقى والمادى سوف يستغرق زمنا طويلا لا أعلم مداه .. » كما يوصيهم بمتابعة السير فى هذا الطريق . وأخيرا يلخص وصيته اليهم فى ثلاث كلمات « .. علموا واستعمروا واستجلبوا الأهالى اليكم .. » (١) .

ولقد كانت الحكومة — أحيانا — تتدخل فى بعض النزاعات القبلية فى هذا المجتمع اذا بلغت حدا خطيرا ولم يستطع رجال القبائل أن يتوصلوا الى حل لها ، فكانت تطلب اليهم — حين تفشل أعرافهم فى حسم النزاع — أن يمتثلوا لقوانين الحكومة « .. وأن يقسموا على ذلك حسب طريقتهم فى القسم » . وكانت الأوامر تطلب من رجال الادارة فى مثل هذه النزاعات الشديدة أن يظهروا لهم بمظهر القوة ولكنها مع ذلك تطلب منهم أن يعاملوا « ... كلا منهم بحسب حالته ومركزه واعتباره ... وأن يلاطفوا بعضهم ، ويخيفوا الآخرين حتى تسير الأمور حسب المرغوب » (٢) .

ويبدو أن بعض القبائل العربية فى كردفان كانت لا تزال تعيش على عاداتها القديمة التى تتمثل فى النزاع لأوهى الأسباب . ففى عهد الخديوى اسماعيل وفى زمن الحكمدار موسى حمدى نشب قتال بين عربان الحمر وبين عربان الكبابيش اشتهرت بحرب « العقال » حيث جمعت القبيلتان رجالها الى ساحة الحرب وقامتا بعقال الابل وتقاتلتا طويلا حتى انتصر الحمر (٣) . كذلك فقد كان النزاع يمتد أحيانا الى نطاق أوسع ليشمل عربان كردفان ودارفور المتجاورتين على الحدود ،

---

(١) جورج جندى وجاك تاجر : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ص ٢٣٧ .

(٢) محفظة رقم ٥٥٨ معية تركى ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥ بتاريخ ٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ . ارادة سنية الى جعفر باشا وكيل حكمدارية السودان . ص ١٥ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا — المجلد الثانى . ص ١٠ .

وكان هذا النزاع يوقع المسئولين فى حيرة شديدة ، وخصوصا قبــل ضم دارفور للسودان • ولذلك فقد قيــل ان مثل هذه النزاعات القبلية كانت من بين العوامل التى دعت الى ضم دارفور لحوزة الادارة المصرية فى الســودان (١) •

كذلك فقد دأبت بعض القبائل فى شرقى السودان وساحل البحــر الأحمر على الاقتتال فيما بينهــا ، الأمر الذى كان يدعو رجــال الادارة للتدخل • ففى نوفمبر عام ١٨٧٥ اجتمع على ظهر الباخرة (محمد على) شــيوخ وعقــال قبائل (توتــه) و (كبــلاله) و (براوه) وغــيرها وأقسموا على المصحف والســيف أن يظلوا متحدين وألا يهاجم بعضهم بعضــا (٢) •

ومن الأمثلة الأخرى التى دعت الادارة المصرية للتدخل ما حــدث فى عام ١٨٨٠ بين قبــائل الحباب والرشايدة • فقد وفــد بعض عربان الرشايدة منــذ خمسة عشر عاما من هذا التــاريخ بعائلاتهم ومواشيهم وأقاموا بأراضى عربان الحباب التابعة لمصوع • ونتيجة هذا الجــوار احتدم النزاع بينهما ونتج عنه كثير من القتلى والجرحى وخســائر فى الحيوانات الأمر الذى دعا الحكومة الى دفع ثمانية آلاف وخمسمائة ريال للرشايدة بالاضافة الى دفع أثمان الابل فى مقابل ترك أراضى الحبــاب وتوطينهم فى أماكن أخــرى متفرقة ، أو عودتهــم للحجــاز • وأخــيرا توجهوا الى سواكن • ولكن يبدو أن الخطــر من وجودهم لم يــكن قد زال لذلك نلاحظ أن اقتراحات رجال الادارة كانت ترى ضرورة عــودة

---

(١) دفتر رقم ٥٥٨ معية سنية — قسم ثان — ارادة غير رسمية الى حكمدار السودان بتاريخ ٢٣ جمادى أولى سنة ١٢٨٣ هـ • ص ٨ •
(٢) محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القــرن التاسع عشر ص ٣١ •

الرشايدة الى الحجاز ولو كان ذلك بالقوة اذا لم يتوقف خطرهم فى تلك الجهـات (١) .

هكذا كان مجتمع القبيلة السودانى فى ذلك الوقت يعيش وفق نظمه الخاصة التى حرص عليها تماما ، وتلك كانت سـياسة الادارة المصرية تجاهه ، فلم تتدخل إلا بقدر حين تتأزم الأمور ، ولهـذا كله فان معظم القبائل السودانية ظلت محافظة على ولائها للادارة المصرية حتى قيـام المهدية وسقوط الخرطوم فى يناير ١٨٨٥ .

الوضع الاجتماعى للرقيق السـودانى :

قد يكون من الضرورى ونحن نعرض لأوضاع المجتمع السودانى أن نتناول شريحة من بنائه قدر لهـا أن تشغل حيزا كبيرا من الاهتمـام ، ولا زالت — فى تقديرنا — تتسع لوجهات نظر جـديدة . ونعنى بهـذه الشريحة جماعات الرقيق التى جلبت من جنوب السـودان وأطرافه . ولابد من تحفظ قبـل الاسترسال فى الحديث . فلسـنا بحاجة لتكرار ما سبق ذكره فى الجانب الاقتصادى ، بالاضافة الى أننا سوف لا نخرج فى معالجتنا لهذه القضية الاجتماعية عن نطاق السودان .

بداية ، لسنا مع من ذهبوا الى وضع الرقيق السودانى فى نهـاية السلم الاجتماعى للسودان تحت تسمية « العبيد » وقد سبق أن أوضحنا الأسباب التى دعتنا الى ذلك * .

واذا ما انتقلنا مع الرقيق داخل البيت السودانى وخارجه وجب علينا أن نشير الى مبدأ هـام كان يحكم العلاقة بين هؤلاء الرقيق وبين مالكيهم وخصوصا المسلمين منهم ، وهو ان الاسـلام يدعو الى تحرير

---

(١) محافظ السـودان — مجلس الوزراء — محفظـة اعانات قبائـل وعربان . صورة ما تحرر من الداخلية لمحافظ سواحل البحر الأحمر فى ٢٠ رجب سنة ١٢٩٧ هـ . نمرة ٣ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(*) انظر فيما سبق .

رقابهم ومساواتهم مع غيرهم من بنى الاسلام . كذلك نشير الى حقيقة هامة وهى وجـود فروق واضحة بين الإستعباد الأمريكى والإسـترقاق الشرقى . فعند الشرقيين لم يكن الرق من الأنظمة التى تحط من قـدر الانسان . فلم يكونوا يرون فى الرقيق متاعا كثيراً أو شيئا ماديا كمـا كان الرومان فى القـديم ولا يعتبرونه بمثابة آلة يقدرون قوتهـا كمـا تقدر قوة الآلات « بالأحصنة » ولذلك لا ندهش أن وصف البعض حالة الرقيق فى الشرق الاسلامى بأنه « ... لم يكن إلا تبنيا » ، وأن الرقيق سرعان ما يندرج فى سلك الأسرة التى شرته بمالها (١) .

لقد راح الأوربيون ينعون على الشرق ، وبلاد السودان خصوصا ، استحوازهم الرقيق ونسوا أن كثيرين منهم عندما ساحوا فى الســودان وفى أفريقيا ارتكبوا الكثير من الخزى ، فمنهم من كان يزور أســواق الرقيق لمجرد الاطلاع على شىء ســمع بـه فاذا أعجبتهم ســودانية أو حبشية ابتاعوها بثمن بخس ارضاء لغرائزهم حتى اذا اطفأوا جمرة شهواتهم أطلقوا سراحها بالاعتاق ، وهللوا أمام العالم أنهم دعاة تحرير الرقيق فى افريقيا ، غافلين عن حقيقة هامة وهى ان تحـرير الرقيق فى بلاد لا تستطيع فيها المرأة أن تعيش إلا فى ظل رجل يقـوم على شئونها وإلا فالفقر والفاقة والدعارة هى النهاية الطبيعية لها حتى تكسب قوت يومها . لم نرد بهذا القـول أن نرسم صـورة وردية لمعاملة السودانيين والشرقيين بصفة عامة للرقيق ، ولكن كثيرا ما خـرج البعض عن هــذه القواعد العامة والمثل والاعراف .

لقد كانت الجوارى مرغوبات لـدى أهل المـدن أكثر من الرقيق الذكور ، وبخاصة الشيوخ منهم ، ولذلك فقد كان لهؤلاء الشيوخ عائلات كبيرة ، ولا تصبح الزنجية فى عرفهـم حرة إلا اذا ولـدت من سيدها . إلا أن بعضهن يصبحن حرائر غداة زواجها والسبب فى ذلك عدم توفـر

---

(١) كلوت بك : لمحة عامة الى مصر ، الجزء الأول ص ٥٢٦ .

البنات لدى هؤلاء الشيوخ لتقديمهن « كبدل » للعائلات التى يصهرون اليها ، لأن العرف لديهم فى هذه الحـالة يقضى بأن يحمل الأطفـال ـ ثمرة الزواج ـ أسماء عائلات وقبـائل امهاتهم • وما كان السـودانى ليرضى ذلك ، الأمر الذى يضطره الى الزواج من الرقيق (١) •

وكان المصريون والأتراك يميلـون كثـيرا الى بنات « الجـالا » الحبشيات ويعاملوهن باحترام قد لا يقل عن احترام الحرائر • وعند شرائهم للرقيق يقومون بختانه واختيار اسم جديد له (٢) •

ويرتدى الرقيق فى بيت سيده قطعة صغيرة من قماش القطن يغطى بها وسطه حتى ركبتيه اذا كان فى العمـل ، إما اذا كان خاليـا أو كان الطقس يميل الى البرودة فيغطى جسمه بأكمله • وكان شـديد الولـع بتزين رقبته بالتمائم • كمـا كانت الجوارى تتحلى بأسـاور كثيرة • ولزوجة الرقيق تأثير عليه ، الأمر الذى يجعله فى أغلب الأحيـان يرضى بزوجة واحدة • ولذلك فكثيرا ما نلاحظ أن جنـد الحكومة من الرقيق يصطحبون زوجاتهم أثناء التحرك خارج الخرطـوم وتقام لهـن أكواخ خلف معسكرات الجند • وقد جرت العادة أن يعامل السيد رقيقه بالرحمة مما يحمل الرقيق دائما الى حبه أكثر من موطنه الأول ، ونادرا ما كان يسىء المصريون أو الأتراك معاملة رقيقهم بعكس الأوربيين الذين يقسون عليهم مما دعا الحكومة الى اصـدار قانون يمنع أى أجنبى من ضرب رقيقة ، فإذا عصا سيده أرسله إلى القاضى حتى يتولى تقويمه (٣) • وغالبا ما كان السيد هـو الذى يقضى بين رقيقه فى منزله فاذا حـدث أن قتل أحدهم زميله فى منزل واحـد فيمكن لسيده أن يعاقبه أو يبيعه • أما اذا كان القتيل ملكا لسيد آخر جاز تعويضه أو رفع الأمر للقضـاء

---

(١) احمد احمد سيد : المرجع السابق • ص ١٧٣ •

(٢) Cailliauld; Op. Cit. Tome III, p. 117.

(٣) أحمد احمد سيد : المرجع السابق • ص ١٧٥ •

على أساس انها « قضية تبديد » • ولكن فى حالة قتل السيد تنظر على آساس أنها « قضية قتـــل » (١) •

ومن الأمور التى كانت تقلق الســـادة هروب العبيد من بيوتهـــم ولذلك كان الرقيق من الاناث يتمتع بقدر كبير من الحرية عن الذكور ، بل كان الاقبال كثيرا أيضا على شراء الأطفـــال لقلة فرصـــة هروبهم • وكانت الحكومة تستمع لهــؤلاء الرقيق اذا ما أبـــدوا شكاوى تجـــاه مالكيهم • واذا ثبت معاملتهم معاملة ســـيئة ووقوع ضرر عليهـــم كانت الحكومة تجازى أصحاب الرقيق باعتاقه مجانا وتسليمه أوامر عتقه من المديرية • وليس معنى ذلك أن يطلب هــؤلاء الرقيق ذلك دون وقـــوع ضرر ، ففى مثل هـــذه الأحـــوال تلقى عليهـــم النصـــائح ويعادوا الى أصحابهم (٢) •

ويلقى البعض باللائمة على نظام اســـتخدام الرقيق فى البيـــوت باعتبار أن ذلك مناقض تماما للتحفظ الشديد الذى يسود المنازل والذى تقتضيه العلاقة الأسرية فى الشرق (٣) • ولا نعتقد ان فى ذلك تناقضـــا ، فالرقيق لا يختلطون عن قرب بالنســـاء خصوصا اذا علمنا أن منـــازل الســـودانيين متسعة جدا وتتوفر فيها أماكن لاقامتهم مـــع زوجاتهم • وقد يصدق هذا القول على سكان المدن المزدحمة ، وان لم تكن المـــدن السودانية ــ آنذاك ــ تشـــكو من أى زحام • ومع ذلك كله فقد جرت ــ أحيانا ــ عمليات « تطويش » للرقيق حتى يمكنهم الاختلاط وان لم تنتشر هذه العادة فى السودان بشكل واسع •

---

(١) Pallme; Op. Cit. p. 114.

(٢) دفتر رقم ١٦ صادر تليغرافات ــ صورة التليغراف العربى رقم ٤٢ بتاريخ ٢٥ رجب ١٢٩٠ هـ من خيرى باشا الى مديرى السودان • دار الوثائق بالقلعة ، انظر ايضـــا دفتر رقم ٤٦ عابدين ــ وارد تليغرافات ــ صـــورة التليغراف العربى الشفرة رقم ٢٤٨ ص ٦٢ • ورد بتاريخ ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٢٩٤ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) الأرشيف الأمريكى : محفظة ١٩ :
Desp. No. 235, Cairo, May 16 th. 1878.

ولم يقتصر عمل الرقيق السودانى على الخدمة البيتية ، بل كانوا يكلفون بالأعمال الزراعية ، والانخراط فى سلك الجهادية [١] .

وعموما فقد كان الرقيق السودانى يلقى معاملة طيبة فى كافة الجوانب التى عمل بها ، حتى ليمكننا القول — دون تردد — بأن الفرد منهم كاد أن يصبح واحدا من أفراد البيت إذ كان يستمتع بحقوق كثيرة . فكانت تخصص له — أحيانا — قطعة أرض يقوم بزراعتها واستغلالها لحسابه الخاص . وكان يمنح يوما كل أسبوع لمزاولة أموره الخاصة دون فرض رقابة مشددة عليه [٢] .

هكذا تغلغل الرق فى المجتمع السودانى وأصبح ركنا أساسيا من أركانه وألف الناس آنذاك العلاقات الاجتماعية التى سادت بين الرقيق وأسيادهم كما ألفها الطرفان وزادها الزمن رسوخا بحيث أصبح من الصعب بل من الخطورة أن تجتث مثل هذه العلاقات بقرارات رسمية أو مقاومة منظمة وأحيانا مسلحة . فقد كان من العسير على بيكر وغردون وغيرهما من المسئولين فى عهد الخديوى اسماعيل أن يعيدوا بناء المجتمع السودانى باصدار لوائح وقرارات سريعة اصطدمت بشدة بهذا البناء الراسخ منذ مئات السنين ، وراحت تدمره كريح صرصر عاتية تهلك الزرع والنسل .. إنها الثورة المهدية .

الأجانب :

قد يكون من المفيد بعد أن تحدثنا عن الجماعات السكانية بأشكالها ونظمها الاجتماعية المتنوعة أن نشير الى مجموعة أخرى سكنت السودان

---

(١) دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى — ترجمة الارادة التركية رقم ١١٤٩ بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٢٦١ هـ . ارادة الى احمد باشا المنكلى وانظر أيضا دفتر (بدون رقم) ص ٢٣ وثيقة بتاريخ ١٠ رمضان سنة ١٢٩٢ هـ . افادة الى حكمدار السودان — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) الشاطر بصيلى : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ص ٢٦٥ .

لفترة طارئة قصرت أو طالت ونعنى بها الأجانب ، وهنا أيضـا لابد أن نتحفظ القول حول فئتين من الســكان لا يمكن أن ندرجهم تحت بنـد الأجانب ، الفئة الأولى تضم الأتراك الذين لم يكونوا فى القرن التاسـع عشر فى عداد الأجانب سواء فى مصر أو السودان • فالعلاقة بين مصر والدولة العثمانية معروفة تماما وخصوصا نظمها التى لم تكن تفرق سكان البلدين بل تعتبر كلاهما مجموعة واحـدة تخضع للسلطان العثمانى • أما ادراجهم فى عداد الأجانب فى السودان التى كانت تابعة للادارة المصرية فى ذلك الوقت ــ كما يذهب أحد الدارسين ــ (١) فهو لون من الخطـأ التاريخى • حقيقة ان السودانيين كانوا يعدونهم « مجـازا » من الغرباء رغم أنهم مسلمون مثلهـم ، وربما يرجـع ذلك الى أن أغلب الحكام فى الوظائف العليا كانوا يتحدثون اللغة التركية ومن ذوى اصول تركيـة ، إلا أن ذلك لا يعد مبررا لادراجهم ضمن الأجانب •

ويبدو أن كلمة « تركى » فى السودان قد تناولتها الألسنة والأقلام ــ وخاصة فى السودان ــ بشكل غير دقيق • فعند الأهالى كل من كان يتولى وظيفة عليا وله بشرة بيضاء ويرتدى الطربوش الأحمر ويتحدث التركية ويراعى الآداب العثمانية فهو تركى ، بل اتسع مدلول هذا اللفظ عند السودانيين ليشمل الموظفين المصريين والسوريين وغيرهم من رعايا الدولة العثمانية وبدأ تعميمها على كل مسلم أبيض تركيا كان أم مصريا أو من أية جنسية أخرى ، حتى وصل الأمر مـداه بوصف فترة الادارة المصرية فى السودان « بالتركية » •

أما الفئة الثانية التى لا نعتبرها من الأجانب هى فئة « القبط » المصريين أو ما أسماهم السودانيون بالنصارى فقد كانوا يطلقون كلمـة (النصـارى) على كل من يدين بالمسيحية ، ولما كان الأوربيون الأجانب مسيحيين فقد جمعوا الطرفين معا تحت كلمة النصارى • ولهذا كله بدأت بهذا التحفظ وأنا أتحـدث عن الأجانب •

---

(١) احمد احمد سيد : المرجع السابق ص ١٨٦ •

أما الأجانب بالمعنى الدقيق ــ لذلك العصر ــ فقد كانوا يتمثلون فى التجار الأوربيين والرحالة والمكتشفين ورجال البعثات السياسية والدينية ، وأخيرا فى بعض الحكام فى عهد الخديوى اسماعيل ، وهؤلاء الأوربيون من جنسيات متعددة ، أكثرهم من اليونانيين ثم الايطاليين فالفرنسيين فالنمساويين فالألمان وأخيرا الانجليز (١) .

وقد ازداد عدد الأوربيين بعد سنة ١٨٥٢ حين تم فتح النيل الأبيض للتجارة الحرة حيث صدرت لائحة يناير فى هذا العام والتى تقضى بما يلى :

١ ــ معاملة التجار الأوربيين فى السودان بمقتضى الامتيازات الأجنبية والمعاهدة التجارية التى عقدت مع الدولة العثمانية عام ١٨٣٨ .

٢ ــ بناءً على التصريح الممنوح للتجار الأوربيين باحضار وبيع بضائعهم للدولة العثمانية وشراء محصولات الدولة العثمانية ومنتجاتها الصناعية وبيعها فى داخل البلاد واخراجها ، فيجب ألا يمنعوا من التجارة بتلك الكيفية ، وألا تؤخذ منهم فوائد أكثر من الذى تقرر فى المعاهدة .

٣ ــ منع أى ظلم أو تعد على التجار الأجانب وعدم تعطيل الحكام لأشغال هؤلاء التجار .

٤ ــ عدم إرغام الحكام للتجار الأجانب على أخذ رخصة بنقل أموالهم وبضائعهم ، لأن معاهدة ١٨٣٨ ألغت ذلك .

٥ ــ عدم إحتكار النقل وإرغام الحكام للتجار الأوربيين على دفع أجرة تزيد عما اتفقوا عليه مع أصحاب المراكب والجمال وغيرها . وعدم تعرض الحكام لوسائل النقل التى استأجرها هؤلاء التجار .

---

(1) Jomard; Etudie Geographipue et Hist. pp. 486 - 502.
أنظر ايضا : احمد احمد سيد : المرجع السابق . ص ١٨٧ ــ ١٨٨ .

٦ — تؤخذ الفوائد الجمركية على بضائع التجار الأوربيين فى جمرك أسوان فقط ٠

٧ — عدم تكليف التجار الأجانب الذين يتوجهون للنيل الأبيض بالمراكب على أخذ حراس لهم من الحكومة ٠ واذا طلب أحدهم حرسا يعطى له شريطة دفع مصاريف الجنود والمهمات ، واذا توجه بدون حرس وحدث له ضرر فليست الحكومة مسئولة عنه ٠

٨ — منع حكمدار السودان من احتكار المحصولات وإباحة الاحتكار وتحديد الأسعار وعدم وضع قوانين تخل بأعمال التجار وتلزمهم البيع جبرا ٠

٩ — يجب على حكمدار السودان حين الفصل فى المنازعات بين الأجانب والأهالى أو بين الأجانب والحكام مراعاة العقود والمعاهدة التجارية المعقودة عام ١٨٣٨ م ٠

١٠ — حكمدار السودان وحكامه ممنوعون من جلب سن الفيل ومن التجارة فيه وفى الأصناف الأخرى (١) ٠

من ذلك يتبين لنا مدى الامتيازات التى اعطيت لهم من قبل المسئولين ، فراحوا — كتجار — يشكلون قوة ضغط رهيبة على السودان يستغلون ثراوتها — كما سبق أن بينا فى فصل التجارة — الأمر الذى أضفى عليهم مكانة اجتماعية رفيعة بين أفراد المجتمع السودانى ٠

والى جانب عملهم بالتجارة اشتهر الأوربيون عامة بالعمل كأطباء حكوميين وفى مقدمتهم الايطاليون ٠ فقد كان على عهد خورشيد باشا طبيب وصيدلى منهم ، كما أننا نلاحظ الدكتور فرن (werne, J)

---

(١) أحمد أحمد الحتة : الأجانب فى مصر والسودان ١٨٤٩ — ١٨٦٢ ص ١٨٦ ٠

مديرا للقسم الطبى بالسودان وجراح المستشفى العسكرى بالخرطوم •
ومن الأطبـاء الفرنسيين دكتور برون (Perron) العالم والباحث الذى ترجم رحلة التونسى فى دارفور الى الفرنسية • وفى عام ١٨٧٩ نشـهد طبيبا سويسريا كمدير للقسم الطبى فى السودان •

وقد عمل الأوربيون فى مجـالات أخـرى ، فمنهم المهندس دارنو D'arnaud وشيلوبك Chelu Bey الفرنسيين وسبادا الايطالى الذى عمل مديرا للترسانة ، ولمبروزو Lamproso الذى كان مديرا للبريد (١) •

ومن الأمـور الجلية فى عهـد الخديوى اسماعيل مسـألة توظيف الأجانب فى السودان وعلى وجه الخصوص فى جنوبه أمثال صمويل بيكر وغوردون الانجليزيين والدكتور « شنيتزر » (أمـين باشـا) ، وجسى Gessi وغـيرهم •

ويعزو البعض ظاهرة توظيف الأوربيين فى السودان بوجه خـاص ومصر عامة الى أكثر من سبب ، منها أولا : ايمـان اسماعيل الشـديد بالحضارة الأوربية ورغبته فى جعل بلاده قطعة من أوربا • وفى هـذا لم يأت اسماعيل بجديد فقد سـبقه فى ذلك جده محمد على ، إلا أن النتيجة اختلفت بالنسبة للرجلين ، فمحمد على استطاع أن يتحكم دائما فى هؤلاء ويجعلهم أدوات لتنفيذ سياسته فى بناء مصر الحديثة ، بينمـا حدث العكس بالنسبة لاسماعيل فتحكموا هم فيه وتحولوا الى أدوات لتنفيذ سياسة بلادهم ، والسبب الثانى يعود الى أن اسماعيل أراد أن يكسب الثقة الأوربية لحاجته للقروض ولدفـع التهمة التى ألصقها به الغرب من أنه وراء انتشار تجارة الرقيق • وقد أفرز هذا التوظيف نتائج عكسية فبدلا من قيـام هؤلاء الموظفين بالدور الذى كلفوا به راحـوا يشنون حملة تشهير عنيفة ضد تجارة الرقيق فى المناطق التى حكموها ، ثم بدأوا يدخلون فى نزاعات عقيمة مع حكام السودان • وأخـيرا فان

---

(١) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ١٩١ •

هؤلاء الموظفين غلبوا المصالح الأوربية على مصالح الحكومة وكانوا مخلب قط لنهش الوجود المصرى فى تلك الأصقاع لصالح دولهم ولمصالح بعض الشركات الاستعمارية (١) .

ومن العناصر الأجنبية التى أقامت فى السودان ، رجال البعثة الكاثوليكية ففى عام ١٨٤٨ وصلت الى الخرطوم البعثة الكاثوليكية الأولى ، وكانت الخرطوم القاعدة التى يخرج منها رجال هذه البعثة لتحقيق أهدافهم . وفى عام ١٨٥٥ استطاعت هذه البعثة أن تبنى لها محطة فى جنوب السودان بين شامبى وبور . وقد بلغ أفراد هذه البعثة ثلاثين فردا منذ مجيئها . ويبدو ان هذا العدد ظل على هذا النحو نتيجة للخسائر التى منوا بها فى الأرواح ، فلم تأت منهم أعداد كثيرة إلا لتعويض النقص فقط . وقد عادت البعثة الى بلادها عام ١٨٦١ بسبب تلك الخسائر أو عدم الوصول الى تحقيق أهداف تتناسب والجهود المبذولة . وفى عام ١٨٧٢ عادت الى الخرطوم برئاسة الأب (كومبونى) Componi, D. وقامت بافتتاح محطات لها فى بربر والأبيض والدلنج بجبال النوبا . واستمرت مزدهرة حتى عام ١٨٧٨ حين خسرت حوالى سبعة عشر فرداً من جراء الملاريا فأقفلت محطتها فى بربر . ولما وصل خبر هزيمة هكس فى ديسمبر عام ١٨٨٣ — انسحبت البعثة الى القاهرة .

ومن العناصر الأجنبية التى نشير اليها فى السودان الرحالة والمكتشفون ، فقد كانت رحلاتهم فى الغالب تبدأ وتنتهى بالخرطوم ومكث أكثرهم سنوات طويلة بالسودان وانغمسوا فى مجتمعها ، ومن أشهرهم برون روليت — وهجلين وبترك ، وشوينفرت ويونكر وكازاتى ، وسبيك وجرانت وصمويل بيكر وغردون وغيرهم . وقد لعبت الادارة المصرية فى السودان دورا كبيرا فى تسهيل رحلاتهم من حيث منحهم

---

(١) يونان لبيب رزق : تفكك الامبراطورية المصرية فى افريقيا . دراسة بكتاب : العلاقات العربية الافريقية . دراسة تاريخية للاثار السلبية للاستعمار . ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

تذاكر المرور التى تطلب من رجال الادارة لمساعدتهم طوال الرحــلة ٠ وقد شاركت هيئة أركان حرب الجيش المصرى فى عهد الخديوى اسماعيل بالاشـــتراك مع هؤلاء الأجانب بدور كبير فى اكتشاف الطرق والأماكن المجهولة من السودان وافريقيا (١) ٠

ومع تعاظم أعداد الأوربيين فى الســودان ، كان لابــد من رعاية مصالحهم ولذلك بدأت دولهم تبعث بممثلين سياسيين لها حماية لهــؤلاء الرعايا ، وبخاصة التجار منهم ، ولذلك لا نعجب أن أصبح بتريك التاجر الانجليزى المشهور ممثلا سياسيا لبــلاده فى السودان ٠ وكان الممثــل السياسى فى الخرطوم بدرجــة نائب قنصــل ، إذ كان القنصــل يقيم بمصر ، ونلاحظ أن بعض نواب القناصل لم تكن لهم صلة قــربى بالدولة التى يمثلونها إذ لم يكونوا أصلا منها ولا يتحدثون حتى لغتها ، ولذلك لا نعجب أيضا اذا وجــدنا بعض نواب القناصل كانوا ممثلين لأكثر من دولة فى الســودان ٠

وكانت القنصلية الفرنســية هى أول قنصــلية أجنبية افتتحت فى الخرطوم عام ١٨٣٠ ٠ وكان التاجر الفرنسى (ثيبو) هو أول ممثل لهــا حتى عام ١٨٦٩ ٠ وأما القنصلية البريطانية فقد تأخر افتتاحهــا حتى عام ١٨٤٩ ٠ وربما يعــود هذا التأخير الى العقلية الانجليزية العملية ، فلم يكن آنذاك إلا انجليزيا واحــدا هو بتريك الذى كان يعمل تاجرا ، بالاضافة الى أن مصالح بريطانيا التجارية لم تكن تستدعى قيام تمثيل سياسى لها إذ كانت هذه المصالح تسير فى سهولة ويسر ٠ ومعروف أيضا أن محمد على كان يحتكر بعض المنتجات السودانية ومنها العاج ، ولمــا تحررت هذه التجــارة رأت بريطانيا أن تستفيد منهــا ، فكان لابــد بالتالى من ممثل يرعى هذه المصالح المتزايدة والتى امتدت الى الاهتمام بمعرفة أحــوال الســكان من جميع النواحى من حيث عــددهم وأماكن

(١) انظر حول ذلك : عبد العليم خلاف : جهود مصر الكشفية فى عهد الخديوى اسماعيل ٠ ص ١٦٨ وما بعدها ٠

اقامتهم وخصوصا التجمعات القبلية (١) ، وأول نائب قنصل لبريطانيا هوبلودن (Plowden, W) وخلفه جون بتريك عام ١٨٥٩ الذى استمر حتى عام ١٨٦٤ حين أغلقت القنصلية بسبب الشبهات التى حامت حـول نائب القنصل ومدى مشاركته فى تجارة الرقيق ولم تفتح مرة أخـرى إلا فى سنة ١٨٨٢ حين احتلت مصر (٢) .

أما القنصلية النمساوية فقد افتتحت عام ١٨٥١ حيث عين دكتـور « رتـز » Reitz ممثلا لهـا ، وافتتحت القنصلية الألمانية عـام ١٨٦٥ ، كما كان لسردينا نائب قنصل يسـمى فودى Voudy اشتهر بتجارة الرقيق ولقى حتفه على يد جماعة البارى عام ١٨٥٤ ، وخلفـه التاجر المشهور (برون روليت) عـام ١٨٥٥ ، وأما الولايات المتحـدة الأمريكية فكان لها ممثل سياسى منذ حوالى عـام ١٨٦٠ وهو تاجـر قبطى ، كما كان لايـران ممثل منذ أواخر سنة ١٨٦٢ (٣) .

وبعد استعراضنا للفئات والعناصر الأجنبية فى السودان قد يـكون من اللازم أن نعرض لأحوالهم الاجتمـاعية ، وبداية نلفت النظر الى أن معظمهم كان من المغامرين والمفلسين والمجرمين الذين جاءوا ليجربوا حظهم فى جمع الثروة ، ولم يكونوا يملكون شيئا الأمر الذى أدى الى انغماسهم فى الرزائل كتجارة الرقيق مثلا وغيرهـا ، وبالرغـم من أن معظم هذه النوعية من المهاجرين قد باعت رزائبها واختفت من مجتمـع الخرطوم حوالى عام ١٨٦٠ فان الأوربيين فى السودان وبخاصة الخرطوم كانوا لا يزالون يضمون بينهم جماعات سيئة السمعة تكثر من تسرى الجـوارى ، ويفسر البعض ذلك بقلة النسـاء الأوربيات بينهم ، وحتى أولئك الذين تزوجـوا زواجا شرعيا من الجـوارى لم يستطيعوا إذابة

---

(١) F. O. 78 - 841, No. 20 6, 1850.

(٢) احمد احمد سيد : المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(٣) نفس المرجع : ص ٢٠٣ وما بعدها .

التفاوت الاجتماعى الكبير بينهم وبين نسـائهم الأمر الذى نتج عنـه مفارقات صارخة (١) .

وقد استغل هؤلاء الأوربيون ما كان يسود المجتمع السودانى ف حق المالك فيما يملك من رقيق فأفرطوا فى التسرى لدرجة ان الواحد منهم كان يتقلب بين أربعين جارية وله من بعضهن أطفال يعجز عن اعالتهـم والطامة الكبرى كانت تحدث حين يغادر هذا الرجل الأوربى السـودان الى بلاده تاركا الأم مع أطفالها فتضطر الى بيع جسدها مشيعة الفاحشة فى المجتمع (٢) .

وكان الأوربيون يجمعون المـال بشتى الطرق مستغلين وظائفهم فى ذلك . فقد ثبت أن الطبيب الايطالى مدير الخدمة الطبية فى السـودان كان وراء تدبير كثير من حالات التسمم الأمر الذى أدى الى أن يقـوم الحكمدار أحمد باشا أبو ودان الى فصله من وظيفته (٣) وكان كثيرهم يثير الشبهات فى الغرض الذى أتى من أجله الى السودان ، فالتجـارة كانت الواجهة التى تواروا من خلفها ، أما الذى مارسـوه فكان « كل شىء » كما ذهبت احـدى الوثائق المعاصرة (٤) . فكان أكثرهم لا يعمل فيما تخصص فيه ففرد ريك فرن الذى عمل مهندسا على عهد أحمد باشا

---

(١) Legan, G; Voyaeg aux Deux Niles (Nubia-Kordofan Soudan Oriental execute de 1860 - 1864,pp. 28-29

وانظر أيضا : احمد احمد سيد : المرجع السابق ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٠٦ .

(٣) Werne, F.; African W nderings or an exedition from Sennar to Taka, Basa, Beni Amer, with particular glauce at races of Bellad Sudan. tr. by J.R. Johnston. p. 113.

انظر أيضا : احمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(٤) محفظة ١٩ بحر برا . ملف رقم ١٢ — دار الوثائق بالقلعة .

أبو ودان لم يكن إلا محاميا ، وكان يردد أن على الأوربى فى الخرطوم أن يعرف كل شىء ليعمل أى شىء ، ومنهم من كان واسع الحيلة ، فأمين باشا الألمانى ومدير خط الاستواء اخبر « جيجلر » وكيل الحكمدار فى عام ١٨٧٩ عند قدومه الى الخرطوم انه تركى وكان يداوم على حضور صلاة الجمعة ، بل بلغت الحيلة بالأوربيين انهم كانوا يغشون التجار ببيع جواريهم من النساء على اعتبار انهن عذارى — بعد تحويلهن صناعيا الى هذا الوضع — لأخذ الفرق بين سعر العذراء والمرأة (١) .

كذلك فقد كانوا لا يتورعون عن اثارة الفتن بين السكان . فقد حدث فى عام ١٨٦٨ ان وردت رسالة عن وجود تاجر بمصوع مرسل من قبل الانجليز لحث السكان على الانضواء تحت تبعية انجلترا المجاورة لهم فى عدن ورفع العلم الانجليزى بدلا من علم السلطان (٢) .

وعلى الرغم من تلك الأعمال المشينة التى كان يقترفها الأوربيون فى السودان كانت الادارة المصرية هناك تعمل جاهدة على أن يسود العدل بين جميع طوائف السكان — ومن بينهم الأجانب — فقد حدث أن رفع أحد رعايا فرنسا قضية ضد الحكومة وصدر حكم المحكمة لصالح هذا الرجل فوافقت المالية بمصر على أن تدفع الحكمدارية استحقاقاته فورا حتى قبل إتاحة الفرصة للاستئناف (٣) .

وقد بلغ الأجانب شأنا عظيما فى عهد الخديوى اسماعيل حيث

---

(١) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(٢) محافظ أبحاث السودان . وثيقة عن بيان الحوادث التى وقعت فى شهر محرم سنة ١٢٨٥ هـ وتوجد بالمحفظة رقم ١٧ ص ٧٩٢ . دار الوثائق بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ٥٢ عابدين — وارد تليغرافات — تليغراف رقم ٤٧٨ بتاريخ ١٨ جماد أول سنة ١٢٩٦ هـ (١٩ مايو ١٨٧٩) من حكمدار السودان والسواحل بداره الى المعية السنية بمصر . دار الوثائق القومية بالقلعة .

تسلطوا على أعلى الوظائف الادارية بالسودان المتمثلة فى وظائف مديرى المديريات والحكمدارية ولعل غردون وغيره ، ليقيم الدليل على صـــدق هذا القول ، فقد أدى هذا التسلط الى اثارة المشاكل الاجتماعية بين السكان السودانيين حيث عم السخط بينهم تجاه هؤلاء الأجانب • وقد لا نبالغ ان قلنا ان هذا التغلغل الأجنبى كان من بين العـــوامل التى حركت الثورة المهـــدية •

الفصل السادس

العـادات والتقـاليد

- المسكن
- عادات متعلقة بحياة الأسرة :
  - (أ) عـادات الميـلاد •
  - (ب) عـادات الختـان •
  - (جـ) عـادات الصبا والمراهقة والشباب •
  - (د) عـادات الزواج •
  - (هـ) عـادات الطـلاق •
  - (و) مركـز المـرأة •
  - (ز) عـادات وتقاليد أثنـاء الوفاة •
- عـادات وتقاليد خاصة بالمعتقدات الدينية •
- عـادات متصلة بالخرافات والسحر •
- الأزيـاء السـودانية •
- عـادتا الدلكة والشلوخ •

كان من الطبيعى بعد أن عرضنا للجماعات السكانية والقبلية التى التى شكلت المجتمع السودانى ، أن نعرض لعاداتهم وتقاليدهم حتى نستطيع أن نرسم صورة حقيقية أو قريبة منها ، للأوضاع الاجتماعية التى كان يحياها أبناء المجتمع السودانى فى القرن التاسع عشر ، فالحديث عن هذه العادات والتقاليد هو اقتراب من قلب هذا المجتمع فى محاولة لسماع نبضاته وتطوراتها عبر سنى هذا القرن وحتى عام ١٨٨١ .

وقبيل الخوض فى هذا الموضوع نود أن نشير الى أننا بصدد عادات وتقاليد متباينة من منطقة الى أخرى ومن جماعة الى جماعة . وبمعنى آخر فعادات الزواج فى شمالى السودان — على سبيل المثال — جد متباينة عن مثيلتها فى الجنوب ، وكذلك الحال فى شرقه وغربه . ذلك لأن السودان كما سبق أن أشرنا يعد أنموذجا مصغرا لقارة أفريقيا من حيث التنوع الشديد للمجموعات السكانية التى تعيش فى جنباته ، الأمر الذى كان طبيعيا أن تتنوع معه عادات أهل البلاد وتقاليدهم اللهم إلا ما كان يستمد خيوطه الرئيسية من الدين الاسلامى ، والعوامل الطبيعية التى تشترك فيها قطاعات كبيرة من سكان البلاد .

ولسوف تكون مسيرتنا داخل المجتمع من خلال عاداته وتقاليده بدءاً بالمكان الذى يقطنه الفرد ومرورا بمولده ثم نشأته وزواجه وألوان التسلية التى يمارسها ومعتقداته وانتهاءً بوفاته .

١ — المسكن :

هناك سمة عامة مشتركة لمنزل الفرد السودانى سواء كان فى البادية أم فى الريف أو الحضر وهى البساطة الشديدة والاتساق مع البيئة . واذا ما تناولنا نمط البيت البجاوى فيمكن أن نقول بأن حياة البداوة التى عاشها الرجل البجاوى اقتضت أن يكون هذا البيت أو المسكن خفيفا بحيث يسهل نقله وبناؤه فى زمن قصير . ويعتبر البيت « البديجاوى » Bidjau أو البرش المصنوع من الحصير هو السائد بين هذه

الجماعات (١) • وانشاء أو اقامة هذا المسكن وتقويضه يقع على كاهل المرأة فقط إذ يعد من غير اللائق أن يقوم الرجل به إلا اذا كان المسكن لرجل مريض أو ضيف حيث تقتضى العادة أن تحتجب المرأة عن الظهور • ويتألف هذا المسكن فى مجمله من الحصير أما السقف المصنوع من هذه المادة أيضا فيتألف من طبقة واحدة أو طبقتين : طبقة داخلية من الحصير الغليظ والسميك • ويحمل هذا المسكن أعواد منحنية فى الطرفين ، ولهذا المسكن فتحة أو باب يقع غالبا فى الجانب الشرقى • وقد تغطى جوانب المنزل بأكسية من الصوف الذى يؤخذ من الغنم أو من الشعر الذى توفره قطعان الماعز • ويتميز الأثاث الداخلى لمسكن الرجل البجاوى بالبساطة الشديدة ، فالفراش قوامه الحصير الدقيق ومن تحته الحصير الغليظ • ويحوى هذا المنزل أدوات القهوة ، وبعض القدور والأوعية المصنوعة من الجلد أو الخوص أو القرع لحفظ الماء واللبن (٢) •

وإذا ما تركنا مواطن البجة الى منطقة التقاء النيلين الأبيض والأزرق فسوف نشهد نشاطا فى بناء المساكن • فقد كانت هذه المبانى وخاصة التى كان يقطنها سكان الموضع الذى انشئت به الخرطوم عبارة عن « بيوت الشكاب والقطاطى والزرائب » (٣) ، فأمر خورشيد بازالتها وامداد الأهالى بالألواح والأخشاب •

وقد وصلت اعداد المنازل فى الخرطوم عام ١٨٥٠ الى حوالى ثلاثة آلاف بيت ، وكان يمكن الحصول من أسواق هذه المدينة على كثير من الكماليات الأوربية (٤) •

ويبدو أن بناء المساكن فى سائر أنحاء السودان لم يكن يخضع

---

(١) Clark, W.T.; Manners, Customs and beliefs of the Northern Bega. Vol. XXI, part I, 1938, p. 6.

(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله • ص ٤١ •

(٣) مخطوطه كاتب الشونة — تحقيق د • مكى شبيكة • ص ٢٨ — ٢٩ •

(٤) الان مورهيد : النيل الأزرق • ص ٢٥٦ •

لشروط معينة حتى عام ١٨٦٧ ، حيث نقرأ فى احدى الوثائق أن أى موقع يختار لبناء المساكن بعد هذا التاريخ ينبغى أن تتوفر فيه الشروط الآتية :

١ ــ أن يكون معتدل المناخ .

٢ ــ أن تتوفر فيه الميـــاه .

٣ ــ أن يكون موافقا للاستحكامات والقواعد الحربية (١) .

كذلك صـــدرت الأوامر فى نفس العـــام فيما يتعلق بمبانى مدينة الخرطوم حيث جـرى تجـــديد مبانيها ، والحكومية منهـــا على وجـــه الخصوص . وأما فيما يتعلق بمساكن الأهالى فقـــد طلب أن « تنشـــأ بطريقة تتفق وقواعد الصحة وفن الهندسة » (٢) .

وفى جهات ساحل البحر الأحمر السودانى بسواكن ومصوع جرت محاولة لانشـــاء مساكن على طراز حديث حين صـــدرت الأوامر فى عام ١٨٦٧ صريحة ومحذرة للمسئولين هناك بألا يأخذوا « .. أى ربح على ثمن الطـــوب والحجارة والجـــير والبلاط والخشب ... » بل يعطـــوه « ... للأهالى بثمنه الأساسى ترغيبا للناس فى البناء وتسهيلا لهم » (٣) وربما ندرك قيمة مثل هذه التسهيلات اذا علمنا أن المواد اللازمة للبناء كالحجارة والجير لم تكن متوفرة بمصوع ، بل كانت الحكومة تقوم بجلبها للأهالى (٤) . ويتبين من ذلك تماما ان المساكن التى كانت مقامة ســـواء فى الخرطوم أو فى سواكن ومصوع قبل عام ١٨٦٧ كانت متواضعة وغـــير

---

(١) دفتر رقم ٥٥٨ قســـم ثانى ، ص ٢٩ نمرة ١٠ ــ ترجمة الارادة الصادرة الى حكمدار السودان بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٢٨٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعـــة .

(٢) دفتر رقم ٥٥٨ ، ص ١٩ ترجمة الارادة رقم ٩ بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٢٨٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ٥٥٨ ، نفس الوثيقة السابقة .

(٤) محفظة رقم ٣٨ معية تركى ــ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٢ بتاريخ ٦ محرم سنة ١٢٨٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

صحية ، كما يبدو أيضا أن الاهتمام لم يكن قاصرا على المبانى الحكومية بل إمتد ليشمل مساكن الأهالى فى نفس الوقت ، حيث بدأ ممتاز باشـا منذ عام ١٨٦٩ بتشييد مساكن للأهالى فى سواكن ، بالاضافة الى اصلاح البعض الآخـر (١) .

وفى مدينة هرر كانت البيوت تبنى من الحجارة الصخرية المستخرجة من الجبال المجاورة لهذه المدينة ، وكانت تسقف بالخشب والبوص على نسق البيوت المصرية آنذاك ، إلا أنها كانت خلوا من النوافذ وكان بعض المسئولين المصريين يلومونوهم على ذلك ، إلا أنهـم اكتشفوا أن الأهالى مصيبون فى هذه الناحية نظرا لانخفاض درجة الحرارة عندهم الأمـر الذى لا تصبح فيه ضرورة قصوى لعمل مثل تلك النوافذ . وقد وردت احصائية فى عام ١٨٧٧ لعدد المنازل المقـامة بهرر فبلغت تسـعة آلاف وخمسمائة وستين منزلا ، وكانت المدينة مقسمة الى شوارع وحارات ، إلا أن هذه الحارات كانت غير منظمة ، وربما يعود ذلك الى أن أراضيها ـ هى الأخرى ـ كانت غير مستوية (٢) .

واذا اتجهنا نحو غربى السودان وخاصة فى جبال النوبا حيث نطالع تقرير أحمد أفندى حمدى الذى جاء فيه وصف لمساكن الأهالى هنـاك والتى كانت عبارة عن « .. تكولات مصنوعة بشكل الخيام من القش ... مستديرة الشـكل .. » (٣) ويبدو من هذا الوصف انها كانت بسـيطة جدا فى شكلها العام تتناسـب وظروف سكانها الذين يعتمدون بشـكل رئيسى على الزراعة ، لذا فاننا نلاحظ أن كثيرا من تلك المسـاكن بجوار المـزارع .

---

(١) Bloss, J.F.; The History of Suakin. S.N.R. vol. XX, 1937, Part II. P. 246.

(٢) جريدة اركان حرب ــ السنة الثالثة ، العدد رقم ٥ بتاريخ غـرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ . ص ٣٩١ ، ٣٩٤ .

(٣) جريدة أركان حرب ــ العدد رقم ٨ بتاريخ غرة جمادى أول سـنة ١٢٩٥ هـ . ص ٥٨١ .

وفى جنوب السودان وخاصة عند الدينكا تطالعنا « الوقائع المصرية » عام ١٨٧٦ م بوصف مسهب لمساكنهم التى كانت عبارة عن حجرات متفرقة بين المزارع ، غير مجتمعة فى مكان واحد • ومن الغريب أن أوسع الحجرات عندهم وأفضلها كانت للحيوانات حيث كانوا يؤثرون دوابهم على أنفسهم • وكانت هذه الحجرات التى يقطنونها تفرش بالطين المزوج بالتبن حتى يتحجر ، وأما الأسقف فمن الأخشاب الصلبة التى يعالجونها بالطين حتى تتماسك وتمنع تسرب المياه منها • ولا تبقى هذه المساكن أكثر من ثمانى سنوات أو عشر حيث تبلى ولا تصلح للسكنى (١) •

وعند الشلك يسمى المنزل بلغتهم جول (Gol) وهو أصغر الوحدات السكنية والملائمة للحياة الريفية ، ويتكون من كوخين أو ثلاثة يحيط بها سياج وبجواره قطعة أرض • ومن جملة هذه المنازل تتألف القرية أو الحلة • وتتوزع المنازل حول فضاء أو ساحة تتوسطها « زريبة » أشبه بكوخ كبير تأوى اليه مواشى القرية أثناء الأمطار (٢) • وهنا أيضا نلاحظ مرة ثانية مدى كلف الرجل الشلكاوى ، كما هو الحال عند الدنكاوى ، بالماشية •

ويبدو بصورة عامة مدى حرص الادارة المصرية فى السودان على توفير مياه الشرب للسكان فى بعض أنحاء البلاد ، فكما حرصت من قبل على توفير بعض مواد البناء لاقامة مساكنهم ــ بالاضافة الى ادراكها أن البيت الصحى مع المياه النقية مؤشر طيب نحو تقدم البلاد اجتماعيا والانتقال من مرحلة متخلفة الى مرحلة أرقى نسبيا ــ بدأت تعمل على ادخال المياه النقية الى تلك المساكن الحديثة التى نشأت فى كنفها • فقد لاحظ المسئولون بسواكن فى أوائل عام ١٨٦٦ امكانية توصيل المياه الى هذه البلدة بواسطة « البرابخ » من نبع ماء عذب على بعد أربع أو خمس

---

(١) الوقائع المصرية : العدد رقم ٦٦٢ بتاريخ ٢٦ جادى الأولى سنة ١٢٩٣ هـ (١٨ يونية ١٨٧٦ م) •

(٢) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية • ص ١٨٠ •

ســاعات منها ، وطلبوا من المهندس الموجــود أن يقوم مع زميل لــه بهذه المهمة (١) • وقد كان مشروع مياه الشرب هــذا يخدم ثلاثين ألف نفس بســواكن (٢) •

وفى شمالى السودان فى المناطق الكائنة بين كروسكو وأبو حمد تم توفير هذه المياه عن طريق حفر آبار تركب عليها طلمبات يدوية لأن فى ذلك ــ على حد قول أحد المسئولين ــ « •• رحمة كبيرة للناس •• » (٣) • هذا هو شكل وحالة المسكن الذى كان يعيش بداخله المواطن الســودانى فى القرن التاسع عشر ويبدو فيه التنوع الشــديد والاتساق الشــديد أيضــا مع البيئة المحيطة به ، بالاضــافة الى أن بعضها كان انعكاسا لمعتقداتهم السائدة بينهم • ، وأخيرا نلمح آثار ــ ولا نقــول بصمات ــ الادارة المصرية واضحة تماما عليها •

٢ ــ العادات المتعلقة بحياة الأسرة :

(أ) الميــلاد :

من المعروف أن كثرة الأطفال وخاصة الذكور منهــم فى المجتمعات البدائية تلعب دورا هاما فى حياة الأسرة ، ولذلك فاننا نجد حرصا شديدا على الاكثار منهم • فعند قبائل البجة توقد النار أربعين يوما أمام المنزل حين يولد طفل ، وقد تكون المدة أقل من ذلك أو ربما يكتفى أحيانا بايقاد مصباح أمام الدار ، ولعــل هذا الايقاد ــ كما يقول البعض ــ للائتناس

---

(١) دفتر رقم ٥٦٠ معية تركى ــ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤ ص ١٨ بتاريخ ١٥ شعبان ســنة ١٢٨٢ هـ • من المعية الى محافظ سواكن • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ١٩١٦ ــ اوامر كريمة ــ صورة الأمر الكريم رقــم ٣٨ ص ٥٦ • بتاريخ ٥ ربيع أول سنة ١١٨٣ هـ • أمر كريم الى افلاطون بك • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة رقم ١٨ ، دفتر رقم ٣ ، وثيقة بتاريخ ١٧ رمضان ســنة ١٢٨٢ هـ • من شــاهين باشــا كنج محافظ القــلاع وفريق العسكرية • دار الوثائق القومية بالقلعة •

أو كما يزعمون لطرد الجن عن الأم النفساء التى تكون عرضـة للأذى من هذه الكائنات طوال مدة النفاس (١) .

وعقب ولادة الطفل تخرج بعض النسوة ومعها المشيمة (الخلاص) والخرق الملوثة حتى تصل الى شجرة فتلقى فى وسط فروعها هذه الأشياء وفى خلال ذلك يقمن بترديد أغنية خاصة بهذه المناسبة ان كان المـولود ذكراً ، أما إن كان المولود انثى فيذهبن ويعدن صامتات ، وبهذا الأسلوب يصبح من السهل الإعلان عن نوع المولود دونما أى إعلان آخر ، وبعد ذلك يقوم الوالد بعمل وليمة للجميع . وعقب الولادة بأسـبوع يحتفل بتسمية الطفل حيث يؤتى بشاة وتذبح وفى خلال عملية الذبح ينطق باسم الطفل . وقد جرت العادة عندهم ألا يرى الأب طفله إلا بعد مرور ثلاثين يوما من مولده (٢) .

وامتلاك الأطفال لدى الدنكاوى مقدس . ويبـدو هذا الاهتمـام عندهم أثناء ولادة توأمين ، فعندها يجمع الوالد جميع أقاربه من الذكور بحضور أحد الكهنة ويمكن أن يشهد هذا الاحتفال أقارب الأم من الذكور . وتقام الصلوات لالهـم الأكبر (نهيالك) فيذبح عجـل ويمسح ببوله الأبوان والرضيعان ، وبعدها تتم تلاوة دعـاء معين للاله حيث يشكرونه على ما وهبهما ويطلبون منه أن يقبل الذبيح وأن يمنح الطفلين الحياة . وهذه الطقوس تبين لنا حرص الدنكاويين على الأطفال وتدينهم الشديد ، كما انها تبين أيضـا الفرق بينهـم وبين بعض النيليين الحاميين الذين يتخلصون من أحد التوأمين وذلك بقتل أحدهما ظنا منهم أن ذلك يمنح الحياة للطفل الآخـر (٣) .

والطفل الدنكاوى عادة لا يحمل اسما واحـدا طوال حياته ، بـل

(١) Clark; Op. Cit. p.7.

(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى .

(٣) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

تتعدد هذه الأسماء طبقا لمراحل عمره ، فمنها ما يحمله أثناء ولادته ، ومنها ما يختاره لنفسه حين يكبر وينتقل الى طبقة السن التى يتبعها . ومن الأمور العجيبة أنه قد يحمل فى احدى المراحل السنية « اسم ماشية » ، فكل طفل يبلغ سن الفتوة يكون له عجل خاص به ويطابق اسمه الجديد لاسم العجل ، وهذه العجول ليست كغيرها بل لها ميزة شكلية خاصة من حيث قرونها ، ومكانتها الممتازة بين أقرانها التى تجعلها تسير فى مقدمة القطيع (١) .

وأما عادة الولادة عند عرب السودان فتبدأ قبل مجىء الطفل حيث يولم الأب وليمة للأهل والخلان لنجاة العروس والجنين من الخطر بعد مضى سبعة أشهر ، ويسمون الولد فى الأسبوع الأول من ولادته ، وغالبا ما يختارون الأسماء الاسلامية مثل محمد وأحمد وعلى وبكر وعثمان وعمر ومصطفى وعبد الله . وللجعليين أسماء خاصة بهم مثل : الريح والزبير والعاقب ومدثر ومزمل ومساعد ، وكذلك فللشايقية أسماء خاصة مثل : طنبل وخشم الموس وعقود . وعند البقارة : حلة وبابلة وكنتوش وشطة وجماع . ولعبيدهم أسماء خاصة نحو : عبد الأسد وعجب سيده ومفتاح الخير وعبد الرجال وبخيت وهلال وألماظ وفيروز ، وللنساء تاج الملوك وبحر النيل ويمامه وبخيته وكعب الغزال . كما كان الأب والأم يكتنيا باسم ابنهما البكر أو بنتهما البكر (٢) .

(ب) عادة الختان :

وما أن يبلغ الطفل الحول الأول أو الثانى حتى تجرى له عملية ختان . وتتشابه هذه العملية عند البجة والنوبة والعرب ، وتجرى للأولاد والبنات على السواء ، ولا تختلف عند الأولاد عما يحدث فى مصر . أما ختان البنت فعملية قاسية . وقد وجد نوعان منها ، الأول

---

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ١٦٤ — ١٦٥ .
(٢) نعوم شقير : المرجع السابق . ج ١ . ص ٢٢٥ .

يسمى بالختان السنى الذى يشبه ما يحـدث فى مصر والثانى : الختان الفرعونى الذى يوشـك أن يكون عملية جراحية ، وتجرى فى الحـول السادس الى الثامن (١) .

والختان الفرعونى ينتشر بين القبائل العربية على طول النيـل من دنقلة الى سنار ، وأما الختان السنى فينتشر بين بادية أهـل الغرب . ولقد حاول حكمدار السودان عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ — ١٨٥١ م) أن يقضى على عادة الختان الفرعونية حيث قاص كثيرا من النساء اللائى كن يتولين أمرها إلا انه فشل فى القضاء عليها (٢) .

(ج) عادات الصبا والمراهقة والشباب :

وعندما يكبر الغلام عند قبائل البجة ويمكنه أن يرعى الغنم يعطى خنجرا واذا بلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة أعطى سيفا ودرقة . ويبدو أنه لا توجـد ثمة فوارق أو نظـام معين لتصنيف المجتمع حسب طبقات السن لدى هذه القبائل البجاوية عند بلوغهم مرحلة المراهقة كما هو الحـال عند بعض القبائل الجنوبية .

ومن عادة الأطفال عند الدنكا أن يتبعوا الشباب أثناء رعى الماشية للتدريب على هذه الحرفة ، كما يتم تعليمهم تدريجيا ، فيبدأون بجمـع فضلات الماشية للوقود ، فاذا كبروا قليلا تعلموا كيف يحلبون البقر ، وفى نحو التاسعة من عمرهم يذهبون بمصاحبة أبيهم الى النهر أو بركة ماء للتدريب على صيد الأسماك ، وبعد بضعة أعوام أخـرى يتعلمون أو يشاركون فى صيد فرس النهر . وأما البنات فيتعلمن من أمهاتهن أعمال الزراعة ، ولا يختلط بهن أثناء تلك الأعمـال إلا الأحداث من الأولاد والبنـات .

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى . ص ٤٣ .
(٢) نعوم شقير : المرجع السابق . الجزء الأول . ص ٢٢٦ .

وفى نحو العاشرة تخلع قواطع الطفل السفلى ، وهى مظهر لتنشئة الصبى وانتقاله الى مرحلة الفتوة • وللدلالة على بلوغ مرحلة الفتوة عند شباب الدنكا تجرى له عملية « وشم » فى الجبهة عبارة عن سطرين أو ثلاثة من الندوب ، ويتم عملها بواسطة الرمح ولا يسمح لها أن تلتئم بسرعة حتى يظل أثرها على الجبهة واضحا • ويصحب هذه العملية امتحان خاص للشباب المراد تنشئته فى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة الى منطقة المستنقعات حيث يعيشون نحو شهر فى العراء أو فى حفر يحفرونها ولا يزود هؤلاء الشباب بالقوت أبدا ، بل يتركون ليحصل كل منهم على قوته بنفسه متكبدا المشاق ، مذللا الصعوبات التى تصادفه بنفسه ، وما أن ينقضى الشهر حتى يعودون الى القرية لتحلق رؤوسهم ، وتنهال على كل واحد منهم التبرعات من آبائهم من ثيران وزوارق ورماح وحراب للصيد وغيرها • وأثناء عودتهم الى القرية يختار هؤلاء الشباب واحدا منهم لقيادتهم ويقوم والد هذا الشاب المختار باحياء حفلة عودتهم للقرية ، وبعدها ينتقلون من قرية الى أخرى فى طابور وراء قائدهم ويمكنهم من الآن فصاعدا محادثة الفتيات وتدريجيا يسمح لهم بالاشتراك فى بعض المعارك • وبهذا يدخل الأولاد أولى مراتب السن التى تختلف مراتبها من مكان لآخر وهى فى الغالب حوالى ست :

١ ــ من ١٥ ــ ٢٠

٢ ــ من ٢١ ــ ٢٦ •

٣ ــ ثم الى الثانية والثلاثين •

٤ ــ ثم الى الأربعين •

٥ ــ ثم الى السابعة والأربعين •

٦ ــ ثم الى ما يتجاوز تلك السن ويدخل فى مرحلة الكهولة والشيخوخة •

ويقتصر الاشتراك في المعارك على المراتب الثلاث الأولى (١) .

وربما لا نتجاوز الصواب ان قلنا أن هناك لونا من التشابه في تنشئة الشباب الدنكاوى بما كان يحدث عند شباب اسبرطة ببلاد اليونان قديما حيث كان يربى الفتى هناك على الحياة القاسية الأمر الذى يخلق منه رجلا شديد المراس في القتال وفي أمور الحياة .

ومن العادات المنتشرة بين الشباب الشيلكاوى عدم السماح له بالجلوس في اجتماع الرجال المسائى في ساحة القرية ، كما أنه لا يسمح له أيضا بالاشتراك في القتال أو الزواج إلا بعد الاشتراك في رقصة خاصة تعتبر بمثابة اختبار للشبان لاجتياز مرحلة الطفولة والدخول في زمرة الرجال . ويختلط الشباب المراهقون مع الفتيات في خلال هذه الرقصة متبعين نظاما دقيقا في أدائها (٢) .

ومن العادات المنتشرة بين قبائل عرب السودان والمرتبطة أساسا بالفتوة والشباب عادة « البطان » فاذا تنافر شابان لأى سبب من الأسباب طلب أحدهما الآخر للبطان فان رفض عد جبانا وامتنعت البنات عن الزواج منه ، واذا قبل أخذ كل منهما سوطاً ووقفا تجاه بعضهما يفصلهما سرير (عنقريب) وخلع كل واحد منها ثوبه وتجرد من ملابسه حتى وسطه ، ومن حولهما الناس للشهادة . ويبدأ أحدهما بجلد الآخر سوطا على ظهره ثم ينتظر حتى يجلده زميله سوطا وهكذا يتبادلان الضرب بالسياط ولا يتحركان بل لا يحركان كتفا أو حتى جفنا الى أن يقع أحدهما من شدة الضرب فيحمل الى بيته ويزوره مصارعه ويصالحه ، وهذه العادة كانت تنتشر بين العامة ولا يشارك فيها الخاصة . وأما أسبابها فهى النساء ، فاذا أحب شاب فتاة وزاحمه آخر طلبه

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ١٦٦ .

(٢) مصطفى فهمى وآخر : دراسات اجتماعية ، نفسية تربوية ص ٨٩ .

« للبطان » وفاز بها الغالب ، وأحيانا أخرى يكون « البطان » لمجرد المباهاه واظهار القوة . وقد يشترك فيه أكثر من اثنين من الشباب ويكون على ايقاع « الدلوكه » ، فمن أراد البطان يمسك سوطه ويهزه فوق النساء اللائى يضربن « الدلوكه » قائلا « ابشرن بالخير أنا أخو البنات عشرة » ويصطف الجميع صفا واحدا ثم يبرز أحدهم فيضرب كل من فى الصف سوطا ويلقى السوط ويعود الى الصف ويأتى شاب آخر ويأخذ السوط ويفعل فعل الأول وهكذا حتى يأخذ كل واحد منهم نصيبه ضاربا ومضروبا . وقد تعجب احدى الفتيات بشاب من الحضور فتنتزع سوارا من معصمها وتلبسه اياه فيأخذ الشاب سوطه ويهزه فوق رأسها قائلا : « ابشرى بالخير أنا أخو البنات عشرة » وأن وجد له منافس من الحضور فى حب الفتاة قام له وتبارزا الى أن يكل أحدهما من الألم أو يهتز كتفه فيفوز الآخر بقلب الفتاة (١) .

عادات الزواج :

(أ) عند البجة :

تكاد تتشابه عادات الزواج فى أمورها الرئيسية عند البجة والقبائل العربية ، فأبناء العمومة أو الخؤولة مفضلون دائما ، ولا يعطى الرجل ابنته لزوج غريب إلا بعد استئذان أقاربها ممن يصلوا للزواج ، ويحدد الصداق وفقا للعرف السائد .

وتبدأ الخطوبة عند البجة بتقديم الخطيب هدية من البن والسكر أو بعض الماعز ، وهذه الهدية ترد اليه ان رفض طلبه ، وعند الموافقة يقدم الصداق الذى يقضى به العرف . وتهدى للزوج والزوجة ناقة عشراء فى مستهل حياته الزوجية . ومن العادات التى تعبر عن التكافل الاجتماعى لدى البجة أثناء الزواج قيام نسوة الحى ببناء

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦ .

منزل الزوجية الجديد ، ومن العادات المرتبطة بهذا البناء وجود طبق بجوارهن وبه كمية من التمر ، تقدم لكل رجل يمر بهن فاذا تناول بعضا منه اضطر لأن يقدم هدية ، وتجمع الهدايا التى تحصل بهذه الوسيلة وينتفع بها فى عمل وليمة العرس • ومعظم رجال الحى يعرفون هذه العادة فيحذرون من الاقتراب من المكان الذى يشاد فيه بيت الزوجية الجديد (١) !

(ب) عند القبائل العربية :

ومن الأمور المشهورة عندهم فى الزواج صغر سن المتزوجين سواء من الذكور أو الاناث • ولابد للخاطب أولا أن يرى خطيبته ولو بالحيلة ، فاذا أعجبته عمل على استرضاء أهلها وخصوصا والدتها التى تلعب الدور الرئيسى فى قبول الخاطب ورفضه • وتشير احدى الوثائق فى عام ١٨٦٧ بأن شخصا أراد الزواج باحدى الفتيات وبعث الى والدتها برسول لطلب يدها ولكن الأم رفضت ذلك متعللة بغياب زوجها الأمر الذى دعا الخاطب الى أن يسارع الى بيت من أراد خطبتها لقتلها بسبب رفض الأم قبوله خطيبا (٢) •

وكانت المهور فى السودان ابان القرن التاسع عشر مرتفعة جدا لدرجة أنها بلغت أحيانا خمسمائة ريال وعشر أبقار وعشرة جمال وأربعين رأسا من الغنم • وهذه المسألة دعت بعض الحكمداريين الى التدخل فورا لوضع حد لهذه المسألة فنادى أحمد باشا أبو ودان وغيره بتخفيض المهور والحض على الزواج سعيا وراء زيادة عدد السكان فى البلاد وبالفعل أتت هذه الدعوة ثمارها ، وأصبحت المهور ما بين خمسة وسبعين قرشا ومائة وخمسين قرشا (٣) •

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى . ص ٤٦ .

(٢) دفتر رقم ١٩٢٣ — أوامر عربى — صورة الأمر الكريم رقم ٩ ص ٦٧ بتاريخ ٥ محرم سنة ١٢٨٤ هـ . أمر كريم الى حكمدارية السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) أحمد أحمد سيد أحمد : رفاعة الطهطاوى . ص ١٢٩ .

وتجـدر الاشارة الى أن القبائل العربية السودانية تحترم النسب جدا وتنزله المنزلة الأولى فى زواج بناتهم ، فهم يفضلون زوجا ذا نسب لا يملك شيئا ، ولا يزوجون رجلا ثريا لا نسب له ، ويتضح ذلك بجلاء اذا حل بأرضهم رجل ذو نسب يرجع الى النبى (ﷺ) أو الصحابة زوجوه بناتهم بلا مهر • وهم أيضا يجلون رجال العـلم ويزوجونهم بلا مهـر أيضـا (١) •

وعند الاتفاق على المهر يكتبون وثيقة الزواج ويعينون موعدا لحفل الزفاف وقبل حلول هذا الموعـد بأسبوع يعـد العريس الذبائح وشيئا من الذرة والروائح العطرية والأكسية للعروس وماشطتها « ووزيرتيها » وأقاربها ، وتحمل هذه الأشياء فى أطباق مغطاه الى بيت العروس مصحوبة بالطبـول والزغاريد •

وأما استعداد أهل العروس فيتمثل فى عزل العروسة بمكان منفرد حيث تسلم للماشطة لتمشط شـعرها وتطيبه وتلبسها أفخـر الثياب • وأما العريس أيضا فيلبس أفخر الثياب الجديدة المعدة لهذه المناسبة • وفى الليلة المعينة للدخـول يجتمع أهـل العريس وأصـدقاؤه وأهـله بمنزله ويزف على فرس الى بيت العروس مصحوبا بالطبول والرقص • وهناك تفاصيل كثيرة حول هذه المناسبة يحرص السودانيون عليها تمـاما فللعروس « وزيـران » أيضا ، كما أن العريس يقيم بمنزل العـروس مدة تطول أو تقصر حتى تنجب له (٢) •

(جـ) عند النوبيـين :

وللنوبيين عادات فى الزواج تتفق مع ما سـبق ذكره فى الخطـوط الرئيسية وتختلف فى التفاصيل ، فعندهم اذا وصـل العريس الى بيت

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق • ص ٢١٣ •
(٢) نفس المرجع ص ٢٢٤ •

العروس تقـام وليمة ويعقد القران ، ثم يأتـون بالعريس الى غرفة العروس فيجد الباب موصداً وأمامه رجل يمنعه الدخـول حتى يعطيه شيئا من المال وعند الدخـول مع رفاقه ترشهم أمرأة من أهل العروسـة بالمـاء ويصلى العريس ركعتين ثم يتقـدم الى العروس ملامسا جبهتها بيده ثم يقبل يده ويجلس بجوارها نحو ربع ساعة ، ثم تؤخـذ العروس الى غرفة أخرى ويبيت العروس بمفرده حتى الفجر ، ثم ينزل الى النيل مبكرا ويعود ومعه غصن أخضر ويدخل الى غرفة العروس ويضربها به ويعود الى غرفته حيث يجتمع مع بعض أقاربه • وبعد سبعة أيام على هذا الحال يؤتى بالعروس رسميا الى غرفة العريس • وتختلف قليلا بعض هذه التفاصيل فى هذه المناسبة من مكان لآخر فى بلاد النوبة • وعمـوما يبقى العريس فى منزل عروسته شهرا أو أكثر حسب الاتفاق ثم يذهب بعد ذلك معهـا الى منزله • ولا تنطـق الزوجة باسم زوجهـا الى أن تمـوت (١) •

وفى جهات بربره وهرر حدث نوع من التزاوج بين المصريين وسكان تلك الجهات ، وكان معظمهم من الضباط والجنود (٢) • ويرجع السبب فى ذلك الى حسن المعاملة التى كان يلقاها الأهـالى من هؤلاء الجنـود والضباط ، والتحـول الخطـير الـذى بدأ فى أوضاعهم الاقتصـادية والاجتماعية منذ أن امتدت الادارة المصرية الى تلك الجهات فأنس هؤلاء الأهالى اليهم ووجدوا ان الاصهار اليهم فيـه مكانة اجتماعية رفيعـة لهم خاصة وأن الجميع يدينون بالاسلام •

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق • ص ١٩٧ •

(٢) أنظر : الوثائق الافريقية ـ محفظة رقـم ١٠٣ وثيقـة بتاريخ ٣ ذى القعدة ١٢٩٣ هـ •

أنظر أيضا : محافظ بربره ـ قيد الاشهادات ـ محفظة رقـم ٣٨١٥ (قـديم) ١٢٠ (مؤقت) ـ الفترة من « ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هـ ـ ٢ صفر سنة ١٢٩٨ هـ » • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(د) عند أهل دارفــور :

كان من الأمور المعتــادة فى دارفور خــلال القرن التاسع عشر ان الشبان إناثا وذكرانا ينشئون جميعا فى صغرهم فيقومون برعى الأغنام ومن ثم يجتمعون معا ولا حجاب بينهم الأمر الذى يؤدى الى حــدوث شىء من المــودة بين الفتى والفتاة ، حتى يبعث بأبيه أو أمه أو أحــد أقاربه لخطبتها فاذا تمت الموافقة حضر الناس والشهود لاتمام العقــد ووضع الشروط الكثيرة التى تتضمن أموالا باهظة تذهب كلها الى بيت العروسة ، بينما لا يعقدون لها إلا على شىء رمزى من هذه الأموال . وبعد اتمام العقد يتركون الأمر لفترة طويلة جدا حتى يتشاوروا ويتفقوا على تحديد ميقات معلوم لاتمام الزفاف .

ويتوافد الناس من كل جهة أفواجا وتجرى لكل فوج مقابلة خاصة بالطبول ثم تقدم لهم الأطعمة والمشروبات كل حسب مقامه وتجــرى بعد ذلك بعض الرقصات المتنوعة يشترك فيهــا الرجال والنساء . فهنــاك رقصة « الدلوكة » حيث ترقص النســاء الجميلات من بنات الأكابر . وهناك رقصة « الجبل » لأواسط النساء وأمثالهن من الشبان وهناك أيضا رقصة « اللنقى » لمن دونهن . وحتى العبيد لهم رقصات خاصة بهم (١) .

هكذا يبدو التمايز الاجتماعى واضحا بين القــوم خــلال حفلات الزواج ، ولا يمكننا أن ننفى تمــاما حدوث مثل هــذا فى مجتمع كانت تنتشر فيه تجارة الرقيق ويتنوع سكانه تنوعا شــديدا ، كما أننا فى نفس الوقت لا نستبعد المبالغة النسبية فى وصف مثل هذه الحفلات ، فمن الطبيعى أن يختلف أسلوب المقــابلة من شخص لآخــر ، كمــا انه من الطبيعى أيضا أثناء الرقصــات أن يميل كل شخص الى من يجــد فيه صفات مماثلة لصفاته . وهذه الأمور لازالت حتى الآن وان كانت تأخــذ شكلا آخــر .

---

(١) محمد بن عمر التونسى : المرجع السابق : ص . ٢٢٩ — ٢٣٤ .

وعقب هــذا الحفــل الذى يتخــلله الأكل والشرب تزف العروس بالدلوكة ويطوفون بها حــول البلد ثم يأتون بهــا الى بيت الزوجية • وكذلك الحال بالنسبة للعريس الذى يزف من جانب رفاقه الشبان حتى يأتون به الى المنزل الذى وصلته العروس من قبل • ويوجد فى عــادة الزواج عند الفور ما يسمى أيضا بالوزير بالنسبة للعريس و « الميرم » بالنسبة للعروس وهى تقابل كلمة الوزير •

وهناك تفاصيل كثيرة لطقوس الزواج عندهم ، إلا أن أهم ما يجب الاشارة اليه فى مسألة الزواج أن أهل الزوجة محترمون بصورة كبيرة لدى العريس فأمها كأمه وأبوها كأبيه واخواتها كاخوته [١] •

ويبدو التكافل الاجتماعى واضحا فى عادات الزواج عندهم ، فكل جماعة من الجماعات المدعــوة لهذا الحفــل تأتى اما ببقرتين أو ثورين أو بشياه اعــانة لصاحب الوليمة [٢] ومن عاداتهم أن العريس لا يفتض عروسه إلا بعــد سبعة أيام كرامة لها ولأبويها • كــذلك فقد رسخت لديهم عادة أن الرجل لا ينفق على زوجته بعد الزفاف إلا بعــد مرور سنة ، فان جاء بشىء قبل السنة فهو فهو على سبيل الهدية [٣] •

وعلى وجه العموم فسكان دارفور يفضلون الزواج الباكر كســائر السودانيين ويمكن أن تصل زوجاتهم الى أربع نساء • ومن عادة بعض القبائل فى الأطراف بغرب دارفور « كالقمر » و « المساليط » الذين لم يدخلوا الاسلام أن يلتقى أبناؤهم وبناتهم فى الخلاء أثناء رعى مواشيهم ويقيمون قرى صغيرة ويعيشون فيها عيشة الأزواج ما يقرب من ســنة حتى اذا حملت منه زوجته كتبوا عليها وإلا فصلوها عنه [٤] •

---

(١) التونسى : المصدر السابق • ص ٢٣٤ •
(٢) نفس المصدر ص ٢٤١ •
(٣) نفس المصدر ص ٢٤١ •
(٤) نعوم شقير : المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ١٩٤ •

(هـ) الزواج عنــد الجنوبيين :

أول ما يلفت انتباهنا فى عــادات الزواج لدى الدنكا أن الرجــل لا يسمح له أن يلتمس زوجته فى العشيرة المنتمى اليهــا ، ولا يجــوز له أيضا أن يقترن من امرأة تمت بصلة القرابة الى والدته فهــذا الزواج فى تقديرهم من المحرمات بل من الكبائر التى تجلب غضب أرواح السلف (جـــوك Jok) والتى ينتج عنها موت الأطفال أو عقم الزوجــات بالاضافة الى الوبال والدمار ، وبطبيعة الحال فان مثل هــذه المخــاوف لا يمكن أن تحدث وهذا يرجع الى تمسك هذه الجماعات البدائية بالعادات والأعراف المقدسة التى لا يمكن أن يحيد عنها أحــد • ولو فرض وحدث خروج عن تلك العــادة فالعرف يقضى على الرجــل أن يقدم فدية من أربعة رؤوس من الماشــية ويمسح جســد الآثمــين ببعض الســوائل المستخرجة من بطن الذبيحة (١) •

ولا نريد أن نسارع لنقول إن العلم الحديث قد توصل أخيرا الى ما عرفته جماعة الدنكا من خطورة الزواج بالأقارب والذى تنتج عنــه ذرارى ضعيفة من كل النواحى ، ، ولكن تفسير هذه الظاهرة لا يعــدو أن يكون مجرد عادة تناقلها الخلف عن السلف وأصبحت جزءا من تكوينهم الدينى حافظوا عليها على مر الأيام •

ومن العادات التى تسبق الخطوبة عندهم أن يذهب العريس بنفسه بصحبة جماعة الى بيت العروس ويلتمسون بعض التبغ ليدخنوه ، فتذهب العروس وتطلب هذا التبغ من أبيها فان أعطاها اياه فهذا علامة الرضــا ثم يأتى دور الأبوين للاتفاق على المهر الذى يختلف من قبيلة الى أخرى ، فالقبيلة الثرية بماشيتها قد يصــل المهر عندها الى خمسين رأســا من الماشية معظمها من البقر ، بالاضافة الى بعض الغنم والماعز ، وعند سكان

---

(١) محمد عوض محمد : الشــعوب والسلالات الافريقية ص ١٦٠ — ١٦١ •

المستنقعات لا يزيد المهر على خمسة رؤوس من الماشية حيث المراعى محدودة عندهم ، وقد يقدم الخطيب زوجا من الأسنة التى تستخدم فى صيد فرس البحر ، وبعضا من السمك ودهان فرس البحر • وفى بعض الحالات يجوز تأخير دفع جزء من المهر ولا يكون سببا لتأخير الزواج • وعند جماعة « الحدادين » يتألف المهر فى معظمه من أقراص الحديد • ولا يحتفظ والد العروس بالمهر بل يوزعه على أقارب الفتاة من الذكور ويستبقى منه فقط بقرة أو بقرتين ، وقد يدهش البعض لذلك ولكن قد تزول الدهشة إذاً علمنا أن هؤلاء الأقارب يتعاونون فى دفع مهر الشاب عند زواجه ، فلذا كان من الضرورى أن يتقاسموا مهر الفتاة • لذلك فقد كان رد المهر عملا شاقا الأمر الذى ترتب عليه ندرة شديدة فى حالات الطلاق عند الدنكا • وفى ليلة الزفاف يذبح ثور وتقام حفلة رقص يشهدها شباب القرية ولا يشارك فيها العريس ، أما العروس فتشارك فيها وفى نهايتها تزف الى عريسها (١) •

ومن عادات الزواج الغريبة عند الدنكا أنه اذا توفى شاب دون أن يتزوج فلابد لأخيه أن يتزوج بالانابة عنه ، قبل أن يتخذ لنفسه زوجة ، فالزواج عندهم أمر لا يحرم منه المرء حيا أو ميتا ، وهذه الزوجة فى عرف المجتمع زوجة الأخ المتوفى وأولادها أولاده ، وقد تفسر هذه العادة بما عرف عند الدنكا بتمجيد أرواح السلف (Jok) وتقديسهم إذ لابد للرجل — عندهم — أن يكون له نسل يمجدوا روحه حتى لا تظل الروح — فى اعتقادهم — ثائرة وناقمة عليهم (٢) •

ولا تختلف عادات الزواج كثيرا عند الشلك فى جنوب السودان عن جماعة الدنكا ، فالزواج عندهم يرتبط بعملية « شراء الفتاة من أبويها » • وعادة ما يذهب والد العريس الى والد العروس ليسأله عن عدد الثيران

---

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق • ص ١٦٣ — ١٦٤ •
(٢) نفس المرجع • ص ١٦٣ — ١٦٤ •

والأغنام التى يرتضيها فى عملية مبادلة ابنته واذا ما اتفقــا على الثمن يحضر العريس الثيران (١) •

ولابد للعروس أن تخبر زوجها ان كانت عذراء ، واذا حدث أن زنا بها أحد ، فانها تأتى فى اليوم التالى لزواجهــا وقد وضعت على رأسها كتلة من الأعشاب ، ثم تركع أمام زوجهــا معترفة له بذنبها ، فيأخــذها الى الزعيم لمعرفة الزانى ومحاكمته طبقا لوسائله التى تقضى غالبا بأن تدفع الآثمة عددا معينا من الثيران (٢) •

وقد عرف الشلك نظام تعدد الزوجات ، طالما أن الرجل قادر على متطلبات الزواج من البقر المطلوب ، وليس لديهم تقيد بعــدد معين من الزوجات ، ولا تعترض الزوجة على هذا الأمر • ففى اعتقادهم أنه كلما كثرت زوجات الرجل فان ذلك يساعد على أن تكون له أسرة كبيرة يعاون بعضها بعضــا (٣) •

ولا تختلف مراســم الزواج عند قبــائل البارى كثــيرا عن الدنكا والشلك إذ يتألف المهر عندهم من الماشية أيضا ، ولكن ثمة أشياء عندهم فى هــذه الناحية نود أن نشــير اليهــا ، فرجــال البارى العــاديون لا يتزوجون إلا بأمرأة واحدة بعكس ثراتهم الذين يتزوجون بأكثر من واحدة • وعندهم أن الفتاة أفضل من الفتى ، لأن البنت عند زواجهــا تجلب لأهلهــا مغنما كثيرا من الماشية ، أما الولد فعلى العكس من ذلك تماما ، فزواجه يكون مدعاة لنقص ثروتهم من الأبقار والثيران (٤) •

وفى ختام حديثنا عن مسألة الزواج فى الســودان نود أن نشــير

---

(١) Gessi; Op. Cit. pp. 32 - 33.

(٢) Ibid. p. 33.

(٣) مصطفى فهمى وآخر : دراسات اجتماعية • ص ٧٣ •

(٤) عمر طوســون : تاريخ مديرية خط الاســتواء ، الجــزء الثــانى ص ٥٦ •

الى ظاهرة جديدة أوجدتها الادارة المصرية فى تلك البلاد ، وخاصة فى شرقى السودان وجنوب ساحل البحر الأحمر ونعنى بها قيد الاشهارات الزواجية ، وايداع صورة من كل وثيقة زواج بالمحكمة التابع لها الفرد (١) •

الطلاق :

من الأمور التى تقترن عادة بالزواج مسألة الطلاق • وينبغى أن نشير الى ملاحظة عامة تتعلق بالطلاق فى المجتمع السودانى ، وهى قلة أو ندرة حدوث حالات طلاق بين سكانه ، ومرد ذلك — فى تقديرنا — الى أن معظم الزيجات التى تتم تكون من داخل القبيلة الواحدة التى تجمع بينها أواصر القربى والجوار ، بالاضافة الى « الاصهارات المتبادلة » — ان جاز هذا التعبير — فيما بين أبناء القبيلة ، والتى يستحيل فيها الطلاق ، فلو فرض أن طلق زوج زوجته ، ففى الحال سوف تلقى أخته نفس المصير • ويمكن أن نضيف سببا أخيرا لندرة حالات الطلاق وهو شدة تمسك هذا المجتمع بتعاليم الاسلام وفهمهم إياه فهما صحيحا ، فعلى الرغم من « ترخيصه » للطلاق بشروط ، فهو يعتبر أبغض الحلال عند الله •

ومع ذلك كله فقد تتعذر الحياة بين الزوجين ، ويعالج البجاه هذه الحالة طبقا للعرف السائد بينهم حيث عرفوا عادة خاصة تسمى « التعليق » أى يطلق زوجته بشرط يفرض عليها ، ولا يجوز لها أن تتزوج برجل آخر حتى تستوفى هذا الشرط ، فان لم تستطع الوفاء تظل معلقة ،

---

(١) محافظ بربره « عربى » — قيد الاشهارات بمحافظة بربره • دفتر رقم ٣٨١٥ (قديم) ١٢٠ (مؤقت) — ص ١ « ١٢ ربيع أول سنة ١٢٩٣ هـ — ٢ صفر ١٢٩٨ هـ » دار الوثائق القومية بالقلعة •

ومن أمثلة الشروط عدم الزواج من رجل يشك فى أنه عشيقها وأنه كان سببا فى فساد الزيجة الأولى (١) •

ويجوز الطلاق عند سكان الجنوب والنيليين بوجه عام ، ويرجــع سبب الطلاق عند الدنكا الى العقم ، فاذا مضت سنتان أو ثلاث ، ولم تنجب الزوجة جاز الطلاق ، وهنا ينبغى أن ترد الى الزوج الماشــية التى قدمها مهرا لها بالاضــافة الى « العجــول » التى أنجبتها فى تلك الفترة • وأحيانا ان كان الزوج فى سعة من العيش احتفظ بزوجته الأولى وتزوج بأخرى ، فتعدد الزوجات ـ كما ذكرنا ـ ليس ممنوعا عنــدهم وان كان نادرا لعدم استطاعة الكثيرين امتلاك أعداد وفيرة من الماشية • وفكرة الطلاق عند الدنكا واردة عندهم منذ بداية الزواج ، والدليل على ذلك ان الزوجة تبقى فى منزل أبيها حتى تنجب أطفالا ويثبت لزوجها بصورة لا تدعو للشك مقدرتها على الانجاب • والطلاق عند الدنكاليس من حق الزوج فقط ولكن يجوز أن يكون من جانب الزوجة أيضــا ، حيث تمتنع عن معاشرة زوجها أو تترك منزله عائدة الى أبيها ، وفى كلا الحالين يرد المهر للزوج • كما يحدث الطلاق أيضــا اذا هربت الزوجة الى رجــل آخــر (٢) •

وفى عام ١٨٧٣ وردت الى « مجلس الاحكام » بمصر شكوى من السودان تتعلق بطلب بعض النســوة للطلاق من أزواجهن الذين تركوا السودان منذ سبع سنوات وعشر سنوات ، ولما كان يخشى عليهن من « الأمور غير المرضية » ، وعدم استطاعتهن الانفاق فقد طلبن الطــلاق والفتوى شرعيا فى هذا الأمر حيث ان مذهب المالكية يقر بجواز هــذا الطــلاق (٣) • وهكذا يتبين لنا من هذه الشكوى أن هذا الطــلاق كان

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى . ص ٤٧ .

(٢) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات . ص ١٦٣ .

(٣) دفتر رقم ١٨٦٠ معية عربى ـ صورة المكاتبة رقم ٨ الصادرة من المعية السنية الى مجلس الأحكام بتاريخ ٧ جمادى الثانية سنة ١٢٩٠ هـ ـ ص ٨٥ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

ضروريا حتى لا تشـيع الفاحشـة فى المجتمع ، وحتى يمكن لمثل هؤلاء النسوة أن يجدن من ينفق عليهن ، خصوصا وأنه قد مضت على غيـاب أزواجهن سنوات طويلة ، وربما يكون فى مثل هذه الحالة رد على أولئك الذين يرمون المجتمعات الاسلامية ـ من خلال مسألة الطلاق ـ بالتأخر فأيهما أفضل أن تترك هذه النسـاء طوال حياتهن يعشن على أمل عـودة أزواجهن أم يجدن حلا كريما يصون عفتهن ويحفظ للمجتمع تماسكه ، وهو ما فعله الاسـلام حيال هذه القضية ؟ كما يتبين لنا كذلك من خـلال هذه الوثيقـة ان الادارة المصرية كان لديهـا الاتجـاه الى رعاية أبنائهـا السودانيين وتماسكهم الاجتماعى رغم ما يشـاع لدى كثير من الدارسين ان الحكم المصرى فى السودان كان هدفه الرئيسى استغلال السـودان اقتصاديا وحسب •

مركـز المـرأة :

وما دمنا قد تحدثنا عن مسألتى الزواج والطلاق فينبغى أن نشير الى مركز المرأة فى المجتمع السودانى • والمرأة فى المجتمع البجاوى تلعب دورا هاما فهى التى تقوم بعمل المسكن وتقويضه كما سبق أن ذكرنا ، كما أنها تقوم ببعض الصناعات كنسج الشملات من صوف الغنم أو وبر الابل ، وفى موسم الأمطار فى الخريف تقوم بصنع السمن من الألبـان المتوفرة فى هذا الوقت من السـنة • وقد كان للمرأة فيما مضى فى الميراث مكانة واضحة إذ كان الولد يرث خاله وهذه العـادة كانت منتشرة بين كثير من القبـائل الحامية • وقد غير الاسـلام هذه العـادة عند البجاه فأصبح الأبناء يرثون آباءهم ، وقد صحب هذا التحـول حرمان النساء من الميراث تماما لأن المرأة ـ فى نظرهم ـ اذا ورثت انتقل ما تحصـل عليه من الإرث الى قبيلة أخرى • وهذه العادة تنقص من حقوق المرأة

عند البجة ، وقد ظهرت لـدى الأمرار دعوة تنادى بأن هذا الاجـراء مخالف للشريعة (١) •

ومع ذلك كله فتجدر الاشارة الى أن الزوج البجاوى يكن لحمـاه وحماته احتراما شديدا لدرجة أنه لا يستطيع أن يجلس فى حضرة الحم أو الحمـاة (٢) •

وأما نسوة القبائل العربية على وجه العموم فمر فهات ومدللات الى حد كبير ، فقلما تقوم المرأة عندهم بأعمال المنزل المعتـادة فى بيتها من طحن وخبز وطبخ وغسل ، فكل هذا منوط بالجوارى ، وخصوصا مسألة الغسل فانه من أكبر المصائب على المرأة أن تضطر الى غسل ثياب زوجها • ويبدو أن عزوف المرأة عند هذه القبائل عن أداء مثل هذه الأعمـال يعود الى كثرة الجـوارى فى ذلك الوقت وسـهولة تداولهـم بحيث ان خلو أى منزل منهم للقيـام بهذه الأعمال يعد من الأمور المعيبة فى المجتمع السودانى آنذاك خاصة وأن هذه الأعمال قد ارتبطت الى حد كبير بهؤلاء العبيد ، بالاضافة الى شعور المرأة فى هذه القبـائل العربية بأنهـا من سلالة أرقى الأمر الذى يتطلب أن يقوم آخـرون بخدمتها فى بيتها وأن دورها الأساسى ينحصر فى عملية التربية فقط • وقد وصـل تدليل المرأة عندهم الى حد أنه اذا دخـل زوجها المنزل وكانت جالسة أو مضطجعة فانها لا تتحرك من مكانها ، وإذ طلب حاجة أمر بهـا الخدم أو قضـاها بنفســه (٣) •

وليس معنى ذلك الانتقاص من مكانة الرجل بل هو شىء من الدلال والاحترام لهذه المرأة ولعل هذه الأمور أقرب الى ما نشاهده فى سلوك المجتمعات الأوربية المعاصرة التى تدعو الى تقديم المرأة على الرجل فى

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى • ص ٤٥ •
(٢) نفس المرجع • ص ٤٧ •
(٣) نعوم شقير : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ •

الحفلات والمناسبات ، وتحتم أن ينهض الرجل واقفاً اذا صافح امـرأة ولا تنهض المرأة اذا صافحت الرجل .

وكما كانت الحماه فى المجتمع البجاوى تلقى احتراما شـديدا من لدن زوج ابنتها ، فقد حظيت أيضا فى مجتمع القبيـلة العربيـة بنفس الاحترام ، وأعظم قسم عند بعض الرجـال ما كان مقرونا « بنسيبته » (حمـاته) ، فان قيل للرجـل « ونسيبتك تقضى لى حاجتى » وجب عليه بذل كل جهده لقضائها (١) .

والنساء السودانيات من هذه القبائل العربية لا يجلسن مع الرجال إلا اذا كانوا من أقاربهن المقربين ، واذا طلبت احداهن الى مجلس رجال تلثمت بثوبها ولا يظهر من وجهها إلا عيناها وتجلس ناظرة الى الأرض متحدثة بصـوت منخفض ، واذا زارها رجـل فى منزلها كلمته من وراء جدار ، وان مرت بمجلس رجال خلعت نعليها وغطت وجهها ، أما الجارية فتخلع نعليها وتكشف رأسها ، واذا حدث ان كان الرجـال جالسين فى صفين على جانبى الطريق فلا يمكنها أن تمر فى الوسط حتى يقوم فريق منهم الى الجانب الآخر أو تعود ، وان كانت راكبة ترجلت (٢) .

وهناك اتهـام لنجعليين وبعض سـكان منطقة الجـزيرة باقتنـاء الجوارى للفحشاء والانتفاع بكسبهن من هذا السبيل ، ولكن التفسـير الأقرب للصواب هو ان بعض الأغنيـاء فى تلك المناطق ممن زاد عـدد عبيدهم وجواريهم عن خدمتهم بعثوا بهم فى طلب الرزق من أى عمـل مشروع ، وفرضوا على كل واحد منهم مبلغا محـددا فى اليوم وهـذه الأعمال كانت تتمثل فى الطحن والخبز والطبخ فى الأسواق ، ولكن الكثير من الجوارى قد يغلب عليهن الكسل وحـب الرزيلة فيرتكبن الفحشـاء ويدفعن لأسيادهن المبالغ المطلوبة مفضلات أقصر الطرق وأسهلها .

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٢٢٧ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٣١ .

ولم تكن الادارة المصرية بالسودان لتقبل شيوع الفاحشة فى البلاد وكانت تضرب بشدة على مرتكبيها من النساء والرجال ، وقد وصل حد العقوبة فى احدى قضايا « الزنا » الى القتل والجلد والنفى لخارج البلاد فى محاولة لاجتثاث جذور تلك المسائل التى تهدد كيان المجتمع ولم تكتف بمعاقبة أطراف الواقعة بل امتدت العقوبة الى المسئولين الذين كان تراخيهم سبيلا الى وقوع مثل هذا (١) ٠

ولقد تبوأت النساء فى دارفور مركزاً مرموقا ـ فيما عدا الحروب ـ وكن يتدخلن فى سائر الأمور ، الأمر الذى حدا بالبعض الى القول « ان عرسا لا يتم إلا بهن أو حزنا كذلك » (٢) ٠ ولقد شارك بعضهن ولا سيما غير العربيات فى حلقات الأذكار ٠ ويفرح أهل دارفور كثيرا بولادة الاناث أكثر من فرحهم لقدم الذكور نظرا لما تجلبه الانثى من ماشية كثيرة عند زواجها ولذا شاع فيهم قول مشهور « أن الانثى تملأ الزريبة خيرا والذكر يخربها » (٣) ٠

والمرأة فى جنوب السودان وخاصة عند الشلك مثقلة بالأعمال فهى تساعد الرجل فى بعض أمور الزراعة ، كما تقوم بجلب الماء لمسكنها وذلك بحملة من أماكن بعيدة ، بالاضافة الى القيام برعاية أطفالها واعداد الطعام ، كما تسهم الشلكاوية فى بناء المنزل واصلاحه (٤) ٠

ولنساء الدينكا ولع شديد بأمور الزينة ، فالموسرة منهن من تتحلى فى جيدها ويديها ووسطها بالكثير من الحلى التى كان أكثرها من معدن

---

(١) محفظة رقم ٥ أوامر للجهادية ـ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٤ أصلى ورقم ٢٥٧ مسلسل ، بتاريخ ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ ٠ دار الوثائق القومية بالقلعة ٠

(٢) التونسى : المصدر السابق ٠ ص ٢٤٥ ٠

(٣) نفس المصدر ص ٢٢٥ ٠

(٤) مصطفى فهمى وآخر : المرجع السابق ٠ ص ٥٥ ٠

الحديد بالاضافة الى أساور من سن الفيل . وكلما كثرت زينتها دل على عظم مكانها الاجتماعى بين أهلها (١) .

وفى الأجزاء التى ضمت أخيرا للادارة المصرية وخاصة فى هرر كان للمرأة مكانة مرموقة وكلمة نافذة على الرجال لدرجة أن البعض يشبههن بالنساء الأوربيات من حيث الحرية الكبيرة التى تمتعن بها لدرجة أن الواحدة منهن — كما يقال — اذا أمرت زوجها بشىء لا يمكن أن يخالفها . ومع ذلك كله فهن متعاونات مع أزواجهن فى الحياة المعيشية ، فالواحدة منهن تخرج الى السوق لتبيع وتشترى خاصة أوراق البن أو القات الذى يرسله اليها زوجها من البستان ولذلك فقد شاع عندهم أن الرجال زراع والنساء تجار (٢) .

وهكذا يتبين لنا من تتبع مركز المرأة فى السودان أن وضعها الاجتماعى كان محكوما بعادات وتقاليد مجتمعها الصغير الذى كانت تحيا فيه ، فهى عند البجة مشاركة له فى اقامة مسكنه وعند القبائل العربية نراها تتمتع بمركز كبير داخل أسوار بيتها وقد سخروا لها الجوارى لخدمتها ، وهى عند الجنوبيين تعيش حياة الرجل الخشنة فى المزارع بالاضافة الى أعمال البيت التقليدية ثم هى فى هرر تتمتع بحقوق واسعة ، ولكننا أحيانا نرى خروجا عن القاعدة العامة التى كانت تتحرك فى خلالها المرأة السودانية والتى كانت تمنعها من الاختلاط بالغرباء ، ففى عام ١٨٥٢ نلاحظ احدى كبار السيدات فى الخرطوم السلطانة (نصرة) ابنة آخر ملوك سنار تحتفى بالرحالة الأمريكى « تايلور » خلال مقدمة

---

(١) الوقائع المصرية — سياحة شوينفورت فى أفريقيا . العدد رقم ٦٦٠ بتاريخ ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ هـ . (الموافق أول يونية ١٨٧٦) .

(٢) جريدة أركان حرب الجيش المصرى : العدد رقم ٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ . ص ٣٩٧ .

الى المدينة وتقيم له حفــل عشاء ، وتدعو اليه نائب القنصل النمساوى ولفيفا من صحبة وتقدم لهم الهدايا (١) •

عادات وتقاليد أثناء الوفاة :

كان من الطبيعى ، بعد أن تحدثنا عن العادات والتقاليد المرتبطــة بالولادة ومراحــل العمر المختلفة وما ارتبط بها أيضا من عادات وتقاليد مــرورا بمرحلة الزواج وانتقــالا منهــا الى مركز المــرأة فى المجتمع السودانى ، أن نصل الى مرحلة وفاة الشخص لنطالع عادات وتقاليــد مرتبطة بها ، فعند البجة يدفن المتوفى فى حفرة ويهال عليه التراب ، وتغطى الحفرة ، أحيانا ، ببعض الحصى الأبيض والأســود عقب قراءة بعض الآيات والتسبيحات • ويحتفل بذكرى المتوفى ثلاث مرات ، الأولى بعد أسبوع من وفاته والثانية بعد أربعين يوما والثالثة بعد حول كامل وبــه ينتهى الحــداد • وفى حالة وفاة شخص عظيم يستمر العــزاء لمــدة أطول قد تصــل الى ســنة كاملة حتى تحضر كافة القبــائل الموزعة فى الصحارى حيث أنه من المتعسر أن تعلم كافة القبــائل فى وقت واحــد ، وغالبا ما يأتى هؤلاء ومعهم الهدايا من الابل والنقــود لأهل المتوفى •

ومن عادات الأمرار أن أقرب الناس الى الفقيد يحرم على نفسه أن يجلس على فروة اذا ركب بعيره • ويرتبط بالوفاة عادة دق الطبول « النحاس » ، ولا يدق الطبل إلا فى ثلاث مناسبات : الأولى بعــد وفاة فقيد عظيم ، والثانية للدعوة للحرب ، والثالثة لحفلة عظيمة تهم القبيلة كلهــا ، ولا يمكن أن يدق النحــاس لسبب تافــه ، ذلك لأن له تأثيرا شديدا فى النفوس ، حيث تثور الحماسة فى القلوب وتجرد السيوف ، ولكل قبيلة طريقة أو نغمة خاصة فى دق طبولها (٢) •

(١) Taylor, B; A Journy to Centeral Africa. pp. 293 - 96.
وانظر أيضا : أحمد أحمد سيد : تاريخ مدينة الخرطوم ص ١٦٩ •
(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى : ص ٤٧ — ٤٨ •

ولمآتم أهل النوبة جلية عظيمة ، فعند وفاة أحدهم ينادون أهـل بلدته والبلاد المجاورة ويقيمون المأتم بالعـويل والرقص المحـزن حتى يواروه التراب ثم يعودون لتجديد الندب والبكاء مستمرين فى ذلك مـدة أربعين يوما يتقبلون فيها العزاء من القادمين من بلاد بعيدة ، ويقـوم أهل البلدة التى توفى فيها الشخص بتقديم الطعام لأهل المتوفى والمعزين حتى ينتهى المأتم ، ويظل أقارب المتوفى مدة سـنة ممتنعين عن الأفراح والتطيب وارتداء الثياب الفاخرة والحلى (١) ٠

وأما مآتم القبائل العربية فكانت هى الأخرى فصلا من فصـول الحزن الشديد ، فالنساء يصحن ويضعن التراب على رؤوسهن ويلطخهن وجوههن « بالسجم » والرماد ويدخلن غرفة الميت للبكاء حوله ، وحين يأتى الجيران تخرج النساء بالمتوفى الى فناء المنزل لعمل المناحـة وتقوم النادبات بالضرب على النحاس ، وترقص النساء الحزانى بالسـيوف ، والعصى ٠

أما الرجـال فيقومون بالتهليل قائلـين « لا الـه إلا الله محمد رسول الله » مرات معدودة حتى تصـل أعدادها الى سبعين ألف مرة ٠ وبعد غسـل المتوفى وحمله تتبعه النسـاء كاشـفات الرءوس ومعهـن قريباته ، واحدة متقلدة سيفه وأخرى ثوبه أو جبته أو عمامته حتى يصلن التربة فيجتمعن حلقة كما حـدث فى فناء المنزل ويجددن البكاء والندب والرقص على أصوات التصفيق بدل النحاس ٠ وعقب الدفن يعود أهـل المأتم الى منزل المتوفى فيجلس الرجال لاستقبال المقربين القـادمين من جهات بعيدة رجالا ونسـاء وعند وصولهم يضربون النحـاس وتزغرد النساء زغاريد الحزن فيخـرج أهـل الميت جميعا لاستقبالهم فيصطف الفريقان صفين خـارج البلدة ، الرجال فى مواجهة الرجال والنسـاء فى مواجهة النساء ثم يشرعون فى البكاء حتى يلتقى الصفان فيشتد العويل

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ٠ ص ١٩٩ ٠

حتى يقــوم أهــل الميت مقــام المعزين فى تعزيتهم وتهوين المصــاب ، وللجعليين عــادة تعرف « بالشوقار » ذلك أنه عند التقاء الصفين خارج البلدة يتسابق الفرسان على خيولهم أو ابلهم ويتصــارع المشاه بالسيف و « الدرق » وترقص النساء بالسيوف حتى يصيبهم النصب فيذهبون الى منزل المتــوفى .

ويشارك أهل البلدة أهل المتوفى فى النوم على الأرض مــدة سبعة أيام ، وأما أقارب المتوفى فانهم يشاركون المقربين للمتوفى فى النــوم على الأرض مدة أربعين يوما . حتى يتم عمل صــدقة تسمى صدقة الأربعين وهى اشــارة الى ختام المأتم ثم يعود بعدها أهل الفقيد الى النوم على الأسرة وتغسل النساء ثيابهن لازالة ما علق بها من رماد ويستمر حدادهم لمدة ســنة كاملة ، وتعبيراً عن هذا الحــداد تقوم زوجة المتوفى واخواته بقص شعورهن ، ويركب الرجــال دوابهم بفراء مقلوبة ، وأما رجــال الشايقية فيرتدون طرابيشهم بلا ازرار اشارة للحداد (١) .

وبالرغم من شدة تمسك عرب السودان بالدين الاسلامى فاننا نلاحظ اختلاط بعض العادات والتقاليد بهذه التعاليم الدينية ، التى لا تقــر مثل هذه الأفعال عند دفن الميت .

وفى جنوب السودان وخاصة عند الشلك نلاحظ عادات غريبة تماما عن تلك التى شهدناها فى السودان الشمالى ، فعند هذه الجمــاعة يدفن الميت فى مواجهة منزله وهو جالس القرفصــاء ، وتشيد على قبره كومــة من الطين . وتلطخ الأرملة وجهها وشعرها بالطين وتظل « تولول » وتئن لعدة أيام ، يقوم فى خــلالها المقربون منها بالعناية بها ويمدونها بــكافة متطلباتها ، فيقودون قطيعها الى المرعى ، ويقومون بزراعة أرضها (٢) .

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . ص ٢٣٤ ــ ص ٢٣٧ .

(٢) Gessi; Op. Cit. p. 32.

وعند وفاة والد ملك « أونيورو » فى الجنوب اقيمت بعض الاحتفالات ذات الطابع الغريب والوحشى فى آن واحد ، حيث وضعت جثة هذا المتوفى فى حفرة على طبقة من الأحياء وكانت هذه الطبقة نساءه !. ومن الأمور الغريبة حقا أن النسوة فى هذه البلدة وما حولها كن يستسلمن للدفن أحياء حبا فى أزواجهن ، ربما يفوق ما كانت تفعله قديما أرامل الهنود لأزواجهن حيث كن يلقين بأنفسهن فى المواقد التى كانت تعد لحرق جثث هؤلاء الأزواج (١) .

عادات وتقاليد خاصة بالمعتقدات الدينية :

ولعرب السودان عادات وتقاليد دينية يولونها اهتماما شديدا مثل « التعزيم » وكتابة الأحجبة وقلما تجد واحدا منهم ولا سيما النساء إلا ويحمل حجابا . ومن بين الأمور التى يعالجون بها المرضى كتابة بعض سور القرآن الكريم على لوح ثم يغسلون الكتابة بماء ويشربون الماء للاستشفاء .

واذا حدث نوع من الوباء أو المرض يقومون بنحر الذبائح وتوزيعها على الفقراء والمساكين حتى يرفع الله عنهم هذه الأوبئة والأمراض .

ومن العادات المرتبطة بظهور الهلال قولهم « اللهم أعطنا خيره وأكفنا شره » ثم يوقدون النار أمام منازلهم ويقدم كل واحد منهم التهنئة للآخر . ومن عاداتهم ان أراد شخصان المعاهدة على أمر هام وضعا المصحف الشريف بينهما مفتوحا على سورة « براءة » * وأقسما على صدق الوفاء بالعهد ، كذلك فانهم اذا فقدوا شيئا طافوا الجهات منادين

---

(١) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية ، الجزء الأول . ص ٢٨٥ .

(*) التوبة : السورة رقم ٩ من القرآن الكريم .

« كتاب الله حاكم من رأى الشيء الفلانى يرجعه لصاحبه (١) . ويبـدو واضحا ان مثل هذه العادات والتقاليد نابعة من الدين الاسلامى فمن آيات القرآن الكريم يتخذون علاجا ، وهـذه الآيات ربما تأخـذ شكل الكتابة فى أوراق صغيرة على شكل أحجبة ، أو تكتب على ألواح ثم تغسل ، بصرف النظر عما يصاحب هذه العادات من طقوس يحاول بعض العـامة اضافتهـا لمثل تلك العـادات . وأى شيء أفضـل من كتاب الله خـلال معاهداتهم ، خاصة وأنهم كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا فى آيات اللـه قولا وعملا ، ايمانا منهـم أن هـذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن الله سبحانه وتعالى ما فرط فى الكتاب من شيء .. ففيه العلاج لمن أراد وفيه شروط المعاهدات وفيه قوانين البيع والشراء . فلا عجب إذن ان وجدنا عادات عرب السـودان الدينية انعكاسا واضحا لايمانهم الشديد بالكتاب والسنة ، ولا غرابة كذلك ان وجدنا فى آخـر المطاف ان مثل هذا الايمان الشديد — مع غيره من العوامل — يفجر ثورة غضب فى عـام ١٨٨١ .

ولسكان الجنوب من الدنكا والشلك ومن جاورهم عادات غريبة فى هذه الناحيـة فلا يكاد يحـدث حادث خارق للعـادة أو مخالف للمألوف إلا كان مدعاة لاقامة الشعائر وتقديم القرابين ، والإله الأكبر عند الدنكا هو نهيالك كما سبق أن ذكرنا ، وهو — فى نظرهم — الذى يرسل السحاب من السماء وهو المهيمن على كل الأمور العظيمة . كما أن لديهم اعتقادا فى قوة أخـرى ذات اتصال شـديد بالحيـاة العادية وهذه القـوة تدعى (جوك) أو روح الأجداد مجتمعة . وهناك اله آخر يدعى « دنج ديت » Deng - Dit ومعناه المطر العظيم * .

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . ص ٣٣٣ وأيضا ص ٢٣١ .

(*) جرى حوار بين أحد الضباط الذين زاروا مناطق الدنكا ، وأحـد زعمائهم فسأله الضابط : هل تعرفون الله خالق هذا الكون ومدبره ؟ قال : =

ولكل قبيلة دنكاوية هيكل تقدم فيــه القرابين فى حفلات الحصــاد والمطر وغير ذلك • وغالبــا ما يتألف الهيكل من ثلاثة أكواخ متلاصــقة أحدها مقفل على الدوام ولا يدخله إلا السـدنه وهو خاص (بدنــج ديت) ، وفى حالات ربما يسمح للشخص الذى جاء ليقدم قربانا — طمعا فى النسل — أن يدخل لينــال البركة ويدعو لتحقيق أمنيته وفى هــذه الحالة يدخل وعن يمينه ويســاره واحد من السـدنة • ومن العــادات المتبعة أن يمسح جسم صاحب الطلب بمزيج من الزيت والتراب المقدس ، ويعطى أحيانا حربة أو شيئا من هذا القبيل علامة للرضا ، وربما يقــدم صاحب الحاجة بعض التبغ الذى يلقى على كومة الرماد المتراكمة أمــام الهيكل بسبب الطبخ المستمر للقرابين ويصبح هذا الركام كوما مقدســا تلقى عليه محتويات المعدة والأحشاء عقب ذبح الماشية (١) •

وهناك طائفة خاصة من الناس توصف — عند الدنكا — بأن لها قدرة الاتصال بالأرواح أو يحل بجسم الواحد منها بعض الأرواح سواء أكانت روح من توفى حديثا (Tiep) أم روح السلف (جــوك) ، ويســمى الواحــد من هــؤلاء باسم (Tiet) ، وتكاد تكون الوظيفة وراثية • ولا ينظر الى بعض هــؤلاء الأفراد نظرة تقدير ، ويبــدو أن مركزهم الاجتماعى وقوة شخصيتهم كان لهما بعض الأثر والاعتقاد الشديدين فى

لا ، فسأله ثانية : بماذا تؤمنون اذن ؟ قال نؤمن بمن نسميه (دنج ديت) اله المطر • فسأله هل تدعونه أو تصلون اليه ؟ قال لا • فسأله أين هــو ؟ قال : لا ندرى • فقال له وأين مصيركم بعد الموت ؟ قال نضمحل نحن وسائر المخلوقات وكلنا فى ذلك سواء ثم أشــار الى كلب هناك وقال نموت كما يموت هــذا الكلب •

(أنظر مقال تحت عنوان : احتلال بحر الغزال لليوزباشى الطبيب أمين المعلوف • مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية موسم عــام ١٩٥٣ ، ص ١٩٦) •

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات • ص ١٦٨ — ١٦٩ ، أنظر أيضا : محمد عمر بشير : جنوب السودان • ص ٢٦ •

نفوس بعض الدنكاويين (١) • ويلجأ الناس الى هؤلاء الأشخاص عند الشدائد والملمات ، ويبدو كذلك أن بعض المصادفات قد لعبت دورا هاما فى علو شأنهم ، فقد لاحظ الناس ان كل من يخالفهم تحل به كارثة بعد زمن وجيز ، وهكذا اجتمعت عدة أمور مختلفة لتجعل من هؤلاء الأشخاص رموزا روحية تحظى بشهرة واسعة •

ويعتقد الدنكا فى البركة واللعنة : بركة الوالد لأبنائه أو بركة الكاهن أو أى شخص من ذوى النفوذ المعترف به ، واللعنة قد يوجهها الشخص الى بعض أقاربه أو غيرهم اذا أخطأوا فى حقه ، فان أصابتهم اللعنة بشر التمسوا الصفح من اللاعن عن طريق تقديم قربان ، كذلك فانهم يعتقدون فى شىء يشبه الحسد Kwan اذا تعرض أحدهم لسوء فسرعان ما يرجعه الى حسد صادر من شخص ما (٢) •

وعلى وجه العموم فالفرد الدنكاوى شخص متدين ويقيم وزنا كبيرا للاعتبارات الروحية فى كل لحظة وفى جميع أمور حياته ويلتمس لكل ظاهرة تفسيرا روحيا •

وأما ديانة الشلك فتتألف عناصرها الرئيسية من الايمان بالإله الواحد ، وتمجيد السلف • والإله الواحد يسمى عندهم جوك وهو شبيه بما أطلقه الدنكا على السلف • واذا كان الاسم واحدا عند الشلك والدنكا فان له مدلولا خاصا عند كليهما فهو عند الشلك الإله الذى خلق العالم وبيده كل القوى والخصائص الربانية • والشلك يقدسون جدهم الأكبر « نياكنج » Nyakang الذى يقودنا الى الحديث عما أسماه البعض « عقيدة الملك المقدس » عند الشلك (٣) حيث لم يكن يسمح لملكهم أن

---

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ١٧٢ •
(٢) نفس المرجع ص ١٧٤ •
(٣) سيلجمان : المرجع السابق • ص ١٥٨ ، ١٥٩ •

يخوض المعارك • ولفهم طبيعة هذه العقيدة لابد من الاشـــارة الى كيفية تكوين أمة الشلك التى يرجعون أصلها الى « نياكنج » الذى خرج مع أتباعه من وطن آبائه شرقى بحر الغزال ثم أخذ يتجـول قاهرا الأعداء حتى عظمت شوكته فكون أسرة حاكمة وأمة • فنياكنج عند الشلك بطـل الحضارة ، وهو كســائر العظماء عنــدهم لم يمت بل اختفى فى عاصفة شديدة ومنذ أن اختفى وأهله يقربون له القرابين ، معتقدين أن روحــه مستقرة فى كل ملك من ملوكهم وهذا الاستقرار هو أصل وسبب الحــق الملكى المقدس •واذا بدت على ملك الشلك أعراض الشيخوخة أو العجز قتلوه ، وعقيدتهم فى ذلك أن روح (نياكنج) ينبغى أن تكون فى جســد غاية فى القوة حتى لا تســكن الروح المقدسة هــذا الجســد الهــزيل فيسرى الضعف الى الروح ذاتها فتمرض الماشية ولا تلد ، وكلما ضعفت حيوية الملك ظهر أثرها على فســاد المحاصيل فى الحقول ومرض الرجال وانتشر بينهم المــوت (١) •

عادات متصلة بالخرافات والسحر :

كانت العادات الخــرافية المنتشرة بين أهالى مديريات الســودان كثيرة جدا ، وهى فى تقديرنا انعكاس للوضع الثقافى الذى كان يعيشــه الشرق بصفة عامة والسودان بصفة خاصة وهى تتشابه كثيرا مع ما كان يســود المنطقة وغيرها من بلدان العالم أيضا فى ذلك الوقت ، فقــد عرف الجميع الدجالين والمشعوذين والسحرة ، كذلك فقد عرفوا الزار والمنــدل والرمل وضرب الودع والعقدة وتفسير الأحلام •

ويقال ان « الزار » قد دخل السودان من مصر وشــاع استعماله فى سواكن وبربر والخرطوم (٢) • ويحــاول البعض أن يفرق بين نوعــين

---

(١) سيلجمان : المرجع السابق • ص ١٥٨ ، ١٥٩ •
(٢) نعوم شقير : المرجع السابق • ص ٢٣٧ •

من الزار : الأول ويعرف باسم (زار بورى) ، والآخر ويعرف باسم (الطمبورا) * أما الأول فخاص بالنساء ويجرى فى منزل الشيخة أو فى منزل الشخص المريض « الممسوس » ، والآخر خاص بالرجال . ولا يمكن « للطمبورا » أن تنتقل الى منزل المريض ولكن المريض هو الذى يأتى الى المنزل (١) . وحفلات الزار تكون عادة صاخبة وتصاحبها حركات هزيان وعبارات مبهمة .

وربما قد لا نتجاوز الحقيقة ان قلنا ان مثل هذه الحفلات الراقصة التى يحاول فيها المريض الخروج من همومه ومشاكله هى أشبه بما يحدث فى المجتمعات الأوربية الحديثة التى يحرص أكثرهم سواء من الرجال أو السيدات على المشاركة فيها مصحوبة بالموسيقى والرقصات والخمور ، فالفرد — سواء فى حفلة الزار فى تلك المجتمعات المتخلفة أو فى حفلات الرقص « الديسكو » فى المجتمعات الأوربية الحديثة — يريد الخروج من همومه وواقعه . والاختلاف الوحيد ان حفلات الزار تتم وفق طقوس غيبية وعبارات غريبة . وكلاهما فى تقديرنا لون من ألوان العلاج النفسى .

وأكثر المشتغلين بضرب الودع والرمل والمندل وكشف الدفائن وعلم التنجيم من « التكارنة » . وأما العقدة فيشتغل بها فرع من بشارى العطبرة . وأما السحرة السودانيون فيدعون القدرة على مسخ الأجسام الى حيوان أو غير ذلك . وقد وقع واحد من هؤلاء السحرة التعايشية ** وهو يعمل على وقف مفعول أسلحة الزبير فى ساحة الحرب . وكاد الزبير أن يقتله ، وقد اشتهر أمره حيث كانت أسرته تعمل بضرب الرمل

(*) نسبة الى آلة الطمبورا الموسيقية وهى أشبه بالقيثارة .

(1) S. N. R., Vol. XXXI, Part I, 1950, June 1950, Zar and Tumbura by Zenkovsky.
(Paper read before the Philosophical Society of the Sudan) p. 65.

(**) عبد الله التعايشى .

والسحر حتى نالت حظوة كبيرة عند التعايشة ، وكاد عبد الله هـذا أن يلتف حول الزبير حين قال له « رأيت فى الحلم أنك أنت المهدى المنتظـر وانى أحـد أتباعك فأخبرنى ان كنت مهدى الزمان لأتبعك » • ولـكن الزبير كتب له قائلا : « استقم كما أمرتك وإلا أعملت السيف فى رقبتك ••• انى لست بالمهدى انما أنا واحـد من جنود الله يحارب به من طغى وتمـرد » • ولم يكف عبد الله عن الشـعوذة حتى ضاق به الرزق فى دارفور فرحل عنها ، حتى ظهر أمر المهدى محمد أحمد فقصـده وتقرب اليـه بشكل درامى حين أخبره أن علامات المهدى وصفاته تنطبق عليـه تماما وارتمى أمامه على الأرض مغشيا عليـه ! ، وأصبحت لعبد اللـه التعايشى شهرة واسعة عقب وفاة المهـدى حيث بايعـه النـاس اماما وحاكما (١) •

وفى عام ١٨٧٨ تم القبض على أحـد أولئك السحرة والمشعوذين بمـديرية التـاكة وعثر فى حـوزته على بعض الكتب والأوراق وعروق الأشجار وبعض قطع النحاس وغير ذلك ، ثم أودع السجن جزاء على ممارسته لمثل هذه الأمـور بين عامة الناس (٢) • وهناك كثير من الخرافات المنتشرة بين عـرب السودان لا يتسـع المقـام لذكرها ، ومنها أنهـم يتشاءمون من الأعور والأعرج وكل ذى عاهة ومن تناول الصـابون بباطن الكف لأنه — فى نظرهم — يورث البغض بل يجب أن يتناولها الفرد بظاهر كفه • كذلك فانهم يتشاءمون من مسح اليـد بثوب آخر ، أو شرب اثنين من فنجـان واحد ، ومن عواء الكلب من صدره فانه دليـل على موت واحد من الأهل ، ومن لبس الرجل اللباس واقفا لأنه دليل على الفقر

---

(١) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ٦٨ — ٧٠ •

(٢) دفتر رقم ٣١ وارد معية عربى — ص ٥١ — مكاتبة رقم ٣٦ بتاريخ ١٣ شعبان سـنة ١٢٩٥ هـ • من مدير عمـوم التاكا الى المعية دار الوثائق القومية بالقلعـة •

ومن الصفير ليلا لأنه مجلب للآفات والحيات ومن كنس البيت يوم الخميس لأنه يطرد الخير وغير ذلك من الخرافات الكثيرة (١) .

أما دارفور فكانت ملأى بهذه الخرافات لدرجة ان التونسى يقول انه لا يريد أن يحدثنا عن الكثير منها حتى لا يتهم بالكذب . فقد عرف سكان دارفور جماعة من الناس يسمون « بالمعراقيين » أى الذين يستخدمون عروق (جذور) الأشجار فى أمور السحر والدجل ، فمن أراد أن تقضى حاجته عند الحكام أخذ أحد الجذور ويسمى (نسارة) ودلك بها بين كفيه ومسح على وجهه ، ويفعل نفس الشىء اذا أراد أن تعشقه احدى الفتيات .

وكانت قبيلة « الفلان » هى المشهورة بتلك الأعمال السحرية (٢) .

أما أهل جنوب السودان فلهم ولع أيضا بمسائل السحر ، فالشلك — على سبيل المثال — يعالجون سحر العين بادخال مسمار محمى فى عين « عنزة » سعيا وراء أبطاله ، فاذا لم تطمس عينا الحاسد فى نفس الوقت الذى تطمس فيه عين « العنزة » ، فهذا يعنى ان السحر لازال قائما ، الأمر الذى يتطلب تقديم الكثير من القرابين لاسترضاء الآلهة (٣) .

وبالرغم من ذلك فالبعض ينفى تماما حدوث مثل هذه المسائل السحرية ، وغيرها من الصفات السيئة التى ارتبطت بهذه الأمور (٤) .

ومن العادات المرتبطة بهؤلاء الجنوبيين وخاصة بلاد النمانم

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٢٣٩ .
(٢) التونسى : المصدر السابق . ص ٣١١ وما بعدها .
(٣) عبد القادر محمد : الفكر الصوفى فى السودان . ص ٢١ .
(٤) الوقائع المصرية ، العدد رقم ٦٦٤ بتاريخ ١٠ جمادى الثانية سنة ١٢٩٣ هـ . (٢ يولية ١٨٧٦) ص ١ .

(بلاد نمنم) المتصلة ببحر الغزال ، أكل لحوم الكلاب والآدميين ، فالكلاب عندهم أفخر ما يأكلون أو يقدمون ، وهو طعام أمرائهم ولذا فانها كانت قليلة عندهم ، ولا يعنى هذا ندرة الطيور أو الحيوانات الأخرى فعلى العكس فهى كثيرة وخاصة الدجاج منها (١) .

أما مسألة أكل اللحوم الآدمية عند هذه الجماعة فقد ذكر لنا ابراهيم فوزى (٢) انه سأل عن الذين يأكلون هذه اللحوم فعلم انهم ينحصرون فى قبيلتين فقط وليس من عادة القبائل كلها أن تفعل ذلك ، كما أن أكل لحوم البشر عند هاتين القبيلتين غير دائم بل اذا مرض أحدهم وغلب عليهم اليأس من شفائه ، فعندئذ تقوم قبيلته بتسليمه الى القبيلة الأخرى لتأكله ، وأيضا تفعل القبيلة الأخرى نفس الشىء حيث تسلم مريضها اليها ، أى ان المسألة تتم بالتبادل فيما بينهما . وتجدر الاشارة أيضا الى ان هذا اللون من الطعام الآدمى ليس عادة عندهم كما يتوهم البعض بل هى طريقة ساروا عليها لتبيان معزة الفرد لديهم عند الموت ، ويرونها أسمى شأنا من دفن الانسان فى القبر أو حرقه بالنار ، كما انهم — كما يقال — يرون فى ذلك راحة لهم من عناء انشاء مقابر واجراء احتياطات صحية (٣) .

ومن العادات الغريبة فى مديرية خط الاستواء عادة تعرف باسم (تبادل الدم) حيث توثق ذراعا الشخصين اللذين يتبادلان الدم ومن جرح صغير يحدثانه فى القسم الأسفل من الزراع يمتص كل منهما بعضا

---

(١) ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غوردون وكتشنر جـ ٢ ص ٣٢ .
« قيل ان أحد الأفراد فى تلك البلاد أو لم وليمة ودعا اليها رؤساء مملكته فقال له بعض اخوته أتدعو مثل هؤلاء الملوك ولا تذبح لهم كلبا سمينا فأرسل من يحضر كلبا ودفع فيه عشر بقرات سمان . » انظر الوقائع المصرية : العدد ١٠٣ بتاريخ ٢٦ رجب سنة ١٢٤٥ هـ ، ص ٤٠١ .

(٢) السودان بين يدى غوردون وكتشنر جـ ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) نفس المصدر . ص ٣٣ .

من دم الآخـر ، وهذه العادة فى تقديرهم دليل على الصداقة والمحبـة بين الشخصين (١) ٠

الأزيـــاء :

وهى من الأمور التى تنوعت من مكان الى آخـر فى السودان ، فهى عند البجة عبارة عن شقة من « الدبلان » أو الدمور ، ويتميزون بالرشاقة فى لبسها حيث يكثرون من تشميرها ، أما الذين كانوا على الفطرة منهم فيرتدون الفراء حول أصلابهم ويمشـــون حفاة أو يلبسون نعـــالا على الأكثر ، وكلهم عراة الرأس ، ويتركون فى أعلاه « كشـــة » ويدهنونهـــا بالشحم أو زيت الخـروع ويمشطونها بمســـواك من السن أو الخشب ويكون مغروزا دائمـــا فى الكشة ٠ ويضع البجة فى معظمهم خـــواتم فى أيديهـــم وتكون فى العــادة من الفضــة أو الذهب بفصوص من العقيق أو الفيروز ، أما نساؤهم فيرتدين « الشقة » وحدها أو مع « القرباب » أو يرتدين الفراء فى أصلابهن ٠ ويقمن بجـــدل شعورهن جدائل دقيقة جـــدا ، ويتحلين بالأسورة والحجول والخلاخل (٢) ٠

وأما أزياء النـــوبيين فكانت غالبـــا من الدمور الذى يتخذون منـــه « سراويل » و « شـــقة » ، ويسيرون حفاة مكشوفى الرأس عدا كبارهم فيلبســـون طواقى من الدمور وأحذية من جلد البقر ويحلقون شـــعور رءوســـهم ويرخون لحاهم وترتدى نساؤهم شقة من الدمـــور ويجدلن شعورهن على هيئة ضفائر دقيقة جدا (٣) ٠

وأما ملابس القبائل العربية فكانت عبارة عن سراويل ومن فوقهـــا ثوب من الدمور أو الدبلان ، أو يرتدون قميصا طويل الأكمـــام ٠ وفى

---

(١) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية ، الجزء الأول ٠
(٢) نعوم شقير : المرجع السابق ٠ ص ٢٠٠ ٠
(٣) نفس المرجع ٠

الأفراح يرتدى كبـــارهم القفاطين و « الجبب » ، وهم يحلقون شعور رؤوسهم ويدورون لحاهم ، ويتعممون بعمامة بيضـــاء فوق طاقية من الدبلان أو ربما يرتدون الطاقية بلا عمامة ، وكان كبارهم أحيـــانا يلفون عمامة على طربوش مغربى ، ويلبسون أحذية من جلد أسود أو أحمر • وعادة ما يخرج الواحد منهم وفى يده عصا وسكين • وهذا الزى غالبـــا ما يكون فى المـــدن أو الحضر • وأما فى البادية وخاصـــة بادية الشرق فيلبسون الثوب بسراويل من تحته أو بدون سراويل ويلبسون نعالا فى أرجلهم أو يسيرون حفـــاة عراة الرأس ولا يحلقون شـــعور رءوسهم ، وباختصار فهم يشبهون البجة فى هذه الناحية •

وأما بادية الغرب فيلبس البقارة قمصان واسعة الاكمام جدا ومقفلة الصدر بلا سراويل ويتحزمون بسيور من الجلد ، ويمشون عراة الرأس ، ويلبسون نعـــالا فى أرجلهم ويجدلون شـــعور رءوسهم ضفائر كســـائر النساء ، ولا يتركون كشه كبادية الشرق لكنهم يدهنون شعور رؤوسهم بالشحم والزيت • وعادة ما يخرج الواحد منهـــم وفى يده حـــربة كبيرة تسمى « كبســـا » أو « أم كريشـــه » وأما الابالـــة فيلبسون الثـــوب بسراويل أو بلا سراويل ، ويلبس مشايخهم القمصان الواسعة ولكنها أقل اتساعا من مثيلتها عند البقارة وأنظف ، كما أنهم يجدلون شعور رؤوسهم ضفيرتين فقط دون كشة • أما مشايخ البادية فيحلقون شـــعور رؤوسهم ويلبسون القفاطين والجبب والعمائم ويتختمون بخواتم من الفضة ذات فصوص من العقيق أو الفيروز •

وأما الأطفال ذكورا واناثا فيظلون عرايا حتى نحو سن الخامســـة فتستر البنت نفسها « بالرهط » وهو سير من الجلد يعقد حول خصرها تتدلى منه قدد دقيقة الى ما فوق الركبتين وقد تلبس فوقه شـــقة من الدمور ، أو تظل بالرهط حتى الزواج حيث تخلعه وترتدى بدلا منه فوطة أشبه بفوطة الحمام تسمى « القرباب » وفوقها شقة أكبر منهـــا قليـــلا

تسمى « القرن » وفوقهما « ثوب » من الدمور أو الدبلان أو الشاش • تشتمل به وتستر رأسها ولا يظهر منها إلا عيناها (١) •

وأما الأزياء التى كان يرتديها أهـل هرر وما جاورها من البلدان التى دخلت فى حوزة الادارة المصرية فهى قريبة الشـبه من ملبوسـات أهل السـودان حيث أن أغلبهـم يلبس ثوبا من نسـيج هرر الخشن يرتدونه كسائر العربان المجاورين ، وأما الأمراء والقضاة فيلبسون ثوبا من القماش الأبيض على شكل قميص ، وكلما كان كبيرا كان أكثر اعتبارا • بالاضافة الى حزام من الجلد يحمل سكينة وربما يعلق به حجـاب • وأما عن الحذاء فالرجـال يلبسون النعـال ، وأما النسـاء فمهما بلغت أوضاعهن الاجتماعية فهـن غالبـا حافيات الأقـدام فيما عدا نسـاء الأمراء (٢) • ولم يكن أهالى تلك الجهة يلبسون شـيئا على رؤوسهم ، وعند امتداد الادارة المصرية الى هرر طلب الى الأهالى أن يضعوا العمامة على رؤوسهم إذ كان أمراؤهم يأبون عليهم ذلك ، فتغطية الرأس كانت قاصرة عليهم فقط ولم يكونوا ليسمحوا لهؤلاء السكان حتى أن يغطوا رؤوسهم بجزء من الثوب الذى يرتدونه وقاية لهـم من وهج الشمس أو زمهرير البرد • وبالاضافة الى ذلك فقد طلبت منهـم الادارة المصرية أن يرتدوا كافة الملابس التى يريدونها والتى حرموا منها مثل « الجبب » و « القفاطين » (٣) • ولا شك أن مثل هذه الدعوة من لدن رجال الادارة برهان سـاطع على حرصها الشـديد فى نشر المساواة بين كافة الأهالى لا فرق عندها بين أمير أو فرد عـادى •

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ •

(٢) جريدة أركان حرب الجيش المصرى ، العدد رقم ٥ بتاريخ غـرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ • ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ •

(٣) الوثائق الافريقية — محفظة رقم ١٠٣ — التقرير السابق •

وأما ملبوسات سكان قبـائل العيسى فرجالهم عراة الرأس حفـاة الأرجل يلتف الواحد منهم بثوب قماش من عرضين طوله حوالى ثمانيـة أذرع ؛ أما نسـاؤهم فتلبس الواحـدة منهن فسـتانا من القمـاش المتواضع ولا يشترط أن يكون قـذرا أو نظيفا . والجـزء الأعلى من أجسامهن ـــ ما عدا الزراع الأيمن ـــ مستور بفوطة من القماش ويغطين رؤوسهن بزراع من قماش شديد السواد (١) .

وأما فيما يتعلق بملابس أهل الجنوب السودانى فالسكان بصفة عامة كانوا عراة الأبدان يسترون عوراتهـم بمئزر من ورق الشـجر أو جلد الحيوان ولهم ولع شديد بالعقود المصنوعة من الخرز الملون ، بالاضافة الى الأساور والحجول النحاسية والعاج والحـديد الذى يتخذون منـه زينة لهم . ويقـوم بعضهم مثل الشلك بضفر الشعر على أشكال شتى ، ويضعون فيـه الخرز والريش ، كما أنهم يقـومون بدهان أجسـادهم بالشـحم والزيت . وتتشح بعض النسوة المتزوجـات بجلد مدبوغ من جلود الأغنـام ليوارين سوآتهن . أما قبـل الزواج فتعيش الفتـاة عـارية (٢) .

وعقب امتداد الادارة المصرية بدأ الجنوبيون وخاصة الزعماء منهم يأخذون بالزى العـربى (٣) .

الدلكة والشـلوخ :

ومن العادات المشهورة لدى أهل السودان وخاصة القبائل العربيـة عادة « الدلكة » وهى عبـارة عن عدة مواد مكونة من عجين الذرة ودقيق القرنفل والمحلب وخشب الصندل والظفر ويعرف « المربوع » واذا أضيف

(١) جريدة أركان حرب الجيش المصرى ، العـدد رقم ٥ بتاريخ غـرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ . ص ٣٨٩ .

(٢) عمر طوسون : المرجع السابق . ص ٦٣ .

(٣) محمد عمر بشير : جنوب السودان . ص ٣٦ .

اليـه اللبـان سمى بالمخموس ، ويضيف اليـه الخاصة المسك ويعرف « بمعجون الخاصة » • والدلكة للنوعين من الرجال والنساء حيث يمضون كثيرا من أوقاتهم ممددين على الجلود ، بينما يقـوم العبيد بتدليكهم ، ويقول « جسى » ان هـذه العملية تجعلهـم فى حالة استنزاف شـديد لا يفيقون منه إلا عند شعورهم بالحاجة للطعام (١) •

وأما الشلوخ * فهى من العادات القديمة والأكثر شيوعا بين سكان السودان وهى عبارة عن خطوط على الخـدود ناتجة من أثر « الفصد » بالموسى ، ولا يحوى هذا المفهوم تلك العلاقات الموسومة على الجباه لدى القبائل النيلية فى جنوب السودان أو تلك العـلامات الناتجة عن الكى بالنار أو المواد المحرقة على الوجه كما هو الحال عند النوباويين بكردفان • ويقال أن الجزء الشمالى من السودان وخاصـة بلاد النوبة قـد عرف الشلوخ منذ العهد المروى (٧٥٠ ق • م ـــ ٣٥٠ ق • م) حيث وجدت بعض تماثيل ونقوش لأشخاص « مشلخين » ترجع الى ذلك العصر •

ويميز الدكتور يوسف فضل بين ثلاث وظائف للشلوخ فى السودان : قبلية ودينية وجمالية • فأما الوظيفة القبلية فقد ظهرت بظهـور القبائل فى السودان والتى وجدت شيوع عادة الشـلوخ فعملوا على تطويعهـا أو توظيفها قبليا ، ذلك أن هذه القبائل العربية لما بدأت تستقر وتنصهر بالسكان الآخرين بالسودان نتيجة عمليات الزواج والاختلاط الأمر الذى أدى الى ظهور نتاج جـديد من السكان أشـبه شـكلا وأقرب لونا الى

---

(1) Gessi; Op. Cit. p. 32.

(*) الشلخ فى اللغة هو الأصل والعرق ، والشلخ عند العامة لحـاء الغصن والشجرة . وهناك مترادفات الشلخ وهى : الفصد ومعناه قطـع العرق ، والوسم وهو اثر الكى ، والوشم وهى العلامات التى ترسم بالابرة وتحشى ببعض المواد ، والالعاط وهى الكى فى عرض العنق ، كما أن اللعطة أو العلطة تعنى الخط الأسود أو الأصفر الذى تخطه المرأة فى خدها للتزين .
(انظر : يوسف فضل حسن : الشلوخ ة أصلها ووظيفتها فى سودان وادى النيل الأوسـط . ص ٩ ـــ ١٥) .

الشعوب التى عاشوا بينها فخشوا أن يذوب كيانهم وتنمحى خصائصهم فرأوا الاستفادة من هذه العادة واتخذوها سمة لهم تميزهم عمن حولهم شكلا وموضـــوعا .

وقد شجعهم على المضى فى تنفيذ هذه العـــادة أن بعض أحفادهم من ذوى البشرة المائلة للسواد بدأوا يتعرضون للرق من جانب تجـــار الرقيق وغيرهم دون التميز بين المسلم وسواه (١) .

وتعتبر الجماعة الجعلية العباسية ، وهى أكثر القبائل الســـودانية عروبة ، أو استعرابا وغيرهم من المجموعات المستعربة ، من أكثر سكان السودان تمسكا بعادة الشلوخ دون غيرهم من النوبيين والبجة والبدو . وتصل أهمية هذه العادة الى درجة اجتماعية خطيرة حين كان ينظر عامة الناس ، وخاصة سكان المنطقة الوسطى من حوض النيل الى الشـــخص غير المشلخ (أو الأمرء) نظرة استخفاف لأنه أهمل سمة القبيلة وعـــادة الآباء ، كما أن تركها كان فى نظرهم من عادة العبيد لا الأحرار .

ومن أمثلة الشلوخ القبـــلية التى ســـادت عند الجعليين الشـــلوخ العمـــودية الثلاثة ، وشلخ الســـلم * ذى الدرجة الواحـــدة ، وشلخ « الواســـوق » وهو كحرف T ويسمى أيضا (درب الطير) .

وبمرور الزمن ونتيجة لهجرة الجعليين الى أجزاء السودان وازدياد نفوذهم الاقتصادى والثقافى انتشرت « شلوخهم » فى تلك المناطق كما هو الحال عند الدناقلة الذين استخدموا شلخ السلم وان كان ماكمايكل يرى ان هذا السلم أصبح سمة لرقيق على دينار فى أقصى الغرب (٢) .

أما الشايقية وان كانوا من الجعليين فقد انفردوا بشلخ خاص بهم

---

(١) يوسف فضل : المرجع السابق . ص ٤٥ ، ٤٦ .

(*) H

(٢) Mach Michael; Op. Cit. Vol. I. p. 214.

أنظر أيضا : يوسف فضل : المرجـــع السابق . ص ٥٤ .

وهو عبارة عن ثلاثة خطوط افقية متوازية * • وتعد الشايقية من أكثر القبائل حرصا على هذه الشارات التى تميزهم عن غيرهم ، ويرجع هذا الحرص الى عاملين : أولا : لكونهم أقوى قبيلة فى الجزء الشمالى من السودان ، وكانوا كثيرى المنازعات والحروب مع جيرانهم الأمر الذى بات يستدعى أن تكون لهم علامات مميزة أثناء القتال ، وثانيا : أنهم كانوا يعدون الشلوخ نوعا من الجمال •

وكان للعبد لاب شلخ خاص بهم عبارة عن ثلاثة خطوط عمودية متوازية ينتصفها خط أفقى ** ، وتعرف عندهم « بالثلاثة مطارق وعارض » ولنسائهم شلخ خاص عبارة عن ثلاثة خطوط عمودية تستند على خط أفقى ويسمى العارض *** • ويبدو أنه بانتهاء النفوذ السياسى للعبد لاب فى عام ١٨٢١ وازدياد الوعى فى منطقة ماتقى النيلين ، بالاضافة الى انتشار الطرق الصوفية • التى صهرت أكثر القبائل فى بوتقتها قد أدى الى اهمال الشلوخ ذات المدلول القبلى (١) •

وأما الوظيفة الدينية للشلوخ فكانت تتمثل فى أن هذه الشارات أصبحت تمييزاً لمريدى بعض الطرق الصوفية ، وخاصة القادرية • وأول من تمثل « الشلوخ » فى مضمونها الدينى هم أتباع الشيخ حسن ود حسونه بن الحاج موسى (١٥٦٠ — ١٦٦٤) فقد كان يزين وجوه أتباعه « شلخ » خاص على هيئة رقم (١٧١) ويعرف « بشلخ الشيخ حسن » أو « الشبور » (٢) •

وتبرز الوظيفة الدينية للشلوخ واضحة لدى مريدى الطريقة السمانية حيث ميزوا أنفسهم بشلخ خاص يسمى (سلم الشيخ الطيب)

(*) ☰

(**) ├┼┤

(***) ⊔⊔

(١) يوسف فضل : المرجع السابق • ص ٦٠ •

(٢) نفس المرجع ص ٦٤ — ٦٥ •

صاحب الطريقة بالسودان ، ولهذا السلم ثلاثة أشكال ، أشهرها السلم ذو الدرجتين * أو ما يسمى (بسلم العقيدة) ، وثانيهما هو السلم ذو الدرجة الواحدة ** الذى كان منتشرا بين الجعليين ، وثالثهما وهو عبارة عن أربع « فصدات » على هيئة مستطيل أو مربع *** .

وهناك ملاحظتان هامتان حول الوظيفة الدينية للشلوخ الأولى : أن هذه الشلوخ تقتصر على الرجال دون النساء ، وتفسير ذلك أن النساء كن أكثر شغفا بالشلوخ ذات المدلول الجمالى ، والملاحظة الثانية أن الشلوخ بعد أن ازدهرت فى المنطقة الوسطى من حوض وادى النيل الأوسط واكتسبت مضمونا قبليا انتقلت الى الاقليم الواقع جنوب ديار الجعليين أو فى أطرافه لتأخذ مضمونا دينيا صوفيا .

أما الوظيفة الثالثة للشلوخ فكانت وظيفة جمالية ، فعلى الرغم من أن هذه الشارات تحدث تشويها لخلقة الخالق ، فقد ساد الناس اعتقاد ، وخاصة بين أوساط العامة ، بأنها تضفى حسنا وسحرا وجمالا على وجه المرأة . ويبدو أن السودانيين قد تأثروا بهذا المفهوم الجمالى من عملية الوشم المنتشرة بين كثير من نساء الشرق الأوسط ، إلا أن سواد بشرة المرأة السودانية لم يكن ليساعدها فى اظهار هذا الوشم الأمر الذى يقلل من قيمته الزخرفية ، فاكتفت باجرائه على الشفتين واللثة ، ولذلك كله استعاضت عن الوشم بالشلوخ زينة لها .

وخلال زيارة صمويل بيكر لعرب الحمران فى منطقة القضارف عام ١٨٦١ لاحظ هذه الشلوخ ، وعدها نوعا من الجمال رغم ما تحدثه من تشويه (١) .

(*) |=|

(**) H

(***) |=| |=|

(1) Baker; Samuel N; The Nile Tributaries of Abyssnia and the Sword Hunters of the Hamran. p. 273.

أنظر أيضا : يوسف فضل حسن : المرجع السابق ص ٧٦ .

وقد امتدح بعض الشعراء هــذه الشلوخ التى كانت تزين خــدود النســاء بقولهم :

يــرف عليــه شــباب الفنــــون وتبرق فى وجنتيــه الفصـــد

كما امتدح البعض هذه الشلوخ على وجه الرجال أيضا فقال قائلهم :

وذو شرط اذا لــف العمـــــامة تعــالى اللــه ما أبهى قوامـــه
رضيت بشرطه فى طــول عمــرى لأن الشرط آخــره الســلامة (١)

تلكم هى أغلب عادات السودانيين فى القرن التاسع عشر منهــا من استمر ولا زال ، لأن العادة من سمتها طول البقاء وان دخلها شيء من التحوير ، ومنها من اندثر وخاصة ما كان يتصــل بالخرافات ، وهــذا الاندثار يرجــع الى التطورات العلمية الحــديثة وازدياد الوعى بــين المواطنين، كذلك فقد شهدنا أن المرأة فى هذا المجتمع بصفة عامة قد تمتعته بمركز لا بأس به ، فقد كانت تلعب دورا أساسيا بجوار الرجــل فهى بجواره فى الحقل ، وهى تاجرة بالأسواق وهى أيضا تتحمل قسطا كبيرا فى أعمــال البيت وانشاء المساكن .

ولا شــك أن الادارة المصرية قد حاولت — على استحياء — ان تقضى على بعض العادات السيئة وخاصــة ما يتصل بأنواع السحر ، وادخال عادات وتقاليد جديدة كما شهدنا فى هرر حيث دعت الجميع الى ارتــداء الملابس وأغطية الرأس التى كان بعضها قاصرا على الأمــراء فقط ، كما أن بعض سكان الجنوب وخاصة الزعماء منهم بدأوا يرتدون الملابس ذات الطابع العربى بعد أن كانوا عراة حفاة ، الأمر الذى يعد نقله لا بأس بهــا فى تطور الحياة الاجتماعية السودانية .

---

(١) يوسف فضل : المرجع السابق ص ٨٠ ، ص ٣٥ .

الفصل السابع

الطرق الصوفية والمجتمع الســودانى

— عوامل انتشار الطرق الصوفية فى السودان .

— أهم الطرق التى دخلت الســودان .

— البناء الدينى والاجتماعى للطرق الصوفية .

— الصوفية والفكر الدينى .

— آثار الصوفية الثقافية والاجتماعية .

— الطرق الصوفية والحــكم .

ان الباحث فى الحركات الثورية التى عمت الشرق فى القرن التاسع عشر ليلاحظ بوضوح مدى ارتباطها بالتيار الدينى ، والاسلامى منـه على وجه الخصوص •

ويبدو أن هناك تلاحما حميما بين الايديولوجية والرؤوى الدينية ، ولم يكن هذا التلاحم قاصرا على الشرق وحسب ، بل برز بشكل جلى فى أوربا العصور الوسطى التى أدمجت علم اللاهوت بكافة الأشكال المعبرة عن الأيديولوجية كالفلسـفة والسياسة والقـانون وجعلت منها جميعـا أقساما تابعة لهذا العلم ــ علم اللاهوت ــ ، ولهذا اضطرت كل حـركة اجتماعية وسياسية أن تتخذ لنفسها شكلا دينيا حتى تحـدث أثرها فى الجماهير المتخمة بالغذاء الدينى وحده ، مضطرة أن تقدم لهذه الجماهير مصالحها الخاصة فى اطار دينى •

وهذا القول ــ ربما ــ يصدق على ما جرى فى السودان عام ١٨٨١ حين برزت الدعوة المهدية فى اطار دينى • لهذا كله لابد أن نتسـاءل عن الخلفية الدينية التى نما فى رحمهـا هذا الفكر الدينى ، وهو سـؤال ــ فى تقديرنا ــ جد خطير ويطرح نفسه عند عام ١٨٨١ فى محـاولة للبحث عن أصول أو مقدمات لهذا الانفجار ، تقتضى منا بالضرورة أن نعرض لدراسة الطرق الصوفية قبل عام ١٨٨١ والتى تربى فى كنفهـا قطـاع ضخم من الشعب السودانى فى القـرن التاسـع عشر بحيث استطاعت أن تشكل تلك الطرق كثيرا من فكره ، الأمر الذى جعل القيادات التى توجه هذا الفكر ــ فى نهاية المطاف ــ ذات أصول دينية أيضا •

لقد شهدت منطقة حوض وادى النيل فى مصر والسودان فى مستهل القرن التاسع عشر حدثين هامين فى المجـال السياسى والدينى [1] ، الأول كان يتمثل فى حركة البعث أو اليقظة لقوة مصر السياسية تحت زعامـة محمد على وامتدادها بطول وادى النيل والبحر الأحمر • أما الحـدث

---

(١) Trimingham, J.; Islam in Ethiopia. pp. 114-116.

الثانى فقد أخذ شكل يقظة دينية بين جموع السكان فى شرقى السودان ، بدأت على استحياء فى بادىء الأمر ثم أخذت تنمو لتأخذ فى النهاية شكل الثورة المهدية • وهذه اليقظة الدينية السودانية لبست رداء الطرق الصوفية حيث راحت تتعمق فى تعاليم روحية •

ويمكن أن نميز — فى العالم العربى ابان القرن التاسع عشر — بين نوعين من التيارات الدينية كلاهما كان يدعو للاصلاح : الأول بدأ فى مقاومة البدع الدينية التى أدخلت على المجتمع الاسلامى بالسلم تارة وبالصدام المسلح تارات أخرى ، حتى وصل الى أزمة الحكم ، أى ان هذا التيار لم يكن يفرق بين الدين والدولة • أما التيار الثانى فقد أخذ شكلا صوفيا هادئا ، وهو ما يعنينا هنا ، حيث زخر السودان بصور وألوان شتى له تمثلت فى الطرق الصوفية •

ويبدو أن هذا النشاط الدينى بشقيه الظاهر والمستتر كان بمثابة رد فعل لضعف السلطة المركزية فى الخلافة العثمانية ، حيث تفتت وحدة المسلمين وبدأت أوطانهم تخضع للاستعمار الأوربى ، فراح هؤلاء الصوفية يعملون فى الحفاظ على تلك الوحدة التى عزت فى الميدان السياسى (١) •

وحين نرصد أو نتلمس تطور الظواهر الصوفية فى السودان فسوف نعتبر عصر سلطنة الفونج هو بداية التطور الحقيقى للزهد ، وتمذهبه نحو التصوف (٢) •

عوامل انتشار الطرق الصوفية فى السودان :

هناك جملة عوامل أدت الى انتشار الصوفية فى السودان ، سواء فى عصر الفونج أو فى خلال الادارة المصرية للسودان ، ومنها ان هذه

---

(١) حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية • الجزء الأول • ص ٦٢ •

(٢) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان • ص ١٠ •

الطرق كانت تلقى رواجا فى البلدان المجـاورة لـه أو التى كانت على صلة بها كالحجاز والعراق ومصر والمغرب ، فمن هذه البلاد جاء دعـاة الطرق وقاموا بنشر دعوتهم أو أوكلوها الى مواطنين سودانيين • كما أن السودان ــ فيما يبدو ــ له ميل الى الاعتزاز بالانتساب الى جمـاعة معينة •• الى قبيلة أو حـزب أو جمعية أو نقابة أو طريقة ، وهـذا الميل يبدو جليا لمن يتتبع تاريخ السودان •

كذلك فقد أظهر بعض المشايخ الكثير من الصفات الطيبة مما جعل الناس البسطاء يلجأون اليهم فى ساعات العسر والضيق لقضاء مصالحهم ، فكانوا يلقون عندهم الانقاذ المادى والروحى • وربما ساعد على انتشار الطرق الصوفية أيضا أن السودان لم يكن ــ آنذاك ــ به مؤسسة علمية كبرى كما كان الحـال بمصر إذ وجد الأزهر الشريف الذى التمس الناس فى أروقته العلوم الدينية التى أعطتهم شـيئا من الثقافة بينمـا راح السودانيون وجيرانهـم الأفارقة يلتمسون فى الطـرق الصـوفية بديلا للأزهـر •

ومن العوامل الأخرى التى سـاعدت على انتشـار التصـوف فى السودان ان أحوال البلاد قبيل عهـد الفونج كانت ممهدة لتقبل هـذه الطرق والانضواء فى سلكها ، فقد هاجر كثير من العرب الى السـودان تحت ضغوط سياسية سواء فى الحجاز أو مصر أو افريقية الشمالية حين آلت كلها للحكم الفاطمى ، فأصبح السودان ملاذا وملتقى لهذه الجموع النازحـة • وقد مل هؤلاء العرب التقلبات السياسية ، وكرهوا الحـكم الفاطمى خاصـة ، الى أن جاء بنو أيوب فكانوا أقرب الى قلوبهم من الفاطميين ، ثم لم يلبثوا أن شهدوا نهـاية الأيوبيين على أيدى المماليك البحرية عام ١٢٥٠ م وبعدها بنصف قرن راح بيبرس يبعث حمـلات الى السودان ويعمل السيف والنار فى بلاد النوبة ، وتزداد الحالة سوءا بالانقسامات الداخلية بين مسيحى النوبة وتدهور الأوضاع السياسية الى درجة خطيرة ، بالاضافة الى الغارات والحـروب المستمرة والعصبيات

القبلية التى كانت تمزق البلاد فى كل حين • كل ذلك أورث فى نفوس السودانيين رغبة وشوقا الى حياة هادئة بعيدة عن السياسة والعصبية ، الى أن وجدوا فى عهد الفونج هؤلاء المشايخ المتصوفة الذين يدعون الى الانتظام فى سلك العبادة حتى دخلوا أفواجا وفى حماس شديد (١) •

وللمرحوم عباس العقاد رأى قريب من ذلك حيث يقول : « ويخطر لنا أن شيوع الطرق الصوفية فى السودان قد نجم عن هذا الشقاق بين أشياع الدول الاسلامية المتعاقبة ، فانتشرت فيه الجماعات الصوفية التى تدين بالألفة بين أعضائها وتعرض فى سبيل ذلك عن التشيع لهذه الدولة أو لغيرها » (٢) •

وهكذا بدأ السودانيون يتحلقون حول هذه الطرق الصوفية ، وبمرور الوقت ازداد مريدوها ومؤيدوها ، ووجدوا فيها ضالتهم المنشودة • وقد ذهب البعض للتعبير عن شدة ولاء السودانيين لهذه الطرق الى قوله بأن للسودانيين ولاء أقوى من العاطفة القبلية ، وأكثر حيوية من تبعيته لخديوى مصر ، وهذا الولاء الثالث للاسلام ، والذى انبثقت من تعاليمه الطرق الصوفية (٣) • كما ذهب آخر الى أنه يكاد كل مسلم سودانى ينضوى تحت طريقة صوفية (٤) •

ويعرف البعض الطرق الصوفية بأنها نظام يجمع عددا كبيرا من الناس فى سلك واحد ، ولهذا السلك رئيس يسمى شيخ الطريقة ، وهو

---

(١) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٦٥ — ٦٦ •

(٢) الاسماء العربية فى السودان ؛ مجلة الكتاب ، يوليو ١٩٥٢ ، ص ٧٩٣ وما تعدها •

(٣) هولت • ب • م • : المهدية فى السودان • ترجمة جميل عبيد ص ٣٤ •
انظر ايضا : عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية ، الجزء الثانى • ص ١٥٢ •

(٤) Hamilton; The Anglo Egyptian Sudan from within. p. 209.

القائد والمرشـــد لاتباعه ، ولا يتبادر الى الذهن أبدا أن هذه الطـــرق عبارة عن مذاهب أو فرق دينية مثل فرقة الشيعة أو السنة (١) .

أهم الطرق التى دخلت السودان :

القـــادرية :

وكانت من أكبر الطرق انتشارا فى العالم الاسلامى ، وقامت على يد عبد القادر الجيلانى فى القرن الثانى عشر الميلادى ثم دخلت افريقيا الغربية فى القرن الخامس عشر . وفى حوالى عام ١٥٤٥ قـــدم شـــخص الى الســـودان يدعى « تاج الدين البهارى » وأدخل القادرية فى ربوعه . وقد التقى هذا الرجل بأربعة رجـــال التفوا حوله وهم : محمد الأمـــين ابن عبد الصادق جد الصادقاب ، و « بان النقا الضرير » جد اليعقوباب وكان يكنى بأبى يعقوب ، والشـــيخ عجيب المانجلك جـــد العبدلاب . و « عبد الله دفع الله العركى » جد العركيين (٢) ، وهؤلاء الأربعة كانت بيدهم السلطتان الزمنية والروحية زمن الفونج (٣) .

ولقد انتشرت هذه الطريقة فى ارتريا ومصوع واعتقد أهل مصوع ان عبد القادر الجيلانى نفســـه قد توفى فى شبه الجـــزيرة حيث وجـــد مسجد يحمل اسمه ، ولعبد القادر الجيلانى مزار عندهم يحمل اســـمه حيث يحتفلون به فى الحـــادى عشر من ربيع الأول من كل عام (*) . كذلك فقـــد ذاع انتشـــارها فى هرر على يـــد الشريف أبو بكر بن عبد اللـــه العيدروسى المتوفى عـــام ١٥٠٣ ، وبين مسلمى الجـــالا . وكان للأمـــير

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى . ص ١٨ .

(٢) Wailis, OB. Religious Confraternities of the Sudan (S.N.R.) Vol. IV, 1921, No. 4. p. 180.

(٣) عبد المجيـــد عابدين : المرجـــع السابق ص ٦٦ ، انظر ايضـــا عبد القادر محمود : الفكر الصوفى فى السودان . ص ٥٢ وأيضا :
Wailis; Op. Cit. p. 180.

(*) المعروف أن عبد القادر الجيلانى مدفون بالعراق .

عبد الشكور أمير هرر (١٨٧٣ – ١٨٨٤) مسجد أوقف لصاحب الطريقة عبد القادر الجيلانى (١) •

ومع ان هذه الطريقة قد اخذت طريقها على الساحل الصومالى فى وقت مبكر إلا أنها لم تغزو الداخل إلا فى عام ١٨١٩ حيث حصل الشيخ ابراهيم حسن جبرو على أراضى وأسس مركزا بدأ ينمو فى المدينة التى تسمى بارديرا Bardera على جوبا • وتجدر الاشارة الى أن هذه الطريقة حظيت بتأييد قوى بارتريا ومصوع وأسمره ومعظم المدن الكبرى ، كما أنها تمتعت بنفوذ قوى أيضا بين القبائل الساحلية • وكثير من بدو أرتريا يعدون عبد القادر الجيلانى من الأولياء الصالحين ذوى المكانة الروحية الكبيرة (٢) •

ولقد اتسم نشاط القادرية فى الدعوة الاسلامية بالطابع السلمى الذى كان يعتمد كل الاعتماد على الارشاد والقدوة الحسنة ، كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم فى تلاميذه وعلى انتشار العلم ، وبهذا السلوك برهن دعاة القادرية فى السودان على انهم أوفياء لمبادىء مؤسس الطريقة ولتقاليدها العامة التى كانت تسيطر على حياة عبد القادر الجيلانى والمتمثلة فى حب الجار والتسامح • وفى ذلك يقول « سير توماس أرنولد » « ولم نجد فى كتبه ولا فى مواعظه ما يدل على سوء نية أو عداوة نحو المسيحية » (٣) •

الطريقة الخلوتية :

يرجع تاريخ هذه الطريقة الى بضعة مئات من السنين عقب ظهور القادرية • ومؤسسها هو شخص يدعى محمد الخلوتى ، والرأس المعروفة

(١) Trimingham; Op. Cit. pp. 239 - 240.

(٢) Ibid. pp. 240 - 241.

(٣) أنظر : الدعوة الى الاسلام • بحث فى نشر العقيدة • ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخر • ص ٢٧٨ •

لهذه الطريقة هو تلميذه عمر الذى توفى فى قيصرية * عام ١٣٩٦ م • ولقد ظلت هذه الطريقة لسنوات طويلة فى آسيا الصغرى وتركيا والحجاز والهند • وفى القرن الثامن عشر دخلت الطريقة فى طور جديد على يد السيد مصطفى كامل الدين البكرى الذى كان استاذا بالأزهر الشريف والمولود بدمشق عام ١٧٣٣ • أما تاريخ دخولها الى السودان فقد كان على يد السيد أحمد الطيب ولد البشير المتوفى عام ١٨٢٣ • وقوبلت هذه الطريقة بترحاب شديد فى السودان وأصبح لها أتباع كثيرون • ولقد كانت أسرة محمد شريف باشا نور الدايم على رأس الطريقة فى ظل الادارة المصرية (١) •

الطريقة السمانية :

وأصل هذه الطريقة فرع من الطريقة الخلوتية والكل ينتمى الى القادرية • وتنسب السمانية الى الشيخ محمد بن عبد الكريم السمانى (١١٣٠ هـ — ١١٨٩ هـ) ، ثم استقرت على يد الشيخ أحمد الطيب فى مطلع القرن التاسع عشر ، وكان انتشارها فى بادىء الأمر بين الكواهلة وغيرهم من عرب الجزيرة (٢) • وقد اشتغل الشيخ أحمد الطيب بدراسة الحديث والتفسير والتصوف ، ثم بدأ ينتقل هنا وهناك فى رحاب السودان ملتقيا بأعلام التصوف فى زمانه أمثال الشيخ حمد المجذوب شيخ المجذوبية فى « الدامر » وسافر الى الحجاز ونزل بأرض مصر فى أسيوط ومدن الصعيد ومكث فترة طويلة بالقاهرة حيث صاهره تلميذه قاضى القضاة أحمد السلاوى • ومن أحفاد الشيخ أحمد الطيب الشيخ محمد شريف نور الدايم استاذ المهدى ، والذى أعطاه الطريقة السمانية (٣) •

(*) تقع فى تركيا •

(١) Wailis, Op. Cit., p. 182.

(٢) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان ص ٣٢ •

(٣) نفس المرجع ص ٣٢ •

ولقد انتشرت الطريقة السمانية بين جموع الجبرتية فى الهضبة الارترية على يد شيخ مغربى يدعى آدم الكنانى * • وكان هذا الشيخ من السودان فقام بنشرها بين قبائل الجالا ، إلا أنه لم يحرز نجاحا كبيرا بين عرب الحبشة (١) •

الطريقة المجذوبية :

وهذه الطريقة مأخوذة من الطريقة الشاذلية التى أسسها الامام أبو الحسن الشاذلى (١١٩٦ — ١٢٥٨ م) المولود بشاذلة بتونس (٢) • وقد انتشرت طريقته فى مراكش فى القرن الخامس عشر على يد أبى عبد الله محمد سليمان الجزولى ، ويقولون ان احدى بناته تزوجت من الشريف حمد أبى دنانة الذى نزح الى السودان وبصحبته ابنه السيد ابن الحسن وأقاما فى المكان المسمى الآن (المحمية) وذلك فى عام ١٤٤٥ م قبل قيام السلطنة الفونجية وراحا يشرحان للناس الطريقة الشاذلية الى أن رسخت دعائمها زمن الفونج على يد الشيخ خوجلى عبد الرحمن المحسى المتوفى عام ١٧٤٣ • ويقال أيضا أن هذا الشيخ كان فى أول الأمر قادريا ثم أصبح شاذليا أى أن طريقته شاذلية ذات

(*) لم يذكر المؤلف تاريخا لدخولها ونرجح انها دخلت فى منتصف القرن ١٩ •

وقد تفرعت عن السمانية طريقة اخرى تسمى الهندية تحت رئاسة الشريف يوسف الهندى • (محمد عوض : المرجع السابق ص ٢٠) •

(٢) عبد الحليم محمود : المدرسة الشاذلية الحديثة وامامها أبو الحسن الشاذلى ص ٢٤٩ • ولكن احد الباحثين يرجع تأسيس هذه الطريقة الى شخص يدعى أبو مدين الأندلس المولود بسيفيل Seville عام ١١٢٦ م • وكان تلميذا للشيخ عبد القادر الجيلانى • وانتشرت تعاليمه فى شمال افريقيا على يد عبد السلام بن مأسيس Mashish وفى الشرق عن طريق أبى الحسن الشاذلى •

أنظر : (Wailis; Op. Cit. p. 183.)

والاختلاف يدور هنا فقط حول المؤسس الرئيسى لها ولكن لا خلاف على أن الشاذلى قام بنشر هذه الطريقة •

أثر قادرى (١) • وفى القرن الثامن عشر انتقلت الطريقة من بعـــده الى حمد بن محمد المجذوب (١٦٩٣ — ١٧٧٦ م) الذى أنشأ بعد عـــودته من مكة فرعا للشاذلية فى الدامر وسميت طريقته بالمجذوبية ويطلق على من يسلكونها اسم « المجاذيب » (٢) •

ويبدو أن أسرة المجاذيب فى ذلك الوقت كانت تحظى بمكانة دينية رفيعـــة بين سكان الدامر الأمـــر الذى جعلها تأخـــذ زعامة الطريقـــة وتتوارثهـــا (٣) •

وقد يكون من المفيد ونحن نتتبع تطور هذه الطريقة أن نعـــرض لأوضاع بلدة الدامر ، موطن المجاذيب وطريقتهم ، من الناحية العلميـــة والدينية فى مطلع القرن التاســـع عشر حتى يمكننا فهم هذه الطـــريقة واسلوب انتشارها بين سكان السودان • وفى هذا الوصف يتجلى لنا مدى السلطة الدينية التى كانت تحظى بها الطريقة المجذوبية • فقـــد كانت عشيرة آل المجذوب فى معظمهم من رجال الدين وليس لهم شيخ يتولى زعامتهم ، بل فقيه يسمى « الفقى الكبير » فهو الرئيس الفعلى والقاضى الذى يتولى الفصل فى خصوماتهم ، وأصبح هذا المنصب وقفا عليهم منذ مـــدة طويلة وأشتهروا بين الناس — كما يذكر بوركهارت — « بالسحر والعرافة » * •

(١) عبد المجيد عابدين . المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٨ .
(٢) نفس المرجـــع ص ٦٨ • ويبـــدو أن هنـــاك اختـــلافات كثـــيرة حـــول النســـب المجـــذوبى وقد نشـــأ هذا الاختـــلاف نتيجـــة التشـــابه الشديد بين الأسماء مما سبب خلطا كثيرا لـــدى المؤرخين قدامى ومحدثين فى الشرق والغرب . فهم يخلطون بين الفقية حمد بن المجـــذوب وجده الكبير حمد عبد الله . وبين محمد المجذوب بن قمر الدين وبين جدابية محمد المجذوب ابن على أبى دافع .
(عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان ص ٨٥) .
(2) Wailis; Op. Cit. p. 183.

(*) لا يسمى رجال الدين من الفقهاء والمتصوفة ذلك سحرا أو عرافة بل يعدونه كرامات ظاهرة « منحها الله اياهم » .
أنظر : مخطوطة كاتب الشونة : تحقيق الشـــاطر بصيلى ص ١١١ ، ص ١١٢ .

وكانت بالبلدة مدارس كثيرة يؤمها الطلاب من كافة أنحاء السودان من دارفور وسنار وكردفان وغيرها لدراسة الفقة دراسة تؤهلهم ليكونوا فى بلادهم فقهاء كبارا • كذلك فقد زخرت بيوت فقهـاء الدامر بالكتب ذات الطابع الدينى ، وهذه الكتب كانت تجلب من القاهرة إذ كان كثير من الفقهاء مجاورا بالأزهر أو فى المسـجد الحرام بمكة ، وكانوا اذا عادوا من تلك الرحلات العلمية التى تمكث سنوات عـدة نقلوا ما حصلوه من علم الى أبنـاء البلدة (١) • وكان بالبلدة جامع كبير ملحق بـه مكان مكشوف محاط بحجرات للدرس ، وبالاضافة الى ذلك كان لكثير من فقهاء البلدة زوايا صغيرة بجوار بيوتهم ، كمـا كان كبار الفقهـاء محاطين بمظـاهر الورع والتقـوى ، ويعيش « الفقى » الكبير عيشة العـابد المتقشف المنقطع للعبادة والدرس ، وقد أطلق بوركهارت على كل ذلك وصـف « الدولة الدينية الصغيرة » التى كانت تصرف شئونها بمنتهى الحكمة والتعقل ، واستطاعت أن تجعل جيرانهـا يكنون لفقهاء أعظـم الاحترام والاجـلال (٢) •

فى وسط هذا المناخ الدينى والعلمى نمت المجذوبية ، فكان زعماء المدينة الدينيون وأهلهـا مؤهلين لتقبل تعاليم الطريقة المجذوبية فهـذه الرياح الجديدة ليست غريبة عليهم •

ومعروف أن أسرة المجـاذيب من الجعليين لذلك فانه عقب مقتـل اسماعيل كامل فى شندى ، ومحاولات أخـذ الثأر من الجعليين هـرب المجذوب الى سواكن ، ثم سـافر الى مكة حيث درس لسنوات عـدة على يد السيد أحمد ادريس ، وفى خـلال عودته الى السودان فى حوالى عـام ١٨٣٠ قام بنشر الطريقة فى سواكن وبين القبائل الشرقية المنتشرة

---

(١) بوركهارت المصدر السابق : ص ١٠٥ ، ص ٢٠٦ •
(٢) نفس المصدر ص ٢٠٧ •

حول سواكن من البجاة وخاصة الهدندوة والبشاريين • وقد عاد المجذوب الى بلدته عام ١٨٣٢ حيث مات ودفن هناك •

وكان من بين خلفائه الشيخ ياسين السواكينى والشيخ على دقنه عم عثمان دقنه الشهير (١) •

ويبدو أن أتباع هذه الطريقة كانوا يتمتعون بصفات طيبة واخلاص واضح لتعاليم طريقتهم ، من ملازمة للأذكار والرواتب عقب الصلوات وأتباع للأمر والنهى والاقتداء بشيخ الطريقة والسير على نهجه وامتناعهم عن الأكل مع تارك الصلاة ، كذلك فانهم كانوا يحرصون على صلاة الجماعة ، فاستطاعوا بذلك كله ترسيخ قواعد هذه الطريقة (٢) •

ويشير البعض الى طريقة أخرى ذات صلة بالشاذلية وان كانوا لا يقطعون بصحة هذه الصلة تلك هى المسماة بطريقة (أبو جريدة) حيث يقولون ان عبد الله دفع الله العركى عاد من احدى رحلاته الى مكة ومعه سبعة أشراف استوطنوا السودان واشتهروا بالصلاح وكان لأحدهم ولد يدعى « الشريف أبكر » انقطع للعبادة دون أخذ الطريقة على شيخ وتعلم أمورا فى السحر والغيبيات ، ثم استطاع أن يعلن مع زميل له يدعى (أبو جريد) قيام هذه الطريقة (٣) •

وتتهم هذه الطريقة بالخزعبلات ، وشيوع طقوس سرية غير مألوفة لدى كافة الطرق الصوفية فى السودان (٤) • ولما كانت تعاليم الطريقة الشاذلية — كما ذكرنا — بعيدة عن مثل هذه الطقوس ، فاننا نستبعد

---

(١) Wailis, Op. Cit. p. 184.

(٢) يحى محمد ابراهيم : التعليم الدينى فى السودان ص ٣٤ .

(٣) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٤) Wailis; Op. Cit. p. 184.

أن تكون طريقـــة أبو جريدة ذات صلة بالشاذلية التى كانت البســاطة سمتها الأساسية (١) •

الطريقة الادريسية (الأحمــدية) :

مؤسس هذه الطريقة هو الســيد أحمــد بن ادريس القاســمى (١٧٦٠ ــ ١٨٣٧) ، المولود ببلدة Arkish بمراكش • وقد تلقى تربيته ونشأته بفاس ، وتلقى الطريقة الشاذلية من الشيخ عبد الوهاب التازى • وقد سافر الى القاهرة فى عام ١٧٨٨ واتجه منها الى مكة فى عام ١٧٩٧ حيث تلقى مزيدا من العلم (٢) •

وقد لعب هذا الرجل دورا هاما فى حركة النهضة الاسلامية فى أوائل القرن التاسع عشر ، وبقدر ما كان مصلحا فهو صوفى يهــدف الى وحدة المسلمين • وكانت له ميوله المتعاطفة مع الوهابيين ، ويقال انه حــاول أن يخفف من التطرف الشديد لــدى تعاليم بعض الطرق الصــوفية ، وطلب بالتركيز على المعرفة الشرعية للقرآن الكريم والشريعة كأســاس ضرورى لكل من ينشد الدخول فى سلك الصوفية (٣) •

ولم تقتصر مهمــة أحمد بن ادريس على كونه مؤسسا وشــيخا للطريقة الادريسية بل كان معلما لشخصيات بارزة كما سبق القــول • ويتركز مريدو هــذه الطريقة فى السودان ببلدة دنقلة وان كان مركزها الأساسى ــ حاليا ــ بدراو بالاضافة الى القاهرة ، كما وأن لها فرعــا بالعسير ينتمى الى هذه الطريقة (٤) •

ولم يقتصر وصول الطريقة الى هذه الأجزاء بل انتقلت الى شرق افريقيا فى عام ١٨٧٠ على يد شيخ صومالى يدعى (على ماى دوروقبا)

---

(١) Wailis; Op. Cit. p. 183.

(٢) Ibid. p. 184.

(٣) Trimingham; Op. Cit. p. 292.

(٤) محمد عوض محمد : المرجع السابق • ص ٢٠ •

Ali Maye Durogba وقد تلقى هذا الشيخ تعاليم الطريقة الادريسية حين كان يؤدى فريضة الحج وبعد عودته وطد نفسه لنشر تعاليمها فتشكلت من حوله جماعة كبيرة ارتضت الادريسية طريقة لها • وقد حصل هذا الرجل على شهرة عظيمة بين الصوماليين وكثر أتباعه بين القبائل ، ويعزو البعض هذه الشهرة الى الأعمال الاعجازية التى قام بها بالاضافة الى ملاءمة الدعاية التى قام بها مع أفكار الصوماليين فى ذلك الوقت (١) •

الطريقة الرشيدية :

تفرعت هذه الطريقة عن الادريسية وقد أسسها الشيخ ابراهيم الرشيد من بلدة الدبة بدنقلة ، وكان مريدا للسيد أحمد بن ادريس سائرا على تعاليم الادريسية • وتركز اتباع هذه الطريقة فى دنقلة وأم درمان وجزيرة توتى والنيل الأبيض خاصة فى « كـوا » • ولهذه الطريقة أتباع فى الصومال وسوريا (٢) •

الطريقة الميرغنية (الختمية) :

أسس هذه الطريقة فى السودان محمد عثمان الميرغنى الكبير (١٧٩٣ — ١٨٥٢) الذى ولد ونشأ بالحجاز ، وتنسب الطريقة الى الجد الأكبر السيد على الميرغنى * • ويقال أن أحمد بن ادريس هو الذى أرسله من مكة لنشر تعاليمه فى مصر والسودان وما جاورهما • ويذكر البعض أن هذه الطريقة قد بنيت على أصول طرق خمس رمز لها بكلمة

---

(١) Trimingham; Op. Cit. p. 242.

(٢) Wailis; Op. Cit. p. 187-188.

(*) يقول البعض ان اسم الميرغنية يشتق أحيانا من « أميرغنى » أى الأمير الثرى • (انظر : Wailis; Op. Cit. p. 185.) •

« نقش جم » فالنون للنقشبندية ، والقاف للقادرية والشين للشاذلية ، والجيم للجنيدية وأخيرا الميم للميرغنية (١) •

وقد دعيت هذه الطريقة أيضا بالختمية لأن شيخها ـ كما يقال ـ وصل فى سلوكه الى رتبة الختم وهى مرتبة عند الصوفية لا يصل اليها إلا عارف « ولى » فى كل قرن (٢) ، أو ربما باعتبارها خاتم الطرق (٣) • أو ربما أيضا نسبة الى خاتم الأنبياء (٤) •

ولقد بدأ محمد عثمان الميرغنى رحلته من الحجاز فوصل الى أسيوط مارا ببلاد الصعيد حتى أسوان ومنها الى دنقلة التى استطاع أن يجمع فيها أنصارا عديدين من النوبيين ، الأمر الذى شجعه على مواصلة المسيرة الى كردفان حيث تزوج من « بارا » ومن الأبيض (٥) • ثم امتدت دعوته الى سنار وما حولها حتى اتجه نحو الشمال ومر بشندى والمتمة وعرج نحو الشرق الى قوز رجب وكسلا ، واستطاع من خلال جولاته تلك أن يضم الى طريقته مريدين جددا من قبائل بنى عامر والحلانقة والحباب والبشارية وغيرهم ، وفى كسلا قام بتأسيس قرية (الختمية) التى كانت المقر الرسمى والرئيسى (٦) •

ولقد تولى السيد محمد الحسن نجل محمد عثمان أمور الطريقة بعد وفاة والده عام ١٨٥٢ ، وكان قد أرسله والده فى حياته الى سواكن

---

(١) عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية ، الجزء الثانى • ص ١٥٣ •
انظر أيضا : Wailis; Op. Cit. p. 180.
(٢) نفس المرجع ص ١٥٣ •
(٣) Trimingham; Op. Cit. p. 244.
(٤) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان ١٢٩ ، ١٣٠ •
(٥) عبد القادر محمود : الفكر الصوفى فى السودان ص ٢٥ •
انظر أيضا : Wailis; Op. Cit. p. 186.
(٦) Trimingham; Op. Cit. p. 244.
Wailis; Op. Cit. p. 186.
وكذلك عبد الله حسين : المرجع السابق ص ١٥٥ •

وارتريا لنشر الطريقة هنـــاك • وهكذا بعـــد تأسيس الختمية فى شرقى السودان بدأ محمد الحسن يواصل العمـــل الذى بدأه والده حتى عمت الطريقة مصوع وأرتريا وجنوب غربى الحبشة عند نهاية القرن التاسع عشر (١) • ويعد محمد الحسن كما يقول ترمنجهام هو المسئول الرئيسى عن النفوذ الكبير الذى حصلت عليه الطريقة الختمية بين قبائل السودان فى الشرق والقبائل الأرترية • وقد انتقلت الطريقة الى مصوع عن طريق هاشم الميرغنى الذى وصـــل اليها عـــام ١٨٦٠ حيث كانت تحت الادارة العثمانية (٢) •

وعقب وفاة محمد الحسن فى عام ١٨٦٩ خلفه فى رئاسة الطـــريقة ابنه محمد الميرغنى ، (١٨١٩ — ١٨٨٦) ، الذى حاول الارتقاء بالطريقة بما عرف عنه من الذكاء والنشاط ، كما أنه تمتع بمكانة خاصـــة فى تاريخ تلك الفترة ، واستطاع أن يلعب دورا هاما خلال الطور العلنى للثـــورة المهـــدية فى محاولة منه لاحلال السلام على أرض السودان • وقـــد ظل بالختمية حتى بعد سقوط الخرطوم فى يناير ١٨٨٥ (٣) •

وتعتبر الطريقة الختمية من أوســـع الطرق الصوفية انتشـــارا فى الســـودان وتحظى بمكانة رفيعة ، كما أنهـــا تمتاز فى إذكارها وأورادها وسائر مظاهرها بخلوها من البدع والأمور الطارئة على الطرق الصوفية كالطبل والزمر وغير ذلك ، فجميع اذكارها وأورادها ترجع الى الكتاب والسنة بناء على أسانيد صحيحة (٤) • وكما سبق القول فقـــد ارتبطت الطريقة الختمية بعـــدة طرق إلا أن ارتباطها بالشاذلية كان شـــديدا ، وخصوصا من خلال مزج أحزابهم بفقرات ورسائل كاملة من أحـــزاب « البر » و « البحـــر » للامام الشاذلى (٥) •

---

(١) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية ص ١٢٨ •

(٢) Islam in Ethiopia. pp. 225, 244.

(٣) Hill; A biographical Dictionary of the Sudan p. 279.

أنظر أيضا : Wailis; Op. Cit. p. 186.

(٤) عبد الله حسين : المرجع السابق ج ٢ ص ١٥٥ — ١٥٦ •

(٥) عبد القادر محمود : المرجع السابق ١٣٣ •

وللسيد محمد عثمان الكبير مؤلفات كثيرة منها تفسير القرآن المسمى « تاج التفاسير » ، بالاضـافة الى مؤلفاته فى الحديث وعلم المصطلح والتوحيد والتصوف والصلوات والأوراد والمدائح النبوية وغير ذلك من العلوم الدينيـة (١) .

الطـريقة الاسماعيلية :

وهى من الطرق الصوفية التى انبثقت عن الختمية فى أوائل القـرن التاسع عشر ، إلا أنها تعد سـودانية النشأة بعكس كثير من الطـرق التى انتشرت فى السودان ، بمعنى أن أفكارها ومؤسسيها الأول كانوا من أهل البلاد ولم يكونوا وافدين من خارجهـا . ويعد الشيخ اسماعيل ابن عبد الله الملقب باسماعيل الولى هو المؤسس لها فى الأبيض بكردفان . وترجع أصول والده الى دنقلة بشمال السـودان الذى قدم الى مدينـة الأبيض ليعمل بالتجارة كسائر الدناقلة الذين اشتهروا بأعمال التجارة فى أنحاء السودان كافة وفى الأبيض خاصة لدرجة أن لهم حيا خاصا عرف بحى الدناقلة . وفى هذا الحى ولد اسماعيل الولى ونشأ وحفظ القرآن الكريم وأظهر نبوغا مبكرا ، كما عمـل بالتدريس قبل أن يلتقى بشيخه السيد المكى الختم محمد عثمان الميرغنى . وفى عام ١٨١٣ التقى اسماعيل الولى بشيخه محمد عثمان الميرغنى فى مدينة الأبيض وتلقى عنه بعض العلوم الدينية واللغوية ، وسـارع بالانضمام الى الختمية وانخرط فى القيام بواجباتها حتى جاء عام ١٨٢٣ فاستأذن اسـتاذه محمد عثمـان الميرغنى فى تأسيس طريقة جـديدة فأذن لـه على أسـاس أنهـا فرع للختمية (٢) . وقد انتشرت هـذه الطريقة فى جميع أرجاء السـودان ولاسيما فى كردفان وأم درمان ودنقلة بالاضافة الى دارفور (٣) .

---

(١) عبد الله حسين : المرجع السابق ص ١٥٦ .
(٢) عبد القادر محمود : المرجع السابق ص ١٤٢ .
(٣) Wailis; Op. Cit. p. 186.

ويشير البعض الى أن مؤسس هذه الطريقة قـد جمع فى مؤلفاته بين علمى الشريعة والحقيقة فى فترة كانت تتسم بالركود العلمى ، فقـد نيفت مؤلفات الشـيخ اسماعيل على الخمسين كتابا فى المجالين المشـار اليهما ، وتمتاز هذه المؤلفات بالأحكام الفنى وبلاغة الأسلوب على خلاف ما يلاحظ فى اشعار المتصوفين فى السودان آنذاك ، ومن أشهرها « مشارق الأنوار » (١) • وبمعنى آخـر أن شـيخ هـذه الطريقة ومريديه لم يقتصروا على مجرد الأمور الشكلية المعروفة عن الطرق الصوفية ولا حتى العلوم المرتبطة بهذه الطرق أو ما يعرف لديهم بالعلم الحقيقى ، بـل تعـدوا ذلك الى علوم الشرع حيث عكفوا على دراسـاتها وشرحهـا للمريدين ، بل والتأليف فيها كما سبق القول •

ومن الطـرق المتصـلة بالختمية الطريقة النقشبندية التى أسسها عبد الدين بن محمد بهاء الدين البخـارى النقشبندى • وهـذه الطريقة ليست موجودة فى السـودان فى شكلها الأصلى ولكن كواحدة من أسس الطريقة الختمية •

الطـريقة التجانيـة * :

وهى من أشهر الطرق فى أفريقيا بصفة عامة ، فقـد عرفت هـذه الطريقة بأسلوبها المتميز فى نشر الاسلام فى غرب افريقيا والذى ينحو نحو الحزم الشديد المزوج باستخدام القوة كما كان يغلب عليها النزعة الصوفية العميقة (٢) •

ولقد أسس هذه الطريقة السـيد أبو العباس أحمد بن محمد بن المختـار بن سـالم التجـانى (١٧٣٧ — ١٨١٥) المواود بعـين ماضى

---

(١) عبد الله حسين : المرجع السابق ص ١٥٢ •

(*) يقال لها : تجانية بتشديد الجيم ودون ياء ، ولا يقال لها التجانية (عبد القادر محمود : المرجع السابق • ص ٥٨) •

(٢) محمد عوض محمد : المرجع السابق • ص ٢٠ ، ٢١ •

بالجزائر ، ومن بين المناطق التى زارها فى السودان مدينة الأبيض حيث أقام فيها خمس سنوات (١) •

وقد كان انتشارها فى السودان فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، حيث سارت على نفس أساليب الطريقة القادرية فى الدعوة مع فارق جوهرى وهو أن التجانية لم تكن تتورع عن اللجوء الى السيف (٢) • وربما يكون مرد هذه النزعة القتالية الى الحماسة الشديدة لديهم فى نشر العقيدة بالاضافة الى البيئة المحيطة بهم بكل مشاق الطبيعة وسط قبائل لا تنزع الى النظام ، بالاضافة الى المناخ الوثنى الذى كانت تعيش فيه هذه القبائل ، ويشبه البعض (٣) الطريقة التجانية فى هذه الناحية بالمهدية التى لجأت الى القوة فى تنفيذ مخططاتها الدينية • إلا أننا نرى أن هناك فارقا جوهريا بينهما وهو أن التجانية كان مسرحها فى أغلب الأحيان وثنيا وفى مواجهة الأوربيين بعكس المهدية •

وميدان انتشار هذه الطريقة فى السودان اقليم النيل الأعظم بين أم درمان والدامر ، ويقال ان جميع الفلاتا المقيمين حول سنار تابعين لها ، كما أن لها نفوذا واسعا فى دارفور (٤) •

السنوسية :

أسس هذه الطريقة الفقيه الجزائرى محمد بن على السنوسى بهدف اصلاح شأن الاسلام ونشر العقيدة الاسلامية •

ولقد اختار مؤسس الطريقة مدينة برقة مركزا لدعوته نظرا لاتصال منطقة الجبل الأخضر بالعالم الخارجى عن طريق ثغرى درنه وبنغازى

---

(١) عبد القادر محمود : الطوائف الدينية ص ٥٨ .
(٢) ارنولد : الدعوة الى الاسلام • ص ٢٧٨ .
(٣) عبد القادر محمود : الفكر الصوفى فى السودان ص ٥٤ .
(٤) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٢٠ ، ٢١ .

بالاضافة الى مرور جميع القوافل القادمة الى طرابلس وفزان وبرنو ووادى أو تلك الآتية منها بهذا الجبل ، ولهذا كله وجدت الدعوة السنوية سبلا عدة للاتصالات وبسط النفوذ • وفى عام ١٨٤٢ أنشأ السنوسى الكبير زاوية البيضاء ، ثم انتقل بعدها الى زاوية الجغبوب نظرا لأن زاوية البيضاء كانت على مقربة من الساحل الأمر الذى يجعلها قريبة من سلطان الحكومة العثمانية فى بنغازى والتى راعها أن الزاوية البيضاء أصبحت بعد فترة وجيزة من انشائها مدينة كبيرة • فلذلك فضل أن يكون المقر الجديد لزاويته فى الجنوب البعيد عن الساحل والذى تكثر فيه القبائل العربية التى قبلت السنوسية وأصبح فى الامكان أن يعتمد عليها فى نشر دعوته داخل الصحراء (١) • وكان من الطبيعى والزوايا السنوسية تنتشر فى الصحراء الكبرى وعلى حدود السودان ان تمتد هذه الطريقة اليه ، بل انها وصلت أيضا الى الصومال (٢) •

طرق أخرى :

وهناك بعض الطرق والطوائف الأخرى التى انتشرت فى السودان ولكنها لم تبلغ من الضخامة والتنظيم كما بلغته الطرق السابقة ، كما أنها لم تلعب دورا يذكر فى المجتمع السودانى بل ظلت تدور فى فلك أصحابها الذين قاموا على تأسيسها ولم تجتذب مريدين كثيرين بحيث يشكلون ثقلا جماهيرا ، لذلك آثرنا الوقوف على أهم تلك الطرق الصوفية الرئيسية التى دخلت السودان أو التى نشأت به فى القرن التاسع عشر •

البناء الدينى والاجتماعى للطرق الصوفية :

لا يكفى اطلاقا أن نعرض لنشأة الطرق الصوفية فى السودان ، بل انه من اللازم أن نغوص فى داخل هذا التركيب الدينى الاجتماعى الذى يعد ركنا أساسيا من أركان المجتمع السودانى بجانب البناء القبلى •

---

(١) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ٣١٨ ، ٣١٩ •
(٢) عبد القادر محمود : المرجع السابق ص ٥٥ •

فكثيرا ما يصعب على الباحث فى تاريخ السودان ابان القرن التاسع عشر أن يميز بين الجماعة الصــوفية وأهــل الحلة أو العشيرة الواحــدة فى السودان ، فقد لاحظنا على سبيل المثال أن سكان الدامر أهل بلدة واحدة وفى ذات الوقت هم أهــل طريقة صوفية واحدة هى الطريقة المجذوبية ومثل هذا يمكن أن يصدق على جماعات كثيرة فى السودان كاليعقوباب والصادقاب ، وهما جماعتان صوفيتان صغيرتان تستقران فى مقر معلوم . وقد يصعب أحيانا التمييز بين القبيلة الصغيرة (العشيرة) وبين الطريقة الصوفية من ناحية مؤسسى كل منهما ، فالرجال الذين حملت أسماءهم بعض القبائل كانوا هم أيضا قادة الرأى وأيضا مؤسسى بعض الطرق ، فالعلاقة بين نظام القبيلة ونظام الطرق قوية وتقف على أرضية مشتركة .

وثمة ملاحظة مشتركة أيضا تتمثل فى أن نظام الطريقة مشابه فى جوهره لنظام القبيلة من حيث أن لكل منهما شيخا هو رئيسها الأعلى ، وهذا الشيخ يكاد يقبع فى الرئاسة طوال حياته ، حتى يرثه واحــد من أبنائه ، ويلاحظ كذلك ان الطريقة الصوفية يمكن أن تتفرع الى عــدة فروع وقد يندمج بعضها فى البعض الآخر وكذلك الحال بالنسبة للقبيلة . وفى تتبعنا التالى لبناء الطريقة الصوفية ربما تتضح الصورة أكثر .

١ ـ شـيخ الطـريقة :

يعتبر شيخ الطريقة أحد الأركان الأساسية عند كل طريقة ، فقــد لاحظنا ان كل الطرق ســواء الرئيسية منها أو المنبثقة قد تحلقت حول شيخ لهــا راح يجــوب الاصقاع داعيا الى طريقته كســبا للمريدين والاتباع . ولم يكن من السهل لأى فرد أن يكون طريقة خاصة لأن ذلك يقتضى شروطا تؤهله لقيادة مسيرة الطريقة . وأولها فى اعتقادنا أن يكون ذا نسب شريف أى أن له صلة ببيت الرسول (عليه الصلاة والسلام) أو حتى على الأقل أن يكون من أهل مكة . ولا نسوق هذا القول جزافا ، ولكن اذا لاحظنا ســيرة معظم زعماء الطرق فسوف يتضح ذلك بجلاء ،

حتى أولئك الذين ولدوا خـارج مكة والمدينة كانوا حريصين على سلسلة النسب الشريف هذه • وهذا النسب وحده لا يكفى لكى يخلق من الفرد شيخا لطريقة ما ولكن لابد وأن يقترن بعلم وذكاء ، وهذا العلم لا يقتصر على ما يسمى عند المتصوفة بعلم الباطن ، بل أيضا العلوم الشرعية التى تعين المسلم العادى البسيط على العبادة والمعاملات الدنيوية • ويصدق هذا على شيخى الميرغنية والمجذوبية فكلاهما كان عالما متفقها ولكل منهما مؤلفات فى علوم الدين الاسلامى • وكان لابد أيضـا أن تقترن هـذه الصفات بالورع والتقوى والقـدوة الحسنة ، لأن أولئك الرجـال من الصوفية فى القرن التاسع عشر كانوا لا يقتصرون على مجرد كسب أتباع مسلمين يرددون أورادا لهذه الطرق بل كانوا أيضا يقومون بنشر الدعوة الاسلامية كما لاحظنا بالنسبة للتجانية والسنوسية • فكان من الطبيعى أن يسبق خلق وسلوك هذا الداعية دعوته الى الاسلام وهذا ما شهدناه بالنسبة للسنوسيين الذين كانوا يشترون العبيد ويعلمونهم فى جغبـوب مبادىء الاسلام ثم يتركونهم يعودون الى ديارهم بعد عتقهم حتى اذا ما رجعوا الى أوطانهم كانوا دعاة للاسلام والطريقة معا (١) • وهـذه الصفة الأخيرة شهدناها بوضوح لدى شيوخ المجذوبية فى الدامر الذين كانوا مثالا حيا للورع والتقوى والقدوة الطيبة ولذلك استحقوا اشادة الرحالة السويسرى بوركهارت عند زيارته لهذه البلدة فى أوائل القـرن التاسع عشر •

والى مقر الشيخ ، الذى كان فى الغالب مقرا للطريقة ، يفد الناس والمريدون حيث يمتلىء بهم ، وهنا لابد من وقفة للاشارة الى أن هـذا المكان بالاضافة الى كونه مقرا لشيخ الطريقة فهو أيضا للعبادة والمأوى ففيه تتم قراءة الأوراد والأذكار وقراءة القرآن الكريم ، وفيـه يجتمع الكل من شتى القبائل تحت لواء الشيخ •

---

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام • ص ٢٨٢ •

ولسنا مع القائلين بأن أساس الطرق الصوفية فى الاسلام هو ذلك الاعتقاد بأن المريد الذى يرغب فى الاتصال بالله فى حاجة الى قيـادة شخص أو « واسطة » من أولئك المتمرسين فى الطريق الى هذا المكان ، وهذه الواسطة فى رأيهم ـ تكمن فى شيخ الطريقة الذى يمنح البركـة ويقوم بدور الوسيط بين المريد وبين الله (١) • وهـذه الرؤيه أو هـذا التفسير فيه تجاوز وخطأ جسيم لفهم أساس الشريعة الاسلامية ، فليس هناك البته واسطة بين المسلم وربه ، وقـد نفت آيات كثيرة من القرآن الكريم اتخاذ أى لون من ألوان الواسـطة لتقرب الانسـان زلفى الى الله • واذا كان القرآن الكريم وهو الكتاب المنزل من عند الله لم يعتبر الرسول محمد عليه السلام واسطة بين المسلم وربه فهل يعقل أن يقوم شيخ بهذه المهمة ؟ ثم ان رجال الطرق الصوفية أنفسـهم لا يمكن أن يكون قد ورد فى أذهانهم مثل هذا التفكير الخاطىء • وقد يكون مـرد هذه الأقاويل غير الدقيقة الى مسـألة ما يسمى « بالعهد » فى الطـرق الصوفية حيث كان لكل طريقة صوفية عبارات معينة يتعهد فيهـا المريد بالسير على نهج الطريقة وهذه النهج لا يخرج عن تعاليم الاسلام • فكان المتلقى لهذا العهد عادة ما يبدأ حياة جديدة يتوب فيها عن المعاصى التى ارتكبها ويتعهد أن يبدأ صفحة جـديدة ، وكثير من أولئك المريدين ما يصبح ـ بعد أن يصل الى درجة معينة من الحب للشيخ ـ أداة طيعة فى يد الشيخ لصالح الطريقة • فكل هذه الأفعال وما يرتبط بها ومقارنتها ببعض العقائد السماوية الأخرى جعلت البعض يتصور أن هناك واسطة بين الله وبين الانسان ، فسارعوا الى الحكم بأن هذه الواسـطة هـو الشـيخ •

١ ـ الخليفـة :

وهذه الوظيفة كانت تاليـة لمنصـب شـيخ الطريقة وكان الخلفاء يعملون وفق تعليمات الشيخ ، كما أنهم كانوا يحلون محله فى التعليم ،

---

(1) Trimingham; Op. Cit. p. 233.
أنظر أيضا : محمد عمر بشير : جنوب السودان • ص ٢٦ •

وضم مريدين جدد الى الطريقة • ونظرا لما كانت تضفيه هذه السلطة من اجلال لصاحبها فقد اكتسب هؤلاء الخلفاء مكانة رفيعة الى الدرجة التى جعلتهم — فى بعض الأحايين — يحجبون الشيخ الحقيقى للطريقة عن أعين أتباعهم المحليين (١) وحتى يطمئن شيوخ الطرق الصوفية الى استمرار طرقهم فى أداء مهامها بعد مماتهم فقد حرصوا على تعيين أو تسمية من يخلفهم • وقد يتعدد خلفاء الطريقة الواحدة تبعا لتعدد الأماكن التى تنتشر فيها الدعوة لهذه الطريقة • وقد بنيت سلطة كل خليفة محلى على سلسلة من التقاليد الصوفية التى انقسمت فى جملتها الى شقين : الأول ويتمثل فى سلسلة العهد الذى يربط الخليفة بمؤسس الطريقة ، والثانى ويتمثل فى سلسلة « الورد » * الذى يربط المؤسس بالرسول (٢) • هذا ، وقد كان لكل طريقة عهودها الخصة كما كان لكل واحدة منها أورادها وأحزابها التى تتلوها فى أوقات معينة من اليوم • والفرق بين الورد والحزب أن الورد يقرأ فى وقات منظمة فيقال أوراد النهار وأوراد الليل ، أما الحزب فليس لقراءته وقت معلوم (٣) •

٣ — المريدون :

وهم تباع الطريقة من الجماهير العريضة المنتشرة فى جميع الأصقاع والذين ارتضوا السير على منهاج الطريقة فى سلوكهم الدينى والدنيوى ، ولابد للمرء الذى يريد أن ينخرط فى سلك طريقة ما ليصبح مريدا لها أن يأخذ العهد بذلك كما سبق القول سواء من الشيخ الأصلى للطريقة أو من خليفته • وكان هؤلاء الأتباع يسمون — أحيانا — بالدراويش بالاضافة الى المريدين • وما أن يأخذ المريد « العهد » حتى يبدأ فى الممارسة الفعلية لطقوس وتعاليم طريقته من أوراد وأحزاب

---

(١) Trimingham; Op. Cit. p. 236.

(*) بكسر الواو وتسكين الراء •

(٢) Ibid. p. 236.

(٣) عبد العزيز امين عبد المجيد : التربية فى السودان ، الجزء الأول ص ١٤٧ •

وأذكار وآداب • ولابد للمريد من معرفة كل هذه الأمور حتى يتبعهـا فى تعبده واتصالاته بشيخه وزملائه • وعلى غير عادة المتصوفة كن رجال الصوفية فى السودان أكثر امعانا فى قراءة الأحزاب والأوراد والتوسلات ، وكان المريد حريصـا كل الحرص على أدائها كمـا تلقـاها تمـاما من شيخه (١) • ولم يكن معظم شيوخ ومريدى الطرق الصوفية فى السودان يتقيدون بأوراد طريقتهم وأحزابها فقط بل كانوا مداومين على العبـادة الشرعية والتنفل وصـيام بعض الأيام وذكر اسم اللـه والاعتكاف فى الخلوات • وقد كان المظهر الأخير ــ وهو الاعتكاف فى الخلوات ــ من الأمور التى تميز المريد الصوفى ، وهذه الخلوة كانت تسـتمر أحيـانا شهورا طويلة يخلوا فيهـا المتعبد الى ربه مكتفيا ببعض لقيمات يقمن أوده (٢) • ومن تقاليد الطريقة السمانية صيام الاثنين والخميس ويوم عرفة ويوم عاشوراء والمقدم عليه والتالى له ويوم نصف شعبان والأيام البيض والسود من كل شهر • ومن أورادهم أوراد محاسبة النفس فى الشهوات والزلات ، وأقل مراتها فى اليوم مرة بعد الظهر أو العصر ومرة أخـرى ليـلا • (٣) •

وبالاضافة الى تلك الأركان الثلاثة التى بنى عليها نظـام الطرق ، وأسلوب تلقى العهد وممارسة الأوراد والأحزاب فقد كانت هناك مظاهر ملازمة للمتصوفة كاطلاق شعر الرأس وتمشيطه أو من غـير تمشيط ، كما كانت تلازمهم بعض « الشطحات » والانجذاب وعدم الاكتراث بمتاع الدنيا • كما كانت لكل طريقة بعض الأدوات (أو الآلات كمـا سميت) وكانت فى حوزة شيخ الطريقة ، وتتمثل فى رايات ذات لون خاص يمثل لـون الطريقة وكرسى « ككارة » « أو ككر » خاص بجلوس الشـيخ

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٤٧ .
(٢) انظـر طبقـات ود ضيف الله ص ٦٦ ، ١٥٢ ، ١٦٨ من طبعة منـديل .
(٣) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان ص ٥٣ .

بالاضافة الى جبة الشيخ أو طاقيته أو حزامه • وهـذه الأدوات كانت تنتقل الى من يخلفه بعد مماته (١) •

ولقد كان كل فرد من هذا البناء الدينى الاجتماعى يحرص على أداء دوره كما رسم له تماما ويتفانى فيه ، ولا نعتقد أن ثمة مبالغـة ان قلنا ان هذا البناء الصوفى كان يفوق فى أساسه وقوته البناء القبلى فى المجتمع السودانى لأن قاعدة هذا البناء الصوفى كانت متسعة جدا لضم جماهير كثيرة ، فليست لها شروط عرقية اطلاقا سوى أخذ العهد •

وتجدر الاشارة الى أن نظام الطرق الصوفية كما أوردناه كان وليد العهد المصرى فى السودان (٢) ، وكان نتيجة لاحتكاك شيوخ الطرق فى السودان بصوفى مصر ، سواء كان ذلك فى السودان أم فى مصر ، فراح السودانيون ينظمون بناء طرقهم على نهج أمثالهم المصريين (٣) •

الصوفية والفكر الدينى :

لا شك أن رجال الطرق الصوفية كانت لهم أفكارهم الخاصة التى مارسوها ودافعوا عنها والتى أيضا اصطدمت بأفكار بعض الفقهاء ولكن ما هى حقيقة هذا الفكر الصوفى وهل يمكن لأى فرد أن يفهم كنهه ؟

يجيب على هذا التساؤل الدكتور عبد الحليم محمود قائلا : « ان التصوف ليس عملا علميا ولا بحثا نظـريا ••• انه لا يتعلم بواسـطة الكتب على الطريقة المدرسـية ، بل ان ما كتبه كبار مشـايخ الصوفية أنفسهم لا يستخدم إلا كحافز مقو للتأمل ، والانسان لا يصـير بمجرد

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٤٨ •
(٢) Hamilton; The Anglo Egyptian Sudan from within. p. 211.
(٣) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ٢٤٥ •

قراءته متصوفا ، على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلا لفهمه » • ثم يضيف « ولأجل أن يسير الانسان فى طريق التصوف لابد له من استعداد فطرى خاص لا يغنى عنه اجتهاد أو كسب ، ثم الانتساب الى « سلسلة » صحيحة إذ أن البركة التى تحصل من الانتساب الى السلسلة الصحيحة هى الشرط الأساسى الذى لا يصل الانسان بدونه الى أى درجة من درجات التصوف حتى البداية منها ، ثم بعد ذلك يأخذ المتصوف فى الجهاد الأكبر ، فى التأمل الروحى وفى الذكر أى استحضار الله فى كل ما يأتى وما يدع ، وفى تركيز الذهن فى الملأ الأعلى فيصل موفقا من درجة الى درجة حتى يصل الى أعلى الدرجات وهى حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت فيصبح ربانيا ، والذى يمر بهذه المراحل — فى نظره — يصير صوفيا حقيقيا (١) •

وفى داخل هذا الاطار الفكرى أثيرت وما تزال تثار قضايا شغلت بها الجماهير سواء فى السودان أو خارجه اينما وجد التصوف وأصبح كثير من الناس يشغلون أنفسهم بها ، ومن بين هذه القضايا « كرامات الصوفية » • وتفيض طبقات ود ضيف الله بذكر الأولياء من رجال الصوفية فى السودان وتعدد مناقبهم الطيبة من ورع وتقوى وأحداث للخوارق كشفاء المرضى والحديث الى الطير وفهم لغات الآخرين من غير الناطقين باللغة العربية (٢) •

ويقسم ود ضيف الله درجات الصوفيين أو الأولياء كما أسماهم الى ثلاث درجات : كبرى ووسطى وصغرى • فالصغرى أنه يطير فى الهواء ويمشى على وجه الماء وينطق بالغيب ، والوسطى أن يعطى درجة الكونية (اذا قال للشىء كن فيكون) وأما الكبرى فدرجة القطبانية (٣) •

---

(١) عبد الحليم محمود : المدرسة الشاذلية الحديثة وامامها أبو الحسن الشاذلى ص ٣٣٨ — ص ٣٤٠ •

(٢) مقدمة كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعر فى السودان ص ١٤١ •

(٣) أنظر كتاب الطبقات ص ٤٧ — ٤٨ •

وهنـــاك ذكر لكثير من الكرامات لا يكاد العقل يصدقها ، ولســـت أدرى كيف تتسق — على سبيل المثال اعلامهم بالغيب — مع قوله تعالى « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » (١) • وقـــد شاع ذكر هذه الكرامات فى الســـودان الأمر الذى أدى الى هيمنة الصوفية وازدياد مكانتها الاجتماعية حتى غـــدت دولة لهـــا مراسيمها وطقوسها وأعلامها وجماهيرها (٢) •

ورغم تلك الهيمنة التى فرضها بعض المتصوفة على عقـــول العامة وبعض الخاصة وادعاءاتهم الاتصال بالعرش والأخبار بالغيب انهم كانوا هم أنفسهم يعانون من مشاكل خاصة بهم ، الأمر الذى يعنى أنهم كانوا ضعيفى الخبرة بمشاكل الحياة اليومية التى ابتعدوا عن فهمها انشـــغالا بالزهد والكشف عن الأمور الباطنية بينما هم عاجـــزين عن فهم ظواهر مشاكلهم الحياتية (٣) •

ولكن مع ذلك فان المتصوفة لم يقفوا عاجزين أمام هذه الأقـــوال فحاولوا ايجاد مبررات لتلك الكرامات والنبوءات على أساس أن هنـــاك فئة منهم اذا نظرت فى اللوح المحفوظ فانه لا يتغير ولا يتبدل ، وأخرى تنظر فى ألواح المحو والاثبات التى تتغير وتتبدل فان أخبر الولى بكلام ولم يقع فلا ينكر عليـــه بأن يقال كـــذب بل يفسر بأنه نظر فى ألواح المحـــو والاثبات (٤) •

ويبدو أن العامة لم يشغلوا أنفسهم فى قليل أو كثير فى التحقق من صحة هذه الكرامات أو زيفها وسواء أكانت منسوبة لولى وصـــل الى درجة القطبية أم لمدع لها لا يتردد فى ايهـــام الناس بأن ما لم يقع فى

---

(١) القرآن الكريم ، سورة القصص • الآية رقم ٦٥ •
(٢) يحى محمد ابراهيم : المرجع السابق ص ٣٧ •
(٣) نفس المرجع • ص ٣٩ •
(٤) ود ضيف الله : مقدمة الطبقات • ص ١٣ •

سبيله الى الوقوع • وكان العامة أنفسهم هم مصدر الكرامات ونسبتها للأوليـــاء فى كثير من الأحيان (١) • ولقد أصبحت هذه الكرامات حديث العامة والمريدين فقدسوا مثل هـــذه الأمور ، فكان ذلك مدعاة لتدعيم الخرافة فى السودان ، تلك الخرافة التى دعمتها أساطير الوثنيات لـــدى قبائل الجنوب وفى دارفور وكردفان بغربى الســـودان حتى وصلت الى قمتها عند قيام المهدية حيث تردد أن اسم المهدى نفسه كان منقوشا على بيض الدجاج وورق الأشـــجار (٢) • وهكذا ســـاهم العامة فى ترسيخ الأفكار التى اثيرت حـــول الكرامات ، ويبدو أن قـــوة شخصية الولى أو الزعيم مع انتشار الجهل تساعد على ثبات هـــذه الأقاويل فلم يكن أولياء السودان وحدهم ولا زعيمهم المهـــدى قد أثاروا حولهم هـــذه الخـــرافات * •

وتقترن بالكرامات مسألة أخرى تتمثل فى جماعة (الملامتية) وهم أولئك القوم من المتصوفة الذين لاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع التقرب وأبانوا للخلق قبائح ما هم فيـــه ، وكتموا محاسنهم (٣) • فمنهم من لم يصلى بدا ، ومنهم من كان يجلس على كراسى المساجد يوم الجمعة ويقرأ ســـورا غير السور التى فى القرآن فلا ينكر عليـــه أحد • وكان ملامتية الســـودان كغيرهم من ملامتية البـــلاد الأخـــرى يفعلون ما يخالف الشرع ، فأحدهم تزوج نحوا من سبعين امرأة ، وآخـــر جمع بين الأختين وغير ذلك (٤) •

---

(١) يحى محمد ابراهيم : المرجع السابق ص ٤٠ •
(٢) عبد القادر محمود : المرجع السابق ص ١٢ •
(*) ردد العامة فى اوائل القرن العشرين فى مصر ان اسم سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ كان مكتوبا على بعض النبـــاتات ، وان الحيوانات نطقت باســـمه •
(٣) ود ضيف الله : المصدر السابق • ص ٢٩ وانظر أيضا :
عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٣٩ •
(٤) طبقات الشعرانى ، الجزء الثانى ص ٢٦٧ •
عن : عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٣٩ •

وهناك رأى حول مسائل الكرامات وما يرتبط بها ، وفحواه أن هذه الأفعال لما كانت لا تدخل تحت النظرة العلمية حتى يمكن الحكم عليهـا حكما صحيحا ، فعلى ذلك ، فانه لا يمكن أن نصدقها أو نكذبها لأنها تمس أصحابها وتعبر فقط عن ذاتيتهم ووجداناتهم الخاصة ، والاهتمام بهـا هو الخطأ ، وكان الصوفية القدامى يوصون دائما بعدم الالتفات اليها ، أو الخوض فى حديث عنها خوفا من الفتنة وحتى لا يشـعر الولى أنه صنع شيئا ، إذ كل شىء بيد الله (١) .

وحديث الكرامات هذا يقودنا الى معركة حامية الوطيس نشبت بين المتصوفة وبين الفقهاء وأهل العلم ، ظهر فيها الخلاف بينا بين الطرفين . وأصل هـذا الخـلاف يعود الى أن رجـال العلم والفقهاء اعتقدوا أن لتحصـيل العلم طرقا واضحة معلومة وهى دراسـة القرآن والحديث وما ورد عن الصحابة وأهل السنة وهو ما يطلقون عليـه علم الظاهر ، أما أهل التصوف فراحـوا يبحثون عن العلم بطريقة الاتصـال المباشر بالله وهو طريق الكشف والالهام ، وهو ما يطلقون عليـه علم الباطن حيث أباح بعضهم لنفسه من الأعمال ما اعتبر فى حكم الشريعة محـرما كما اشرنا الى ذلك .

وكان معظم صوفى السـودان من غـير العلماء ، وخاصة فى أوائل القرن التاسع عشر ، نظرا لحالة البلاد الثقافية المتخلفة التى لم يتوفـر فيها استخدام العقل وفهـم حقيقة التعاليم الاسـلامية والتمييز بين ما هو أصل الدين وما هو بدعة ، فكان الناس متعطشين الى حديث الغيب لاسيما ان جـاء عن طريق الدين خاصـة وأن ملوك السودان وأمراءه كانـوا فى ذلك الوقت ينشرون الاسـلام بين الوثنيين الذين رحبـوا بالصوفيين أكثر من العلماء فقد كانت حالة الشطح التى تعترى المتصوفة

---

(١) عبد القادر محمود : المرجع السابق ص ١٢ .

وأخبارهم بالغيب وقيامهم بالكرامات تغنيهم عن اللجوء الى العلماء والفقهاء ، ومن هنا نفهم لماذا كان السودان – فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر – مغريا لكثير من الجهال والأميين بادعاء الصوفية (١) .

وليس معنى ذلك أن هذا القول ينسحب على كل متصوفة السودان ، فقد سبق أن ذكرنا أن بعض مشايخ الطرق كانوا علماء للشريعة مع كونهم زعماء طرق صوفية ، كما كانت لبعضهم مؤلفات فى الفقه ، فللسيد محمد عثمان الميرغنى (تاج التفاسير) بالاضافة الى مؤلفات فى الحديث وعلم المصطلح والتوحيد وغير ذلك (٢) . وهذا القول ينطبق تماما على شيخ الطريقة المجذوبية التى نشأت بالدامر .

وكان النزاع بين العلماء والمتصوفة – سيما فى بداية نشأته – يدور أحيانا حول قضايا عامة مثل تحريم شرب الدخان أو عدم تحريمه وغيرها من القضايا . وتجدر الاشارة الى أن النزاع بين الفئتين فى السودان كان يمر هادئا دون أن يترك وراءه عداوة موروثة ، فاذا انتصر الصوفى فى قضيته ، عمد الآخرون الى خلق حادثة مناسبة لرد اعتبار فقيههم وهكذا حتى ينتصر طرف أو يتراخى الطرفان ، إلا أن الغلبة كانت دائما للمتصوفة الذين يقف من ورائهم جمهور غفير من العامة الأمر الذى كان يجعل صوت الفقهاء ورجال العلم خافتا لا يقوى على الصمود أمام المتصوفة (٣) .

ويبدو أن المعركة بين الفئتين استمرت وقتا طويلا ولم تكن قاصرة على القرن التاسع عشر ، فالبعض لا يزال يرى أن التصوف فكر وافد

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
(٢) عبد الله حسين : المرجع السابق ص ١٥٦ .
(٣) يحى محمد ابراهيم : المرجع السابق ص ٤١ .

وهو وليد الديانات الوثنية وغريب عن الاسلام وعن البيئة التى ظهر فيها (١) • وحاول البعض أن يهدم ما أسماه « ببدعة ذكر الصوفية » بقوله ان ذلك بدعة يهودية حيث جاء فى المذمور التاسع والأربعين بعد المائة « ليبتهج بنو صهيون بملكهم ليسبحوا اسمه برقص بدف وعود ليرنموا ••• هللوا يا ، سبحوا الله فى قدسه ، سبحوه برباب وعود ••• سبحوه بدف ورقص ••• سبحوه بأوتار ومزمار •••• سبحوه بصنوج الهتاف ••• » (٢) •

وفى الجانب المقابل ورد فى كتاب عمر الفوتى أحد شيوخ التجانية تحليل لنفوس من ينكروا عقول وأذواق الصوفية ، الى أن يصل بقوله ان هؤلاء المنكرين قوم تكشفت نفوسهم فى غرائزهم وأجسادهم ، وعميت بصائرهم وأبصارهم • وفى الوقت نفسه يؤكد على عدم ترك الدنيا والانقطاع للخلوة بقوله : ان زهد الخواص الكاملين ليس هو بخلو اليدين من الدنيا ، وانما بخلو القلب ، ثم ينعى على من لا يتكسبون من كد أيديهم وعقولهم فيرميهم بالبعد عن الطريق الصحيح • ويضيف عمر الفوتى بأن الأكابر من الأولياء قد سارعوا الى الكسب من الزراعة والتجارة والحركة ، ثم انهم فى الوقت ذاته « رجال » لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة » (٣) •

ويبدو أن الخديوى اسماعيل قد دخل المعركة مع الصوفية بأسلوب خفى ، حيث يذكر « هل » Hill ان الخديوى قد شجع أبناء السودان على المجىء الى الأزهر مغدقا عليهم الرواتب والمنح حتى اذا ما عادوا الى السودان استطاعوا أن يقفوا فى وجه هؤلاء المتصوفة وخصوصا الجهلاء منهم ، بل يحلوا محلهم (٤) •

---

(١) عبد الرحمن الوكيل : هذه هى الصوفية ط ٤ • ص ١٢ •
(٢) العهد القديم ، المزامير ص ٦٤١ •
انظر عبد الرحمن الوكيل : المرجع السابق ص ١٧٤ ، ص ١٧٥ •
(٣) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان ص ٧٣ •
(٤) Egypt in the Sudan, p. 126.

وهكذا نخلص من هذا النزاع الى أن رجال الصوفية وأن إنغمسوا فى المسائل الغيبية أو ما أسموه بعلم الباطن فان هنـــاك مستويات أخرى من الصوفية وخاصة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بالسودان قد ارتقت بنفسها وأعملت العقــل : حتى وجدنا منهم وخصوصا مشايخ الطــرق من له مؤلفــات فى علوم الشرع تبرهن على ســعة العقــل ورجحــان الأفق • ومع ذلك كله فقد ظل النزاع بينهما دفينا يخبــو تارة ثم يظهر تارة أخرى •

آثار الصوفية الثقافية والاجتماعية :

لا يمكن للمرء أن ينكر الأثر الثقــافى الدينى الــذى تركته الطرق الصوفية على تفكير الرجل السودانى حيث وجدت عقليته مرتعا خصــبا لنشر أفكارها وتقاليدها • لقــد جاءت الصوفية الى الســودان ولم يكن السودانيون فى ذلك الوقت كسائر سكان المنطقة المجاورة يهتمون بمسألة التفكير العلمى أو المنطق الفلسفى وانمــا كان عهــد تقليد لمــا قرره السابقون ، وفى نفس الوقت كانوا تواقين الى معرفة شىء عن دينهــم فلذلك كانت كلمات الفقهــاء والصوفية ــ وهم الفئة المتنورة ــ تلقى آذانا صاغية ، وكان على الناس أن يتقبلوا تعاليم الصــوفية الثقافية والتى كانت ممزوجة بالخرافات اعتقادا منهم أنهم فئة مخلصة وصالحة لا يأتون منكرا • يصدق هذا القول على الســودان فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وربما استمرت مثل هذه التعاليم الثقافية ذات الخزعبلات تنتشر فى الفترة التالية ولكن على استحياء نظرا لبدء بعض الصوفية بتأليف بعض الكتب الدينية الخالية من تلك الخرافات •

وقد يظــن البعض أن ليس للصوفية أى جانب مضىء فى المجــال الثقافى ، ولكن ينبغى أن نعلم الأسلوب الثقافى الذى تميز به الصوفيون والمزوج بالكرامات والغيب كان ملائمــا للقبــائل الزنجية فى جنــوب السودان وافريقيا حينما تم نشر الدعــوة الاسلامية فى تلك المناطق • فهذه القبائل المتوحشــة التى عاشــت على الفطرة كانت فى حاجة الى

أسلوب يتلاءم وعاداتهم الاجتماعية حتى يمكنهم فهم الاسلام وتقبله ولم يكونوا فى حاجة الى المنطق أو الى العلماء ذوى الثقافة والفكر الرفيع • ولذلك كان رجال الصوفية هم الملائمين لآداء هذه المهمة ، لأن علماء النفس يرون « ان معتقدات الجماعات البدائية ليست ناتجة عن ادراك خاطىء أو غامض وانما هــو أثر من آثار حاجاتهم ورغباتهم وأثر لما يســاور خيالهم من قلق » (١) •

ولقد لعب محمد عثمان الميرغنى الكبير دورا بارزا فى نشر تعــاليم الاسلام بكردفان حيث يوجــد بعض الوثنيين بجبال النوبا ، وحــول سنار أيضا (٢) •

وحين أراد أحد الملوك الوثنيين بجنوب السودان أن يدخل فى دين الاسلام مع كثير من الأهالى هناك ، وأرادوا فى بادىء الأمر أن يتعلموا شيئا عن مبادىء الاسلام ، طلب المسئولون بمصر من حكمدار السودان أن يبعث بفقهاء لهم القــدرة على « تأليف قلوب الأهالى وتعليمهم بغــاية اللطف » (٣) • فالمطلوب اذن لآداء هذه المهمة نوعية خاصة ذات مقدرة على توصيل المعلومات آخــذة فى الاعتبــار الأفكار السائدة بين هــذه الجماعات الزنجية •

وليس من شك فى أن الطريقة السنوسية قد لعبت من خلال زواياها المنتشرة فى الصحراء الكبرى دورا هامــا فى نشر الاســلام فى غــرب السودان والصحراء الكبرى وافريقيا الاستوائية الغربية • فقــد نجح السنوســيون فى ايصــال دعوتهــم الى كــل من واداى والباجــرمى

---

(١) Carveth lead; The Origin of Man. p. 86.
انظر عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٥١ •

(٢) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان • ص ١٢٨ •

(٣) دفتر رقــم ١٨ عابدين — صادر تليغرافات — صــورة التليغرافة العربى الشفرة رقم ١٦ ص ٣ بتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٩١ هـ • من خيرى باشا الى حكمدار السودان • دار الوثائق القومية بالقلعة •

و « البوركــوه » و « تيــو » حتى بلغوا النيجر الأوسط • عن طـريق السنوسية ودعاتها وزواياها وأصبحت جهات بحيرة تشاد مركزا للاسلام فى أواسط أفريقيا (١) • وكذلك الحال بالنسبة للطريقة التجانية التى أدت دورا بارزا فى نشر الاسلام فى افريقيا وان كان لها اسلوب مغاير عن سائر الطرق الصوفية كما سبق القول •

أما الانتاج الدينى والأدبى للمتصوفة فقد كان فى مستهل القـرن التاسع عشر باهتا بل يكاد يكون منعدما لقلة المتعلمين منهم ، وبمـرور الوقت بدأنا نستشعر آثارهم العلمية التى بدأها أصحاب الطريقة المجذوبية بشكل واضح فى المجال الثقافى • فقد كان دورهم واضحا وجليا فى نشر الثقافة العربية الاسلامية فى السودان ، حيث كان يرحـل أبناؤهم من بلدة الدامر الى الأزهر الشريف بمصر والى مكة المكرمة طلبا للمعرفة ، ثم يعودون بعـد أن يمكثوا فى رحلاتهم العلمية سنوات طوال لمتابعـة رسالتهم الدينية والثقافية • ويمكن القول انهـم هم الذين خلقوا من الدامـر عاصـمة روحيـة ومصباحا يشـع بنـور الثقـافة العربيـة والاســلامية (٢) •

وفى الجانب الاجتماعى برز دور الصوفية جليـا ، فمن المعلوم أن هذه الفئة معروفة لدى الرجل البسيط بكراماتها وصفاتها الدينية الأمر الذى جعل الناس يتهافتون عليهم ويتخذونهم ملاذا فى سـاعة الضيق والعسرة • والمتصفح لطبقات ود ضيف الله يقرأ الكثير من هذه الأمثلة التى توضح الانقـاذ الروحى والمادى الذى كان يلقاه هؤلاء الناس على أيدى الصـوفية •

---

(١) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ٢٢٣ •
وانظر : احمد صدقى الدجانى : الحركة السنوسية نشأتها ونموها فى القرن التاسع عشر • ص ١١٣ — ١١٤ •
(٢) عبد القادر محمود : الطوائف الاسلامية ص ٨٥ •

وكان لمشايخ الصوفية فى السودان القدرة على تسكين الخواطر وبث الطمأنينة فى نفوس الناس وقضاء مصالحهم وزجرهم عما يلحق الضرر بالفرد والجماعة • ومن الأمثلة على ذلك ما قام به الشيخ الحسن نجل محمد عثمان الميرغنى فى عام ١٨٦٥ على عهد موسى حمدى باشا حكمدار السودان حين تمرد الجهادية السود فى كسلا تمردا أدى الى سفك الدماء وظل متأججا لعدة شهور • وكان هذا التمرد بسبب سوء ادارة القادة وتأخر دفع مرتبات الجنود • ولما كان الشيخ الحسن بكسلا إذ ذاك تدخل فى الأمر وسلمت له المرتبات المتأخرة ليقوم بتسليمها للجنود • وبالفعل قام بهذه الوساطة وسلمها إياهم ببلدة « سبدرات » وعنفهم على هذا المسلك الذى يتنافى ونظام الجندية فى أسلوب عرض المشاكل ، وطلب منهم أن يعودوا الى كسلا فقبلوا ذلك • ولكن الأمور تفاقمت ثانية بين الطرفين وقتل منهما الكثير فأرسل مدير التاكة الى الحسن يدعوه فحضر الى « حلة الحلانقة » ورفعه على قصبة ودخل به عليهم قائلا : « جاءكم كتاب السيد الحسن ! » ، فما كان من الجنود العصاة إلا أن كفوا عن القتال وهرعوا اليه يقبلون يديه شاكين أمرهم فوعدهم بحل مشاكلهم (١) •

ومن الأمور الهامة التى نجحت فيها الطرق الصوفية فى السودان التقريب بين القبائل والأجناس ولو فى نطاق محدود • فقد جاء الناس من كل جنبات السودان الى زوايا الطرق الصوفية للاتصال بالشيوخ والاستماع اليهم وتلقى الطرق عنهم • وقد لعبت تلك الطرق هذه المهمة منذ عصر الفونج ، فهذا أحد الذين دخلوا على الشيخ عمار الصوفى يصف ما رآه فيقول أنه وجد زاوية الشيخ محاطة بالدواب التى حملت الناس

---

(١) الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩ — المجلد الثانى ص ١٠ — ص ١٣ ، وأنظر ايضا محفظة رقم ٤٦ وثيقة رقم ٣٦١ — ترجمة مكاتبة من حكمدار السودان فى ٨ رمضان سنة ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

من جهات بعيدة ووجد عند مدخل الزاوية « نعال الفونج والعرب متراصة » ، ولما دخل الزاوية وجد الناس حلقات ، فمنهم من يتحدث بتجارة الغرب ومنهم من يتحدث بتجارة الصعيد (١) • ومن تلك الرواية يتبين لنا ان الزاوية كانت تتسع لكل القبائل والأجناس حين يلتقون سويا تحت لواء الطريقة التى تجمع شملهم وتوحد بين أذواقهم ومشاربهم بالرغم من الاختلاف القبلى والعرقى بل والاختلاف فى اللهجات • (٢) كما انها أيضا أصبحت ملتقى للتجار من كافة أنحاء السودان وما جاورها •

وكانت أغلب الطرق الصوفية ذات طابع سلمى للغاية وتعتمد فى دعوتها الاصلاحية على الارشاد والقدوة الحسنة والتأثير فى المريدين • ويتجلى ذلك واضحا فى دعاة القادرية ومن أخذوا تعاليمهم عنهم ، إذ أن المبادىء التى كانت تسيطر على حياة عبد القادر الجيلانى هى حب الجار والتسامح ، ولم يعثر فى كتبه أو فى مواعظه — كما ذكرنا — ما يدل على سوء نية أو عداوة نحو المسيحيين (٣) •

ولا يمكن أن ننكر على السنوسية الدور العام الذى قامت به وسط الصحراء الكبرى حيث أقدم بفضلهم المسافرون والتجار على اجتياز الصحارى وأمكن عن طريق نظامهم الاخوانى ايجاد ادارة محلية ساعدت على حفظ الأمن وتوطيد العلاقات بين القبائل (٤) • وكانت الزاوية الواحدة لهذه الطريقة عبارة عن ثلاث غرف احداها لالقاء الدروس ، والثانية أشبه بدار للضيافة ينزل فيها المسافرون للراحة ، والغرفة الثالثة لاقامة الاخوان (٥) •

---

(١) ود ضيف الله : المصدر السابق ص ١٨ •
(٢) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٦١ •
(٣) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢٧٨ •
(٤) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ٣٢٠ — ٣٢١ •
وانظر ايضا : Prachard; Sanusi of Cyraneica. p. 15.
(٥) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ٣٢٢ •

الطرق الصوفية والحكم :

كانت السياسة التى اتبعتها الادارة المصرية منذ امتدادها الى السودان تجاه رجال الدين بصفة عامة هى سياسة تسامح حيث تركت كل شىء على ما هو ولم تتدخل فى أمورهم ، بل انها أمدتهم بالمعونة التى تعينهم على أداء رسالتهم التعليمية والدينية • وهذه السياسة كانت جلية فى خلال عهود محمد على وخلفائه ، فخلاوى الفقهاء وزوايا الصوفية كانت تؤدى مهامها فى يسر وسهولة ، وزاد هذا الاغداق فى عهد اسماعيل كما سبق أن بينا • وليس معنى ذلك أن العلاقة بين الطرفين : الصوفية والحكومة قد سارت بما يهوى كل طرف ، فقد حدثت ثمة أمور تأرجحت فيها العلاقة بين الولاء المطلق — كما حدث بالنسبة للميرغنية الختمية — وبين التأييد مع الحذر كما كان الحال بالنسبة للاسماعيلية •

ويبدو أن قضية العلاقة بأجهزة الحكم قد شغلت الصوفية فى السودان منذ دولة الفونج ، فهاهو ذا أحدهم ، ويدعى (فرح ولد تكتوك) يرفض أن ينصاع الفقهاء لرجال الحكم حتى لا يقع فى ملذات الدنيا ويقول :

يا واقفا عند أبواب السلاطين
ارفق بنفسك من هم وتحزين
تأتى بنفسك فى ذل ومسكنة
وكسر نفس وتخفيض وتهوين
ان كنت تطلب عزا لا فناء له
فلا تقف عند أبواب السلاطين

ثم يقـــول :

خـل الملوك بدنياهـــم وما جمعـــوا
وقـم بدينـــك من فـرض وســـنون

اســتغن باللــه عن دنيـــا الملوك كمـــا
استغنى الملوك بدنيـــاهم عن الدين (١)

واذا تتبعنا العلاقة بين الادارة المصرية ومتصوفة السودان فسوف نجد أنها بدأت عكس ما كانت ترجو هذه الادارة ، فالطريقة المجذوبية التى نشأت فى الدامر وما حولهـا واجهت متاعب عقب مقتل اسماعيل كامل وقيام محمد بك الدفتر دار بانزال الدمار بهم ، ذلك لأن ملك شندى المدعو نمر — وهو من الجعليين — كان من وراء حادث القتل (٢) .

ومهما يكن الأمر من ناحية استخدام أساليب البطش ضد السكان ، فان الحقيقة التى لا يمكن اغفالها ان المقصـود بهذه العقـوبات لم يكن المتصوفة أو باقى السكان ، بل كان الملك نمر وأعوانه الذين دبروا هـذا الحادث . إلا أن الفزع قد أصـاب الجميع فهرب الملك نمر وكثير من الجعليين الى أطراف الحبشة وتبعه أيضـا كثير من شـيوخ وأنصـار الطريقة المجذوبية . وقد يتسـاءل البعض اذا كان الدفتر دار قد أراد الانتقام من الملك نمـر فقط فلماذا هـرب الصوفية وراءه الى أطراف

---

(١) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٢٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) حول ذلك انظر :

F. O. 78 - 119, Report of Ismael Pasha's death.

(أ) دفتر رقم ١٤ معية تركى ، وثيقة رقم ١٩٤ بتاريخ ١٦ محـرم ١٢٣٩ من الجناب العالى الى حضرة قائد عساكر السودان وكردفان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(ب) أنظر أيضا :

والمودع بالمحفظة : رقم ١٧ من محافظ الأرشيف الأوربى (الانجليزى) بدار الوثائق .

السودان ؟ الواقع أن العلاقة بين سكان هذه المنطقة فى شندى والدامر لم تكن علاقة جوار وحسب بل هى علاقة صهر ونسب وصلات قبلية متشابكة وزادها تماسكا أنهم جميعا أصحاب طريقة واحدة فما يصيب الفرد يصيب الجماعة لذلك شهدنا هروب رجال الطريقة المجذوبية أيضا • والدليل على ان رجال الادارة لم يكن فى أذهانهم ايقاع الضرر بالصوفية هو السماح لهم بعد ذلك بالعودة الى ديارهم وممارسة شعائرهم الصوفية فى أمان وسلام بل ومزاولة مهام القضاء المحلى بالدامر •

وقد كان المسئولون فى مصر يوصون خيرا ببعض فقهاء الصوفية ، من ذلك ما حدث بالنسبة للشيخ محمد السنوسى عام ١٨٥٢ الذى درس بالأزهر الشريف ثم طلب العودة الى بلاده كردفان ، فأرسلت الى الحكمدار رسالة طلب فيها منه أن يعتنى به « •• لأنه أحد أتباع الطريقة النقشبندية » العائد لنشر التعليم فى بلاده (١) • كذلك نجد فى عام ١٨٦٢ أمراً يقضى بترتيب معاش لأحد مشايخ هذه الطريقة لقيامه بوظيفة التعليم بمديرية دنقلة وبربر (٢) •

وأما الطريقة الميرغنية الختمية فقد كانت علاقتها طيبة بالحكومة فى السودان على عهد الادارة المصرية كما سبق القول • وقد كان هذا الود المتبادل بين الطرفين مدعاة لقول الكثيرين ان الحكومة فى التاكة كانت

---

(١) دفتر رقم ٨٤ — صادر معية — صورة المكاتبة رقم ٥ ص ٨٣ بتاريخ ٩ ذى القعدة سنة ١٢٦٨ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٩٩ — اوامر عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ١٦٠ ص ٥٤ بتاريخ ١٣ شعبان سنة ١٢٧٨ هـ . أمر كريم الى حضرة سلطان دارفور . دار الوثائق القومية بالقلعة .

صورة أخرى من المكاتبة الى مديرية دنقلة وبربر بالدفتر رقم ١٨٩٨ بتاريخ ١٦ شعبان سنة ١٢٧٨ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

تحابى هذه الطريقة وان رجـال هذه الطريقة كان لهم ميل للسلطة (١)
والحقيقة انهم كانوا بعيدين تماما عن المسائل السياسية آنذاك وليس لهم
ميل لهذه السلطة ، ولو كان فى نيتهم ذلك لاستطاعوا ــ ربما ــ تحقيقه قبل
ظهور المهدى بزمن خاصة وأنهم كانوا قد أسسوا قاعدة جماهيرية صلبة
من المريدين فى أنحـاء السودان وشرقه على وجه الخصـوص • اذن
ليس هناك مجـال للقول بمحاباة الحكومة لهـذه الطريقة بل الأفضـل
ان نقول انهم كانوا محل احترام لدى الحكومة من خلال مسلكهم الهادىء
ودورهم الدينى والاجتماعى فى المجتمع السودانى • ولسنا فى حاجـة
الى تكرار ما سـبق أن قلناه من ناحية الدور الهـام الذى لعبه الحسن
ابن محمد عثمان الميرغنى فى تسكين الفتنة التى حدثت بين الجنود السود
بكسلا ، فلولا هذا التدخل من جانبه لمـا أمكن السيطرة عليهـا بهـذه
الصورة ، إذ كان رجال هذه الطريقة فى هذه المنطقة التى اتخذوها مقـرا
لطريقتهم محل تبجيل واحترام السكان والأهلين •

وفى اكتوبر عام ١٨٦٥ ورد تقرير مطول من حكمدار السودان جعفر
مظهر باشا عن الطريقة الختمية ويبدو أنه كان أشبه بتقرير سرى شرح
فيه الحكمدار السر الذى دعـاه الى التعرف على هـذه الطريقة قائلا :
« أردت أن أتبين أسـباب الشـهرة التى حصل عليهـا الشـيخ حسن
(المعروف) * الذى أصبح ذا نفـوذ فى مديرية التاكة ، فتحققت من
بعض المشايخ وكبراء الأهالى والتجار المقيمين فى سواكن من الواقفـين
على أحـواله ومن غـير الواقفـين ، فى بعض المناسـبات (الغـير
مقصودة) ** •• ان هذا الشيخ سالك سبيل التوسط بالخير سواء أكان

---

(١) الناصر عبد الله ابو كروق : تاريخ مدينة كسـلا ١٨٨٣ ــ ١٨٩٧
رسالة ماجستير غير منشورة • ص ٤٨ •
(*) يعنى بالمعروف المشهور وهو السيد الحسن نجل الشـيخ محمد
عثمـان •
(**) غير المقصـودة •

ذلك للحكومة أم للأهالى والعربان ، وقد سمعت بالتواتر بمدحه والثناء عليه من أكثر الناس وأنه فى حد ذاته رجل صالح ورع فملت بمجرد السماع اليه وأحببته غيابا ، وانى أومل أن آخذ منه عهدا بعد أن أقف بنفسى على صلاحه وتقواه وأحصل على دعائه ... » (١) فمن هذه العبارات السابقة يمكننا أن نستخلص أن نفوذ الختمية قد بلغ شأوا عظيما فى زمن هذا الحكمدار على عهد اسماعيل باشا ، وأن هذا النفوذ قد شمل الجانبين : أجهزة الحكم والأهالى ، إذ لعبت هذه الطريقة دور الوسيط بينهما دونما انتظار لكلمة شكر ، الى الدرجة التى جعلت هذا الحكمدار يعترف بأنه قد أحب شيخهم سماعيا ومال اليه بل وبلغ حبه له أنه يريد أن ينخرط فى طريقته بعد أن يأخذ العهد منه ! . وفى ذات التقرير أيضا يحاول الحكمدار أن يشرح سر التعظيم الشديد الذى آثره به الناس فى تلك الجهات ، فيروى أن مدير التاكة قد استقبله شيخ الطريقة ذات مرة واقفا ولثم يده ، فأستغل الشيخ هذا الاكبار ، واقتفى موظفو المديرية أثر المدير وأكبروه وعظموه لأنه أصبح من المقربين لدى المدير والوكيل ، ويضيف الحكمدار سببا ثانيا لهذا الاكبار وهو أن الأهالى فى تلك الجهة كان أكثرهم من العربان الموصوفين « بقلة العقل » وفقدان الادراك (٢) .

والحقيقة اننا لا نميل الى هذا التفسير الذى ذهب اليه الحكمدار خاصة الشق الأول منه ، فهذا الاجلال الذى وصل اليه لا يعقل أن يكون بسبب تقبيل يده من جانب المدير ، فقد يكون ذلك صحيحا بالنسبة لموظف فى دواوين الحكومة تربطه مصالح برؤسائه ، أما فى هذه الحالة فلم يكن هذا الشيخ فى حاجة لمثل ذلك وأكثر السكان من حوله يجلونه .

---

(١) محافظ أبحاث السودان : محفظة رقم ١٧ — دفتر رقم ٢ عريضة غير رسمية مرفوعة للأعتاب الكريمة من جعفر مظهر باشا بتاريخ ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١٧ ، نفس الوثيقة السابقة .

ثم اننا نتساءل هل أجبر المدير على أن يقبل يد الشيخ ؟ كما نتساءل أيضا أليس هذا التفسير من جانب الحكمدار نفسه مناقضا لما ذكره فى مستهل تقريره من أنه أحب هذا الرجل غيابا دون أن يراه ؟ اذن التفسير الصحيح لذلك هو أن اسلوب هذا الشيخ الصوفى وعلاقاته الطيبة مع الناس كانت أسبق فى الدعاية له بين رجال الحكومة وأيضا بين الأهالى ٠

ويبدو واضحا أن رجال الادارة فى شرقى السودان قد استفادوا تماما من مشايخ هذه الطريقة ، كما استفاد هو أيضا من ذلك ٠ فقد ورد فى هذا التقرير أيضا « ٠٠٠ ان الشيخ (متفق) * مع (خدم) ** المديرية ، وانه يتخذهم عضدا قويا ، ويستند عليهم ٠٠ ويتخذ من ذلك وسيلة لبسط الرجاء وتقديم الشفاعة لحل أمور الناس ، وأماله قلوب العربان والأهالى » (١) ٠

وقد عاد الحكمدار مرة أخرى فى نفس التقرير ليعترف بأهمية هذا الرجل ودوره كحلقة وصل بين رجال الادارة وبين الأهالى ، ويقول : « ٠٠ ويغلب على الظن أن المديرين الذين تعاقبوا كانوا يتناوبون التوصية على هذا الشيخ ويبدو أن السبب فى ذلك راجع الى ظنهم أن الشيخ المذكور (ذا) *** شهرة ونفوذ بين العربان ويعتقدون صلاحه وتقواه وان العربان يستمعون الى كلامه ويطيعونه ويستجيبون نداءه وانهم كانوا يحترمونه ابتغاء لتوسطه بالصلح فيما لو وقعت فتنة أو نزاع بين العربان ٠٠ » (٢) ٠

(*) على وفاق ٠
(**) رجال الادارة الذين يقومون على خدمة المديرية ٠
(١) محافظ الأبحاث محفظة رقم ١٧ — نفس الوثيقة السابقة ٠
(***) ذو ٠
(٢) نفس الوثيقة السابقة ٠

وسـواء أكان ذلك النفـوذ والاحترام اللذان حظى بهما رجـال الطريقة الميرغنية الختمية فى السودان ناشئا عن مصلحة للعربان حـاول هؤلاء المشايخ قضاءها مقابل الانخراط فى طوقتهم ، أو كان ناشئا عن حاجة الحكومة لرجال هذه الطريقة فى الاتصال بالعربان واستخدامهم عند الشدائد ، فان هؤلاء المشايخ قد أدوا هـذه المهـام بنفس راضية كان نتيجتها ان فرضوا احترامهم من خلال سلوكهم هـذا على كل الأطراف ، رجال الادارة وأفراد الشعب السودانى • ويبدو أن الحكومة كانت قد خصصت مبلغا من المـال للشيخ حسن الميرغنى بلغ مائتين وخمسـين قرشا بالاضافة الى أربعة أرادب من الأذرة • ولما توفى هذا الشيخ ترك وراءه ولدين بالغين وفتاتين بالاضافة الى زوجاته ، فقررت الحكمدارية فى عهد جعفر باشا مظهر أن تستمر هذه المعونة المالية مع زيادتها لهـذين الولدين لأنهما كانا يصرفان أوقاتهما فى تعليم الشريعة والطريقة ، وتعليم الطلاب وعظة العامة الأمر الذى يترتب عليه نفقات كثيرة ، كمـا اقترح الحكمدار أيضـا استمرار الأربعـة أرادب من الأذرة لهمـا ولا ختيهما وامهاتهم اكراما لهم (١) •

وفى ديسمبر عام ١٨٧٢ كاد يحدث ما يعكر صفو العلاقة بين مشايخ الطريقة الختمية وبين رجـال الادارة فى السـودان حيث وردت اشارة فى احدى الوثائق بأن الأوامر صدرت لمدير التاكة « بضبط أولاد شيخ الطـريقة » ، ولكن مدير دنقلة وبربر سـارع بالكتابة الى المسئولين بمصر لايقـاف مثل هذا الأمر قبل حدوثه (٢) • أما السبب فى صـدور

---

(١) محفظة رقـم ٤٦ وثيقة رقـم ٣٦١ — ترجمـة مكاتبة من حكمدار السودان بتاريخ ٨ رمضان سـنة ١٢٨٦ هـ . الى صاحب السعادة مهردار الحضرة الخديوية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٧ عابدين وارد تلغرافات ، صورة التلغراف العـربى بالشفرة رقم ٨١٨ ، ورد بتاريخ ١٢ شوال سنة ١٢٨٩ هـ من مدير دنقـلة وبربر الى سعادة خمى باشا • دار الوثائق القومية بالقلعة .

مثل هذا الاجراء الذى لم يتم ، فيرجع الى عملية الحصر التى بـدأت لخلفاء الطريقة بمديرية دنقلة وبربر ، تمهيداً لارسالهم الى مدير التاكة للتحقيق معهم حسب الأوامر التى ترد من الارادة العلية » ، فقـد جرت عملية تحـرى عن هؤلاء الخلفاء ووجد أنهـم يقومون بتحصيل بعض الأموال وارسالها لأولاد الميرغنى [١] •

وعقب بحث هـذا الموضـوع بنـاءً على افادة من مدير التاكة تبين « ••• أن أولاد الشـيخ محمد عثمان شـيخ طريقة الختمية •• لم يظهر منهم تعرض للحكومة ، وأن الأهالى لهم فيهم حسن اعتقـاد ، وانهم ساعدوا الحكومة فى وقعة العساكر الأشـقياء بالتاكا » [٢] • وأما الخلفاء الذين تم ضبطهم فقد تبين أيضا أنه لم تحـدث منهم أمـور مخلة ولا معارضة وتظلموا مما حدث لهم وقالوا « ••• انهـم أصحاب زوايا وجوامع وعليهم أموال للميرى ونحو ذلك •• » [٣] • وبناءً على ذلك كله صدر النطق بالعفو والافراج واعادتهم الى بلادهم والتأكيـد عليهم بألا يحاولوا تكليف الأهالى بأى أعباء سواء أكانت أموالا أو غيرها من الأعبـاء [٤] •

من ذلك يتضح لنا أن العلاقة كانت تسير بسلام بين الفريقين ولـم يحدث ما من شأنه أن يعكر صفو هذه العلاقة ، أما ما جـرى من ناحية ضبط بعض الخلفاء فهذا اجراء عادى يخضع له كافة الأهالى فى السودان ، خاصة وقد كانت البلاد سواء فى مصر أو السـودان تمر بحالة كسـاد

---

(١) دفتر رقم ١٧ عابدين : وارد تلغرافات ، نفس التلغراف السابق •

(٢) دفتر رقم ١٥ عابدين ــ صـادر تلغرافات ــ صـورة التلغراف العربى ــ الشفرة رقم ٤٤٧ ص ٦٦ بتاريخ ٢٠ ربيع ثانى سنة ١٢٩٠ هـ • من خيرى باشا الى مدير دنقلة • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) دفتر رقم ١٥ عابدين ــ نفس الوثيقة • ص ٦٦ •

(٤) نفس الدفتر والوثيقة ص ٦٦ •

مالى ، والأهالى لا يطيقون أعباء جديدة تفرض عليهم ، وحتى مجـرد التأكد من حدوث مثل هذه الأمور قد جرى مع خلفاء الطريقة الختمية فى شىء من الحذر نظرا لما أسداه مشايخها من خدمات طيبة للحكمدارية •

أما زعمـاء الطريقة الاسماعيلية فقـد جمعـوا بين علمى الشريعة والحقيقة ، ولذلك فقد لقيت اسرة الشيخ اسماعيل الولى مؤسس هذه الطريقة كل احترامىن محمد أحمد المهدى ولم يصبها بسوء ، ولكن أحـد علمائهـا ويدعى السيد أحمد الشيخ اسماعيل ، وقـد سافر الى مصر ودرس بالأزهر ثم عاد الى السودان وكان له أثره الكبير فى نشر العلوم بين تلاميذه ، أنكر على المهدى دعوته وحارب مع جيوش الحكومة المصرية حتى قتل مع ابنه خلال احداث المهدية [١] •

وهكذا يبدو من العلاقة بين الحكومة والطرق الصوفية أنها كانت فى مجملها تتسم بالوفاق والتفاهم وأما ما حـدث بالنسبة للطريقة المجذوبية فى مستهل الحكم المصرى فقد كان نتيجة لاحـداث فردية لا عن سياسة عامة تجاه الطرق • كما يتضح أيضا من هـذه العلاقة مدى الاخـلاص الذى كانت تبديه الطريقة الختمية للادارة المصرية ، وهذا الاخلاص لم يكن على حساب الأهالى ، بل استطاع زعماء هذه الطريقة أيضا أن يكونوا جسر اتصال بين الطرفين •

وفى النهاية يمكن أن نخلص الى أن الطرق الصوفية كانت تمثل ركنا أساسيا فى بناء المجتمع السودانى خلال القرن التاسع عشر ، ففى خلواتها انصهر سكان السودان من عرب وزنوج وغيرهم ، وفى صفوف اذكارهـا وقف الجميع فقيرهم بجانب غنيهم يذكرون اسما واحـدا • وإذ كان البعض يعطى اهتماما خاصا لمجتمع القبيلة السودانى حيث التكاتف على

---

(١) عبد الله حسين : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ •
أنظر ايضا : Wailis; Op. Cit. p. 186.

أشده فان مجتمع الصوفية فى السودان فى تقديرنا أشد تماسكا منه وأقوى عودا • وفى عبارة موجزة يمكن أن نقول ان الصوفى السودانى قد عبد الله فى صومعته ، وعلم تلاميذه ومريديه فى خلوته ، ونشر الاسلام من حوله ، وكان أيضا رسول سلام بين حكامه وعشيرته •

وبهذا استطاعت جموع الصوفية فى السودان ابان القرن التاسع عشر ان تسيطر على أفئدة الجماهير السودانية ، بل وتحركها أحيانا ، وكان على أية حركة اصلاحية فى ذياك الوقت ان أرادت لنفسها النجاح أن تركب موجة الصوفية • وعلى هذا يمكننا أن نفسر كثيرا من النجاح الذى لقيه المهدى فى بداية حركته الى انه استطاع أن ينضوى — فى بادىء الأمر — الى احد الطرق الصوفية التى سادت السودان فى القرن التاسع عشر (السمانية) ومن ثم راح يتحدث لغة العصر فى محاولة لكسب الجماهير التى سرعان ما التفت حوله وعضدته • لقد كانت هذه الطرق الصوفية المدرسة الأولى التى تربى فيها زعيم المهدية وشحذ فيها أسلحته ، كما انها أيضا كانت المناخ السائد فى ربوع السودان حيث تنفست جماهير السودان تعاليمها الصوفية ، ومن ثم كان طبيعيا أن تأخذ المهدية فى عام ١٨٨١ مسوحا دينية ، كما كان طبيعيا أيضا أن تلتف معظم الجماهير من حولها ، كما كانت تلتف من قبل حول شيوخ طرائقها •

الفصل الثامن

التعـليم والثقــافة

- التعليم الأهلى (الدينى) وتطــوره •
- التعليم الحكومى (المدنى) وتطــوره •
- الارسالية الكاثوليكية ودورها التعليمى •
- الآثــار الثقــافية •

قبل أن نعرض تفصيلا للتطورات التعليمية والثقافية فى السـودان يجدر بنا أن نشير الى جملة أمور ، منها انه لا ينبغى أن نعقد مقارنة بين التطـورات التعليمية الحديثة التى جـرت فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وبين الوضع التعليمى والثقافى فى السودان فى ذات الوقت • فبينما كانت مصر قد قطعت شوطا كبيرا ومكثفا — منذ تولى محمد على الحـكم — فى مجـال التعليم وارسـال البعثات العلمية الى أوربا كان السودان لا يزال يعيش على أفكار المتصوفة المزوجة بكثير من الأمور الغيبية كما سبق أن وضحنا حين عرضنا للطرق الصوفية • كمـا أنه فى ذات الوقت أيضـا كانت تلك التطورات التعليمية والثقافية التى حدثت فى مصر تنطلق من أرضية ثابتة وميراث ثقافى بحيث أن محمد على لم يجد صعوبة فى أحداث تطورات سريعة استطاع من خلالها الوصـول الى نتـائج ملموسـة • كذلك فانه ينبغى أن نشير الى أن التطـورات التعليمية على عهد الادارة المصرية فى السودان لم تكن فى بادىء الأمـر بصورة مكثفة ، كما كان الحـال فى الجانب الاقتصادى ، وربما يـكون السبب فى ذلك ان محمد على كان ينتظر أولا استقرار الأحوال فى السودان وعودة الميـاه الى مجاريها وانتظام شئون البلاد المادية قبل الشروع فى شئونها الثقافية ، لأن العلوم — على حد قول بن خلدون — انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة • ولسنا فى حاجة الى اثبـات ذلك فقد سبق أن تحدثنا عن جهود محمد على وخلفائه فى الجانب الاقتصادى • كل ذلك قد جعل المسيرة التعليمية والثقافية فى السـودان تسير ببطء ، خاصـة وان مصر منذ عـام ١٨٤١ قـد بدأت تعيد ترتيب سياساتها المختلفة وفقا للأوضاع الجديدة ، وكان من الطبيعى أن ينعكس ذلك كله على البرامج والخطط التعليمية سواء فى مصر أو السودان • ولعل فى تتبع المسيرة التعليمية والثقافية فى السودان ما يميط اللثام عن كثـير من سياسات وجهود مصر فى هذا الصدد •

ومن خلال دراستنا للتطـور التعليمى فى السـودان سوف نعرض

لنوعين من التعليم وهما : التعليم الأهلى الدينى ، والتعليم الحكومى أو المدنى .

أولا : التعليم الأهلى (الدينى) :

قد يكون من المفيد أولا أن نشير الى أن سياسة محمد على التعليمية فى السودان كانت ترمى الى تغليب المنفعة على النظريات ، حيث أبقى على التعليم الدينى المنتشر فى أنحاء السودان والذى كان يتمثل فى « الخلاوى » ، فلم يحاول أن يخلق ثنائية فى التعليم ، احتراما لعادات وتقاليد الناس وما ألفوه ، ولم يمل عليهم ما يتعارض ورغباتهم . كما كان يؤثر أن يتعلموا أولا فنون الزراعة والصناعة بدلا من العلوم الثقافية الحديثة (١) . وفى عام ١٨٤١ كانت مصر تمر بمرحلة جديدة أو دور جديد من أدوار التعليم ، فقد استقر السلام وتمت التسوية المصرية العثمانية وبدأ عهد من الاستقرار السياسى ، فلم تعد مصر فى حاجة الى جيش كبير فظهرت الحاجة الماسة الى اعادة النظر فى النظام التعليمى على ضوء حاجات البلاد الجديدة . وهذه المرحلة الجديدة كانت تقوم على أسس ثلاثة : (١) الاقتصاد (٢) مراعاة الحاجات الجديدة (٣) التمكين لمراحل التعليم المختلفة فى أسباب القوة والاتساق (٢) .

وليس معنى ذلك أن محمد على لم يكن يلقى اهتماما لتعليم السودانيين فى ظل الظروف الجديدة ، بل انه كان يمد يد العون لكل مشروع تعليمى يتفق وسياسته المشار اليها . ففى مجال التعليم الدينى راح يساند القائمين عليه ، من ذلك أن قاضى الشرع والعلماء بدنقلة طلبوا منه انشاء جامع تقام فيه الشعائر الدينية ، بالاضافة الى مدرسة

---

(١) عبد العزيز أمين ة التربية فى السودان . الجزء الثانى . ص ١٣ .
(٢) احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على . ص ١٣٤ — ١٣٦ .

لتعليم القــرآن الكريم للأطفــال ، فكتب الى مأمــور دنقلة قائلا :
« ... نطلب منكم أن تعملوا على انشــاء الجامع واقامة المدرســة الى جانبــه » (١) .

وفى أثناء زيارته للسودان اجتمع بالقضاة والمفتيين والعلماء وأنعم عليهم بالخلع الفاخرة تقديرا لهم وتشجيعا للدور التعليمى الذى يضطلعون به . كذلك فإنه وافق ذات مرة وبناءً على اقتراح من الحكمدار بتجديد أحد الجوامع وبنــاء عشر حجرات لسكنى (الفقرا) * ، وعمل ســور للجامع من الطــوب الأحمر حيث بلغت نفقــات هــذا كله ثمانية آلاف قرش (٢) .

ولم يقف الباشا فى سبيل من يريدون المزيد من التعليم الدينى بل أفسح أمامهم المجــال للذهاب الى مصر والالتحاق بالأزهر الشريف . ومن بين تلك الجهود موافقته على تخصيص رواق للسنارية عام ١٨٤٦ ، حيث حضر الى الأزهر طالب سودانى يدعى « محمد على وداعه » منــذ عام ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) فوجــد ستة من أبناء سنار قد سبقوه اليــه ، فتقدم هؤلاء الى الباشا يطلبون ترتيب خبز لهم فوافق على ذلك عــام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) . ثم قــدم محمد على وداعه وزملاؤه السناريون المجاورون طلبا يلتمسون فيه انشاء رواق خاص . ولما كان عدد الأروقة الموجودة بالأزهر عبــارة عن اثنين وعشرين رواقا ، وكل رواق منهــا مخصص لجنس من المجاورين ، لم يعد فى الامكان ــ كما قال وكيــل ديوان المالية فى رسالة لمحمد على ــ انشاء رواق جديد خاص بالسناريين ، وان انشــاء رواق جديد خاص بهم يتوقف على ارادة الجناب العالى ،

---

(١) عبد العزيز امين : المرجع السابق . ص ١٤ .
(*) المشايخ الذين يقومون بالتعليم الدينى داخل الخلاوى .
(٢) دفتر رقم ١٨٠ ؛ شورى المعاونة ملكية ــ ترجمة الوثيقة رقــم ٢١ بتاريخ ١١ المحرم ١٢٥٥ هـ . انظر ايضــا عبد العزيز امين عبد المجيد المرجع السابق ص ١٥ .

فكان رد الباشا على الرسالة « ••• قد اقتضت ارادتى شراء محل جديد وتخصيصه رواقا للمجاورين » (١) • وهكذا فان محمد على لم يلق بالا الى العقبات المالية التى كانت تقف حيال اقامة هذا الرواق الخاص بالسناريين وتفوق على هذه المشكلة الاقتصادية فى سبيل الأهداف التعليمية لأبناء السودان •

من ذلك يتبين لنا أن محمد على قد حاول — ما وسعه — أن ينشر التعليم الدينى فى داخل البلاد ويرسل أبناء السودان الى الأزهر بمصر لاستكمال علومهم الدينية •

وبالرغم من ذلك كله فلم تسلم سياسة محمد على التعليمية — وخصوصا فى الجانب الدينى — من النقد الشديد • فقد فسر أحد الباحثين اهتمامه بهذا التعليم الى « أنه كان يتناسب — من وجهة نظر محمد على — وحالة البلاد ولا يتعارض مع سياسته ، وأن حدبه ورعايته للتعليم الدينى فى السودان ما كان إلا ليزيد من نفوذ العلماء والفقهاء الذين يساهمون فى استتباب الأمن باعادة الجماعات الهاربة ، وجمع الضرائب ، فترك لهم مراكزهم التقليدية التى يباشرون فيها نشر علوم اللغة والدين خاصة وانهم قد شعروا فى عهده باستقرار مادى ومورد ثابت بعد أن كانت الهبات والهدايا من قبل عرضة للظروف ، الأمر الذى كان حريا بهذه الفئة أن تبارك الحكم وتسبح بحمد الباشا » (٢) •

واذا كنا نتفق مع الباحث فى الشق الأول من هذا التفسير والذى يذهب الى أن هذا اللون من التعليم كان مناسبا للبلاد ، إلا أننا نختلف معه فى بقية ما ذهب اليه • فلست أدرى هل كان الباشا فى حاجة ماسة

---

(١) دفتر رقم ٤١١ ، معية سنية — ترجمة المكاتبة رقم ٣٤٨ بتاريخ ١٦ صفر سنة ١٢٦٣ هـ . ارادة الى مدير المالية • دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) يحى محمد ابراهيم : التعليم الدينى فى السودان والصراع بينه وبين التعليم الحديث . ص ١٨٩ •

الى مباركة حكمه وتوطيد أركانه فى السودان وقد توطد بالفعل ؟ ثم ان هؤلاء الفقهاء لم يكونوا منوطين بجمع الضرائب حتى يخطب الباشا ودهم اللهم إلا اذا كان صاحب الرأى لا يفرق بين المشايخ الذين يقومون بمهام ادارية والمشايخ الذين يقومون بأمور التعليم الدينى والذين يطلق عليهم دائما (فقــرا) • والحقيقة أن هذه التفسيرات نابعة من نظرة اقليمية ضيقة لم تكن أبدا تدور فى مخيلة محمد على فى القرن التاسع عشر ، فلم يكن يفرق بين رعاياه فى مصر والسودان •

ولم يتدخل محمد على — رغم اغداقه الأموال على المساجد والمشايخ القائمين على التعليم الدينى — ولم يفرض علوما دون أخــرى أو برامج دراسية معينة وانما اكتفى بما يمكن تسميته بالاشراف الفنى والادارى من تحريات عن عدد التلاميذ وأعمارهم وأهلية القائمين بأمر التدريس ، وكان الحكمداريون هــم الذين يقومون باجــراء مثل هــذه التحريات الضرورية عن عــدد الطلاب وعمليات البنــاء والأدوات اللازمة لهــذه المدارس • أما كفاءة الفقهاء وسلوكهم فقد ترك أمرها لشهادة العلمــاء والقضــاة •

وحتى هذا الاشراف غير الجوهرى فى هذه المدارس كان ســبيلا الى توجيه اللوم لسياسة محمد على التعليمية من جانب القائلين بوجود تعارض بين النظــام القديم الذى كان يتيح زيادة أعداد الطــلاب وبين النظــام الجديد الذى ينظــم عملية زيادة الطــلاب واســتبعاد غــير اللائقين (١) •

ولست أدرى ما هو التعارض فى هذا الأمر • لقــد روعت صاحب الرأى السالف مسألة استبعاد بعض كبار السن من التلاميذ فراح يصدر حكمه دون أن يوضح لنا الحيثيات حول ما اذا كان استبعاد هؤلاء الكبار

---

(١) يحيى محمد ابراهيم : المرجع السابق ، ص ١٩١ ، ١٩٢ •

لمجرد أنهم كبار السن أم لأسباب أخرى • وهل كان فى وجـودهم بين صغار السن والناشئة حافزا لباقى التلاميـذ على التقدم فى الدراسة ؟ ثم أخيرا هل كانت قدرات هؤلاء الكبار على التحصيل ضعيفة ومن ثم رأت الادارة المسئولة استبعادهم والحاقهم بأعمـال يدوية كما تشـير الدراسات التربوية الحديثة ؟ • كان لابد اذن من طرح مثل هذه التساؤلات قبل أن نحكم بوجود هذا التعارض خاصة وأن الباحث قد أشـار الى أن محمد على لم يتدخل بشكل جوهرى فى التعليم الدينى •

وفى عهد عباس الأول نلحظ استمراراً لسياسة محمد على تجاه التعليم الدينى على الرغم مما قيل عن عدائه فى تشجيع التعليم بصفة عامة • فليست لدينا أدلة تشير الى أن التعليم الدينى فى السودان — على عهده — قد وهن ، بل ظل يلقى دعما وتشجيعا من لدن رجال ادارته فى السودان • وكان الحكمداريون فى معظمهم من الأتراك المعروفين بحرصهم على شعائر الدين فشجعوا ما وجدوه قائما من الخلوات ومساجد العلم والعبادة (١) •

وبالرغم من قصر المدة التى قضاها عباس فى الحكم والتى بلغت ست سنوات (نوفمبر ١٨٤٨ — يولية ١٨٥٤) فقد وجـدت بعض الأعمـال التعليمية فى هذا المجال وتتمثل فى احتفائه وتقديره لرجال العلم ، من ذلك أن أحد السودانيين كان يتلقى العلم بالأزهر الشريف ، ولمـا أنجز مهمته العلمية وهم بالعودة الى بلاده كتب عباس الى حكمدار السودان أن يحسن ملاقاته ويعامله بما يليق برجـال العلم ، كما تم التنبيه على سائر الحكام الذين يلقاهم فى طريقه الى بلاده بضرورة المعاملة الطيبة له • كذلك فان عباس باشا قد أوصى بأحـد علماء الأزهـر خيرا حين طلب أن يؤذن له بالسفر الى السودان لينشر العلم بين أهله ، كمـا وافق

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق • ص ٢٣٠ •

أيضا أن يبنى مسجدا ويقوم بالخطبة فيه (١) .

وبالرغم ما قيل عن حرصه على الانفاق فانه لم يضن على مساجد العلم بالاصلاح ، فقد رفعت اليه عريضة تفيد بوجـود مسجد قـديم للصلاة وتلاوة القـرآن ودراسة العلم بناحية الخندق وأنه فى حاجـة الى ترميم وتخصيص راتب شهرى أو سنوى ، فما كان منه إلا أن وافق على ذلك وطلب الى حكمدار السودان أن يقوم باللازم (٢) .

ومن الجوانب الأخـرى المتعلقة بهـذا النوع من التعليم الاهتمام بشراء المراجع المتخصصة فى علوم الفقـه واللغة ليفيد منها الدارسـون بمساجد العلم ، كما نقرأ أيضـا أن الحكام قد عقدوا اتفاقا مع المطبعة فى مصر لطبع الكتب الدينية تبـاعا ثم ارسالها الى السـودان وتوزيعها على علمـائه (٣) .

ومن أهـم تلك الكتب التى أرسلت أو طلب ارسـالها « حاشـية الطحاوى على الدر المختار » ، و « حاشية الصـاوى على الجلالين » ، و « شـرح الخطيب الشربينى » وكتـاب « شرح الدردير على أقـرب المسالك » . والكتاب الأخير طلب من مصر بناءً على أمر من الجناب العالى حتى يقرأ فى المسجد الشريف الذى انشىء فى قرية الخندق بدنقلة (٤) .

من ذلك يتبين لنا أن عباس الأول قد سار على منوال سلفه محمد على فى مجال التعليم الدينى قدر طاقته ، ولم يطالعنا ما يشير الى أنـه

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد . المرجع السابق . ص ٢٤ ، انظر ايضا : دفتر رقم ٨٤ صادر معية فى ٦ ذى القعدة سنة ١٢٦٨ هـ . مكاتبة عربيـة رقم ٥٠ ، وأيضا دفتر رقـم ١٠٦ صـادر معية بتاريخ ٢٧ شوال سـنة ١٢٦٩ هـ .

(٢) عبد العزيز أمين عبد المجيد . المرجع السابق . ص ٢٤ .

(٣) دفتر رقـم ٩٨ – وارد معية عربى – وثيقة رقـم ٨٠ بتاريخ ٧ ربيع الأول سنة ١٢٦٨ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفتر رقم ٦٥٥ ، صادر ديوان الكتخدا – وثيقة رقم ١١٩٤ بتاريخ آخر جمادى الآخرة سنة ١٢٧٥ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

حارب هذا النوع من التعليم أو امتنع عن تقديم المعونة الى من طلبها ، ومن ثم فلا مجال هنا للقدح فى أعمال هذا الرجل وترديد أفكار معينة تناقلها الكثيرون من الكتاب والمؤرخين وأصبحت بمضى الزمن وكأنها كلمات مقدسة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . فالحكم على أعماله تعليمية كانت أو غيرها ينبغى أن تكون فى نطاق الظروف التى كان يحياها والتى كانت تمر بها البلاد اقتصادية كانت أم سياسية ، مع الأخذ فى الاعتبار حقيقة هامة وهى ان مدة حكمه كانت قصيرة جدا اذا ما قورنت بمدة حكم محمد على بحيث تتاح له فرصة القيام بنهضة كبرى .

ومن عهد عباس الى عهد سعيد ننتقل فى رصد التطورات والجهود التى تمت فى مجال التعليم الدينى أو الأهلى حيث نشهد استمرارا لسياسة السلف فى الاغداق على المدارس الأهلية المرتبطة بالمساجد . ففى مكاتبة من مدير كردفان نقرأ بأن أحد المشايخ ويدعى الشيخ اسماعيل الولى له أولاد وتلاميذ « .. سالكين فى سبيل الرشاد بتعليم الصبيان القرآن العظيم ومواظبين على تحصيل العلوم والتدريس ومجدين فى اقامة شعائر الدين » ، وليس لهم ايراد يعيشون منه سوى أطيانهم وسواقيهم التى كانت معفاة من الضرائب ، ولكن طبقا للنظام الجديد أصبحت هذه الأراضى والسواقى خاضعة للضرائب ، وبما أن هذا الشيخ وتلاميذه من أولى العلم ، فقد التمس مدير كردفان اعفاءه منها ، فما كان من سعيد إلا أن وافق على طلبه بالاضافة الى اعفاء أبنائه أيضا من هذه الضرائب « طالما كانوا يقومون بمهمة التدريس واقامة الشعائر » (١) .

وفى دنقلة تقدم أحد الأهالى بالتماس يرجو فيه مساعدته بترتيب شىء من الاعانة على نفقات الخلوة المفتوحة لقراءة القرآن الكريم وتدريس العلوم ، فأرسل سعيد الى مدير دنقلة وبربر موافقا على منح

(١) دفتر رقم ١٨٨٦ أوامر عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ٨ بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٧٣ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

هذا الفقيه المصـــاريف الضرورية بالاضــافة الى منحـــه عدة أفدنة ــ « بدون مال » ــ حتى ينفق منها على هذا المشروع التعليمى (١) •

وفى دنقلة الجديدة تقدم خدام « الجامع الشريف » بشــكوى من ضآلة المرتب المقرر لهم ، فأمر سعيد بزيادته وبناء عشرة « دكاكين » على نفقة الحكومة وتأجيرهما مع تحرير وقفية من لدن ولى النعم (٢) •

ويبدو أن رجال الطرق الصوفية كانوا أيضا يلقون رعاية نظــرا لما كانوا يقومون به من تعليم للأطفال كما كان الحــال بالنســبة للشيخ محمد على قرانى المقيم بمديرية دنقلة وبربر ، حيث تم ترتيب معاش له للقيام بهذه المهمة (٣) •

ويبدو أن تكريم العلماء والقائمين على تحفيظ القرآن الكريم كان سنة بدأها محمد على وسار عليها خلفه ، ولكننا نرى سعيد باشا يعمل على تنظيم هذه المســألة ، فقد أبصر بعضــا من ورثة العلماء يتسلمون مرتبات حتى وان كانوا لا يقومون بمهمة التدريس ، بالاضافة الى وجود الكثيرين من أدعياء العلم أو المتظاهرين بالاشتغال به طمعــا فى الثراء • فعلى سبيل المثال نلاحظ كثرة أولئك الأدعياء حين تقرر اعفــاء العلمــاء من ضرائب الأطيان ، وراحوا يظهرون الود للحكام للحصول على مثل هذه الاعفاءات (٤) ، فما كان من سعيد إلا أن نظم قواعد الانفــاق على

---

(١) سجل رقم ١٨٨٩ ـــ جزء أول ـــ الأوامر العالية الصادرة للدواوين والمجالس ـــ معية عربى ـــ وثيقة بتاريخ ٢٤ محرم سنة ١١٧٤ هـ ص ١٣ دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٩٦١ ، صادر قرارات المجلس الخصوصى . صــورة الوثيقــة رقــم ١٥ ص ١٢ بتاريخ ٣ رجب ســنة ١٢٧٦ هـ • دار الوثائق القوميــة بالقلعــة .

(٣) دفتر رقم ١٨٨٩ ـــ أوامر عربى ـــ صورة المكاتبة العربية رقم ١٦٠ ص ٢٤ بتاريخ ١٣ شعبان سنة ١٢٧٨ هـ • أمر كريم الى حضرة ســلطان دارفــور . دار الوثائق القوميــة بالقلعة .

(٤) دفتر رقــم ١٨٩٣ ـــ صادر الأوامر ـــ صورة الأمر الكريم رقم ٤ ص ٢٣٠ بتاريخ ٢٤ شعبان سنة ١٢٧٦ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة .

هذه المساجد والعلماء ، وقرر ألا تصرف المرتبات إلا لمن كان يقوم فعلا ــ من الورثة ــ بالتدريس (١) •

وقد استمرت نفس الأساليب السابقة فى التدريس بالنسبة لهــذه المدارس الأهلية • فقد وصف بتريك فى عام ١٨٦٠ احدى هذه المدارس التى كانت تقوم بتحفيظ القرآن الكريم ببلدة « الحصاحيصا » على النيل الأزرق حيث كان التلاميذ يذهبون مبكرين الى هذه الخلوة منذ الرابعة وحتى السادسة ، ومن السابعة حتى التاسعة فى المساء حتى لا يتعارض ذلك مع حياتهم المعيشية • وكان « الفقــير » يقرأ الآية من القرآن غيبا وبعد ذلك يحاكيه التلاميذ بأصوات مرتفعة جدا ؛ ويستمر فى هذه المحاكاة الى أن يحفظها التلاميذ فينتقل الى آية أخــرى • ولكل تلميذ لوح يكتب فيه الآيات ، وكان القليل منهم من يستطيع حفظ جميع القرآن أو الكتابة ، وحتى اذا حفظه فانه غالبا ما ينساه فى زمن أقل من الوقت الذى أنفقه فى حفظه ، فيما عدا آيات قليلة كانت تظل عالقة بذهنه (٢) •

وقد أولى حكمدار السودان موسى حمدى ــ فى عهد سعيد ــ بعضا من العناية التعليمية لقبيلتى الدنكا والشلك حين لاحظ أن دولة النمســا قد أنشأت لها كنيسة فى جهة النيل الأبيض لادخــال هاتين القبيلتين فى ملتها ، ثم ألغتها عندما لم تستطع اقناعهما بذلك • وقد أوصى حكمدار الســودان بأن يرســل لهاتين القبيلتين معلمون من فقهــاء الســودان يتميزون بحسن السلوك والأخلاق وترتيب « ماهيات » لهم حتى يقوموا بتعليمهم قواعد الدين الاسلامى مع انشاء « مدرسة عربية » (٣) •

وفى عهد الخديوى اسماعيل بدأنا نستشعر روحــا جديدة تدب فى

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد • المرجع السابق ص ٤٢ •

(٢) Egypt, The Sudan & Centeral Africa. p. 217.

(٣) محفظة رقم ٥٠٨ ــ وثيقة رقم ٢٩ بتاريخ ٢٠ رمضان سنة ١٢٧٩ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعــة •

أوصال المديريات السودانية مصحوبة بنشاطات متنوعة فى كافة جوانب الحياة ، ومنها الجانب التعليمى •ففى مجال التعليم الأهلى الدينى تطالعنا الكثير من الوثائق التى تؤكد مدى اهتمامه بهذا النوع من التعليم بشكل فاق سابقيه ولاحقيه • ففى أوائل عام ١٨٦٣ وردت رسـالة الى المعية السنية تفيد بأن مسجدين بكردفان يقع أولهما بالأبيض وهو « الجامـع العتيق » والثانى بحلة « أبو صفية » ، وأنهما فى حاجة الى الاصـلاح نتيجة الخلل الذى أصابهما سواء من سقوط الأمطار أو تقادم الزمن ، بالاضافة الى أن المسجد الأخير سبق أن أوقفت له سبع « حـلال » معفاة من الخراج بقصد الانفاق عليه ولكنه الغى ، فما كان من الخديوى إلا أن وافـق دون تردد على تخصيص مرتبات دائمة للخـدم والمؤذنين مع توفير مبالغ أخـرى ينفق منها على الفرش وزيوت الاضاءة (١) •.

وفى يونية عـام ١٨٦٣ وردت مكاتبة من الخرطوم تفيد بأن أحـد المساجد ويسمى مسـجد الأرباب ، بمدينة الخرطوم ، كان يقوم بمهمة تعليمية بالاضافة الى اقامة الشعائر الدينية ، وليست له أوقاف وفى حاجة الى الاصلاح والمؤونة ، فوافق اسماعيل على هذا المطلب قائلا : « حيث أن من أمانينا تعمير مثل هـذه المساجد الشريفة فإننـا نأمر ببنـاء هذا المسجد وتعميره بحسب المقايسة الموضوعة وخصم المبالغ التى ستصرف فى هذا السبيل من الديوان بصفة احسان من لدنا ••• » (٢) •

كما بعث أحد القائمين على التعليم الدينى فى بربر برسالة يقـول فيها انه بنى زاوية للصلاة وتعليم الأطفال القرآن الكريم والعلم ويطلب ربط شىء على ذلك حتى يتمكن من أداء مهمته التعليمية والدينيـة على أحسن وجه ، وبالاستفسار عن هذا المطلب ومدى صحته تبين أن لهـذا

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق • ج ٢ • ص ٥٣ •

(٢) دفتر رقم ١٦٩٤ وارد العرضحالات دواوين ومديريات • صـورة المكاتبة العربية رقم ٥ ص ٩٣ بتاريخ ٦ محـرم ١١٨٠ هـ ، دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى ــ ترجمة الوثيقة التركية رقـم ٢ بتاريخ ١٣ ربيع الأول سـنة ١٢٨٠ هـ • ، أنظـر أيضـا : عبد المجيد عابدين ــ المرجـع السـابق • ص ٥٤ •

الشيخ زاوية صغيرة للصلاة وبجوارها « راكوبة » * لتعليم الأطفـال وبها ٢٢ طفـلا ، وأن الخلوات (الخـلاوى) الكبيرة كان يربط للقائمين عليهـا مبلغ ٢٥٠ قرشـا فى الشـهر وأربعة أرادب من الذرة ، واقترح المدير أن يعطى ٧٥ قرشـا وأردبا واحـدا من الـذرة شـهريا (١) .
إلا أن الخديوى اسماعيل رأى غير ذلك وأصـدر أمره قائلا : « بمـا أن أملنـا الوحيد هو قيـام الشعب بتحصيل العلوم وتعليمها ، وصلاح حالهم ودخولهم الى سبيل المدنية بتعلم القراءة والكتابة ، وحيث أن مثل هذه الزوايا والأعمال الخـيرية مما يستوجب سرورنا ، نأمر بتوسـيع زاوية الشيخ .. وتجديد بنائها لتكون مثل الزوايا الأخرى التى بالسودان على نفقة الحكومة .. ونأمر أيضا بصرف ٢٥٠ قرشا الى ما شاء اللـه وكذلك بصرف أربعة أرادب شهريا بصفة احسان للزاوية المذكورة لفقراء الأهـالى الذين سيقصدونها لتعليم القـرآن والعلوم الشريفـة اسـوة بالمساجد الكبيرة ، كمـا نطلب منكم أن تبلغوا الشـيخ المذكور سرورنا وممنونيتنا وتطلبوا منه أن يعنى عنـاية كبيرة بتعليم القرآن وتدريس العلوم للأهالى ... » (٢) .

ويعلق الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد على ذلك بقوله : هـل كان اسماعيل بعمله هذا مستعمرا ؟ وهل نظر الى السودان وسكانه نظرة المستعمر الى مستعمرته ؟ وهل كان مقترا فى العلم على سكان السودان كما كان الحـال فى المستعمرات ؟ وهلا كان كافيا أن يوافق على ما اقترحه

(*) الراكوبة هى السقيفة التى تبنى من القصف ليجلس عليها التلاميذ امام حجـرة من حجرات الخلوة . (عبد العزيز امين عبد المجيد : التربية فى السودان جـ ١ ص ١١٤) .
(١) دفتر رقم ١٧٠١ وارد معية عرضحالات دواوين واقاليم . وثيقـة رقم ٧ ص ١٠٢ بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٢٨٠ هـ .
(٢) دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى . ترجمة المكاتبة رقم ٢ ص ١١٧ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٠ هـ . انظر ايضا عبد العزيز أمين عبد المجيد . المرجع السابق . ص ٥٤ ، ص ٥٥ .

مدير بربر من معونة شهرية قليلة ؟ (١) • ولعل فى هذا الصنيع ما يجعل أولئك النفر — من الباحثين الذين دأبوا على النيل من الحكم المصرى فى السودان ومقارنته بالاستعمار الأوربى للقارة الافريقية — أن يعيدوا النظر فى مثل هذه الأقوال والعبارات التى فيها الكثير من التعميمات •

واذا كانت الأمثلة السابقة توضح أن أصحاب الخلاوى والقائمين على عمارة المساجد هم الذين كانوا يطلبون المساعدات فتجاب طلباتهم ، فان آخرين كانت تعف نفوسهم من طلبها ، ولكن القائمين على شئون الادارة فى السودان كانوا لا يتركونهم ، فمن هؤلاء ثلاثة فى عهد الحكمدار موسى باشا حمدى كان لكل واحد منهم مسجد يقوم بالتدريس فيه وليست لهم وظائف أخرى سوى هذه المهمة التعليمية فاقترح الحكمدار على الخديوى أن يربط لكل واحد منهم ماهية وشيئا من الذرة كما هو الحال لأصحاب المساجد الأخرى (٢) •

ويبدو أن الدين الاسلامى الذى اشترك فيه كل من الموظفين المصريين والسكان السودانيين كان من العوامل التى قوت التعاطف بينهم ووحدت من تفكيرهم ونظرتهم الى الحياة الدنيا والآخرة • فالمسلم الحاكم أو المحكوم كلاهما يعتقد أن المسجد بيت الله وأن ما يقدم له من مساعدة انما هى لوجه الله • فعلى سبيل المثال نجد الشيخ يوسف خضر النائب الشرعى بجهة المسلمية التابعة لمديرية الخرطوم يرجو ترميم المسجد الكائن بهذه القرية والذى بناه أحد التجار منذ مدة وكان يتولى الانفاق عليه حتى توفاه الله ولم تكن له أوقاف وانه آيل للسقوط وبه طلاب علم ، فلما بعث الحكمدار الى الخديوى بذلك وافق على ترميم هذا

---

(١) التربية فى السودان • ج ٢ • ص ٥٥ •

(٢) سجل رقم ١٤٧ ج ١ وارد الأقاليم بالمعاونة السنية • مكاتبة رقم ١٣، مرور س ١٥٣ بتاريخ ٢٨ ذى الحجة سنة ١٢٨٠ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

المسجد على نفقة الحكومة (١) •

ويبدو أنه قد انتشر سخاء الخديوى اسماعيل فى الانفاق على مساجد العلم فى السودان فكثرت الالتماسات على طلب المعونة لدرجة ان بعض طالبيها كانوا يتقدمون باعتبارهم مدرسين فقط دون ذكر للمسجد أو المعهد الذى يقومون بالتدريس فيه ، ومع ذلك فلم يكن يردهم خائبين ، ومن بين هؤلاء الشيخ الأمين محمد الذى كان يقوم بهذه المهمة فى الخرطوم (٢) •

هكذا سار التعليم على هذا المنوال •• مساجد تبنى يقوم عليها فقهاء بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم القراءة والكتابة دونما التوغل والاستزادة من العلوم الأخرى المتعلقة بالقرآن والحديث ، الأمر الذى كان مدعاة لتوجيه النقد الشديد لهذا الاسلوب التعليمى التقليدى •

ويبدو أن جعفر مظهر باشا أراد أن ينتقل بهذا التعليم الأهلى خطوة الى الأمام فاصطحب معه اثنين من أبناء مديرية كسلا الى الأزهر ، بعد أن حفظا القرآن الكريم حفظا جيدا واستطاعا الاحاطة ببعض الأمور الفقهية ، وسلمهما الى شيخ الجامع الأزهر وأوصاه بهما خيرا ، وخصص لهما مرتبا شهريا • وكان يرمى من وراء ذلك عدم الاقتصار على حفظ القرآن وحسب بل فهمه ومعرفة الفقه والنحو وتشجيع السودانيين على المجىء الى مصر لاستكمال علومهم الأمر الذى سوف يؤدى الى كثرة العلماء والفقهاء بالسودان والاستغناء عن أمثالهم ممن كانوا يأتون من مصر (٣) •

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٥٧ — ٥٨ ، انظر ايضا : دفتر رقم ١٧٠١ معية عربى ، صورة المكاتبة رقم ١٥ ص ١٨٧ بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٢٨١ هـ •

(٢) دفتر رقم ٥٦٥ معية تركى وارد عرض حالات • صورة ترجمة الوثيقة رقم ٣ ص ١٧ بتاريخ ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٨٢ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) دفتر رقم ٥٧٦ ـ معية سنية (تركى) ص ١٥ مكاتبة رقم ٤ بتاريخ ٥ شعبان سنة ١٢٨٤ هـ • من المعية الى حكمدار السودان • دار الوثائق القومية بالقلعة •

وقد بلغت غضبة جعفر مظهر – على التعليم الدينى المتخلف الذى كان يسود السودان آنذاك – قمتها حين بعث بخطاب الى الخديوى يشرح له فيه مساوىء هذا التعليم الذى لم يثمر عن طلاب يصلحون لوظائف « القضاء والنيابة والامامة » • ويمضى الحكمدار شارحا مثالب هذا التعليم بقوله « •• وقد كان المتبع فى العهد القديم صرف مرتبات ومؤونة » الى بعض الجهلة من الفقهاء فى سبيل التقدم العلمى وكانت تصرف اليهم شهريا ، ونظرا لأن أكثر أصحاب المرتبات جهلاء فانهم استحقوا تلك المرتبات بالشهادات الكاذبة واغتالوا المرتبات المنصرفة اليهم والى طلبتهم بدون وجه حق ، فأصبحوا بدون طلبة لأنهم لم يصرفوا شيئا من تلك المبالغ فى تعليم هؤلاء الطلبة • ولو وجد لدى البعض منهم طلاب فانهم لا يزيدون عن بضعة أطفال تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والسادسة الى العاشرة وهؤلاء يتركون المكتب قبل أن يكملوا جزء (عم) * ويذهبون للعمل كرعاة أو حمالة أو مزارعين ، لذلك التمس اعطائى تصريحا لأقوم بالتفتيش على أعمالهم والبحث فى مؤهلاتهم العلمية وقطع مرتبات من لا علم له ، ونقلها الى من يفوقونهم علما •• » ثم يضيف « •• ويجب انتخاب مدرسين بعد الامتحان لكل من بربر ودنقلة والخرطوم وسنار والتاكة وكردفان وفاشودة وربط مرتب لهم علاوة على المرتب القديم • • وتحديد عدد الطلبة لكل معلم واعفاء الطلبة من دفع الضرائب والأموال والمطلوبات الأميرية الأخرى اذا ما تركوا الاشتغال بالتجارة والزراعة ، وتعيين أحد العلماء المبرزين فى الخرطوم بعد امتحانه ليكون ناظرا وملاحظا على الجميع بعنوان ** « شيخ العلماء » واعطائه مرتبا قدره ٥٠٠ قرش شهريا وثلاثة أرادب من الأذرة ، وتعيين أحد الفقهاء المتقدمين ليكون قارئا وحافظا بعنوان « شيخ الفقهاء » بمرتب قدره ٣٠٠ قرش شهريا وأردبين

---

* الجزء الأول من القرآن الكريم .
** تحت اسم .

من الـذرة .. » (١) .

من ذلك يتبين لنا ان هذا المشروع الاصلاحى الذى عرضه حكمدار السودان لاصلاح التعليم الأهلى فى السودان كان يرمى الى جعله حكوميا وأن يختار له الصفوة الصالحة من المعلمين عقب اجتيازهم لامتحـان ، وتحديد مرتبات ومؤونات ثابتة لكل منهم مـع تحـديد عـدد الطلاب وتعيين مشرف عام (ملاحظ أو ناظر) على جميع المدرسين يحمـل لقب « شيخ العلماء » . ويبدو أن نواة هذا المشروع كانت فى بربر ودنقـلة والخرطوم وسـنار والتاكة وكردفان وفاشودة الا أن اسماعيل باشـا لاحـظ أن لقب « شـيخ » لا يتناسب والوظيفة التى سيشغلها رئيس المعلمين وملاحظهم فاقترح تسميته « رئيس الأساتذة » . وبالرغـم من هذه الأمور وافق الخديوى على بدء المشروع (٢) .

وقد شرع الحكمدار فى تنفيذ مشروعه التعليمى ، الا أن ثمة عقبات مادية قد صادفته من بنائين ومهندسين معماريين لبناء الجوامع والمكاتب . وللأسف الشديد لا نجد بعد ذلك ذكرا لهـذا المشروع وان كان البعض يؤكد أن هذا المشروع قد نفذ بدليل أن الحكمدار قد قام بالتفتيش على المسـاجد والخـلاوى وقـرر قطـع الاعـانات عـن أولئـك الـذين لا يستحقونها (٣) .

وفى تقديرنا أن توقف هذا المشروع يعود فى المقام الأول الى الظروف المالية السيئة التى بدأت مصر تعيشها فى تلك الفترة والتى وقفت حائلا

---

(١) محفظة رقم ٤٦ معيـة تركى — ترجمـة الوثيقة التركية رقم ٤٠ بتاريخ ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٨٦ هـ . من حـكمدار السودان الى مهر دار الحضرة الخديوية انظر : جورج جندى وجاك تاجر : المصـدر السابق . ص ٢٥٩ — ٣٦٠ .

(٢) دفتر رقم ٥٨٣ معية سنية . ترجمة المكاتبة رقم ٣ ص ٤ بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية سنة ١٢٨٦ هـ . والوقائع المصرية : العـدد رقم ٣٤٢ بتاريخ ٢٥ شوال سنة ١٢٨٦ هـ . وأيضا : عبد العزيز عبد المجيد : المرجع السابق ص ٦٤ .

(٣) عبد العزيز امين عبد المجيد : المرجع السابق . ص ٦٥ .

دون توفير الأموال اللازمة له ، بدليل ان الخديوى ـ أمام شدة ضغط الالتماسات التى كانت تقدم له من قبل المشايخ لمنح الاعانات ـ لم يعد فى استطاعته أن يوافق عليها مالية كانت أم حبوبا ، بل كان يوافق فقط أن يحل محلها نوع آخر من الاعانات يتمثل فى رفع الضرائب عن الأراضى التى يقوم المشايخ بزراعتها .

ويتساءل أحد الباحثين (١) عن السبب فى تغير سياسة الحكومة واتجاهها ـ فى عهد جعفر مظهر ـ الى « توظيف التعليم » ، فيجيب بأن الدولة فى هذه الفترة كانت قد « تهيأت لها كل عوامل الاستقرار ودانت لها القبائل الجماعات وامتد نفوذها الى دارفور وأعالى النيل ومصوع وأرتيريا وأصبحت من ثم فى حاجة ملحة الى من يشغل الوظائف الدينية للدولة بعد هذا التوسع » .

والحقيقة ان مقدمة القضية التى طرحها الباحث خاطئة ومن ثم فالنتائج التى ترتبت عليها أيضا جاءت أكثر خطأ . فلست أدرى ماذا يعنى « بتوظيف التعليم » ؟ فان كان يعنى ـ كما يتبين من سياق حديثه ـ ارسال جعفر مظهر بعض الفقهاء الى مصر للتزود من علوم الأزهر حتى يشغلوا الوظائف الدينية عقب التوسع فلا نعتقد ان جعفر مظهر كان يرمى الى هذا الهدف فقط ـ ان صح هذا القول تاريخيا ـ وهو غير صحيح كما جاء فى استنتاجه ، فلم تكن دارفور قد ضمت للادارة المصرية * حتى يبعث البهاء فقهاء ولا الجنوب السودانى بات فى حاجة ملحة الى فقهاء مسلمين على طراز رفيع من التعمق فى فهم الدين . ولكن التفسير الأقرب للصواب نحو اهتمامه برجال الدين وارسالهم الى الأزهر ان هذا الرجل لم يكن مقتنعا تماما بالأسلوب التعليمى الذى كانت تقوم

---

(١) يحيى محمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ٢١٣ .

* تولى جعفر مظهر باشا الحكم من ٥ مارس سنة ١٨٦٦ الى ٢٠ يولية ١٨٧١ ، بينما ضمت دارفور للادارة المصرية بالسودان فى أواخر عام ١٨٧٤ .

به الخلاوى والذى لم يتقدم خطوة للأمام ، فأراد أن يخلق صفوة متعلمة ومتفقهة لا مجرد حفظة للقرآن الكريم وحسب • وهذا التفسير يتسق — من ناحية أخرى — والسياسة التى نهجها جعفر مظهر والتى قدمها فى مشروعه التعليمى سالف الذكر •

ومع ذلك كله فليس هناك ما يمنع أن تتولى هذه الصفوة أمور القضاء والادارة والزعامة فى السودان ؛ فقد كان من بينهم مشايخ قبائل وزعماء « حلل » (١) •

وفى عهد ممتاز باشا الذى خلف جعفر مظهر سارت سياسته التعليمية على نهج سلفه تارة ثم بدأت تحمل بصماته تارة أخرى ، فقد سار على نهج سلفه فى حرمان من لم تثبت أهليته من الفقهاء فى الحصول على المرتبات والمربوطات ، وعاملهم بشدة ، ولم يقبل « التدلل » الذى كانوا يعاملون به من قبل • وأما بصماته التعليمية فقد ارتبطت بسياساته الزراعية المعروفة عنه وخصوصا فى شرقى السودان ، حيث قرر أن يعطى كل شيخ أو فقيه مقدارا من الأرض تقدر بنحو ساقية أو أكثر (٢) ، على أن يقوم بتعميرها بدلا من تركها بورا وتعفى من الضرائب ومن ثم يمكن أن تكون الفائدة مزدوجة حيث يمكنهم العيش منها من ناحية ، ومن ناحية أخرى تزداد مساحة الأراضى الزراعية ويكثر انتاجها ، لأن منحهم النقود قد صرفهم عن العمل فى الأرض كما كان الحال من قبل (٣) •

ولما خلفه اسماعيل أيوب باشا سار أيضا على طريق سلفه لكنه نظر الى بعض الحالات الخاصة التى لا تستطيع العمل فى الأرض كرئيس

---

(١) Hill; Egypt in the Sudan, p. 126.

(٢) تقدر الساقية كما سبق أن ذكرنا بثمانية افدنة فى أراضى الجزائر وعشرة فى الأراضى النابتة •

(٣) دفتر رقم ١٩٤٦ أوامر عربى ، صورة الأمر الكريم رقم ٩ ص ٦٨ أمر كريم الى مدير عموم قبلى السودان فى ٦ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ هـ • انظر أيضا عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق • ص ٦٧ •

العلماء و « مميز » الطائفة العلمية والفقهية ، ومميز الوظائف القرائية والحفاظ وغيرهما فقرر استمرار مرتباتهم من النقود والأذرة ، وأما بقية الفقهاء من أرباب المرتبات فلكونهم مزارعين فيمكنهم كسب معيشتهم ، ولذلك حذف مرتباتهم ، أما اذا أرادوا زراعة ساقية من الأراضى فيعاملون كما يرى المدير •

ويبدو أن سيل طلبات الاعانة المالية من جانب الفقهاء قد كثر ارسالها الى الخديوى اسماعيل فكان يحيلها بدوره الى الحكمدارين لفحصها ، فكان يتبين فى كثير منها ان هؤلاء الفقهاء قد جبلوا على الكسل انتظارا لهذه المرتبات بدلا من العمل بالزراعة (١) •

وينتقد البعض (٢) سياسة الخديوى اسماعيل نحو التعليم الدينى وخاصة اسلوبه فى تقديم الاعانات لها والتى لم تكن تخضع لنظام محدد وثابت بل كانت مركزة فى يده دونما خطة ، وانه لو حدث هذا التنظيم لها لما استغل الفقهاء هذا التشجيع القائم على الثقة ، ولو كانت هناك مصلحة أو ديوان للتعليم — كالذى كان بمصر — أو لو عمل نظام للتعليم بالسودان كما كان الحال بمصر لتشجيع التعليم الأهلى والكتاتيب لربما كانت النتيجة أفضل مما حدث • ولو أتيح لمشروع جعفر باشا مظهر أن يرى النور لوجد مبرر قوى لحرمان الكسالى والمهملين والأدعياء من شيوخ الخلوات وأصبح هناك دليل واضح على فشلهم فى أداء رسالتهم التعليمية فحل غيرهم محلهم ، ولربما شجعهم تنظيم التعليم الأهلى على أن يحسنوا من أنفسهم مادة وأسلوبا • وباختصار شديد فقد انتفت السياسة الواضحة والخطة الحكيمة لادارة البلاد تعليميا وتثقيفيا • ومرد ذلك ، كما سبق القول — ان ظروف مصر الاقتصادية

---

(١) دفتر رقم ١٨٧٦ — وارد عرض حالات • ص ٦٧ ، وثيقة رقم ١٥ بتاريخ ١١ صفر سنة ١٢٩١ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق • ص ٧٠ •

والمالية منها على وجـه الخصوص لم تـكن مشجعة لوضع مثل هـذه السياسات والخطط التعليمية المستقبلية التى تحتاج الى جهـود وموارد مالية فى المقـام الأول ٠

وفى عهد الخديوى توفيق لم تشر الوثائق كثيرا الى التعليم الدينى الأهلى ، وربما يعود ذلك الى بدء اضمحلال الادارة المصرية فى السودان نتيجة الأحداث التى بدأت تعمل فى المجتمع السودانى وفى مقدمتها الثورة المهدية ، أو ربما ان المدارس السابقة استمرت تؤدى رسالتها ولم تعـد فى حاجة كثيرة الى الانفاق عليها بعد أن أغدق اسماعيل عليها الكثير ، كما أن السكان أنفسـهم أصبحوا يعدون هـذا النوع من التعليم جزءا من رسـالتهم الدينية التى يتقربون بها الى اللـه وليسوا فى حاجـة الى الاعـلان عنهـا ٠

ثانيا : التعليم المدنى (الحكومى) :

لم يكن التعليم الحكومى أو المدنى قد بدأ منذ عهد محمد على فى السودان ، بل صرف الرجل همه الى التعليم الأهلى ، كما سبق ان ذكرنا ، والذى كان مناسبا للتركيب القبلى فى السودان آنذاك ، كما انه كان فى حاجة الى استقرار البلاد أولا حتى يمكن انشـاء مدارس حديثة على غرار ما تم بمصر ٠ وليس معنى ذلك أنه أهمل هذا الجانب ، بل استعاض عنه باسلوب آخـر يتمثل فى ارسال أبنـاء السـودان الى مصر لتلقى التعليم فى مدارسها وخاصة الفنية منها كالزراعية والصناعية ٠ فقد كان السودان فى تلك الآونة فى حاجة ماسـة وسريعة لخلق وايجـاد فنيين يقومون على أمور الزراعة والصناعة ، ولم تكن برامج الباشا لتسـمح بالانتظار طويلا ليتسنى انشاء المدارس فى السودان ٠لقد حث الباشـا منذ زيارته للسـودان الأهالى على ارسـال أبنائهم لمصر لتلقى أصول هذه العلوم ، وراح يغرى وجهاء السـودان ان يستجيبوا لهذا النـداء قائلا : « ٠٠٠٠ فان كنتم توفدون أبناءكم فانى الحقهم بالمدارس الكثيرة

التى وفقنى الله سبحانه وتعالى فى انشائها لتعليم أبناء الأمــة وتثقيفهم وأدفع لهم نفقات مأكلهم وملبسهم ، وبذلك ينعم أبناؤكم بنصيب وافــر من العلم والأدب فى هــذه المدارس ثم اعيدهم بعد سنوات قليلة الى أوطانهم معززين مكرمين .. » (١) .

وبالفعل فقد كان محمد على صادقا فى قوله ، فعقب عــودته جاءه ستة من أبناء السودان فأمر بتعليمهم الزراعة وارسالهم الى المدرســة التجهيزية والعناية بهم وتمييزهم عن غيرهم من تلاميذ المدرسة الأخرين ، وتخصيص خــادم لهــم للقيــام بخدمتهم حتى يتفرغوا تمــاما لتلقى الدراســة والعلم ، كما انه طلب قبل كل شيء أن يتم تعليمهم القــراءة والكتابة تمهيدا لتعلميهم فن الزراعة (٢) . وكان الباشا يتابع بنفســه مدى تقدم هؤلاء التلاميذ ، وقــد وافق فى عام ١٨٤٣ أن يبقوا لمــدة سنتين اضافيتين حتى يمكنهم اجادة فن الزراعة علما وعملا (٣) .

وهكذا كانت فترة محمد على المتبقية ، تهدف الى ارسال السودانيين الى معاهد التعليم بمصر الى جوار اقرانهم المصريين وان كان محمد على قد كثف عنايته تجاههم ربما لأنهم كانوا فى حاجة الى مزيد من التعليم حتى يمكنهم أن يكونوا نواة طيبة فى السودان تستطيع البلاد ان تعتمد عليها فى المستقبل .

انشــاء مدرســة الخرطوم :

وفى عهد عباس الأول يمكن أن نميز — لأول مرة — بين نوعين من

---

(١) رحلة ساكن الجنان — السودان — محافظ عابدين .

(٢) دفتر رقم ٣٠٦ صادر ديوان المعاونة جهادية ، وثيقة رقم ٩١٢ بتاريخ ٩ جمادى الآخر سنة ١٢٥٥ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة ، انظر أيضا : حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية — الجــزء الأول ص ٣٥٠ .

(٣) دفتر رقم ٣١١ — صادر شــورى المعاونة — وثيقة رقــم ٦٨٥ بتاريخ ٩ صفر سنة ١٢٥٩ هـ . كتاب الى ديوان المدارس . دار الوثائق القومية بالقلعة .

التعليم فى السودان ، الأول وهو التعليم الأهلى أو الدينى والثانى ما عرف بالتعليم الحكومى أو المدنى •

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن عصر عباس الأول بصفة عامة كان عهد ركود وضعف ، ولم يحظ التعليم ــ كغيره ــ من الميادين الأخرى باهتمامه ، بل اقتصر اهتمام الرجل فقط فى الابقاء على بعض المدارس لتخريج العدد الكافى لادارة المرافق المحدودة ، كما كان شديد الحرص فى الصرف على معاهد التعليم وان كان ينفق ببذخ على قصوره ومرافقه من ناحية أخرى (١) •

وفى تقديرنا ان عباس الأول قد جاء فى زمن كانت تشهد فيه مصر تحولا سياسيا ضخما ، كانت تنتقل فيه من مرحلة توسع ضخمة جلبت عليها الكثير من المشاكل الدولية الى مرحلة كمون تلتقط فيها الأنفاس وتعيد النظر فى سياستها المختلفة • ولسوء حظ الرجل ــ من ناحية أخرى ــ انه جاء بعد عصر محمد على الملىء بالانجازات الضخمة فى الداخل أو الخارج فبدأ وكأنه كما محدوداً مهما فعل من أعمال فى مصر أو خارجها سواء فى السودان أو غيرها •

ومن أهم الانجازات التعليمية التى تقترن باسم عباس الأول فى السودان مدرسة الخرطوم التى أصبحت النواة الأولى للتعليم الحكومى فى هذه البلاد •

وتجدر الاشارة الى انه منذ عهد الحكمدار خالد باشا (ديسمبر ١٨٤٥ ــ اكتوبر ١٨٤٩) بدأ السودان يعود الى نظام اللامركزية فى الادارة حين ظن رجال الادارة ان فى استمراره استقرارا للبلاد • ولما كان نجاح هذا النظام مرتبطا بما يمكن أن يوفره المسئولون فى مصر من الجند والموظفين فقد عمل عباس على المزيد من اشراك العنصر

(١) أحمد عزت عبد الكريم : عصر عباس وسعيد • ص ١٣ •

الوطنى فى سلك الادارة • وأخيرا لجأ الى افتتاح مدرسة بالخرطوم حتى يمكنها أن تمد الادارة المدنية فى السودان بالكتبة بعد ثلاث أو أربع سنوات ، وكذلك القوة العسكرية بكتبتها (بلوك أمناء) ، وبعد مضى أربع سنوات أخرى — حين يتخرج تلاميذ القسم التجهيزى — يمكنها امداد الادارات المختلفة بمجموعات طيبة من الموظفين (١) •

ولست مع الرأى القائل بأن هذه المدرسة كانت أساسا لأبناء الترك والمصريين وبعض أبناء العمد والمشايخ (٢) • صحيح ان هذه الفئات قد انضوت فى صفوف هذه المدرسة ، ولكن ما الضير فى ذلك طالما يتسع المجال للجميع ، كذلك فاننا لا نتفق مع الرأى القائل بأن الباشا كان يفرق بين رعاياه (٣) ، بل العكس كان صحيحا ، ودليلنا على ذلك هو نص رسالة عباس نفسه الى مدير ديوان المدارس حيث يقول : « •• ان الأقاليم السودانية لديار وسيعة ، ولما تنشأ بها مع عظيم مساحتها مدرسة من أجل أبناء سكانها الأصليين من مشايخ وأهلين ولأولاد أحفاد الأتراك الذين استوطنوا تلك الديار من سنين ليتعلموا صفتى القراءة والكتابة وليدرسوا العلوم •• » (٤) •

هذا هو نص القرار وكلماته واضحة لا تحتاج الى تأويل ، وواضح أيضا أنه قدم أبناء السكان الأصليين أى السودانيين على سائر الأجناس الأخرى • كذلك فانه لم يقصر دخولها على أبناء المشايخ والعمد بل كانت لأبناء المشايخ والأهالى كافة • وبمعنى آخر فقد كانت المدرسة لجميع سكان السودان آنذاك من الذين كانوا يعيشون على أرضه ويتبعون ادارة الحكمدارية •

---

(١) أحمد أحمد سيد : رفاعة رافع الطهطاوى فى السودان • ص ٧٣ •
(٢) يحيى محمد ابراهيم : المرجع السابق • ص ١٩٧ •
(٣) نفس المرجع • ص ١٩٧ •
(٤) محفظة رقم أوامر لديوان المدارس — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٧ مسلسل و ٤ أصلى بتاريخ ١٧ رجب سنة ١٢٦٦ هـ • من الخديو عباس حلمى باشا الى مدير ديوان المدارس • دار الوثائق القومية بالقلعة •

وقد ارتبط تاريخ هذه المدرسة برفاعة الطهطاوى ، ويحلو للبعض ترديد المقولة الشـهيرة ان عباس الأول انما أسس مدرسـة الخرطوم ليتخلص من رفاعة ، وأن هذا الوالى الذى أغلق المدارس بمصر ما كان ليفكر فى فتح مدرسة بالسـودان • وقد يكون لهـذا الرأى وجاهتـه فيمـا يتعلق بمصر وظروفها التى بدأ يحـكم فيهـا هـذا الوالـى ، ولكن ليس بالضرورة ان ينسحب ذلك بشكل تلقائى على السودان الذى لم تنشأ به مدارس حكومية من قبل بعكس ما كان فى مصر حيث تنوعت المدارس المدنية والعسكرية وأصبحت فى عهده زائدة على الضرورة • نقول قد يكون هذا الرأى وجيها بالنسبة لمصر ، أما بالنسبة للسـودان فالأمر جد مختلف • والخطورة هنا ان نعتقد ان مسألة اغـلاق المدارس هى سياسة عامة لدى هذا الرجل سواء فى مصر أو السـودان • واستكمالا لهذه الفكرة أيضا نقول ان ارسال رفاعة الى السـودان لم يكن نفيا أو تخلصا منه ، ولو كان هذا هدف عباس ما أعـوزته الحيل كى يتخلص منه ، وكان بمقدوره أن يفعل هذا دون اللجوء الى اختلاق فكرة انشـاء مدرسة • وللأسف الشديد فان الكثيرين يقفون طويلا عنـد مثل هـذه المسائل الجانبية حتى يطمسوا بعض الأعمال الجليلة التى يمكن أن تخلد لصانعيها •

وقـد بعثت المعية السنية الى ديـوان المدارس فى ٦ رجب عـام ١٢٦٦ هـ • (١٨ مايـو ١٨٥٠) رأيا أبداه المجلس الخصوصى لتأسيس « •• مدرسة بالأقاليم السودانية انقاذا لأولاد أهلها من جحيم الجهـل فيمتازوا باكتسـاب العلوم والمعـارف على أن يقبل ويقيد بهـا مائتان وخمسون غلاما ، واستحسن أن يولى رفاعة بك ناظرا على هذه المدرسة ، فيرسـل اليها ، ويصطفى مدرسـوها من هنـا باختيار البك المشـار اليه •• » (٢) •

---

(١) Hill; Op. Cit., p. 88.

(٢) محفظة التعليم ـ دفتر رقم ٢١٣٣ مدارس تركى ـ ترجمـة المكاتبة التركية رقم ١٦٧ ص ٢١ بتاريخ ٦ من رجب سـنة ١٢٦٦ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعـة •

هذا هو رأى المجلس الخصوصى الذى طلب من مدير المدارس ـ صاحب الاختصاص الفنى ـ أن يعمل الترتيب اللازم ويرسل بيانا للمجلس حتى يبحثه قبيل اصدار القرار النهائى • وبالفعل فقد تم ذلك حين بعث مدير المدارس الى المعية السنية يقول « •• وقد تشاورنا فى الأمر بالديوان واجتبينا المعلمين من بين أكفاء الرجال ووضعنا بيانا عن سائر الخدم وعن الملابس والفرش والجرايات والمرتبات الشهرية فرفعناه الى أعتاب جناب الخديو ، فوافقت عليه ارادته السامية •• » (١) •

وهكذا أبدى ديوان المدارس رأيه الفنى وبعث بالبيانات اللازمة الى المعية السنية فرفع الى الوالى فوافق عليه ، ولم يبق إلا قرار المجلس الخصوصى الذى صدر فى ١٥ رجب سنة ١٢٦٦ هـ (٢٧ مايو ١٨٥٠ م) (٢) • ويتضمن هذا القرار أن يكون تلاميذ هذه المدرسة من « •• أولاد المشايخ والأهلين القاطنين بدنقلة والخرطوم وسنار والتاكة وملحقاتها » كما استقر الرأى على أن يكون مقر هذه المدرسة الخرطوم و « تابعة لنظام المدارس المصرية وعلى نسق المبتديان والتجهيزية » ، وأن يقيد بها مائتان وخمسون طفلا ، ويعين رفاعة ناظرا عليها نظرا لالمامه بأصول المدارس • كما طلب من رفاعة ان يستصحب معه الأحد عشر معلما والطبيب الذين خصصوا لهذه المهمة ويسرع بهم الى الخرطوم لتأسيس المدرسة ، وأن يبذل جهده فى ذلك ويعتنى بأمور المعلمين والتلاميذ • (٣) كذلك فقد طلب من حكمدار السودان أن يخصص

---

(١) دفتر رقم ٢١٢٤ ديوان المدارس (تركى) ـ ترجمة المكاتبة رقم ٧٢ ص ١٩٥ بتاريخ ١٣ رجب ١٢٦٦ هـ ، انظر ايضا : عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٦ .

(٢) دفتر رقم ١٩٥٨ ـ قرارات المجلس الخصوصى ـ ترجمة المكاتبة التركية رقم ٤ ص ١١٩ ـ فصل المدارس بتاريخ ١٧ رجب ١٢٦٦ هـ ، انظر أيضا : محفظة رقم ٤ ـ أوامر لديوان المدارس ـ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٧ مسلسل ، ٤ أصلى تاريخ ١٧ رجب ١٢٦٦ هـ . من الخديوى عباس حلمى باشا الى مدير ديوان المدارس . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) نفس الوثيقة السابقة .

مكانا مناسبا للمدرسة وأن يختار الأفراد المعاونين من أهل البلاد مثـل الكاتب و « الوزان » و « وكيل العهدة » و « الغسـال » والسـقاء والطاه والخدم الآخـرين على أن تخصص خمسة قروش شهريا لـكل طالب [1] . وقـد صـدر أمر الى ترسانة بولاق – بناء على ما جـاء بخطاب ديوان المدارس – بتخصيص « ذهبية » لنقل رفاعة والمدرسين البالغ عددهم أحـد عشر بالاضافة الى الطبيب [2] .

ووصـل رفاعة الى الخرطوم وانقضى عامان ولم تفتح المدرسـة لا لأسباب مالية أو فنية أو أية أسباب أخرى إلا لأن رفاعـة نفسه كان حانقا على مجيئه الى السودان ، وبدلا من سعيه الى افتتاح المدرسـة راح يشكو بمرارة لكل من يقابله بأن مجيئه الى السودان كان عقابا له وتخلصا منه . وقـد لقيه فى الخرطوم الرحـالة الأمريكى بايرد تيلـور Bayard Taylor فى عام ١٨٥١ وظل يشكو له قرابة ساعة مما حـدث له من عباس باشـا من متاعب وكيف انـه عزل الرجـال الذين قربهـم محمد على اليـه [3] .

ويكتب رفاعة نفسه حول هذا الموضـوع فيقول انه سافر « .. الى السودان بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم

---

(١) نفس الوثيقة السابقة .

(٢) دفتر رقم ٢٥٧ ديوان الكتخذا – وثيقة رقم ١٧٧٢ بتاريخ ٢١ رجب سـنة ١٢٦٦ هـ الى ترسانة بولاق . دار الوثائق بالقلعة .

أما أسماء المدرسين فهى كالتالى : (١) القائمقام محمد بيـومى أفندى (٢) الصاغقول أحمد طائل (٣) الملازم أول على محمد أفندى (٤) الملازم ثان على عثمان أفندى (٥) الملازم ثان ابراهيم محمد أفنـدى (٦) الملازم ثان محمد مرسى أفنـدى (٧) الملازم ثان أمين أفنـدى . ويرجح المرحـوم الدكتور عزت عبد الكريم انهـم من تلامـذة رفاعة بك فى مدرسـة الألسن (عصر عباس الأول وسعيد ص ١١٧) (٨) الشـيخ رجب (٩) الشيخ مـكاوى (١٠) الشـيخ اسماعيل فرغلى (١١) الشيخ أحمـد الواعظ (١٢) سليمان السيوطى أفندى – طبيب (نفس المرجع . ص ١١٧) .

(٣) عبد العزيز أمين : المرجع السابق . ص ٢٩ .

فلبث نحـــو الأربع سنين بلا طائل وتوفى نصف من بمعيتى من المخوجات المصريين » (١) ٠

وهكذا ظل رفاعة يشكو ولا يعمل وينقضى نحـــو عامين ولما تصـــل منه أخبـــار الى مصر حـــول افتتاح المدرســـة حتى كتب اليـــه ديوان المدارس يستفسر الأمـــر ويذكره بأنه اختير لهـــذه المهمة لما هو معروف عنه من الهمة والخبرة فى أمور المعارف والعلوم والتربية ، وطلب منـــه أن يكتب مفصلا عن عدد التلاميذ بالمدرسة وعن العلوم التى تلقوها خلال هذه المـــدة (٢) ٠

ولقد كان بمقدور رفاعة ــ بما عرف عنه من نشاط وخبرة فى هذا المجال التربوى ــ أن يفتتح هذه المدرسة فى فترة وجيزة دون الانتظار لحولين كاملين ، والتهاون الشديد لدرجة أنه أهمل المهمات التى اعطيت له من أجـــل المدرســـة حتى وزعت على الآلايات الجهادية بمعرفة بعض المسئولين فى الحكمدارية ٠ ومما يؤكد قولنا فى أنـــه كان بمقدوره افتتاح هذه المدرسة ، ان الحكمدار سليم باشا صائب (ابريل ١٨٥٣ ــ مارس ١٨٥٤) الذى وصل السودان فى شهر شعبان ١٢٦٩ هـ ٠ استطاع أن

(١) مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ٠ ص ٢٦٥ ٠
وقد نظم رفاعة فى السودان قصيدة يشكو فيها حاله قائلا :

وما السودان قط مقام مثلى ... ولا سلماى فيه ولا سعادى
بها ريح السموم يشـــم منه ... زفير لظى فلا يطفيـــه وادى ٠

ثم يقول فى موضع آخر :

وقد فارقت اطفالا صـــغارا ... بطهطا دون عودى واعتيادى
أفكر فيهـــم سرا وجهـــرا ... ولا سمرى يطيب ولا رقادى

ويقول أيضا :

ثلاث سنين بالخرطوم مـــرت ... بدون مدارس طبق المـــراد
وكيف مدارس الخرطوم ترجى ... هناك ودونها خـــرق القتـــاد

(مناهج الألباب ٠ ص ٢٦٥ ــ ٢٦٨) ٠

(٢) دفتر رقم ٢٠٩ ــ مدارس عربى ــ مكاتبة رقم ١٦٦٥ ٠ ص ٢٤٩٥ بتاريخ غاية جمادى الثانية سنة ١٢٦٨ هـ ٠ الى ناظر مدرسة الخرطوم ٠

يفتتحها فى شوال من نفس العام ، علما بأن شهر رمضان كان شهر أجازة وراحة للموظفين (١) .

ويبدو أن افتتاح هذه المدرسة كان غير مشجع ، حيث كان تلاميذها واحدا وثلاثين فقط ، وعلى الرغم من الجهود التى بذلها الحكمدار لم يزداد عددهم إلا سبعة آخرين بعد شهر ونصف من الافتتاح .

وقد كانت هذه المدرسة على غرار مدرسة المبتديان والتجهيزية كما سبق القول ، ولكنها لم تستمر حتى يتكون بها قسم تجهيزى ، فلم تتجاوز المرحلة الابتدائية . وقد ألحق بهذه المدرسة خلوة من خمسة فصول لتعليم القرآن الكريم ، تضم الأطفال بين سن الخامسة والعاشرة (٢) .

وكانت المدرسة داخلية لأن تلاميذها كانوا من جهات متعددة خارج الخرطوم ، كما كانت مزودة بكل مستلزمات القسم الداخلى من غذاء وفرش وغير ذلك . ومعروف ان الغرض من المدرسة الابتدائية (المبتديان) هو اعداد التلاميذ للمدرسة التجهيزية ، وعلى هذا فقد كانت مدرسة الخرطوم الابتدائية هى المرحلة السابقة للمدرسة التجهيزية . وكان يقبل فى هذه المدرسة التلاميذ من سن السابعة الى الثانية عشرة على أن يكون التلميذ سليم البدن خاليا من الأمراض . ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات وتزداد الى أربع لمن يحدث له عذرأو مرض . وكان التلميذ يبدأ بالفرقة الثالثة فاذا نجح ينقل الى السنة الثانية ثم الأولى (٣) .

أما مواد الدراسة فى هذه المدرسة فكانت الكتابة والقراءة ومبادىء

---

(١) دفتر رقم ١١٧ — وارد معية — صورة المكاتبة العربية رقم ٣٥ ص ٥٩٤ . بتاريخ ٧ شوال سنة ١٢٦٩ هـ . من سليم باشا صائب حكمدار السودان الى المعية السنية — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) أحمد احمد سيد : المرجع السابق ص ١٠٥ — ١٠٧ .

(٣) عبد العزيز امين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٣٤ — ٣٥ .

النحو والصرف العربى والحساب والفرائض الدينية (١) • وكان التلاميذ يجلسون على حصر على الأرض ، والمدرس يستمع اليهم وهم يقرأون ، أو يلقى عليهم درسا فى الحساب • وقد أبدى الرحالة الانجليزى (جيمس هاملتون) اعجابه من التقــدم الذى أبداه تلاميذ هذه المدرسة فى وقت وجيز (٢) •

ولم تستمر مدرسة الخرطوم أكثر من عام دراسى واحد من شوال سنة (١٢٦٩ هـ • الى شعبان سنة ١٢٧٠ هـ) حيث أصــدر محمد سعيد أمرا باغلاقها فى ٢٧ شوال سنة ١٢٧٠ هـ (٢٣ يولية ١٨٥٤ م) (٣) •

وكما كان يحدث فى مدارس مصر حــدث نفس الشىء فى مدرســة الخرطوم حين عقد امتحان لتلاميذها وقــد حضر هذا الحفــل حكمدار السودان وبعض الأعيان والعلماء ومشايخ البلاد وعمدها وتم ارســال جدول الامتحان الى مصر (٤) •

وقد عاد رفاعة الى مصر بعد أن أقفلت المدرسة التى لم تؤت أكلها طيبة • وبالرغم من ذلك فانها قد تركت بعض الأثر فى الســودان حيث تعلم فقهاء الخرطوم من المشايخ الذين رافقوا رفاعة للتدريس تجــويد القرآن وعلم القراءات بالاضــافة الى التلاميذ الذين أمضــوا العــام الدراسى بهــا (٥) •

ولا شك أن وجــود أمثال رفاعة وبيومى وغيرهما فى الخرطوم — كما ذكر الدكتور مكى شبيكة — كان له بعض الأثر فى الطبقة المتعلمة فى السودان فى ذلك الوقت ، فقد ذكر رفاعة وصحبه بالخير (٦) •

---

(١) أحمد عــزت عبد الكريم : تاريخ التعــليم فى عهــد محمد على ص ٦٨١ •

(٢) Hill; Op. Cit., p. 88.

(٣) محفظة رقم ٤ — معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥٠ ص ٢٥ بتاريخ ١٩ محرم سنة ١٢٣١ هـ. دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٤) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٣٥ — ٣٦ •

(٥) رفاعة الطهطاوى : المصدر السابق • ص ٢٨ •

(٦) السودان فى قرن • ط ٢ ، ص ٥٧ •

أما عهد سعيد كما قلنا فقد استهل بالغاء مدرسة الخرطوم • وقد ركز البعض هنا حول مسألة كراهية سعيد للتعليم وعدم عنايته بالسودان عموما ، وفسر هذا الالغاء من جانب سعيد بسبب الشكوى المستمرة من لدن رفاعة وبقائه فى السودان بالاضافة الى أن المدرسة بعد أربع سنوات من انشائها لم تثبت ضرورة من وجودها (١) •

ويبدو أن سعيد باشا لم يكن موفقا فى سياسته التعليمية بوجه عام ، فلم يوجه عنايته للنهضة العلمية فى مصر واستمر الجمود الذى أصابها فى عهد عباس (٢) • وقد حاول البعض أمثال مسيو (مريو) وهو من المعجبين بسعيد باشا الدفاع عنه فى هذا الجانب بأن عباس الأول كان قد أهمل المدارس فأصابها الاضمحلال وازدادت حالتها سوءا حين بدأ سعيد يتولى الحكم فرأى من الحكمة اغلاقها نهائيا بدلا من البدء فى تنظيمها الذى كان عبثا لا يجدى • ولا يوافق الرافعى على هذا الدفاع الذى لا يقبله المنطق — من وجهة نظره — فليس من المعقول — عنده — أن يعالج القصور فى ذلك باغلاق هذه المدارس ، بل ينبغى أن يكون بتنظيمها واصلاحها ، فاذا كانت عزيمة محمد على قد أوجدت المدارس من العدم فالأسهل من ذلك اصلاح الخلل الذى أصابها (٣) •

ويذهب المرحوم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم فى تفسير سياسة محمد سعيد التعليمية الى انه تولى حكم مصر بعد ست سنوات من وفاة محمد على •• شهدت خلالها مصر توقف الحركة الاصلاحية الواسعة النطاق التى وجهت مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كما شهدت انكماش القوة العسكرية والنظام الصناعى الكبير ، وانحلال السياسة الاقتصادية • فكأن الأمور كلها قد ساءت ومن بينها الجانب التعليمى أيضا (٤) •

(١) عبد العزيز امين عبد المجيد : المرجع السابق • ص ٣٨ •
(٢) عبد الرحمن الرافعى • عصر اسماعيل • الجزء الأول ص ٤٢ •
(٣) نفس المرجع • ص ٤٢ •
(٤) عصر عباس الأول ومحمد سعيد ١٨٤٨ — ١٨٦٣ • ص ١٦٩ •

وهكذا تولى سعيد الحكم ولما توجد فى مصر المدارس التى أنشأها محمد على سوى النزر اليسير ، فلم يعمل على اعادة احياء ما اندثر ، بل انه ألغى ديوان المدارس وكثيرا من المدارس (١) • وعلى هـذا فليس من الغريب والحالة هكذا بمصر أن يشهد السودان فى عصر سعيد نكوصا فى التعليم الحكومى •

وليس معنى ذلك أن السودان كان غائبا عن ذهن سعيد ولكن يبدو أن آثار التجربة السابقة لمدرسة الخرطوم كانت ماثلة أمامه • فالسودان قد نال عنايته القصوى فى جوانب أخرى كما مر بنا * • وكل ما نستطيع قوله ان محمد سعيد لم يكن موفقا فى الجانب التعليمى فى السودان ، والحكومى منه على وجه الخصوص ** •

وفى عهد الخديوى اسماعيل بدأنا نشهد عودة الى التعليم الحكومى المدنى فى السودان ، وقد كان ذلك على عهد الحكمدار موسى حمدى الذى تقدم اقتراحا فى نهاية عهد سعيد بادخال كل من يرغب من أبناء العمـد والأعيان والأهالى فى دواوين المديريات وفى ديوان الحكمدارية لتعليمهم فن الكتابة من حسابات وتحريرات وغيرها حتى يمكن الاستفادة منهـم بدلا من طلب كتبة من مصر نظـرا الى أن الأخيرين يتكلفون مصـاريف كثيرة بالاضافة الى اختلاف المنـاخ الذى يؤثر على صحتهم • وقـد بدأت مناقشة هذا الاقتراح فى عهـد اسماعيل الذى أقره وأدخل عليـه تعديلا جوهريا حيث قال : « •• بما أنه من أقصى الآمال انتشار حالة التمـدن والرفاهيـة وحسن التوطـن والعمـارية • ومن لـزوم ذلك

---

(١) الرافعى : المرجع السابق • ص ١٤ •

(*) انظر فيما سبق فصل (الضرائب وشئون المال) •

(**) جرت محاولة فى نهاية عهـد سعيد من جانب الحكمدار موسى حمـدى لادخـال ابناء العمـد والاعيـان والأهالى فى دواوين المـديريات والحكمدارية لتعليمهم فن الكتابة والحساب ولما كان هذا الحكمدار قد حاول تنفيذها بشكل جدى فى عصر اسماعيل فقد آثرنا ان نتحدث عنهـا فى عهد اسماعيل •

استئصال * الرعايا على اكتساب العلوم ليمتازوا بها ويكونوا دائما مجبولين على حب الوطن أو متشوقين لنوال ثروة الامتياز والتقدم فى المعارف والفنون فلذلك قد سنح لخاطرنا لزوم تجديد وتنظيم مكتب على طرف المدير بالخرطوم بحيث يترتب به خوجات تركى وعربى ممن تثبت مهارتهم فى ذلك ليعلموا قدر خمسمائة نفر تلامذة من أهالى تلك الجهات .. » (١) . ثم استدرك فى حاشية الخطاب أن يتم عمل مكتبين بدلا من مكتب واحد اذا كان ذلك موافقا لأحوال السودان (٢) .

وهكذا وسع الخديوى اسماعيل الدائرة التعليمية فبدلا من الموافقة على انتظام الصبيان من أبناء العمد والأعيان والأهالى فى دواوين الحكومة لمجرد التدريب على فن الكتابة أقترح انشاء مدرسة لتكون مؤسسة صالحة للتعليم بل زاد على ذلك واقترح ان تنشأ مدرسة ثانية أن كان ذلك مناسبا للبلاد . ويبدو أن هذا السخاء « الاسماعيلى » قد صادف هوى فى نفس الحكمدار فطلب ان تنشأ خمس مدارس لتعم الفائدة جميع مديريات السودان . وشرح الحكمدار مطلبه قائلا : « .. بما أن من المعلوم أن بلاد السودان عبارة عن ديار متسعة وأن المديريات بعيدة بعضها عن بعض ، وأن قصر « خمسماية التلميذ » ** السالفة ذكرهم على مدرسة أو مدرستين يوجب تمتع أهل المديرية التى بها تلك المدرسة بحب ثمرات التمدن وحرمان أهل غيرها من تلك الثمرات النافعة . وبما أن افتتاح المدارس من جملة مراحم ولى النعم واحساناته السنية ، فلو أسست خمس مدارس صغيرة فى مديريات الخرطوم وبربر ودنقلة وكردفان والتاكة بدلا من مدرستين عظيمتين وتعلم فى كل منها

(*) حصول .

(١) دفتر رقم ١٩٠٤ أوامر كرام عربى صادر الى الأقاليم . صورة الأمر العربى رقم ٢ بتاريخ ٦ شعبان سنة ١٢٧٩ هـ ، انظر تقويم النيل وعصر اسماعيل — الجزء الثالى — المجلد الثانى — . ص ٤٥٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٥٢ .

(**) الخمسمائة تلميذ .

مائة تلميذ كى تشمل ثمرات التمدن وانتشار العلوم أهالى عمـــوم بلاد السودان ومستوطنيها ويمتازوا بتحصيل العلوم النافعة .. » (١) .

وهكذا أراد الحكمدار أن يعطى كل مديرية ســودانية نصيبها من التعليم المدنى فينشىء فى كل واحدة منها مدرسة ، وربما يكون فى هذا التوزيع على كافة المديريات السودانية رد على أولئك الذين يرددون أن التعليم فى تلك الفترة كان يقتصر على أبنـــاء الترك وحسب دون أبنـــاء السودان . وقد كان الحكمدار حصيفا عندما وافق على ألا يزيد عـــدد تلاميذ المدارس الخمس عن خمسمائة تلميذ كما طلب الخديو . وربمـــا أراد من هذا التقييد عدم التوسع فجأة فى عددهم ، بل عليـــه أن يتروى قليلا حتى يضمن الســـماح بالمدارس الخمس ثم يترك زيادة العـــدد للظروف وربما أيضا كان قد استفاد من تجـــربة مدرسة الخرطوم زمن عباس الأول — حين عزف التلاميذ عن الالتحاق بها بشكل كبير — فلم يسرف فى التفـــاؤل (٢) .

ولقد وافق الخديوى على طلب الحكمدار قائلا : « ... وحيث أن ازدياد وانتشار آثار المدنية والعمران فى ربوع السودان وتعميم ثمرات العلم والمعارف بواسطة انشاء وفتح المدارس الخمس على الوجه المذكور أمر فى محله وموافق لآمالنا ورغبتنا .. فبناء عليه يجب أن تبادروا باجراء موجبه وبالسعى والاهتمـــام بخصوص تعليم وتقـــدم أهالى الجهـــات المذكـــورة .. » (٣) .

وقد تم افتتاح تلك المدارس فى يونية عام ١٨٦٣ ، وأصبحت تحت

(١) محفظة رقم ٢٩ معية تركى — ترجمة الوثيقة رقـــم ٥٠٨ بتاريخ ٢٠ رمضان سنة ١٢٧٩ هـ . من موسى حمدى حكمدار السودان الى حضرة باشمعاون الخديو . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق . ص ٧٣ .

(٣) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — المجلد الثالث — الجزء الثالث ص ٤٧٦ — ٤٧٧ . أنظر أيضا دفتر رقم ٥١٦ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٢ ص ٦٢ بتاريخ ١٠ ذى القعدة سنة ١٢٧٩ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

الاشراف الفنى لديوان المدارس ، وتتبع نفس الخطط الدراسية المعمول بهـا فى المـدارس المصـرية من حيث البرامـج وخـطط التـدريس والاجـازات (١) .

أما المواد الدراسية المقـررة فى تلك المدارس فكانت اللغة العربيـة والقرآن الكريم واللغة التركية والحساب والنحو والصرف والخط الثلث والرقعة والمنطق (٢) .

وبمرور سبع سـنوات على افتتاح المدارس ونظـرا لأن تلاميذها ومعلميها أظهروا كفاءة فقد طلب حكمدار السـودان جعفر مظهر رفـع مرتبات القائمين على التدريس بها فوافق الخديوى على ذلك تشجيعا لهم على بذل المزيد من الجهد (٣) .

ويبدو أن تعلم اللغة التركية فى دنقلة ببلاد النوبة لم يلق نجـاحا كبيرا حيث كانت برامج المدارس الخمس تحوى مادة اللغة التركية ، فلم يبذل معلمو هذه اللغة هناك عناية كافية فى تعليمها ، فقد ذكر مدير عموم دنقلة وبربر فى خطاب الى المعية السنية ان القائم على تدريسها بدنقلة لا يؤدى مهمته كما ينبغى وانه مشغول بصيد الأسماك ، وكذلك الحـال بالنسبة لمدرس هذه اللغـة بمدرسة بربر ، ويقترح المدير — لذلك — الاستغناء عنهما والاكتفاء بتدريس اللغة العربية والقرآن ومبادىء النحو

---

(١) شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، الجـزء الثانى ص ١٤٢ ، ١٤٣ أنظر أيضا : ابراهيم عبده : مصر وافريقية فى العصر الحديث . ص ٣٣ .

(٢) سجل رقم ١٣٩ وارد معاونة — صورة الوثيقة رقم ٦ بتاريخ ٥ ربيع الثانى سنة ١٢٨٠ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة . أنظر ايضا : عبد العزيز عبد المجيد : المرجع السابق . ص ٢٧٤ ، أنظر ايضا : ابراهيم الحاردلو : الرباط الثقافى بين مصر والسودان . ص ١٥ .

(٣) دفتر رقم ١٨٣٩ — معية عربى — صورة المكاتبة العربية ص ٤٤ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨٧ هـ . وايضا : دفتر رقم ١٩٣٣ أوامر عربى — صورة الأمر الكريم رقم ٢ ض ٦ بتاريخ ١٨ ربيع الآخر سـنة ١٢٨٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

والحساب (١) • وأذا كان الفشل فى تعلم اللغة التركية فى دنقلة يعود أساسا الى تقاعس القائمين على تدريسها ، فانه ينبغى أن نشير أيضا الى حقيقة هامة وهى ان اللغة الأساسية لسكان منطقة دنقلة وسائر بلاد النوبة كانت اللغة النوبية وليست العربية فهم يتعلمون العربية كلغة أجنبية تماما ، بينما الوضع غير ذلك بالنسبة لتلاميذ مدرسة الخرطوم وغيرها فكأن أهل دنقلة يدرسون لغتين أجنبيتين معا ، وبذلك يمكن تفسير ما ذكره مدير دنقلة وبربر حين تفقد مدرسة دنقلة ووجد بين تلاميذها من تقدمت بهم السن وأصبحت أعمارهم « •• تتراوح بين العشرين والثلاثين ومع ذلك لا يفهمون شيئا فى النحو والصرف والتركى ، وفقط يفهمون شيئا قليلا فى العربى •• » (٢) •

ولم يقتصر عهد الخديوى اسماعيل فى السودان على تلك المدارس الخمس التى انشئت دفعة واحدة بل اضيفت اليها مدارس أخرى ، ففى ستار انشئت مدرسة ، وفى مصوع انشئت أيضا مدرسة ، حيث نقرأ فى احدى الوثائق بتاريخ ٢ صفر عام ١٢٨٤ هـ (٥ يونية عام ١٨٦٧) يطلب فيها رياض باشا من أحد مهندسى الجيزة أن يرسل الرسوم الخاصة بهذه المدرسة لدراستها (٣) • كذلك فقد انشئت مدرسة فى سواكن ، وطلب الخديوى أن يتم انشاء هاتين المدرستين فى تلك الجهات من نفس المواد المتوفرة بهما من مواد البناء فيما عدا الأشياء الضرورية التى يمكن جلبها من مصر • وكلف « منسنجربك » بفتح هاتين المدرستين

---

(١) دفتر رقم ١٨٥٣ معية عربى ص ١٠ ، وثيقة رقم ٣ بتاريخ ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٨٨ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٥٩ من دفتر قيد الافادات الواردة من الأقاليم والمحافظات جواب رقم ٤ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٨ هـ (موضوع التعليم) دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ٤ عابدين صادر تليغرافات صورة التليغراف العربى رقم ٤٧٣ ص ٣٥ بتاريخ الأربعاء ٢ صفر ١٢٨٤ هـ . من رياض باشا الى على افندى رضا المهندس بالجيزة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

فى عام ١٨٧٣ (١) ، كذلك فقد افتتحت واحـدة فى جنوب السـودان ، حيث تشير الوثائق الى اسـم « زايد عبد الله » الذى كان ناظراً لمدرسة « مديرية البحر الأبيض » (٢) .

ومن بين المدارس التى انشئت فى السودان ــ طبقا لظروف خاصـة مر بهـا التطور الاجتماعى فى البلاد ــ مدرسة الرقيق المحرر . فقد نصت معاهدة ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ ــ الخاصـة بالغاء تجارة الرقيق فى تلك الجهات ــ على انشائها وان يلحق بهـا من يحرر من الأطفـال الأرقاء . وعلى هذا قام محافظ شرقى السودان وسواحل البحـر الأحمر بتأسيس هذه المدرسة واختيار سواكن مقرا لها (٣) .

وفى عام ١٨٧٧ تم افتتاح مدرسة بهرر . وقد جاء فى تقرير جريدة أركان حرب الجيش المصرى فى نفس العام ان أكثر معارف أهل هرر هى علوم الشريعة الاسلامية خاصة مذهب الأمام الشافعى ، وان أطفالهم لا يحسنون التكلم باللغة العربية وان كانـوا يقرأون ويكتبون بهـا . ولما رأى رئيس المأمورية (رؤوف باشـا) تأخر المعـارف هناك شرع فى انشـاء مدرسة صغيرة لتدريس النحـو والحساب والخط وترتيـل القرآن الكريم (٤) .

ويشير أحد الباحثين الى أن غوردون أصدر أمرا بالغـاء المدارس الأميرية فى السودان بدعوى انها كانت تمثل عبئا ماليا لا طاقة لمصر به ،

---

(١) دفتر رقم ١٥٤٩ اوامر شفاهية . صورة المكاتبة العربية رقم ٤٢ ص ١٣ بتاريخ ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٠ هـ .

(٢) محافظ الأبحاث ــ البحر الأحمر ــ وثيقـة بتاريخ ١٢ اغسطس ١٨٧٣ ، انظر أيضا : ابراهيم عبده : المرجع السابق . ص ٣٣ ، وأيضـا الرافعى : عصر اسماعيل . الجزء الأول ص ١٦٣ .

(٣) انظر نص الاتفاقية بالوقائع المصرية بالعـدد رقم ٧٣١ بتـاريخ ٤ شوال سنة ١٢٩٤ هـ وبمحفظة اللوائح . بدار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) جريدة اركان حرب ، العدد رقم ٦ بتاريخ غرة شعبان ١٢٩٤ هـ . انظر ايضا شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر . ص ٢١٨ .

وانه حـاول اغلاق مدارس الأهالى ومدارس الكاثوليك ، إلا انه لـم ينجح فى مسعاه ، فطلب بعدم سفر الطلاب الناجحين فى المدارس الى مصر بحجة ان الادارة لم تعد بحاجة اليهم (١) .

وبالرغم من أننا نأخذ الكثير على سياسة غوردون فى السودان ، إلا أنه لم تثبت صحة هذا الزعم ، كمـا اننا لم نطالع — حتى الآن — وثائق تثبت أنه أغلق هذه المدارس بدليل انها استمرت تؤدى رسـالتها حتى قيام الثورة المهـدية .

وفى عهـد جعفر مظهر باشا جـرت محاولة لادخـال علمى الطب والصيدلة لأول مرة فى السودان والخـروج من دائرة تخريج موظفين للادارة الى لون آخر من ألوان العلم وحتى يرتفع بالخدمة الطبية للشعب السودانى . وكان هذا المشروع يقضى بجمع عشرين تلميذا من تلاميذ مدارس السودان ليتعلموا الطب والصيدلة تحت اشراف طبيب مستشفى الخرطـوم (٢) .

التعليم الفنى فى عهد اسماعيل :

لقـد أعطى المسئولون فى السودان على عهـد الخديوى اسماعيل اهتماما كبيرا لهذا النوع من التعليم ، وذلك لسد حاجات البلاد الضرورية من الفنيين بدلا من ارسـالهم من مصر فى ظروف صعبة . ويبـدو أن السياسة التى كانت مفهومة ضمنا أنه كلما أبدت مجموعة من تلاميـذ مدارس السودان تقدما ملحوظا فى التعليم وظهرت صلاحيتهم لأى عمل ارسلوا الى مدارس مصر ثم يتم « فرزهم » وتوجيههم الى الأعمـال

---

(١) أنتونى سوريال : جهود مصر الثقافية فى السوان . ص ١٣٥ .

(٢) دفتر رقـم ١٨٣٩ معية عرتى — صـورة المكاتبة العربية رقم ٤٤ بتاريخ ربيع الأول عام ١٢٨٧ هـ . أنظر أيضا : محفظة رقم ٤٧ معية تركى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٦٥٨ بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٨٧ هـ ، وهذه الوثيقة مودعة بالمحفظة التى تحمل اسم (موضوع التعليم) وهى من حكمدار السودان الى مهردار خديوى . دار الوثائق بالقلعة .

التى حذقوها ، فمنهم من يعين فى وظائف التليغراف أو هندسة البواخر وغيرهما (١) . ونتيجة لما حدث من توسع كبير فى المواصلات السلكية دعت الحاجة الى وجود جهاز فنى يقوم بالأعمال التى تجعل هذه الشبكة تؤدى مهمتها على أكمل وجه . فكان لابد من تعلم فن التليغراف فى مدارس خاصة بذلك . وكانت الشروط التى تؤهل الفرد للالتحاق بهذه المدرسة تقضى بأن يكون من خريجى المدارس الأميرية فى السودان ومتقدما فى القراءة والكتابة (٢) .

وكانت مدة الدراسة بهذه المدرسة ثلاثة شهور ، ومن يجتاز الامتحان فيها يعين على درجات ثلاث : « تليغرافجى أول » و « تليغرافجى ثان » و « تليغرافجى ثالث » ، كما كان يتم توزيع هؤلاء الخريجين الفنيين فى كافة المحطات المنتشرة فى السودان (٣) . ومن الأماكن التى انشئت فيها مثل هذه المدارس الخرطوم وكسلا (٤) . وكان يشرف على تعليم هؤلاء التلاميذ وكيل تليغراف كل جهة تحت اشراف مهندس (٥) .

كذلك فقد عمدت الادارة فى السودان الى ادخال تعلم الحرف مثل حرفة « الحياكة » بمديرية التاكة ، ففى هذه المديرية تم انشاء « ورشة ترزية » لعمل الملابس اللازمة للجنود وتلاميذ المدارس . ويبدو أن الأعداد التى كانت تقوم بتشغيل هذه الورشة لم تكن كافية

---

(١) المحفظة السابقة . نفس الوثيقة .

(٢) دفتر رقم ١٨٣٩ معية عربى — صورة المكاتبة العربية ص ٤٤ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨٧ هـ . أنظر أيضا : دفتر رقم ١٩٣٣ ، أوامر عربى — صورة الأمر الكريم رقم ٢ صا ٦ بتاريخ ١٨ ربيع الآخر سنة ١٢٨٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محفظة ٤٧ معية تركى — نفس المكاتبة السابقة .

(٤) شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل جـ ١ . ص ٤٣ .

(٥) دفتر رقم ١٨٧١ ، معية عربى — صورة المكاتبة الصادرة من المعية السنية الى حكمدار السودان . ص ٩ بتاريخ ٣ ربيع الأول . سنة ١٢٩١ هـ .

لسد حاجة الاستهلاك مما دعا الأمر الى طلب « دواليب » (ماكينات خياطة) أخرى كي يتم تدريب بعض أبناء السودان عليها • واقتصرت مدة تدريب هؤلاء على شهر حيث كانت المدة كافية لالمامهم بهذه الحرفة • وكان يمنح كل تلميذ فى نهاية هذه المدة « دولابان » بلوازمها (١) •

ولقد امتد التعليم الفنى من شمال السودان الى جنوبه حين أرسل الخديوى اسماعيل فى عام ١٢٨١ هـ (١٨٦٤ م) لائحة الى حكمدار السودان يشرح له فيها خطته الاصلاحية ومنها ادخال تعليم الحرف والصناعات فى تلك المناطق طالبا منه أن يخصص مكافأة لكل من يرغب من أبناء تلك الجهات فى تعلم هذه الحرف والصناعات ، وقد أعدت الحكومة كافة المعلمين المخصصين لهذا الأمر ، كما تم توفير الأموال اللازمة (٢) •

وفى مجال التعليم الزراعى أيضا كان للحكمدار ممتاز باشا اهتمام شديد ، فقد بعث بعدد من الشبان السودانيين الى مصر لتعلم الصناعات الميكانيكية حتى يتمكنوا بعد عودتهم من ادارة ماكينات حلج وكبس الأقطان التى لم تكن لها أيدى لتشغيلها (٣) •

وفى هذا المجال أيضا تجدر الاشارة الى ذلك المشروع الذى نشر بالوقائع المصرية عام ١٨٦٨ (٤) • وهذا المشروع أو الاقتراح كان يتلخص

---

(١) دفتر رقم ١٧٢٢ وارد جهادية — صورة المكاتبة العربية رقم ٣٣ ص ٦٤ بتاريخ ٧ جمادى الثانية سنة ١٢٩١ هـ دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) انظر فيما سبق فصل الثروة المعدنية والصناعة .

(٣) مكى شبيكة : السودان عبر القرون • ص ١٣٨ — ١٤٣ .

(٤) نشر هذا المقال فيجارى بك Figari الذى كان استاذا للنباتات ومشرفا على حديقة النباتات بمدرسة الطب البشرى فى عهد محمد على . وعقب انشاء مدرسة الزراعة فى عهد اسماعيل أصبح أحد أساتذتها . (انظر الوقائع المصرية ، العدد ٢١٣ بتاريخ ١١ ربيع الأول سنة ١٢٨٥ هـ « ٤ يوليو ١٨٦٨ ») ، انظر أيضا : عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٧٩ .

فى انشاء حقول نموذجية فى « اطفو » * وقنا وجرجا وأسيوط والمنيا وقليوب وفى وسط البحيرة • ويقترح أن يعمل فى هذه الحقول أفراد سودانيون بحيث يمكنهم التأقلم على مناخ مصر شيئا فشيئا بالانتقال من بساتين ادفو الى قنا فجرجا وهكذا حتى الشمال • وبعد مضى حوالى عشرين عاما يتأقلم أبناؤهم على مناخ البلاد حتى يصلوا نحو القاهرة وقد تعلموا أصول الزراعة ، كما يقترح صاحب المشروع أيضا أن يتعلم العاملون فيه القراءة والكتابة داخل البستان على أن يتم وضع قوانين زراعية حربية يسيرون وفقها • ويرمى صاحب المشروع من وراء ذلك كله الى انصهار الشعبين السودانى والمصرى ، واعتياد السودانيين على مناخ مصر ثم هو أيضا يرمى من ورائه الى أن يتعلم السودانيون عن قرب — من مزارعى مصر — أحدث الوسائل الزراعية التى كانت سائدة آنذاك بمصر ، فاذا ما عادوا الى بلادهم أمكنهم تطبيق ما تعلموه فتزداد محاصيل السودان ويحدث الرخاء (١) •

ويبدو أن هذا المشروع لم يخرج عن حيز الأمانى الحلوة التى كانت تراود أحد المشتغلين بهذه العلوم فى ذلك الوقت ، ولكنها على وجه العموم انعكاس حقيقى لما كان يدور فى أذهان المسئولين آنذاك فى محاولة لايجاد شكل من أشكال التكامل فى القرن التاسع عشر !

الارسالية الكاثوليكية ودورها التعليمى :

ما أن ضم محمد على السودان حتى انفتح الطريق الى قلب القارة الافريقية ، واقترن ذلك باستتباب الأمن الأمر الذى شجع الأفراد والجماعات ذات الأهداف المتنوعة الى الولوج نحو هذه الاصقاع ، كل يحاول تحقيق الأغراض التى قدم من أجلها • ومن بين هؤلاء كان المبشرون وعلى رأسهم الارسالية الكاثوليكية • ولسنا — فى هذا المقام —

(*) ربما كان المقصود بها مدينة ادفو الحالية •

(١) الوقائع المصرية نفس العدد السابق • وانظر ايضا عبد العزيز عبد المجيد : المرجع السابق ص ٧٩ وما بعدها •

بحاجة الى الاسهاب فى الدور التبشيرى لهذه الارسالية ، ولكن تجدر الاشارة الى أن تاريخها فى السودان يرجع الى عام ١٨٤٣ حين وصل الأب لويجى منتورى (Fr. Luigi Montori) الى الخرطوم قادما من الحبشة كى يؤسس فرعا لهذه الارسالية ويلحق بها مدرسة صغيرة . وبالفعل فقد افتتحت المدرسة وكانت مدرسة داخلية ، انتظم فى صفوفها أطفال زنوج من المقيمين حول النيل الأبيض والمشترين من سوق الرقيق بالاضافة الى عدد قليل من البيض والملونين . ويبدو أن هذه المدرسة كانت مرتبطة بوجود الأب منتورى والهدف الذى جاء من أجله ، إذ انتهى أمرها بمجرد عودته الى الحبشة عام ١٨٤٥ . وبعودة الارسالية الكاثوليكية الى الخرطوم عام ١٨٤٨ كان من بين برامجها افتتاح مدرسة داخلية تؤازرهم فى نشر المسيحية . وفى سنة ١٨٥٠ حوت المدرسة عشرين تلميذا بينهم أربعة عشر طفلا من أبناء الزنوج ثم ازداد عددهم الى أربعين طفلا . وكانت تقوم بتعليمهم القراءة والكتابة والحساب واللغات العربية والفرنسية والايطالية والموسيقى والأشغال اليدوية .

وفى سنة ١٨٥٥ افتتح بالمدرسة قسم خارجى لأبناء الأهالى . وفى عام ١٨٥٩ أضيف اليها فرع لتدريس المواد التجارية لامداد حكومة الخرطوم بالموظفين . ثم بدأت المدرسة بعد ذلك تولى اهتماما بالتعليم المهنى حيث افتتحت أقساما للتجارة والحدادة والحياكة وصناعة الأحذية تحت اشراف خبراء ايطاليين . وقد كان مدير دار الصناعة بالخرطوم — وهو ايطالى الجنسية — يقوم بتدريس الميكانيكا للتلاميذ الذين أظهروا كفاءة ، كما كان هؤلاء التلاميذ ينضوون فى سلك العمل بهذه الدار عقب تخرجهم [١] .

ومنذ عام ١٨٥٩ بدأت هذه المدرسة الارسالية فى التوسع فى قبول

---

(١) أحمد أحمد سيد أحمد : رفاعة فى السودان . ص ١٨٣ .

التلاميذ (بنين ــ بنــات) ولاسيما فى القسم الخارجى ، حتى وصلت أعداد البنين فى عام ١٨٧٨ الى ثلاثمائة تلميذ والبنات الى مائتين (١) •

ويبدو ان الادارة المصرية فى السودان لم تكن تقف ضد نشــاط الارسالية وخاصة التعليمى منه ، كما كانت حريصة على رعايتهم وحمايتهم كسائر مواطنى السودان ، ففى أوائل محرم عــام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٠ م) طلب المسئولون ببربر تخصيص (وابور) « لنقل رئيس عموم الكنائس الكاثوليكية وبعض المعلمين وأربا بالصنائع وبعض الراهبــات » (٢) •

وربما يعود هذا التأييد الى تعاظم النفوذ الأجنبى فى ذلك الوقت •
وقد ظلت مدرسة الارسالية بالخرطوم تقوم بمهمتها التعليمية حتى قيام الثورة المهدية فتوقف نشاطها مع توقف سائر نشاطاتها الأخــرى ورحلت الى القاهرة •

الآثار الثقافيــة :

على ذلكم المنوال مضت السياسة التعليمية فى السودان ، فى شماله وجنوبه ، فى شرقه وغربه ، ســواء بالنســبة للتعليم الأهلى المتمثل فى الخلاوى العــديدة التى كانت منتشرة فى ارجــاء البلاد ، أو بالنســبة للمدارس الحكومية أو ما عرف بالتعليم المدنى الذى بدأ بمدرسة واحدة على عهد عباس الأول ثم اتسع ليشمل عدة مدارس على عهد اسماعيل وزعت بشكل منتظم فى مديريات السودان •

وقد يرى البعض ان الدور التعليمى والثقــافى للادارة المصرية فى السودان حتى عام ١٨٨١ كان متواضعا جداً اذا قورن بما حــدث فى مصر فى تلك الفترة أو حتى الفترة التى سبقتها ، ربما يكون ذلك صحيحا

---

(١) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ١٨٤ •
(٢) دفتر رقم ١٨ عابدين وارد تليغرافات — صورة التلغراف العــربى رقم ٨٣٢ بتاريخ ٥ المحرم سنة ١٢٩٠ هـ • انظر ايضــا : عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ١٠٩ •

ولكننا اذا لاحظنا الظروف الاقتصادية والسياسية التى مرت بها مصر فى أعقـاب عـام ١٨٤١ ، والظروف الطبيعية فى السودان خلال القـرن التاسع عشر ، بالاضافة الى تلك الشـعوب العديدة ــ ذات السـمات المتنوعة والميراث الثقافى المتواضع ــ التى حوتها هذه الرقعة الفسيحة أدركنا مدى ثقل المهمة الثقافية والتعليمية التى كانت تقـع على كاهل الادارة المصرية حينذاك • حقيقة انهـا بالقياس الى منجـزات القـرن العشرين تعد عملا متواضعا إلا أنهـا بمقياس القـرن التاسع عشر فى المشرق العربى وافريقيا هى انجاز ضخم •

ومن العلامات البارزة فى الحيـاة الثقافية السـودانية على عهـد الخديوى اسماعيل نذكر شخصية الحكمدار جعفر مظهر الذى قاد الحركة الثقافية والتعليمية فى ذلك الوقـت ، فقـد وصـفه الرحـالة الفرنسى (F. La Forgue) بأنه « رجل كتاب ومسجد » ، حيث عرف الرجـل بالتدين الشديد ، بالاضافة الى حرصه الشـديد على حضور الصالونات العلمية التى كانت تعقد بدار الحاكم العام والتى كان يؤمها كبار رجـال العلم والفكر والدين (١) • وقد زار الرحالة شوينفرت (George. Schweinfurth) جعفر مظهر فوجـد عنـده الكثير من الأطالس والكتب العلمية الأمـر الذى يشير الى حبه للعلم والمعرفة (٢) •

كذلك فقد اتجهت الحكومة آنذاك الى ترجمة بعض الكتب ، فقـد طلب هذا الحكمدار ترجمة كتاب الرحالة « سبيك » وكتاب « ملطبرون » فى علم الجغرافيا والسياحة وقد وافق الخديوى على ذلك (٣) •

---

(١) شوقى الجمل : المرجع السابق • ص ١١٣ •

(٢) Sabry, M; L'Empire Egyptien Sous Ismail. p. 438.

نقلا عن : Schweinfurth. G; A Coeur de L'Afrique (1868 - 1871).

(٣) سجل رقم ٥٥٧ ، ترجمة الارادة الصادرة الى ديوان المدارس رقم ٥٩ نمـرة ٥ بتاريخ ١٩ ربيع الأول سـنة ١٢٨٣ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعـة •

وقد لقى الجنوب السودانى اهتماما لا بأس به فى محـاولة لادخال الثقافة العربية بين أبنائه • وقد بدأت هذه المهمة الثقافية بارسال أفراد يقومون بالترجمة بين هؤلاء السكان من ناحية وبين الضباط والجنود من ناحية أخرى ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعـداه الى شرح مهمـة الدور الحضارى الذى كانت تقوم به مصر فى هذه الجهات • وقـد بدأ البرنامج الثقافى بتعليم السكان اللغة العربية فى محاولة لايجـاد أرضية مشتركة للتفاعل والاندماج ، كما تم ارسال المعلمين وكافة المتطلبات التى اقتضتها هذه المهمة (١) • ويبدو ان سكان تلك الجهات قد استجابو للنداء الثقافى الذى أعلنته مصر فى جنوب السودان فتردد صداه الى أوغندا ، الأمر الذى دعا غوردون باشـا فى مايو عـام ١٨٧٤ أن يطلب من مصر ارسال شيخ فقيه يكون فى معيته من أجل تعليم الاوغنديين وملكهم (٢) •

هذا فيما يتعلق بالآثار القريبة والمباشرة التى نتجت عن الجهـود الثقافية التى قام بها رجال الادارة فى السودان •ولكن اذا نظرنا على البعد وخاصـة فيمـا يتعلق بالآثار الثقافية التى خلفتها المدارس التى أنشأتها الادارة المصرية فلا شك أن تلك المدارس كما يذكر أحـد الكتاب السودانيين قد كونت ــ مع غيرها من المدارس التى انشئت حتى سقوط الخرطوم وانتصار المهدى على غوردون ــ نواة طيبة من القراء الـذين أصبحوا فى شوق للاطلاع على الصحف والمجلات والكتب التى أخـذت ترد الى الخرطوم من القاهرة منذ أوائل القرن العشرين (٣) • ويرجح نفس الكاتب بأن هذه المدارس وان لم تكن قد أخرجت قادة حملوا لـواء الحركة الأدبية والثقافية ، فلم تعرف فى السـودان نهضة أدبية قبـل

---

(١) أمين سامى : المصدر السـابق . ص ٥٦٥ ، أنظر ايضـا : حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ــ الجزء الأول ص ٣٥٣ .

(٢) عمر طوسـون : المرجـع السـابق . الجـزء الأول ص ١٢٨ ، وانظر أيضا : جميل عبيد : المديرية الاستوائية . ص ٣٨٥ .

(٣) ابراهيم الحاردلو : الرباط الثقافى بين مصر والسودان . ص ١٧ .

ثلاثينيات هذا القرن ولكن الأمر الذى لا شـك فيـه أن خريجى تلك المدارس كانوا هم القاعدة العريضـة التى تلقفت الكتب والمجلات التى أصدرتها مصر ، كما أن هذه القاعدة أيضا كانت هى الطبقة الواعية ذات الصلة بالجماهير العريضة فى أنحاء السـودان ، وهى ذات الطبقة التى نشرت الوعى بين أفراد الشعب ممن كانوا لا يقرأون ولا يكتبون (١) .

ولقد كان ادخـال المطبعة من مصر الى السـودان واقامة مصنع للورق لأول مرة فى السودان بمثابة شرايين ثقافية تدفق من خلالها الفكر والثقافة الى عقول السودانيين . كما كان لاسقاط الحواجز السياسية بين السلطنات والمشيخات السودانية رد فعـل ثقافى خطير ، فكما توحـدت البلاد سياسيا توحدت ثقافيا وأمكن للثقافة العربية والدماء العربية ان يتدفقا فى سهولة ويسر (٢) .

واذا ما رحنا نفتش عن الشعر السـودانى كينبوع ثقافى فلا نكاد — للأسف الشديد — نلمح له انفعالا شديدا أو صـدى لما حـدث من تطورات اقتصـادية واجتماعية باعتبـاره مرآة ثقافية تعكس وجدانات الشعوب . وقد يكون مرجع هذا القصور الى أن الخط الواضح للشعراء السودانيين فى ذلك الوقت كان هـو الخط الدينى ، فالدين هو المنـاخ الحقيقى الذى كانـوا يتنفسون من خـلاله دونما أى جانب آخـر من الحيـاة . ومن أمثلة ذلك الخط الدينى تلك القصيدة التى مدح فيهـا (الشيخ الأمين الضرير) الرسول عليه الصلاة والسلام والتى جعل فيها سور القرآن الكريم محورا لجميع أبياتها والتى استهلها بقوله :

يارب صـلّ على من كان فاتحـة   بكر الوجـود به عمراننا اتصـلا

---

(١) ابراهيم الحاردلو : المرجع السابق . ص ١٧ .
(٢) حسن أحمد محمود : المرجع السابق . ص ٣٦٠ .

وختمها بقــوله :

إخلاصه فلق الاشراق إذ وضحت   للناس أخلاق هذا الخاتم الرسلا (١)

وكانت قصائد الشعراء فى ذلك العصر ، ونعنى بها قصــائد المديح النبوية ، تبدأ عادة بالغزل أو التشوق الى أماكن بعينها مثل نجد ، وقد يأتى ذكر النبى فى خاتمة قصيدة المدح ، وهــذه السمة تبدو جلية فى شعر أحمد الأزهرى وابراهيم عبد الرافع . كذلك فان التأثير القرآنى كان يطغى على هذه القصائد . وقد مدح هؤلاء الشعراء الحكام ذاكرين مآثرهم ، فالشــيخ أحمد محمد جــداوى مدح الحكمدار رؤوف باشــا فى قصيدة تقع فى ستة وخمسين بيتا بدأت بقوله :

وافى زمــان الانس والتبشــــير   والعز والاقبــــال والتيســــير
وبــدت بــكل مســرة أيامنــــا   وصــفت لياليـنــــا من التكديــر
والروض أينع زهــره إذ نسمت   ريح الصــبا فيــه بنشر عبــــير

ثم يمدح الحكمدار رؤوف فالخديوى توفيق فينتهى بالصلاة على النبى وآله ولا ينسى أن يذكر اسمه :

ثم الصــلاة على النبى وآلـــه   الســائرين بســيرة المـــبرور
ما قاله الأســــوانى أحمد ناظمــا   وافى زمان الانس والتبشـــير

وكذلك فعل محمد حسين بركاره حين افتتحت مدرسة بربر فى عهد الخديوى اسماعيل (٢) .

وقد اختلطت النعرة الدينية بالتيار الصوفى الذى ساد البلاد فى تلك الآونة فى شعر الشيخ أحمد الأزهرى الذى مدح أباه (اسماعيل الولى)

---

(١) عبده بدوى : الشعر فى السودان . ص ٢٨ .
(٢) نفس المرجع . ص ٢٩ ، ٣٠ .

واعتبره فى مصاف الأولياء ، ورد على أولئك المنكرين لهذه الصفات التى تميز بها والده حيث يقول :

ولا تعتبر أقـــوال غمـــــر ومنكر على أولياء الله من غــير طائــل
ألم تــران اللـــه ميز خلقـــــه بتأخير مفضول وتقــديم فاضل ؟

وعلى وجه العموم فالمديح فى هــذه الفترة كان يغلب عليــه الفتور والتقريرية ونظم بعض الأحداث ، والشاعر كان يحرص فقط على شــكل القصيدة ، أما المضمون فكان رداءً فضفاضا ـ كعادة الشعر القديم ـ يمكن أن ترتديه أكثر من شخصية (١) •

لقد كان طبيعيا ان يفرز المناخ الثقافى فى السودان هذا الشعر الذى ظل يدور فى الاطار الدينى ، ومن الصعب أن نطالب الشاعر السودانى فى القرن التاسع عشر وهو محكوم بهذا الاطار ان يتخير موضــوعات أخرى لقصائده •

وهكذا كانت المسيرة التعليمية فى السودان فى هــذه الفترة ، التى غلب عليها التعليم الدينى والثقافة الاسلامية • وقــد احتضنت الادارة المصرية هذا اللون من التعليم فأغدقت عليه الكثير من الأموال والأراضى كما حاولت ادخال التعليم المدنى لأول مــرة فى البـــلاد واستطاعت من خلاله أن تســد حاجة البـــلاد من الكتبة والفنيين الأمــر الذى يعــد تطورا نسبيا ـ فى تقديرنا ـ بمقياس القــرن التاسع عشر • وللأسف الشديد فان تلك الجهــود التعليمية والثقافية لم تؤت أكلهــا ، وظلت ـ على حد تعبير البعض (٢) ـ « نباتا هشـــا » أطاحت به رياح المهدية عــام ١٨٨١ •

---

(١) عبده بدوى : المرجع السابق ، ص ٣٠ •
(٢) Hill; op. cit. p. 127.

الخاتمـــة

تلكم هى تطورات الســـودان الاقتصادية والاجتماعية خلال أربعين حولا من الزمان • وهى أشبه بملحمة نضال طويلة بين الأرض والانسان تارة ، وبين الانسان ونفسه تارة أخـرى • ولم تجر فصولها ــ كعادة الملحمات ــ فى مكان واحـــد بل تنوعت فى بقاع شتى من أرض السودان ، فى الشرق على شطآن البحر الأحمر ، وفى الغرب عند مرتفعاته وســـهوله وفى الجنوب وسط أدغاله وحيواناته ، وفى الشمال على أنغام ســـواقيه • وهذه الملحمة صيغت كلماتها فى مصر على هيئة قوانين ونظم وارشادات راح ينفذها أبطالها فى الســـودان بكل ما أوتوا من دربه وحنكة •

ولعلنا فى حاجة الى أن نتساءل ــ بعد أن شهدنا هذه الملحمة ــ عن النتائج أو الآثار التى أسفرت عنهـــا • ففى مجـــال الأرض والانتـــاج الزراعى تبين أن أراضى الســـودان الشاسعة والمترامية الأطراف ، لـــم تكن بحاجة الى اصلاح وتمهيد بقدر ما كانت تحتاج الى جهود الانســـان فقط ، لتسخيرها لصالحه ، وقد وضحت هذه الرؤى أمام محمد على حين زار الســـودان عـــام ١٨٣٨ وخطب القـــوم مبصرا وناصحا ، داعيـــا السودانيين الى الاقتراب من الأرض ، واعدا اياهم بادخال أساليب العصر وأدواته الحـــديثة •

ثم راح الخلفاء من بعده يتابعون الخطى ، فهاهو ذا اسماعيل باشا يحيل شرقى السودان الى بساتين خضراء لزراعة القطن ، ويقيم من أجله أحدث مشروعات الرى من خلال شخصية ممتاز باشا الذى استطاع أن ينتصر على الأرض ويستخرج من باطنها تلك الكنوز •وقد صحب هـــذه العملية ظاهرة جديدة فى شرقى السودان ونعنى بها توطين أعداد كبـــيرة من بدو تلك المناطق ممن ينتمون الى المجموعة البيجاوية فعرفوا الزراعة والاستقرار بعـــد أن كانـــوا يضربون فى فلوات الســـودان هائمين على غير هـــدى •

هذا فيما يتعلق بالأرض المنبتة ، أما الأخـرى فلم تترك ، حيث مضى المنقبون والباحثون يغوصون فى باطنها باحثين عن كنوزها ومعادنها مسـلحين فى ذلك بأحـدث ما كان يمتلك العصر من أدوات ، فتلك كانت سمة محمد على فى كل مناحى الحياة • ولكنهم هذه المرة لم يستطيعوا أن يصلوا الى نتائج ايجابية ، لذا فقد كان النتاج الطبيعى تأخرا فى الصناعة السودانية واستمرار تلك الألـوان البدائية والتقليدية لبعض الحـرف الصناعية ، ساعد على تأخـرها أفكار ومعتقدات بالية حطت من قـدر العمل اليدوى الصناعى •

وفى الميدان التجارى شهدنا منـذ عام ١٨٤١ نشـاطا مكثفا ، على الصعيد الداخلى ، شهدنا تبادلا تجاريا بين أسواق الأقاليم السودانية ، وقد كان هذا شيئا طبيعيا بعد أن تمت الوحـدة الادارية والسياسية ، وأصبح من المألوف أن نجد فى سوق الأبيض بكردفان « الدنقلاوى » من شمالى السودان ، وكذلك الحال بالنسبة لجنوبه ، كما كان من المألوف أيضا أن نشهد التجار « الحداربة » وهم يجوبون شرقى وأوسط السودان • وفوق ذلك كله راح الجميع يبعثون بمتاجرهم الى مصر حيث عدت سوقا داخلية بالنسبة لهم • وعلى الصعيد الخارجى شهدنا محاولات للتبادل التجارى مع الحبشة وشمال وغرب أفريقيا ، وأخرى لا بأس بها مـع بلاد شبه الجزيرة العربية وجنوب شرق آسيا • وبين هذه أو تلك شهدنا هجمة أجنبية قوامها تجار مغامرون كرسوا جهدهم فى تجارة العاج ثم انتقلوا الى الرقيق حتى اذا أوصـدت دونهـم الأبواب راحوا يبتاعون الأراضى فى شرقى السودان ، لتأتى دولهم من بعدهم بجيوشها وذلك ما تم بالفعل فى تلك الجهات •

وما كانت تلك التجارة على المستويين الداخلى والخارجى أن تزدهر لولا شبكة المواصلات المتنوعة التى حاولت الادارة المصرية جاهـدة أن تقيمها ، بالاضافة الى محاولاتها المضنية لحفظ دروب التجارة من كافـة الأخطار المحدقة بها بشرية كانت أم طبيعية •

وتزداد ضراوة تلك الملحمة حين نصل الى واحد من أهم فصولها حيث ينفرج الستار على صوت جدل وحوار ملتهبين ، انها « المسألة الضرائبية » فمنهم من ذهب الى أن الحكم المصرى كان صارما فى هذا الجانب من خلال نظمه الدقيقة والتى طبقت بشكل صارم دونما مراعاة لأحوال الأهلين ، بينما ذهب آخرون الى أن هذه الضرائب لم تكن « بدعة » ابتدعتها الادارة المصرية فى السودان ولكنها كانت موجودة من قبل ، زمن السلطنة السنارية وان كانت أقرب الى « الأعباء » منها الى « الضرائب » • ويعترف الفريق الثانى بأن ثمة أخطاء جرت ابان تناول الضريبة زمن الادارة المصرية لكنها لم تكن متعمدة •

ومع جموع السكان السودانيين وبينهم تمضى الملحمة ، وهذه الجموع كانت متنوعة تنوعا شديدا بحيث يتراءى للناظرين أنهم (أفريقيا مصغرة) ، منهم البجاة والنوبيون ، ومنهم النوباويون والزنوج وأخيرا منهم القبائل العربية ••• وكانت كل جماعة منها تنتمى الى أصول عرقية تختلف عن الأخرى وان اختلطت الأنساب تدريجيا وعلى استحياء بمرور الزمن • فقد حدث امتزاج عرقى وخصوصا فى الجزء الأوسط من البلاد ، الأمر الذى أدى الى تنوع شديد فى الملامح والألوان بين السودانيين العرب الذين لم يعودوا فى هذا الموطن الجديد من ذوى البشرة البيضاء ، فقد يصادفك رجل عربى من بين قبيلة البقارة ذو لون أسمر أبنوسى يعتز بأصوله التى تعود به الى القحطانيين •

ووسط هذه الجموع نلمح نمطا اجتماعيا فريدا ظل يعيش حياته وفق أعرف ونظم اجتماعية خاصة به تمثل فى مجتمع القبيلة السودانى ، فقد ظل مجتمع السودان — فى جملته — رغم تلك التطورات الاقتصادية مجتمعا قبليا حتى وان حدث فى بعض الأحيان لون من الاستقرار ، فلم يمنع ذلك كله من الانضواء تحت مظلة قبيلة من القبائل •

وبقدر ما تنوعت هذه الجموع تنوعت عاداتها وتقاليدها ولا شك

أنها كانت وليدة الظروف التى عاشتها كل جماعة منها استطاعت بها ومن خلالها أن تكيف حياتها الاجتماعية ، فبعضها كانت ذات سمات خطـيرة تهدد المجتمع و « سلامه الاجتماعى » ، حاولت الادارة المصرية التدخل فيهـا • أما كثيرها فكان طيبا الأمر الذى شكل اضـافة جديدة وقوية للنظم والقوانين الادارية سهلت من أمر القائمين على أزمة الحكم •

ولمـا كان المجتمع السـودانى فى جملته شـديد التمسك بعقيدته الاسلامية فقد انعكس ذلك على أمرين : الأول ويتمثل فى جموع المتصوفة التى انتشرت فى ربوع السـودان وتخطت ، بل قل ـ ان شئت ـ كسرت الحاجز القبلى السميك ذا الأساس العرقى الذى كان يصعب اختراقه ، فانتظمت هـذه الجموع تحت لـواء الطرق المتعددة ، فجلس البجاوى والنوبى والعربى والزنجى وغيرهم جنبا الى جنب طارحين كل الأطـر القبلية قانعـين بكلمة « المريدين » •• الجميع يدعـو الى عبادة الله فى سكينة وسلام ابتغاء الدار الآخرة ، مع محاولات من بعضها التدخل ـ أحيانا ـ لحسم نزاع شجر بين طرفين ، وربما كانت الحكومة أحد هذين الطرفين • ومن هنا كانت محـاولات البعض أن يرمى بعض هذه الطرق بتهمة الارتماء فى أحضان الحكومة ـ فى ذلك الوقت ـ ناسين أو متجاهلين ان هـذه المهمـة التى يقـومون بهـا هى من صميم فكرهم وأهدافهم الاجتمـاعية •

أما الأمر الثانى فقد كان مظهره التعليم والثقافة حيث شهدنا ميلا كبيرا من لدن السـودان تجاه التعليم الدينى ـ رغم محـاولات ادخال التعليم النظامى فى عهد عباس الأول والخديوى اسماعيل ـ وانتشـارا واسعا « لخلاويه » التى راحت تغرى أفراد المجتمع بالثقافة الدينية •

ويبدو أن الطرفين : الحكومة والشعب السودانى قد ارتضيا ذلك ـ حيث كان هذا اللون التعليمى موائما للتركيب الاجتماعى القبلى والمناخ الدينى السـائد فى البلاد ـ ومن ثم راح المسئولون يغدقون الأمـوال

ويوقفون الأراضى لهذا الغرض ، الأمر الذى أدى الى نشـــاط الفقهاء — فى أحايين كثيرة — فى أداء مهمتهم •

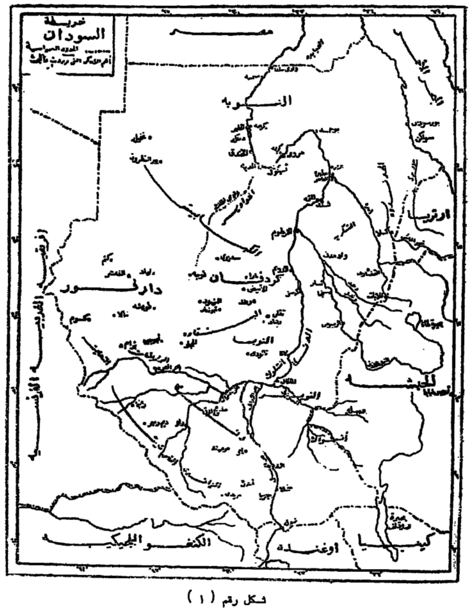
ومع تعاقب السنين تفاعلت هذه التطورات الاقتصادية والاجتماعية ، فبدأت الأوضاع الاقتصادية تتأرجح نتيجة عوامل كثيرة ، ثم بدأ التيار الدينى ينمو نموا سريعا ولاح فى الأفق نذير خطير راح يزلزل كل شىء •• انه طوفان المهدية عام ١٨٨١ •

ميزانية السودان عام ١٨٨٩

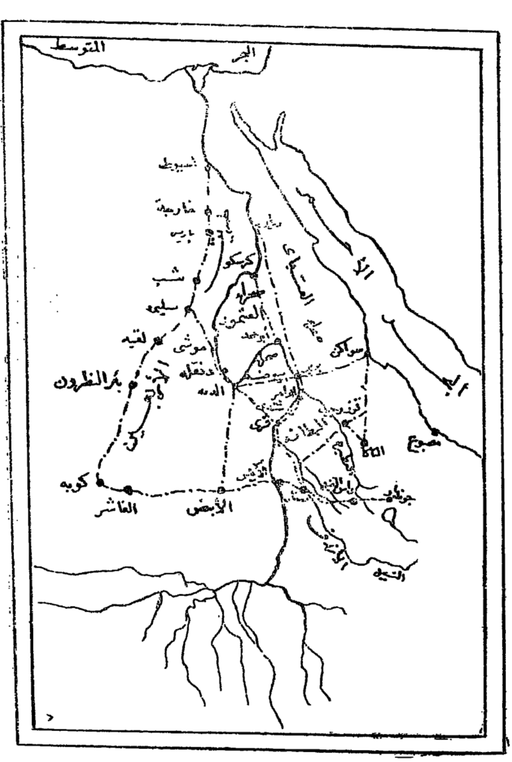
	زيادة في المصروفات	زيادة في الايراد	المصروفات	صافي الايراد
حكدارية مالية السودان	٢١٤٢٥ ٤٦ ١٢	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠	٢٢٨٧٧ ٩٤٣	١٤٥٣ ٤٧ ٣٢
عسكري ومجلس استئناف				
مديرية الخرطوم	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	١٤٣ ١٦٣١ ٢٣	ـ ٥٥١٩٣ ٤١٦	٦٦٥٠١ ٦٦ ٢٩
ترسانة الخرطوم	١٢٩٩٦ ٩١١٢	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠	١٥٧٠٦ ٢١٢٥	٠٢٧٠٩ ٣٠ ٢٣
مطبعة السودان	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٦٨٨ ٣٥٥ ٠٠	١٢٦٥ ٨٠٠٠	٨١٤٩ ٣٠ ٠٠
مصلحة التلغراف	٢٢ ٦ ٦٦ ٣٣	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	١٠٠٨٢ ٣٥٢٣	٣٨٦٥ ٦٤ ٣٠
منصار ولما زوظى	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	١٢٩٦ ٦٢٩ ٣٦	٢٦٨٠٨ ٦٠٦	٣٩٧٧٤ ٩٠ ٢
مديرية دنقلة	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٤٤٨١٤ ٣٧ ٣٥	١٣٠٣٨٨ ١٩	٥٥١١٨ ٦٦ ١٤
مديرية بربر	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٦٣٧٢ ٥٥ ٤	١٤٤١٠ ٩٨ ٢٩	٤٠٦٨٣ ٥٣ ٣٣
التاكا وسنهيت	١٠١٦٢٨ ١٥ ٢٣	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	١٥١٤٣٣ ٩٩ ٣٧	٥١٨٠٥ ٨٤ ١٤
مديرية كردفان	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٨١٠٠ ٥٧ ٣٩	٤٦٣٠٤ ٨٢ ١	٧٤٤٠٥ ٤٠ ٠٠
مصلحة السكة الحديد	٢٠٠٨ ٢٩١ ٢٤	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٦٤٦ ٥٩ ١٨	٧٥٦٣ ٦٠ ٣٤
مديرية فاشودة	١٠٦٣ ٨٤٠ ٣٣	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	١٨٤٥٤ ٩٠ ٧	٧٨١٦ ٤٩ ١٤
مديرية الفاشر	١٧٥٨٠ ٨٤ ١٨	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٣٩٧٥ ٤٣ ١٦	١٦٣٩٤ ٩٧ ٢٨
ادارة داره } دارفور	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٥١٣٩ ٣ ٣٩	١٩٧٨٧ ٥٩ ١٧	١٠٣٣٩ ٥٣ ١٦
ادارة كلكل } دارفور	٧٨٥٤ ٦١٦	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	١٨٦٧٩ ٩٧ ٣	١٠٨١٥ ٨٠ ٢٧
مديرية بحر الغزال	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٨١٩٨ ٣٤ ٨	١٤٣٠١ ٦٥ ٣١	٦١٥٠٠ ٠٠ ٠٠
جهات خط الاستواء	١٩٤٦٢٣ ٥٦١	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٤٢٤٠٠ ٠٠ ٠٠	٦٦٢٥٠ ٠٠ ٠٠
اجمالي	١٩٤٦٦٢٣٥٦١	١٤٢٠٩٥ ٨٥ ١٤	٥١١٦٨١ ٩ ١٢	٤٥٩١٥٦ ٢٨ ٢٥

وعلى هذا يكون اجمالي الميزانية كالتالي :-

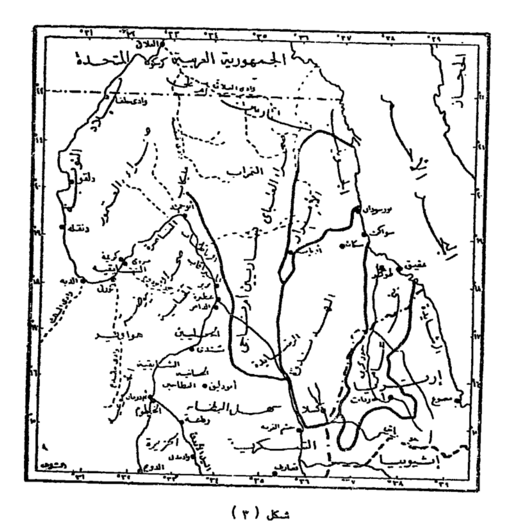
	ـــاره	ـــــ	حـــ
مصروفات	١٢	٠٩	٥١١٦٨٤
ايرادات	٣٤	٣٨	٤٥٩١٥٦
المجموع	٧٢	٧٠	٠٠٥٢٥١٢


خريطة
السودان
الحدود السياسية
مصر
النوبة
دارفور
كردفان
اريتريا
الحبشة
الكنغو البلجيكي
اوغندة
كينيا

شكل رقم (١)



شكل رقم (٢) طرق القوافل التجارية فى القرن التاسع عشر



شكل (٣)

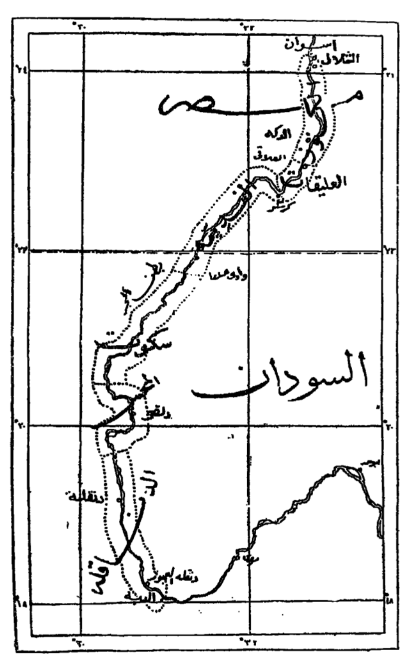
١٠٠ ميل

ـ.ـ.ـ.ـ الحدود السياسية ـــــ حدود توزيع القبائل ـــــ

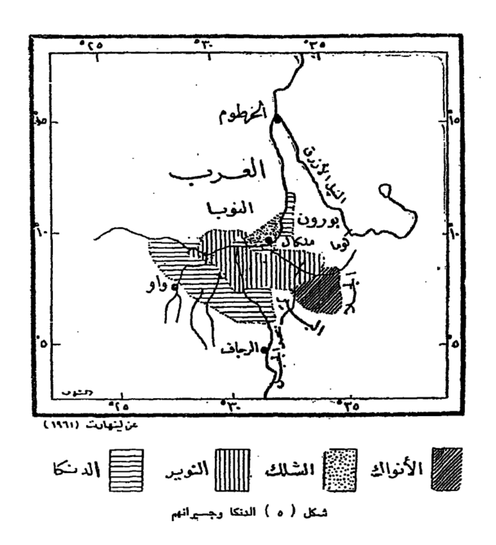
مقياس الرسم

الاقسام الرئيسية للبجة

(فى السودان الشمالى الشرقى)



شكل (٤) توزيع المجموعات النوبية



شكل (٥) الدنكا وجيرانهم

أولا : وثائق غير منشــورة

وثائق دار الوثائق القومية بالقلعة :

- دفاتر وسجلات المعية (عربى) : وهى عبارة عن المكاتبات العربية المتبادلة بين المعية والأقاليم والدواوين •

- دفاتر وسجلات المعية (تركى) : وهى عبارة عن المكاتبات التركية المتبادلة بين المعية والأقاليم والدواوين •

- محافظ المعية (عربى) : وهى عبارة عن المكاتبات العربية المتبادلة بين كل من الدواوين والأقاليم وبين المعية •

- محافظ المعية (تركى) : وهى عبارة عن بعض المكاتبات العربيـــة التركية بين الدواوين والأقاليم وبين المعية •

- ديوان خديوى تركى : ومحتوى دفاتر هذا الديوان عبارة عن أوامر ومراسلات وتوجيهات من جانب محمد على أو المسئولين فى مصر الى المسئولين فى السودان ، وهى متعلقة بجوانب متعددة ، سواء كانت اقتصادية أو ادارية أو غيرهما •

- سجلات مديريات الســودان : وتضم هــذه السجلات المراسلات المتعلقة بكل مديرية ، فقد كان لكل مديرية سجلاتها الخاصة ، ويمكن للباحث أن يتتبع تطور أوضاع كل مديرية من خلال هذه الدفاتر •

- سجلات حكمدارية الســودان : وهى تضم الأوامر والمراســلات والتوجيهات التى كان يصــدرها الحكمداريون الى المديرين وحكام الأقسام والأخطــاط والمتعلقة بكافة الشئون الاقتصادية والادارية وكافة القضايا التى تهــم المديريات ، بالاضــافة الى ردود هؤلاء الحكام متضمنة اســلوب ادارتهم لجهــات بلادهم والعقبات التى كانت تصادفهم •

- سجلات مجلس الأحكام (عربى) : وتحوى سجلات هـذا المجلس جميع الأوراق المتعلقة بالشئون القضائية التى تعرض على الجمعية الحقانية وعلى مجلس الأحكام •

- سجلات ودفاتر حسـابات مديريات السـودان : وهى عبـارة عن الميزانيات المتعلقة بمديريات السودان والتى تشمل كافة الايرادات وأوجه الصرف المتنـوعة • والملفت للنظر حقـا فى هذه السجلات ـ على وجـه الخصوص ـ الدقة المتناهية فى الحسابات من حيث تسجيل كل شـاردة وواردة وعـدم وجود أى « كشط » أو أخطاء بالدفاتر ، بالاضافة الى تنسيقها ووضوح خطها وتجليدها باسلوب يحفظها لسنوات طويلة •

- ديوان المدارس : ويضم هذا الديوان كافة الوثائق المتعلقة بأمـور التعليم • وتوجد محفظة خاصـة بالدار تحمل عنـوان (التعليم) وهى تحوى وثائق متنوعة عن التعليم فى مصر والسودان من حيث نظمه ولوائحه ، كما تشمل أيضا الجهود التى بذلت لادخال التعليم بكافة أشكاله فى السودان •

- الملفات الخاصة : وهى تتعلق إما بشخص بذاته أو جهة خاصـة ، وأهم ما أطلعت عليه : (أ) ملف أحمـد باشـا أبو ودان حكمدار السـودان •

(ب) ملف متفرقات •

- محافظ تحت عنوان السودان (مجلس الوزراء) : وعددها حـوالى ٢٩ محفظة تتعلق بموضوعات مختلفة عن السـودان فى النـواحى الاقتصادية والاجتماعية والادارية وغـيرها فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين • وهـذه المحافظ لا تحمل أرقاما بل لـكل محفظة عنوان خاص بها جاءت على النحو التالى :

١ ــ السودان : موضوعات .

٢ ــ السودان : موضوعات .

٣ ــ السودان : سكة حديد .

٤ ــ السودان : تحاويل السودان .

٥ ــ السودان : ديوان السودان .

وتحتوى هذه المحفظة على تقرير هام عن مالية وميزانية السودان .

٦ ــ السودان : اعتمادات ميزانية .

٧ ــ السودان : شئون موظفين .

٨ ــ السودان : شئون موظفين .

٩ ــ السودان : شئون عسكرية ــ الثورة المهدية .

١٠ ــ السودان : تليغرافات .

١١ ــ السودان : رقيق .

١٢ ــ السودان : رقيق .

١٣ ــ السودان : موضوعات هرر . ويوجد بهذه المحفظة تقرير حكمدار السودان محمد رؤوف عن أحوال السودان عام ١٨٨١ .

١٤ ــ السودان : اعانات قبائل وعربان .

١٥ ــ السودان : قوانين ، وتضم خمس محافظ .

١٦ ــ السودان : مشروعات الرى .

١٧ ــ السودان : سواكن .

١٨ ــ السودان : توزيع .

١٩ ــ السودان : الأوقاف ــ محافظ للتوزيع •

٢٠ ــ السودان : موضوعات عوايد •

٢١ ــ السودان : توزيــع •

٢٢ ــ السودان : شئون عسكرية •

٢٣ ــ السودان : استعدادات عسكرية ــ تعيينات •

٢٤ ــ السودان : تليغرافات باللغتين الانجليزية والايطالية •

ــ محافظ أبحاث السودان : وتقــع فى ٤٤ محفظة ، تبــدأ من عــام ١٢٣٥ هـ وتنتهى فى عام ١٣٠٠ هـ • وكل محفظة مقسمة الى عــدة دفاتر حسب الشهور الهجرية • وهذا المحافظ تحتوى على معلومات متعددة الجوانب وذات أهمية تاريخية قيمة • فقد جمعت من عــدة دواوين وســجلات مختلفة كالجهــادية والمعية الســنية ومديريات السودان وغيرها • وتتميز هذه المحافظ بترتيبهــا الأمر الذى يمكن الباحث الاطلاع عليها دونما عنــاء • ويمكن للباحث أن يجد بهــا معلــومات عن الأوضــاع الاقتصــادية والاجتمــاعية والسياسية والعسكرية •

ــ محافظ عابدين (بدون أرقام) : وهى عبارة عن ١٤ محفظة غــير مفهرسة وتحت الترتيب • وتحتوى على وثائق باللغة الانجليزية ، بالاضــافة الى وثائق متنوعة حــول الرقيق والجوانب الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك • وأهم ما اطلعت عليه : مذكرة بشأن تجارة السودان عام ١٨٣٨ ، ومجموعة ٤٥ ، السودان (تجارة) •

ــ محفظة اللوائح : وهى عبارة عن عدة كتيبات وملفات تحوى اللوائح الرسمية مثل : « سياسة نامه » الصادرة فى عهد محمد على وقانون « نامة همايونى » وغيرهما • وقد اطلعت فى هذه المحفظة على نصوص

معاهدة الرقيق المبرمة بين مصر وبريطانيا فى ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ ، بالاضافة الى نص اللائحة التنفيذية للقرار الخاص بالغاء الرقيق فى السودان والحبشة ومصر ، تنفيذا للمعاهدة سالفة الذكر .

- محفظتان عن (موضوع التجارة) : وبهما موضوعات متفرقة عن التجارة والجمارك والأوامر التى تصدر الى المسئولين حول التجارة الداخلية والخارجية . وقد جاءت المحفظة الأولى تحت عنوان : موضوع التجارة ، وتغطى فترة تسعة عشر عاما (من عام ١٢٤٢ هـ الى عام ١٢٦١ م) ، وأكثرها مستخرج من محفظة رقم ٦ (محفوظات ديوان التجارة والمبيعات) .

وجاءت المحفظة الثانية تحت عنوان موضوع التجارة (محفظة رقم ٢) . وهى عبارة عن عدة بطاقات وملفات مستخرجة من محافظ متنوعة . ويتحدث بعضها عن تجارة مصر الخارجية فى القرن التاسع عشر ، وخاصة فى عهد محمد على .

- محافظ بحر برا : وهى عبارة عن المكاتبات الواردة من خارج مصر والسودان ، كما يشير اسمها ، وتضم معلومات قيمة ، خصوصا المحفظة رقم ١٩ والملفات ١ ، ١١ ، ١٢ .

- محافظ الوثائق الافريقية : يبلغ عددها حوالى ١٢ محفظة تدور موضوعاتها حول علاقات كل من مصر والسودان بجيرانها من الدول الافريقية مثل الحبشة وجهات الصومال ودارفور (قبل ضمها) وغيرها . وهذه العلاقات تشمل الأمور الاقتصادية والسياسية ، كما ان احدى محافظها تضم نسخة من معاهدة الرقيق المبرمة بين مصر وبريطانيا فى ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ .

ـ الوثائق الأجنبية غير المنشورة :

أولا : الأرشيف الأوربى :

يوجد هــذا الأرشيف بدار الوثائق القومية بالقلعة ويضــم وثائق الخارجية الانجليزية والخارجية الفرنسية والخارجية النمساوية • وهى عبارة عن تقارير قناصل هذه الدول فى مصر والســودان • وتكاد هــذه الوثائق تغطى أحداث القــرن التاسع عشر فى مصر والسودان بدءاً من عهد محمد على • وقد عالجت هذه التقارير عــدة موضوعات وان كان موضوع التجارة فى مصر والسودان قد شغل جزءا كبيرا منها •

١ ـ وثائق الخارجية الانجليزية :

— F. O. 78 - 119, Report of Ismael Pasha's Death.

— F. O. 78 - 502, Cairo, September 30, 1842, to L. T. Col. Barnette.

— F. O. 78 - 589, Aden 18 th. March, 1844 Copts Battains Pol. Agent at Aden to J. P. Willough by Eoq Chief Secretary to Gov. t Bomby.

— F. O. 78 - 582, No. 4, Alexandria, 24 th. May, 1844 JL. S L Oddart the Earl of Abearden.

— F. O. 78 - 582, No. 25, Cairo, November 16 th. 1844. C. J. Barnette to Earl of Aberden.

— F. O. 78 - 708, Cairo. 2 nd. July, 1847. Thomas Mirialacchi to Alfred Sloalne.

— F. O. 78 - 758, No. 14, Alexandria, 15 th. July, 1847. 'A' Murray to Lord Cowley.

— F. O. 78 - 708, No. 69, Cairo, December 25 th. 1847è Ch. 'A Murray to Viscount Palmerston.

— F. O. 78 - 708, No. 99, 10 August 1847. Ch. A. Murray to Viscount Palmerston.

— F. O. 78 - 756, No. 2, February 4 th. 1848. to M. Murray.

— F. O. 87 - 735, Memorandum for Ibrahim sent in September, 1848.

— F. O. 78 - 804, No. 6, Cairo, March 12, 1849. Ch. A. Murray to Sir Stratford Canning.

— F. O. 78 - 840, No. 2, Cairo, January 5, 1850, Ch. A. Murray to viscount.

— F. O. 78 - 841, No. 4, Alexandria, March 12, 1850, Ch. A. Murray.

— F. O. 78 - 841, No. 20. Inclose in M C. A. Murray's May 1850.

— F. O. 78 - 1200, No. 52, Alexandria, November 4 th. 1850. Fredrick to A. Brucets the Earl of Clorendon.

— F. O. 78 - 2632, Cairo, May 12, 1877. G. vivian to the Earl Derby.

— F. O. 78 - 1404. December 10 th., 1857. John Pethrick to L. Muller.

٢ — وثائق الخارجية الفرنسية :

وهى عبـارة عن التقـارير التى كان يبعث بهـا قنصـل فرنسـا بالاسكندرية ، والتى كان يتلقاها من نائبـه فى السـودان • وكان أكثرها يدور حول الأوضاع التجارية بمصر والسودان • وقد اطلعت على عـدة وثائق منها واعتمدت على بعض منها ، خصوصا تلك المودعة بالمحفظة رقم ٥٩ من محافظ الأرشيف الأوربى وأهمها :

— تقرير مرسل من :

M. Tastu, Agent et Consul Général de France à Alexandrie. à M. Drouyn De Lhuys, Ministre des Affaires Etranges. Alexandrie Le 24 Juillet, 1864.

— تقرير مرسل من :

M. C. Thibaut, Vice - Consul de France à Khartoum. à M. Tastu, Agent et consul général de France à Alexandrie. Khartoum, Le 18 Octobre., 1864.

ـــ تقرير مرسل من :

M. Munzinger Grant du vice - consulate de France à Mussaoua à M. Outrey, Agent et consul général de France à Alexandrie.

Annex. No. 1 à La lettre de M. Outrey, du 19 November, 1865.

ثانيا : الأرشيف الأمريكى :

ويحتوى على عـــدة محافظ عبارة عن تقـــارير من القنصل العـــام للولايات المتحـــدة بالاسكندرية الى الخارجية الأمريكية ، وقد اعتمدت منها على ما يلى :

— Despatch No. 93, Agency and Consular general of the U.S.A., Alexandria, Egypt, June 17, 1867. To Hon-William. H. Seward, Secretary of State.

(بالمحفظة رقم ٤ ، ملف رقم ٤)

— Desp. No. 36, Agency and consuate genera of the U.S.A. in Egypt. Cairo, July, 31, 1876.

(بالمحفظة رقم ١٢)

— Desp. No. 235, Agency and consulate general of U.S. in Egypt, Cairo. June, 1878. Hon. W. m. Evarts, Secy. of State.

(بالمحفظة رقم ١٤)

— Desp. No. 378, Cairo, November, 26, 1878.

(بالمحفظة رقم ١١)

وثائق دار المحفوظات العمومية بالقلعة :

استفدت منها ببعض دفاتر الحسابات الخاصة بمديريات الســودان فى عصر محمد على ، وكانت مودعة « بمخزن السودان » ، والبحث عن

هذه الأوراق من خلال الدفاتر يمثل صعوبة بالغة ـ الآن ـ وذلك لعدم ترتيبها داخل هذا المخزن • فهى أشبه بتل متراكم لا دليل له ولا مرشد • وقد تم ـ أخيرا ـ نقل أكثر محتويات هذا المخزن الى دار الوثائق القومية بالقلعة • وربما تكشف هذه الأوراق ـ بعد ترتيبها ـ عن اضافات جديدة حول بعض الجوانب التاريخية للسودان ومصر •

ثانيا : وثائق منشورة :

ـ تقرير « جون بورنج » J. Bowring الذى بعثت به حكومة انجلترا الى مصر عام ١٨٣٧ ، فوضع تقريرا عن حالة مصر فى ذلك الحين من النواحى الاقتصادية والادارية والعسكرية ، بالاضافة الى حديثه عن الرق وأسلوب تجارته • وهذا التقرير ترجمه الدكتور محمد فؤاد شكرى ونشره بكتاب : بناء دولة مصر محمد على (السياسة الداخلية) •

ـ تقرير آرثر هولرويد A. Holroyd السائح الانجليزى الذى زار السودان فى عهد محمد على ، واتصل بمعظم قناصل الدول الأجنبية ، وهذا التقرير منشور ضمن تقرير جون بورنج ، ومن أهم الموضوعات التى طرقها موضوع الرق فى السودان •

ـ رحلة ساكن الجنان محمد على الى السودان ـ ترجمة جرنال الرحلة الذى صدر فى ٦ صفر عام ١٢٥٥ هـ (٢١ ابريل عام ١٨٣٩ م) ملحقا بالعدد رقم ٦١٨ من جريدة الوقائع • وقد نشر باللغة التركية ، وقام بترجمته ونشره الدكتور محمد فؤاد شكرى بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، العدد الثامن من المجلد الثانى عام ١٩٤٦ •

ـ رحلة محمد على الى السودان (اكتوبر عام ١٨٣٨ ـ ١٥ مارس ١٨٣٩) كتبها أنجلو ساماركو باللغة الايطالية ثم عربها طه فوزى عام

١٩٤٢ ، ونشرت فى مجلة الرابطة العربية • وتوجد نسخة مصورة عبارة عن كتيب صغير بالمحفظة رقم ٣ من محافظ السودان بدار الوثائق القومية بالقلعـــة •

ــ الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض) ؛ الصادر بأمر ساكن الجنــان محمد على والى مصر بقيادة ربان الفرقاطة البكباشى سليم قبودان ــ ملخص المجموعة الرسمية للجمعية الجغرافية بفرنسا فى عددها الصادر فى يوليو عام ١٨٤٢ ، (تعريب محمد مسعود ، القاهرة ١٩٢٢) •

ــ رئاسة مجلس الوزراء ، مجموعة من الوثائق عن الســودان ، وهى عبارة عن وثائق متنوعة تشمل عدة مجــالات ادارية واقتصــادية وسياسية ••• الخ • وقد نشرت بالقاهرة عام ١٩٤٧ •

ــ مجمــوعة متنــوعة من الوثائق تتعلق بفترة حــكم الخــديوى اسماعيل • نشرها جورج جندى وجاك تاجر تحت عنوان : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧ •

ــ مجموعة متنوعة من الوثائق الخاصة بفترة حــكم الخــديوى اسماعيل • وتختص بسياسة مصر فى الجهات الشرقية للسودان وساحل البحر الأحمر ، تحت عنوان : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر (١٨٦٣ ــ ١٨٧٩) • أعدها الدكتور شوقى الجمل • من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٥٩ •

ثالثا : الدوريـــات :

أولاً : الدوريات العربيـــة :

(أ) الوقائع المصرية :

(ب) جريدة أركان حرب الجيش المصرى :

(جـ) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية :

(د) مجلة الجمعية الجغرافية :

(هـ) حولية كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

ثانيا : الدوريات الأجنبية :

— Sudan Notes and Records (S.N.R).

رابعا : كتب ودراسات باللغة العربية :

— ابراهيم الحاردلو : الرباط الثقافى بين مصر والسودان . دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم ١٩٧٧.

— ابراهيم طرخان (دكتور) : امبراطورية البرنو الاسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥ .

— ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غردون وكتشنر ، الجزء الأول ، القاهرة ١٣٣٩ هـ .

— أحمد أحمد الحته (دكتور) تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ .

— أحمد أحمد الحته (دكتور) : الأجانب فى مصر والسودان (١٨٤٩ — ١٨٦٢) مستخرج من مجلة الاقتصاد والتجارة . العدد الثانى ، (يوليه — ديسمبر ١٩٥٨) . القاهرة ١٩٥٨ .

— أحمد أحمد سيد أحمد (دكتور) رفاعه رافع الطهطاوى فى السودان ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٧٣ .

— أحمد بن الحاج أبو على : مخطوطة كاتب الشونة فى تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية . تحقيق الشاطر بصيلى عبد الجليل ، القاهرة ١٩٦١ .

— أحمد بن الحاج أبو على : تاريخ ملوك السودان . تحقيق الدكتور مكى شبيكه ، الخرطوم ١٩٤٧ .

— أحمد صدقى الدجانى (دكتور) : الحركة السنوسية . نشأتها ونموها فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦٧ .

— أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) : تاريخ التعليم فى عصر محمد على . النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٣٨ .

— أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) : تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على إلى أوائل حكم توفيق (١٨٤٨ — ١٨٨٢) ، الجزء الأول عصر عباس الأول وسعيد (٨٤٨ — ١٨٦٣) .

— أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) : تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على الى أوائل حكم توفيق ، الجزء الثانى ، عصر اسماعيل والسنوات المتصلة من حكم توفيق (١٨٦٣ — ١٨٨٢) .

ـ ارنولد ، سير توماس الدعوة الى الاسلام . بحث فى تاريخ نشر العقيدة ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وآخر ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٧ .

ـ اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار . الجزء الثانى .مطبعة بولاق . القاهرة ١٣١٦ هـ .

ـ الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩ . مطبعة دار الكتب المصرية . المجلد الثانى . القاهرة ١٩٢٣ / ١٣٤١ هـ .

ـ أمين المعلوف : احتلال بحر الغزال ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . القاهرة عام ١٩٥٣ .

ـ أمين سامى : تقويم النيل وعصر محمد على باشا . الجزء الثانى . الطبعة الأولى . مطبعة دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٢٨ .

ـ أمين سامى : تقويم النيل وعصر عباس حلمى باشا ومحمد سعيد . المجلد الأول من الجزء الثالث مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م .

ـ أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل ، المجلد الثانى من الجزء الثالث . القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ .

ـ أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل . المجلد الثالث القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م .

ـ بنولا ، فردريك : كتاب مصر والجغرافيا وهو خلاصة تاريخية عن الأعمال الجغرافية التي انجزتها العائلة المحمدية العلوية بالديار المصرية . ترجمة أحمد زكى . القاهرة ١٩٣٧ .

ـ بوركهارت ، جون لويس : رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان ترجمة فؤاد اندراوس . من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٥٩ .

- التونسى ، محمد بن عمر : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان (نشر خليل عساكر ، مصطفى محمد مسعد المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ١٩٦٥ .

- التيجانى عامر : جنوب السودان ، بحر الغزال بين العصابات والحكومات (١٨٥٠ — ١٩٢٠) . سلسلة دراسات قومية . العدد العاشر . الأهرام القاهرة ١٩٨٠ .

- جمال زكريا قاسم (دكتور) : الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية . معهد البحوث والدراسات العمومية . القاهرة ١٩٧٥ .

- الجمعة المصرية للدراسات التاريخية : الأرض والفلاح . القاهرة ، ١٩٧٤ .

- جميل عبيد (دكتور) : المديرية الاستوائية . وزارة الثقافة . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٨ .

- حسن أحمد ابراهيم (دكتور) : محمد على فى السودان . (دراسة لأسباب الفتح التركى المصرى) جامعة الخرطوم ، الخرطوم ، بدون تاريخ .

- حسن أحمد محمود (دكتور) : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، الجزء الأول مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٥٨ .

- حسين كامل أبو الليف : مرحلة من مراحل التطور السياسى والاجتماعى فى السودان . المجلد الخامس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٥٦ .

- حسين خلاف (دكتور) : التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٢ .

- رفاعة الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية . الطبعة الثانية ، مطبعة شركة الرغائب . القاهرة ١٩١٢ .

— زاهر رياض (دكتور) : السودان المعاصر منذ الفتح المصرى حتى الاستقلال ١٨٢١ — ١٩٥٣ . مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ .

— سعد الدين الزبير : الزبير باشا ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٢ .

— السعيد ابراهيم البدوى (دكتور) : النوباويون . دراسة تاريخية أنثروبولوجية مجلة الجمعية الجغرافية . العدد ٦ ، القاهرة عام ١٩٧٣ .

— سلاطين باشا : السيف والنار فى السودان . تعريب جريدة البلاغ . مطبعة البلاغ . القاهرة ١٩٣٠ .

— سليجمان ، س ، ج : السلالات البشرية فى افريقيا . ترجمة يوسف خليل ، مراجعة الدكتور محمد محمود الصياد مكتبة العالم العربى بالفجالة القاهرة ١٩٥٩ .

— السيد يوسف نصر (دكتور) : جهود مصر الكشفية فى افريقيا فى القرن التاسع عشر . الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٩ .

— الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر الى القرن التاسع عشر الميلادى . الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٥ .

— الشاطر بصيلى : تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل القسم الأول حتى عام ١٩٠٦ عطبرة ١٩٥٠ .

— شوقى الجمل (دكتور) : تاريخ سودان وادى النيل ، حضارته وعلاقته بمصر منذ أقدم العصور الى الوقت الحاضر الجزء الأول ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٩ .

— شوقى الجمل (دكتور) : تاريخ سودان وادى النيل ، حضارته وعلاقته بمصر منذ أقدم العصور الى الوقت الحاضر . الجزء الثانى ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦١ .

— شوقى الجمل (دكتور) : سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٤ .

— شوقى الجمل (دكتور) : سياسة مصر واستراتيجيتها فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . دراسة بكتاب البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، القاهرة ١٩٨٠ .

— صلاح الدين الشامى (دكتور) : المواصلات والتطور الاقتصادى فى السودان مؤسسة المطبوعات الحديثة ، القاهرة ١٩٥٩ .

— صلاح الدين الشامى (دكتور) : الموانى السودانية . دراسة فى الجغرافيا التاريخية القاهرة ١٩٦١ .

— عبده بدوى (دكتور) : الشعر فى السودان . عالم المعرفة — الكويت ١٩٨١ .

— عبد الحليم محمود (دكتور) : المدرسة الشاذلية الحديثة وامامها أبو الحسن الشاذلى . القاهرة ١٣٨٧ هـ .

— عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على — الطبعة الثانية — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٥١ .

— عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل . الجزء الأول . الطبعة الثانية — مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ .

— عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ، الجزء الثانى . الطبعة الثانية — مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ .

— عبد الرحمن الوكيل : هذه هى الصوفية . الطبعة الرابعة . القاهرة ١٩٧٧ .

هذه هى الصوفية . الطبعة الرابعة . القاهرة ١٩٧٧ .

— عبد العزيز أمين عبد المجيد (دكتور) : التربية فى السودان (ثلاثة أجزاء) القاهرة ١٩٤٩ .

— عبد العزيز سليمان نوار (دكتور) : تاريخ العرب الحديث — الجزء الأول — العراق ، القاهرة ١٩٧٩ .

— عبد القادر محمود (دكتور) : الفكر الصوفى فى السودان . مصادره وتياراته وألوانه . دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٦٩ .

— عبد القادر محمود (دكتور) : الطوائف الصوفية فى السـودان . الطبعة الأولى . الخرطوم ١٩٧١ .

— عبد الله حسين : السـودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية (جزءان) ، القاهرة ١٩٣٥ .

— عبد المجيد عابدين (دكتور) : تاريخ الثقافة العربية فى السودان منـذ نشـأتها الى العصر الحـديث . الدين . الاجتمـاع . الأدب . دار الثقـافة ، بـيروت ١٩٦٧ .

— عبد المجيد عابدين (دكتور) : قبائل من السودان الأوسط والسودان الغـربى الدار السـودانية للكتب ، الخـرطوم ١٩٧٢ .

— على ابراهيم عبده (دكتور) : مصر وافريقيا فى العصر الحديث — الطبعة الأولى — دار القلم — القاهرة ١٩٦٢ .

— على الجريتلى (دكتور) : تاريخ الصـناعة فى مصر فى النصـف الأولى من القرن التاسع عشر — دار المعارف — القاهرة ١٩٥١ .

— على مبـارك : الخطط التوفيقية الجـديدة ، ج ١٧ ، دار الكتب القومية — القاهرة ، ١٩٦٩ .

— عمر طوسون ، الأمير : تاريخ مديرية خط الاسـتواء المصرية من فتحها الى ضياعها من سنة ١٨٦٩ الى ١٨٩٨ : الجزء الثانى . الاسكندرية ١٩٣٧ .

— كلوت بك : لمحة عامة الى مصر . الجزء الأول ، مطبعة أبى الهول — القاهرة (بدون تاريخ) .

— محمد ابراهيم أبو سليم (دكتور) : الفور والأرض . وثائق تمليك . معهد الدراسات الافريقية والآسيوية ، الخرطوم ١٩٧٥ .

— محمد أحمد الجابرى : فى شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله . دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٤٨ .

— محمد صبرى (دكتور) : مصرفى افريقيا الشرقية . هرر . زيلع . بربره . مطبعة مصر ومكتبتها . القاهرة ١٩٣٦ .

— محمد صبرى (دكتور) : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر . مطبعة مصر ومكتبتها . القاهرة ١٩٤٩ .

— محمد ضيف الله (ود ضيف الله) : مقـدمة كتاب الطبقـات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشـعراء فى السـودان . نشر وتحقيق ابراهـيم صـديق الخرطوم ١٩٢٩ .

— محمد عمر بشير : جنوب السودان . دراسـة لأسـباب النزاع ترجمـة أسـعد حليم . الهيئة المصرية العـامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧١ .

— محمد عوض محمد (دكتور) : السودان الشمالى سكانه وقبائله . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . الطبعـة الأولى ، القاهرة ١٩٥١ .

— محمد عوض محمد (دكتور) : الشعوب والسـلالات الافريقية . سلسلة دراسات أفريقية . الدار المصرية للتأليف والترجمـة ، القاهرة ١٩٦٥ .

— محمد عوض محمد (دكتور) : السودان ووادى النيل . دراسات فى تكوين وادى النيل ومكان السـودان وسكانه من حوض هذا النهر . القاهرة ١٩٥١ .

— محمد فؤاد شكرى (دكتور) : الحـكم المصـرى فى السـودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ . دار الفكر العربى ، القـاهرة ١٩٤٧ .

— محمد فؤاد شكرى (دكتور) وآخرون : بنـاء دولة . مصر محمد على (السياسة الداخلية) دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٤٨ .

— محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ — ١٨٩٩ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٧ .

— محمد فؤاد شكرى (دكتور) : رحلة محمد على الى السودان . مجلة كلية الآداب جامعة القـاهرة العـدد ٨ ، ١٩٤٦ .

— محمد محمود الصياد (دكتور) : الناس فى افريقية . الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٦٥ .

— محمد محمود الصياد (دكتور) وآخر : السودان . دراسة فى الوضع الطبيعى والكيان البشرى والبناء الاقتصادى . مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة ١٩٦٦ .

— مصطفى فهمى وآخران : فى جنوب السودان . دراسات اجتماعية ونفسية تربوية دار مصر للطباعة . القاهرة (بدون تاريخ) .

— مصطفى مسعد (دكتور) وآخران : سلطنة دارفور : تاريخها وبعض مظاهر حضارتها . مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد ١١ عام ١٩٦٣ .

— مكى شبيكة (دكتور) : السودان فى قرن ١٨١٨ — ١٩١٩ . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة — ١٩٤٧ .

— مكى شبيكه (دكتور) : السودان عبر القرون . دار الثقافة . بيروت ١٩٦٤ .

— مورهيد ، آلان : النيل الأبيض . ترجمة محمد بدر الدين خليل . دار المعارف القاهرة ١٩٦٥ .

— مورهيد ، آلان : النيل الأزرق . ترجمة نظمى لوقا . دار المعارف القاهرة ١٩٦٦ .

— نسيم مقار (دكتور) : جهود مصر فى الكشف الجغرافى البيكباشى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل . الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦٠ .

— نسيم مقار (دكتور) : الرحالة جون بتريك . مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٦١ .

— نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته مطبعة المعارف القاهرة (بدون تاريخ) .

— تكولز ، و : الشايقية (ترجمة عبد المجيد عابدين) معهد البحوث والدراسات الافريقية . القاهرة (بدون تاريخ) .

- هولت ، ب . م . : المهــدية فى السودان . ترجمة جميل عبيــد دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٨ .

- يوسف فضل (دكتور) : مقــدمة فى تاريخ الممالك الاســلامية فى الســودان الشرقى (١٤٥٠ — ١٨٢١) معهــد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ١٩٧١ .

- يوسف فضل (دكتور) : الشلوخ ، أصلها ووظيفتها فى ســودان وادى النيل الأوســط . دار جامعــة الخرطوم للنشر ، الخرطوم ١٩٧٦ .

- يونان لبيب رزق (دكتور) : تفكك الامبراطورية المصرية فى أفريقيا (دراســة بكتاب : العــلاقات العربية الافريقية . دراســة تاريخية للاثار الســلبية للاستعمار . معهد البحوث والدراســات العربية ، القــاهرة ١٩٧٧ .

- يونان لبيب رزق (دكتور) وآخرون : مشكلة جنوب السودان . مركز بحوث الشرق الأوسط جامعة عين شمس القاهرة ١٩٨١ .

خامسا : كتب ودراسات بلغات أوربية حديثة :

— Abbate : De l' afrique central ou Voyage De S. A. Mohammed Said - Pasha dans ses provinces Du Soudan. (Paris, 1858).

— Arkill, A. J. : Fung Origins, S. N. R. Vol. XV, 1932.

— Baker, Sir Samuel : The Nile Tributaries of Abyssinia (London, 1857).

— Bell : Shiabun Gold. S. N. R. Vo.. 20, 1937.

— Bloss, J. F. : The History of Suakin S. N. R. Vo.. XX, Part II, 19370.

— Budge E. A. Wallas : The Egyptian Sudan, Its History and Monuments. Vol. I (London, 1951).

— Cailliauld, F. : Voyage a Méroé, au Fleuve Blanc, au della de Fazogl dans Le Midi du Royaume de Sennar, à Syouah et dans cinq autres Oasis 1819 - 1822, Tome II, III (Paris, 1826).

— Clark, W. T.; : Manners, customs and beliefs of the Northern Bega. Vol. XXI. part I, 1938.

— Combes, Edward : Voyage en egypte et Nubie dans les deserts et Beyouda, Des Bicharys et Sur les cotés et la Mere Rouge. (Paris, 1846).

— Crabités, Pierre : Gordon. The Sudan and Slavery. (London, 1933).

— Crawford, O. G. S. : The Fung Kingdom. (London, 1951).

— Deherain, Henri : Le Soudan Egyptien Sous Mehemet Ali. (Paris, 1898).

— Douin, G. : Histoire du Soudan Egyptien 1820 - 1822. Tome. I. (Le Caire, 1944).

— Douin, G. : Histoire Du Regne Du Khedive Ismail. L'Empire Africane, 3 E partie (1874-1876) Fasciale A. Tome III. Le Caire. Imprimerie De L' institute Francaise Orientale, 1941.

- Driault, Edward : La Formation De l' Empire De Mohamed Aly, De l' arabie au Soudan Correspondence De Consuls De France en Egypt. L'imprimé par l' imprimerie De l' institute Francaise D' archeolgie Orientale Du Caire Pour la Sociéte Royal De Geographie D' Egypt. MCCCXXVII, S. R. G. E., 1927.

- English, G. B. : A Narrative of the Expedition to Dongola and Sennar under the Command of his Excellence Ismail Pasha, (London, 1822).

- Gessi, Romolo : Seven years in the Soudan. (London, 1892).

- Hamilton, J. A. dec. : The Anglo Egyptian Sudan from within (London, 1935).

- Hill, Richard : A biographical Dictionary of the Anglo Egyptian Sudan. (Oxford, 1951).

- Hill, Richard : Egypt in the Sudan. 1820 - 1881 (Oxford University Press, 1959).

- Holt, P. M. : A Modern History of the Sudan from the Fung Sultnate to the present Day. (London, 1957).

- Hoskins : Travels in Ethiopia above the second cataract of the Nile. (London, 1835).

- Mac Michael. O.S.O. : A History of the Arabs in the Sudan. Vol. I (Cambridge, 1922).

- Mekki Abbas : The Sudan Question. (London, 1952).

- Numerous Authors : Agriculture in the Sudan. (Oxford University Press, 1948).

- Packler Muskau : Egypt under Mehemet Ali, Vol. II. (London, 1845).

- Pallme, I. : Travels in Kordofan. (London, 1844).

- Petherick, J. : Egypt, the Soudan and Central Africa, with exploration from Khartoum on the White Nile to the regions of the Equator. (London. 1861).

— Poncet, M. D. : A Voyage to Ethiopia (1698 - 1700) (London, 1709).

— Reid : Some notes on the tribes of the White Nile Province. S.N.R. Vol. XIII, 1937.

— Sabry, M. : L' Empire Egyptien Sous Ismail. (Paris, 1933).

— Santandrea, S. : Little Known Tribes of the Bahr El Ghazal. S.N.R. Vol. XXIX, 1948. Part II.

— Shukry. M. F. : Khedive Ismail and the Slavery in the Sudan (Cairo, 1938).

— Smith, Hempston : The New Africa. (London, 1961).

— Taylor, B. : A Journey to the Central Africa (New York, 1884).

— Terence Walz : Trade between Egypt and Bilad As - Soudan. 1700 - 1820. Institute Francaise D' Archeolgie Orientale Du Caire, 1978.

— Trimingham, J. S. : Islam in Ethiopia. (Oxford University Press, 1952).

— Walkely, C. F. J. : The Story of the Khartoum. S.N.R. Vol. XVIII, 1935.

— Wailis, O. B. E.; : Religious Confraternities of the Sudan (S.N.R.), 1921.

— Werne, F. : Expedition to discover the sources of the white Nile in the years 1840 - 1841. Vol. II. (London, 1849).

— Werne, F. : African Wanderings or an Expedition from Sennar to Taka, Basa, Bani Amer, with particular glance at the races of Belad Sudan. tr. by J. R. Johnston. (London, 1852).

— Zenkovsky : Zar and Tumbura. S.N.R., Vol. XXXI, Part I, 1950, (Paper read before the Philosophical Society of the Sudan).

الرسائل العلميـــة :

ـــ أحمد أحمد سيد أحمد : تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى ١٨٢٠ ـــ ١٨٨٥ ـــ رســالة دكتوراه (غــير منشورة) جامعة القاهرة ، ١٩٦٣ .

ـــ أبو كروق ، الناصر عبد الـلـه : تاريخ مدينــة كســلا ١٨٨٣ ـــ ١٨٩٧ . رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٦ .

ـــ أنتونى ســوريال : جهــود مصر الثقافية فى الســودان ١٨٢٠ ـــ ١٨٧٩ . رسالة ماجستير (غير منشورة) معهد البحــوث والدراســات الافريقيــة . جامعــة القاهرة .

ـــ حمــدنا الـلـه مصطفى حسن : الجيش المصرى ودوره فى الادارة المصرية بالســودان ١٨٢٠ ـــ ١٨٤٨ ، رســالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب جامعــة عين شمس ١٩٨٠ .

ـــ عبد العليم خــلاف : جهــود مصر الكشفية فى افريقيا فى عهــد الخديوى اسماعيل ، ١٨٦٣ ـــ ١٨٧٩ رســالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب جامعــة عين شمس ١٩٨١ .

ـــ مصطفى بسيونى أبو شعيشع : تاريخ الزراعة فى السودان منــذ عام ١٨٢١ حتى يناير ١٨٦٣ م . رسالة دكتوراه (غــير منشورة) معهد البحــوث والدراســات الافريقية . جامعة القاهرة .

ـــ محمد الأمين سعيد : سياسة محمد على فى الســودان ١٨٢٠ ـــ ١٨٤٩ رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعــة القاهرة ١٩٥٧ .

ـــ نســيم مقــار : أحوال السودان الاقتصادية قبيــل الفتح المصرى الأول ١٨٢٠ ـــ ١٨٢١ رسالة ماجستير (غــير منشورة) جامعة القاهرة ١٩٥٧ .

ـ نسيم مقار : احوال السودان الاقتصادية فى الفترة من عام ١٨٢١ ـ ١٨٤٨ ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، جامعة عين شمس ، ١٩٥٨ / ١٩٥٩ .

ـ يحى محمد ابراهيم : التعليم الدينى فى السودان . رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ .

رقم الايداع ٤٨١٢ لسنة ١٩٨٥



الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية

مطابع سجل العرب



